المدخل

ان الناحية المأهولة منذ القدم في سورية . هي الاسياف البحرية الكائنة بين خليج اسكندرون ، وارض مصر البحرية التي ينتهي بها حد البحر المتوسط . وهي منطقة ضيقة ، مملوءة بالعوارض الطبيعية وقد رسمت يد الطبيعة حدودها الشمالية والشرقية بصورة بارزة. وترسم هذه الحدود خطاً طبيعياً في الجهة الشرقية من ضواحي حلب ، يبتدأ من وادي الفرات الغربي ، ويمتد الى الجهة الجنوبية حيث تقطعه الصحراء بشواطئها ورمالها وصخورها الصلدة . وسلسلة الجبال شرقي بحيرة لوط تتعالى ، ثم لا تلبث ان تتدرج بالانخفاض حتى تنقلب في الجهة الجنوبية الى سهول رملية ، وتنتهي على سواحل بحرالاحمر في زاوية تفرق بين بحر اسويس وخليج العقبة .

لا يفوتنا ان البلاد السورية الممتدة من (المادغ — *Amanus*) الى سيناء على طول يقرب من الف كيلومتر ، وعرض مائة وخمسين ؛ تنقسم الى بضع مناطق من حيث العوارض الطبيعية والاقليم والتكامل التاريخي . فتوجد في الشمال ضواحي العاصي ، وفي الوسط وادي الشريعة ، وفي الجنوب شبه جزيرة سيناء . وان هذه البلاد الطويلة الضيقة لم يأهلها السكان على نسبة واحدة في كل مناطقها ، ولا في كل ناحية من تلك المناطق. حتى ان سكانها يفترقون منذ القدم باعتبار الامزجة والمعتقد الى اقسام متعددة . وقد احتفظ سكان سورية بكيانهم في الازمنة الغابرة لما كانت بلادهم مصونة من التحكم الاجنبي ، اما في حكم ما اسسوه من دول متفرقة واما في حكم دول مجتمعة .

اما سكان السواحل الذين هم اقل نفراً من سكان الداخل فقد اقعدهم العجز عن رد غارة الفاتحين الذين اكتسحوا بلادهم طمعاً في ثروتها الطبيعية ، فخسروا استقلالهم ، وخضعوا للسلطة الاجنبية ، وكانوا اسرى قوانينها .

ان الدول اللاتي تأسست في ضواحي دجلة والفرات ، وفي انحاء بلاد العجم ، وفي مصر السفلى ، واليونانيين ، والرومانيين لم يهملوا امر سورية لما اسسوا بنيان سلطانهم وعظمتهم في المشرق والمغرب . ولذلك يمكننا ان نقول بان وحدة الادارة في هذه البلاد لم تكن الا من قبل الاجانب .

اما شبه جزيرة سيناء ؛ تلك السهول الرملية المحرومة من الحياة لفقدان المياه لم تحرك احد من الفاتحين بارضها القاحلة الجرداء ، وصخورها الصماء .

ومن العبث ايضاً ان نبحث المياه في الصحراء الفاصلة بين خليج البصرة ووادي الشريعة والعاصي ، ولهذا السبب كانت بادية الشام على حظ يسير من كثافة النفوس لا يكاد يذكر .

من المعلوم ان الانسان منذ خلقته ينتقي الانحاء الخصبة الريانة ويرجحها على سواها، ويؤسس فيها الامصار والقصبات. وقد نشأت البلاد السورية تبعاً لهذا القانون. فسورية على اعظم درجة من الاهمية لانها نقطة ارتباط مصر السفلى، بسهول العراق الخصبة، وهي من اصلح البلاد في المناسبات البحرية لكثرة خلجانها ووفرة مرافئها.

انتهز الفينيقيون فرصة استعداد بلادهم بما هي عليه من الجدارة المحلية، والمواهب الطبيعية، وسلكوا سبيل الملاحة منذ ابتداء القرون التاريخية؛ ولم تكن الزراعة مهملة في ذلك الزمن على ما يظن؛ بل ان البحث عن الآثار القديمة الان اظهر انقاض طواحين، ومخازن، ومجاري مياه محفورة في الصخور، مما يدل على ان القوم اشتغلوا في الزراعة. ويحتمل انه لم يكن لسواحل سورية في الازمنة القديمة مرافئ مصونة من تأثير الانواء. صالحة للتجارة البحرية. ولذلك فقد شعر الفينيقيون بضرورة تأسيس مرافئ امينة على بعض نقاط ذلك الساحل الذي ما زال هدفاً للارياح العاصفة والامواج المتلاطمة. واليوم نشاهد في اكثر المرافئ الموجودة، بعض سدود للامواج من آثار اولئك القوم العاملين.

ان الفينيقيين الذين عملوا على عمار الساحل باصلاح بعض المرافئ الموجودة فيه، او بانشاء مرافئ جديدة اسسوا ميناء آرادوس، تريپوليس، بيريت، سيدون على هضاب مرتفعة، حيث لم تكن المسافة بين كل منها اكثر من يوم واحد، بصورة اوجدت للملاحين حين تفاقم الانواء ملاجئ عن اليمين وعن الشمال. وقد بالغ الفينيقيون في العمل لانهم على غالب الظن عالجوا الانهر الكبيرة التي تصب في البحر الابيض وجعلوها صالحة لسير السفن.

ان هذه الموانئ والمرافئ التي اسست منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة لم تزل للان قابضة على زمام التجارة السورية بالرغم عن غارات الفاتحين، وهجمات الجيوش الضخمة، والحروب الاهلية. وما نتج عنها من المحن والنكبات. وان الزلازل الصادعة التي ما زالت تستهدف هذه الاقطار في بعض الاحايين. لم تستطع تقويض تلك الآثار القديمة. وهذا البرهان المجسم يدل على نفوذ نظر القوم، واصابة آرائهم في تأسيس البلاد.

ابتدأ الفينيقيون من الطفيف، فكانوا يكسبون معاشهم ببيع محصولاتهم الزراعية، ولكن ما لبثوا ان توسعوا بالعمل فمدوا ايديهم الى محصولات العراق ولم يهملوا البلاد المصرية التي هي بلاد بحرية. واصبح شدال الزمان نحو سورية يتجولون في جميع الانحاء، ولم تعذب عن دهائهم التجاري بلاد انكلترا وپروسيا، والقوقاس، وخط الاستواء لاسيما وان الامتعة العراقية كانت مضطرة للمرور من طريق سورية لتصل الى مصر. وتجار بلاد مصر المحرومة من الغابات والاحراج، مضطرون الى تسليم بضاعتهم الى الملاحين

الفينيقيين ..وبما ان الالواح التي تصنع من شجر الارز اللبناني هي على اتم ما يرام من المتانة ، واصلح ما يكون لانشاء المراكب ، كان اولئك الملاحون يستثمرون هذه الهبة الطبيعية بجلى غاية الاعتناء والدقة .

كان الفينيقيون الذين هم سماسرة الشرق الادنى كاتمين سر حرفتهم لا يذيعونه . لاسيما تجاه رقبائهم اليونانيين . فما من احد يعلم الى اين يذهب هؤلاء البحارة الذين يشقون عباب الامواج ، ويخوضون غمار البحار ومن اى البلاد يجلبون هذه المعادن وتلك الذخائر النفيسة ؟

ما لبث الزمن الا ونبه الاقوام المجاورة ، وخلق الرقباء للفينيقيين ارباب الملايين . فتطاول اليونانيون ثم القرطاجيون على التجارة البحريه ، واحرزوا قسماً منها . فذاع السر المكتوم ، وشرع باقى الاقوام باستعمال تلك الوسائط التى كانت الحجر الاساسى فى بنيان المدينة . حتى ان اليهود لم يملكوا انفسهم دون الانخراط فى هذا السلك رغماً عما هم عليه من بساطة العيش والحياة الابتدائية لتجنبهم مخالطة الناس ، ذلك لانهم مشغوفون باستقلالهم القومى ، وهم يعتقدون ان الله خلقهم اعلى واعز من جميع الناس . نعم علم تلامذة الفينيقيين تباعاً ان للانسان وظائف دنيوية كوظائفه الدينية ، واصبحوا اليوم وفى قبضتهم ازمة تجارة العالم على الاطلاق .

وقصارى القول ان سورية — رغماً عن كثرة المعارضين — هى فى الدرجة الاولى بين الاصقاع التى عملت على اثارة الادمغة البشرية . ولا يستطيع احد ان ينكر ما لهذه البلاد التى احتوت على القدس والشام من الشأن العظيم ، فى تاريخ البشرية .

ما زال المتدينون من النصارى موجهين افكارهم الى جبل (غولغوتا — golgotha) يشغلون ادمغتهم المخمرة بالاعتقادات العويصة بقدسية تلك البقعة المباركة التى تعذب فيها آلههم الجليل ، وكل البلاد التى قطنتها اسباط بنى اسرائيل هى ارض مقدسة لديهم . ولذلك الناصرة ، وبيت لحم، وطبريا وجبل العابور وبئر يعقوب وجبل الزيتون وغيرهم من المحال المقدسة هى على جانب عظيم من المكانة فى نظر النصرانية .

وفى عصرنا ايضاً ، ما من نصرانى ، ولو كان من اكبر اصحاب المصانع ، واغنى ارباب الملايين ؛ بل وادهش الملوك المستبدين ، حتى واعدل القضاة الحاكمين ؛ الا وتعروه هزة دينية وهو على عرش سلطانه ، او فى متنزه روضته المرصعة بابهى البدايع المدنية ، فيخضع خاشعاً لذكرى تلك الارض المقدسة .

والمسلمون ايضاً يلصقون بسورية اهمية عظمى . لان السكة الممتدة الى الحرمين تبتدأ من الشام ، وبقية البلاد المقدسة التى كانت مهبط الوحى ، وموضع تجلى شرائع الانبياء العظام ، ما عدا مكة والمدينة ، هى فى هذه القطعة .

صنف للآن الوف من الآثار بشأن هذه القطعة المهمة التي خلفت في تاريخ الانسان انفس الذكرى ، وكانت معرضاً للآثار التاريخية ، والعرقية الموروثة عن امم ، وشعوب لا تحصى ؛ ومسرحاً لمختلف الامزجة والعادات وشنشنة الاديان والمذاهب ؛ ولكم جست من حسيات المبدعين اوتاراً فابدعوا اشعاراً تلس الارواح ، وتنفذ لمدب الراح .

لا نريد هنا ان نعالج تدقيق تلك الآثار والمآخذ ؛ المصنفة بلغات مختلفة ؛ بل نكتفي بذكر اسماء المهم منها في آخر صحيفة من كتابنا هذا .

ولنذكر ؛ بما ان وظيفتنا هذه مع خطورتها — كما اعترفنا سابقاً — هي على درجة عظيمة من الاهمية العلمية ، لا جرم يعسر على مساعينا في هذا السبيل ان تتكلل بالنجاح الكامل . بيد اننا بهذا المصنف الذي نافت صحائفه على الالف ؛ هيأنا للخلف سبيل حركة ممهداً ، واحضرنا لهم خطة مدمثة . ويسعدنا ، ان نرى الاخصاء الافاضل ، تلحظ مسعانا هذا بعين العناية ، تجزى خلوص نيتنا فيه بالجزاء الاوفى .

— بيروت في ١٩ ايلول سنه ١٣٣٣ ، ١٩١٧ —

المدير الثاني في المدرسة السلطانية	مدير مدرسة التجارة
محمد بهجت	رفيق التميمي



المباحث العمومية

صعبة متعذرة . وبه استطاع سكان هذه الجبال من النصيريين محافظة استقلالهم وحريتهم مدة مديدة . وجبال عكار المعدودة من سلسلة لبنان تبتدأ من يسار النهر الكبير .

أن جبال لبنان المحاذية للبنان الشرقي ، والممتدة من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، ترى من جهة البحر على غاية العظمة والمهابة وتركيبها من فحمبت الكلس ، والكلس ، والحجارة الرملية ، والكلس الصلصالي . ولها منظر ناصع البياض بسبب الثلوج التي تدوم على ذراها اكثر من عشرة شهور ، وبسبب ما تتركب منه من الكلس . وهذه الجبال تتدرج بالتعالي اعتباراً من الشاطئ فتوجد انواعاً من الدكك ؛ والسدود وتنتهي على ارتفاع ٣٠٠٠ متراً بسد يسور يفاعاً واسع الارجاء ، مستوية السطح مملوءة من الحفر المسماة « دولين » . اما الجانب الشرقي من لبنان فهو ينحدر بغتة وينساب بسرعة الى الغور حيث يبيد .

ما اخطأ الذين يعدون لبنان كاسويجره بالنظر لاوربة ، او للشرق . لاسيما ان هذه الجبال اللطيفة هي مصطاف لبلدة بيروت . والبيروتيون منهم من يذهب الى عاليه التي تبعد عنهم مسافة ساعتين ونصف . ومنهم من يتسلق الجبل الى صوفر المرتفعة عن سطح البحر بمقدار ١٢٥٠ متراً . ويصعد على هذا الجبل بسكة حديدية مسننة . كما يصعد على جبل (كولم) القريب لبلدة لوسه رن في اسويجره . وهذه المشابهة ليست في المناظر الطبيعية فقط ، بل هي محسوسة في الكد والكدح ايضاً . وهنا تتخذ الدكك ، والمصاطب على الصخر فتردم بالتراب ، ثم يغرس فيها ، او يزرع ؛ وهو عين الحال الموجود على سواحل بحيرة جنوه . او (له مان). يتسلق الخط الحديدي الواصل بيروت بدمشق . جبال لبنان الى موقع ظهر البيدر الذي يبلغ ارتفاعه (١٤٨٠) متراً ثم ينحدر بهبوط لمقطع السطح الثاني . وهناك يرى الناظر ابهى المناظر من وادي البقاع ، وانتي لبنان . ويصادف من الحرارات ، والشلالات الصغيرة ما تلذ به النواظر . ويوجد في القرى ، كما في اسويجره فنادق على تم لمراد من النظافة والمعدات . وقد كان قبل الحرب كثير من المصريين ، والامريكانيين ؛ وحتى الاوروبيين يؤمون لبنان لاجل النزهة .

٢ — الانهار

ان المياه المنصبة في البحر المتوسط هي وديان تغيض في اكثر ايام السنة . ثم تفيض بتوالي الامطار . او بذوبان الثلوج .

ومن اهمها [نهر العاصي L'Oronte] فهو ينبع من امام بعلبك ، ويجري في واد ضيق عميق ، ثم يجرب مستنقعات ، وبحيرات صغيرة ، ويمر بحمص ، وحما ، وينعطف الى الجنوب الغربي بين جبال النصيرية ، والما . فيحدث وادي انطاكية . ويأخذ هناك ماء

بحيرة العمق التي اوجدها نهر عفرين الناشئ من جبل بركت . ثم يمر بفيضه المزيد على عارضة صخرية فيتخطاها حيث يندلق في البحر المتوسط . وهذا هو أهم نهر يوجد في القسم الشمالي من سورية

ان الجداول الموجودة في لوائي طرابلس واللاذقية هم على ما يأتي :

قنديل — ينصب في البحر قريباً من قرية صليب التركمن عن مسافة ثلاث ساعات من اللاذقية .

فرشيش — منبعه في جبال باير ؛ وينصب على البحر في (راس البسيط) الكائن في منتهى الحد الشمالي للواء اللاذقية .

النهر الكبير — ينبع من جبل الاقرع في قضاء جسر الشغور التابع لولاية حلب . ويمر بناحيتي باير ، وبوجاق من اعمال اللاذقيه ، وينصب في البحر ع ماقة ساعة عنها .

صنوبر — يخرج من جبل الكلبيه ، وينصب في البحر قريبا من قرية صنوبر في قضاء جبله .

المضيق ، روس — يخرج من هذه الجبال وينصب في البحر قريباً من جبله .

برغل — يخرج من محجر يسمى بالشيخ حسن في قرية كمرون من توابع ناحية حذور ، وينصب في البحر جنوب جبلة .

نهر السن ، او الابتر — يخرج من جبل الكلبية ويلاقي البحر قريباً من قرية عرب الملك التابعة لجبله ، وبناء على وفرة مائه ، يمكن ان تسقى منه جميع الاراضي المجاورة له .

حريصون ، ومرقبه — يخرج من جبال الكلبية ، وينصب في البحر قريباً من المتن ، وزمزين شمالي بانياس .

النهر الكبير — ينبع من الجانب الشرقي لجبال لبنان ، ويفصلها عن جبال النصيرية وينصب في البحر بين طرطوس وطرابلس الشام ، وان مجرى هذا النهر هو اصلح ممر يدخل منه من ساحل سورية الى الداخل .

نهر ابو علي — يخرج من جبل لبنان ويدني انحاء طرابلس الشام ، ثم يمر من قصبتها فيفرقها قسمين وينصب في البحر .

—٣—

الاقليم

ان القروي الجاهل عندنا ، يظن ان استعداد النبات في اراضيه لا يتناهى . ويعتمد على اقليمه اعتماداً اعمى . مع انه يهاب الجدب ، ويعده من نقم القضاء . ولكن لا يحفز

لوسيلة تخفف مصابه . فيثابر على صبره الجامد ، وتوكله الباطل ، مهما توالت المصائب ، واخذ الجدب المميت بخناق بلاده . اذ من رأيه القائل ، ان القضاء لا يدفع ، والطبيعة لا تحارب .

يدعي ذوو الآراء الصائبة من المؤلفين ان الاحوال الاقليمية في سورية لا تزال تتبدل قائلين :

يشاهد اليوم في ضواحي الشريعة مجارٍ شتى لانهار غائضة ؛ وقد برهن الفحص الفني على ان سطح الماء في بحيرة لوط لا يزال على تخفض متوالٍ . ولا يسوغ ان يعطف هذا الحال على كثرة التبخر في المياه . بل يجب ان يحمل على قلة الامطار ؛ نعم ان الري في سورية وعلى الاخص في القسم الوسطي منها هو على نقص متتابع . وهذه التحولات الجوية اوجبت نقص مقدار المحصول السنوي من الحبوب في قطعة فلسطين . ولكننا نرى غير هذا الرأي : لان المحصولات النباتية في بلادنا كانت موجودة في زمن مهاجرة العبرانيين ، اي في منتصف القرون الاولى . و لتحولات الاقليمية التي يدعيها علماء الطبقات لا جرم كانت قبل ما هو معلوم لدينا من التاريخ البشري . وعليه يجب ان يحمل نقص المحصولات الزراعية وانحطاطها ، على عدم مساعدة الاقليم من جهة وسماجة اصول الزراعة من جهة اخرى . لا ننكر ان عين الاصول ونفس الالات الزراعية كانت تستغل محصولاً اكثر مما تستغل اليوم ولكن لا ننسى ان هذه الاراضي التي ما فتئت تستعمل على وتيرة واحدة منذ زمن العبرانيين قد اضاعت قسماً عظيماً من المواد العضوية ، والمعدنية اللازمة للنبات . فاذا لوحظت هذه النقطة ينكشف سر التفاوت الموجود بين محصول اليوم ومستغل العصور الاولى .

تفصيل الوجهة الفنية من الاقليم :

الحرارة — ان الدرجة الوسطى من الحرارة تزداد بنسبة الابتعاد عن الساحل ، وبالاقتراب من رمال الصحراء المسعرة ، اعتباراً من سهول البقاع .

تبلغ الحرارة في يافا ايام الصيف الى ٤٢ درجة على الاكثر . ولا ينقص حدها الوسطى عن ١٢ درجة . اما في بلدة بيروت الكائنة في الجهة الشمالية تكون الدرجة العظمى من الحرارة ايام الصيف ٣٥ درجة ؛ واصغر ما تكون في ايام الشتاء ٣ درجات ، والدرجة الوسطى من حرارة السنة الماضية هي ٧ درجات .

ان الشتاء في سهول البقاع يكون شديداً . ويدوم الثلج هناك اكثر من ثلاثة شهور . وربما تحرم هذه البقعة من كمال الربيع ولطافته . ولهذا يزرع حب السليط (السمسم) في اكثر انحاء سورية ، ولا يستطاع زرعه في السهول المذكورة . لان ارتفاعها بمقدار ٨٠٠ متراً اوجب هذه الوضعية الطبيعية .

اما سهول الشام المرتفعة بمقدار ٧٠٠ متراً ، تفترق عن فلسطين باعتبار المواسم . لان شتائها اشد من شتاء بيروت ، وكثيراً ما تصعد الحرارة فيها ايام الصيف الى ٣٨ درجة . اما حوران فهي اشد شتاء وصيفاً من فلسطين ، وتفترق عنها كالشام ، في مواسم الزراعة. وهنا تبلغ درجة الحرارة في الصيف ٤٠ وتنخفض الى ٨ ونصف في الشتاء .

ولهذا نجد سورية تنقسم باعتبار الحرارة الى منطقتين ، توجد في القسم الاول ديار فلسطين ، وبقاع حوران ، وسهول الشام . وفي الثاني سهول البقاع وحدها . والمفرق لهاتين المنطقتين عن بعضهما ، هي قابلية زرع السمسم .

الامطار — لاسعادة لمن له اراضي تسقى من القرويين الا بنزول الغيث بصورة منتظمة ، فاذا امسكت السماء ، او كان المطر غير كاف ؛ يزعمون ان ويلهم منه ؛ وانهم لمخطئون ؛ اذ قد يمكن الانتفاع من المكان المعطش بحسن التدبير ، والاهتمام . فكم من مواد تستحصل في هكذا بقاع ، لاتوجد في الانحاء الريانة . وسكان هذه الاقاليم يستبدلون تلك المحصولات النادرة بما يحتاجون اليه من المواد الغذائية ، وذلك بتوسط التجار . ولا نرى لزوماً لايضاح ما لتلك المحصولات من الاهمية والرواج في ميدان التجارة .

ومن جهة اخرى ، ان القحط الذي يصيب سورية في بعض السنين لايكون عن عدم كفاية الامطار ، بل هو عن عدم الاقتدار لاستخدام تلك المياه على وجه نافع لان مقياس المطر يرى ان كمية الامطار التي تهطل في الانحاء السورية تتراوح بين ١٨٠و — ٢٫٢٥ متراً . وبهذه الدرجة لاتكون بلادنا ادنى رياً من اكثر البلاد المشهورة بوفرة الري . ولكن المياه لاتغيص تنفذ لبطن الارض ، بل تتراكم وتبقى على سطح السهول الرملية [illegible] ، حتى تقتحمها حرارة الصيف فتستحيل بخاراً ، ويحرم النبات من الانتفاع بها .

ان لبلادنا التي هي معرض للغرائب ، حالاً خاصاً بالنظر للامطار . فان سعادتها ورفاهية ابنائها لاتكون الا بتوزيع المياه المطرية على الاراضي ؛ والمياه عينها تكون السامة العظمى على الصحة العامة ، بما تحدثه من المستنقعات الوبيلة .

لاجرم ان موسم المطر في سورية غير مناسب من الشهور . فلا تغاث حروثنا الا من اول تشرين الثاني الى منتصف نيسان ؛ ثم تبتدأ اليبوسة ، وتزداد بصورة توالية ولقد مر اكثر من نصف السنة وسماؤنا خلو من السحاب . وهذا التشوش لايزال يستلفت انظار [illegible] على ان [illegible] بسبب الاقحاط كما يرى لاول وهلة فان سهول الشام [illegible] بما [illegible] الله من هذا الجدب . وان الامطار الغزيرة المشبوعة بالمياه لوافرة هناك ، خلقت تلك السهول الرياض الزاهرة ، والحدائق الغناء .

اما في المناطق الاخرى ؛ يمكن اذلال الجدب المذكور ، بتبديل نوع الزرع . وهذا

التدبير ينجح فى سهول البقاع نجاحاً كاملاً . وفى حوران يمكن ان يكون ٥٠—٦٠ فى المأة. ويشكل تطبيقه فى سواحل فلسطين ويتعذر فى جبالها. لان ارض البقاع وحوران مكونة من طبقات خفيفة عميقة . تحتها طبقة كثيفة من الاحجار الكلسية الصلبة . ومياه الامطار تنفذ الى تلك الطبقة، وتجتمع فيها ؛ حيث تكون خزينة للنبات يستمد منها ايام الصيف الرى الذى ينشؤه ويحييه . اما فلسطين، فان ارضها البور "*"، وطينتها الصلصالية محرومة من تلك الخصيصة، ولذلك يبيد جميع ماء المطر فيها بالتبخر .

ان علو القطاع الحورانية والبقاعية يخفف وطئة اليبوسة بحالين . الأولى ؛ ان الثلوج التى تسقط على هاتين المنطقتين لغاية فصل الربيع ، لا تلبث ان تذوب بتأثير الحرارة ؛ فيجرى ماؤها على وجه السهول حيث يودى بيبوسة التراب .

والثانية ؛ ان الرياح الباردة التى تهب من شواهق الجبال القريبة ، ربما اقلت بخاراً مائياً ، واوجبت نزول المطر ، فى ذاك القطر . اما فى فلسطين فما من رى ، ولا نسيم بليل ، لان الحرارة هناك ، فى الدرجة العظمى .

— ٤ —

طبيعة التراب فى سورية

ينقسم قشر الارض باعتبار التشكلات الطبيعية الى طبقات متنوعة . وجوهر هذه الطبقات ليس من مادة واحدة ؛ بل اكثر مواد معدنية تتركب منها على حدة . ولقد يشاهد هذا الحال فى نقاط مختلفة لارض واحدة لدى فحصها . مثلاً يكون التراب يرمعبا (تبشيرى) فى نقطة ويكون فى الاخرى رملياً ، وفى غيرها يتركب من الحصباء ، والمرمر وغيرها من الاحجار وهذه من الحقائق التى برهن عليها المحص الفنى .

ما تتضمنه الاراضى من المواد المعدنية ، يكون تارةً افقياً ، واخرى عمودياً ، وآونة منحنياً ، واكثر ما ترى على شكل طبقات مرتبة بعضها فوق بعض . وهذه هى الصخور الارضية .

هذه الصخور اما ان تتكون من مادة واحدة ، كالحجر الكلسى ، وصخور الملح . او من مواد متعددة كتركب حجر غرانيت من معادن قوارس ، فلدسيات ، وميقا . وعليه ان الصخور اما تكون بسيطة او مركبة ، والطبقات المتنوعة التى تحدثها هذه الصخور تكون على انواع متعددة من حيث التربة . واشكال هذا التراب معروضة للتبدل الدائم . وذلك بتأثير الحرارة ، والهواء بصورة متنوعة ودائمة

والتراب الزراعى الذى هو اساس هذا البحث ؛ ما هو الا ذرات لتلك الصخور — تجزأت ، وتفتتت بتاثير الحراره والهواء —.

لا تكون طبيعة التراب على نسق واحد فى كل مكان ؛ بل يختلف تأثيره على النبات باختلاف كمية المواد المعدنية التى يتركب منها وكيفية خواصها الحكمية والكيموية .

يمكن تقسيم اراضى سورية بالنظر لطبيعة التراب والتشكلات الطبيعية الى ثلاثة اقسام مستقلة .

الاراضى اليرمعيه (تباشيريه) Terrain cretacés
الاراضى البركانية « « Volcaniques
اراضى الدور الرابع « « quaternaires

يندر ان توجد فى اراضى سورية آثار للدور الثالث ، وان تلك الاتربة التى توجد مبعثرة فى الانحاء الشمالية والجنوبية مؤلفة من الكلس والسبليس يعثر عليها فى تلال الجليل والسامره من اعمال فلسطين .

الاراضى اليرمعية (تباشيريه) — تتألف هذه الاراضى من سلسلة تلال حصبائية ، محدودبة الطبقات ؛ ممتدة من الشمال الى الجنوب . ويوجد فى منتصف هاتيك التلال وادى الشريعة المعروف بخصبه ، وجودة انباته ؛ وهناك سهول منسوبة للدور الرابع ، على غير انتظام بالتشكل ، تقطع هذه المنطقة عرضاً . وتوجد شرقى هذه السهول قطعة حوران الخصبة ، وغربها سهول معوجة تنتسب الى الادوار الحديثة . اما سهل الجليل فهو محاط بسهول البقاع من الجهة الشمالية ، ويختلط من الجنوب بالسامره بواسطة منطقة حودا التى تنتهى على حدود صحراء التيه المرملة .

يندر فى الجليل والسامره وجود الطبقات اليرمعية (تباشيريه) التى تشاهد فى منطقة حودا الجبليه . وحال هذه الانحاء على الاطلاق تتكون من طبقات الحجر الكلسى ، والصلصال الكلسى الابيض .

اما الصوان الذى يندر وجوده فى الجهة الشمالية والوسطى ، يوجد منه فى الجهة الجنوبيه بمقدار وافر . وبينما لا يوجد منه شئ فى جبال الناصرة ، تراه فى جيزيملاء السهل والوعر .

ان حجر الكلس الابيض يوجد احياناً مخلوطاً بفحمية الكلس ، او بالكلس الكثيف وربما تدخل فى التركيب الاول بعض مواد قادرة فتحيل اللون الى سواد لطيف ، ويسمى هذا النوع بحجر موسى . وهذه عناصره .

فحمية الكلس	٦٨،٧٣
فحميه المانغنزيه	٠،٢٧
القار	٢٥،٠٠
الرسوب الترابى	٦،٠٠
	١٠٠،٠٠

للصخور الكلسية احجار من غير هذا النوع كثيفة تميل بلونها للزرقة ، تحتوى على محجرات من صغير النبات والحيوان ، كما يصادف منهـا فى انحاء نابلس . والاحجار الكلسية فى منطقة جوده ، عظيمة الحجم ، تتفتت لدى الكسر ، كثيرة المحجرات . والهضاب المطلة على خليجى ، عين الغوير ، وعين ترابه هى من نفس هذا التركيب . يعثر على خطوط صوانية فى ذرى جبل الزيتون المؤلف من الاحجار الكلسية. وخلاصة القول : ان الاراضى اليرمعية (التباشيريه) فى سورية تتأسس على احجار كلسية صلداء ، ثم فوقها احجار كلسية لينة ، تميل بلونها الى البياض ، ثم تعلوها طبقة يرمعية يخالطها حصى الصوان وفوق كل هذه الطبقات طبقة من احجـار الكلس ، اما بحالة لتراب ، او بشكل صفائح

ان انحاء الاحراج ، جعل تلك الربى جرداء ، حيث لا حائل للجبس الترابى . لدى تساقط الامطار ، اذ يجره السيل من اعالى تلك الربى ، ويهوى به الى الاوديـة ، فتنكشط الطبقة الترابية ، عن الصفائح اليرمعية ، وتصبح قرعاً جرداً ، لا شجر ولا ماء . على ان التراب الكلسى الذى يتراكم على اذيال الجبال ، لا يلبث ان ينهال على الاودية فيزيد [illegible] انباتها . ويعوض جدب الذرى ، بخصب الاذيال .

الاراضى البركانية — بدأت الاندفاعات النارية فى الدور الثالث ، ودامت فى الادوار البدائية للتاريخ ايضاً كما ورد فى التوراة . وان الزلازل التى ما زالت تحدث فى هذا العصر ، والينابيع الحارة المعدنية التى ما فتئت تفور ؛ تدل على ان السيال النارى فى قلب الارض لا يزال على هياج .

ان الاراضى فى الجهـة الشرقية من وادى الشريعة هى من هذا النوع ، وهى واسعة جداً ؛ ومنطقة حوران كلها اراضى بركانية . اما فى الجهة الغربية من هذا الوادى لا يوجد الا مقدار محدود من هذه الاراضى فى منطقة الجليل ويدخل فى هذه المنطقة من المحدر جبال صفد ، وهضاب الشاغور فى قرب طبريا ، وجبل الطابور الكائن على طريق الناصره — طبريا .

ان المواد النارية المتصلبة التى تمـلوء تلك المناطق البركانية ، هى من نوع البـازالت . وعناصرها ، على ما رواه الدكتور آندرسون — *Anderson* هى :

آلومين	١٤٠٦٢
متحمض الحديد	٢٣٠١٥
فحمية الكلس	١٢٠٧٠
ماغنزيه	٠٧٠٠١
سيليس	٣٨٠٤١
القالى	٠٣٠٤٢

وبما انه يوجد فى تلك الاراضى ، ما عدا هذه المواد ، حامض الفوسفور ، والپوتاس ، والكامر . تكون هاتيك الانحاء صالحة لزرع النبات المنسوب للفصيلة النجلية ؛ واكبر سبب لجودة القمح الحورانى كثرة هذه المواد .

ان صخور البازالت التى هى اكمل نموذج للاراضى البركانية ترى على شكلين :

(١) صخور منطقة جولان ؛ يسيرة الجروف *él, arie* بذرات كثيفة ، ولونها اسود يقرب من الزرقة . ويوجد فيها كثير من بللور الزبرجد الاصفر ؛ ولا تأثير لها على الابرة المغناطيسية .

(٢) صخور حوران ؛ تفترق عن الاولى بجذب الابرة المغناطيسية فقط .

وهذه الصخور ، اما ان تزيد استعداد الانبات ، او تبيده ، وذلك باختلاف كيفية تشكلها .

ان طبقات الارضى الجرداء المحصبة الواقعة بين طبريا وبانياس . هى عبارة عن صخور بازالتيه صماء . لا تصلح لان ينتفع السكان من استثمارها . على ان البازالت يكون فى السهول قطعاً تختلط بالتراب الناعم ، فتصبغ الاديم بالسمرة ، وتجعل تلك الاراضى غنيـة بالمواد المعدنيـة . مستعدة للانبات على غاية ما يرام . والانحاء المزروعـة من ديار لجا الصخرية فى ولاية سورية ، هى من نوع هذه الاراضى . ويفـاع حوران . هى احسن نموذج للاراضى البركانية فى سورية .

اراضى الدور الرابع — لقد يعسر تعيين هذه الاراضى وتشخيصهـا . اذ لا يعثر على متحجرات تنسب اليها من جهة ؛ وتاريخ حدوث التحول الاقليمى . الذى يحد ذلك الدور ويعرف مجهول من جهة اخرى ولا تزل الافاعيل الفاصلة التى تفصل الدور الثالث عن الدور الرابع ملتبسة ، غير واضحة ، الا فى بعض الانحاء . مثلا ان تلك الافاعيل هى على اتم الوضوح ، فى الاراضى الرملية الحمراء المغروسة فيهـا بساتين الليمون فى يافا ؛ وفى السواحل الشمالية ، والجنوبية لقصبة بيروت المكونة من الاحجار الكلسيـه . وكثيراً ما يعثر على تشور حيوانانية قديمة ، تشاهد حيواناتها اليوم .

نرى ان سواحلنا لا تزال تتعالى ؛ وتحاذيها ارصفة تتركب من صخور الرمل الصامة فالصخور الموجودة امام يافا وعكا وطرابلس الشام هى من هـذا النوع . اما الكثبان التى لا تزال تتكـون على الساحل ، كادت تصل الى درجة تجعـل القصبات تحت خطرها

وقد قلنا فى كتابنا (القسم الجنوبى) [يذكـر ابناء المعرفة والوقوف من المتتبعـين للتاريخ انه كان شرقى قيسارية محلات للاستراحة على مسافة سبعة كيلومترات او ثمانية فكانت النساء الرومانيات يخرجن اليها ويمضين مدة القيلولة فيهـا ويلتجئن الى تلك الظلال اتقاء من الحر وقوارص الشمس ، وكم للادباء من المـدائح والتحيلات فى تلك

الظلال . ولو نظرنا اليوم الى تلك الجهة لا نجد فيها الا اكثبة رملية متحممة . ويؤخذ من المنقولات التاريخية ان الاكثبة التاريخية الممتدة على عرض ستة او ثمانية كيلو مترات على طول السواحل الفلسطينية هي نتائج الصين من السنين . وقد ثبت بالارقام المحققة ان المساحة السطحية للاكثبة السيارة في فلسطين يبلغ مليون دونم وتبلغ مساحة الارضي التي تستولى عليها الرمال سنوياً . وتحرم الزراعة منها الا اقل من خمسة آلاف دونم] . (*)

وقد غرست احراج الصنوبر قرباً من بلدة بيروت لتكون حائلاً لتلك الكثبان السائرة .

يعلم من هذه الابحاث ان اراضيها تتنوع في موادها وان تلك الاراضي التي تكونت بتأثير مؤثرات متنوعة يمكن فصلها الى قسمين ؛ فالقسم الاول يغلب في تركيبه الصلصال، والقسم الثاني يكثر فيه حمض سيليسيوم . فالاراضي اللحتية Alluvion في سهول البقاع والاعمام المعروفة بخصبها ، هي على طبقات لينة بعكس ارض ذات طين فانها صلبة . وخاصية الانبات فيها ضعيفة .

وقصارى القول : ان ارض فلسطين تختلف عن ارض سورية بالنظر لرطوبتها ، وتكوينها الطبيعي ولهذا يحس في ارض كنعان بوطأة ايام البحر المتوسط المعروف باليبوسة الدائمة ابان الصيف .

تنقسم ارض فلسطين الى قسمين :

(١) سيف البحر : وسهوله مكونة من حمض سيليسيوم . والصلصال Argileuse .
(٢) الاراضي البرمية . وهي عبارة عن تلال كلسية .
اما قطعة سورية الاصلية ، فهي تنقسم الى ثلاثة اقسام .
(١) وادي الشام المتكون من الاراضي اللحتية ، الذي يسقى معظمه من نهر بردى .
(٢) اراضي حوران البركانية ، التي هي اقل يبوسة من فلسطين .
(٣) سهل البقاع ، المؤلف قسماً من اراضي تركيبها الصلصال وحمض سيليسيوم وقسماً من احجار كلسية متنوعة المدور البرمي ويكون موسم الشتاء فيه شديداً امثاله ، بسبب ترفعه عن سطح البحر .

---

* ولاية بيروت — القسم الجنوبي ص : ٤٨

— ٥ —

النفوس

ها نحن نبين مقدار عموم النفوس في القسم الشمالي، على ما نطقت به القيود الرسمية .

١٧٦٥٢٥ — لواء طرابلس الشام	مركز قضاء طرابلس الشام	٦٦٥٤٨
	« « عكار	٤٢٣٦٣
	« « صافيتا	٣٧٩١٣
	« « حصن الأكراد	٢٩٧٠١
١٤٧٦٩٨ — لواء اللاذقية	مركز قضاء اللاذقية	٥١٢٥٩
	« « مرقب	٣٤٨١٦
	« « صهيون	٣٢٩٧٢
	« « جبله	٢٨٦٥١
٣٢٤٢٢٣ يكون		

بالنظر لكون المساحة العمومية ١١٧١٩ كيلومتراً مربعاً، والنفوس المخمنة ٣٢٤٢٢٣ نسمة، فيكون نصيب كل كيلومتر مربع ٢٧و٦١ نسمة. واذا اضفنا اليه مجموع نفوس القسم الجنوبي (*) وهو ٥٧١٣٧١ نحصل على ٨٩٥٥٩٤ وهو العدد الذي نطق بمجموع

(*) وقع خطأ في جدول النفوس المقيد في الصحيفه ٨٨ من المجلد الاول، وهذا صوابه :

٢٧٦٦٣٩ — لواء بيروت	مركز قضاء بيروت	٥٠٠٠٠
	« « صيدا	٥٤٠٠٠
	« « صور	٤١٢٤٠
	« « مرجعيون	٣١١١٥
١٢٩٢٦٩ — لواء عكا	« « عكا	٤١٣٢٢
	« « حيفا	٣٠٧٣٠
	« « صفد	٣٢٢٣٧
	« « طبريا	١٤١٩٠
	« « اصره	٢٠٧٩٠
١٥٥٤٠٣ — لواء نابلس	« « نابلس	٧٧٦٤٩
	« « بني صعب	٣٥٨٠٩
	« « جنين	٤١٩٠٥
٥٧١٣٧١ يكون		

نفوس الولاية .

ان سكان الولاية كما فصل فى البحث الخاص هم عبارة عن المتاولة ، والدروز ، والاسماعيليين ، والنصيرية ، والروم الاورتودقس ، والمارونيين ، والقاتوليك . والپروتستان ، واللاتين ، والارمن ، والسريان ، والكلدانيين ، واليهود ، والسامريين .

فى القسم الشمالى :

٢٥٤٧٧٢	المسلمون (*)
٧٣٣٧٩	النصارى
٧٢	اليهود
٣٢٦٢٢٣	يكون

وفى القسم الجنوبى :

٤١٥٧٥٦	المسلمون
١٤٠١٠٤	النصارى
١٥٥١٣	اليهود والسامريون
٥٧١٣٧٣	يكون

بناء على هذا ، يكون المسلمون ٧٤٫٨ والنصارى ٢٣٫٥٥ واليهود ١٫٧ فى المائة بالنسبة لمجموع عدد النفوس .

وعدد غير المسلمين فى الالوية هو على ما يأتى :

١١٣١٥٠	لواء بيروت
٥٩٤٨٨	« طرابلس الشام
٣٨٥٨٩	« عكا
١١٩٦٣	« اللاذقية
٣٨٧٨	« نابلس
٢٢٧٠٦٨	يكون

ان هذه الارقام المنقولة عن دوائر النفوس ، وان لم تكن جديرة بالاعتماد ، غير انها تخدم لانارة ذهن القارئ بكمية منتسبي الاديان فى الولاية . ان معظم اليهود على قلة عددهم، يسكنون فى لوائى بيروت وعكا . ويوجد منهم فى قضاء صفد ٦٠٧٥ وفى قضاء طبريا ٤٢١٠ وفى بلدة بيروت ٢٧٨٤ وفى قصبة حيفا ١١١٧ نسمة . وما بقى منهم يسكن فى سائر الولاية فى انحاء متفرقة .

(*) الدروز والنصيرية معدودون من المسلمين .

جاء في سالنامة الولاية التي طبعت سنة ١٣٢٤ ان مجموع نفوس الولاية هو « ٦٨٠٠٦٥ » منها ٥٥٣٥٢٥ مسلمون ذكوراً واناثاً؛ و٥٥٢٠٧ من الروم الاورثوذوكس و٣١٤٤٦ مارونى و٢١٦١٢ كتوليك و٢٢٨٢ پروتستان و١٢٤٤ لاتين و٤٥٧ ارمنى كتوليك و٨٤٠ ارمنى قديم و٤٢٢ سريانى و٢٠ كلدانى و١٢٨٣٢ من اليهود و١٧٨ سامرى. وعليه تكون نفوس الولاية ، ازدادت من ذلك التاريخ للآن مقدار ٢١٨٥٤٩ نسمة» فاذا طرحنا منها الوفيات التى حدثت فى تلك السنين الثمانية ، بموجب الارقام التى اطلعنا عليها وهى ، ٩٥٢٥٦ نسمة» ، يكون حاصل الطرح ١٢٢٢٧٢ وهو مقدار زيادة النفوس، وبذلك يكون ربح الولاية منها ١٥٢٨٤ فى كل سنة . ومع الاسف ليس فى امكاننا الآن ان ندعى وثوق هذه الارقام .

— ٦ —

السكان

سبق ان بينا فى الجلد الاول ان سكان سورية تنقسم من حيث القومية الى عرب وترك وسريان ، وجركس ، ويهود ، وفرانك ، وقد تكلمنا هناك عن جميع هؤلاء ماعدا الاتراك . والآن نبحث هنا عن التركمان المتوطنين فى القسم الشمالى من ولايه بيروت . والمنتسبين فى العرقية الى الجنس التركى . ونتكلم عن اصلهم ومنشأهم . وكيفية . وزمان قدومهم الى البلاد السورية.

التركمان

[١] — **اصل التركمان ومنشأهم** — التركمن : هم اقوام يقطنون صحراء التركمن الواقعة بين بحيرة آرال ، وبحر خزر ، واكثرهم من سكان الخيام ؛ وهم من اكبر قبائل الترك . من الضرورى ان نسلم بان التركمان من صميم الاتراك ؛ وان نعد تاريخ هؤلاء القبائل المعروفين باسم (الاتراك الغربيين) لسبب توطنهم فى الجانب الغربى من بلاد الترك فى آسيا الوسطى ، قديماً كتاريخ بقية الاتراك. هذا وان ادعى بعض المؤلفين (*) ان التركمن هم من القبائل التى اتت من بلاد فارس وتوطنت فى تركستان ، وانهم ليسوا من صميم الترك ، بل هم من المتتركين ، والمتشبهين بالاتراك ، بدليل ان كلمة تركمان ، وتوكمان معناها ، بالفارسية « شبه الترك » . بيد انه ليس لدينا دليل يبرهن على صحة هذه الرواية وبالعكس ان لنا من البراهين ما يدل على عدم صحة هذا الادعاء وبطلانه . ومما يجدر بالذكر من الادلة فى هذا المقام لغة التركمان واوصافهم الطبيعية . انه وان يكن توالى الازمان

(*) راجع كلمة Turcoman من (Bibliothèque Oriental d'Horbelot) .

احدث فى سحنائهم ، وهيأكلهم بعض التبدل والتحول فابعدهم عن المغولية ، وقربهم من العرق القوقاسى لكنهم لا يزالون مجهزين باظهر خصائص الاتراك ، واوصافهم ، مثلاً (*) بالرغم عن طول قاماتهم ، ان جماجمهم كروية ، ووجوههم واسعة ، وعظامها ناتئة ، وعيونهم براقة ، وانوفهم قصيرة قطساء ، وشفاههم غليظة ؛ صفر البشرة وشعرهم اسود كث خفيفو شعر اللحى ، و آذانهم منتحاة ، وزيادة على هذا ان تقارب جواهر الالفاظ فى اللغة التركمانية لكلمات اللغات التركية ، بل وعينيتها مما لا يدع شكاً فى ان التركمان هم من صميم الجنس التركى . ومع ذلك ، يجب ان نمعن النظر فى درس هذه المسئلة وان لا ننسى ان هؤلاء القوم لا يزالون حاملين هـذا الاسم . من المعلوم (**) ان الاتراك كانوا ، فى القرون التى لم تدخل حوزة التاريخ ساكنين جبال الطاى ؛ المعروفة عندهم بجبال الذهب ثم انتقلوا من هناك وحلوا يتجولون فى صحراء تركستان ؛ تلك الاصقاع المتسعة التى تحاط من الجهة الشرقية بخطاى ، اى الصين الشمالى ، ومن الغرب ببحيرة آرال و (خوارزم *Kharezm*) ومن الشمال بسبريا ، ومن الجنوب بتيبت ، وبخـارا الكبيرة . ثم لم يلبثوا ان اتخذوها موطناً وسكناً لهم .

ان قدامى الفرس الذين جعلوا اسم (ايران) لبلادهم ، مقابلاً لتعبير (آنيران) ، اى غير ايران . وضعوا اسم (توران) للانحاء الواقعة على يسار نهر جيحون المعروفـة الان بتركستان . لا جرم ان الاسهاب فى تاريخ الاتراك والتورانيين القاطنين بلاد توران لايدخل تحت بحثنا الآن ، ولكن نضطر لان نأتى بنبذة منه لنعلم كيفية انشعاب التركمانيين من الاتراك .

فالتورانيون ذوو الصيت الطائر فى وقائعهم وجسارتهم اقتحموا المسافات الشاسعة فى قارة آسيا على طولها ، وكانوا اصدق ناقل لمدنية الصين والبيزانسيين ، وامهر ناشر لحضارة العرب . وتاريخ حياتهم يجب ارجاع النظر فيه الى بضع آلاف سنة .

اشتهر الاتراك فى تلك القرون الخالية ، باسماء مختلفة . لدى مشارق الارض ومغاربها ؛ وكانت حكوماتهم اذ ذاك نموذجاً فى السلطان ؛ وقوة الشكيمة .

ان الامم العظيمـة التى ذكرها هيرودوت ، المؤرخ اليونانى باسم (تارژتـاوس) ، و (توغارما) التى ذكرت فى التوراة ، و (هيونغنو) ، (توكيو) و(توكوئه) المعروفة لدى الصينيين القدماء ما هى الا من الامم التركية . و(الهون) الذين زلزلوا اوروبا ايضاً كانوا من التورانيين .

فاذا لاحظنا ان « الحتيين » الذين يروى انهم افتتحوا آسيا الصغرى فى الازمنة القديمة اتراك ، واطلعنا على ما جزم به علماء خصائص الشعوب من ان المجريين والبلغاريين اتراك

(*) راجع كلمة تركمان من [Nouveau Larousse illustré] .

(**) مترجم ها مر . محمد عطا ج ١ ص ٥٠

الجنسية ايضاً ؛ نحصل على مسكة من الفكر باهمية هؤلاء القوم الذين هم من اقدم واعظم امم الكون . لاسيما ؛ اذا علمنا ان النفوس التى تدخل فى اسم الامم التورانية تجاوز فى العدد مائة ميليون ، تجلى لنا مكانة هؤلاء القوم وقيمتهم التاريخية .

على اننا لا ننكر ان تاريخ التورانيين ما هو من الوضوح على درجة تليق بهذه المكانة. وان رادلوف،طومسون ، وامبه‌رى وامثالهم من علماء العصر الحديث لم يألوا جهداً فى التنقيب عن تاريخ الاتراك ، واستنباط بعض اقسامه ولكنهم ما استطاعوا ان يقشعوا عنه غياهب الابهام ، ولذلك يعسر ابداء الرأى الصادق فى حقيقة شعوب الاتراك ، وفى كيفية انشعابهم ودرجة مناسباتهم ، وعلى الخصوص فى مدنيتهم القديمة . اذ ليس لدينا من الحقائق ما نستطيع بها انتقاء اصدق الحديث من اقوال المؤامين المتضاربة ولهذا السبب اننا ستوخى الظلمة حين جمع الروايات المختلفة التى تبحث عن مركز التركمان ، تجاه الاتراك وعن مناسباتهم .

يقول ابو الغازى مؤلف الشجرة التركية « ان شعوب الاتراك القديمة عبارة عن قيجاق ، اوبغور ، قانقلى ، قال آج وقارلق » فالاسمان الاولان هما اساسان . ولفظة « قيجاق » هى كلمة قديمة تتركب من هجاء واحد ومعناها « بلقع » . وكلمة (قوبى) التى يستعملها المغوليون هى من عين المعنى . اما كلمة (اويغور) فهى باللغة التركية القديمة ، ولغة المغول وماجو مشتقة من مصدر (اويمق) ، الذى معناه (التوحد والتجمع واتباع نظام واحد والارتباط بالقانون) . وعليه تكون كلمة قيجاق مختصة بسكان السهول الخالية ، واما (اوبغور) اى (المتمدن) فهى لقوم مجتمعين متحدين يخضعون لقانون . وكلمة (قانقلى) معناها « ذوو المركبة » . اما كلمة « قالاج » فصعب تعيين معناها الحقيقى لانها مكتوبة باشكال مختلفة فى نوعى الكتابة التركية وقد كان الاروام يكتبونها فى العصر السادس من الميلاد بصورة (خالياته . ونرى ان كلمة (قيليج) التركية ظاهرة فى هذا اللفظ . ولفظة (قار) الموجودة فى كلمة (قارلق) لا تزال اليوم مستعملة فى اللغة التركية .

من المحقق ان الانسال التركية تنقسم الى خمسة شعوب . منها ثلاثة سموا انفسهم او سماهم جيرانهم باسماء معناها (البادون والمتمدنون،ذوو المركبات) . وهى ليست باسماء رؤساء ولا اسماء شعوب . لاسيما هذه الاسماء الثلاثة فانها تدل على نسق عيش القوم وعاداتهم القديمة . (*)

لقد بين جهانما اشهر قبائل الاتراك على ما يأتى :

(١) — الاوعوزيون ، وهم من خطاى اى الصين الشمالية .

---

* تورك تاريخى لنجيب عاصم ص ٣٩

(٢) — قبيلة قاپى ، وقد اتت من ساری الى ارمينيه ، واصل الاتراك منها .

(٣) — قبيلة ساریغ ، وقد سكنوا جبل (ايمانوس) الشاهق لما جاهروا خاقان الترك بالثورة .

(٤) — القايماقيون .

(٥) — قبيلة پهچنك . وكانت فى حرب دائم مع قبائل (طولازى) و(غاز) او (غوز) و(اوز) .

(٦) — قبيلة ماهريقا او موهاريقا ، كانت ساكنة بين نهرى (وولغا) و (دون). وكانت الخصم الالد للروسين والسلافيين.

(٧) — الخزريون ، وهم على شواطئ بحر خزر .

(٨) — السلافيون .

(٩) — الروسيون (*) .

اما وامبهرى *Vambéry* . المستشرق الشهير ، فقد قسم الاتراك بالنظر الى اللغة الى خمس شعب .

١ — اتراك سيبريا ، ويفترقون اربعة عشر قسماً :

(١) قاراقالموقيو طومسق .

(٢) الالطائيون ، او قالموقو آلطاى .

(٣) شورج ، او قوندوج

(٤) اوريانق

(٥) قوماندى كيش

(٦) القيزيقيون (يتألفون من تاتار تهلوت ، قوبول ومن الاوستاقيين)

(٧) تاتار جوليم

(٨) ساغايهن

(٩) قاچنتس

(١٠) القيباليون

(١١) قاراغان

(١٢) سوئيوت

(*) دولت عثمانية تاريخى (مترجم عن ها مر) ، محمد عطا ج ١ ص ٣٠٢ : على ان هـا مر بعد ان اعطى هذا التفصيل قال : مما يستلزم العجب تفريق الاغوزيين عن العوزيين . او الاوزيين لانهم امة واحدة كما يدعى ده كينى Deguines) . فكيف يمكن اعتبار السلافيين والروسيين من الاتراك انه لم يتكلم عن هذا بشئ .

(١٣) قاماسينيج
(١٤) تاتار بارابا
٢ — اتراك آسيا الوسطى ، البادون او شبه البادين ، وهم ستة اقسام :
(١) قيرغيز — قازاق
(٢) قارا قيرغيز
(٣) اويغور ، او اتراك تركستان الشرقي او الكاشغريون
(٤) اوزبك
(٥) قاراقالپاق
(٦) تركمان
٣ — اتراك وولغا ، وهم ثلاثة اقسام :
(١) تاتار القازاق [ينشعبون من القبچاق]
(٢) باشقير — مهچچه رياق
(٣) چواش او الفينوالبون المتركون .
٤ — اتراك بحر الاسود ، وهم ثلاثة اقسام :
(١) تاتار قريم او قيريمچاق
(٢) نوغاى
(٣) قومىق او قاراچاى
٥ — اتراك الغرب وهم :
(١) اتراك قاوقاس ، وايران ، وآذرابايجان
(٢) الاتراك العثمانيون .

اذا صرفنا النظر عن هذه التفصيلات الثانوية ، واضربنا عن التقسيمات التي اوردها مؤلفا (شجرة تركيه) و(جهانئما) يمكننا ان نقول ان الاتراك ينقسمون منذ القدم الى قسمين . (الاتراك الشرقيون) و(الاتراك الغربيون). (*)

والشرقيون ينقسمون الى بضع قبائل مثل : اويغور ، قال آچ ، قارلق ؛ والغربيون الى عشر قبائل مثل : اوغوز ، قپچاق ، پچنهك ،قيرغيز ، قانقلى وغيرهم .

ان قبيلة اويغور التي هي من اشهر اتراك الشرق ، تقطن الاصقاع الكائنة بين قره‌قروم، وطورفان . ولغتهم هي افصح واقدم لغة تركية . ثم دعيت هذه اللغة باسم جغتاى السلطان ابن جنكيز خان . ولغة اويغور هذه التي يسميها العثمانيون بالتركية القديمة ، هي الاخت

---

* لهجة عثمانى احمد وفيق باشا

الكبيرة للغة التركمان وفى القرن الخامس عشر للميلاد بلغت هذه اللغة حد كمالها .ثم شرعت تنحط ، بعكس اللغة العثمانية التى انبثت عنها فانها اخذت بالرقى.

اما اشهر الاتراك الغربيين فهى قبيلة « اوغوز » التى كانت تقطن ما بين سيحون وجيحون فى تركستان ، وكانوا يحاربون الاكاسرة والعرب . ويروى ان (سالور خان) من اولاد (طاغ خان) (*) قد اعتنق الدين الاسلامى ، بعد وفاة النبى «صلعم» بثلاث مائة وخمسين سنة مع الفين من الاسرة ومن ثم بدل اسمه بجناق خان . او قره خان ، وسمى قومه « تركمان » ليميزهم عن الاتراك الوثنيين وقد ارتقت اللغة التركمانيـة فى ايام السلجوقيين الذين هم من نسل اوغوز ، واقتبست من اللغة العربية ، ما اقتبسته لغة اويغور من الفارسية .

ان عشيرة قايى خان الاوغوزية غادرت فى الزمن الاخير بلادها ، وهاجرت حيث اسست الحكومة العثمانية ، وافترقت لغتها عن التركمانية ، وتكون اللسان العثمانى المؤلف من اختلاط الكلمات العربية والفارسية. يفهم من هذا التلخيص ان التركمان هم من الاتراك الغربيين ، ولهم ارتباط قوى بالعثمانيين والسلجوقيين بالنظر لكونهم من نسل اوغوز ، وان اسم (تركمان) لم يكن الا بعد العصر الرابع للهجرة . ويزعم كما ذكر فى (جهانما) لمؤلفه (نشرى) ان كلمة تركمان مؤلفة من « ترك » و « ايمان » . وقد اطلق هذا الاسم على من آمن بالدين الاسلامى منهم. ولكن اكثر المؤلفين ينكر هذا التأويل . والبعض منهم يدعى ان لفظة (مان) و (من) فى آخر كلمة (تركمان) . بمعنى الرجل كما هو الحال فى

(*) وعلى رواية قديمة للاتراك ان اوغوزخان ابن قره خان هو الذى امتد بفتوحاته ، وقوانينه سلطان الاتراك ومدنيتهم . فارق اوغوز قره خان جبال قره قروم التى هى مشتاه ، وجبال اورطاغ ، وقورطاغ التى هو مصطافه ، وتوجه الى الجنوب حيث حل مقامه فى بلدة ياس) ، اشهر بلاد تركستان . والتى كانت مركزا لمدينة الاتراك ، وسلطتهم مدة مديدة وكان لاوغوز خان ستة اولاد . هم : كون خان وآى خان ، ويلديز خان وكوك خان وطاغ خان ودكز خان وكان مشغوفاً بالصيد . فارسلهم ذات يوم الى الصيد — مؤملا ان كل واحد منهم يأتى بما يكون دليلاً على حالته فى المستقبل — فاصابوا قوساً وثلاثة سهم وأتوا ، فعرضوهم عليه فاعطى السهام الى كوك خان وطاغ خان ودكز خان ، والقوس للثلاثة الاخرين. وهؤلاء كسروا القوس ليقسموها بينهم . فاعطى لاولئك ، السهام الثلاثة — اوجوق او اوج اوق ، وللاخرين بوزوق السهام المكسرة . ولما توفى قسمت بلاده فأخذ الجناح الايمن وساح الايسر عشائر الشرق والغرب . ويزعم ان قد ولد لكل خان اربعة اولاد ، فكان منهم اربعة وعشرون رئيساً لعشائر الاتراك . ان امراء « ملك » الجناح الايمن ، وبوزوقلر الذين كانوا قاطنين فى بلاد تركستان ، هاجموا بلاد ما بين النهرين وسخروها ، ثم اخترقوا تلك الحدود وساروا الى ان وصلوا بفتوحاتهم الى فروق ، ثم الى نهر الدانوب . وان قسماء مؤرخى الاوغوزيين ، والسلجوقيين ، والعثمانيين يصعدون انساب سلاطينهم ، ويصعدونها الى الاجنحة الثلاثة اليمنى ، ويعتبرون الاغوزيين من طاغ خان والسلجوقيين من دكز خان والعثمانيين من كوك خان .

هامر . ج ١ ص ٥٤ — ٥٥

الالمانية والانكليزية . فيكون معنى كلمة (تركمان) هو (الرجل التركي) وهكذا (قرهمان) فان معناه (الرجل الاسود) .

وعند البعض ان كلمة تركمان معناها (الترك الصميم)، الترك الكامل) ، (الترك المتين)، وذلك لانهم على احسن ، وامتن الاوصاف الجنسية بين الاتراك(*) . والا فان الرواية المتضمنه ان كلمة (تركمان) مؤلفة من (تارك) و (ايمان) . لهي هذيان محض(**)

ان بعض المؤلفين الذين يبحثون عن الاتراك الساكنين بين بحيرة آرال وبحر الخزر، المعروفين باسم تركمان . يزعمون انهم عبارة عن « الهونيسين البيض » و (تى — لو) سكان السواحل و (غوز) او (كه ز) . (***)

[٢] اقسام التركمان — يمكن تقسيم التركمان القاطنين الاصقاع الكائنة بين بحر الخزر وبحيرة آرال وبين خيوه وجيحون، ووادى اترك الى عشرة اقسام كبيرة (***)

١ — قبيلة (يومود *Yomouds*) يعيشون تحت الخيام فى الناحيــة العليــا ، وعلى سواحل بحر الخزر الشرقية .

٢ — قبيلة (تكه . *Tekkes*) . تقطن فى انحاء مرو ، تهجين قيزيل آرواد .

٣ — قبيلة (ســاكار— *Sakar*) تقطن بين (قاباقــلى) فى الشمال ، و (جارجوى) فى الجنوب ؛ وفى الساحل الايسر من نهر امدريا .

٤ — قبيلة (چودور— *Tschoudors*) . هى فى الجانب الشمالى من خيوه .

٥ — قبيلة (ئه مرالى— *Emralie*) . هى فى الجهة الجنوبية من خيوه .

٦ — قبيلة (غوقلان— *Goklan*) . تسكن فى خرآسان وتتصل باليومودييـن من الغرب .

٧ — قبيلة (ئەرسارى— *Ersari*) . هى على ضفاف امدريا فى انحاء كليف .

٨ — قبيلة (سالار — *Salar*) تسكن فى انحاء مرو .

٩ — قبيلة (آليلى— *Alili*) . تقطن سهول تركستان الافغانية .

١٠ — قبيلة (ساريق— *Sariks*) . تعيش تحت الخيام فى اطراف (بادكيز) .

يعيش هؤلاء القبائل متفرقين ، ولكنهم لا يجهلون بعضهم . ومنهم قبيلة ساكار ، وامرالى وغوقلاند ، وسالار وسـاريق هم على غاية من وفرة العـدد . لاسيما وان معيشتهم لم تزل تحول من البداوة الى الحضارة .

(*) آنسيفلوپه‌دى الكبير
(**) لمات تاريخيه وجغرافيه : احمد رفعت
(***) ترك تاريخى . لنجيب عاصم يرويه عن اوقايعنامهٔ نستور ، وترجمة له ژه ن ص ١٩٥،١٩
(****) راجع كلمة Turcomans من La grande Encyclopédie (ج٣١)

ان اعظم قبيلة فيهم هي قبيلة تكه . لان عدد خيامها يقرب من ثلاثمائة الف ثم الوفرة من بعدها لقبيلة آلبلى . ومقدار افرادها لا يقل عن مائتين وخمسين الفاً . وبعد هاتين القبيلتين تأتى قبيلة يوموذ وقبيلة موسارى وهما اكثر عدداً من بقية القبائل .

وقصارى القول ، ان مجموع نفوس التركمان فى الديار التركية لا يزيد عن مليون ونصف من النسمات رغماً عن اتساع اقطارهم واراضيهم وتباعد اطرافها .

وقد اختلط التركمان مع من يجاورهم من القبائل كقبيلة قيرغيز ونوغاى . ولا يزالون الان خلطاءهم .

وللتركمان اقسام من الدرجة الثانية ، ما عدا الاقسام العشر التى عددناها آنفاً . ولكن يتعذر علينا تعداد تلك الاقسام لهؤلاء القوم الذين غادروا اواسط بلاد الترك وانبثوا فى بلاد متفرقة كآسيا الصغرى ، والعراق ، وسورية وسواحل البحر المتوسط .

على اننا نصادف فى بعض انحاء الاناطول عشائر تنتمى لتركمان (رمضان او غللرى) ابناء رمضان كعشيرة بيات ، قاجار ، ابناء رجب (رجب او غللرى) ، كوچكلى . عبالى اوردكلى . وامثالهم ؛ وتوجد فى ايران والاناطول عشائر كبيرة كالافشاريين . والبعض من هذه العشائر تسمى باسم البلاد التى تسكنها ، كالعشائر الموجودة فى ولاية بيروت ، فانها تدعى باسم تركمان باير ، وبوجاق ، وحذوور ، وكواچره .

[٣]— *احوال التركمان الاجتماعية* — اشتهر التركمان ذووا القامات الطويلة . والابدان القوية المتينة . بالشجاعة والفروسية . ولهذا السبب آثرت الدولة العباسية ان تستخدمهم فى امر المحافظة . ولم يؤسسوا حكومة الا وكانت مثالاً للقدرة والبسالة . لاسيما ان خصائصهم فى الخضوع لمتبوعهم ، والاذعان لاولى الامر تتجاوز الحد المعروف .

يلبس رجال التركمان قميصاً طويلاً ، وفوقه جبة طويلة ، ويشدون اوساطهم بالمناطق شداً وثيقاً ، ويتخذون الامواق « جزمات » او الخفاف المتخذة من جلود الجمال ، او الخيل ويلفون ارجلهم بالصوف . ويلبسون فى رؤوسهم قلانس من جلود الخرفان ، اما نساؤهم فيقنعن رؤوسهن بقنع دون ان يسترن وجوههن ، ولهن شغف زائد بالحلى ،

وقدماء هؤلاء القوم كانوا يعيشون تحت الخيام ؛ وخيامهم مدورة الشكل ، سهلة التقويض ، مجللة باللبود . وكثيراً ما ترى شاة . او عنز مربوطة فى جانب كل خباء . وهم يذبحونها فى ايام مخصوصة ، فيجعلون اللحم قديداً ، ويحتفظون به ، اما العظم فيغلونه على النار ، ويفرقون المرقة على الجيران والاصدقاء . وحظ الاطفال من الذبيحة امارتها ، وهم يشوونها على النار ويمضغونها [*] .

---

[*] دائرة المعارف . لبطرس البستانى .

التركمان مطبوعون على القناعة ، ونساؤهم يقنعن من الطعام بكسرة من خبز مع قليل من الثريد .

ان دواعى المعيشة فى التركمان جعلت لكل من الرجال والنساء وظائف على حدة . فالرجال يشتغلون بالزراعة ؛ فيحرثون ، ويبذرون ، ويحصدون ، ويرعون الماشية ، وايضاً يفتلون الحبال بأيديهم ، ويعملون السروج ، ويصنعون القلانس والخفاف ، ويتعاطون التجارة اوقات فراغهم ، ويلعبون على الحبال ، ويتغنون ، ويأخذون نصيبهم من السرور . ويكثرون من التدخين وشرب الشاى .

اما نساؤهم فعليهن مشاغل ، واتعاب باهضة حملهن الرجال اياها . ولهن كامل الحرية ولا يعاملن من قبل الرجال بسؤ ؛ ويتجولن حيث شئن على اتم الاستقلال والحرية .واذا وجدن مع الرجال يكن موضع رعاية واحترام .

لا ينقطع نساء التركمان عن العمل ، بل دأبهن السعى ، ولا بد ان يخلقن لانفسهن مشغلة . فطحن القمح ، وغزل الصوف والقطن ، ونسج السجاد ، وتلبيد اللبود ،وجلب الماء ، هى من وظائف النساء . فتراهن يثابرن على القيام بهذه الوظائف ولو كن حاملات او مرضعات . حتى انهن يشتغلن بالغزل اثناء الزيارات ايضاً . ولا من متعب لهن مثل تدوير الرحى ، ولا يفتئن يتألمن منها .

التركمان ، رجالاً ونساءً ميالون لعمل الخير ، واغاثة ابناء جنسهم ، ويندر ان يصدر منهم لبعضهم كلام سيء ، او سب ، وانهم يشنون الغارة على بعضهم ، ويسمونها غزواً فتحدث بين العشائر المتجاورة مقاتلات دموية . على انهم معذورون بذلك ، لان هذه من دواعى البداوة . والمثل التركى يقول (داخل البلد للترکی سجن) . ولذلك نجد فيهم ميلاً قوياً لتلك الحياة . وهم مشغوفون بحب جيادهم ، وافراسهم ، وقسيهم وسهامهم . ويحبون ان يكونوا على حياة راحلة كقدماء الاتراك . ومما امتازوا به من الاوصاف الحسنة اكرام الضيوف . تتزاورون فى خيامهم نساءً ورجالاً . والرجل يحيد بنظره لدى فتحه باب الخيمة ، فتسمع المرأة ، وتتنحى للداخل ، ثم يدخل . وبعد ان يسلم وتنتهى مراسم الترحيب ، لا تلبث النساء ان تأتى وعلى ايديهن الطعام . ويسارعن لبذل انواع الاكرام والاحترام .

النساء عندهم يحترمون الرجال احتراماً فائقاً ، ويتكلمن همساً اذا وجدن قريباً منهم ولا يردن ان يسمعوهن . ويسترن اسفل وجوههن فى حضرتهم . ومع ذلك انهن على اتم ما يرام من الحرية . فلا يخجلن من محادثة الغريب ، ولا يصدفن حياءً اذا سلم عليهن .

ولهؤلاء القوم ارتباط عظيم فى الدين . وهم اول من اسلم من الاتراك ، والحكومات

التي اسسوها لم تأل جهداً في حفظ بيضة الإسلام ، والذب عن حوضه في احرجها الظروف ، واخطر الاحوال . وهذا اكبر دليل على فرط احترامهم للدين ومحبتهم له . وكلهم مسلمون وسنيون ، وقلوبهم صادقة لهذا الدين ، غير انهم في اشد الاحتياج الى هداية العلم وارشاده .

٤ — *ملخص تاريخ التركمان* — ها نحن نسرد نبذة من اشهر وقايع التركمان على ما يأتي :

١ اول ملوك التركمان

سبق ان بينا ان اقوام الترك البادية الساكنة في الانحاء الشرقية من بحر الخزر ، اعتنقت الدين الاسلامي في اواسط القرن الرابع للهجرة ، وتسمى ساروخان : (جاناق) او (قاره) خان بعد ما اسلم ومعه الفان من الاسر ، واستأصل شأفة الوثنية من بلاده . ثم لم يلبث ان هاجر قسم منهم الى الانحاء الغربية من ارمينية ، وسكنوها وبذلك انقسموا الى قسمين « تركمان الشرق » و « تركمان الغرب » . ولم تزل تلك الانحاء مأهولة بهم حتى الان (*)

ثم صار الامر من بعده الى ابنه « موسى خان » . فشيد الجوامع واسس المدارس ، وبنى التكايا ، ووجه عنايته الى العلم والعلماء ، وشد ازرهم واعلى منزلتهم ثم جاء من بعده « بغراخان هارون » ابن عمه وخليفة سليمان خان ، فتح البلاد ووسع الملك ، حتى بلغ الى ما وراء كاشغر و« بالاساغون » من حدود الصين . وفتح بخارا في تاريخ « ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م » وانتزعها من ايدى السامانيين الايرانيين . ثم جاء من اخلافه « احمد خان ابن ابي النصر بن علي » فاكره الاتراك الوثنيين على الدخول في دين الاسلام . ثم افضى الامر من بعده الى اخيه « آرسلان خان ابو المظفر بن علي » فاستولى على ما وراء جيحون من البلاد وسمى نفسه بشرف الدولة « ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م » . وبعد وفاته « ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م » اخلفه « قدر خان يوسف » ابن بغراخان ، وكان مشهوراً بكرمه وجوده بين الاتراك المسلمين . اما ابنه « قرهخان عمر » فقد مات مسموماً من اخيه محمود الجوسي « ٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م » وهنالك انتقل ملكهم الى « طغماج خان » سلطان سمرقند ثم من بعده لابنه « شمس الملك » . وهذا الملك قد تزوج ابنة آلپ آرسلان سلطان السلجوقيين وزوج اخته « طورخان » من السلطان « ملكشاه » . وبهذا اصبحت القرابة بين التركمان ، وبين الاسرة الحاكمة من السلجوقيين مزدوجة .

(*) مترجم هامبر ، محمد عطا ج ١ ص ٥٥ — ٥٦

٢ . حكومة السلجوقيين والتركمان

من المعلوم ان السلجوقيين الذين هم من اقوى قبائل الاتراك ينتسبون الى دكزخان ابن اوغوزخان . وفي القرن العاشر للميلاد كانوا يسكنون قريباً من بخارى في بلاد بغراخان . وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ تسلط عليهم « محمود » سلطان غزنه وفاتح الهند ، فاجلاهم الى ما وراء نهر جيحون من خراسان .

ان السلطان محمود ، ورث الملك عن ابيه « سبكتكين » . وهذا كان من مماليك احد افراد الأسرة السامانية الايرانية . وقد كان والياً . وما لبث ان سخر البلاد ، وجعلها في قبضته ، واقتدى بما فعله طولون ، واخشيد من مماليك الاتراك وولاة الخليفة في مصر . فجاهر بالاستقلال ، واسس حكومة « آل سبكتكين » . ومحمود هذا هو اول من سمى نفسه سلطانا . وهذه الحكومة دامت مقدار عصر ونصف ، ثم اضمحلت ، واكتسحها السلجوقيون .

فالسلجوقيون — الذين جلبهم السلطان محمود من وراء جيحون — دوخوا البلاد الممتدة من بحر الخزر الى البحر المتوسط ، وتسلطنوا عليها مقدار ثلاثة قرون . ثم انقسموا الى خمسة اقسام : وهم سلجوقيو « فارس » ، « كرمان » ، دمشق » ، « حلب » « آسيا الصغرى » .

١ — سلجوقيو ايران دامت حكومتهم من سنه ٤٣٢ الى ٥٩٠ هجرية ، وحكم منهم خمسة عشر سلطاناً

٢ — سلجوقيو كرمان ، دامت حكومتهم من سنة ٤٣٣ الى ٥٨٣ ، وحكم منهم تسعة سلاطين .

٣ — سلجوقيو حلب . دامت حكومتهم من سنة ٤٧١ الى ٥١٠ ، وحكم منهم خمسة سلاطين .

٤ — سلجوقيو دمشق ، دامت حكومتهم من سنة ٤٨٨ الى ٥٤٩ ، وحكم منهم تسعة سلاطين

٥ — سلجوقيو الروم دامت حكومتهم مأتين وعشرين سنة من سنة ٤٧٧ الى ٦٩٩ ، وحكم منهم خمسة عشر سلطاناً .

ان نجاح السلجوقيين في ادارة تلك الاصقاع الفسيحة ، ودوام سيطرتهم عليها لاجرم يستند معظمه على ما ناله اولئك القوم . من نصرة التركمان وموآزرتهم لهم . وقد جاء في « سياستنامه ص ٦٥ » ان التركمان وان لم يخلص السلجوقيون من معاكستهم ، فان

لهم اليد البيضاء في تاسيس تلك السلطنة وتأييد سلطتها وعليه لا يسوغ انكار ما لهؤلاء القوم من الخدمة لهذه الحكومة الذى هم اقرباؤها .

٣ . مهاجرت التركمان

نضطر هنا ، قبل البحث عن مهاجرة التركمان ، لان نبحث عن مهاجرة الاتراك . ذلك لانهم اصل لهم .

من المعلوم ان الصينيين كانوا يستخدمون الاتراك فى الجندية منذ القدم . وفى القرن الاول للهجرة ، لما تسلط مجاهدو العرب على تركستان ، واكتسحوا بعض انحائها ، جند « سوچونتغ » بالاجرة كتيبة من الاتراك وسماها « كتيبة البحر الاحمر » ، ولكن التانغيين اوصدوا فى وجوههم ابواب السد . وحملوهم على الاتجاه الى بلاد العراق ، وارض الروم. وان استيلاء العرب على تلك الانحاء كان سبباً لتحويل وجهة المهاجرة فبينما كان السيل التركى المتحدر من جهات « اوقسوس » و « الخزر » على طريق « سيت » القديمة متجهاً الى الشمال الغربى ، الى بلاد قبچاق ، يابيق « اورال » ؛ ايديل « وولغا » اصبح مستهدفاً بتياره الجهة الجنوبية الغربية ، واتصب على انحاء آزربايجان ، وجنوب القوقاس ، وآسيا الصغرى وبلاد سورية ، وارض الروم [*] وبعد مهاجرة الاتراك بمدة طويلة ، اخذ التركمان ايضاً بالهجرة فكانوا ينخرطون فى سلك الجندية لدى بعض الحكومات تارةً ، واخرى ينتهزون الفرص فيؤسسون حكومات مستقلة .

ما من حكومة تركية تأسست فى آسيا الصغرى ، او سورية او مصر الا وكان للتركمان فى تأسيسها ، وتشييد دعائمها [**] الحظ الاوفى . وسبق لهم فى زمن العباسيين مآثر حسنة ، ومثلوا فيه ادواراً خطيرة . وقد اتوا من اقاصى بلاد « پهلو » او « خوارزم » ، وكانوا من قبائل « قانقلى » و « قال آچ » و « الهون البيض » ، او من تركمان السواحل [***] ثم ما لبثوا ان اظهروا من البسالة والشجاعة ، ما جعل لهم عظيم المكانة فى نظر العباسيين .

وفى زمن المستعين بالله العباس عظم سواد الاتراك فى الولايات ، كما هو فى المركز ، حتى اصبحت قطعة سورية ومصر فى ايديهم ، والحجاز واليمن تحت ادارة ولاة منهم [****] واسسوا لانفسهم حكومات مستقلة كبنى طولون ، والاخشيديين وامثالهم. وتمادى القرن ؛

(*) تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ١٣٤ ، ١٥٣ ؛ ٢٠٣

[**] لا ننسى هنا الاتابكة فى سورية وحلب والمماليك البحرية فى مصر ، و« آل ينال » فى ديار بكر

[***] تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ٢٠٥

[****] تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ٢١١

ان كثيرا من الاتراك ، وعلى الاخص التركمان الذين دخلوا الجندية فى الخدمة المبلسيين ، ما انفكوا يهاجرون الى جهة الغرب الجنوبى وانتشروا فى انحاء مازندران وكيلان وطبرستان وآزوبايجان من شمالى بلاد العجم ؛ وانبثوا فى بلاد ارضروم وديار بكر ، وتخطوا منها الى بلاد الاناطول ايضاً . وفى زمن العثمانيين والسلجوقيين — كما سنبينه بعد — توطن منهم اناس كثيرون فى قطعة الاناطول والروم ايلى. فالاتراك المتوطنون فى انحاء بغداد وارضروم وفى بعض جهات آزوبايجان وايران ، وفى بلاد القوقاس هم من صميم التركمان ، ولغتهم لا تختلف عن تركية الاناطول الا يسيراً . ولهم لهجة خاصة. وبناء على امتزاج هؤلاء القوم واختلاطهم بغيرهم من الاقوام فى بلاد العجم والمملكة العثمانية ، سواحل بحر الخزر ، تبدلت سحنائهم وفقدوا آثار السمات والشعائر التورانية . [*]

٤ — الحكومة العثمانية والتركمان

سبق ان قلنا ان التركمان لهم اليد البيضاء فى تأسيس الحكومات القوية ، وان الحكومة العثمانية لهى انطق برهان لتأييد هذا الادعاء .

من المعلوم ، لما اكتسح جنكيز خان ذاك الصرصر الاسيوى حكومة «خوارزم» التى كانت سداً محكماً لرد طغيان المغولين اضطر سليمان شاه ابن « قيا آلپ » المنسوب لاسرة « قايى من » الاغوزين الى ان يغادر ربوعه فى خراسان قرب بلدة « ماهان . وتوجه مع خمسين الفاً من عشيرته الى ديار الارمن حيث خيم فى جوار ازربايجان ، والاخلاط ٦٢١ هـ — ١٢٢٤ م .

ولنذكر هنا على سبيل الاستطراد ان عشيرة سليمان شاه لم تكن من آل خوارزم [**] لان بلاد خوارزم التى يحدها نهر جيحون من الشرق وبحر الخزر من الغرب ، وخرسان من الجنوب وديار التركمان من الشمال هى قطعة ضيقة طويلة مأهولة بسكان مختلفى الجنسية يفترقون عما يجاورهم من الاقوام باخلاق وطباع مختصة بهم وبلغتهم المركبة من التركية والفارسية . وعليه يجب اعتبار قبيلة سليمان شاه من التركمان — كما ذكر فى جهانسما مؤلفه شمرى - هذا وان يكن الخوارزميون من التركمان كما مر فى ما مر ، ولكن لا يكون هذا سبباً لاعتبار جميع القوم من تلك السيلة . وعليه فان نسبة الخوارزميين للتركمان واعتبار قبيلة سليمان شاه خوارزمية لا يكون صحيحاً . توفى جنكيز خان بعد ان اقام سليمان شاه فى الاخلاط سبع سنين . وتمزق شمل الخوارزميين بعد ان غلبوا من قبل علاء الدين

[*] قاموس الاعلام لشمس الدين سامى .
[**] مترجم هامر ج ١ ص ٧٥

لسلجوقى سلطان قونية ، ولذلك آثر سليمان شاه ان يرجع بعشيرته الى وطنه فمشى يتبع ساحل الفرات وعشيرته معه الى ان قدموا قلعة جعبر ، فاقتحم سليمان النهر بفرسه ليقطعه امام عشيرته ولم يلبث ان سقط فيه وغرق . وكانت وفاته سبباً لانحلال العشيرة التى كانت مجتمعة تحت كلمته . وبقيت منهم الى اليوم بقية تسمى بتركمان سورية وتركمان الروم [*]

كان لسليمان شاه اربعة اولاد : سنغور — تكين ، كون طوغدى . دوندار وارطغرل اما الاول والثانى فقد عادا الى خراسان . والاثنين الاخيرين ذهبا ومعهما اربع مائة من العائلات الى الجانب الشرقى وتزلا اغوار « سورمهلى » الفسيحة المسورة بالجبال الشامخة التى تلمس آفاق ارضروم . وتوجهت شرذمة منهم الى سهول ياسين وتوطنت فيها . ثم ما زال ارطغرل واخوه وندار يتاودان المواطن حتى ساقهما الحظ الى علاء الدين السلجوقى فاقطعهما ارضاً اسس فيها السلطان عثمان ابن ارطغرل بك الحكومة العثمانية — على النسق المعلوم — وذلك بعد انقراض الحكومة السلجوقية ، ٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م . وبه يكون مؤسسو الحكومة العثمانية هم من التركمان الاوغوزيون ايضاً

٥ التركمان فى آسيا الصغرى

تأسست الحكومة العثمانية كما قدمنا على انقاض الحكومة السلجوقية . وكانت بطنة الاناطول حينئذ مأهولة بكثير من عشائر التركمان ؛ كما ان الحدود الشرقية ايضاً كانت بتمامها تحت سيطرة هذه العشائر وبعض هذه العشائر ولاسيما الحكومات الصغيرة والامارات « بكلك » التى اسست من قبلهم لم تنقطع عن معاكسة العثمانيين ، واهتم العسر الامر . فمنهم القرمانيون الذين جاهروا بالعداوة فى زمن السلطان مراد خداوندكار وجمعوا تحت رايتهم كثيراً من سفلة التركمان والتتار وضموا اليهم عشائر ارساق وطرغود وبايبورد ، وشغلوا الحكومة زمناً طويلاً [**] وفى زمن السلطان مراد الثانى حرب ... اخوة من تركمان قيزيل خواصه وعاثوا فى انحاء اماسيه وتوقات بعد ان استحوذوا ... وتطاولوا الى سبى النساء وسلب السابلة ونهب القرى وا غلوا فى الفساد . وندب ... باشا لكبح جماحهم واستئصال شأفتهم فارسل لهم كتاباً وعدهم فيه انه يقطعهم ... اورتوق آباد ، اذا رضوا بان يساعدو على عشيرة « اولاد آل آرسلان » الذين ... على سواحل جانيك واستولوا عليها — وقد تيسر لخضر بك ابن ... باشا القاء القبض على اكثرهم فجاءهم الى اماسيا حيث زجهم ... السجن ثم سد الابواب عليهم بالحجارة .

[*] مترجم هامر ج ١ ص ٨٩
[**] مترجم هامر ج ١ ص ٢٣٩

واضرم النار حول ذلك السجن فاهلكهم خنقاً . ثم اعاد الكرة بالهجوم على بقية عشائر جودوم ففرق شملهم واستولى على خزائنهم ؛ والجأهم الى الفرار ، والانجلاء عن الملك العثماني . فلاذوا بتركمان منتشا في بلاد امراء «ذي القدر» و«آق قويوق» . وبعد مدة وجيزة سخر يوركيچ باشا حصن سجانيك ، الذى هو لحسين بك رئيس عشيرة اولاد «آلب آرسلان» التركمانية «٨٣١ هـ — ١٤٢٧ م» .

*
* *

اما الحكومات والامارات التى اسسها التركمان فى الاناطول ، فاننا نذكر منها اسرة «ذى القدرية» و«رمضان اوغللرى» وحكومات «آق قويونلى» و«قره قويونلى» .

٦ . اسرة ذى القدريه

هذه الامارة اسسها «زين الدين قرهجه ذو القدر» التركمانى فى اراضى قادوقيا القديمة التى نسميها اليوم البوستان مرعش (*) وزين الدين هذا مؤسس تلك الاسرة ، فتح بلدة مرعش والبستان سنة [٧٨٠ هـ — ١٣٧٩ م] وشيد دعائم امارته . ثم ان اخلافه استولوا على بلدة خربوط وبهسنى وملاطية ووسعوا ملكهم بها . وقد اثبت هامر جدول انساب عشرة امراء لهذه الاسرة ، وعددهم على الوجه الآتى :

١ — زين الدين قرهجه ذو القدر [٧٨٠ هـ — ١٣٧٨ م] هو مؤسس هذه الامارة .

٢ — ابنه [خليل بك] قتله التركمان سنة ٧٨٨ هـ — ١٣٨٦ م

٣ — سولى بك [هو اخ لخليل بك] قتله ناطق من المصريين باشارة من برقوق سلطان مصر سنة [٨٠٠ هـ — ١٣٩٧ م]

٤ — ناصر الدين محمد بن خليل بك . توفى فى الثمانين من عمره سنة «٨٤٦ هـ — ١٤٣٩ م»

٥ — سليمان بك ابن ناصر الدين . وقد زوج ابنته «ستى سلطان» من «السلطان محمد الثانى» وتوفى سنة «٨٥٨ هـ — ١٤٥١ م»

٦ — آرسلان بك .

٧ — شهسوار بك و٨ — بوداق بك و٩ — علاء الدولة بك وهؤلاء تناوبوا بعضهم بالامارة .

(*) مترجم هامر ج٢ ص١٨٦

١٠ — شهسوار زاده على بك ، وهو الذى ختمت فيه تلك الاسرة بعد ان دامت مأة وعشرين سنة قرية . اما سبب انقراضها فهو : [*]

حنق السلطان سليم ياوز على امير ذى القدرية بسبب مسئلة مصر وعزم على الايقاع به ؛ فرجع الى سيواس بعد ما سخر كماخ فى ثمانية ايام «١٣ ربيع الاخر ٩٢١». وارسل من هناك وزيره الاعظم سنان پاشا ومعه شهسوار زاده على بك ورفقهما بعشرة آلاف يكيچرى . وسلطهم على «علاء الدولة» . فوصل سنان پاشا الى البستان وعسكر على ضعاف «اينجه صو» وكان علاء الدولة فى تلك الاونة فى محل اوردكلى. فما كان منه الا ان سارع بنقل نسائه وخزائنه الى شواهق جبل طورنه ؛ وعمد الى مضايق الجبل، فاستولى عليهما مع من معه من التركمان . اما سنان پاشا فانه قطع سهول كوكصو . وزحف الى سفح جبل طورنه الذى تحصن فيه امير ذى القدرية . وهناك اضطره الى قبول الحرب .

ولم يطل الامر الا وقتل علاء الدولة ، ونصب على بك شهسوار والياً على بلاده . وبه ختمت انفاس تلك الاسرة «٩٢١ هـ — ١٥١٥ م» .

٧ — آل رمضان

اسس آل رمضان حكومتهم فوق شواهق جبال طوروس الكائنة بين آسيا الصغرى وسورية ؛ ودامت مقدار مأتى سنة اى من «٧٨٠ هـ — ١٣٧٨ م» الى «٩٧٠ هـ — ١٥٦٢ م» وكيفية تكون هذه الاسرة كان على الوجه الآتى : [**]

لما قضى سليمان شاه جد السلطان عثمان الذى اسس الحكومة العثمانية غرقاً فى جوار «حصن جعبر» . ذهب اولاده الى ناحية الشمال وذهب سبعة من رفقائه مع عائلاتهم وكلهم من قبيلة اوچوق «اوچ اوق» الى «چقور اووه» وتوطنوا فيه . وهؤلاء هم «بوركر» ، «قوسون» ، «وارساق» ، «قره عيسى» ، «اوزر» ، «كوندوز» ، «قيش تيمور» . فترأس عليهم بوركر . ونال المذكور من الارمن المتوطنين هناك حق رعى ماشيته فى انحاء آطنه ومسيس وطرسوس . ثم انتقل هذا الحق منه لابنه رمضان . وخصص رمضان جبل «آنادارلق» مشتى لقوسون وجبل «كولك» مصطافاً .

وكانوا يرعون ماشيتهم تارة فى السهول وأخرى فى الذرى . فكان «قيش تيمور» يصيف فى طرسوس ويشتى فى جبل «بلغار» و «كوندوز» فى سهول مصيص وفى جبالها اما رمضان ففى اغوار اطنه ونجودها . وبهذا كانت جميع السهول فى قبضتهم . ولم

---

[*] مترجم ها مسرج ٤ ص ١٤٨

[**] ايضاً ج ٤ ص ١٣

يكن لديهم قدرة تمكنهم من اجلاء الارمن من القصبات والبلاد. وبعد بضع سنين سلة جيش «داود» من آل «اوزر» على تحقيق تلك الاماني. فاستعان بالشيخ احمد سلطان مصر. فلباه وارسل له الجنود. فسخروا تلك الاصقاع باسم السلطان. ولم يكن حظ داود منها الا عنوان الامارة. وكان عمل داود منشطاً لبني عمه على الاقتداء به.

ثم ترك اولاد «كوندوز» قلعة آياس لعساكر السلطان. وذهبوا الى مصر، ولم يلبث ابراهيم بن رمضان ان استنجد بالمصريين. وساعدهم على امتلاك آطنه وسيس. وضبطت طرسوس ايضاً بمعونة احد اولاد قيش تيمور. وبهذه الكيفية تمكن الشيخ احمد من امتلاك ستة قلاع من احصن ديار الارمن «كلكيا». دون ان يتكبد حرباً تستحق الذكر. وهذه القلاع هي: قلعة اياس، كولهك، سيس، مصيص، آطنه، طرسوس. ثم مد يده الى عدة حصون هناك فاستولى عليها وجعلها مراكز دفاع عن ثغور سورية.

وبهذا تمكن آل رمضان من احراز عنوان الامارة في تلك الانحاء. ودام سلطانهم فيها مدة تقرب من قرنين وحكم منهم ثمانية امراء لم يذكر منهم «هزارفن» الا اربعة:

١ — احمد بن رمضان، تأمر في انحاء اطنه وسيس وآياس وبياس. ٢ — ابنه ابراهيم بك. ٣ — ثم خلفه في الامارة محمود بك، وهذا الامير اطاع السلطان بايزيد، ورافق السلطان سليم في سفره الى مصر، وتوفي وهو معه. ٤ — پيرى بك ابن خليل بك وهو آخر امراء آل رمضان. وقد اندرست هذه السلالة في تاريخ «٩٧٠ هـ - ١٥٦٢ م» كما بينا آنفاً ولهم بقية مبعثرة في انحاء حلب وآطنه وبلاد الاناطول تكونت منهم عشائر مختلفة الاسماء كعشيرة «پهلوان اوغللرى» و«بيات» و«قاچار» و«رجب اوغللرى» و«كوچكلى» و«عبدلى» و«اوردكلى». [*]

٨ . حكومات «قره قويونلى» و «آق قويونلى»

ان «قره قويونلى» و«آق قويونلى» [**] اسمان لعشيرتين من التركمان، غادرا السهول التي كانا فيها، وتحولا من الشرق الى الغرب حيث توطنت احداهما — آق قويونلى — في «قپدونيا»، والثانية — قره قويونلى — «بين النهرين». وذلك في القرن الثامن للهجرة واواخر القرن الرابع عشر للميلاد في زمن آرغون ملك المغول المنسوب الى جنكيز خان. وبعد مرور قرن. اي بعد ان بادت حكومة المغول الايرانية بمدة طويلة، استطاع هاتان العشيرتان لاول مرة تأسيس حكومتين، الواحدة جنوبية في بلاد ديار بكر، والثانية شمالية

---

[*] نقلاً عن جهانما ص ٥٩٣، مترجم هامر ج ٤ تذييلات ص ٣١٦.
[**] راجع [illegible]

فى بلاد سيواس .

فسلالة قره قويونلى ، لم يكن لهـا الا اربعة سلاطين فى ظرف (٩٧) سنة . وتأسست هذه الحكومة سنة « ٧٧٧ هـ — ١٣٧٥ م » من قبل « قره يوسف » ابن « قره محمد التركمانى » وجاء فى تاج التواريخ ان هذه الحكومة دامت الى سنة « ٨٧٤ هـ — ١٤٦٩ م » . اما هامر فقد ذكر منهم اربعة ، وعدد لهم فى جدول انسابه اثنى عشر اميراً فى العراق وآذربايجان وهم على ما يأتى :

١ — قره محمد . ٢ — قره يوسف بن قره محمد . ٣ — الامير اسكندر بن قره يوسف . ٤ — جهـانشاه ميرزا بن قره يوسف . ٥ — الامـير پيربود ق بن قره يوسف . ٦ — الامير ابو السعود بن قره يوسف . ٧ — الامير شـاه محمد بن قر يوسف . ٨ — الامير آسبان بن قره يوسف . ٩ — پيربوداق بن جهانشاه ميرزا . ١٠ — حسن على بن جهانشاه ميرزا . ١١ — محمد ميرزا بن جهانشاه . ١٢ — ابو يوسف ميرزا بن جهانشاه .

*
* *

اما حكومة « آق قويونلى » فقد اسسها « قره يولوق » او « قره سلوك » سنة « ٨٠٩ هـ — ١٤٠٦ م » وهذه الحكومة تعرف بالبايندرية ايضاً . ومن هذه الاسرة « حسن الطويـل » الذى كانت له حروب طـاحنة مع العثمانيين . ودامت هذه الحكومة تسع وتسعين سنـة ثم درست سنة « ٩٠٨ هـ — ١٥٠٢ م » كما جاء فى تاج التواريخ . اما هامر فانه ذكر منهم تسعة امراء ، وابلغ عددهم فى جدول انسابه الى اثنى عشر وها هى سماؤهم :

١ — قره يولوق « قره سلوك »	وفاته	« ٨٣٩ هـ — ١٤٣٥ م »
٢ — حمزه بك بن قره يولوق	«	« ٨٤٨ هـ — ١٤٤٤ م »
٣ — جهانكير بن على بن قره يولوق	«	« ٨٧٢ هـ — ١٤٦٧ م »
٤ — اوزون حسن بن على بن قره يولوق	«	« ٨٨٣ هـ — ١٤٧٨ م »
٥ — خليل بن اوزون حسن	«	« ٨٨٤ هـ — ١٤٧٩ م »
٦ — يعقوب بن اوزون حسن	وفاته :	« ٨٩٦ هـ — ١٤٩٠ م »
٧ — بايسونغور بن يعقوب	«	« ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م »
٨ — رستم بن محمود بن اوزون حسن	«	« ٩٠٢ هـ — ١٤٩٦ م »
٩ — احمد بن اوغورلى بن اوزون حسن	«	« ٩٠٢ هـ — ١٤٩٧ م »
١٠ — محمد بن يوسف		
١١ — الوند بن يوسف	«	« ٩١٠ هـ — ١٥٠٤ م »
١٢ — مراد بن يعقوب	«	« ٩١٤ هـ — ١٥٠٨ م »

وبهذا تكون انتهت البحث عن حكومات التركمان في حوالي بحر الخزر ، و آسيا الصغرى وعرفنا كيانهم . ولهذه العشائر بقية متفرقة نراها الآن منتشرة في ساحة فسيحة تمتد من سهول التركمان في الشرق الى آذربايجان وارزنجان والاناطول وبلاد سورية .

[٥]— تركمان بيروت — يمكن تفريق التركمان الموجودين في ولاية بيروت لاربع مناطق :

١ — تركمان قضاء عكار في لواء طرابلس الشام
٢ — » » حصن الأكراد » » »
٣ — تركمان ناحية حذور » » »
٤ — تركمان نواحي خزينه وباير ، وبوجاق في لواء اللاذقية

وها نحن نبين القرى التي يسكنها هؤلاء القوم ونذكر عدد نفوسهم ايضاً [*]

١ — تركمان عكار : يسكن التركمان الموجودون في عكار ، قرى (١) كواشره و(٢) عيدمون و (٣) الجديده و (٤) الدوسه ، الكائنة في الشرق الشمالي من القضاء فوق الجبال الوعثة . ويوجد منهم في كواشره « ٣٠٠ » وفي عيدمون « ١٥٠ » وفي الجديده « ١٠٠ » ، وفي الدوسة « ٥٠ » فيكون مجموعهم « ٦٠٠ » نسمة .

٢ - تركمان حصن الاكراد : هم في الجهة الغربية من هذا القضاء . ويسكنون في قرى « زاره » و « حكيه » و « حصرحية » اللاتي يتراوح عدد نسماتها بين «١٠٠» و « ١٥٠ » . وان مجموع عددهم « ٤٠٠ — ٥٠٠ » نسمة .

٣ — تركمان حذور : يسكن التركمان في هذه الناحيه اربع قرى مبعثرة في جهات تلك الناحية بين قرى الاروام والمارونيين والنصيرية . وهذه القرى هي «١» بساتين و«٢» بيت ارسلان و«٣» مراس و«٤» عين دانش . ويوجد في قرية بساتين «١٠٠» وفي بيت ارسلان «٢٥٠» وفي مراس «٢٥٠» وفي عين دانش «٣٠٠» فيكون مجموعهم في هذه الناحية «٩٠٠» نسمة .

٤ -- تركمان اللاذقية يمكن تفريقهم الى ثلاثة اقسام . فالقسم الاول تركمان ناحية الجرنة التابعه للواء اللاذقية . ويسكنون منها انحاء «١» برج الاسلام و«٢» الصلب . ونفوس كل واحدة منهما يتراوح بين « ١٠٠٠ — ١٥٠٠ » . ويكون المجموع قريباً من «٣٠٠٠» نسمة

والقسم الثاني : تركمان ناحية « باير » التابعة للاذقيـة ايضاً . ويسكنون في دحسة

---

* انا سنبحث عن احوال تركمان ولاية بيروت الاجتماعية والروحية والادبية . أثناء البحث عن عكار وحصن الاكراد وحذور واللاذقية

« كبليها » مركز الناحية » وما عداها فى قرى « كبوه ، يشرمه ، جوقورچاق ، قوبلجوق ، كابيو ، قزاجفر ، شمرقراق ، آقچه باير ، قلابه ، آره نلكا ، مصيبن ، قاپاقليه ، حوبة تولات ، والى ، قيزيل جورة عبوه ، قيزيل جورة ازهرى ، ياماديه ، قيزيل » . وعدد نفوس كل واحدة من تلك القرى يتراوح بين «٢٠» و « ٤٠٠ـــ٥٠٠ » ، فيكون المجموع على التخمين مقدار ثلاثة او اربعة الاف نسمة من التركمان ، ولهذا تكون هذه الناحية تركمانية محضة . والعرب لا يشغلون هناك الا قليلاً من القرى .

والقسم الثالث : تركمان ناحية « البسيطة » او « بوجاق » من اعمال اللاذقية ايضاً وهم ساكنون فى قصبة « كشيش » مركز الناحية وما عداها فى قرى « بدروسيه » ،فاق حسن ، عيسى بكلى ، طورنجه ، بوزاوغلان ، كسله جك ، زيتونجق ، سراى ، زاغرين شقروراق ، الماليه ، مراس » ، ويتراوح عدد نفوس كل واحده من هذه القرى بين «٣٠» و« ٤٠٠ـــ٥٠٠ » . فيكون مجموع نفوس التركمان هناك قريباً من اربعة آلاف نسمة . والقرى التى يسكنها العرب هنا قليلة ايضاً ، فاذا اجملنا هذه التفصيلات نعلم ان مقدار التركمان فى ولاية بيروت يقرب من «١٥٠٠٠» نسمة .

[٥] — منشأ تركمان بيروت ، وابداء رأى — يجب علينا قبل انهاء هذا الفصل ان نبحث عن منشأ التركمان المبثوثين فى عدة انحاء من ولاية بيروت ، الذين لا يقل مقدارهم عن ١٥٠٠٠ نسمة ، وتحرى زمان ورودهم الى بيروت ، وبالاحرى الى بلاد سورية وكيفية تمكنهم فى هذه البلاد .

اولاً — ان التركمان انفسهم لا علم لهم بزمان مغادرتهم لسهول التركمان ، او لديار تركستان ، ومهاجرتهم لهذه البلاد ؛ ولا بكيفية تلك المهاجرة ولا غايتها ، حتى ولا بكيفية انتقالهم من بلاد الاناطول بعد ان مكثوا فيها برهة من الزمن الى بلاد سورية .

ثانيا — لم يتيسر لنا الحصول على حجة تاريخية ، او دليل يهدينا الى كشف الحقيقة ، رغماً عن بحثنا وتنقيبنا الذى عالجناه فى قرى التركمان ومحلاتهم .

ثالثا ؛ لم نكد نظفر فى الكتب التاريخية التى تبحث عن الترك والتركمان ، او سورية والاناطول الا بالنذر من المعلومات التى تطرق هذا الموضوع . وعليه لا تخلو آراؤنا التى سنبديها فى شأن منشأ التركمان البيروتيين من نقاط تحتاج الى حجج وبراهين مؤيدة . ولهذا آثرنا هنا ان نستند على ما سمعناه من التركمان انفسهم ، وعلى ما رأيناه فى بعض المؤلفات ومن جهة اخرى على آراء بعض المتجولين فى آسيا الصغرى ورواياتهم ، ونسعى مااستطعنا لايضاح هذه النقاط والتقرب من الحقيقة ان لم يمكن ادراكها بذاتها .

وها نحن نشرع بعد هذه المقدمة الوجيزة بنقل كلامهم وآرائهم بهذا الخصوص :

يقول تركمان عكار ، انهم اتوا الى هذه البلاد من انحاء جولان وسوريه في قضاء القنيطرة من اعمال الشام . وذلك قبل « ١٠٠ — ١٥٠ » سنة وان بعض اقاربهم يسكنون الآن في انحاء حمص . وان شجرة نسبهم لاتزال محفوظة عندهم . وهذه الرواية ، وان كانت تدل على ان لتركمان عكار اتصال بتركمان سورية ولكنها لاتزيل الابهام والغموض عن وجه الارومة الاساسية .

اما اقوال تركمان حصن الاكراد ، وآراؤهم في هذه المسئلة ، كادت ان تكون عين اقوال تركمان عكار ، وهي على عين الدرجة من الابهام ، وعدم الوضوح .

اما تركمان حذور فأن اقوالهم شتى ، ومتضاربة . فبعضهم يقول انهم جاؤوا مهاجرين من جهات آطنه ، قبل « ٣٠٠ — ٤٠٠ » سنة . وبعضهم يدعي انتماء العشيرة الى قبيلة « قايي » . وهذه الاقوال المتضاربة تذهب بنا الى الحكم بأحد امرين . ١ — ان هؤلاء من الذين هاجروا مع سليمان شاه ، ولكنهم لم يعرجوا على بلاد الاناطول . ٢ — انهم بعد ان اقاموا في بلاد الاناطول ، او في جهات آطنه ، هاجروا لهذه الديار . واننا سنبين رأينا على ترجيح احدى هاتين الفكرتين في الابحاث الآتية .

واما تركمان خزين وبايرو ، وبوجاق ، فأن اقوالهم متضاربة ايضاً اذ منهم من يقول انهم اتوا من توقات ، وآطنـه في بلاد الاناطول ، وذلك في زمن يجهلونه . ومنهم من يدعي بأنهم اتوا من بلاد ارضروم ، وكماخ . وبعضهم يقول ان السلطان سليم جلبهم ، و سكنهم في انحاء لبنان ولبنان الشرقي ، وفي جوار جبل الاقرع . والبعض يدعي ان فرهاد باشا ، جاء بهم ، واسكنهم هنا في زمان السلطان سليمان وذلك بعد حادثة « جانبرد غزالي » وليس لهذه الاقوال المتنوعة من حجة تاريخية يؤخذ بها ، ولهذا نضطر لان نمزجها مع المعلوم من الاساسات التاريخية ، لنتمكن من استنباط الحقيقة .

١ — يجب ان يكون قدوم تركمان سورية . وبالاخص تركمان بيروت الى هـذه الديار قبل بضع قرون . وبرهاننا على هذا هو كثرة عددهم ، واتساع نطاق مواطنهم ، ومن جهة اخرى بتعاد لغتهم ، ولهجتهم عن اصل اللغة التركمانية ، وقربها من اللغة التركيـة ، وامتزاجها بالكلمات العربية ، ولا سيما بالعربية العجمي . كل هذا مما يدلنا على انهم قدموا الى هذه الاصقاع قبل ثلاثة او اربعة قرون . ولا سيما اذا نظرنا الى مارواه هامر بأن « جانبرد غزالي » الذي خرج على السلطان سليمان ، قد استصحب معه خمسة عشر الفاً من فرسان التركمان والمماليك ، وثمانية آلاف من الرماة ، وذلك لما خرج من الشام متجهاً لاستانبول في تشرين الاول سنة ١٥٢٠ ميلادية الموافق لذي الحجة سنة ٩٢٦ هجرية . فهم ان التركمان كانوا موجودين هنا في ذلك الزمن ايضاً .

٢ — اما قبل هذا التاريخ ، فقد كانت اسرة « آل رمضان » دارنـدة ، وممزقة ، وتيمتر

اتباعها من التركمان فى انحاء حلب — كما بينا آنفاً — والان يوجد منهم جم غفير فى ناحية (اوردو) من قضاء جسر الشغور التابعة لولاية حلب . وبما ان ناحية اوردو متاخمة الى نواحى باير وبوجاق يحتمل ان يكون سكانها من احفاد آل رمضان ايضاً ؛ وانهم جاؤا من بلاد اطنه .

٣ — وقبل هذا التاريخ — كما بينا سالفاً — يذكر هامر انه قد تشتت شمل عشيرة قايى لما سقط سليمان شاه فى نهر الفرات اثناء هجرتهم الى بلاد الاناطول ، وتبعثر افرادها فى انحاء متعددة ، وفى سورية ايضاً . ولهذا يحتمل ان يكون تركمان هذه البلاد من اخلاف قبيلة (قايى) .

*
* *

لقد بحثنا عن هذه المسألة بصورة خصوصية ، واستطلعنا فيها آراء بعض المتجولين فى سورية والاناطول ، وانحاء ارضروم وها نحن نذكر هنا ما اطلعنا عليه من تلك المعلومات الشفاهية .

يجب — على رأيهم — تقسيم تركمان سورية الى قسمين كبيرين فيشمل القسم الاول تركمان باير ، بوجاق ، خزينه اردو ، والقسم الثانى تركمان حمص ، حما ، حصن الاكراد ، عكار ، حوران . فاذا قابلنا بين تركمان بوجاق وخزينه وباير وبين تركمان الاناطول ، نجد فيهم مشابهة تامة لتركمان ارضروم وارزنجان .

اما تركمان حذور ، عكار ، حمص ، حوران الخ فهم يشبهون تركمان (افشار ، الموحدين فى الاناطول ، والذين ينوف عددهم عن عشرات الالوف . نعم اننا نجد السماء واهل القرى من التركمان المتوطنة فى بلاد ارزنجان ، اكين وكماخ كادت تكون كالقرويين والنساء فى باير وبوجاق لاسيما المماثلة فى اللهجة الكلامية فهى على جانب عظيم . وهذه اللهجة لا تبعد عن اللهجة العثمانية .

ويقول مخاطبنا علاوةً على ذلك :

« ان السلطان سليم استجلب من اكناف خراسان مقدار «٨٠ — ٩٠» الف عائلة اى «٥٠٠ — ٦٠٠» الفاً من التركمان واوطنهم ذرى جبال لبنان وحلب وسفوح ... ولكنهم ما زالوا يتناقصون حتى اصبحوا لا يزيدون عن خمسة عشر الف . هذا ولو ... ان تركمان باير وبوجاق قد اتوا من خراسان ، لا ... ان نعترف انهم لبثوا مدةً فى ... ارزنجان . ويثبت هذا ما يرويه بعض امراء التركمان فى كماخ ، ان احد اجدادهم دعى باتباعه من قبل احد السلاطين ليحضر حرب حدثت فى بلاد العرب ، ثم رجع منهم الا القليل ، وتوطن الباقى فى تلك البلاد وليس للكماخيين علم بمكانهم . و... تركمان بوجاق باير ايضاً يروون بالتواتر عن اجدادهم انهم من الكماخيين . فاذا قابلنا هاتين الروايتين ،

بلادنا. فالكلم بان تركمان باير وبوجاق هم من تركمان اوزبجاق ....

اما القسم الثانى ، اى تركمان حمص الاكراد وعكار وحمدور فانهم يشبهون « الافشاريين » فى نضرة وجوههم ، وقوة اجسامهم وبما فى لغاتهم من الغموض وقربها من اللهجة التركمانية .

وقد جاء فى قاموس الاعلام عن قبيلة افشار :

« انها احدى قبائل الاتراك القدماء ، ويسكن منها قسم كبير فى انحاء العراق العجمى من بلاد ايران ، ولها فى جهات الاناطول بضعة فروع ، واسدهم فى لواء يوزغاد فى ولاية انقره . » وخصص « اليزه رهقلوس — Elisée Reclus » احد متخصصى الجغرافية حين تكلمه عن الاناطول فى كتابه الشهير ، بحثاً ضافياً لقبائل آفشار . (*)

نعم ان مقدار الافشاريين الموجودين فى شمالى آطنه ، وبين سيواس وآطنه وحلب . وفى قضاء العزيزية ، ولواء يوزغاد يناهز (١٠٠) الف من النسمات . وانهم اليوم من اهم العشائر التركمانية بالنظر لاحتفاظهم بخالص سجايا قومهم .

ولهم شغف عظيم بلغتهم . ونساؤهم على جانب عظيم من الحرية والاستقلال ، وهن من الاصالة والنجابة الروحية على ما يجعلهم قدوةً لغيرهم من عشائر التركمان .

فاذا لاحظنا ان تلك الشمائل موجودة فى تركمان حاور وعكار وجوارها ، وشاهدنا جمال نسائهم وبهائها ، يحصل لدينا غالب الظن بانهم من الافشاريين . وهم يتقاربون فى زى اللباس ايضاً . وعليه يمكن ان يكون الافشاريون نحطوا الى جهة سورية حين مهاجرتهم الى الاناطول .

هذا واننا نشكر لمن حبانا بهذه المعلومات صنيعهم ؛ ونعترف بان الآراء التى بيناها فى ايضاح منشأ تركمن بيروت لا تكفى لتنوير الصحائف التاريخية . بل يجب على المجهزين بالوسائط الكافية من ارباب العلم والاطلاع ان يتحفونا بما ينفذ الى كبد الحقيقة فى هذه المسئلة .

—٧—

الاديان والمذاهب

يمكن تفريق السكان فى القسم الشمالى من ولاية بيروت ، من حيث الدين الى (مسلمين ، ونصارى ويهود . فالمسلمون منهم (السنيون ، والاسماعيليون ، والنصيرية) . اما النصارى ففيهم « الكاثوليك ، والارثودكسى ، والمارونيون ، والبروتستانت ... الخ » . وبما اننا

(*) راجع قسم L'Asie Antérieur من كتاب Géographie universelle ص ٥٣٩

بحثنا عن هؤلاء الاقسام فى المجلد الاول ما عدا الاسماعيلية والنصيرية؛ تصرف النظر عن تكرارها ، ونكتفى بالبحث عن هاتين الفرقتين الاسلاميتين .

١ — الاسماعيلية والاسماعيليون

يجب علينا فى البحث عن ظهور مذهب (الاسماعيليين) الذين عرفهم التاريخ منـذ الف ومائتى سنة ، واحرزوا من قوة النفوذ الفكرى والسلطان الادبى ما جعل لهم مجالاً من غرب الشمال لافريقا الى اقصى حدود العجم الشرقية والتنقيب عن عوامل انتشاره وتفشيه ، إن نرجع بالنظر الى عصر الاسلام الذهبى ، ونضبط الخطوط الاساسية لما ارتسم تباعاً على صحائف التاريخ من « الفرق الاسلامية » التى نافت بعددها عن ستمائة . لانه لا يمكن لعثور على الفروق الاصلية بين المذهب السنى المعروف ، وبين العقائد الاخر التى سنفيض فى تشريح ماهيتها ؛ الا فى معتقدات تلك الفرق التى ربما تنزع الى ما لا يتوقع من الغايات . وبهذا نتمكن من تحليل تلك الفروق وايضاحها . والا فان رابطة المذهب الاسماعيلى بالاعتقادات الاسلامية تنخفض لدرجة لا يكاد يحس بها .

ولهذا نضطر لان نبحث على سبيل الاجمال عن الفرق الاسلامية :

[١] — الفرق الاسلامية — ان القرآن العظيم هو اس الديانة الاسلامية . وقد نزل بلسان مبين على اقوام هم من الفصاحة فى الدرجة القصوى ، فلم يكن ليحدث اختلاف فى فهم معانيه واحكامه ؛ ومن جهة اخرى كانت الاحاديث النبوية تمزق ما يخالج الاذهان من الشكوك وتجلى غياهب الظنون الباطلة ، فاصبح سيد الكونين محاطاً بهالة من الوحدة الاسلامية امتن من البنيان المرصوص .ولم يكن هنالك داع لتشكل الفرق وتأسسها :

وكانت احكام الدين الاسلامى فى عصر النبوة سهلة التلقى لدرجة لم نر فيهـا تلك المعتقدات الخاصة التى خلقت الفرق الاسلامية فى الازمنة المتأخرة ، خالجت فكر احد من الصحابة الكرام ، ولم يحدث لديهم حادث يخل بالوحدة الاسلامية . وما سبق لهم تردد يستلزم السوآل عن نصوص القرآن الناطقة « بالصفات الازلية » — كما ذكر المقريزى — بل ان صفة « العلم ، والقدرة ، والحياة ، والارادة والسمع ، والبصر والكلام ... الخ » كانت مفهومة لدى جميعهم بحسب التعاليم القرآنية ، ولذلك لم يحدث بينهم اختلاف فى هذا الشان قط . والمناقشات التى اخذت تحدث منذ عصر النبوة الى خلافة على رضى الله عنه لم تكن الا اختلافات اجتهادية [*] ؛ ولم تتجاوز العشيرة بعددهـا فى مدة نصف قرن واكثرها كان يحسم فوراً . فنها

(*) كتاب الملل والنحل — لابى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى

١ — الاختلاف الحادث بسبب حديث النبي في مرضه الاخير (ائتوني بدواة وقرطاس فاكتب لكم كتاباً لا تضلون من بعدى) [*] . ولم يلبث ان حسم في الحال

٢ — ما كان من امر رسول الله (صلعم) بشان تجهيز جيش اسامه . وهذا الاختلاف لم يطل ايضاً بل حسم على الفور .

٣ — ما كان من هياج عمر رضى الله عنه عقب وفاة النبي (صلعم) حيث قال [من قال ان رسول الله (صلعم) مات علوته بسيفي هذا . . .] ، وهذه الحدة من عمر لم تلبث ان خمدت بقراءة ابي بكر رضى الله عنه آية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ؟] .

٤ — الاختلاف في تعيين موضع دفن النبي (صلعم) وقد حسم بهذا الحديث (الانبياء يدفنون حيث يموتون) .

٥ — الاختلاف في مسئلة الامامة والخلافة . وقد حسم بما كان من البيعة لابي بكر رضى الله عنه . ومع ذلك لم يزل هذا الاختلاف آخذاً نصيبه من التأثير في النفوس .

٦ — ارث النبي (صلعم) وقد حسم بالحديث الشريف الذى نصه (نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة)

٧ — الاختلاف بشأن (الزكاة) في زمن ابي بكر ، ولم يدم كثيراً

٨ — الاختلاف الناشيء عن نصب ابي بكر لعمر خليفة من بعده ، وبعض اختلافات في خلافة عمر بشأن الارث والحدود الشرعية ، وما لبثت ان حسمت على الفور .

٩ — الاختلاف الذى نشأ عن الآراء المتخالفة بشأن (الشورى) اثناء انتخاب عثمان رضى الله عنه للخلافة . وقد حسم ايضاً .

١٠ — آخر ما حدث من الاختلاف ، وأهمه ، كان في ايام خلافة على رضى الله عنه وموضوعه كيفية انتخاب الخليفة وشرائط الاهلية في الخلافة ، وهذه المسئلة اوجبت تكون كثير من الفرق الاسلامية . نعلم من هذا الايضاح الاجمالى ان اهم اختلاف حدث بين المسلمين هو مسئلة (الخلافة) .

ان مسئلة الخلافة اخذت بعد وفاة النبي (صلعم) دوراً مهماً ، وكانت من اهم المسائل الخلافية ، على انها لم تحدث في زمن الخلفاء الثلاثة . وقد تكونت فرقة الخوارج في زمن على (رضى الله عنه) ، واعقبها اتحاد المتحزبين له فاسسوا مذهب الشيعة . وكان موضوع [illegible] بين الفرقتين هو [illegible]لى رضى الله عنه ، اذ كانت الاولى ترى وجوب قتاله ، والاخرى غايتها الدفاع عنه ، ولهذا السبب كانتا في بادىء امرهما كفرقتين سياستين ، ولكن لم يطل

---

*) روى هذا الحديث محمد ابن اسماعيل البخارى . منسوباً لعبدالله ابن عباس

الامر، حتى انغمسنا فى المسائل الدينية فاصبحت صبغتها حربياً من الدين فى السياسة . وما لبث بعض المتشيعين ان اغرقوا فى المسائل الدينية وبالغوا بالغلو فقالوا بحلول الالوهية فى على بن ابى طالب ، وانتقالها من بعده الى الخلفاء الذين هم من نسله ، وان اكبر سائق لهذا الغلو فى الدين ؛ هو تأسيس قدرة دينية تقابل الوحدة الاسلامية ، وتكون حجاباً تدس المقاصد السياسية من ورائه . وما كان هذا الا بتسلط الروح الايرانية ، تلك العجوز الشمطاء . وما كادت شخصية على رضى الله عنه تدخل التاريخ ، الا وانعقدت حولها هالة من العقائد ، واخذت تربو ، وتتكاثف بتوالى الادوار ، فى مدة ثلاثة قرون او اربعة ، تجت بالعقائد المتباينة عند (الاسماعيليين ، والنصيرية ، والدروز) . ويمكننا ان نقول ؛ لا تنطوى القرون التاريخية على شخصية اضطربت لها الاسلامية كشخصية على رضى الله عنه):

ثم تأسس فى زمن الصحابة — غير الفرق التى ذكرناها — مذهب « القدرية » لمبدعيه (معبد الجهنى) ، (غيلان الدمشقي) ، (يونس الاسوارى)

وبعد عصر الصحابة اسس (جهم بن صفوان) مذهب (الجهمية) (وواصل بن عطاء) مذهب (المعتزلة) ، وتأسس مذهب (المشبهة) لقاء المعتزلة وبعد هذا مذهب (الباطنية).

ان الانهماك فى مطالعة الكتب الفلسفية التى ترجمت عن لغات مختلفة فى زمن (المأمون) سابع خلفاء العباسيين فى القرن الثالث للهجرة ، ونتيجة الميل المفرط للاساطير القديمة. اوجدا الطرائق المتباينة . اشتدت وطأة (غلاة الشيعة) المعتقدين بالحلول والتناسخ وعلا امرهم فى زمن الدولة (الفاطمية) فى الغرب ، (وآل بويه) فى الشرق ، واحتدم الجدال بينهم وبين اهل السنة ، ثم مالبث ان استحال الى حرب طحون . واصبحت مآت من الفرق الاسلامية كالقدرية والجهمية والمعتزلة والخوارج والشيعة والباطنية . . . الخ تنفث فى البلاد الاسلامية سموم الاختلاف والعدوان . وتزج بالاسلامية الى مهاوى البوار .

لا بأس ان نجمل هنا العوامل والمؤثرات الدينية التى ادت الى تكون هذه الفرق الاسلامية — بصرف النظر عن المطامع السياسية — .

يمكننا ان نحصر المسائل الاصولية التى كانت سبباً للاختلافات فى اربعة اسس . (*)

الاساس الاول — مسئلة الصفات والتوحيد . والاختلاف فى اثبات الصفات الازلية ، او نفيها ، ثم فى (صفات الذات) و (صفات الفعل) . واى هذه الصفات واجبة لله ، او جائزة ، او مستحيلة . وهذا الاختلاف هو بين الاشعرية ، والكرامية والمشبهة ، والمعتزلة .

الاساس الثانى — مسئلة العدل والقدر . وهى عبارة عن اثبات ، او نفى القضاء

(*) الملل والنحل — للشهرستانى

والقـدر، والجبر، والتنزيه، والتشبيه والتقديس، وهذا الاختلاف كان بين الشيعة والجبرية والاشعرية والكرامية .

الاساس الثالث — مسائل الوعد والوعيد، والاسماء والاحكام : وقد اختلفوا في اثبات، او نفي الايمان والتوبة والوعيد والارجاء والتكفير والتضليل، وهذا الاختلاف كان بين المرجئة والحرورية والمعتزلة والاشعرية .

الاساس الرابع — مسائل السمع والعقل، والرسالة والامامة : والاختلاف هنا في خصوص التحسين في النبوة والتقبيح، والصلاح والاصلح واللطف والعصمة، ثم في شروط الامامة، وكيفية انتقالها أبالنص، او بالاجماع . وهذا الاختلاف هو بين الشيعة والخوارج والمعتزلة والكرامية والاشعرية .

ما لبث (علم الاصول والفروع) الذي اخذ يتأسس في القرن الرابع للهجرة . ان تقرر على شكل قويم، بهمة الائمة الاربعة اصحاب المذاهب، وآخرين معهم . وبه عصمت عقائد (اهل السنة والجماعة) من الخلل، وعليه انحل اكثر الفرق المتغالية . وانحصر الاختلاف بين فرقتين عظيمتين « السنية » و« الشيعية » في مسائل محدودة كالامامة والاجتهاد والتفسير . وانحصر غلاة الشيعة في فرقة (الدروز) و(الاسماعيلية) و(النصيرية) . ومع هذا فان بذور الشقاق الذي زرعته مئات من الفرق التي نوهنا عنها آنفاً ما فتئ ان اثمر بالويل والخراب، واخذ بتلابيب الامة الاسلامية يجرها الى مهاوي السؤ والانحطاط .

* * *

لنتكلم بعد هذه المقدمة المجملة، على الفرق بصورة خصوصية . لا يستطاع قطعياً تعيين عدد الفرق الاسلامية باعتبار فروعها . ولذلك يتحتم علينا ان نرجعها الى اصول جامعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة والباقون هلكى) .

فقيل من هي الناجية يا رسول الله فقال (اهل السنة والجماعة) وسئل عن اهل السنة والجماعة فقال :

« ما انا عليه اليوم واصحابي » .

ثم قال :

« لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق الى يوم القيامة » .

وانما نعتبر ان اول فرقة اسلامية هي فرقة (اهل السنة والجماعة . اما ما بقي من الثلاث وسبعين فرقة فالبعض يرجعهم الى اربع (القدرية، والصفاتية، الخوارج، والشيعة) . والبعض يعتبرهم عشرة : (المعتزلة والمشبهة والقدرية والجبرية والمرجئة والحرورية

والنجارية والجهمية والخوارج والشيعة) . واننا سنأخذ فى بحثنا هذا بالتصنيف الثانى ، ونعتبر الفرق المذكورة عشرة اصول . وان لبعض هؤلاء معتقداً يقارب معتقد (السنيين) فى بعض نقاطه ، ويخالف الاسس الاسلامية عن بكرتها فى نقاط اخرى ، وها نحن نفصل تلك الفرق على الوجه الآتى :

١ — المعتزلة

اشتهر منتسبو هذه الفرقة باسم (اصحاب العدل والتوحيد) ايضاً وانهم يقولون بنفى الصفات والتشبيه ورؤية البارى . ويعتقدون بان القرآن مخلوق ؛ وان العبد هو خالق فعله ، وانه لا يجوز اسناد الشر والظلم الى الله ، وان الحكيم يعمل الصالح ، وان المؤمن يستحق الثواب اذ مات عن توبة وطاعة . وان الكبيرة اذ لم تعقب بتوبة توجب الخلود فى النار ، وانه تجب المعرفة والشكر على النعمة قبل ورود السمع ، وان الحسن والقبيح مدرك بالعقل ، فيجب اعتناق الحسن واجتناب القبيح . . . الخ . وقد اتفق جميع فرق المعتزله على هذه المسائل ، ولكنهم افترقوا فى مسئلة الامامة

ان للمعتزلة عشرين فرعاً . واننا نذكر هنا اسمائهم مع اسماء مؤسسيهم :

١ — الواصلية (واصل بن عطاء حذيفة الغزال) ٢ — (عمرويه) (عمرو) ٣ — الهزيليه (ابو هزيل محمد بن الهزيل العلاف) ٤ — النظامية (ابراهيم بن سيار النظام) ٥ — الاسوارية (ابو على عمر بن قائد الاسوارى) ٦ — الاسكافية (ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافى) ٧ — الجعفرية (جعفر بن حرب بن ميسرة) ٨ — البشرية (بشر بن المعتمر) ٩ — المزدارية (ابو موسى عيسى المزدار بن صبيح) ١٠ — الهشامية (هشام بن عمر الفوطى) ١١ — الحائطية (احمد بن حائط ١٢ — الحدارية (هى شعبة من معتزلة عسكر مكرم) ١٣ — المعمرية (معمر بن عباد السلمى) ١٤ — التمامية (تمامه بن اشرس النميرى) ١٥ — الجاحظيـة (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) ١٦ — الخياطية (ابو الحسين بن ابى عمرو الخياط) ١٧ — الكعبية (أبو القاسم عبدالله بن محمد بن محمود البلخى الكعبى) ١٨ — الجبائية (ابو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى) ١٩ — البهشمية (ابو هاشم عبد السلام بن ابى على الجبائى) ٢٠ — الشيطانية (محمد بن نعمان المعروف بشيطان الطاق)

وللمعتزلة فروع اخرى ما عدا هذه الفروع التى عددناها وهى : التنوية ، الكيسانية النا كتية ، الاحمدية ، الوهمية ، البترية ، الواسطية ، الواردية ، الحرقية ، اللفظية :

وهى على مكانة عظيمة بين الفرق الاسلامية ونطاق تأثيرها واسع جداً . ولكن اضربنا عن تفصيل طرائقها واحدة واحدة ذلك لان علاقتها مع « الاسماعيليين » الذين هم من غلاة الشيعة قليلة

٢ . المشبهة

ان هذه الفرقة تتغالى فى اثبات الصفات الآلهية على خلاف الشيعة ومنها من يبلغ به التفريط الى ان يصور للخالق تمثالاً . وتسمى هذه الفرقة « صفاتية » ايضاً . ولهـا فروع كثيرة نعدها مع اسماء مؤسسيها على الوجه الآتى :

١ — الهشامية او الحكميـة (هشام بن الحكم) ٢ — الجولقية (هشام بن سـالم الجوالقى) ٣ — البيانية (بيان بن سمعان) ٤ — المغيرية (المغيرة بن سعيد العجلى) ٥ — المنهالية (منهال بن ميمون) ٦ — الزرارية (زراره بن عين) ٧ — اليوانيـة (يونس بن عبد الرحمن العتمى) ٨ — الكرامية (محمد بن كرام السجستانى) . ولهـا احزاب غير هؤلاء كالسابية والشاكيـة ، والعملية والمستثنية ، والبدعية والدشرية والاثريـة والهيضمية ، والاسحاقية والجندية .

وان بعض فروع هذه الفرقة ، هو فى عين الزمن فرع للشيعـه ، ولذلك سنبحث عن عقائدهم بصورة خصوصية .

٣ . القدرية

تتغالى هذ الفرقة باثبات قدرة للعبد ، على الخلق والايجاد . ويقولون لا يحتاج العبد الى معونة الخالق . وبعض هؤلاء من المعتزلة .

٤ . الجبرية ، او المجبرة

وغلو هذه الفرقة هو فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده ، ومع الفعل ، ومنهم من لم يقبل بكسب لعبد واختياره . وتفترق هذه الفرقة الى ثلاثة احزاب . وها هى اسماؤهم واسماء مؤسسيهم :

١ — الجهمية (جهم بن صفوان الترمذى) وهذه الفرقة تقول بنفى الصفات الالهية ايضاً . ٢ — البكرية (بكر) . وهـذا الرجل يحرم بعض المأكولات (كما هو عند الصوفية) . ٣ — الضرارية (ضرار بن عمرو) ولها فروع غير هؤلاء كالنجـارية ، والبعيثية والصباحية والفكرية والخوفية .

٥ . المرجئة

ان ارباب هذه الفرقة يرجون من الله ثواباً لذوى المعاصى ، ويعتقدون ان المعصية مع وجود الايمان لا توجب مضرة ، والعكس ان الطاعة مع الكفر لا تجدى نفعاً . ويرجئون حكم ذوى الكبائر الى الآخرة . وانهم على غلو فى اثبات الوعد والرجاء ونفى الوعيد والخوف عن المؤمنين .

ينقسم هؤلا الى ثلاثة اقسام : القسم الاول:— هو اعتقاد غيلان من بنى ضيفه ، وابو شمر ويجمعان بين الرجا والقدر . والثانى — اعتقـاد (جهم بن صفوان)، وهو يجمع بين الارجا والجبر، والثالث — اعتقاد الارجا المحض . وله اربعة احزاب . ١— اليونسية (يونس بن عمرو) ٢ — الغسانية (غسان بن ابان الكوفى) ٣ — الثوبانيـة (ثوبان) ٤ — التؤمنية (ابو معاذ التؤمنى) . ولهم غير هؤلا . المريسية ، والصالحية ، والجحدرية والزيادية والشبيبية والناقضية . ومن هؤلا من يصل فى الغلو الى انكار نبوة عيسى عليه السلام .

٦ . الحرورية

وتسمى با(لوعيدية) . وارباب هذه الفرقة تسلقوا جبل (حروراء) لقتـال على بن ابى طالب . وغلوهم فى اثبات الوعيد والخوف على المؤمنين.ويعتقدون بامكان الخلود فى النار مع تحقق الايمان ، ويفترقون عن المرجئةبالوعد والوعيد ،والنفى والاثبات.وباعتقادهم الشرك فى مقترفى الكبائر ويفترقون عن الخوارج الذين يعتقدون بكفرهم .

٧ . النجارية

وهؤلاء هم حزب (حسن بن عبد الله النجار) يتحدون مع اهل السنة فى مسـائل القضاء والقدر . والوعد والوعيد وامامة ابى بكر رضى الله عنه . ومع المعتزلة فى خلق القرآن . ونفى الصفات ورؤية البارى . والبرغوثية والزعفرانيـة والمستدركة هى من توابعها .

٨ . الجهميه

هم حزب (جهم بن صفوان) . ومن ذكرهم مع الفرقة (المجبرة) . وارباب هـذه الفرقة يتحدون فى مسئلة القضاء والقدر مع السنيين مع ميل قليل للجبر . ويعتقدون بخلق القرآن ، وينفون صفات البارى . ورؤية الله :

٩ . الخوارج

ويسمون با (لنواصب) . ويتغالون فى حب ابى بكر وعمر وبغض على رضى الله عنهم . ويفترقون الى عشرين فرقة كبيرة .

١ — الحـكمية : خرجوا على على رضى الله عنه فى حرب صفين ويعتقدون ان لاحكم للرجال . والحكم مختص بالله وحده . ٢ — الازارقة . وهم اتباع (نافع بن الازرق) . وخرجوا فى زمن عبد الله بن الزبير فى البصره . ٣— النجدات . وهم اتباع (نجد بن

عويمر) وهذا خرج فى عهد الوليد ثم ارسل الى عطية بن الاسود [illegible] الى سجستان، ونشر مذاهبه فى (مرو) . ٤ — الصفرية (زياد بن الاصفر) ٥ — العجاردة (عبد الكريم عجرد) ٦ — الميمونية (ميمون بن عمران) ٧ — الشعيبية ٨ — الحمزية ؛ وهم اتباع (حمزة بن ادرك الشارى) الذى خرج فى زمن خلافة الرشيد العباسى فى خراسان ٩ — الخازمية . ١٠ — فرقتا المعلومية والمجهولية ١١ — الصلتية (عثمان بن الصلت) ١٢ — الاخنسية ١٣ — المعبدية ١٤ — الشيبانية وهم اتباع (شيبان بن سلمة) الذى خرج فى زمن ابى مسلم الخرسانى . ١٥ — الشبيبية (شبيب بن يزيد بن ابى نعيم) الذى خرج فى زمن عبد الملك بن مروان ١٦ — الرشيدية ١٧ — المكرمية (ابن المكرم) ١٨ — الحفصية (حفص بن المقدم) . ١٩ — الاباضية (عبد الله بن اباض) الذى خرج فى زمن مروان ٢٠ — اليزيدية وهم اتباع (يزيد بن ابى انيسة) . ويعتقدون ان الله سيرسل رسولاً من بلاد العجم وينزل عليه كتاباً ينسخ فيه الشريعة المحمدية . وللخوارج اقسام اخرى ماعداهذه كالحارثية.والصومية والبهيسية.واليعقوبية والفضلية والشمراخية . والضحاكية .

١٠ . الشيعية

ان اشياع هذه الفرقة يحبون علياً بن ابى طالب محبة عظيمة . وسموا بهذا الاسم لانهم اشباع لعلى .

ولما حصل التردد فى اسناد الخلافة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم لابى بكر اوللعباس بن عبد المطلب ، او لعلى بن ابى طالب او لعثمان بن عفان ... الخ كانت هذه الفرقة تدعى بانها لعلى .

ويعتقدون ان الخلافة والامامة لعلى جلياً وخفياً ، نصاً ووصايةً ولا تنفك بعده عن اولاده واذ انفكت فاما عن تقوى منهم واما عن ظلم من غيرهم [*] ولا تترك الامامة للرأى العمومى بل هى اساس يرتكز عليه ركن الدين ، ولا يسوغ للنبى عليه السلام اغفال او اهمال الامامة او تفويضها لاحد . والائمة معصومون عن الكبائروالصغائر .

ان جميع الفرق الشيعية على اتفاق فى هذه المسائل . ولكنهم اختلفوا فى مسئلة الامامة بعد على رضى الله عنه وافترقوا الى اكثر من ثلاثمائة حزب .

فبعضهم يقول ان الخلافة والامامة تعينت بالنص لعلى ، ومن بعده للحسن والحسن ، واما الذى بعدهم فيكون بالانتخاب . والبعض يقول بانها محصورة فى على فقط . ومنهم من يقول انه نص على على بالوصف لا با « العين » و « الاسم » ، والآخر يقول بان النص

(*) كتاب الملل والنحل — الشهرستانى .

يخص الائمة الاثنى عشر الذين سيكون آخرهم « المهدى المنتظر »

على ان هؤلاء الذين قالوا بخلافة على واولاده وامامتهم لم يلبثوا ان اظهروا الغلو واخذوا يسبون بعض الصحابة ويشتمونهم ثم سرى اليهم من اساسات الرافضة اعتقاد « الغيبة والرجعة » والبدأ والتناسخ والحلول والتشبيه » وكانت الفرقة التى تسمى (غلاة الشيعة) او (الغالية) » ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل اعتقد بعضهم بنبوة على » وحتى بالوهيته . ولهذا تنقسم الشيعة اولاً باعتبار الامامة ، وثانياً باعتبار الغلو الى اربعة اقسام :

١ — الكيسانية ، يعتقدون بان الخلافة بعد على لمحمد بن الحنفية .

٢ — الزيدية ، يعتقدون بانها لزيد بن على .

٣ — الامامية ، يعتقدون بانها للحسن والحسين .

٤ — اما (غلاة الشيعة) فانهم معروفون بالغلو والمبالغة فى الامامة واشهرهم (الخطابية والسبائية والكاملية والبيانية والمغيرية والهشامية والزرارية والجناحية والمنصورية والغرابية والذمية واليونسية والرزامية والنعمانية والبسلمية والجعفرية والصباحية) وهم سبع عشر فرقة . ووجد فى الفرق الثلاث الاصلية ايضاً من اتبع الغلو . ولهذا يمكننا ان نعتبر عدد فرق الشيعة عشرين فرقة . وها نحن نذكر اسماء هذه الفرق مع اسماء مؤسسيهم على الوجه الآتى :

١ — الكيسانية :

هم اتباع (كيسان) مولى على بن ابى طالب ، وهم يقولون بان الخلافة لمحمد بن الحنفية بعد على ، ويختلفون فيمن بعده فقسم يقول بانها رجعت الى اولاد الحسن والحسين وقسم يقول بانتقالها لابى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية .ومن هؤلاء فرقة (الكربية) التى تعتقد بان محمد بن الحنفية لا يزال حيا وهو الامام المنتظر .

٢ — الزيدية :

هم اشياع زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب . ويعتقدون بامامة زيد ويرضون بامامة من جمع فى نفسه هذه الستة شروط ، العلم والزهد والسخاء والشجاعة وجمال الطلعة ؛ وكان من اولاد فاطمة حسنياً او حسينياً ، ويتفق اشياع هذه الفرقة مع المعتزلة فى جميع المسائل ما عدا الامامة . ولهم اربعة اقسام :

١ — الجارودية ، هم اشياع (ابى الجارود) او (ابى النجم زياد بن المنذر العبدى) ويعتقدون ان صاحب الشريعة نص على امامة على بالوصف — لا بالتسمية — ويحكمون بكفر من امتنع عن البيعة لعلى والحسن والحسين .

٢ — الجريرية . وهم اتباع (سليم بن جرير) . ولا يعتقدون بكفر الناس الذين لم

يبايعوا علياً ، ولكنهم يقولون بأنهم مخطئون لتركهم الافضل وهو علي ٣ — الابترية ، وهم اشياع (حسن بن صالح بن كثير الابتر) ويزعمون ان علياً هو الافضل ، والاولى بالامامة . ومع ذلك فأن ابا بكر امام ، ولم تكن امامته خطأً ولا كفراً ، بل ان علياً تركها له . ٤ — اليعقوبية هم اتباع (يعقوب) ويقولون بأمامة ابي بكر وعمر ويتبرؤن من الذي يتبرأ منهما . وينكرون رجوع الاموات الى الدنيا قبل يوم القيامة ويتبرؤن ممن يأخذ بهذا الاعتقاد . وانهم يفضلون علياً على ابي بكر وعمر دون ان يتهمون احداً من الاصحاب بالفسق او الكفر ، ولا يطعنون فى احد منهم ولا يلعنون .

٣ — الامامية :

يعتقدون بأن الامامة بعد صاحب الشريعة منصوص عليها لعلى واولاده ، وبعضهم يقول بأرتداد الاصحاب الكرام ماعدا علي والحسن والحسين ، وابي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي ، وبضعة اشخاص من الصحابة .

وهذه الفرقة تتفق على امامة الائمة من علي الى (جعفر الصادق) اي [علي بن ابي طالب ، حسن بن علي ، علي بن حسين، محمد بن علي ، جعفر بن محمد الصادق]. ويختلفون فيمن بعدهم . لان لجعفر الصادق خمسة ، وعلى رواية ستة اولاد [*] . محمد ، اسحق عبد الله ، موسى ، اسماعيل ، علي . واختلف فى من يجب ان تنتقل اليه الامامة بعد هؤلاء الستة وبعضهم يعتقد بتوالى الامامة وتتابعها فى اشخاص معينة، ومنهم من يقطع السلسلة ويقف بها عند حد . ولم يلبث ان طرأ عليهم الغلو وتفرقوا فرقاً كثيرة ؛ منها فرقة « القطعية » ، وهي تعتقد بتسلسل الامامة فى « علي ، والحسن والحسين ، وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر ، وعلي بن موسى » ثم تنقطع السلسلة وتقف على هذا الحد .

(الناوسية) تعتقد بأن جعفر بن محمد لم يمت ، وهو لم يزل حياً .

(الشميطية) اتباع يحيى بن شميط الاحمس ، ويعتقدون ان الامامة انتقلت بعد جعفر لابنه محمد واولاده .

(المعمرية) اتباع معمر ، يعتقدون ان الامامة انتقلت بعد جعفر لابنه عبد الله ومنه لاولاده .

(الموسوية) : يعتقدون ان الامامة كانت بعد جعفر لابنه موسى ، وان موسى لم يزل حياً ، وهو الامام المنتظر .

(الزرارية) اتباع زرارة بن اعين ، يذكرون ان الامامة بعد جعفر كانت لابنه عبد الله ،

[*] كتاب الملل والنحل ، للشهرستاني

وانه سؤل عن اسئلة فعى عن الجواب ، فكانت لاخيه موسى ، ويقولون ان عبد الله اقر بذلك .

(المفضلية) : اتباع المفضل بن عمرو ؛ يعتقدون بأن الامامة كانت بعد جعفر لابنه موسى ثم انتقلت بعد وفاته لابنه محمد بن موسى .

(المفوضة) ؛ يعتقدون بان الله خلق محمداً ، وفوضه خلق العالم وادارتهم .

(الاثنى عشرية) ، وهم يقولون بانتقال الامامة من جعفر الصادق الى موسى الكاظم ثم الى على بن موسى الرضا ، ثم الى محمد بن على التقى ، ثم الى على بن محمد النقى ، ثم الى الحسن بن على الزكى ، ثم الى محمد بن حسن العسكرى المعروف عندهم بالمهدى . ويعتقدون انه اختفى فمنهم من يقول بوفاته ومنهم من يعتقد خلافها ، وينتظرون رجوعه.

(الاسماعيلية) وهذه شعبة من الامامية . تعتقد بان الامامة بعد جعفر الصادق هى لابنه اسماعيل بن جعفر . وقد طرأ الغلو على معتقد هذه الفرقة . وخرجت من شكلها الاساسى. واننا سنبين هذه النقاط على وجه التفصيل . ومن هذا نعلم ان الاسماعيلية هى من الامامية باعتبار الاصل . ثم انقلبت الى (غالية) ومن فروعها (المباركية) التى تعتقد بامامة محمد بن اسماعيل بعد ابيه و(الباطنية) وهم يقولون بانتقال الامامة بعد محمد بن اسماعيل الى ائمة خافية وباطنية : فالاسماعيليون الذين هم من غلاة الشيعة هم هؤلاء [*]

٤ — الخطابية :

هم شيعة « ابى الخطاب محمد بن ابى زيب الاسدى الاجدع » ومذهبه الغلو فى محمد بن جعفر الصادق . وهو من المشبهة ايضاً . وتنقسم هذه الفرقة الى خمسين شعبة كلهم تتفق الرأى فى المواد الآتية :

« ان علياً واولاده من الائمة» كلهم انبياء. ويجب ان يكون لكل امة رسولان، واحد « ناطق » والآخر « صامت » . فمحمد كان رسولاً « ناطقاً » وعلى رسولاً « صامتاً » . وان جعفر بن محمد الصادق نبى ايضاً وانتقلت النبوة بعده الى « ابى الخطاب الاجدع »

اما فرقة « المعمرية » من الخطابية . تقول بان الامامة انتقلت من ابى الخطاب الى «معمر». وان الدنيا ليست بفانية . وان الجنة هى التنعم بخير الدنيا . و جهنم هى الحرمان منه. ويستحلون من المحرمات الخمر و الزنا . ويقولون بجواز ترك الصلاة . ويعتقدون التناسخ . ويزعمون ان الانسان لايموت . ولكن تنتقل صفاته واحواله الى غيره .

وفرقة «البزيعية » . تقول ان « جعفر بن محمد اله » . وهو على غير الشكل الذى يرى فيه . وهو تراءى بهذا الشكل . وان الوحى ينزل على كل مؤمن .وكل فرد من اتباع الفرقة

[*] ان الفرقة التى سنبحث عنها على وجه التفصيل هى هذه

هو جبريل بن جبرائيل وميكائيل ومحمد ، ولا يعلم من مات ان يظهر ...

ويدعي هؤلاء ان جعفر بن محمد الصادق ترك لهم كتاباً يسمى « الجفر » وانه يحتوي من « علم الغيب » و « تفسير القرآن » على جميع ما يحتاجون اليه .

ويذهبون الى ان المراد من كلمة « بقرة » في آية « ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة » هي عائشة ام المؤمنين ومعنى « الخمر والميسر » هو ابو بكر وعمر .

٥ — السبائية :

هم اشياع عبدالله بن سبا . وسبق لهذا ان خاطب علياً رضي الله عنه وقال له « انت آله » .

٦ — « الكاملية » :

هم اشياع ابي كامل ، وهذا يكفر جميع الصحابة لامتناعهم عن البيعة لعلي ، ويكفر علياً ايضا لانه ترك قتالهم . وهو يقول بانتقال الانوار الالهية الى الائمة على طريقة التناسخ .

٧ — البيانية :

هم اتباع « بيان بن سمعان » ، ويعتقدون بحلول الروح الآلهية في الانبياء ، ثم في علي ، وبعده في ابنه محمد بن الحنفية ، وبعده في ابنه ابي هاشم عبدالله بن محمد ، وبالتهاية في « بيان بن سمعان »

٨ — المغيرية :

هم اشياع « مغيرة بن سعيد العجلي » . ومغيرة هذا ادعى ان الامامة بعد محمد بن عبدالله بن حسن استقرت له . ولم يلبث ان تنبأ وادعى ان معجزته علمه بالاسم الاعظم ، وانه يقتدر على احياء الموتى . وزعم ان الله لما شاء خلق العالم ، كتب اعمال عباده بسابعه ؛ فاغضبته المعاصي ، وعرق ، فكان من عرقه بحران ، الواحد عذب ، والآخر أجاج فخلق من العذب « الشيعة » ومن الاجاج « الكفار » ؛ وان المهدي الذي هو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب سيظهر بعد .

٩ — الهشامية :

هي فرقتان . الاولى اشياع « هشام بن الحكم » ، والثانى اتباع « هشام الجواليقي » ، وهم يعتقدون ان العصمة لا تجوز في الائمة ، وتجوز في الانبياء ، ويزعمون ان محمداً عصى ربه في فداء العبيد من اسرى بدر ، وهذه الفرقة من « المشبهة » ايضا .

١٠ — الزرارية :

هم اتباع « زرارة بن اعين » ، وهذا يعتقد ان الله لم يكن عالما وقادراً ، بل احرزها بالكسب .

١١ — الجناحية :

هم اشياع « عبدالله بن معاوية ذى الجناحين » . وهذا يزعم انه آله ، وان العلم ينمو فى قلبه ، وان الروح الالهية تجلت فى الانبياء ، ثم فى على واولاده ، ثم انتقلت اليه . واحل الخمر والميتة ، ونكاح المحارم ، وانكر القيامة ، ودليله على هذا قوله تعالى [ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فى ما طعموا اذا ما تقوا وآمنوا وعملوا الصالحات » الآية . ويعتقدون ان الميتة والدم ، ولحم الخنزير فى الآية هى رموز للكناية عن الذين يجب بغضهم . وهم ابو بكر وعمر وعثمان ومعاوية . والفرائض التى امر بها القرآن . هى ايجاب موالاة من تجب موالاتهم كعلى والحسن والحسين واولادهم .

١٢ — المنصورية :

هم اتباع « ابى منصور العجلى » . وهذا يزعم ان الامامة انتقلت اليه من محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن حسين بن على بن ابى طالب . ويعتقد ان على بن ابى طالب واولاده هم من اهل الجنة ، وان ابا بكر وعمر وعثمان ومعاوية هم من اهل النار .

١٣ — الغرابية :

يزعم اشياع هذه الفئة ، ان جبريل بعث بالرسالة الى على فأخطأ وذهب بها الى محمد ، ولهذا لا يزالون يلعنون « صاحب الريش » اذا خلوا بانفسهم ، ويقصدون من « صاحب الريش » جبرائيل .

١٤ — الذمية :

يزعم اشياع هذه الفئة ان الله بعث علياً بالنبوة ، وارسل محمداً ليصدع بامر على ولكن محمداً ادعاها لنفسه ، وارضى عليا بتزويج ابنته اياه ، وباقداره بالمال .

ومنهم « العليانية » من اتباع « عليان بن زراع السدوسى » يفضلون علياً على محمد ، ويذمون صاحب الشريعة ، ومنهم من يدعى بالوهيــة محمد وعلى معاً ويرجحون محمداً فيها . وتسمى فرقتهم « الميمية » . ومنهم من يقول بالوهية « محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين » معاً ويعتبرونهم « شيئاً واحداً » ، وان روح الالوهية حلت فيهم على السوية ، وليس لاحدهم افضلية على الآخرين .

١٥ — اليونسية :

هم اتباع « يونس بن عبدالله القمى » من غلاة المشبهــة . ويزعمون ان الملائكة تحمل العرش ، والعرش يحمل الرب .

١٦ — الرزامية :

هى فرقة « رزام بن سابق » وهذ يقول بان الامامــة انتقلت بعد على لابنه محمد بن الحنفية . ثم لابنه ابى هاشم ، وبوصاية منه الى على بن عبد الله بن عباس ، ومنه لابنه محمد

بن علي ، وبالوصاية لابنه ابراهيم . ودعوة ابي مسلم الخرساني كانت باسم ابراهيم هذا .

١٧ — النعمانية :

وتسمى بـ « الشيطانية » ، وهي من المعتزلة ايضا .

١٨ — البسلمية :

ان اشياع هذه الفئة تقول بانتقال الامامة بعد صاحب الشريعة الاسلامية الى علي ، ثم على الترتيب الى الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وبالوصاية الى علي بن عبد الله بن عباس ثم الى ابي العباس السفاح ، ثم الى ابي سلمة . وقد ظهر في ناحية « كش » في ما وراء النهرين شخص يدعى هاشم من اهالي مرو ، وادعى الوهية ابي سلمة ، وان الالوهية انتقلت من ابي سلمة اليه . ولما رأى انطلاء خدعته تغيب برهة حيث جعل لنفسه نقابا من ذهب ، واتخذ مرآة من زجاج ، تعكس اشعة الشمس ، فكان يسلط شعاعها على بعض مريديه ويحرقهم بها . وبهذا استطاع ان يتسلط على مخيلتهم فاعتقدوا فيه الالوهية ، وزعموا ان النظر لا يستطيع اقتحام رؤيته :

١٩ — الجعفرية ؛ ٢٠ — الصباحية .

ويعتقد هؤلاء عدم وجود النص في امامة علي ولهذا لا ينكرون امامة ابي بكر . بل يعتقدون ان عليا افضل منه .

*
* *

قصارى القول : اذا اضفنا لما بحثنا عنه من الفرق . فرقة « الكرمية » و « الزيدية » التي ظهرت في انحاء اليمن ، وفرقة « الوهابية » التي انتشرت في نجد ودرعيه ، والفرقة التي عرفت بقد بها في قريش ، وظهرت في اصقاع عمان ، نطلع على حقيقة هذه الفرق التي ما زالت تزج بالاسلامية منذ بدايتها في تيار الهلكات حتى اهوت بها الى حضيض الوهن والضعف .

ما تمكنا من تحديث خطة نتطرق عليها اثناء الفحص عن اساس مذهب « الاسماعيلية » والنصيرية » الذين هما من غلاة الشيعة ، ونستعين بها على ارجاع هذه الفروع لاصول ... ، ثم نتمكن من نعين موقعهم بين الفرق الاسلامية الاخرى .

[٣] — كيفية ظهور الاسماعيليين وانتشارهم — سبق لنا ان ذكرنا اثناء البحث عن فروع فرقة « الامامية » ان فئة « الاسماعيليين » هي من غلاة الشيعة التي تعتقد امامة اسماعيل بن جعفر الصادق واولاده واشياع هذه الفئة يعتقدون — كما سنفصل بعد — ان الامامة انتقلت من اسماعيل ، لابنه « محمد المكتوم » وثم لابنه « جعفر المصدق » وبعده الى « محمد الحبيب » وهو الذي انتشر في زمانه مذهب الاسماعيليين ، وكثر رواجه.

كان محمد الحبيب يسكن قصبة « السلمية » القريبة من حمص في سورية . وكان محباً للشهرة وسعى السعي الحثيث لنشر مذهبه بواسطة الدعاة والمبشرين . ودأب لتأييد سلطان دينه ومكانته . وانتدب لهذه الوظيفة في العراق « عبدالله بن ميمون القداح » المنجم ويروى انه كان خادم مزار الحسين رضي الله عنه [*] وكان عبدالله هذا ابناً لميمون القداح من اهل العراق المتظاهر بالشيعية ، مع انه مجوسي في الباطن .

اقبل ابن ميمون على تحصيل العلم منذ حداثته ، وما لبث ان توغل في امور الدين ومباحث الفلسفة ، فاطلع على شنشنة المجوس المذهبية ، وعلى عقائد زردشت ، واحاط علماً بفلسفة قدماء اليونان ، ودرس مذهب الصابئين ، ودين المسيحيين . وقد كان له المام في العلوم الطبيعية ومهارة في الطبابة العينية . وكان مطبوعاً على خصائص المجوس لانه ولد مجوسياً وهو الرئيس السري لفرقة « الغبارية » من المجوس .

ذكر في كتاب « شرح المواقف » ان قد التأم في احد الايام مجلس هذه الفرقة تحت رياسة ابن ميمون ، وبحث فيه عن ما اصاب المجوس من الوهن والاضمحلال منذ ظهور الدين الاسلامي ، واتخذ فيه هذا القرار :

— « سخر المسلمون بلادنا ومزقوا حكومتنا وما لنا من سبيل لنقهرهم حرباً . بل نستطيع بث الضغائن ودس الشقاق بينهم بالحيل والخدع . وعلينا ان نتأول في الدين لنخرج به عن جادة يقينه . ونضل الجاهلين من المسلمين بزخارف القول فنبث فيهم باسم الاسلام روح المجوسية ، وهذه هي الطريقة المثلى التي نتم بها لانفسنا ونعيد بها للدين « المجوسي » مجده القديم وشنشنته الغابرة . [**]

واحيل انفاذ هذا القرار الذي اجمع عليه المجوسيون على رئيس « ابن ميمون » ورأى ابن ميمون ان مذهب « الاسماعيلية » هو نعم الوسيلة لتحقيق تلك الآمال ، فتقرب من محمد الحبيب ، واتفق معه بسهولة . وعليه نهض عبد الله بن ميمون في اواسط القرن الثالث للهجرة [*] ورسم الخطوط الاساسية لطريقته الظاهرية والباطنية . وعمد الى اسس [illegible] التي سماها « الدعوة » فجعلها على تسع مراتب . وذهب الى « الاهواز » من بلاد فارس واخذ يدعو الناس الى مذهبه باسم الامام « محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق [illegible] بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب » واولاده . ثم [illegible] حيث ظفر بالاموال الطائلة . والشهرة الرنانة وعظم سواد شيعته واتباعه .

---

[*] [illegible] trois [illegible] les sectes du Musulmanisme (Paris 1818)

[**] راجع خرافاتدن حقيقته — م . شمس الدين

ان مذهب « الباطنية » الذى اوجده « ابن ميمون » كانت اسبابه ممهدة من قبل. لان ابن ميمون اسس هذا المذهب المتظاهر بالعيشة على « حب على » ايضاً . وحصر الامامة فى اولاد على ؛ وفى هذا الزمن الذى مافتئت فرقة « الشيعة » و « غلاة الشيعة » تبالغ فيه بالدعوة لعلى واولاده . توفر لابن ميمون اناس كثيرون عن اقبل على مذهبه واسباب دعوته .

وبما ان « عبد الله بن ميمون » « اسماعيلى » النزعة . كان مفترقاً عن الشيعة . ولا سيما عن فرقة « الامامية » لاول وهلة .

ان اشياع فرقة « الامامية » لم يختلفوا — كما بينا سابقاً — فى كون الامامة لعلى بن ابى طالب . ثم لابنه الحسن من بعده . وبعده لاخيه الحسين ولابنه زين العابدين ، ثم لمحمد الباقر . وبعده لجعفر الصادق. ولكن ينحصر اتفاقهم فى امر هؤلاء الستة فقط ثم يختلفون : فيقول قسم منهم بنزع الامامة من اسماعيل بن جعفر الصادق لانه توفى قبل ابيه . ويخصون بها بعد جعفر اما ابنه موسى الكاظم ، او احد اخوته . ومن هؤلاء فئة يعدون اثنى عشر اماماً . ويقفون عند الاخير وهو « المهدى » الذى يعتقدون تغيبه . وهذه فئة « الاثنى عشرية » من فرقة الامامية .

ويقول القسم الآخر من الامامية :

« ان حق الامامة بعد جعفر الصادق ، هو لابنه اسماعيل بناء على وصية ابيه . وهذا يقتضى انحصارها . باولاده ولو كانت وفاته قبل ابيه . لان الوصاية توجب ذلك » . وعليه تعتقد هؤلاء بامامة اسماعيل بن جعفر . وبانتقالها لابنه محمد من بعده . وهؤلاء هم « الاسماعيليون » انشقوا عن الفرقة الامامية . وقد تمكن « ابن ميمون » بانتمائه لهذه الفرقة من جلب الشيعيين لطرفه. على انه كان فى اشد الحاجة الى وسائل تمكنه من الوصول الى غايته الاساسية . وتؤمن له انجاح خطته السياسية . وبما انه جمع بين الفرسفة والحكمة لم تعزب حالة المحيط الروحية عن تقديره . وعلم بافكار الشرقيين والايرانيين المنكبين على اساطير العجم وخرافاتهم الخيالية ، متطلبة عقيدة خيالية اعتاداً تفرقها مسالك الاضاليل . ولذلك رأى من الضرورة ان يدخل الى عقيدة « الاسماعيليين » مقداراً من الخيال ، وشيئاً من الاسرار مبهمة ومساعدة على القيام بهذا العمل ، ان الائمة بعد اسماعيل بن جعفر لم يكونوا معروفين لدى الناس فكان يقول بانتقال الامامة بعد وفاة جعفر الصادق الذى توفى ابنه اسماعيل فى حياته ، الى محمد (المكتوم بن اسماعيل) . فقد اعتقد الاسماعيليون به من جهة ، وعمم . الا . . . (ظاهراً ، « . . . مستتراً وباطناً » ، . . . بنتيجة . . . وان . . . من جهة اخرى .

[1] جاءف (. . .) ان هذا كان سنة ١٨٦٤ ميلاديه

كان يقول :

— الامام مجبور على « الاستتار » اذا لم يكن ذا قوة وسلطان ، اما الدعاة فيظلون ظاهرين ، ليكونوا دليلاً على وجود الامام . وقد يظهر الامام ، ويصدع بالدعوة متى حظى بقدرته وسلطانه ولهذا فان كلاً من « محمد المكتوم » خليفة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وابنه « جعفر المصدق » وابنه « محمد الحبيب » . امام مستتر . ولا بد لهكذا امام مهما تأخر . ان يظهر متى رأى مساعدةً فى الظروف — ان هذه العقيدة كانت موضع اعجاب واستحسان لدى الناس ؛ لانها تهيج المخيلة . لاسيما وان الاعتقاد بالامام المنتظر . والمهدى والمسيح الموعود . — الخ كان متفشياً بين السواد الاعظم من الناس . ولا يزال السنيون ينتظرون المهدى ؛ واليهود المسيح الموعود ؛ والنصارى روح القدس . وبهذه العقيدة كان ابن ميمون متسرباً بالاسماعيلية الى طريقة جديدة . او بالاحرى كان [illegible] طريقة « الباطنية »

وكان ابن ميمون مجبوراً على وضع اسس تجتذب جميع الطوائف الموجودة الى [illegible] واحدة . لان هذه الشعوب المتباينة فى القومية . والآمال ؛ المنبثة فى العراق وبلاد العجم لم يزل اكثرها مشغوفاً بالاساطير والخرافات رغماً عن اعتناقها الدين الاسلامى .

وكان الناس مزيجاً من ملحدين لايدينون بدين ؛ ومن فضالة الايرانيين [illegible] وهى على عقيده زردشت ؛ ومن مانويين تناصفتهم المجوسية والنصرانية ؛ ومن اناس استحوذت عليهم عقيدة الصابئة . وكان الجهل مخيماً على الجميع . وزد على ذلك ما شهده [illegible] الاقوام من المسارح الدموية التى نفثت فى الطباع روح الثورة . وشحنت القلوب بكراهية هاتيك المؤسسات الاجتماعية والنفرة منها . ولهذا ما كان بالصعب جمع هؤلاء الى كتلة واحدة . وتلقيحهم بفكرة الالحاد التى توهن الاساسات الاسلامية وتودى بها .

اهتم ابن ميمون فى مسألة الاسرار والغوامض ؛ واستفاد مما اذاعته الخطابية وغيرها من احزاب « غلاة الشيعة » من الآراء فى معانى القرآن . فكان يقول :

— ان للقرآن مدلولين ، ظاهرى وباطنى . فالمعنى الظاهرى واللغوى ليس هو المقصود بالذات . والتمسك بهذا المعنى يوجب العذاب والمشقة ، اما الاخذ بالمعنى الباطنى فهو يوجب الانشراح والسعادة لانه يقضى بترك التكاليف . والاعمال الظاهرة — وكان ابن ميمون يدس هذه الفكرة بصورة خفية . وباطنة . ومن كان يتظاهر بها تجاه غير الاسماعيليين . ولذلك كانت هذه الطريقة مبالغ فيها بالباطنيةوهكذا تدرج مذهب الباطنية الاتباع ، دخل فيه كل فاسدى العقائد . وجميع المستائين . ووجد فيه من دخل بسائق حب [illegible] . وآخرون تعلقوا بأهدابه تخلصاً من التكاليف الشرعية ؛ وكان معظم اشياعه ممن حركتهم العصبية القومية . واهاجتهم خواطر الاسلاف .

اضاف مؤسس (الباطنية) — كما سنفصله بعد — المؤسسة الحبيشية بعض أسرار من آثار المجوسية. وهذه الاسرار كانت محشودة في عدد «السبعة». ولذلك اضيف لاسم (الاسماعيلية) و (الباطنية) اسم (السبعية).

وسبب تسميتهم بهذا الاسم؛ هو انهم يعتقدون ان عدد الائمة (سبعة) كعدد ايام الاسبوع، وعدد السماوات والكواكب، وان عدد الرسل الناطقة ايضاً سبعة. ويزعمون وجود سبعة ائمة بين كل رسولين ناطقين لاجل اتمام الشريعة؛ وان كل ناطق ينسخ شريعة الناطق السابق، ثم يأتى الائمة السبعة فيتمون هذه الشريعة. ويسمون الائمة السبعة بالائمة (المستترة) وما عدا هؤلاء لا بد من وجود سبعة اشخاص يقتدى بهم فى كل زمان:

١ — الامام؛ يستمد فيوضه من الله.

٢ - الحجة؛ يستمد من الامام، ويكون حجة لوجوده.

٣ — ذو المصة؛ يأخذ العلم، ويمتصه من الحجة.

٤ — الداعى الاكبر، هو اعظم المؤمنين.

٥ — الداعى المأذ ن؛ يأخذ «العهد» ممن يشاء ان يدخل فى الدين من اهل الظاهر ويدخله فى ذمة الامام، ويؤذن ليفتح لهم باب العلم والمعرفة.

٦ — المكلب، من علت مرتبته فى الدين، ولم يؤذن «للدعوة»، وهو يعاون الداعى.

٧ — المؤمن، من اتبع الداعى، وآمن بالعهد واستيقن به ودخل فى ذمة الداعى وحزبه، اى فرقته.

فاعتقاد الاسماعيليين لسبعة رسل وسبعة ائمة وسبع مراتب فى المذهب، كان سبباً لتسمية هذا الدين الذى ما زال يطرق المجهولات بالسبعية.

ان ابن ميمون — كما سنرى بعد فى البحث عن تعاليمه الدينية — يستعين بالنظريات الفلسفية، والتعاليم الاشتراكية والخوارق للنواميس الطبيعية، ويعمد الى تكاليف الشرع فيطمسها بمعنى باطنى ويهوى بها الى العدم. واخذ اللادينيون يدخلون فى دينه افواجاً وزمراً حتى تمكن من الاضراب لنيل آماله ومقاصده.

وقصارى القول، ان تعاليم «ابن ميمون» كانت بالنظر للعقائد الاسلامية بمثابة القنبرة المدمرة. لان كل من دان بها كان ناشطاً من عقال الشريعة، ومستحلاً حرماتها وواضحا لدستور الاشتراك فى الاموال، والاعراض.

ظهر عبدالله بن ميمون فى اواسط القرن الثالث للهجرة فى «الاهواز»، وخيم فى «عسكرمكرم»، واخذ يجاهر فى الدعوة، الى ان عظم سواد زمرته واشياعه ثم راى ان

يحمى بالقوة على من خالفت دعوته ، وتهيأ للتسلط عليهم ، ولكن ما لبث ان باء بالفشل واضطر الى الفرار فقدم البصرة ومعه من شيعته «حسين الاهوازى» . ولم يلبث فيها الا قليلاً حتى شاع امره وصدف ان جاءه الامر بالحضور الى «السلمية» فلبى وذهب اليها واقام هناك يثابر على نشر الدعوة الى ان ودع الحياة .

لما توفى عبدالله بن ميمون ، اناب «محمد الحبيب» مكانه «حسين الاهوازى» وارسله الى انحاء العراق لكي يستأنف الدعوه .

ظهر فى العراق فى اواخر القرن الثالث للهجرة «حمدان» بن «الاشعث» الذى كان يلقب بـ «قرمط» لانضمام اطرافه وقصرها وتقارب خطوه ؛ (*) وتوفق لنشر الديانة الاسماعيلية ، والعقائد الباطنية فى انحاء الكوفة ، وكان ذلك بايعاز من «حسين الاهوازى» .

ما لبثت دعوة «حمدان بن قرمط» ان تمشت وانتشرت مسترسلةً فى اصقاع العراق والبحرين ، ذلك لان اهل العراق كانوا على غاية الضجر ونهاية الكراهية للهيئة الاجتماعية بسبب ما ينتابهم من الظلم ، وما كاد «حمدان» يجهر بتعاليمه الاشتراكية حتى تشيع له جم غفير من الناس . لاسيما وان مذهب «المزدكية» الذى انتشر فى ايران ، امال الافكار الى قبول هذه التعاليم بما لقنه من فكرة الاشتراك ايضاً .

ولهذا السبب سميت شيعة «حمدان بن قرمط» باسم «القرامطة» على ان الروايات فى منشأ كلمات «قرمط» و«قرامطة» لا تزال متعارضةً .

ان مجلة المشرق الصادرة فى «ايلول ١٩٠٧» ، بحثت عن كلمة «قرمط» وانكرت الرواية التى يزعم فيها انها اسم لقرية قديمة من اعمال واسط الواقعة بين بغداد والبصرة (**) وقالت انها كلمة «نبطية» بمعنى الخبيث والملوث :

اما ابن الجوزى المؤرخ ، فقد ذكر فى معنى كلمة «قرامطة» ستة اوجه :

١ــ ان تسمية اشياع هذا الدين العراقى «بالقرامطة» ناشئة عن اسم مؤسس الدين وهو «محمد الوراق المقرمط» .

٢ــ كان لهم رئيس نبطى يدعى «قرمطونه» ، ولذلك كان اسمهم «القرامطه» .

٣ــ حل بعض اشياع هذا المذهب ضيفاً عند شخص يدعى «كرميته» فنسب اسمهم اليه .

(*) كتاب سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان ــ نوفل نعمة الله .

(**) راجع كتاب (J. de Goeje Memoire sur les Caramathes du Bahrain et les Fatimides).

٤ — ان اتباع بعض دعاته هذا المذهب بقرية من رجل اسمه قرمط بن الاشعث، ثم ادخلوه فى دينهم فسموا بالقرامطة .

٥ — ان قرمطاً كان عاملاً لاسماعيل بن جعفر ، وهو الذى اسس هذا المذهب، فنسب الاسم اليه .

٦ — وضع هذا الاسم نسبة الى « حمدان بن قرمط » من اهل الكوفة » ويزعم ان حمدان هذا كان رجلاً زاهداً ، فادخله دعاة الباطنية فى دينهم .

ونرى ان اكثر المؤلفين يرجحون القول الاخير من بين هذه الاقوال المتعددة .

علمنا مما مر ان الاسماعيليين استحالوا الى (الباطنية) اولاً، ثم الى (القرامطة) وقد قام (ذكرويه بن مهرويه) من رؤساء هذه الفئة ، واسس حكومة القرامطة التى كانت عبارة عن شرزمة ثورية ، فامعنت فى سفك الدماء ، واصبحت ترهق البلاد طغياناً ، وفساداً . (*)

عمد الاسماعيليون لنشر دينهم فى العراقين وايران بواسطة الباطنية والقرامطة ، ثم اتجهوا بانظارهم الى مصر وبلاد المغرب ، فبثوا من تعاليمهم فيها ما جعل لهم الاشياع الوافرة .

قام بالدعوة الاسماعيلية فى بلاد المغرب « ابو عبدالله الشيعى » الذى لا يعرف الكلل ، وقد ارسله اليها (محمد الحبيب) نزيل « السلمية » . فلم يأل جهداً ببث تلك الدعوة الى ان كثر اشياعه واستحكم نفوذه ، وقهر الاغالبة حكام المغرب فى موقع « رقاده » . فخلى له الجو وتمكن من طرح اساس الدولة العبيدية .

*
* *

يجب علينا البحث عن كيفية انتشار التعاليم الاسماعيلية فى انحاء العراق ، وما وراء النهرين ، ايضاً ، اتمم بها هذا الفصل:

ذكر المؤرخ (ابن خلكان) ، انه قد اشتغل فى نشر الديانة الاسماعيلية فى انحاء الاحساء بعد (حمدان بن قرمط) ، (ابو سعيد الجنابى) من اهالى (جناب) التابعة للبحرين . وفى انحاء تركستان وما وراء النهرين (ابو جعفر محمد بن على الشامغانى) المعروف (بابن ابى العزاقر) ، وذلك فى ايام « المقتدر بالله » من خلفاء العباسيين ؛ وفى انحاء بغداد والعراق « حسين بن منصور الحلاج » المعروف بابى المغيث والمولود فى البيضاء من بلاد ايران . ثم عقبهم « ابو طاهر الجنابى » بن « ابى سعيد الجنابى» ؛ واصيبت الاسلامية من دعوتهم

* راجع تاريخ ابن الاثير جلد ٧ — ١٢ .

بما يكاد يزلزل مكانتها ، ولكن ما لبثت تلك الدعوة ان نكصت على عقبها بقتل بعض الدعاة ، واحراق البعض وضاق نطاقها ، وخمدت ثورتها .

*
* *

هكذا استطاع الاسماعيليون تعميم تعاليمهم في برهة وجيزة،من اصقاع ايران الى اقاصي بلاد الغرب ، وعرفوا باسماء كثيرة ما عدا « الباطنية والسبعية والقرامطة » . فمنها « الملاحدة » لما كان لديهم من الالحاد ، و « التعليمية » منسوبة لتعاليم عبدالله بن ميمون المشهورة و « الخرمية » او « البابكية » نسبةً الى « بابك الخرمي » الذي ظهر في انحاء آذربايجان ؛ و «النزارية » بالنسبة الى « نزار بن المستضيء العبيدي » كما جاء في تاريخ ابن خلدون ؛ و «الحشاشين » لان بعض مريديها كان يشرب الحشيش .

[٣] — *ملخص تاريخ الاسماعيليين* — سبق ان بينا كيفية ظهور الاسماعيليين في القرن الثالث للهجرة ، وصورة انتشار مذهبهم . نعم ان ما كانت تنشره الفرق الشيعية من الاعتقادات العلوية في انحاء العراق وبلاد فارس وما جبلت عليه طباع الناس من حب الخرافات والانشغاف بالاساطير هيء للمذهب الاسماعيلي وسطاً مساعداً لتمشيه وتوسعه فما كادت تعاليمهم تندلق الا وسرت بسرعة البرق وانتشت في ديار المغرب الى داخل بلاد العجم . وما مر عليهم قرنان الا وادركوا غايتهم ، واوجدوا هيآت سياسية لا بأس بمكانتها و حازوا قصب السبق باحداث الخلافة الشيعية وقوى سلطانهم وقهرهم لدرجة جرأتهم على مصارعة العباسيين ، ومعاركة السلاجقة و الايوبيين ، وخضبوا القرون الاربعة بما اهرقوه من الدماء الى ان اخذتهم صيحة التتار ،ونزل عليهم هلاكوخان بغضبته القاضية (سنة ٦٥٤ هجرية) [*]

تمزق شمل الاسماعيليين بعد هذا التاريخ ، وفقدوا نفوذهم السياسي ، واضطروا لان يعيشوا شتاتاً ، وزمراً مبثوثة في انحاء متفرقة .

ويجب بعد هذا الاجمال العمومي ان نبحث عن الحكومات التي اسسها الاسماعيليون، ونذكر بعض وقايعهم السياسية والدنية .

١ . الدولة العبيدية

ان اهم عمل سياسي قام به الاسماعيليون هو تأسيس (الخلافة الشيعية العبيدية)[١] المعروفة (بالدولة الفاطمية) التي حكمت بلاد المغرب ومصر والشام وانحاء الحجاز ، ودام سلطانها مائتين وسبعين سنة (من ٢٩٧ الى ٥٦٧) هجرية) .

(*) راجع (Journal Asiatique) المؤرخة في حزيران سنة ١٨٤٩

فذكرنا ان (محمد الحبيب بن جعفر المصدق) ارسل « ابا عبدالله الشيعي » (سنة ٢٨٨ هجرية) الى بلاد المغرب ، وجعله مبشراً للدين الاسماعيلي . وكان « ابو عبدالله » رجلاً بعيد الهمة وخطيباً مصقعاً بيانه السحر الحلال . وما لبث ان سخر قلوب الناس وحببهم بنفسه وفي برهة وجيزة تمكن ان يصير اماماً لقبيلة « كتامه » في بلاد الجزائر . وكان حكام تلك البلاد في ذلك الزمن هم « بنو الاغلب » . تظاهر « ابو عبدالله » بانه مبشر بالمهدي الموعود ، واخذ يحرض الناس ويهيجهم على القيام ، والثورة ضد بني الاغلب ليستولي على اموالهم واملاكهم ، وليحظى بوفرهم وثروتهم . وما طال الامد حتى اسعده الجد وظفر بآماله فانتزع من الاغالبة « رقاده » قاعدة بلادهم . ومتع مريديه بهاتيك الاموال الطائلة التي وعدهم بها .

كان الناس في اشد الانتظار لقدوم المهدي ؛ وفي هذا الزمان توفي (محمد الحبيب) الذي ارسل (ابا عبدالله) الى افريقيا ، واوصى بالامامة لابنه (عبدالله) وبلغ بانه « المهدي الموعود » . ثم ان « ابا عبدالله الشيعي » دعى « عبدالله المهدي » ليحضر الى افريقيا . فما كان منه الا ان بادر للاجابة وخرج من السلمية في زي تاجر . ولكن اطلع الخليفة العباسي « المكتفي بالله » على دخيلة امره ، فطير الاخبار الى جميع الانحاء بوجوب القبض عليه . فقبض عليه امتثالاً لامر الخليفة في قاعدة بني مدار وزج في السجن . ولكن ما لبث ان وصل الخبر الى (ابي عبدالله) فمشى على بني مدار بجيش عظيم ، واسرع مريدوه الى انقاذ مهديهم من السجن ، واقتحموا قاعدة بني مدار واستولوا عليها ؛ واخرج المهدي من سجنه واسود . وبها تأسست الدولة الفاطمية .

اما « ابو عبد الله الشيعي » فقد اراد ان ينتهز الفرصة . ويستفيد من ميل الناس « لعبدالله » وحبهم له ، ويجعله ولياً ، ثم يصطفي السلطة لنفسه وآله . ولكن كان عبدالله ادهى منه وايقظ فلم يمهله بل عمد اليه وحده ، فتخلص له السلطة وانتقل من بساط المشيخة الى عرش السلطنة « [*] واسس دولةً عظيمة . [**]

اهتم عبدالله واولاده في الدرجة الاولى ، بادارة ملكه في بلاد المغرب . ومع ذلك فان

---

[*] حرفاً بدن حقيقته — م . شمس الدين .

[**] ذكر قاموس الاعلام كيفية تشكل الدولة الفاطمية على الوجه الآتي :

ولد في قصبة « السلمية » من اعمال الشام رجل اسمه « سعد » وسمى نفسه « عبدالله المهدي » وزعم انه من نسل محمد بن اسماعيل سليل الاسرة العلوية . وان الخلافة له ، فتعقبه الخليفة العباسي « المكتفي بالله » فهرب الى بلاد المغرب . ولكن قبض عليه يسع بن مدار والى سجلماس بامر الخليفة وحبس هو وابنه بعد زمان ثم ظهر رجل يدعى « ابا عبدالله » الشيعي فقتل اليسع وخلص عبيدالله ونزارا من الحبس واعلن خلافة عبيدالله ، وكانت قاعدة بلادهم قصبة « المهدية » التي هي في جوار القيروان .

المذهب الاسماعيلي ، لم يزل آخذاً حظه من الانتشار في انحاء افريقيا ، حتى ان (يعقوب الكلس) وزير العزيز بالله جمع ما تلقاه من العزيز نفسه ومن (المعز لدين الله) من الاحكام ، والف كتاباً جمع فيه اسس عقائد الاسماعيليين (*) ، وكان كتابه المسمى « دعائم الاسلام » و « مختصر الوزير » على جانب عظيم من الاهمية .

وفي زمن « الحاكم بامر الله » من خلفاء الفاطميين (سنة ٣٩٥ هجرية) اسست مكتبة حافلة في القاهرة ، قريباً من القصر الغربي ، تماثل مكتبة « بيت الحكمة » العظيمة التي اسسها العباسيون في بغداد ، سميت « بدار الحكمة » . وعلى رواية ابن خلدون « دار المعرفة » وخصص لها علماء من المنجمين والنحويين ، اللغويين والاطباء برواتب معينة ، وفتحت ابوابها للقراء والمستنسخين والمؤلفين ؛ وكانت جميع اللوازم تعطى من قبلها مجاناً . ولهذا السبب كان يعتبرها البعض ، نوعاً من المدارس .

وكان الحاكم بامر الله يحضر علماء هذه المكتبة الى مجلسه ويأمرهم بالمباحثة والمحاورات العلمية واذن لهم في اجراء المناقشات داخل المكتبة ايضاً . وقد اغتنم علماء الشيعة هذه الفرصة ، فاصبحوا يجاهرون بتلقين غايتهم الحقيقية لاسقاط الدولة العباسية في الشرق ؛ ويدرسون التعاليم الاسماعيلية المؤسسة على تسع مراتب ، والتي استنبطت من مبادئ عبدالله بن ميمون الذي كاد ان يكون مؤسس الديانة الاسماعيلية (**) ولهذا السبب كانت دار الحكمة مهمة جداً . وان « حسن الصباح » مؤسس الحكومة الاسماعيلية في الشرق كان متخرجاً فيها — كما سنبينه بعد — .

وقصارى القول ان « الدولة العبيدية » المعروفة بالعلوية نسبة الى علي رضي الله عنه ، وبالدولة الفاطمية لانتسابها الى اولاد فاطمة رضي الله عنها — كما يزعمون — والتي جعلت همها الاكبر سياسة حكومتها وادارتها ؛ واهتمت بالدين في الدرجة الثانية ، لها اليد البيضاء في تاريخ الاسماعيلية من حيث تعميم الدين ونشره . وهي السبب لظهور مذهب الدروز الذي هم من غلاة الشيعة . (***)

٢ . حكومة القرامطة

ذكرنا اثناء البحث عن سبب تسمية الاسماعيليين (بالقرامطه) ، ظهور (زكرويه بن مهرويه) من دعاة الاسماعيلية المنسوب الى « حمدان بن قرمط » . وان زكرويه هذا اخاص الدعوة باسم الاسماعيليين ، واستطاع تزييد اشياعه ، وتكثير اتباعه (****) وكاد ان

(* راجع تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
* اننا سنشرح هذه التعاليم التسعة ، اثناء البحث عن اسس الدين الاسماعيلي .
(**) راجع الصحيفة ٢٦ من كتابنا « ولايت بيروت — القسم الجنوبي » ، في بحث الدروز .
**** راجع دائرة المعارف لبطرس البستاني .

يكون بل كان المؤسس الاول لحكومة القرامطة [illegible]

هذا . وان تكن لحكومة القرامطة ، او بالتعبير الاصح حكومة الاسماعيليين ، انبسطت لسلطاتها انحاء خوزستان والبصرة ، والكوفة والاحساء وتطاولت على بلاد الشام والحجاز ودامت الى سنة ٣٧٢ هجرية . ولكنها ما كانت حكومة حقيقية ؛ بل طائفة دينية ثارت فى وجه العباسيين والمسلمين وكونت شرزمة تتألف من ثوار دينية ، سياسية واجتماعية . (*)

انكسرت شوكة القرامطة بعد ان فتك بمؤسسهم (زكرويه بن مهرويه) (سنة ٢٩٤ هجرية) ، ولكن لم يتقاعس اشياعه عن العمل ، بل واصلوا السعى الخفى الى ان ردت قوتهم اليهم . وتأسست يومئذ حكومة العبيديين فى ديار الغرب على اشد ما يكون من المكانة . ووجفت من سطوتها قلوب العباسيين . فانتهز القرامطة هذه الفرصة ، ونهضوا الى استرداد مكانتهم الاولى ، فنجح مسعاهم وعظم كيدهم ، وما لبثوا الا اوغلوا فى اهراق الدماء ، وغلوا فى الفساد وما ادخروا وسعاً فى تخريب البلاد .

وقد ظهر منهم فى انحاء الاحساء رئيس اسمه (ابو على حسن بن احمد) . فتجول فى بلاد خوزستان ، والبصرة والكوفة . وبعد ان حصل على اشياع وفيرة ، جاهر بالقيام فى العراق العربى ، فاستولى على البصرة والكوفة ، ثم زحف على الشام ايضاً وامتلكها .

ومنهم « ابو طاهر بن سعيد الجنابى » الذى مر ذكره فقد ذهب الى الحجاز ، وصد المسلمين عن اداء فريضة الحج ، وفتك فيهم الفتك الذريع ، ثم اقتلع (الحجر الاسود) من جانب الكعبة ، وحمله الى البصرة .

ونهض بعض رؤساء القرامطة فى جهة البصرة والعراق والبحرين ، وحكموا فى تلك البلاد وجرعوا الخلفاء العباسيين انكد العيش .

وقد ازدادت شوكتهم وقويت سلطتهم فى زمن (بابك الخرمى) الذى ظهر فى انحاء آزربايجان ، ولم تزل دولتهم الى اواخر القرن الرابع للهجرة حيث اخذتهم صيحة (بنى الاصفر بن ثعلب) وانزلت عليهم تلك الضربة القاصية التى فرقتهم ايدى سبا ومزقتهم كل ممزق .

٣ . الدولة الاسماعيلية الشرقية

ظل الاسماعيليون على ما هم عليه من الضعف والانحطاط منذ اندراس حكومة القرامطة الى اوائل القرن الخامس للهجرة . ثم تأسست الحكومة السلجوقية فى انحاء ايران (سنة ٤٣٩ هجريه) وحماة السادات العباسيه فاوتهم فى تلك الاصقاع ؛ وعجز الخلفاء

(*) جرافاندن حقيقته — م . شمس الدين

العباسيون عن الدفاع فاصبحت البلاد عرضةً للغوائل ، والانحلال . ولم يهمل الاسماعيليون هذه الفرصة بل جددوا الهمة فى نشر معتقداتهم، واخذوا يدأبون لتحقيق آمالهم السياسية ثم استولوا على قلاع العراق وايران ؛ وعادوا الى ديدنهم القديم فى سفك الدماء فقتلوا كل من وصلت ايديهم اليه . وفى زمن « ملكشاه بن آلب آرسلان » ثالث ملوك السلجوقيين [*]

وصلت دولتهم من المكانة والقوة الى درجة تستطيع بها مقاومة الدول المعظمة. وسميت بالاسماعيلية الشرقية ، لتتميز عن دولة الفاطمية المسماة بالاسماعيلية الغربية .

اسس دولة الاسماعيلية الشرقية فى ايران (حسن بن الصباح *Sabbah*) سنة ٤٨٣ هجرية الموافقة لسنة ١٠٩٠ ميلادية .

اما كيفية تاسيسها فكانت على ما يأتى :

ان « حسن بن الصباح بن على بن محمد بن جعفر بن حسين بن محمد يوسف الحميرى » منسوب ليوسف الحميرى من امراء اليمن (**) وقد ولد فى بلدة « رى » من بلاد العجم ، وتلقى علومه من الامام « الموفق النيسابورى » مع « نظام الملك » المعروف و« عمر الخيام » الشاعر الطائر الصيت .

تمكن حسن الصباح ان يكون حاجباً لآلب ارسلان السلجوقى ، وذلك بايعاز من نظام الملك . ولكنه كان مفطوراً على حب الرياسة منذ حداثته ، فما لبث ان اخاصم مع نظام الملك ، وهرب (سنة ٤٦٤ هجرية) الى « الرى » ومنها الى (اصفهان) ثم الى العراق وآذربايجان ، ثم الى مصر حيث لقى الحفاوة والاعزاز من المستنصر الفاطمى . لانه شيعى المذهب .

كان يتردد على « دار الحكمة » مدة اقامته هناك ويدرس مذهب الاسماعيلية ، ثم اوجد فى هذا الدين بعض احكام جديدة ، وقام يدعو الناس اليه فى سورية وحلب وديار بكر ، وبغداد وايران وما كانت ضالته المنشودة الا الحصول على السلطنة التى ما زال مشرأباً اليها . فجعل الدين حجاباً يعمل من ورائه ، وما انفك يصيغ الحيل ، ويرجع الى الدسائس حتى قيض له الزمن (ابا الفضل اللبنانى) فاعانه على تسخير قلعه « ألموت » *Almout* (***) « سنة ٤٨٣ هجرية » فاتخذها قاعدة للدولة « الاسماعيلية الشرقية » التى خلفها .

ثم استولى على بضع قلاع بعد « ألموت » . واستطاع ان يحتفظ بكيانه ، ويدفع كيد السلجوقيين عنه بمناعة موقفه ورصانته . لم يتخذ حسن الصباح لنفسه اسم « سلطان » و

---

[*] كانت حكومة آلب آرسلان السلجوقى (سنة ٤٦٥ — ٤٨٥ هجرية)

(**) . . . Memoir sur les trois plus fameuses sectes du musulmanisme.

(***) ألموت ، معناها عش العقاب « آنسيقلوپه دى الكبير »

« امير » ، بل تسمى با « لسيد » و « الرئيس » و « شيخ الجبل » ، ولم تكن دعوته لنفسه بل كانت لامام مستتر ، يزعم انه سيظهر فى الغد .

ما لبث حسن الصّباح برهة وجيزة الا وعظمت سلطته وقويت شوكته ؛ وكثر اشياعه واستطاع جذبهم اليه وجعلهم حوله . واخضعهم لامره ونهيه . ومما يروى ان السلطان ملكشاه ارسل اليه رسولاً يدعوه لاطاعة الدولة السلجوقية والخضوع لامرها . فاستدعى بعض اتباعه على مرأى من الرسول

ثم قال لاحدهم :

اقتل نفسك ! ففعل :

وقال للآخر :

هيا ، اقذف بنفسك الى الواد ؛ ففعل .

ثم التفت الى الرسول فقال :

« بلغ ربك ، ان لى سبعين الفاً من هؤلاء » !

اقام حسن الصباح فى قلعة « ألموت » السنين الوافرة ، ولم يزل متظاهراً بالزهد والتقشف ؛ ولم يبرز من قصره الا مرةً او مرتين فى جميع عمره .

برهن حسن الصباح عن ذكاء حاد وبصيرة وقادة فى ما وضع من الاسس الدينية والسياسية وحشد حوله شرذمة من الفتاك فاصبح الاسماعيليون فى زمن حكمه الذى دام (خمسة وثلاثين سنة) على الدرجة القصوى من علو الكلمة ووفرة القوة . وقد فتك الاسماعيليون فى زمانه بكثير من الملوك والوزراء . منهم « المسترشد بالله » و «نظام الملك» وزير ملكشاه سلطان السلجوقيين وابنه « فخر الملك ابى المظفر » . وبهذا برهنوا على انهم من الفوضويين (نيهياست [illegible]) . واقتدروا على ارهاب ملوك السلاحفة ، ويروى . ان مملوكاً « لسنجر بن ملكشاه » سلطان السلجوقيين ، دخل المذهب الاسماعيلى ؛ ولما ازمع على الفرار ، اخذ سكيناً وغرسها فى الارض قريباً من رأس السلطان وهو نائم ، ثم هرب والتحق بالاسماعيليين . فارسلوا الى السلطان سنجر كتاباً من ألموت ، يقولون فيه :

— لو شئنا قتلك ، ما غرسنا السكين فى الارض ، بل فى صدرك !

ومنذ اطلع السلطان سنجر على هذا الكتاب ، ارتدع عن حرب الاسماعليين وهاب جانبهم ؛ ثم صالحهم ووصلهم بالعطايا الوافرة .

توفى حسن الصباح سنة (٥١٨ هجرية) بعد ان عاش تسعين سنة ،وحكم خمس وثلاثين عاماً . وكان كما قال محسن « الكشميرى» :

[لم ينتقل من دار الاسلام ، الى دار الرضوان ؛ بل كشط من وجه الارض التى جعلها

موطناً للفوضى، الى لعنة ربه] .

وقد كان سفاكاً ، وبلغ من حبه لاهراق الدماء ، ان قتل اثنين من اولاده بلا سبب.

دامت دولة حسن الصباح الى ان استولى هلاكوخان على قلاعهم وهدمها سنة ٦٥٤ هجرية و« ١٢٥٦ ميلادية » (*) ، وقد جاء من هذه الدولة المعروفة « بملاحدة الاسماعيليين» و« الحشاشين» ثمانية ملوك ، ها هي اسماؤهم. (**)

١ — حسن الصباح ؛ حكم خمس وثلاثين سنة «٤٨٣ هـ —٥١٨ هـ » .

٢ — كيابزرك اميدروودبارى ؛ صار رئيساً بوصاية حسن الصباح وحكم اربع عشر سنة «٥١٨—٥٣٢» .

٣— محمد بن بزرك اميد ؛ حكم اربع وعشرين سنة (٥٣٢— ٥٥٧).

٤— حسن بن محمد ، عرف باسم حسن الثانى وذكرة الاسلام ، حكم اربع سنين (٥٥٧ — ٥٦١) .

٥— محمد بن حسن ؛ حكم ست واربعين سنة (٥٦١—٦٠٧) .

٦— جلال الدين حسن بن محمد ؛ حكم احد عشر سنة ونصف. وسمى «حسن الثالث» و« نومسلمان » . (٦٠٧—٦١٨) .

٧— علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن ، حكم خمس وثلاثين سنة (٦١٨— ٦٥٣) .

٨ — ركن الدين خاورشاه بن علاء الدين ، هو آخر رؤساء الاسماعيلية الشرقية ، وحكم سنة واحدة (٦٥٣— ٦٥٤) .

اذا تصفحنا الوقايع التى حدثت فى زمن « الاسماعيلية الشرقية » الذى امتد مقدار قرن ونصف ، نعلم ان دعوة الاسماعيليين بانت منها ها فى ذلك الزمن فى بلاد العجم والعراقين وسورية ، وقد امعنوا فى العسف والطغيان ، وتبين انهم من اجرأ الفتاك .

وهذا اجمال تاريخى نذكر فيه اشهر الوقايع التى حدثت فى ذلك الزمن :

٤ . مؤسسات حسن الصباح السياسية

رأى حسن الصباح ان يكون الاسماعيليون هيئة نشيطة فدائية تخضع لامره ، وتنقاد لمشيئته ، او جمعية منضبطة يمشى بها على اهوائه . فقسمهم الى عدة اقسام ، وخص كلاً منهم بوظيفة حتمها عليه . فالبثت تلك الطائفة الدينية التى كانت اسيرة الاهواء فى حركاتها ،

[*] [illegible] Assassins [illegible]

(**) راجع Bibliothèque Orientale d'Herbelot.

الا توالت بحث [illegible] سياسية ذات وظائف معينة ، وبهذه الهمة من حسن الصباح تسنى لهم ، ان يعيشوا كحكومة مستقلة اكثر من قرن ونصف .

"قضى نظام حسن الصباح بانقسام الاتباع الى ثلاثة صنوف . ١— الدعاة ، ٢— الرفاق ٣— الفدائية.

فوظيفة الدعاة ؛ هى دعوة الخلق الى المذهب الاسماعيلى ؛ وارشادهم بتلقين التعاليم الدينية .

اما الرفقاء ؛ فهم الذين دخلوا فى المذهب ، او خضعوا لسلطة « الرئيس الاكبر » الدينية والسياسية .

والفدائيون ؛ هم الذين يعملون للفتك باعداء الاسماعيلية ويتقاضون من الروساء ما يسمونه الفدية — لقاء استماتتهم فى طريق المذهب

اوجب هذا التقسيم وجود بعض مراتب اجتماعية بين الاتباع فكان منهم فى المرتبة الاولى الدعاة او المقدمون والاعيان . وهؤلاء كانوا يقيمون فى الولايات التى اها تلاع متينة كالشام وقهستان وكوهستان . وهم خاضعون لاوامر الرئيس الاكبر .

والمرتبة الثانية يوجد فيها الدعاة ورسل الدين والوكلاء السياسيون ، ثم مرشحو الرياسة .

والمرتبة الثالثة يوجد فيها « الرفاق » وتتفاوت درجاتهم بالقرب الى الرياسة بنسبة ابحاثهم فى التعاليم السرية و الباطنية .

ثم يأتى بعد هؤلاء فى [illegible] الرابعة ، الفدائيون و[illegible] المذهب والمحاربون [illegible] ثم يأتى [illegible] المرتبة الخامسة ، حديثو العهد فى المذهب [illegible] .

ولا [illegible] ان الادعى [illegible] بين هؤلاء [illegible] الاجتماعية و[illegible] . [illegible] الفدائيون وهم [illegible] على هذه [illegible] فى بيوت الرؤساء [illegible] .

يعلمونهم ان [illegible] كون [illegible] ، و[illegible] تدعو سبيلا للخلود فى الجزاء ، [illegible] اذا اطاعوا وفعلوا ما يؤمرون به .

و[illegible] لهؤلاء [illegible] رياض مخصوصة لاثبات صدق [illegible] من [illegible] ويذوقوا [illegible] « الجنة » [illegible] ايفاء وظيفتهم الدينية والسياسية من جهة اخرى .

زينت هذه [illegible] ورها الذهبى ، وازدانت بانغام [illegible] يد المهارة ، [illegible] قدرة طبيعية [illegible] ازهار [illegible] جميع الالوان وانحدار [illegible] الزمرد فى [illegible] وعيون . [illegible] كذاب [illegible] من [illegible] . و[illegible] كانها من سبائك الشمس . وقد شيدت فى تلك الرياض قصور [illegible]

صيغت من المرمر ، وفرشت بأحسن سجاد العجم على الطراز اليوناني ، واقيمت بالاواني الظريفة المصاغة من العسجد الأصفر او الفضة البيضاء ، او من البللور الشفاف . فكانت نموذجا للحسن ومثالاً للجمال الكامل مبثوث فى جميع انحائها الكواعب والولدان كأنهم اللؤلؤ المنثور عليهم ثياب ارق من الهواء . يتجولون فى تلك الساحة الخضراء ، ويبدون من الغنج والدلال ما ينفذ لاعماق القلوب ، فيسحرها ويسخرها ، وربما يضحكن فتطير تلك الاصوات الرخيمة حيث تصافح الجدران الذهبية من هذا الايوان الغرامى ، فتمتنقها انوار الافق ، وتوغل فى كبد الهواء الى ان تنطمس فى الخفاء .

لايحظى بهذا النعيم من الاسماعيليين الا كل سعيد تمسك بتعاليم الدين ، وكان ممتازاً بالسجايا الطبيعية والادبية التى تسوقه الى المفاداه بالنفس فى طريق الواجب الدينى .

اذا اراد « شيخ الجبل » ان يجزى احد السعداء ، او بالاجدر احد الفدائيين ويمتعه بنعيم جنانه ، يدعوه الى مائدته ، ثم يناوله المخدر (الحشيش) ، وبعد ان يستحكم فيه السكر ينقله الى احدى تلك الرياض ، ثم لايلبث ذاك الفدائى المحروم ان يصحو فيجد نفسه فى تلك الجنة ، وفيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين ، فتعروه الحيرة ؛ ولكنه لايلبث ان يقتحم تلك الملذات ، وينغمس فى تلك العيشة الغرامية ، ويصيب منها مايشاء ، ثم يسقى من المخدر مايفقده الوعى ، ويرجع به الى مجلس الرئيس . على غير علم منه . ولا تزال ذكرى تلك اللحظة الهنية ، فى مخيلته كاحلام السعادة ؛ وان هذه السعادة التى انعم عليه بها «شيخ الجبل» فى الرؤيا الصادقة ، تضطره الى الاطاعة العمياء ، والخنوع الى العبودية المحضة . وتجعله يتضور انتظاراً لتخليد تلك السعادة الموقتة . وعليه كان يتلقى امر رئيس الجبل كالامر القدسى المحتم . ولا تزال ذكرى الجنة التى نقشت فى دماغه سطوراً مذهبة ، تشغل خياله ، وترسم على شفاهه ابتسامات ملؤها الحرص ، والشوق . وكان هذا الحرص على نيل تلك السعادة يؤجج فى قلوب الاسماعيليين نيران الشوق وجحيم الشغف .

ان تأثير هذه السعادة الخالب ، جعل قلوب الاسماعيليين معكساً لهذه الآمال :

— هل من فرصة ؟... الا من امر للرئيس ... ثم النعيم المقيم ...

اذا اراد شيخ الجبل ان يبطش بأحد ، يستدعى اياً كان من الفدائيين ، ويقول له :

— هل لك فى السعادة الخالدة ؟ هيا .. لفلان ....

فيقضى امر الرئيس على الفور . وقد كان عند الرئيس حسن بن الصباح الوف من هؤلاء الفدائيين ، له عليهم الاطاعة العمياء .

احدث حسن الصباح بعض مراتب دينية ، وطبقات تعليمية ماعدا هذه الاسس الاجتماعية والسياسية ، وسعى بما فيه لاعلاء كلمة الاسماعيليين فى ذلك العصر .[*]

(*) سنفصل هذه الاسس الدينية ، اثناء البحث عن تعاليم الاسماعيلية

٥ . ملكشاه والاسماعيليون

ان زمن تأسيس الدولة الاسماعيلية الشرقية [٤٧٣] كان في ايام السلطان ملكشاه بن آلب ارسلان ثالث سلاطين الدولة السلجوقية الايرانية [٤٦٥—٤٨٥] [*] وبذلك كان اول تألبهم ، وشروعهم في زمن هذا السلطان

نعم ان اول اجتماع للاسماعيليين كان في موقع (ساوه) (**) وقد شوهد ثمانية عشر شخصاً منهم اجتمعوا في احد المحلات بعد صلاة العيد ، فاستلفت اجتماعهم النظر ، وقبض عليهم وسجنوا ، ثم اطلق سراحهم بعد مدة . وصدف ان دعوا مؤذناً من اهل (ساوه) مقيماً في اصفهان الى الدخول في دينهم ، فلم يقبل فخافوا من افشائه الخبر ، وقتلوه وهذه اول جناية اقترفها الاسماعيليون .

اهتم نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي في المسألة لما اطلع على قتل المؤذن ، وشدد الامر في تحرى القاتل والقبض عليه . ثم علم انه رجل نجار اسمه (طاهر) ، فصلب ومثل بجثته وجرت على رأسها في الطرق والشوارع . وكان هذا اول قتيل من الاسماعيليين . ثم اقترف الاسماعيليون جنايتهم المعروفة ، فقتلوا (نظام الملك) . وقالوا :

— قتلوا منا نجاراً ، فقتلنا وزيراً .

اى واحدة بواحدة .

واول ما سخروا من البلاد ، هى قصبة قريبة من (قاين) . وكان مقدمها (رئيسها) اسماعيلياً ، فتجمع الاسماعيليون عنده ، وتعرضوا في جوار تلك القصبة على قافلة متبلة من كرمان فقتلوا جميع رجالها . ولم يسلم منهم الا رجل تركمانى ، استطاع ايصال الخبر الى اهل (قاين) ، فهبوا في اثر الاسماعيليين ولكنهم لم ينجحوا .

وقد ازدادت سطوتهم ، وقويت شكيمتهم بعد وفاة السلطان ملكشاه السلجوقي ، واشتدت اطماعهم السياسية .

٦ . بركياروق والاسماعيليون

ورث تاج الملك السلجوقي في خراسان بعد السلطان ملكشاه ، ابنه بركياروق (٤٨٥ — ٤٩٨) . واشتد في زمانه ازر الاسماعيليين ، وعلا شأنهم وعظمت قدرتهم ، وشرعوا يسلبون اموال مخالفيهم ، ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً . وقد اوغلوا في التطاول . وما كان

*) هذا التاريخ هجرى يدل على مدة السلطنة .

(**) راجع تاريخ ابن الاثير ، وابن الجوزى ومؤلف M. c. Defremery Nouvelles recherches sur les ismaeliens de Syrie.

الرجل يبطئ عن بيته هنيهة الا ويعتقد اهله ان قد اغتاله الاسماعيليون . وما كان احد يجسر ان يمشى وحده ، لان الاسماعيليين فى المرصاد ، فلا يقبضون على احد الا قتلوه .

هذا ولما تفاقم خطبهم ، وتجاوز بهم الحد التحمل نهض احد الفقهاء ، وهو «ابوالقاسم مسعود بن محمد الخجندى» فاثار حمية الناس وهيجهم ، وحشد حوله جماً غفيراً واقتحموا الاسماعيليين واحرقوا منهم كل من وصلت ايديهم اليه . وقد قتل فى هذه الحادثة من الاسماعيليين خلق كثير (سنة ٤٩٤ هجرية) .

ومع هذا فان معظم القلاع فى ذلك التاريخ كانت تحت حوزتهم فمنها قلعة (اصفهان) وقلعة (الموت) الشهيرة ، القريبة من قزوين لم تزل لهم . وقد سخروا ما عدا هؤلاء قلاع (طبس ، خور ، خوسف ، زوزن ، قاين ، تون) وحاصروا قلعة (وسمنكوه) فى انحاء (ابهر) ثمانية اشهر وفتحوها عنوةً . وقتلوا جميع من فيها .

ثم سخروا قلعة (خالنجان) التى هى على بضعة فراسخ من اصفهان وقلاع . (استونا ندبين ، رى ، آمل ، اردهن ، كردكوه) . وقلعة (ناظر) فى خوزستان . وقلعة (الطنبور) التى سخرها (ابو حمزة السكاف) الارجانى ، وقلعة (قلادخان) الكائنة بين « فارس » و « خوزستان » .

وجرت سنة ٤٩٤ هجرية حادثة ذات شأن بين الاسماعيليين و « امير جاولى سقاووا » ولى « ارجان » و « رامهرمز » . وهى :

لما استولى الاسماعيليون على القلاع الانفة الذكر ، فى جوار « خوزستان » وقطعوا السابلة على المارين والعابرين ، تحتم وجوب التذرع بحيلة تقمع اولئك الطغاة . فامر قسم من اتباع « جاولى » والتحق بالاسماعيليين وعملوا الى ان استوثقوا بهم . ثم اذيع [illegible] ان امراء بنى برسق مزمعون الهجوم عليه والاستيلاء على بلاده ، وانه لا [illegible] وقد عقد العزم على الذهاب الى (همدان) . فاخذ اتباعه يزينون للاسماعيليين [illegible] والضيق عليه الى ان اقنعوهم بذلك . فخرجوا ومعهم ثلاثمائة من اعيان الاسماعيليين ، وكمنوا فى الطريق الى ان ظهر الامير جاولى فالتحقوا به ونزلوا بالسيوف على الاسماعيليين فابادوهم جميعا وغنموا ما معهم من الاسلحة وغيرها .

ومع هذا لم يزل الاسماعيليون على جانب عظيم من القوة فى زمن بركيارق [illegible] حتى ظن به ان اكثر الذين قتلهم الاسماعيليون كانوا من مخالفيه ، و[illegible] الى هذه الفئة

ولكن ما كان اهمال بركيارق لامر الاسماعيليين الا عن معاناته لاخيه محمد الذى خرج عليه وعصاه . وما لبث ان هزم جنود اخيه وقتل وزيره . وكان مذهب الاسماعيلية قد انتشر بين العساكر وتفشى بصورة هائلة . فاصدر السلطان امره بقتلهم ، فقتل منهم عدد

وافر . وقد كان السلطان بركياروق ارسل « ابراهيم اسد الابادى » مقدم الاسماعيلية سفيراً الى بغداد فاعدم هناك (٤٩٤) .

وفى هذه السنة ايضاً (٤٩٤) هجم (بزغش) من امراء السلاجقة على بلاد الاسماعيليين وهدم اكثرها وقتل منهم اناساً كثيرين .

٧ . محمد السلجوقى والاسماعيليون

تسلطن على السلجوقيين بعد السلطان بركياروق ، اخوه محمد بن ملكشاه وقد ثابر هذا السلطان الذى امتد زمن حاكميته من (سنة ٤٩٨ الى ٥١١ هجرية) على مناضلة الاسماعيليين ومقاومتهم .

ثار (سنة ٤٩٨) من الاسماعيليين جم غفير وخرجوا من (طريثيث) من اعمال خراسان ، ويمموا انحاء « بيهق » ، وامعنوا فى سكان تلك الانحاء نهباً وقتلاً . ثم تسلطوا على الحجاج فى الطريق فقتلوهم عن بكرتهم ، واستولوا على سلبهم واموالهم . وفى هذه السنة ايضاً ظهر الاسماعيليون فى انحاء الشام وسخروا حصن « قاميه » وقطعوا السابله .

هجم السلطان محمد السلجوقى سنة « ٥٠٠ » ، على قلعة « شاهدز » من اعمال اصبهان التى استولى عليها الاسماعيليون قبل مدة ، وسخرها وقتل مالكها « ابن العطاش » وثابر السلطان محمد بعد ذلك على طريقة انحاء الاسماعيليين . وفوض هذه المهمة الى « انوشتكين بن شيركير » المشهور ، صاحب انحاء « آبه وساوه » . ووجهه اليهم .

سخر انوشتكين بضع قلاع للاسماعيليين ، واجلى سكانها الى قلعة « ألموت » ثم زحف اليها . وحصرها . وامده السلطان بالجنود والامراء ، والذخيرة ، وبنى دوراً يأوى اليها فيما اذا امتدت مدة المحاصرة . فضاق الخناق على الاسماعيليين ، واضطروا لان يرسلوا نساءهم واطفالهم الى « نوشتكين » يطلبون منه الامان ورجوه ان يفسح لهم الطريق ليخرجوا من القلعة . فأبى نوشتكين الاجابة ، وردهن الى القلعة . وقد ضاق الامر على حسن الصباح ، واشفى اهل القلعة على الموت جوعاً . وكان كل منهم يتجزأ فى يومه برغيف صغير ، وثلاث جوزات ولكن لم يطل الامر ، حتى جاء نعى السلطان محمد ، ونفس الكرب عن المحصورين ، لان اتباع نوشتكين عزموا على العود منذ جاءهم الخبر ، وقد اراد نوشتكين ان يمانعهم ، وافهمهم ان فى الرجعة خطراً عليهم ، واعلمهم ان تسخير القلعة سهل اذا شددوا حمله . ولكنهم لم يعبأوا بكلامه ، وتركوه وانسلوا على غير علم منه فبقى وليس معه الا قليل من اتباعه . فهجم عليه الاسماعيليون وهزموه ، واستولوا على جميع ذخائره (٥١١)

٨ . سنجر والاسماعيليون

تسلطن ، السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقى سنة (٥١١) . واصدر امره (سنة ٥٢٠) الى الوزير (المخق ابى النصر احمد بن الفضل) بان يوقع فى الاسماعيليين اينما حلوا ، ويصادر اموالهم ، ويجلى (ينفى) نسائهم . فجهز ابو النصر جيشين ، وجه احدهما الى (طريثيت) والثانى الى انحاء (بيهق) ، ثم جهز كتائب اخر ، وبثها فى كل جهة يوجد فيها الاسماعيليون ، واذنهم ان يقتلوا كل من لاقوه منهم . فسارت كل كتيبة الى وجهتها واقتحمت الجنود التى هاجمت انحاء (بيهق) ، قرية (طرز) وقتلت جميع من فيها واضطرت مقدم القرية (حسن بن سمين) ان ينتحر قاذفاً بنفسه من اعلى المنارة . ثم اغتنمت جميع اموال القرية .

٩. الاسماعيليون فى سوريا

ذكرنا ان الاسماعيليين قدموا الى انحاء الشام سنة ٤٩٨ . ثم اخذت سلطتهم تمو وتزداد الى (سنة ٥٢٠) حيث قويت شكيمتهم وعظم سوادهم، وتسنى لهم امتلاك قلعة (بانياس) [*] التى هى على ستين كيلومتراً فى الجنوب الغربى من الشام .

وقد كان (لابن بهرام) اليد الطولى فى امتلاك هذه القلعة . و(ابن بهرام) هذا ، هو ابن اخت (لابراهيم اسد الاباذى) الذى قتل فى بغداد ايام السلطان بركياروق . وقد غادر بغداد بعد قتل خاله وقدم الشام . واخذ يدعو الى الاسماعيلية فجاب البلاد وحشد حوله كثيراً من اجلاف الناس الذين دخلوا فى دينه . ومع هذا فان ابن بهرام لم يزل متكتماً ومستتراً فى دعوته . ثم قدم حلب واقام فيها . وكان حاكم حلب فى ذلك الزمن هو «ايلغازى بن آرتق» الامير الثالث من «ابن الارتق» . [**] «٤٩٨—٥١٦» .

تجامل ايلغازى مع ابن بهرام واشياعه خشية شرورهم ، وبذلك تسنى له ان يقى الناس بغى الاسماعيليين وطغيانهم .

ثم ما لبث ايلغازى ان سير ابن بهرام لعين الغاية الى طغتكين مؤسس حكومة آل طغتكين فى الشام (٤٩٧—٥٢٢) [***] اذ قد استطار شر الاسماعيليين فى هاتيك الانحاء ، وظن طغتكين انه يستطيع اطفاء ثورتهم وردعهم عن الافساد اذا تجامل مع

---

[*] اسمها القديم (قيصرية فيليبس)

[**] حكم (بنو الارتق) (٣٣٤) سنة فى انحاء حلب وديار بكر . وجاء منهم ١٧، اميراً (سنه ٤٧٧—٨١١) .

(***) دامت حكومة بن طغتكين فى الشام من سنة ٤٩٧ الى سنة ٥٤٩ ، وجاء منهم ستة ملوك .

ابن بهرام ووالاه كما فعل ايلغازى . ولكن ابن بهرام تجرأ فى هذه الكرة واضرب عن التكتم والتستر ، وصدع بدعوة الاسماعيليين واشتد يسعى الى ان تكاثف عدد شيعته واتباعه وكان وزير طغتكين (ابو طاهر بن سعد المرغينانى) لا يزال يوآزر ابن بهرام ويجامله مفكراً انه سيستفيد من هذه الموالاة ، على ان ابن بهرام جعل هذا الإقبال وسيلة للقيام بالواجب الدينى ، وبالغ فى الدعوة حتى اصبح اتباعه ضعف ما كانوا عليه بالامس . وانذروا البلدة بخطرهم . والفت هذا الحال نظر اهل الشام ايضا . فادرك ابن بهرام خطر الامر وطلب من « طغتكين » قلعةً ياوى اليها فاقطعه قلعة « بانياس » فبادر اليها وخف اليه الاسماعيليون من كل حدب ، واعتصموا بتلك القلعة . وكانت السيطرة الكبرى فى بانياس لابن بهرام . ولم ترق حالة الاسماعيليين فى اعين علماء الدين فى الشام وفقهائها ولكنهم كانوا يهابون السلطان طغتكين من جهة ، ويجتنبون كيد الاسماعيليين وشرهم من جهة اخرى ، ولم يكن لهم من الامر شئ ، فكموا افواههم ؛ والتزموا السكوت .

غادر ابن بهرام الشام وابقى فيها وكيلاً ، وعهد اليه بوظيفة الدعوة الى المذهب ولم يقصر الاسماعيليون فى انتهاز هذه الفرص بل بذلوا جهد الطاقة لتحقيق آمالهم فيها فتكاثروا ، ثم تسلطوا على بضع قلاع فى جبال (سوماق *Somak*) القريبة من لبنان واستولوا عليها . وابتاعوا قلعة « قدموس » من صاحبها « ابن عمران » (سنة ٥٢٧) وتحصنوا فى تلك القلاع ، وشرعوا يكافحون من فى جوارهم من الاسلام والصليبيين .

وفى ذلك التاريخ « ٥٢٢ » كان « وادى التيم » موطناً لثلة من النصيرية والدروز ، ولبضع قبائل تتألف من مختلفى المذاهب ، يرأسها رجل يسمى « الضحاك » . فتحمز ابن بهرام للتضييق عليهم . ولكن الضحاك باغتهم بالهجوم مع الف من اتباعه ففرق جمعهم وقتل ابن بهرام وفر اتباعه واعتصموا بقلعة « بانياس » .

ترأس على الطائفة الاسماعيلية بعد ابن بهرام بوصايته رجل يدعى « اسماعيل » ولم يلبث هذا الرئيس الا برهة وجيزة حتى تمكن من جمع شتات الاسماعيليين واعاد لهم سابق مكانتهم فى الشام بهمة « المزدقانى » و « ابى الوفاء » من معتمديه ، حتى لقد اصبحت كلمة « المزدقانى » هناك اعلا وارجح من كلمة (تاج الملوك بورى بن طغتكين) سلطان البلاد وحاكمها [٥٢٢ — ٥٢٦] .

ولم يطل الامر حتى اطلع (تاج الملوك) ان « المزدقانى » تواطأ مع الصليبيين على تسليم الشام لهم اعطاء قصبة صور . وانه يسعى لانفاذ عهده ، فاستدعاه وقتله وعلق رأسه على باب القلعه . ثم امر بقتل (رمضان سنة ٥٢٣) جميع الاسماعيليين فقتل منهم ستة آلاف نسمة . وقد خاف اسماعيل صدق هذا العزم ، فالتجأ الى الصليبيين وسلمهم قلعة «بانياس» .

١٠ . ايام محمد الثاني والاسماعيليون .

اشتد أزر الاسماعيليين ، وكثر جمعهم في زمن « السلطان محمد الثاني بن محمود بن محمد بن ملكشاه » حادي عشر سلاطين السلاجقة في ايران [٥٤٧ — ٥٥٥ . وتجمهروا [سنة ٥٤٩] في انحاء « قهستان » فحشدوا بين فارس وراجل مقدار (٧) الاف رجلاً ، واغتنموا فرصة انشغال السلجوقيين في حرب « الغزيين » وساروا الى انحاء خراسان . وقد صادفهم « فرخشاه بن محمود الكاساني » من امراء السلاجقة أثناء مرورهم بانحاء « خواف » ولكنه هابهم ولم يجسر ان يتعرض لهم . غير انه اوصل خبرهم الى « محمد بن آره » احد امراء خراسان ، ودعاه الى الاشتراك مع بقية الامراء وقمع هذه الفئة والتنكيل بها .

وعليه نشب الحرب بين الاسماعيليين وامراء خراسان ، ودام مدة طويلة وشح بفشل الاسماعيليين وهزيمتهم ، وقتل من اعيانهم عدد وافر ، واضطروا لاخذ اكثر قلاعهم .

وبعد هذه الواقعة بسنتين «٥٥١» هب الاسماعيليون للاخذ بالثار ، ودخلوا في ملحمة كبيرة مع السلجوقيين في موقع «طبس»، واسروا عدة رجال من اعيانهم . ونهبوا اموالهم وسلبهم واجلوا اطفالهم .

وفي سنة «٥٥٢» حشد سلطان مازندران « رستم بن علي بن شهريار » جنوده وهجم على قلعة « ألموت » . ثم اغار على قرى الاسماعيليين فهدمها وخربها ، وقتل سكانها واستولى على اموالهم وشتت نسائهم واسترق اطفالهم .

وفي سنة «٥٥٣» تجمهر «٧٠٠٠» محاربا من الاسماعيليين، فطرقوا قرى التركمان وهي خلوف ، فامعنوا فيها احراقاً وهدماً ونهباً . وما كادوا يرجعون الا وآب رجال التركمان ، وجدوا في طلبهم فادركوهم وهم يتقاسمون الاموال ، فشدوا عليهم واسرعوا في القتل ، فلم ينج منهم الا تسعة انفار . ولم يحدث بعد من المناوشات الا الطفيف.

١١ . صلاح الدين الايوبي والاسماعيليون

تعرض الاسماعيليون للملك الناصر ابو المظفر « صلاح الدين يوسف بن ايوب» مؤسس الدولة الايوبية في مصر ٥٦٧—٥٨٩ (*) وارادوا قتله . فشد عليهم واحرق مواطنهم ،

(*) حكمت الدولة الايوبية في مصر من سنة ٥٦٧ الى سنة ٦٤٩ . وجاء منهم عشرة ملوك . وما عدا هذه ، وجد لهم بقية حكمت في حمص واليمن وحلب وحصن كيف وحماة والشام في تواريخ مختلفة .

[illegible] (مصياف) [illegible] الجانيق [illegible]
فلما ضاق عليهم الخناق وعلموا ان لا مناص [illegible] وادخلوا
الى (شهاب الدين الحارمي) صاحب حماه ، وخال لصلاح الدين وعزموا عليه ان يسعى
بينهم بالصلح ، والا فانهم يقتلونه . فقبل الوساطة ، وراجع صلاح الدين في ذلك فعفى
عنهم .

١٧ - آخر ايام الاسماعيليين

لا جرم ان زمان (حسن الصباح) كان احسن ايام « الدولة الاسماعيلية الشرقية » . اما
الرؤساء الذين اتوا بعده كانت مزيتهم الوحيدة انهم لم يألوا جهداً في اهراق الدماء . ولم
يتسن للاسماعيليين تأسيس دولة قوية . بسبب الفوضوية الداخلة في اسس دينهم ، ومعارضة
ملوك السلاجقة لهم من جهة اخرى اوجبت تفريق جمعهم وتمزيق شملهم . ولذلك كانت
دولتهم في الشرق عبارة عن ثلة فوضوية سفاكة ؛ اما سيرتهم فهي صحيفة بطش وفتك
يقطر منها الدم .

حكم « الغوريون » في بلاد خراسان بعد ان بادت دولة السلاجقة الايرانية (٥٩٠ هـ)
فقام الاسماعيليون الى مناهضتهم ، وعادوا الى ديدنهم في اهراق الدماء .

ثم ظهر « آيتغمش » — لعله آى طوغمش — من مماليك « جهان پهلوان » من اتابكة
آذربايجان (٦٠٠ - ٦٠٨) فاكتسح بلاد الاسماعيليين في انحاء قزوين (٦٠٢) وهدم لهم
خمس قلاع وقتل كثيرا منهم .

تأسست [illegible] من الغوريين « باميان » بعد ان درست حكومتهم الاصلية (٦٠٤)
وعمد الاسماعيليون (٦٠٩) [illegible] اميراً من امراء (جلال الدين) رابع وآخر سلاطين
هذه الشيعة . [illegible] هذا [illegible] واقتحمهم بجنوده ، فاكتسح بلادهم من « ألموت » الى
« كردكوه » [illegible] خراسان وهد [illegible] اكثرها ، وقتلهم قتلاً ذريعاً (٦٢٨) .

ثم جاء [illegible] خان الشهير (٦٥٤) واسر « ركن الدين خاورشاه » رئيس الاسماعيلية ،
ثم [illegible] وهدم قلاع [آلاه [illegible] ، ميمون ديز ، لار ، سروش ، سرخ درنك ، بتره ، بهرام
دز ، [illegible] ، [illegible] باج ، [illegible] ، [illegible] ردوس ، منصور] (*) وانزل عليهم تلك الضربة
القاصمة التي كادت تقضي عليهم .

ثم جاء [illegible] من ملوك الجراكسة فانتزع منهم قلعة (مصياف) الشهيرة .
[illegible] جميع [illegible] الشهيرة فلم يدخروا وسعاً في قتل من وصلت ايديهم اليه

(*) راجع نسخة حزيران ١٨٤٩ من Journal Asiatique

من الاسماعيليين وبهذا استؤصلت شأفة الاسماعيليين الذين دجنت سيوفهم حول فتكهم البلاد ؛ وبلادهم فى آسيا الغربيــة الممتدة من بحر الابيض الى داخل بلاد الترك ، او بالاصح من جبال سورية بخراسان وبحر الخزر ، الى السواحل الجنوبية من بحر الابيض تمزقت ايدى سبا .

ومع هذا فان هذه الفئة لم تهلك بتاتاً . بل لا تزال اليوم لها بقيــة فى بلاد فارس وسواحل نهر « السند » ، وفى ناحية قدموس وخوابى من قضاء مرقب من اعمال بيروت وفى انحاء مصياف وسليميه من لواء حماه التابع لولاية الشام ، وفى دمشق ايضاً . اما عددهم فيتراوح فى اصقاع حماه بين (٨٠٠ـــ١٠٠٠) وفى ناحيتى خوابى وقــدموس [*] (٣٠٠٠ ـــ٤٠٠٠) نسمة . ويوجد منهم فى دمشق فى محلة الحشاشين من ثمن الميدان مقدار مائــة نسمة . ومجموع عددهم فى البلاد العثمانية يناهز خمسة عشر الفــاً وانهم الآن على غاية ما يكون من السكون .

ومن العجب انهم لم يقابلوا النصيرية بما يستحق الذكر من دفع العدوان لــما هجموا عليهم وقتلوهم ، واجلوهم عن اماكنهم (سنة ١٨٠٩ ميــلادية) . ثم لم يلبثوا ان عادوا الى مواطنهم بعد ان نكل بالنصيرية .

[٤] *دعوة الاسماعيليين وتعاليمهم الدينية*ـــ سبق لنا ان ذكرنا (دعوات) عبدالله بن ميمون القداح مؤسس المــذهب الاسماعيلى . وشيئاً من تعــاليم « دار الحكمة » الدينيــة التى تستــند على تلك الاسس . والآن نشرع بتفصيــل هذه التعــاليم والدعوات وايضاحها :

ان « للدعاة » الحظ الاوفى من الخدمــة فى نشر المذهب الاسماعيلى ، وتوسيع نطــاقه وكانوا يتخللون طبقات الناس وينتهزون فرصة كونهم مشبعــين بالشكوك والظنون ، ومشتتى الافكار ، عاجزين عن انتقاء الحقيقة بين التلقينات الشيعية وغير الشيعيــة ، ومفطورين على حب الخرافات والاساطير . فيتسربون الى افكارهم بمعتقدات دينهم الهيولى . وبهذا تأتى لهم تكثير اتباعهم وتزييد اتباعهم وان وفرة المذاهب فى تلك الآونة كانت تشدد عصبية الشرقيين المشغوفين بالحيل ، لاسيما ان الاعتقاد بتسرب الروح الالهية من جسم الى آخر والايمان بعود الائمة الى الدنيا . . . الى آخر ما هناك من المعتقدات كانت تضــاعف همة الناس فى الاقبال على المكنونات والغوامض . وعليه كان رواج مذهب الاسماعيلية المغرق فى

---

[*] سنبحث على وجه التفصيل عن احوال الاسماعيليين الموجودين الان و ناحيتى قــدموس وخوابى اثناء البحث عن احوال «مرقب» .

الباطنية والغموض من الامور الطبيعية. لان هذا المذهب مشحون بالطريقة السرية في الانبياء والائمة، وغيرها. ثم اخذ بعدد السماوات والارضين واعتبر «السبعة» مقدسة في كل شيء واحدث اسراراً، وخوارق جديدة وبين ان للعدد بنفسه قيمة خاصة. وقد زعم — كما سنبحث بعد — ان للقرآن معاني باطنية. فكانت داعية للعجب، وباعثة للتعجب. وان المراتب السبع في المذهب الاسماعيلي استفزت افكار الناس الى محاولة اختراق هاتيك الطباق والاطلاع على ما وراء تلك الغوامض. واصبحت القلوب يسعرها ظمأ استكناه هذه المجهولات المتسلسلة. فاذا فكرنا في الائمة الظاهرة والباطنة، وحياتهم المطمورة في الغموض والكتمان وعلمنا تلك الوعود الخالبة وما تضمنته من انواع النعم الجنانية، وتلك السعادة اليقينية التي أيدتها التجربة، وتلك القصور ومقصوراتها والرياض وزينتها؛ ينكشف لنا الغطاء عن المؤثرات التي سهلت لدعاة الاسماعيلية طرق النجاح.

نعم ان نجاح دعاة الاسماعيلية انبعث عن رقة شعور الناس. وقد علموا انهم كلما بالغوا بتحريك الشبهات وتزييدها يزدادون نجاحاً، فلم يألوا جهداً بمد خطواتهم الى تلك الوجهة.

حتى ان عبدالله بن ميمون جعل دعواته على تسع مراتب وبين في كل دعوة ومرتبة قسماً من اسس دينه. وجعل الارتقاء عن مرتبة الى اخرى معلقاً بالتجارب الطويلة. فالذين يصلون الى الدرجة التاسعة يحرزون العقيدة الجديدة، او بالاحرى يكونون براء عن كل عقيدة. وتعاليم الدين في دار الحكمة كانت على عين النمط. وها نحن نستقصي دعوات ابن القداح وتعاليم دار الحكمة، بعد تفريقها لتسع مراتب، دون ان نبدل، او نعدل من دقيقتها شيئاً. (*)

١ . الدعوة الاولى

[سؤال الداعي لمن يدعوه الى مذهبه عن المشكلات وتأويل الآيات . ومعاني الامور الشرعية وشيء من الطبيعيات والامور الغامضة. فان كان المدعو عارفاً سلم له الداعي والا تركه يعمل فكره فيما القاه عليه من الاسئلة وقال له: يا هذا ان الدين لمكتوم، وان الاكثر له منكرون وبه جاهلون؛ ولو علمت هذه الامة ما خص الله به الائمة من العلم لم تختلف.

فيشوق حينئذ المدعو الى معرفة ما عند الداعي من العلم. فاذا علم منه الاقبال اخذ في ذكر معاني القراءات وشرائع الدين، وتقرير ان الآفة التي نزلت بالامة وشتت الكلمة، واورث الاهواء المضلة؛ ذهاب الناس عن ائمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم

* راجع كتاب سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان

ان الله يعلم ما تفعلون] [ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً.] وقال [لقد اخذنا ميثاق بني اسرائيل]. ومن امثال هذا فقد اخبر الله تعالى انه لم يملك حقه الا لمن اخذ عهده. فاعطنا صفقة يمينك وعاهدنا بالموكد من ايمانك وعقودك ان لا تفشي لنا سراً ولا تظاهر علينا احداً، ولا تطلب لنا غيلة، ولا تكتمنا نصحاً، ولا توالي لنا عدواً.

٢ . صورة العهد (*)

وهو ان يقول لمن يأخذ عليه العهد ويحلفه:

— جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه، وذمة رسوله وانبيائه وملائكته ورسله وما اخذه على النبيين من عقد وعهد وميثاق؛ انك تسترجع ما تسمعه وسمعته وعلمته وتعلمه وعرفته وتعرفه من امري وامر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الامام عرفت اقراري له، ونصحي لمن عقد ذمته، وامور اخوانه واصحابه وولده واهل بيته المطيعين له على هذا الدين، ومخالصته له من الذكور والاناث والصغار والكبار؛ فلا تظهرن من ذلك شيئاً قليلاً ولا كثيراً ولا شيئاً يدل عليه، الا ما اطلقت لك ان تتكلم به، او اطلقه لك صاحب الامر المقيم بهذا البلد، فتعمل في ذلك بامرنا ولا تتعداه ولا تزيد عليه، وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك، ان تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، وتشهد ان محمداً عبده ورسوله، وتشهد ان الجنة حق وان النار حق وان الموت حق وان البعث حق [وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور]. وتقيم الصلاة لوقتها وتؤتي الزكاة لحقها، وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام، وتجاهد في سبيل الله حق جهاده على ما امر الله به ورسوله وتوالي اولياء الله وتعادي اعداء الله وتقوم بفرائض الله وسنته وسنن رسول الله ظاهراً وباطناً وعلانية سراً وجهراً، فان ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه، ويثبته ولا يزيله، ويقربه ولا يباعده، ويشده ولا يضعفه، ويوجب ذلك ولا يبطله ويوضحه ولا يعميه، كذلك هو الظاهر والباطن، وسائر ما جاء به النبيون من ربهم على الشرائط المبينة في هذا العهد، جعلت على نفسك الوفاء بذلك قل نعم:

فيقول المدعو نعم. ثم يقول الداعي له:

والصيانة له بذلك واداء الامانة، على ان لا تظهر شيئاً اخذ عليك في هذا العهد في حياتنا، ولا بعد وفاتنا، لا في غضب، ولا على حال رضى ولا على رغبة ولا في حال رهبة، ولا عند شدة ولا في حال رخاء ولا على طمع ولا على حرمان، تلقى الله على

(*) سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان ص ٢١٨

التدبير لذلك والصيانة له على الشرائط المبنية فى هذا العهد ، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه ، وذمته وذمة رسوله أن تمنع وجميع ما اسميه لك ، واثبته عندك مما تمنع منه نفسك وتنصح لنا ولوليك ولي الله نصحاً ظاهراً وباطناً ، فلا تخن الله ووليه ولا احداً من اخواننا واوليائنا ، ومن تعلم انه منا بسبب ؛ فى اهل ولا مال ، ولا رأي ولا عهد ولا عقد تتأول عليه بما يبطله ، فان فعلت شيئاً من ذلك وانك تعلم انك قد خالفته وانت على ذكر منه ، فانت برئ من الله خالق السموات والارض الذى سوى خلقك والف تركيبك واحسن اليك فى دينك ودنياك وآخرتك ، وتبرأ من رسله الاولين والآخرين وملائكته المقربين الكروبين والروحانيين ، والكلمات التامات والسبع المثانى والقرآن وتبرأ من التوراة والانجيل والزبور والذكر الحكيم ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الاخرة ، ومن كل عبد رضى الله عنه وانت خارج من حزب الله وحزب اوليائه وخذلك الله خذلاناً بيناً يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير الى نار جهنم التى ليس لك فيها رحمة ؛ وانت برئ من حول الله وقوته . ملجأ الى حول نفسك وقوتك وعليك لعنة الله التى لعن الله بها ابليس ، وحرم عليه بها الجنة ، وخلده فى النار . ان خالفت شيئاً من ذلك ولقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ، ولله عليك ان تحج الى البيت الحرام ثلاثين حجة حجاً واجباً ماشياً حافياً . لا يقبل الله منك الا الوفاء بذلك ؛ وكل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، الذين لا رحم بينك وبينهم ، لا يأجرك الله عليه ولا يدخل عليك بذلك منفعة . وكل مملوك لك من ذكر وانثى فى ملكك او تستفيده الى وقت وفاتك ، ان خالفت شيئاً من ذلك فهم احرار لوجه الله ، وكل امرأة لك او تتزوجها الى وقت وفاتك . ان خالفت شيئاً من ذلك فهن طوالق ثلاثاً بتة طلاق الحرج ، لا مثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ولا مشيئة . وكل ما كان لك من اهل ومال وغيرهما فهو عليك حرام . وكل ظهار فهو لازم لك ، وانا المستحلف لك لامامك وحجتك وانت الحالف لهما وان نويت او عقدت او اضمرت خلاف ما احلفك عليه واحلفك به فهذه اليمين من اولها الى آخرها مجددة عليك لازمة لك ، لا يقبل الله منك الا الوفاء بها والقيام بما عاهدت بيني وبينك . قل نعم .

فيقول نعم .

فاذا اعطى العهد على هذه الصورة قال له الداعى اعطنا جعلاً من مالك نجعله مقدمة امام كشفنا لك الامور وتعريفك اياها . والرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى وان امتنع المدعو امسك عنه الداعى . وان اجاب واعطى نقله الى الدعوة الثانية .

٣ - الدعوة الثانية والثالثة

الدعوة الثانية . لا تكون الا بعد ما تقدم . فاذا تقرر فى نفس المدعو جميع ما تقدم واعطى الجمل قال له الداعى :
ان الله لم يرض فى اقامة حقه وما شرعه لعباده الا ان يأخذوا ذلك عن ائمة نصبهم للناس واقامهم لحفظ شريعته على ما اراده الله تعالى ويسلك فى تقرير هذا ، ويستدل عليه بامور مقررة فى كتبهم حتى يعلم ان اعتقاد الائمة قد ثبت فى نفس المدعو فاذا اعتقد ذلك نقله الى الدعوة الثالثة .

الدعوة الثالثة ؛ مرتبة على الثانية ، وذلك انه اذا علم الداعى ممن دعاه ان ارتباطه على دين الله لا يعلم الا من قبل الائمة ، قرر حينئذ عنده : ان الائمة سبعة قد رتبهم البارى تعالى كما رتب الامور الجليلة فانه جعل الكواكب السيارة سبعاً وجعل السموات سبعاً وجعل الارضين سبعاً ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات ، وهؤلاء الائمة السبعة هم :
١ — على بن ابى طالب ، ٢ — حسن بن على ، ٣ — حسين بن على ، ٤ — على بن الحسين الملقب بزين العابدين ، ٥ — محمد بن على ، ٦ — جعفر بن محمد الصادق ، ٧ — هو القائم صاحب الزمان . [*]

فاذا علم الداعى ثبات هذا العقد فى نفس المدعو ، شرع فى ثلب بقية الائمة الذين قد اعتقد الامامية فيهم الامامة ، وقرر عند المدعو ان « محمد بن اسماعيل » عنده علم المستورات ، وبواطن المعلومات التى لا يمكن ان توجد عند احد غيره ، وان عنده ايضاً علم التأويل ، ومعرفة تفسير ظاهر الامور ، وعنده سر الله تعالى فى وجه تدبيره المكتوم ، واتقان دلالته فى كل امر يسأل عنه فى جميع المعدومات ، وتفسير المشكلات ، وبواطن الظاهر كله و التأويلات ، وتأويل التأويلات ، وان دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لانهم اخذوا عنه ، ومن جهته رووا ، وانه لا يستطيع احد من الناس المخالفين لهم ان يساويهم ، ولا يقدر على التحقق بما عندهم الا منهم ويحتج لذلك بما هو معروف فى كتبهم مما يطول شرحه . فاذا انقاد المدعو ، واذعن لما تقرر ، نقله الى الدعوة الرابعة .

(*) يزعم بعضهم ان القائم هو « اسماعيل بن جعفر الصادق » ويقول الآخرون انه « محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق » وسنبين فى ابحاثنا الآتية انهم يعتقدون ان اسماعيل بن جعفر الصادق امام وابنه محمد بن اسماعيل نبى ناطق .

٤ . الدعوة الرابعة

يقرر الداعي في هذه الدعوة : ان عدد الانبياء الناسخين للشرائع ، المبدلين لاحكامها ، اصحاب الادوار وتقليب الاحوال ، الناطقين بالامور ؛ سبعة فقط كعدد الائمة سواء وكل واحد من هؤلاء الانبياء لابدله من صاحب يأخذ عنه دعوته ، ويحفظها على امته ويكون معه ظهيراً له في حياته ، وخليفة له من بعد وفاته الى ان يبلغ شريعته الى آخر يكون في سبيله معه ، كسبيله هو مع نبيه الذى اتبعه . وكذلك كل مستخلف خليفة الى ان يأتي منهم على تلك الشريعة سبعة اشخاص ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ، لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها اثر واحد هو اولهم ، ويسمى الاول من هؤلاء السبعة [السوس او الأس] وانه لابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم ، من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبي ينسخ شرع من مضى من قبله ويكون الخلفاء من بعده امورهم تجري كامر من كان قبلهم، ثم يكون من بعدهم نبي ناسخ يقوم من بعده سبعة صمت ابداً ، وهكذا حتى يقوم النبي السابع من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله ويكون صاحب الزمان الاخير .

فكان اول هؤلاء الانبياء النطقاء « آدم » ، وكان صاحبه ، واسه ابنه شيث ، وعدوا تمام السبعة الصامتين على شريعة آدم ؛ وكان الثانى من الانبياء النطقاء « نوح » فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم وكان صاحبه وسوسه ابنه « سام » وتلاه بقية الصامتين على شريعة نوح ؛ ثم كان الثالث من الانبياء « ابراهيم الخليل » فانه نطق بشريعة نسخ بها شريعة نوح وآدم ، وكان صاحبه وسوسه ابنه « اسماعيل » ولم يزل يخلفه صامت بعد صامت حتى تم دور السبعة الصمت ؛ وكان الرابع من الانبياء النطقاء « موسى بن عمران » وكان صاحبه وسوسه اخوه « هرون » ، ولما مات هرون فى حياة موسى قام من بعده «يشوع بن نون» خليفة له صمت على شريعته ، واسها عنه فأخذها واحد بعد واحد الى ان كان آخر الصمت على شريعة موسى « يحيى بن زكريا » ثم كان الخامس من الانبياء النطقاء « عيسى بن مريم » نطق بشريعة نسخ بها شرائع من كان قبله وكان صاحبه وسوسه « شمعون الصفا » ومن بعد تمام السبعة الصمت على شريعة المسيح ؛ كان السادس من الانبياء النطقاء « محمد » فانه نطق بشريعة نسخ بها جميع الشرائع التى جاء بها الانبياء من قبله ، وكان صاحبه وسوسه « على بن ابى طالب » ثم من بعد على ستة صمتوا على الشريعة المحمدية وقاموا بميراث اسرارها وهم : ابنه الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ثم اسماعيل بن جعفر الصادق وهو آخر الصمت من الائمة المستورين ؛ والسابع من النطقاء هو صاحب الزمان « محمد بن اسماعيل بن جعفر » الذى انتهى اليه علم الاولين وقام بعلم بواطن الامور وكشفها ، واليه المرجع فى تفسيرها دون غيره وعلى جميع الكافة اتباعه ،

والخضوع له والانقياد اليه والتسليم له ، لان الهداية فى موافقته واتباعه والضلال والحيرة فى العدول عنه .

فاذا تقرر ذلك عند المدعو انتقل الداعى الى الدعوة الخامسة .

٥ . الدعوة الخامسة

يقرر الداعى فى هذه الدعوة :

انه لا بد مع كل امام قائم فى كل عصر ، حجج متفرقون فى جميع الارض عليهم تقوم وعدة هؤلاء الحجج ابداً ، اثنا عشر رجلاً فى كل زمان كما ان عدد الائمة سبعة ويستدل لذلك بامور ؛ منها ان الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً ، ولا بد فى خلق كل شئ من حكمة والا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعاً ، وجعل ايضاً السموات سبعاً والارضين سبعا ، والبروج اثنى عشر والشهور اثنى عشر ، ونقباء بنى اسرائيل اثنى عشر نقيباً ونقباء ، محمد ، من الانصار اثنى عشر نقيباً ، وخلق فى كف كل انسان اربع اصابع وفى كل اصبع ثلاث شقوق تكون جملتها اثنى عشر شقاً . على ان فى ابهام كل يد شقان دلالة على ان الانسان بدنه كالارض واصابعه كالجزائر الاربع والشقوق التى فى الاصابع كالحجج ؛ والابهام الذى به قوام جميع الكف وسداد الاصابع ، كالذى يقوم الارض بقدر ما فيها والشقان اللذان فى الابهام اشارة الى ان الامام وسوسه لا يفترقان ، ولذلك صار فى ظهر الانسان اثنتا عشرة خرزة اشارة الى الحجج الاثنى عشر ، وصار فى عنقه سبع فكان العنق على خرزات الظهر وذلك اشارة الى الانبياء النطقاء والائمه السبعة وكذلك الاثقاب السبعة التى فى وجه الانسان العالى على بدنه واشباء من هذا النوع كثيرة . فاذا تمهد عند المدعو ما دعاه اليه الداعى وتقرر ، نقله حينئذ الى الدعوة السادسة .

٦ . الدعوة السادسة

وفى هذه الدعوة :

يأخذ الداعى فى تفسير معانى شرائع الاسلام من الصلاة والزكاة والحج والطهارة ، وغير ذلك من الفرائض بامور مخالفة للظاهر ، بعد تمهيد قواعد تبين من غير عجلة تؤدى الى ان هذه الاشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة ، وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض وتصدهم عن الفساد فى الارض حكمة من الناصبين للشرائع وقوة فى حسن سياستهم لاتباعهم واتقاناً منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك حتى يتمكن هذا الاعتقاد من نفس المدعو فاذا طال الزمان ، وصار المدعو يعتقد ان احكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز السياسة العامة ، وان لها معانى أخر غير ما يدل عليها الظاهر نقله الداعى الى

الكلام في الفلسفة ، وجمعه على النظر في كلام افلاطون وارسطو وفيثاغورس ومن يذهب الى مذاهبهم، ونهاهم عن قبول الاخبار والاحتجاج بالسمعيات ، وزين له الاقتداء بالادلة العقلية والتعويل عليها ، فاذا استقر ذلك عنده واعتقده نقله الى الدعوة السابعة ويحتاج ذلك الى زمان طويل .

٧ . الدعوة السابعة

لا يفصح الداعي بهذه الدعوة ما لم يكثر انسه بمن دعاه ، ويتيقن انه قد تأهل الى الانتقال الى رتبة اعلا مما هو فيه فاذا علم ذلك منه قال :

ان صاحب الدلالة والناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون احدهما الاصل والاخر عنه كان وصدر ، وهذا انما هو اشارة العالم السفلي لما يحويه العالم العلوي ، فان مدبر العالم في اصل الترتيب ، قوام النظام صدر عنه اول موجود بغير واسطة ولا سبب نشاء عنه ، واليه الاشارة في قوله تعالى [انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون] اشارة الى الاول في الرتبة والاخر في القدر الذي قال فيه [انا كل شيء خلقناه بقدر] وهذا معنى ما نسمعه من الله اول ما خلق القلم ، فقال للقلم اكتب فكتب في اللوح ما هو كائن واشياء من هذا النوع موجودة في كتبهم . مأخوذة من كلام الفلاسفة القائلين « الواحد لا يصدر عنه الا واحد » واذا تقرر ما ذكر في هذه الدعوة عند المدعو نقله الداعي الى الدعوة الثامنة .

٨ . الدعوة الثامنة

يقول الداعي في هذه الدعوة :

اعلم ان احد المذكورين اللذين هما مدبر الوجود والصادر عنه انما تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول . فكانت الاعيان كلها ناشئة وكائنة من الصادر الثاني بترتيب معروف في بعضهم ، ومع ذلك فالسابق عندهم لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد . فلا يقال هو موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر عاجز وكذلك سائر الصفات فان الاثبات عندهم يقتضي الاشتراك بينه وبين المحدثات والنفي يقتضي التعطيل وقالوا ليس بقديم ولا محدث . بل القديم امره كلمته والمحدث خلقه وفطرته كما هو مبسوط في كتبهم فاذا استقر ذلك عند المدعو قرر عنده الداعي :

ان التالي يدأب في اعماله حتى يلحق بمنزلة السابق ، وان الصامت في الارض يدأب في اعماله حتى يصير بمنزلة الناطق ، وكذا ان الداعي يدأب في اعماله حتى يبلغ منزلة الناموس وحاله سواء ، وهكذا تجرى امور العالم في اكواره وادواره ولهذا القول بسط

كثير فاذا اعتقدهالمدعو ،قرر عنده الداعي ان معجزة النبي الصادق الناطق ليست اشياء تنتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوي معاني فلسفية تنبيء عن حقيقة آنية السماء والارض .وما تشتمل العالم عليه باسره من الجواهر والاعراض فتارة برموز يعقلها العالمون وتارة بافصاح يعرفه كل احد ، فينتظم بذلك للنبي شريعة يتبعها الناس ويقرر عنده ايضاً ان القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى ما يفهمه العامة وغير ما يتبادر الذهن اليه ، وليس هو الا حدوث ادوار عند انقضاء ادوار من ادوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع كما قد بسطه الفلاسفة في كتبهم فاذا استقر هذا العقد عند المدعو نقله الداعي الى الدعوة التاسعة.

٩ . الدعوة التاسعة

الدعوة التاسعة ، هي النتيجة التي يحاول الداعي بتقرير جميع ماتقدم رسوخها في نفس من يدعوه فاذا تيقن ان المدعو تأهل لكشف السر والافصاح عن الرموز احاله على ماتقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات ، وما وراء الطبيعة ، والعلم الالهي وغير ذلك من اقسام العلوم الفلسفية حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعي قناعه وقال :

ماذكر من الحدوث والاصول ، رموز الى معاني المبادىء ، وتقلب الجواهر ،وان الوحي انما هو صفاء النفس ، فيجد النبي في فهمه مايلقى اليه ويتنزل عليه ، فيبرزه الى الناس ويعبر عنه بكلام الله الذي ينظم به النبي شريعته بحسب مايراه من المصلحة في سياسة الجميع، ولا يجب حينئذٍ العمل بهما الا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء بخلاف العارف فانه لايلزمه العمل بها ويكفيه معرفته فانها اليقين الذي يجب المصير اليه وما عدا المعرفة من سائر المشروعات فانما هي اثقال ، وآصار حملها الكفار اهل الجهالة لمعرفة الاعراض والاسباب ، ومن جملة المعرفة عندهم ، ان الانبياء النطقاء اصحاب الشرائع انما هم [illegible] سياسة العامة ، وان الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة ، وان الامام انما وجوده في العالم الروحاني، اذا صرنا بالرياضة في المعارف اليه. وظهوره الان انما هو ظهور امره ونهيه على لسان اوليائه ونحو ذلك وبهذه الآراء المتسلسلة يصرف المدعو عن المنقولات الى المعقولات ، ويحرر من حكم التكاليف .

*
* *

نرى من اللازم بعد ايضاح الدعوات الاسماعيلية ومراتب تعاليمهم ، ان نبحث نبذه عن [المراتب] (*) التي رتبها حسن الصباح ونظمها وجعلها قانونا متحتم الرعاية على

(*) دائرة المعارف — لبطرس البستاني .

المطلق ...

ان اول هذه المراتب هو [الذوق] . والذوق هو تفرس الداعي واطلاعه على هل عند المدعو اقبال على قبول الدعوة او عدم قبولها ام لا ، ولذلك منعت المتابعة على دعوة من ليس عنده ميل لقبولها .

اما المرتبة الثانية ؛ فهي « التأنيس » . وهو كناية عن الوثوق ويحصل عليه بتزيد ميل المدعو الى الزهد والسفاهة .

والمرتبة الثالثة ؛ هي « التشكيك » . وهو القاء المدعو في الشك ويكون بتوجيه الاسئلة عن بعض الوصايا الدينية ، وعن التناقض الموجود في القرآن على زعمهم وتشويش افكار المدعو بها .

والمرتبة الرابعة ؛ هي « الربط » . وهو عهد ، ميثاق يؤخذ على المدعو بان لا يذيع سر معتقده وان يرجع في حل ما يعترضه من الاشكال الى الامام .

والمرتبة الخامسة ؛ هي « التدليس » . وهو انهم يدعون ان جميع اعاظم الدين والدنيا هم من رهطهم وذلك لكي يزيدون المدعو رغبة فيهم .

والمرتبة السادسة ؛ هي « التأسيس » . وهو بيان بعض مقدمات يوافق عليها المدعو .

والمرتبة السابعة ؛ هي « الخلع » . وهو التطمين بامر اسقاط بعض الاعمال الدينية .

والمرتبة الثامنة ؛ هي « السلخ » وفيها تباح جميع اللذات ويصار لتأويل التكاليف الشرعية ؛ ومن وصل لهذه المرتبة يكون عريقاً في الباطنية ومتماصاً من جميع التكاليف ، وهؤلا يزعمون ان معاني الاحكام الشرعية على هذا الوجه :

« الجنة » هي اعفاء الناس من العبادات البدنية وراحتهم ؛ « جهنم » هي مثابرة الناس على العبادات البدنية الشاقة ؛ « الوضوء » هو تلقي اصول الدين من الامام ؛ « التيمم » هو تلقي اصول الدين من « الحجة » المأذون له بذلك لدى غياب الامام ؛ « الصلواة » هي اتباع الرسول الناطق ؛ « الاحتلام » هو نوديع السر عن غير قصد لغير اهله ؛ « الغسل » هو تجديد العهد والميثاق ؛ « الزكاة » هي تزكية النفس وانارة الفكر ؛ « الصوم » هو صيانة سر الامام ؛ « الزنا » هو افشاء اسرار الدين ؛ « الكعبة » هي النبي ؛ « الباب » هو على رضى الله عنه « الطواف سبعاً » . هي موالاة الائمة السبعة .

ونعلم من هذه التفاصيل أن حسن الصباح اخذ باصول ميمون القداح مع يسير من الفرق . وها نحن بعد ان اجملنا هذين الاصولين على الصورة الآنفة ، ننقل الكلام الى البحث عن اسس الاسماعيلية الفلسفية .

[٥] — اسس الاسماعيليين الفلسفية — سبق ان تكلمنا عن الاسس العمومية في

الدين الاسماعيلي أثناء البحث عن تاريخهم وكيفية ظهورهم وانتشارهم وتعاليمهم الدينية ودعواتهم . والآن نريد ان نمعن في البحث ونربط ما بينا من المعلومات المتفرقة في اصول ونلفق تلك الأصول والاسس ونجمعها على نسق واحد .

لو كان مذهب الاسماعيلية ومعتقدهم كما تزعمون وكما فصلنا عبارة عن تخصيص الامامة والخلافة لعلي واولاده وتفضيلهم على بعض الأصحاب وترجيحهم ؛ او الاعتقاد بان ماهية نفوس الائمة هي فوق الطبيعة . وان لبعضهم قدسية تمكنه من الرجوع الى الدنيا في الآتي ما كانت هذه الفئة تفترق عن بقية الفرق الشيعية التي مر تفصيلها في البحث عن الفرق الاسلامية . فهذه فرق « الاثنى عشرية ، القطعية ، الشميطية . الذرارية . المفضليه » من فروع الامامية تعتقد كل واحدة منها بصور مختلفة في اسناد الامامة الى اولاد جعفر الصادق . ويقطعونها عنهم على اشكال مختلفة ايضاً . و « السبائية » تقول بالوهية علي . و « البيانية تعتمد بانتقال لروح الالهية من اولاده الى « بيان بن سمعان » صاحب المذهب ويجاهرون بالغلو في الشيعية . ولكن للاسماعيليين شذوذاً يفرقهم عن الشيعيين وغير الشيعيين .

هذا . وان تكن اسس العقائد الاسماعيلية تتحد مع اسس المعتزلة بلزوم اثبات الصفات في الخالق او نفيها — كما سنفصل بعد — ولكن لا يسوغ حصر الاسماعيلية في هكذا دائرة ضيقة . بل ان اكبر عامل اساسي للاسماعيلية باعتبار كونها مجوسية تتظاهر بالشيعية هي الاطماع السياسية من جهة واحياء اساطير الاولين بضربة تقضي على الاسلامية من جهة اخرى . والاسباب الحقيقية التي حدت بهم ان ينصرفوا عن المنقول الى المعقول . وقلبت معتقدهم من صورة مذهب الى مسلك . ومن عقيدة بسيطة الى اقانيم فلسفية . هي سيطرة الفلسفة اليونانية وآراء فيثاغور وافلاطون وآرسطو وابيكور وبلوتهن من الحكماء اليونانيين وافكارهم .

على انه يجب الاعتراف بان الاسماعيليين لم يكونوا مجهزين كافتهم حتى ولا قسماً منهم بالفلسفة الافلاطونية ولا بغيرها ؛ بل كانوا اناساً رانت على قلوبهم خاطرات الاسلاف وغرتهم الاماني . ومن العبث ايضاً ارتياد هكذا افكار في فرقة تقبل مبدئياً تعدد مراتب التعليم ودرجات المعرفة . ولهذا كان يوجد بين الاسماعيليين من يقول بامامة اسماعيل بن جعفر فقط ونبوة محمد بن اسماعيل ويكتفي بها ومن شغف بعلي واحب اولاده حباً مبرأ عن كل غرض ؛ ومن ساقه الحرص والسفه للتجرد من التكاليف الشرعية او من اضله الخيال ومن اهاجه الحرص على سفك الدماء والبطش ثم من اخترق حدود العقل وحلق في سماء الفلسفة واتبع خطةً فكريةً خاصةً . ولا جرم ان هذا القسم الاخير هو اقل اقسام الاسماعيليين عدداً واضيقهم حداً .

[illegible] وهم غير [illegible]
عامة الناس ممن يتبع خطواتهم ، ويمشي على أهوائهم ويسعى لتنفيذ مآربهم دون ان يسئل شيئاً .

ولهذا ما كانت جناتهم — التي بحثنا عنها سابقاً — واخذ المفاداة وكتم الاسرار، ذلك العمى الاسود ، والعهود والمواثيق وغيرها من المراسم الا مهيجات وسوائق مسلطة على ذلك الجمع الكثيف . وتلك العراقيل والشبهات والحيرة التي يستقبلون بها اولئك الناس، ما هي الا وسائل لجلب الاتباع ، واستخدام ألوف من الاشياع .

فاذا اضربنا عن هذه الوسائط والوسائل التي يجب اعتبارها من النقاط الثانوية تكون الاسماعيلية عبارة عن [مزيج من الفلسفة اليونانية والنصرانية ضم اليه بعض اسس من المجوسية والشيعية] .

واذا لاحظنا ان مؤسسي الاسماعيلية توخوا في غايتهم ما وراء الطبيعة من النظريات ، والافكار الفلسفية المعضلة واعدوا لها الوسائط والمدارج، قاصدين خلق مركز عمومي من الالحاد يحشر اليه ثلة جديدة من الناس ؛ نعلم ان للاسماعيليين طريقة خاصة وانه قد تكون لهذه الطريقة « [illegible] » فكرية وفلسفية .

ولا جرم ان هذه الطريقة الخاصة استمدت قبضها وقوتها من دماغي عبدالله بن ميمون القداح ، وحسن بن الصباح المشبعين بالفلسفة والعقليات . ولا نكر ان الكتب الفلسفية اليونانية التي ترجمها « حنين بن اسحق، يحيى بن عدي، ابن البطريق ، تيادورس، ابو بشر ابن ناعمه، ابو روح الصابي، اسحق» في زمان المأمون من الخلفاء العباسيين . قد سهلت تكون العقيدة الاسماعيلية، وكانت سبباً لوضع اسس فلسفتهم .

*
* *

ها نحن نشرع بعد هذا الاجمال بفحص الاسس وتحليلها :

ان الديانة الاسماعيلية تحيل جميع الحادثات الكونية الى اصل واحد ، الى سبب اولي كما هو الحال في كافة الاديان السماوية والطرائق الفلسفية . وهذه العلة الاولى تسمى عندهم « الله » ، و [illegible] باعتبار الاصل [illegible] والآله [illegible] والآله [illegible] . وهذا (الآله) منزه عن كل وصف . ويزعم الاسماعيليون ان القوة المدركة عاجزة عن الاحاطة بالخ[illegible] [illegible] لا [illegible] موجود ، ولا غير موجود ؛ ولا عالم، ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا [illegible] وصاف . [*] لان الاثبات يقتضي اشتراكه

(*) كتاب الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩

مع الموجودات الاخر فى تلك الصفات،وهذا تشبيه . ولذلك لا يؤخذ فيه بالاثبات المطلق ولا النفى المطلق بل ان الله — كما يزعم الاسماعيليون — هو « آله المتقابلين » و « خالق الخصمين » و « حاكم بين المتضادين » . والاسماعيليون باعتقادهم بالتنزيه عن الوصف ، يقربون الى معتقد المعتزلة . و « افلاطون » كان يرى الآله الذى سماه بالخير فوق كل تعريف ، وارفع من ان يتناوله المنطق ويظهره . وارسطو ايضاً كان يرى الله اعلا وارفع من كل شئ . اما « بلوتهن » مؤسس الفلسفة اللاافلاطونية، واشياع الطريقة الاسكندرية يقولون « ان كل ما يستطاع ادراكه بذكائنا ليس هو بالله ، ولا يسوغ القول بان بعض اوصاف الموجودات موجودة فى الاله ، فاذا قلنا عن الاس الاول انه هكذا او ليس هكذا، نزل به الى دركة الاشياء ، مع انه فوق كل شئ ، ولا يقاس بشئ » [**] وعليه يكون آله الاسماعيليين قريباً من آلههم. اما بالنظر للفلسفة النصرانية « ان الله فى مطلقية وجوده لا يوصف ولا يعرف ويزعم « آياطناس » احد فلاسفة النصرانية :« ان الله فوق كل اس ، وارفع من كل ما يتبادر لعقل الانسان » . فآله الاسماعيليين يجب ان يعرف بهذه الصفة .

وقد روى « الشهرستانى » عن « محمد بن على الباقر » ان الاسماعيليين يقولون « لما وهب الله العلم للعالمين سمى عالماً ، ولما وهب القدرة ، سمى قادراً . وبها كان الله عالماً وقادراً » اى يسوغ اسناد هذه الصفات الى الله بالنظر لكونه وهب العلم والقدرة ؛ ولا يسوغ بالنظر لقيامه بها، واعين السبب لا يسوغ ان يقال عنه قديم او حادث ؛ بل القديم امره وكلامه ، والحادث خلقه وتكوينه .

ويزعمون ان « الآله » الذى تجب معرفته على هذه الصفة لم يخلق الدنيا . ومسئلة تكوين الكائنات شغلت الفلاسفة اليونانية . فقال افلاطون « ان الله خير ، والخير يريد بث الخير وتعميمه ولذلك خلق الكون » وقابله ارسطو قائلاً « ان الله تفكر كامل ، فلا يفتكر بهذه الدنيا الناقصة ، وليس لفكر الكون نصيب من الاله . لانه ارفع من كل شئ .

اما بلوتهن فيقول « ما فطر الله الدنيا عن حاجة ، ولا عن هوس . اذ التسليم بهذه الصورة، يشعر ان الله لم يكن مالكاً عليها . وعدم الملك هو عدم الكمال . وايضاً ان الله لم يخلق الدنيا بطريق الصدفة ، ولا بالجاء الضرورة . لانه هو خالق الضرورات ، والقوانين فى الموجودات

وبما ان الله والاراده لا يفترقان ، فكون الله خلقها بالاستقلال وبالارادة الربانية . وتداخل فى الكون دون ان يخل وحدته ومحضيته » . وبالنظر لهذه الاقوال ، يجب ان

(**) راجع كتاب (Alfred Fouillée, Histoire de la Philosophie

يشعر بوجود بعض الدرجات في خلق الكون ، وبعض الوسائط من الدرجة الثانية لا ، وقول الاسماعيلية « ان الله لم يخلق الكون » واعتقادهم به يشعر ان الخلق كان على وجه التجلي التدريجي .

يزعم الاسماعيليون ان الله فطر « العقل » او « عقل الكل — *Raison universelle* » قبل كل شئ واختلط في العقل الاول ، فتجلى بحال آله خارجي يفهمه الانسان ويتجه اليه في عبادته . واوجد بواسطة العقل الاول « النفس الثانية » او « روح الكل — *Ame universelle* » . وبهذا يتكون تثليث الاسماعيليين . والتثليث دخل الفلسفة المسيحية ، واللافلاطونية من فلسفة الهند واس الوثنية .

فاعتقاد الاسماعيليين بالآله ، والعقل الاول ، والنفس الثانية يقرب من عقيدة البراهميين في « براهما ، سوا ، ويشنو » وعقيدة المسيحيين في « الاب ، الابن ، روح القدس » وعقيدة افلوطين في « الخير والذكاء والروح » .

واللافلاطونيون كالاسماعيليين تماماً يأخذون بالتثليث اثناء البحث عن خلق الكون فيقولون :

[اما كيفية الخلق ؛ فيجب على « الخير » وبما ان يخلق من ذاته موجوداً قريباً منه ، اكمل من كل شئ بعده ؛ ويجب ان يكون التفاوت بين الخير الخالق ، وبين الخير المخلوق يسيراً جداً . فالخالق هو الاب ، والمخلوق هو الابن . ثم ان الخير ، والخير ابنه يحدثان موجوداً اقل منهما كمالاً . ولا يفقد الثاني شيئاً باتحاد الثالث ؛ كما لم يفقد الاول شيئاً باتحاد الثاني . فالموجود الذي اوجده الله هو الذكاء ؛ والذكاء هو الذي فطر الكون ... الخ] .

وهكذا اخذ الاسماعيليون بعقيدة التثليث متبعين الاسس اللافلاطونية ، والمعلوم من العقائد النصرانية .

ولكن للاسماعيليين شذوذاً في هذا التثليث . يزعمون ان « العقل الاول » تام في ذاته اما الثاني فهو غير تام . ونسبة النفس الى العقل ، اما كنسبة النطفة الى الخلق الكامل ، او كنسبة البيضة الى الطير ، او كنسبة الولد الى الوالد ، او النتيجة الى المنتج او الانثى الى الذكر ، والزوج الى الزوجة .

ثم ينتقل الاسماعيليون بعد هذه المقدمة الى التكلم عن كيفية الخلق فيقولون :

— لما تاقت النفس الى كمال العقل ، احتاجت الى الحركة من النقص الى الكمال ، واحتاجت الحركة الى « آله الحركة » ايضاً . وبهذا وجدت الافلاك السماوية . ودارت بتدبير النفس « حركة دورية » . ثم حدثت حركة اخرى ، وبتدبير النفس ايضاً كان منها المعادن والنباتات والحيوان ، والانسان وغيرهم من المركبات . ثم اتصلت النفوس الجزئية بالابدان ، والانسان

الانسان بما لديه من القدرة الخاصة على تلقي النور واخذه . فكان مقابلاً للسلام الكلي .

يريد الاسماعيليون بهذه العبارة ان يقولوا ان الروح الكلية خلقت المادة الاولى بالحاجة الى الحركة ، وبهذا كانت تجليات الزمان والمكان .

وعقيدة « هراقليت » بارجاع الكون الى الحركة اوجدت نظرية التكامل في فلسفة آرسطو . وكان افلاطون يقول « ان الله روح عمومية فيها خاصة الحركة » بل هو روح الاكوان » ولذلك ان نظرية الحركة عند الاسماعيليين ليست بغريبة عن افكارنا .

بعد ان فصل الاسماعيليون كيفية وجود « العالم الانساني » ، قالوا :

— وجب وجود عقل للشخص في هذا العالم ، عالم الانسان ؛ كوجود العقل والنفس الكلي في العالم العلوي . ذلك ليتكون الكل ويكون حكمه كحكم الشخص الكامل البالغ ولكي توجد « نفس مشخصة » يكون حكمها كحكم العمل الناقص . تتجه الى الكمال كما يتجه الطفل . يريد الاسماعيليون بهذا الاجمال ان يطرقوا الاسس المهمة . ويوجد هنا تلميح الى نظرية پلوتين بشان « العالمين » يزعم پلوتين ان الله خلق عالمين . « العالم العلوي » او السماوي الذي يتضمن عناصر الالوهية . و « العالم السفلي » وهو يتضمن الطبيعة والانسان . وان الثاني من هذين العالمين مستعد لان يكون نظيراً الاول . او بالاحرى ان الواحد منهما نازل ، والثاني صاعد ، واحد يتباعد عن الله ، والآخر يتقرب منه .

وقصارى القول ، ان هذه النظريات تجرنا الى نظرية « التكامل » لارسطو من جانب ؛ والى الفلسفة اللاافلاطونية ، ونظرية « رجوع الروح الى الكل » من فلسفة النصارى من جهة اخرى . ويزعم ارسطو « ان حركة المادة عبارة عن الرقي ، فترقى بها الطبيعة من الحضيض الى السمو وتترفع من اللاعضوية الى العضوية ، ثم من النبات الى الحيوان وتتعالى من الانسان الى الله »

اما پلوتين فيقول « ان فوق كل درجة درجة اكمل . وتحت الدرجة الدنيا درجة ادنى وكل درجة تشرع بالرجوع الى الدرجة التي ولدتها . والموجودات كلها تندفع نحو الله ولذلك يجب المرور على كل الدرجات ليحصل الكمال . فالولد يرجع الى جده والاب الى ابيه . وموجودات الكون هكذا ؛ تحدث الحركات الكونية بصعودها وهبوطها . وهذه الحركات تكون من الصاعد الى الهابط وثم من الهابط الى الصاعد . اي تكون اولاً من الكامل الى الناقص . ثم تنقلب من الناقص الى الكامل » . وهذا هو اساس الموازنة التي يريد الاسماعيليون تأسيسها في العالم السفلي ، تكون نظيراً للعالم العلوي .

يريد الاسماعيليون ان يقولوا :

— يجب ان يكون في العالم السفلي تمثالاً لعقل الكل وروح الكل ؛ كما كان في العالم

[illegible] عقل الكل وروح الكل [illegible] الا عقل الكل [illegible]
الكل متجهة اليه . فتوجد فى الكون حركة من الصاعد الى النازل، ثم من النازل الى الصاعد .

وهم يؤمنون بان العقل العلوى تجسد (Incarnation) فى العالم السفلى، ووجد «النبي» او «الناطق»، وان النفس الكلية تجسدت فى العالم السفلى فوجدت «الاساس» او «الاس، الوصى» (*)؛ وبهذا تكون عقيدة «التجسد» فى النصرانية، موجودة بتمامها فى الديانة الاسماعيلية . وان فكرة وجود الانبياء والائمة الناطقين والصامتين كانت معروفة لدى «الخطابية» من فرق الشيعة . ثم يستأنف الاسماعيليون الكلام يقولون :

— ان الناس تحركت بالشرائع، وذلك بتحريك «النبي» و«الاساس»؛ كما تحركت الافلاك بتحريك العقل والنفس. لان سلامة العقل البشرى فى العالم السفلى لا تحصل الا بكسب العلوم التى وضعها «النبي» المجسد من «عقل الكل»، وبهذا تتعالى «الروح البشرية» و«النفس البشرية» متجهة الى «روح الكل» اى «نفس الكل» . وبناء على قصر الحياة البشرية، ومحدوديتها يظهر عين التجسد فى سلسلة من الاشخاص. وهكذا اصبح «النبي» و«الاس» يتوالى مع الزمن على المراتب السبع (**) . ومتى انتهى الدور الاخير تحقق القيامة . والغاية من هذه الحركات الفلكية، والسنن الشرعية هى بلوغ «النفس» وحدة الاشياء . والاكمال يكون ببلوغ النفس درجة العقل واتحادها معه، ووصولها الى ملئه . فاذا حصلت الامنية، وامست النفس العقل؛ تدخل فى «عقل الكل» «الله»، وهنالك تبطل جميع الحركات. وهذه هى «القيامة الكبرى». ويومئذ يحل ارتباط العناصر، وينفرط تركيبها فتنفطر السماء، وتنتثر الكواكب، وتبدل الارض غير الارض، وتطوى السماء كطى السجل للكتب .

واعتقاد الاسماعيليين هذا بشأن القيامة الكبرى كان متضمناً، للفلاسفة اليونانيين . والاسلامية تزعم افلاطون هى «شمول الخير»، وتزعم ارسطو هى «خاتمة التكامل» .

ونرى كلاً من الشرائع الدينية، والطرائق الفلسفية سلمت بوجود هكذا خاتمة .

ان التناسخ فى الامامة والنبوة، حقيقته النظرية القديمة فى تناسخ الارواح، فرغت فى شكل آخر . والذى احدث هذا المذهب هو اعتقاد فرقة «المجوسية» من المجوس ،

* راجع ([illegible]).
* ذكرنا اسماء الانبياء، والاسس فى الابحاث السابقة.

وفرق « المعمرية » و « الكاملية » من غلاة الشيعة الذين عرفوا بهذا المعتقد في انحاء ايران .

اما « السبعة » في الائمة ؛ و« الاثنى عشر » في النقباء فهي موروثة عن فرقة « المزدكية » من المجوس . لان هذه الفرقة تزعم ان ادارة العالم العلوي تكون اولاً باربعة قوى ، ثم بسبعة ؛ ثم باثنى عشر قوة . [*]

نرى من الضرورة ان نوضح وضعية « النبي » ونبحث عن نبذة من صلاحيته . يقول الاسماعيليون :

— ان الشريعة التي يؤسسها الانبياء قطعية لانهم التمثال المجسد لعقل الكل . ولهذه الشرائع معنى ظاهر ومعنى باطن . فالعارف يطلع على المعنى الباطن ؛ ويتملص من قيود الشرع الظاهرة . ويرى كل شئ مباحاً . اما الجهلاء فيستسلمون للمعاني الظاهرة من الشرع ، ويلبثون مرضوخين تحت اعبائها الباهظة . مع ان الغاية من الشرع هي اظهار حقائق الكون . وبتلقينها يكون الانبياء ناهضين بالروح البشرية الى الكمال . وقصارى القول ان المعرفة هي المرشد لاعمال الانسان ولا تكون الا بارشاد الدعاة والائمة والانبياء . وبهذا يتم التكامل .

لا مراء في ان امر التجرد عن القيود والتكاليف الشرعية هو افظع ضربة اريد تسليطها على الجامعة الاسلامية ، وهي اكبر امنية الاسماعيليين . وهذه الغاية ترمي الى الافراط والاغراق في فلسفة الحظ المعروفة لابيكور . لاسيما ان فرق « الخطابية ، المعمرية ، والجناحية » من غلاة الشيعة لم يألوا جهداً في اعداد الافكار للاقبال على هذه الطريقة . (**)

وقد دسوا في مسئلة التملص من الدين فكرة الاشتراك في الاموال ، واباحة الاعراض ايضاً . وهذه اقتبست من معتقد « المزدكية » . لان هذا الدين قد عرف سابقاً بتلقين هذه الفكرة . حتى انهم يقولون :

— ان الاختلافات بين الناس والبغض والعدوان والمشاحنات والقتال لا تكون الا من اجل النساء والمال . ولذلك يجب تحليل النساء ، واباحة الاموال الى عموم الناس . وبهذا ينقطع الشقاق وينعم عيش الانسانية .

اتبع الاسماعيليون هذه التلقينات وبلغوا « ذروة الالحاد » بمروقهم عن الدين وتملصهم من ربقة قيوده . وسبق ان قد ذكرنا هذه العقيدة الثانوية الاسماعيلية التي صدرت

*) كتاب الملل والنحل — للشهرستاني ج ٢

**) بحثنا عن هذا الفرق ، اثناء البحث عن الفرق الاسلامية .

عن هذا الاساس ، وذلك حين البحث عن دعوتهم الاخيرة ، ولذلك لا نرى لزوماً للاعادة.

وها نحن نجمل ما افضنا بتفصيله الى الآن ، قائلين :

— لا عبرة للمذهب الظاهر لدى الاسماعيليين . لان الدين من الامور الغامضة والباطنة . ولا يكتسب الا ممن اتصف بالقدسية ، وبالاجدر من شخص متجسدومتناسخ والعلم الذى سيحصل بهذه الطريقة هو غاية الكمال للانسان ، ولا يرضخ تحت اعباء التكاليف الظاهرة من اسعده الحظ وبلغ هذه الغاية . وان السعادة المحضة فى نيل هذه المعرفة وادراك تلك الحقيقة والوصول الى هاتيك الجنات . وروح الذين ينالونها تتعالى الى ان تلحق « بعقل الكل » بالوجود الازلى ، وبه يتم دور الكون المحتم .

٢ — النصيرية

[١] — *مقدمة تاريخ النصيرية* — ان الديانة النصيرية التى لها القسم الجلى من سلسلة المذاهب لم تتضح بعد ، ولم تزل اتباعها معروفة بالاغراق فى كتم اسس المذهب والايلاغ بصيانة شنشنته ومراسمه . وكان من المنتظر من علماء الغرب الذين عالجوا اعسر الكتابات واغمضها فى مختلف الانحاء من البر العتيق ونفذوا لغورها واقتدروا على استنباط معانيها ، ودونوا فيها الوفاً من المصنفات والرسائل ان يمدوا ايديهم الى هذا الحجاب الكثيف فيمزقونه ، ويظهرون ما وراءه من الخبايا . ما لبث مذهب النصيرية الذى زادته اسنادات الفرق الدرزية والمتوالية والاسماعيلية تشوشاً واشكالاً ، ان حرك شوق المستشرقين لدرسه والاقبال على استكناه حقيقته . وسنرى فى المبحث الخاص ان ابن تيمية وابن بطوطه وابن جبر وابا الفدا من العلماء والمؤرخين الاسلامية وقليلاً من خواص الاسماعيليين ، والدروز عالجوا معرفة عقيدة هؤلاء الجبليين وكتبوا فيها كتابات كثيرة .

ثم نهض المستشرقون الاوروبيون فى اواخر القرن الاخير ، وبعد انتشار كتاب « الباكورة — كما سيمر معنا — وعمدوا الى المدونات الموجودة فرتبوها انواعاً ، ووسعوا ميدان البحث والتدقيق ، ثم نصبوا انفسهم لاستكناه ماهية هذه العقيدة .

لا يفوتنا ان موضوعنا هذا لا يزال فى اشد الحاجة الى البحث العميق ، والتمحيص الدقيق ؛ ذلك لعدم كفاية ما كان الى الان من الابحاث العلمية وندرة الوثائق اللازمة . وسيطلع القارئ على صدق هذا المقال ، حينما يمعن بقراءة هذه المباحث فى كتابنا .

اضطررنا لان ندرس كثيراً من الكتب والرسائل المدونة بلغات مختلفة وان نلخصها

ما يناسب حجم هذا الكتاب، ليتسنى لنا ان نقتبس ما نحتت على الحياد ونقدر ان نبين للقارئ في مذهب النصيرية فكراً واضحاً يأخذ بالحقيقة. واكثر ما رجعنا اليه من المصنفات حين الجمع هو «تاريخ النصيرية ودينهم» للمستشرق الكاتب *René Dussaud* من العلماء الفرنسويين، ومع ذلك فقد كنا نرجع الى الآثار العربية كلما مست الحاجة.

١ ـ كتاب الباكورة السليمانية في كشف اسرار الديانة النصيرية :

ـ المصنف هو الكاتب «سليمان افندي الاذني» المولود في انطاكية سنة ١٢٥٠ هجرية. يقول الطبيب الحاذق «وانديك» من معلمي الكلية الاميركانية في بيروت: «ان سليمان افندي كان نصيرياً ثم انسلخ عنها الى اليهودية ثم اسلم ولم يلبث ان انتسب الى البروتستانية وألف كتابه في بيروت وطبعه على عهدته».

ان ما تضمنته الباكورة من المواد هي عين الحقيقة كما يشهد لها كثير من الاخصائيين والمستشرقين. وكادت تجمع جميع الاعتقادات النصيرية. وقد حنق عليه ابناء النصيرية لانه اول من فضح دينهم واظهره، ففتكوا به في قصبة طرسوس. وكاد هذا الكتاب يدخل في الندرة.

٢ ــ كتاب المجموع.

ان هذا المصنف الذي اثبتناه في كتابنا مع ترجمته يتألف من «١٦» سوره تبحث عن عقائد النصيريه وصلواتهم. وهو كتاب خطير كاد ان يحتوي على جميع الاسس في العقيدة النصيرية ويتوقف فهم مضمونه على التضلع في الامور الدينيه والتوغل في تتبعها واختلاف في مؤلفه فمنهم من يسنده الى «عبدالله بن حمدان الخصيبي» احد المقدسين لدى النصيرية. ومما راج من الخرافات عند النصيرية ان محمداً عليه السلام هو الذي رتب هذا الكتاب، واهداه الى النقباء الاثني عشر المذكورين في السورة السادسة في «وادي منى» القريب من مكة وذلك عن غير علم من المسلمين. وان لتفسير سور هذا الكتاب موقعاً عظيماً اثناء اجراء المراسم في نقل احد النصيريين من الطبقة العامة الى الخاصة بواسطة الشيوخ.

٣ ــ كتاب مجموع فيه الاعياد والدلالات.

وهذا الكتاب يبحث عن اعياد النصيرية وقد كتبه «ابو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني» الذي يأتي بعد الخصيبي في الاهمية. وقال مؤلف الباكورة «ان ميمون الطبراني تلقى علومه من الشيخ «محمد علي الجبلي» وقد افحش فيه بسب ابي بكر، وعمر، وعثمان، وشتمهم.

٤ ــ كتاب الاسوس :

يزعم النصيريون ان مؤلف هذا الكتاب. هو «سليمان بن داود» عليهما السلام

وقد نقل سنة ١٢٠٦ هجرية عن نسخة وجدت في قرية (رأس بعليه) في منطقة عليقة الواقعة في قضاء صافيتا . ويبحث فيه عن الله والخلق والملائكة ، وعن موجودات السماء والارض .

ويوجد ما عدا هؤلاء المصنفات اكثر من ثلاثين كتاباً ومجموعة تمكن الاستفادة منها في البحث عن النصيرية وقد ازمعنا على درج اهمها في جدول اسماء الكتب .

[٢] — البلاد والنفوس — تنتهي جبال لبنان من الجانب الشمالي ، بنهر الكبير (*Eleuthère*) الذي يصل وادي العاصي بسواحل بحر الابيض ، ويجري في واد عميق . اما الجبال الموجودة وراء هذا الوادي فهي تمتد حتى انطاكية على ارتفاع متوسط يقرب من (٩٠٠) متراً وهي محرومة من السهول والنجود . ويجري هناك نهر العاصي في واد عميق . ويتصل جبل الاقرع (*Cassius*) في هذه السلسلة من الجانب الشمال الغربي .

ان تلك الوعور التي يحدها نهر الكبير من الجنوب ؛ ونهر العاصي من الشرق والشمال وسواحل بحر الابيض من الغرب هي موطن النصيريين . ويوجد فيها قليل من الاروام ، وفي انحاء قدموس وخوابي يوجد الاسماعيليون وفيها اكراد ايضاً مبعثرون في انحاء مختلفة . وتسمى تلك الانحاء بجبل الاكراد . لان الزاوية الجبلية الكائنة بين النهر الكبير الشمالي ، واصقاع العاصي مأهولة بهم .

يوجد من النصيريين عدد وافر في جبل القصير الواقع في الجهة الشمالية من سورية ويفرق النصيريون القاطنون في انحاء طرسوس ومرسين وآطنه بسحنهم وغنائمهم عن سكان الجبل الشمالي والفقراء . وقد كان يوجد كثير من النصيريين في الانحاء الجنوبية التي تمتد من النهر الكبير الجنوبي . ولكنهم اخذوا في المدة الاخيرة بالهجرة الى الجهة الشمالية . وذلك لضغط المارونيين ولاسيما الاورتودوقسيين عليهم بصورة غير محسوسة . وبسبب ازراعه ربما يعثر على قرى نصيرية في الشمال من سهول البقاع والغرب من بحيرة حمص . اما النصيريون في انحاء العراق فعلى غالب الظن لا يتجاوز عددهم بضع مئات . اما ما ادعاه « مسيو دهعوبينو [illegible] » بان حسي الاعجام نصيريون فذلك امر يقتضي التمحيص والدرس العميق . وعليه يجب قبوله مع الظنة .

يمكن ان يقال ان عدد النصيرية في لوائي اللاذقيه وطرابلس وولاية حلب يناهز ١٣٠٠٠٠ نسمة برواية رونه دوسسو — [illegible] . والذين في انحاء آطنه ومرسين منهم لا يقل عددهم عن (٢٠٠٠٠) نسمة .

ج : ٢ / ١٤

[٣] — منشأ النصيريين — لا نبالغ اذا قلنا انه لم تتفق الآراء في الحكم على هذه المسئلة . يقول بعض المؤلفين ان النصيريين نجوا عن اقتران الاهليين بالافرنج ؛ وهؤلاء المتمسكون في هذا الادعاء مستندين على ما هو موجود بين النصيريين من شقر الشعور ، وزرق العيون ، وعلى بعض اسماء الاسر التي يزعمون اشتقاقها من الافرنجية ، لاجرم انهم مخطئون . والادعاء بان الافرنج تمكنوا من ايجاد هذا النسل الوافر بظرف قرنين وتصف يعد من السذاجـة . والصليبيون في هذه المدة التي تعد يسيرة في جانب حياة الامم ، لم يتمكنوا من تخليد أثر مادي سوى بضعة مواقع تاريخية .

نهض موسيو هارتمان احد المؤلفين الالمانيين واذاع انه يريد البحث والتنقيب عن الاسر الكبيرة في سورية التي هي من بقايا الافرنج ، ثم ما لبث ان نشر بعض آرائه (*) . وقد التبست عليه بيت الشامبور هل هي مشتقة من كلمة *Chambord* ام لا .

ويزعم العلماء « كارنست رينان » و« يدر لامنس » ان النصيريين كانوا يدينون بدين النصرانية ، وبعض من حذا حذوهم من العلماء يبرهن على هذا الراى قائلاً ان كلمة « نصيرى » هي مصغر النصراني . وعليه تسوغ تسمية النصيريين ، بصغار النصارى — *Petites Chrétiens* .

وقد دخل هذا التوجيه في كثير من الكتب الحديثة . على ان خطأ هذا الاشتقاق معلوم لدى كل من له ادنى المام في القواعد العربية . لان مصغر النصراني ليس بنصيرى ، بل هو نصيراني . وما عدا هذا فقد تنقب « ابو الفرج » بطريق حلب ومن مؤرخي القرن (١١) الميلادى منشأ النصيريين ، ولكنه لم يزعم انهم من النصارى .

وقد كثر من تمسك بهذا الادعاء الغريب من مؤلفي الافرنج . فزعم مريتي *Mariti* الايطالي ان اليزيديين — الذين ينطق اسمهم عن دينهم — هم من الجزويت . وزعم آخر ان الدروز هم من احفاد *Dreux* احد الامراء الفرنساويين .

وقد برهن الفحص الفني على ان اسم هؤلاء القوم منسوب الى « محمد بن نصير » الذى هو من اتباع « حسن العسكرى » من رجال القرن التاسع للميلاد وحادى عشر ائمة الشيعة . ومذهبهم يماثل مذهب الاسماعيليين . ولكن لا تزال العداوة والبغضاء مستحكمة بين الفريقين رغماً عن تلك المماثلة المذهبية .

ما كان محمد بن نصير ليشذ عن دأب صناديد الاديان ؛ بل اخذ بشنشنتهم ، ونطوق بهالة خرافية كدأب الذين من قبله .

(*) Das Liwa el Ladkije und Naye Urdu, ZDPV.,

، يزعم النصيريون ان محمداً هذا ، هو ابن « نصير » من وزراء معاوية، وقد كان يدين بالنصيرية . وشاع فى تلك الاونة دخول رجل اسمه «احمد البنا » فى هذا المذهب فسعرت النار لاحراقه ، وعزموا على القائه فيها ثلاث مرات فكان ينقلب الى صورة يزيد بن معاوية فى كل مرة ؛ فيرتدع الخليفة عن قذف ابنه فى النار .واثر هذا الحال على عواطف الوزير النصيرى ، فاسترضى معاوية بتقديم ابنه الوحيد ليحرق مكانه ، وضم ذلك المظلوم اليه ، وتبناه . وكان يومئذ عمره (١١٥) سنة ثم نزل عليه الروح الامين فبشره بغلام جزاء انقاذه النصيرى من النار ، ولم تلبث امرأته العجوز ان ولدت ذلك الغلام ، فكان هبة الله « محمد بن نصير »

اما « ابو شعيب محمد بن نصير العبدى البكرى النميرى » المذكور فى السورة الاولى والرابعة من كتاب المجموع فهو « الباب » الى « حسن الآخر العسكرى » حادى عشر ائمة الشيعيين . وعليه يكون ظهور رئيس النصيرية فى النصف الاخر من القرن التاسع للميلاد ار « سنة ٢٦٠ هجرية » . والغالب فيه ، انه اعجمى الاصل ، وكلمة عبدى فى الاسم تدل على انه كان مولى لاحدى القبائل العربية .

ويزعم ايضاً ان النصيريين ينتمون الى « نصير » مولى على بن ابى طالب ، وانهم عراقيون ، وعلى رواية اخرى انهم من انصار النبى . ومهاجرى الحجاز وهذه الروايات — مع بطلان بعضها — لم تكد تستقر على يقين علمى . وستتمكن من ايضاح هذه النقطة فى الفصل الآتى :

[٤] — تاريخ النصيرية — منذ ايام الرومانيين الى القرن الحديث — كان النصيريون فى ايام الرومانيين ايضا . ويروى « استرابون » من مؤرخى يونان ان النصيريين حافظوا على كيانهم واستقلالهم تجاه الفنيقيين فى العصر الاول للميلاد . وقد ما امعنت النصرانية فى الانتشار والتعمم بين الوثنيين فى سورية ، لكنها لم تستطع ولوج تلك الجبال على النصيريين ، فكانوا فى معزل عن تاثيرها . و برهن على صدق مدعانا ما يعثر عليه فى انحاء سورية من انقاض البيع والكنائس المبنية على طراز القرن الخامس ، والسادس للميلاد التى لا اثر لها فى بلاد النصيرية .

ويغلب فى الظن ان المسلمين ايضاً لم يتمكنوا من اكتساح جميع هاتيك الشواهق فى القرن الميلادى السابع . واسم النصيرية لم يدخل التاريخ الا منذ القرن (١١) . وقد اخترقت جنود الصليبيين هذه الجبال من انحاء متفرقة ؛ وتمكن « صلاح الدين الايوبى » ايضاً من استمالتهم ، والاحراز على طاعتهم .

نهض الاسماعيليون فى القرن الثانى عشر للميلاد ، وارادوا ان ينتهزوا فرصة ما جنته

ايدى الافرنج على سورية من الارتباك والتشوش الاداري ؛ وقصدوا الى قصبة بانياس القريبة من الشام فاستولوا عليها . ولكن لم يقدروا على الاحتفاظ بها . وعجزوا عن الدفاع ، ثم غلبوا وفروا الى جبال النصيرية . وقاد رئيسهم « شيخ الجبل » ، ففتح قدموس وكهف ومصياد وقاهر ومانيقه وخوابي ومرقب من بلاد تلك الديار . وادخل النصيريين فى طاعته .

ثم أخذ شيخ الجبل « رشيد الدين سنان » باستمالة الجبليين اليه . وتسنى له ادخال كثير منهم فى زمرته رغماً عما تكنه صدور الطائفتين — الاسماعيلية والنصيرية — من الضغائن والبغضاء لبعضهما .

وفى اوائل القرن التاسع عشر للميلاد نبغت عشيرة « بيت رسلان » التى هى من اعظم العشائر النصيرية ، وزادت بسطتها ، وقويت شوكتها واصبحت ذات السيطرة على جميع مشايعيها . وقد نهضت لقتال الاسماعيليين اعدائها وهجمت على قصبة « مصياد » حيث فتحتها وذبحت جميع من فيها . ولم تدث « ايالة الشام » فى ذلك الزمن ان جهزت مقدار خمسة آلاف جندياً وسيرتهم اليها ، ولكن ما كان من هذا الجند الا ان نهب بضع قرى وعاد الى حيث اتى .

ولما اقبل « ابراهيم باشا » المصرى بجنوده ليفتح سورية (١٨٣٢ — ١٨٣٣) تحفزت لرده عشيرة « شمسين » الحاكمة على ضواحى « صافيتا » ، وحاولت ان تقف امام تياره ؛ ولكنه اناخ عليها بكلكله ، فبطش برؤسائها ، ودمر جميع حصونها .

وفى سنة (١٨٥٤) ميلادية . قام « اسماعيل بك » احد رؤساء النصيريين ، المنتمى الى عشيرة « المتاورة » والمولود فى قرية « لوكيه » القريبة من بلدة « حما » وانتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب الروس ، فشق عصا الطاعة وجاهر بالعصيان ، وحشد حوله كثيراً من عشائر النصيرية ؛ ثم انتقل الى (صافيتا) وسمى نفسه « مشير الجبل » ، واخذ يشتغل بادارة تلك الاصقاع على وجه شبيه بالاستقلال . وبما كانت الدولة يومئذٍ مرتبكة فى الغوائل الخارجية فرأت ان تجنح معه الى السلم واقطعته تلك الانحاء ونصبته والى عليها .

ما لبث الوالى الجديد الا واغرق فى الترف ، وتسرب الى البذخ حتى كان قصره مختصر بلاط سلطانى . واصبح الرسلانيون والشمسيون والخياطيون ؛ اولئك الذين رضخت لسطوتهم قلوب الجبليين ، يدأبون لمرضاة هذا السيد الجديد ، وبذلك تسنى لهم الخلاص من الظلم ، والعسف الذى ارهب جميع الناس .

رأى اسماعيل خضوع (١٢٠) الفاً لحكمه المطلق ، ورأى فى نفسه من البأس والقدرة ما مكنه من جميع آماله ، فرنحه ذلك السلطان وغره تلك المكانة ؛ فاستمر الى

الملتجئ اليه وطلب من الدولة العثمانية تأديبه تأديباً حسناً ، فالا كوله يضيفه ... الى اما فى حوزة ابن البلاد ، ولم تنجح طلبه ، واسعف ، ولكن تمكن سليم سورية واظهروا علامتهم على اطلاع تلك القلمة الخطيرة الى النصيريين ، وبلغوا بالثورة والعصيان ، وجرت بين الطائفتين حروب متعددة. اما الدولة فقد آزرت السنيين وامدتهم بخمسة الاف جندياً فانهزمت طائفة اسماعيل بك ، وجد « طاهر باشا » قائد الحملة فى طلبه ، حتى ادخله قرية « كوكبة » التى هى مسقط رأسه حيث قتله فيها احد النصيريين .

اخذت الحكومة ادارة النصيريين بعد ان قتل اسماعيل بك على عهدتها واسست فى بلادهم الأسر الادارية ، ومع هذا لم يخلص النصيريون من الظلم والعسف . ولم تكن ثوراتهم فى سنة ١٨٣٧ و١٨٧٠ الا من سؤ تلك الادارة .

كانت اللغة السريانية متفشية بين النصيريين قبل مهاجرة الاسماعيليين فى اوائل القرن الحادى عشر . ولم تزل بعض كلمات تلك اللغة موجودة فى لغة النصيريين الى الآن . ويستدل من كثرة الكتابات اليونانية الموجودة هناك ، على ان تلك اللغة كانت متفشية عندهم قبل السريانية .

[٥] — دين النصيرية . — تتالف احكام الدين عند النصيريين الذين عهد الينا البحث عن شؤونهم العمومية : من العقائد ، والصلاة ، ومراسم الدعاء ، ويسير من الاخلاقات .

ان اول اعتقادهم هو تثليث الآلهة ، اى ايمانهم بثلاثة آلهة . ويسمون اول هؤلاء الآلهة « المعنى » والثانى « الاسم » والثالث « الباب » . ويقصدون الغيب المطلق من المعنى ، والاسم الصورة الظاهرة للمعنى ، اما الباب فهو الطريق الموصل الى الغيب المطلق . وقد كان قدماء علماء النصيرية يسعون لايضاح هذا « الواحد المثلث » وتفسيره ويستعينون ببعض ما تمسك به النصارى من الادلة والبراهين .

يدعى المستشرق « لامنس » احد معلمى المدرسه اليسوعية البيروتية الملغاه ، ان النصيريين كانوا على دين النصرانية قبل الاسلام . ويؤيد صدق مدعاه بما شاهده من انقاض البيع والكنائس فى محلات متفرقة فى تلك الجبال . ويجب على القارئ ان يكون على يقظة من امره تجاه هذا الادعاء . لان هذا المستشرق ينتمى الى فئة الجزويت التى لو امكنت لجعلت جميع سكان البسيطة نصارى . هذا ، لا نرى منهم « الاب شيخو » الذى حشد فى كتابه « شعراء النصرانية » كل غريبة ؟ الم يجعل اكثر شعراء الجاهلية من النصارى ؟

لم يخلص النصيريون من تاثير النصرانية فى مراسمهم الدينية . وسنتكلم عن هذه المسئلة بعد . وان المستشرق دوسو — *Dussaud* ينكر على من يزعم ان النصيريين

دخلوا في النصرانية قبلاً ثم انسلخوا عنها . ويأتي بالبراهين الناصعة والحجج القاطعة في تأييد مدعاه . ولا بد لمن يطلع على آراء هذين المستشرقين ان تعتريه الحيرة ، ويظلون الظنون وهذه احدى المسائل المهمة التي لم تحسم بصورة يقينية .

ينقسم اشياع الديانة النصيرية الى اربع شعب :

الحيدرية ، الشمالية او الشمسية ، الكلازية او القمرية ، الغيبية . لا ننسى ان هذا الانقسام منحصر في الفروع . وان « كتاب المجموع » المقدس جعل جميع افراد النصيرية مندمجة في الوحدة الدينية .

يقسم النصيريون زمانهم الى سبعة ادوار ، كل واحد منها تمثال لآخر . وسبب هذا التقسيم هو انقسام الاسبوع الى سبعة ايام . ويزعم الاسماعيليون وجود نبي ناطق في كل دور من هذه الادوار . وهو مكلف بتعليم اسس الديانة ونشرها . ويأتي بعد كل نبي سبعة ائمة لاجل اتمام شريعته ، والاول من هؤلاء السبعة يكون كالاساس . فآدم ونوح ، وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، ومحمد بن اسماعيل بن جعفر ، هم انبياء صدعوا بالنبوة وجاهروا بها .

وتزعم هذه الفئة ان الائمة السبعة الذين ظاهروا النبي عليه السلام هم : [علي بن ابي طالب « وهو اساس محمد الناطق » ، الحسن ، الحسين ، علي بن الحسين ، محمد بن علي ، جعفر بن محمد ، اسماعيل بن جعفر] .

ويعتقد الاسماعيليون ان قد جاء الائمة الستة المكلفون بتعليم الشريعة المحمدية ونشرها ودرجوا ، لذلك يجب الانتظار لبعثة مهدي آخر . والنصيريون يجحدون هذا الادعاء ويقولون : ان الدورة السابعة للزمن قد تشرفت بتجلي الالوهية في علي بن ابي طالب للمرة السابعة .

والباطنيون لم يفترقوا الا بعد وفاة اسماعيل بن جعفر . فمنهم من يعتقد ببقاء امامته بعد وفاته ، وانه سوف يكون مهدياً ويرجع الى عالم الظهور . اما الفرق الاخرى ، فتعتقد بانتقال الامامة الى موسى اخي اسماعيل (*) . وان كتاب « مجموع الاعياد » الذي هو من اهم الكتب لدى النصيريين يعدد الائمة ، ويذكر موسى بعد جعفر عوضاً عن اسماعيل . وبما ان « محمد بن نصير » كان من شيعة « حسن العسكري » حادي عشر الائمة الشيعية ، لا يستغرب عن اتباعه النصيريين انكار امامة اسماعيل بن جعفر التي آمنت بها الاسماعيلية ؛ والاخذ بامامة موسى الذي هو جد « حسن العسكري » . ومع هذا فان النصيريين يعتبرون الائمة سبعة ، كما هو منصوص في السورة السابعة من كتاب المجموع .

(*) تاريخ النصيرية لرنه دوسو (René Dussaud) ص ٤٢

• يزعم النصيريون ان المعبود المقدس واحد من جهة المنهج ولكن يتعدد في الظهور فيحل في الاجسام ، وما هذه الاجسام الا الكواكب السبعة التي تقلدت ادارة الكون •

حتى ان فرقة من الاسماعيلية تزعم ان على بن ابى طالب الذى هو اساس لمحمد عليه السلام قد باح بجميع اسراره الى النبي ولكن لم يطلعه على المعنى ، او بالاوضح ان «المعنى» بقى فى نفسه وبهذا يكون هي وسيلة لتساعد على خلق دين آخر . والنصيريون يصعدون بعلى الى درجة الالوهية ، ويلصقونها بكل « اساس » حاز عنوان «المعنى» .

وتوجد فروق ظاهرة بين هاتين الفئتين:

يؤمن الاسماعيليون بان « الناطقين » الذين هم شكل متجسد « لعقل الكل » هم اول ممثل للمظهر الالهى وقد زعم كل من الحاكم بأمر الله ، ورشيد الدين سنان حين ادعائه بالالوهية انه « الناطق » السابع .

اما عند الدروز الذين هم اقرب الى الاسماعيلية من النصيرية ، فالاساس يأتى بعد الناطق وبالنظر الى العقيدة الباطنية فى الاسماعيليين ، ان علياً اكبر من نبى الاسلام [*] .

وان « المعنى » الذى هو مرادف لكلمة « الله — على » قيمة خاصة فى دين النصيرية وكما ان « يسوع » عند النصارى ، هو كلمة الله ، فعلى ايضاً هو « المعنى » عندالنصيريين ولهذا سميت هذه العقيدة بـ « المعناوية » .

ولكن الدروز يفترقون عن النصيريين فى هذه المسئلة . وقد بالغ حمزة بن على فى الطعن على هؤلاء قائلاً : لا جرم سينسلخ عن رحمة الله فى الدنيا والاخرة كل من اعتقد بحلول « المعنى » فى على بن ابى طالب ، وعبده كالنصيريين . [**]

و« بن تيمية » من العلماء الاسلامية ، شدد النكير فى فتاواه المشهورة على النصيريين بسبب هذا الاعتقاد وطبق عليهم بحملة شعواء

وان ما اقترفه امراء الامويين من الظلم والجور على اولاد على ، كان سبباً لاقبال اكثر الفرق الاسلامية عليهم ، وحبهم لهم والاخذ بيدهم ، وكانت تلك الافاعيل الروحة فى بلاد العجم من الشدة على درجة اصبحت منها الاسلامية على شفا الخطر

واخذ بعض الفرق الاسلامية كالشيعة والخارجية ، وفروعهما يدينون بما يخالف نص القرآن من الاعتقاد واضطر الخلفاء ، وغيرهم من الحكومات السنية الى اختيار الشدة ،

---

*) يقول رونه دوسسو فى الصحيفة ٤٥ من كتابه « تاريخ النصيرية » ان هذا شاذ . وقد ذكرنا فى الصحيفة (١٠١) من كتابنا هذا ان الاسماعيليين يعتقدون ان « الاساس تحت الناطق »

(**) نسى على بن حمزة — اثناء الطعن — عقيدة الدروز

[illegible] عن ضلالتهم ، ولكنهم لم يزدجروا [illegible] ويتفشى [illegible]

قال «ابن حزم» أثناء البحث عن هذه الفرق والتنديد بها :

[illegible] بعض فرق الشيعة بالغلو الى درجة ، اعتقدوا فيها بالوهية علي ، والائمة من بعده ، [illegible] الغلو [illegible] تحريف المعاني الظاهرة من القرآن ، كزعمهم بان القصد من كلمة السماء هو «محمد» ، وكلمة الارض هي «الاصحاب» ، و«العمل الصالح والعدل» هو «علي» والمراد من «الجبت والطاغوت» هما «ابو بكر وعمر» ، والصلاة هي «الامام» ، و«الزكاة» هي الاموال التي تعطى له ، و«الصحبة» هي «زيارة الامام» .

انتشر دين النصيرية في اوائل القرن الخامس للهجرة ولم يزل الى الآن محتفظاً على مكانته الاولى . ويعتقد ذووه بوحدانية الخالق ، ولكنهم يزعمون تجسد الالوهية في ذات «علي» ويضعون كلمة «علي الاعلى» بازاء كلمة «علي الله» .

ولا جرم ان الحاكم بامر الله الفاطمي ، استعان بهذه العقيدة النصيرية لما توسع في معنى ألوهية علي ، وادعى انه تمثال لها ، واسس الدرزية بمعونة وزيره «حمزه» . وهكذا فعل «رشيد الدين سنان» ، واتبع عين الخطة .

يقول النصيريون ، خلافاً لما يعتقده المسلمون :

«ان علي بن ابي طالب ، واحد لا يزول ؛ وهو حاضر في كل مكان وزمان . وهو نور النور الذي ينير جميع الكواكب ، وان تفتت الصخور ، وتكون البحور ، وجميع الحركات ، هي تحت تصرفه وارادته ، وعلي الذي يبيد الكون ، غير مستور بحجاب مادي ، بل هو كامن في انوار الذوات الالهية وما «المعنى» الا هو ، وهو امام في الظاهر ، ورب في الباطن وابو بكر وعمر وعثمان ، هم تماثيل الشيطان . والجهاد المقدس يجب ان يكون على الفرق التي تزعم ان علياً وغيره من الانبياء ياكلون ويشربون كسائر الناس ، وانهم ولدتهم النساء [*] . ويجب تطبيق الجزاء نفسه على من يخون عهد النصيرية ، ويبوح باسرار العقائد ، [**] » .

يتضح لنا من هذا ، ان النصيريين يعتقدون بحلول الالوهية في علي ، ونرى في السورة الحادية عشر من كتاب المجموع هذه العبارة «اشهد بأن ليس الهاً الا علي بن ابي طالب الاصلع المعبود» ، وهي تنطق بحقيقة تلك العقيدة واسسها . و لائمة تمثل عاياً في لارض ولعدم وجود الائمة اليوم، كان من المحتم انابة المشايخ عنهم . وهؤلاء لهم السيطرة =

(*) سور كتاب المجموع .
(**) كتاب الباكورة

التامة على دين الافراد ودنياهم . وكل نصيرى من اى طبقة كان مجبور على استشارة الشيخ قبل مباشرته بأى عمل كان

يقرأ النصيرى فى السورة الخامسة من كتاب المجموع « . . . واشهد بان السيد محمد خلق السيد سلمان من نور نوره وجعله بابه وحامل كتابه » .

ن ما فصله سليمان افندى مؤلف كتاب الباكورة هو افصح واوضح :

يعتقد النصيريون ان عليا « اب » ومحمداً « ابن » وسلمان الفارسى « روح القدس » ؛ وان سلمان الفارسى خلق الايتام الخمسة الموكلين بادارة الكون . وخلق « مقداد بن الاسود الكندى » ، من هؤلاء الايتام « الرعد والزلزال والصواعق » . وامر « ابو ذر الغفارى » بتنظيم حركات الكواكب السيارة والثابتة ؛ و « عبدالله بن رواحه الانصارى » بادارة الارياح ، وقبض الارواح ، و « عثمان بن مطعون النجاشى » بتفقد حرارة الاجسام وتعهد الامراض البشرية ؛ و « قنبر بن كادان الدوسى » باعادة الارواح الى الاجسام . ونفثها فيها .

ويعبر عن الثالث برمز مقدس يسمونه سر (ع — م — س) . ولهذا الرمز موقع عظيم فى التعاليم الدينية عند النصيريين . ومدلول حرف الـ « ع » هو « على » وال « م » (محمد) وال « س » ، سلمان الفارسى وقد جاء فى السورة الرابعة من كتاب المجموع ما يتعلق من قدسية هذا السر ، وعظم موقعه : فقيل :

« احسن توفيقى بالله ، وطريقى لله ، واحسن سمعى واستماعى من شيخى ومرشدى المنعم كما انعم الله عليه بمعرفة « ع ، م ، س » وهى بشهادة ان لا اله الا على بن ابى طالب الاصلع ، الانزع ، المعبود ؛ ولا حجاب الا السيد محمد المحمود ؛ ولا باب الا السيد سلمان الفارسى المقصود . . . »

ويمكن اجمال هذه العبارة مع الجمل الآنفة بما يأتى :

ع	م	س
على	محمد	سلمان
معنى	اسم	باب

ويقول النصيريون « تقدم الى الباب ، وادركم امام الاسم ، واعبد المعنى » . وهذا يبرهن على اعتقادهم ان عليا اقدس من الجميع . ويزعمون ان الاوقات الخمسة يقصد بها الا شخاص الخمسة المقدسة لديهم . ويقبون صلاة الظهر باسم (محمد) ، والعصر باسم « فاطمة » ، و بتعبيرهم « فاطر » وصلاة المغرب باسم « الحسن » ، والعشاء باسم «الحسين» والصبح باسم « محسن » ؛ ويعتقدون ايضاً بان الالوهية تمثلت فى هؤلاء الخمسة ، كما تمثلت فى على . ومن اعجب العجب ان النصيريين لم يختلفوا فى وحدانية الرب ويسمون

انفسهم « اهل التوحيد » !!

[٦] — اقسام النصيريين — (فرقة الحيدرية) — ان اشتقاق هذا الاسم هو من كلمة حيدره ، وهي اسم الاسد . واشتهر منتسبو هذه الفرقة بعدم التصلب في العقائد القديمة ، وسهولة الاقبال على المعتقدات الاجنبية . وهم يتركون اعتقادهم بان محمداً « عليه السلام » هو الشمس ، وسلمان الفارسي هو القمر ، لغيرهم من الفرق . وقد سيطرت على فكرة اسلافهم في زمن الفنيقيين عقيدة « جزيرة ارواد » وشيدت يومئذ في جبالهم معابد خاصة لاسقالون *Ascalon* واستارته *Astarté* من الالهة . وما نراه اليوم من عبادة بعض القوم للشمس والقمر يطلعنا على ان الديانة الفنيقية لا تزال انها بقية من حياة ويوجد هناك « حصن سليمان » مقوض البنيان خاوياً على عروشه مرتكز بانقاضه فوق معبد بوتوسه *Boetocéé* الذي كان مبنياً على تلك الجبال باسم احد الالهة المحلية . اما المقام الذي في جانبه فهو محترم للغاية عند النصيريين . ولم يزل وقف البنت الكواعب والذكران من الحيوانات مالوفاً عندهم ، ويحتمل ان تكون هذه العادة من مخلفات الفنيقيين ايضاً .

(فرقة الشمالية ، او الشمسية) — يعتقد اشياع هذه الفرقة من النصيريين ان المعبود الاعظم ، « علي بن ابي طالب » الذي هو السماء . يقطن في الشمس التي تمثل محمداً « عليه السلام » . وتوجد في السورة ١١ و١٢ من كتاب المجموع اشارة على ان علياً حل في قرص الشمس . وعقيدة الشماليين تتكون من امتزاج محبة علي ، التي بثها الاجانب في قلوب النصيريين ، مع الدين المحلي .

حذا الشماليون حذو الاقوام القديمة في سورية ، اذ كانوا يعبدون آلهاً مقامه الشمس *Helios* اسمه « بعل سامين » ؛ والشماليون يزعمون ان علي بن ابي طالب الذي هو آلههم — كبعل سامين — مقيم في الشمس ايضاً .

ان كلمة الشماليين يجب ان تكون مشتقة من الشمال . ولكن معظم السكان في القسم الشمالي من جبال النصيرية هم من الحيدريين . ولذلك لا يكون هذا الزعم صحيحاً .

ان محمداً « عليه السلام » — كما يزعم الشماليون — هو اسم علي ومقره ، وله جميع بأسه وقدرته . وقد يتحدان في الليل ، ويفترقان في النهار . ومحمد هو عين الشمس وهذا السبب حدى بالشماليين الى عبادة الشفق .

يعيد النصيريون في ٣ ايلول و١٧ مارت و١٦ تشرين الاول وفي شهر نيسان ، ويحرقون البخور في اعيادهم ، ويشربون النبيذ . ولم يقتبسوا هذه العادة من النصارى ، بل سرت اليهم من الاقوام الشرقية .

ومن المعلوم ان هؤلاء يحرمون أكل بعض الحيوانات . وهذا التحريم لم يكن من قبيل الديانة الاسلامية، بل يزعمون ان المعنى «علي» حرم أكل الجمل والارنب والانقليس (سمك الحيات) ؛ والاسم «محمد» حرم الخنزير والدم والذكور من الحيوانات ؛ والباب «سلمان» حرم سمك «السللور» الذي يوجد في نهر العاصي وبحيرة انطاكية .

والصحيح ، ان تحريم هذه الحيوانات كان في الاديان التي قبل الاسلامية . وعلى كل حال ان السوريين قيدوا انفسهم بهذه القيود قبل التوراة والقرآن ، وقصارى القول ان عقائد الشماليين اليوم كادت تنطبق في أكثر المسائل على اعتقادات اقوام «حران» القديمة .

وما الايتام الخمسة الذين ذكرنا اسمائهم آنفاً ، والمعروفون عند النصيرية بميكائيل واسرافيل وعزرائيل ودردائيل وسالسائيل ؛ الا الكواكب الخمسة «زحل والمشترى ، المريخ والزهرا وعطارد» ، عبودوا الاقوام القديمة وآلهتهم . وكان الوثنيون من قدامى «حران» يعتقدون ان كلاً من هذه الكواكب هو مقر لاحد الآلهة ، وان كلاً من اولئك الآلهة كان يقوم باحدى الوظائف المختصة بالايتام الخمسة . ونرى ان المماثلة بين الاعتقادين ظاهرةً جداً .

(فرقة الكلازية ، او القمرية) — يخالف اتباع هذه الفرقة ، الفرقة الشمالية . فيقدسون القمر ، مع ان الاولى تقدس الشمس ويزعم هؤلاء ان الوحدة الصمدانية حلت في القمر ؛ وان قدسية الاله التي بوركت في سور كتاب المجموع ، تجلت في القمر لا في الشمس . لان علياً عرج الى القمر بعد ان لبث مدة في الارض وحل فيه ، وكون القسم المطموس منه . وهو الدم غير مرئي . وحينما ينفصل النصيريون من الجسمية ويحلون في السماء باجسامهم النورانية ؛ سيتراءى لهم «علي» بانواره الياقوتية السماوية .

يانتقديقة النصيريين على الكلازيين عبادة القمر ، وهؤلاء ينتقدون على الشماليين ترجيحهم نبي المسلمين على «علي» بقرائتهم «اؤمن بالوهية محمد» .

ولهم اشعار ، وترجمات كثيرة في الابد المعروف بينهم بـ «عبد النور» الذي يعده الكلازيون هبة «القمر» ويعده الشماليون عطلة «الشمس»

يظهر مما فصلنا ان النصيريين يقدسون اسماء الشمس والقمر باسم علي ومحمد وسلمان كما فعل الفنيقيون والسوريان من قبل ، لانهم كانوا يعبدون «زحل امز» باسم «الاله الاعظم» و «آلهة الشمس» باسم «مالايك» و «آلهة القمر» باسم آشاييول .

ان الاختلاف بين الشماليين والكلازيين كائن في تفسير «الباب» و «المعنى» ، لان الشماليين يزعمون ان المعنى هو السماء والباب هو القمر ، والكلازيين يعتقدون نقضه اي ان عليا «المعنى» هو «القمر» وسلمان الفارسي «الباب» هو السماء ؛ ويتفق كلاهما على ان محمداً

«عليه السلام» هو «الشمس».

اما فرقة الغيبية، او «عابدو الهواء» فتزعم ان الله كان مقيماً في الارض ثم اختفى، وما الزمن الحالي الا كرة من دور الغيب؛ وان الله لا تدركه الابصار، وهو حاضر في كل مكان، وانه عبارة عن «الهواء». ولهذا فقد سماهم سليمان افندي مؤلف الباكورة بعباد الهواء.

يبالغ النصيريون بالتكتم واذا احوجهم الامر يتظاهرون بالاسلامية والنصرانية، وحتى باليهودية. ولما كانت حياتهم بين المسلمين تجدهم يقيمون الصلاة، ويتظاهرون بالقيام بجميع الفرائض. ويذهبون الى الجوامع فيركعون ويسجدون مع السنيين. وبما ان القراءة في الصلاة لا تكون جهاراً. فهم يقرؤن من سور كتاب المجموع.

يرتكز اساس النصيريين على الانانية وحب النفس. ويزعمون ان الله لما كون العالم جعلهم كواكباً منيرةً. ولكن ما لبث ان اجلاهم الى سطح الارض لاقترافهم السيئات. ويقول مؤسسو هذه العقيدة، ان ارواح الاتقياء من النصيريين تنتقل بعد الموت من جسم الى آخر حتى تنشط من اوزارها، ثم يكون النشور فترجع الى اصلها، اي انتقل من الجسمية وتكون كوكبا يلتحق بعالم «المجرة *Voie Lactée*» كما كان من قبل. اما ارواح العصاة فتنقلب في اجسام كثيرة ثم تمثل في يهودي او مسلم او نصراني، ويلحق بها العذاب برهةً حتى تطهر من ادران الذنوب وتكون كالفضة النقية، ثم تنقلب كوكباً وتلتحق بابناء دينها في السما. اما المسلمون الذين لا يعبدون علياً فسيصيرون حمراً والنصارى خنازير، واليهود قردةً. وان الشياطين خلقت من معاصي الانسان، وكانت النساء من خطيآت الشياطين. ولهذا السبب لا تزال النسا محقرةً في نظرهم، ولا يطلعوهن على شيء من عقائدهم ولا اسرارهم.

وقد جاء في السورة الثانية من كتاب المجموع، ان للروح سبع استحالات تمر عليها ريثما تجرد من المادية، وتنقلب الى كوكب منير. ويحتمل ان تكون هذه النظرية في الاستحالة، هي عين الاعتقاد الذي اسسه البابليون بعروج الارواح الى السماوات السبع، وانتقل منهم الى الايرانيين ثم الى الرومانيين.

يستعمل النصيريون هذه الرموز والكنايات لمعرفة بعضهم. يسال الغريب من اهل القرية التي يدخلها. قائلاً:

— هل فيكم من يعرف عمي؟

فيجيبه القرويون:

— ما اسمه ؟
— حسين
ويتم القرويون الجملة :
— ابن حمدان .
القريب :
— الخصيبي
او يقول له القرويون :
— كم لعمك من البز ؟
— ستة عشر .
— اين اروى عمك غليله ؟
— في عين العلوية .
وتوجد عندهم بعض كنايات ما عدا هذه .

لا يجوز في مذهب الفرقة الشمالية حلق اللحى ، واكل اليقطين والبامية والفافل والبندورة ، ولا يجوز عندهم استعمال الدخان « التبغ » ولكن الكلازيين لا يبالون بهذا المنع .

[٧] — تقاليد الدخول في النصيرية — تنقسم اتباع النصيرية بالنظر الى درجة الاطلاع على المسائل الدينية الى بعض طبقات ومراتب ذكرها كتاب المجموع في الصورة « ١١:٣ » وحسبنا أن نذكر منها في اثنين » اقتداء بالمستشرق الشهير « قلهمان هو ر [illegible] » يقسم النصيريون الى « خاص » ، اى الذى دخل في الدين والى « عام » اي من لا له نصيب في الدين ، شروى الدروز بانقسامهم الى عقال وجهال : ويتوقف ارتقاء العامة الى الطبقة الخاصة على شروط وقيود كثيرة . ولا يكون ذلك الا بارشاد الاستاذ والاطلاع على العقائد بالتدريج .

ان الاساتذة المعظمين والمحترمين عند النصيريين ، هم على ثلاث مراتب ، فمن كان في المرتبة الاولى فهو « امام » ، والذى في المرتبة الثانية هو « نقيب » ، والذى في المرتبة الثالثة هو « نجيب » ولكل منهم سلطة تخضع لها الطبقة العامة باسرها ، وكل الاحكام التى تصدر عنهم لا بد ان يعمل بها .

علما ان افراد العامة لا يدخلون الطبقة الخاصة الا بالتدريج . يدخل اولاً من يرشح نفسه لذلك الى حضرة الامام وذلك في يوم معين يسمونه بالمشورة . وهناك يبرهن على اذلال نفسه بوضع نعل الاستاذ على راسه ثم يشرب قدحاً من خمر حباً بسر الامام . وبعد

اربعين يوماً يحظى بالمثول فى يوم يسمونه « المليك » ويشرب القدح مجأجسر ع م س . ويوص بأن يتلو هذه الحروف الثلاثة على ثلاثة ايام فى كل يوم خمسمائة مرة ، وبعد سبعة اشهر يأتى المرشح والنقيب على يمينه والنجيب على شماله فيشرب القدح الثالث ، ثم يقدمه احد الحاضرين الى الاستاذ الذى يسمونه « المرشد » . وهنالك يقرأ النقيب والنجيب بعض قصائد دينية . ثم ينهض المرشد ويقف متجهاً نحو الامام ويتلو بعض سور من كتاب المجموع . ثم تجرى بين الامام والمرشد محاورة مملة لا حاجة لتفصيلها وبعد ذلك يطلب المرشد تأديب المرشح .

يسأل الامام عمن ارشد المرشح ، فيجاوبه المرشد ، بانه مدفوع بهداية الحق القديم والاسم العظيم ، والباب الكريم [اى : ع م س] . وبهذا الاثناء لا ينفك المرشح يتقدم ويتأخر ، ويشبع ايدى الامام وازياله تقبيلاً : وهنالك ينظر اليه الامام بنظرة ملؤها التهكم والجد ، ويساله هل يشترى الاحتفاظ بهذه الاسرار المقدسة بحياته . فيقول : نعم فيطالبه باقامة مأة كفيل ، ولكن يتوسط من حضر فى المجلس فيحطون المقدار الى اثنى عشر ، وهؤلاء يدعون الى حضرة الامام ويرضون بالكفالة ، ويقولون [عهدنا وميثاقنا على ان تقتل اخانا هذا الذى كفلناه ، اذا خالف الواجب واذاع السر] . ثم تقوم اثنان من الجمع فيكفلان هؤلاء الاثنى عشر ايضاً وحينئذ تنجلى العبوسة عن صحيفة الامام فيرحب بالجمع ، ويتلقاهم بوجه بشوش . ثم يوكد ايمان المرشح بتحليفه بكتاب المجموع تأميناً لصيانة السر ويجازفه فى الوعد والوعيد ويقف هنيهة . فيبادر الكفلاء ويضعون ايديهم على رأس المرشح ويأخذون قراءة بضع سور من كتابهم المقدس ، ثم يسقونه قدحاً من نبيذ ، ويدعونه ليحفظ هذه الجملة [باسم الله وبالله وسر السيد ابى عبدالله (حسين بن حمدان الخصيبى) العارف بمعرفة الله سر تذكاره الصالح سره اسعد الله] .

وبعد انتهاء هذه التقاليد ، يأخذ المرشد [*] بيد الرجل الى بيته وبعد ان علمه على اصول الدين ، يشرع فى تعليمه كتاب المجموع المحتوى على ستعشرة سورة ، بادئاً بسورة الشتائم التى تتضمن اغلظ السب على (ابى بكر وعمر وعثمان) الذين يسمونهم الاضداد الثلاثة . وبهذا يدخل المرشح فى طبقة الخواص بعد ما يتكبد عذاب الامتحان ، ويقاسى مضض هاتيك التقاليد مدة طويلة .

يجب فى المرشح ان يكون نصيرياً عن اب وجد ، ويكون متجاوزاً فى العمر ثمانى عشر سنة ، ولا يكون من النساء .

ان سورة الشتائم تتضمن الشتوم الغايظة على [ابى بكر وعمر وعثمان وطلحة وسعد

*) ويسمى عندهم « العم » ، وهو بمثابة الاب للمرشح . ولا يسوغ له نكاح ابنة المرشد .

وخميله وعقائد بني الوليد وعلويه وابنه يزيد والحجاج وعبد الله بن سيحان وهارون الرشيد ، وعلى كافة المسلمين المنتمين الى المذاهب الاربعة ، واليهود والنصارى وأحمد البدوي والشيخ احمد الرفاعي والشيخ ابراهيم الدسوقي والشيخ محمد المغربي والشيخ عبد القادر الكيلاني من المعاصرين ، وعلى الجلنه بن كركر واسحاق الاحمر وقيدار وحبيب العطار وغيرهم من المجهولين] . (*)

يفهم مما فصلنا ان العقيدة النصيرية لا يعرفها الا من كان في طبقة الخواص ، اما العوام « ولاسيما النساء اللاتي خلقن من اوزار ابليس » لا يزالون مبعدين عنها . غير انهم لا يرون بأساً باطلاع الرجال من العوام على بعض المعلومات الدينية البسيطة .

[٨] — اعياد النصيريين — ربما يؤمل القارئ ان بحث الاعياد يطلعه الى شيء من العقائد . ولكن هذه الفرقة التي تقدس علي بن ابي طالب لم تكترث في اكثر اعيادها بالتقاليد الدينية مطلقاً .

كانت الطوائف التي تقطن الجبال الشمالية من سورية قبل الاسلام تعيش مختلطة بالنصرانية ، فحذت حذوها بانتقاء ايام الراحة . ومن المعلوم ان معظم اعياد النصارى كانت موجودة عند قدماء الوثنيين [**] . ثم جاء الاسماعيليون مهاجرين الى انحاء قدموس وكانوا سبباً لدخول كثير من اعياد العرب والعجم على الطائفة النصيرية جارتهم . وقد جمع هذه الاعياد « ميمون بن القاسم » احد مشايخ النصيرية في كتاب سماه « كتاب الاعياد » .

لا يحتفل النصيريون باعيادهم في الجوامع والكنائس كما يفعل المسلمون والنصارى بل يكون ذلك في بيت « صاحب العيد » من بينهم . فيقرأ المشايخ في تلك البيوت الادعية المندرجة في كتاب الباكورة . ثم يشترك الجميع في الوليمة المعدة .

ان اعظم اعيادهم ، هو (عيد الغدير) الذي يكون في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة . وهذا العيد الذي اجمع عليه (سنة ٣٢٥ هجرية) في العراق و (سنة ٣٦٢) في الخطة المصرية انتقل الى النصيريين عن الشيعيين .

يزعم الشيعيون ان النبي (صلعم) كان قافلاً من الحج ، فنزل عليه الوحي وامره بالتبليغ فوقف بموكبه النبوي في مكان اسمه « غدير خم » وقرأ على الجميع :

(*) كتاب الباكورة ص ٤٤

(**) من الجملة ، فقد ابدل النصارى عيد (Dies natalis solis invicti) المعروف عندالقدماء بعيد ميلاد عيسى ، واقاموا اعياد سن جان بابتيست مكان عيد التحول الصيفي . وهذه الاعياد تتروح بين السنة الشمسية والقمرية كما هو عند النصيريين . فيكون بعضهم ثابتاً والآخر متحولا .

[يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ، فان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس] . ثم قال :

[من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله] [*] وعليه لا يستغرب من الشيعيين الذين يؤمنون بصدق هذه الحادثة ان يعظموا يوم ١٨ ذي الحجة ويجلوه . وقد اختلف العلماء السنيون في عبارة هذا الحديث . والنصيريون يكثرون من قراءة الخطب والادعية في هذا اليوم العظيم . ويوجد في كتاب الاعياد التفصيل الممل عن هذا البحث الذي اضربنا عنه خشية الاسهاب .

ان كل عيد ، بل كل شهر عند النصيريين يمثل شخصاً من رجال الدين . مثلاً : ان عيد الفطر عند السنيين هو « عيد محمد » على زعمهم ! وعيد الاضحى هو عيد « اسماعيل بن هاجر » ويوم ٢١ ذي الحجة هو عيد « المباهلة » . وفي هذا العيد الاخير حصل نزاع بين النبي (صلعم) وبين نصارى نجران . وكان معه « علي وفاطمة والحسن والحسين » .

اما ٢٩ ذي الحجة فهو اليوم الذي دخل فيه (علي) فراش النبي (صلعم) ومكنه من الهجرة ليسلم من كيد المشركين ولذلك يسمونه (عيد الفراش)

ولا يتظاهر النصيريون بما يدل على اكتئابهم في يوم عاشوراء (١٠ محرم) الذي يعظمه الشيعيون ويخصونه بمظاهرهم الدينية المعروفة . وسبب ذلك هو عدم اعتمادهم بقتل الحسين بل يزعمون انه استتر . ويعتقدون عين الاعتقاد في عيسى (عليه السلام) .

ومن اعيادهم ايضاً يوم ٢٩ ربيع الاول و١٥ شعبان . ويزعمون في الاول ان النبي (صلعم) دعا فيه الى الحسن والحسين ولعن اعداءهم ، اما الثاني فهو يوم الحسين . يجتمع النصيريون ليلة هذا اليوم ويقدسون اسماء الله ويتباركون بذكرى « درجاته » و« ابوابه » . ويتعاطون الخمر الذي يسمونه «عبد النور» ويعدونه رمزاً لعلي ، على اتم السرور والصفاء .

ولهم ما عدا هذه الاعياد «عيد الميلاد» . ويكون ليلة (٢٤—٢٥) كانون الاول . وتلقوا عن قدماء العجم عيد النوروز ، والمهرجان ويكونا في الاعتدال الربيعي والخريفي . ولهم عيد آخر في ١٧ مارت .

ان ليلة عيد الميلاد هي الليلة التي ولد فيها عيسى (عليه السلام) من مريم ذات الطهر والعفاف . ويزعم بعض العلماء ان النصيريين اقتبسوا هذا العيد من النصارى . والكن رونه دوسو ينكر ذلك ويقول :

(*) كتاب الاعياد .

« كثيراً ما يعطي الاسماعيليون الذين كانت لهم السلطة النافذة على النصيريين بصفة الاديان الحلية ثم يضيفون اليها رموزاً ومعاني من عندهم . وان يوم الميلاد هو عين اعياد ميترا *Mithra* وميلقار *Milquart* عند القدماء . وكان معدوداً من الايام المعروفة عند الرومانيين » .

وقد اخذ النصارى هذا العيد ، وكثيراً من ايام الوثنيين ، وقدامى الاقوام الحرانية ايضا ما انفكوا يعظمون هذا اليوم ويقدسونه الى ان تسلط عليهم العرب . ولذلك لا نخطأ اذا حكمنا على ان النصيريين الذين اقتبسوا كثيراً من عوائد الحرانيين ، اخذوا يعظمون يوم الانقلاب الشتوي ، او بالاجدر يوم « ميلاد الشمس » . (*)

لم يبحث كتاب الاعياد الا عن هذه الاعياد التي ذكرناها . ولكن للنصيريين اياماً دينية في الدرجة الثانية مثل عيد البربارة *Ste Barbe* (١٦ لتشرين الاول) المعروف عند النصارى ، وعيد القداس المصادف لعيد القصب (*Dimanche des Rameaux*) .

[٩] — الطعن في النصيرية — قبل ان نختم هذا الاجمال التاريخي في الديانة النصيرية ، نريد ان نبحث نبذة عن تعرض المسلمين والنصارى على هذه الفئة ، وما يلصقون بها من العادات الذميمة . من المسلم لدى المتوغلين في تاريخ الاديان ان العقيدة الدينية اذا كانت قليلة الافراد ، مسورة بالخصوم والمخالفين لا بد لها ان تكون عرضة للطعن والقدح .

لذلك كانت النصرانية في بادئ امرها هدفاً لتعرض الرومانيين ومفترياتهم . ثم ان النصارى ما كادوا يؤسسون الدول القوية في القرون الوسطى الا وتسلطوا على من يخالف معتقدهم باسلحتهم ومظالمهم وملوكهم المستبدة .

ما زال النصيريون الذين استطاعوا الاحتفاظ بكيانهم رغماً عن قلة عددهم بالنسبة الى السنيين والشيعيين في سورية ، عرضة للطعن والتشنيع ، والصاق التهم منذ القرن الخامس للهجرة . فهل صحيحة يا ترى تلك التهم ؟ ها نحن نطرق هذا البحث من الوجهة العلمية ، ونفحصه باسم الحقيقة وعلى اتم الحياد .

ما زالت فلسطين ، او بالاصح سورية تعتبر مهد الاديان . ولم تزل دفاتر اعمال سكانها وافكارهم محشوة بمسائل الاديان والمذاهب . حلت النصرانية بادئ امرها في انطاكية . ثم اخذت تتخطى مراكزها الى ان شملت اقطار المعمور ، وهكذا الاسلامية ما كادت تظهر الا وتسربت بسرعة البرق الى جميع الانحاء . ورغماً عن هذا لم يتسن لسورية ان ترى

(*) Histoir des Nosairie p. 148.

وعمدة الدين حتى ولا في يوم من [illegible] بالأعجوبة ، هو
وجود أكثر من ثلاثين مذهباً بين المسلمين [illegible]
من المسلمين [illegible]

أول من طعن في النصيريين هو « حمزة بن علي » وزير « الحاكم بأمر الله » الفاطمي (*)
في الرسالة التي [illegible]
في زمان لم يكن فيه غيرها من الآثار الباحثة عن النصيريين .

يقول حمزة [ان النصيريين لا يحرمون القتل ولا السرقة ، ولا الكذب ولا الافتراء ، ولا الزناء حتى ولا اللواطة . ولا يحتجب عريقو النصيرية نساءهم وبناتهم عن بعضهم ، ولا يعيثون بكل ما يمكن حدوثه بين الرجال والنساء . والا فلا يكمل ايمانهم] وسليمان افندى مؤلف الباكورة السليمانية يقول في الصحيفة (٥٨) من كتابه : [الزناء عند الكلازيين فرض لازم . فاذا حل الامام ضيفاً عند احد الاخوان ، يكون من واجب رب البيت اكرامه بتقديم امرأته له . لان هذا التقديم فرض لازب ، وحق واجب . ومن لم يفعل ذلك فلن يدخل الجنة . اما الطبقة العامة فلا علم لها بهذه الامور] .

لعل هذه الاتهامات مختلقة . اذ لا يعثر في كتب النصيرية ، ولا في اغانيهم على ادنى اشارة تدل على صحتها . وقد اجمع كل من احتك بهذه الطائفة واختبرها على ان لا صحة لوجود تلك الرزائل الاخلاقية فيهم . ولعل مؤلف الرسالة الدامغة استهجن من النصيريين عدم الاحتجاب ، فضرب اخماسه باسداسه ولشفى منهم بهذه التهمة المشينة .

لا نبعد ، اليس كثيراً من السذج الذين يدتاؤن من عدم التحجب ويشنعونه ، يرشقون بعين التهمة من لا يحتجب من نساء الامم الراقية في هذا القرن العشرين ؟

لم تحصر هذه الاتهامات في النصيريين فقط ، بل لم تنج منها كل فرقة خالفت ولو قسماً من الفرائض التي امر بها القرآن الشريف بنص صريح . والنصيريون الذين ما زالوا عرضةً لاتهامات المسلمين ، وحتى النصارى ومفترياتهم يبالغون اليوم في الامتناع عن الاجهار بحقيقة عقائدهم . ويقول سليمان افندى : [اذا لقي النصيريون المسلمين يتمسكون بالاسلامية ، ويدعون انهم يصومون ويصلون . ولكنهم لا يصومون ؛ ويصلون رئاءً اذا اوجبهم الامر ووجدوا في احد الجوامع مع المسلمين ، فيركعون ويسجدون . ويلعنون « ابا بكر » و« عمر » و« عثمان » وغيرهم من الصحابة في قيامهم وقعودهم [**] .

(*) الرسالة الدامغة للفاسق ، الرد على النصيرى .
(**) الباكوره ، ص ٨٢ .

ولا يختلف النصيريون اليوم عن اسلافهم، فنفوسهم مغلقة للتعليم حتى طائفتهم لانهم ما زالوا يعيشون من الجهالة في ليل اليل، ولقد يسمع منهم من يتحدثون في اجتماعاتهم من الكواكب والخرافات ما لا يدخل في عقل ، ولا ينطبق على حقيقة أبدا ، ولكن عقيدتهم شاذة ومنحرفة عن مسالك التوحيد . ولكن يجب ان لا نحتقر اخلاقيات هؤلاء القوم الجاهلين الذين رافقوا القرون القديمة بسدهم الوافر . بل من الضروري الامعان في البحث ، والابلاغ في التدقيق .

[١٠] — كتاب المجموع — ها نحن نأتى بالسور النصيرية المدونة فى كتاب المجموع:

١ . سورة الاول

قد افلح من اصبح بولاية الاجلح [*] ، استفتح بانى عبد استفتحت باول اجابتى بحب قدس معنوية [**] امير النحل [***] على ابن ابى طالب المكنى بحيدرة ابى تراب [****]. فيه استفتحت وفيه استنجحت ، وبذكره افوز وفيه انحو واليه الجأ ، وفيه تباركت . وفيه استغنت ، وفيه بدأت وفيه ختمت بصحة الدين واثبات اليقين .

قال السيد ابو شعيب محمد بن نصير [*****] بن معين السامرى ، يا يحى اذا نزلت بك نزلة بالحياة ، ودهت بك داهية بالمهمات ، فادع دعوة عالية خالصة مخلصة ، نقية نقية بيضاء علوية ، طاهرة زكية مشعشعة نورانية ، تخلصك من هذه القمصان [******] البشرية اللحمية الدموية وتلحقك بالهياكل النورانية ، فقل فيك تباركت يا دليلاً بدلته ، ياظاهراً بقدرته ياباطناً بحكمته ، ويا محجبا ذاته بذاته ، يا مخاطباً اسمه بصفاته ، يا هو ، يا كل قديم يا ازل لم تزل ، يا معلل العلل ، يا معنى حركات الدول ، يا غاية الغايات يا منتهى النهايات ، يا عالم باسرار الخفيات ، يا حاضر يا موجود ، يا ظاهر يا مقصود يا باطناً بغير غموض ، يا من انوارك منك تشرق ، وفيك تغرب ومنك بدت واليك تعود ، يا من جعل لكل نورظهوراً ولكل ظهور اسماً ، ولكل اسم مكاناً ولكل مكان مقاماً ، ولكل مقام باباً ، يرشد الباب منه اليه ، ويدخل الباب منه اليه ، وانت يا امير النحل يا على بن ابى طالب ، الدليل عليه والكل انت هو ، ياهو يا هو ، يا من لا يعلم ما هو الا هو واسئلك بمسائل السين ، سالكون سالكاً ، سلا - سالك ، سلك بما سألك به السائلون ، ويرشد المرشدين ، وعلى

(*) هو على رضى الله عنه
(**) هى اسم للنصيريين .
(***) يقصد من النحل ، النجوم
(****) كنية على عند الحيدريين
(*****) هو الشخص الذى ينمى اليه النصيريون
(******) هو جسم الانسان

زين الدين والعابدين ، انت تؤلف ما بين قلوبنا وقلوب اخوانننا المؤمنين ، على البر والتقوى والتقويم والعلم والدين ، تذكر حضرتك الطاهرة وقدرتك الباهرة ، ورحمتك الشاملة والفرض اللازم ، والحق الواجب ، هى اسرار وتذكار وجلال وافتخار ، وعز وانتصار وطلعتك الزاهرة ، وقبابك الفاخرة وقبة العلى وتاج الهدى ، والدين القيم والصراط المستقيم ، ومن عرف باطنه وظاهره وفاز ونجا . والذى قد عرفنا به سيدنا سلسل سلمان يتلى ، وقد دلنا عليه وارشدنا اليه شيخنا وسيدنا تاج رؤسنا وقدوة ديننا وقرة اعيننا ، السيد ابو عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي قدس العلى روحه لان مقامه مقام الصفا وعمله محل الصدق والوفا بسم الله وبالله وسر السيد ابى عبدالله العارف معرفة الله سر تذكاره الصالح سره ، اسعده الله . انتهت .

٢ سورة تقديسة ابن الولى

يا حسن ما يرى النائم فى منامه ، وهو يسمع الحس ، ولم ير الشخص وهو ينادى ويقول لبيك لبيك يا امير النحل . يا على بن ابى طالب ، يارغبة كل راغب ، يا قديماً باللاهوت ، يا معدن الملكوت . انت آلهنا باطناً وامامنا ظاهراً ، يامن ظهرت فيما ابطنت وابطنت فيما ظهرت ، وظهرت بالاستتار ، واستترت بالظهور وظهرت بالذاتية وتعاليت بالعلوية ، واحتجبت بالمحمدية ، ودعوت من نفسك الى نفسك بنفسك . انت يا اميرالنحل يا على ، اشرق نورك ، وابزغ سفورك ، وسطع ضيائك وتعظمت آلائك ، وجل ثنائك بان تؤمننى من شر مسوخياتك لناولجميع اخواننا المؤمنين من شر الفسخ والنسخ والمسخ والوسخ والرسخ (*) والقش والقشاش انك على ذلك قدير سر ، الولى بن الولى ابى الحسين محمد بن على الجلى علينا من ذكره السلام . سره اسعده الله .

٣ . سورة تقديسة ابى سعيد

اسألك يامالك الملك ،يا امير النحل يا على يا وهاب يا ازلى يا تواب يا داحى الباب (١) اسالك بالخمسة المصطفية (٢) والستة التجلية(٣) وبالسبعة الكواكب الدرية (٤) وبالثمانية

(*) النسخ حلول الروح فى جسم منزول ، والمسخ حلولها فى الحيوان ،والفسخ حلولها فى النبات ،

(١) اى الذى امر سلمان الفارسى بالتبشير .

(٢) هى اوقات الصلاة الخمس التى سبق ذكرها .

(٣)الايتام الخمسة التى ذكرت فى سورة الفتح مع سلمان الفارسى.

(٤) الكواكب السبعة .

حلة الهيولى الثوية (٥) وبالتسعة المحمدية (٦) وبالعشرة الدجاجات الذكية (٧) وبالاحد عشر مطالع البابية (٨) وبالاثنى عشر سطر الامامية (٩) بحقهم عندك يا غاية الكلية . يا ابن النحل يا صاحب الدولة العالية يا من انت الاحد . واسمك الواحد ، وبابك الوحدانية يا من ظهرت في السبع القباب الذاتية ، بان تجعل قلوبنا وجوارحنا ثابتة على معرفتك الزكية ، وخلصنا من هذه الهياكل الناسوتية ، ولبسنا القمصان النورانية بين الكواكب السماويه . نذكر حضرة شيخنا وسيدنا الاجل الاكبر الشاب التقى ابا سعيد الميمون بن قاسم الطبراني العارف معرفة الله المكشف عما حرم الذى اخذ حقه بيده من قفا ابى دهيبة وعلى ابى دهيبة لعنة الله وعلى ابى سعيد السلام ورحمة الله . سر ابى سعيد الشاب التقى الحر الميمون بن قاسم الطبراني ، سره اسعده الله .

٤ - سورة النسبة

احسن توفيقي بالله وطريقي لله ، واحسن سمعي واستماعي من شيخي وسيدي ومرشدي (*) المنعم على كما انعم عليه بمعرفة (ع م س) وهي لشهادة ان لا اله الا علي بن ابي طالب الاصلع الانزع (**) المعبود ؛ ولا حجاب الا السيد محمد المحمود ، ولا باب الا السيد سلمان الفارسي المقصود (***) وهذا ما سمعته من شيخي وسيدي ، غايتي ومعتمدي ومهديني الى طريق النجاة ، ومورديني الى ينبوع الحياة ، ومعتق رقبتي من رق العبودية ، بمعرفة كنه الذات العالية ، السيد الفاضل والطود العظيم عمي وشيخي وسيدي وتاج راسي ووالدى الحقيقي احمد . وقد القى الى هذا السر العظيم في سنة كذا

- - - - -

(٥) الخمسة ايتام ومعهم طالب وعقيل وجعفر الطيار .

(٦) هم محمد ، حسن ، حسين ، على زين العابدين ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، موسى الكاظم ، علي الرضا ، محمد الجواد .

(٧) الايتام الخمسة ومعهم : نوفل ابو الحارث ، محمد بن الحنفية ابو برزه ، عبدالله بن فضله

(٨) روبه بن المرزبان ، ابو العلا ، رشيد الهجري ، كنكر بن ابى خالد الكابلي ، يحيى بن معمر ، جابر بن يزيد الجعفي ، محمد بن ابى زينب الكاهلي ، المفضل بن عمر ، عمر بن المفضل ، محمد بن نصير الكرخي النميري ، دحية بن خليفة الكلبي ، السيدة ام سلمة ،

(٩) هم ما عدا التسعه المحمدية : على الهادي ، الحسن العسكري ، محمد بن حسن الحجة . وهؤلاء ائمة الشيعة الاثنى عشر وقد ذكر هنا محمد بدلاً عن على . وبهذا الاعتقاد يفترق النصيريون عن الاسماعيليين .

(*) هو اسم لمن يدخل احد النصيريين في الطبقة الخاصة

(**) كناية عن الاسد الذى يشبه به على ويقصد من سر النصيرية العام ،

(***) تعريف صريح لسر (ع م س) .

وكذا في كذا ويوم كذا منه وسمع احمد من ابراهيم ، وسمع ابراهيم من قاسم وسمع قاسم من علي وسمع علي من احمد ، وسمع احمد من بختشو وسمع بختشو من سليمان وسمع سليمان من صبيح وسمع صبيح من يوسف وسمع يوسف من جبرائيل وسمع جبرائيل من معلى وسمع معلى من ياسين ، وسمع ياسين من عيسى وسمع عيسى من محمد وسمع محمد من هدا محمد ، وسمع هدا محمد من رضى احمد وسمع رضى احمد من صفندى وسمع صفندى من بلاذرى اسد ، وسمع بلاذرى اسد من حسان الرشيق وسمع حسان الرشيق من محمد ، وسمع محمد من مرهف مصر وسمع مرهف مصر من عقد جبرائيل وسمع عقد جبرائيل من عبدالله الجوغلي ، وسمع عبدالله الجوغلي من اسماعيل القفاف وسمع اسماعيل القفاف من جعفر الوراق ، وسمع جعفر الوراق من احمد الطراز و سمع احمد الطراز من ابي الحسين محمد بن علي الجلي ، وسمع ابو الحسين محمد بن علي الجلي من السيد ابي عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي ، وسمع ابو عبدالله من شيخه وسيده محمد عبدالله بن محمد الجنان الجنبلاني العابد الزاهد الذي هو من بلد فارس ، وسمع عبدالله الجنان الجنبلاني من محمد بن جذب وسمع محمد بن جذب من السيد ابي شعيب محمد بن نصير العبدي البكري النميري (*) الذي هو باب الحسن الآخر العسكري منه السلام واليه التسليم ، ومن محمد بن نصير اقام النسب والدين ، وتعالى مولانا الحسن العسكري عما يقول الضالون ونطق الظالمون علواً كبيراً ، سر الدين و سر اخواننا الجبليين اين ما كان منهم مكان ، بسرهم اسعدهم الله اجمعين ، واشهد بان الحسن الآخر العسكري هو الاول والآخر وهو الباطن والظاهر وهو على كل شئ قدير .

٥ . سورة الفتح

[اذا جاء نصرالله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً] . اشهد بان مولاى امير النحل علي اخترع السيد محمد من نور ذاته وسماه اسمه وذاته وعرشه وكرسيه وصفاته متصل به ولا منفصل عنه ولا معنا به بحقيقة الاتصال ، ولا منفصل عنه في مباعدة الانفصال . متصل به بالنور منفصل عنه بمشاهدة الظهور . فهو منه كحس النفس من النفس او كشعاع الشمس من القرص ، كدوى الما من الماء او كالفتق من الرتق (١) او كلمع البرق من البرق ، او كالنظرة من

* من تفصيل هذه المسئلة في البحث الخاص .

١ يعتقد الاسماعيليون فيهما قيمة علمية . فالرتق هو حال الكون قبل تكوين الاله والفتق حاله بعد الخلق .

«السالمين والاكائكة بمن السموات » فانستلا » علي بن ابي طالب بالظهور بظهوره وانبسطها بالفيل غيبه تحت ظلاله ي نوره . واشهد بان السيد محمد خلق السيد سلمان من نور نوره ، وجعله بابه ورسائل كتابه فهو سلسل سلسبيل ، وهو جابر (١) وجبرائيل وهو الهدى واليقين . وهو بالحقيقة محب العالمين . واشهد بان السيد سلمان خلق الخمسة الايتام الكرام فاولهم اليتيم الاكبر والكوكب الازهر ، والمسك الاذفر والياقوت الاحمر ، والزمرد الاخضر . المقداد بن اسود الكندى وابو الدر الغفارى وعبدالله بن رواحه الانصارى ، وعثمان بن مظعون النجاشى وقنبر بن كادان الدوسى ، هم عبيد مولانا امير المؤمنين لذكره الجلال ، التعظيم ، وهم خلقوا هذا العالم من مشرق الشمس الى مغربها وقبلتها وشمالها ، وبرها وبحرها وسهلها وجبلها ما حاطت الخضر ، وحوت الغبراء ، من جابلسا الى جابرصا (٢) الى مراصد الاحقاف (٣) الى جبل قاف (٤) الى ما احاطت به قبة الفلك الدوار ، الى بلدة السيد محمد السامرة (٥) التى اجتمع فيها المؤمنون واتفقوا على رأى السيد ابى عبدالله ، ولا يشكون ولا يشـ ، كون ولا فى ـ . على بن ابى طالب يبيحون ولا يخرقون له حجاباً . ولا يدخلون اليه الا من باب ، اجمل المؤمنين مؤمنين ومطمئنين مستورين مجبورين على اعدائنا و عدائهم منصورين بسر الفتح . ومن فتح الفتح ، ومن كان الفتح على يده اليمين بسر سيدنا محمد ؛ وفاطر ، والحسن والحسين ومحسن سر الخفى واشخاص الصلواة وعدة العارفين علينا من ذكرهم السلام . صلواة الله عليهم اجمعين .

٦ سورة السجود

الله اكبر الله اكبر الله اكبر لله السجود ، للرب العلى الانزع المعبود ، يا سيدى يا محمد يا فاطر ، يا قاهر ، يا نور المعنى العظيم وحجابه الكريم بك استعنت اعنى بهذه الدار وبك

---

(١) لعل هذا ، هو جابر بن عبدالله من اصحاب النبي الذى توفى فى المدينة سنة (٧٨ هـ) .

٢ هما بلدتان موهومتان . وقد قال فيهما ياقوت الحموى فى معجمه [ان جابرسا ، هى بلدة فى اقصى الشرق ويروى بعض اليهود ، لما انهزم قوم موسى فى محاربة طالوت وتختنصر ، اسكنهم الله فى هذه البلدة ليعصمهم من كل طارى ؛ وبعض اليهود يقول ان سكان جابرس هم من بقايا ثمود ، وسكان جابلق التى هى فى اقصى الغرب هم من بقايا عاد المؤمنين . ج ٢ ص ١٢

٣ ان الاحقاف قد ذكرت فى القرآن ايضا وهى المنازل القديمة لقوم عاد

٤ يزعم قدماء الفلكيون ان هذا الجبل محيط بالارض ، والشمس تطلع من ورائه وتغرب ورائه ايضا .

٥ لم تتضح مناسبة قصة سامرة مع محمد عليه السلام ولعلها كناية عن شهرة السامريين و« المنجم الكاذب سيمون» من رافضى اليهودية ، بين الفرق الاخرى التى كانت تمزج العقائد الدينية فى الفلسفة الرمانية بقصد الاطلاع على اسرار الحقيقة

استجرت اجرني من عقاب النار (١) يا عزيز يا جبار يا قادر ، يا قاهر يا خالق الليل والنهار الله نور السموات والارض وهو العلي الكبير . اليه نقصد ونشير . عز وجل ، للباب قصدت وللاسم سجدت وللمعنى عبدت وسجدت وسجد وجهي الفاني البالي لوجهه على الحي الدائم الباقي . يا علي يا كبير ، يا علي يا كبير . ياعلي ياكبير ، يا اكبر من كل كبير . يا مخترع شمس الضحى . وخالق البدر المنير . يا علي لك العزة . يا علي لك الوحدة يا علي لك الملك ، يا علي لك الكبرياء ، يا علي لك الاشارة (٢) يا علي لك الطاعة ، يا علي لك الشفاعة ، يا علي لك الفطرة ، يا علي لك القدرة ، يا علي انت سورة البقرة (٣) امانك يا علي ، امانك من سخطك وعذابك من بعد رضوانك ، آمنت بعجزك ومعجزك ، وجللت يا امير النحل عن العجز ان يقع بك ، امنت وصدقت بباطنك وظاهرك ، وظاهرك امامي ووصية ، وباطنك معنوي ولاهوت . يا هو ياهو يا معز من اعزك وذكرك وافردك ، يا هو يا هو ، يا مذل من اذلك وانكرك وجحدك ، يا حاضر يا موجود ، يا غيباً لا يدرك ، يا امير النحل يا علي يا عظيم .

٧ . سورة السلام

سجدت وسلمت ، ووجهت وجهي لفاطر السماوات والارض حنيفاً مسلماً وما انا من المشركين . بدأ السلام من المعنى القديم ، على الاسم العظيم على الباب الكريم ، وسلم الباب الكريم على الخمسة الايتام اركان الدنيا والدين ، السلام على الابواب ، السلام على الايتام السلام على النقباء ، السلام على النجباء ، السلام على المختصين ، السلام على المخلصين ، السلام على الممتحنين ، السلام على المقربين ، السلام على الكروبيين ، السلام على الروحانيين ، السلام على المقدسين ، السلام على السائحين ، السلام على المستمعين ، السلام على اللاحقين ، فهم اهل المراتب (*) يتقدس عالم الصفا اجمعين ، السلام على من اتبع

---

(١) المراد من النار هنا هي جهنم . ولكن لا ننسى ان النصيريين لا يؤمنون بالعذاب الذي نص عليه القرآن . ويزعمون ان العصاة يرجعون الى الدنيا بعد الموت ليكفروا ذنوبهم .

(٢) يزعم ان محمداً (عليه السلام) قد عين الخليفة بعده وهو في محل (غديرخم) واشار باصبعه الى علي .

(٣) يقول مؤلف الباكورة في الصحيفة (١٧) ان النصيريين يعتقدون بان علياً تجلى في سورة البقرة التي امر موسى بذبحها ، ولذلك فقد كنت هذه الجملة بهذه الصورة «انت سورة البقرة» .

(*) سبق ان بحثنا عن هذه المراتب . ويزعم النصيريون ان اول المراتب السبع هي العالم النوراني الاعظم الذي يتألف من خمسة آلاف شخصاً . ولا فرق بين هذا العالم الذي وجد قبل الخلقة ، وبين السماوات السبع التي ذكرت في القرآن . اما المراتب السبع الاخيرة تتألف من مائة وتسعة عشر الف كوكب كلهم يؤمن بسر (ع م س) . وهذا هو العالم النوراني الصغير ، والارضين السبع هي عبارة عنه (الباكورة ص ٢٣) .

الهدى ، واهتدى وخشى من عواقب الردى ، واطاع الملك العلي الاعلى واقر بربوبية محمد المصطفى ، السلام على المائة الف نبي ، واربعة وعشرين الف نبي ، اولهم باب وآخرهم لاحق ، السلام عليكم يا عباد الله الصالحين ، جمع الله شملنا وشملكم في جنة النعيم ، بين الكواكب السمائيين.

٨ . سورة الاشارة (*)

سبحان آله خضعت له الرقاب ، وذلت له الامور الشداد الصعاب ، فقد ارتفع العقد والاشارة من السيد محمد المصطفى في يوم عين الغدير خم الذي شرفه وفضله عند الله مقام عظيم ، انا عبد من المشيرين اليك يا امير النحل يا علي يا عظيم بالتوحيد والتفريد والتنزيه والتجريد لك يا علي يا عظيم يا ازل يا قديم يابارى يا حكيم اسألك بحق الدعوة التي دعاك بها السيد محمد وهو خارج من باب مكة ، وراكب المطية البيضاء وهو ينادي ويقول الجهاد الجهاد ، الحراب الحراب في سبيل الله وهذه اشارتي اليك يا نور النور يا فالق الصخور وزاجر البحور ومدبر الامور ان تسكن المؤمنين في جنتك العليا التي رضوان خازنها ويا فوز عبد رجاها ، فاذا بالذي من قبل العلا من جانب الطور الايمن من الشجرة المباركة ينادي ويقول يا حبيبي يا محمد اي عبد دعاني بهذه الدعوة بصفو قلبه وخالص يقينه نهار الخميس النصف من نيسان ، او عشية الجمعة او ليلة النصف من شعبان او في خمس ليال من شهر رمضان او يوم القداس او ليلة الميلاد او يوم عيد الغدير ، الا جعلته من امتي واسكنته جنتي ، واسقيه بكاس رحمتي واجعله مع المؤمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . رفعت اشارتي بسر العين العلوية ، بسر الميم المحمدية ، بسر السين السلسلية بسر (ع م س) ، اول دعائنا نشير لمعنانا ، ونقول باسم الله الرحمن الرحيم وآخر دعائنا نشكر من هدانا ، ونقول الحمد لله رب العالمين ،

٩ ، سورة العين العلوية

بسر العين العلوية الذاتية الظاهرة الانزعية ، بسر الميم المحمدية الهاشمية الملكوتية الحجابية ، القرصية النورانية ، بسر السين السلسلية الجبرائيلية السلمانية البابية البكرية النميرية النصيرية ، بسر (ع م س) .

(*) هي اشارة الى ان النبي صلعم نصب علياً خليفةً من بعده في محل يدعى غدير خم والمدربون يبسطون اكفهم على بطونهم حين قرائتهم هذه السورة يشيرون بها الى الوحدة النصيرية التي تتركب من خمسة اشخاص . ويضمون اصابعهم كالنصارى ، يشعرون بها الندامة . اما الكلازيون او القمريون فانهم يضعون ايديهم على صدورهم بصورة تشبه للاشارة الدينية التي كانت يشار بها الزهراء (وهنوس في الشرق .

١٠ ، سورة العقد

اشهد ان الله حق وقوله حق ، وان الحق المبين علي بن ابي طالب الانزع البطين ، والنار مثوى للكافرين ، والجنة روضة للمؤمنين . والماء من تحت العرش يطوف وفوق العرش رب العالمين ، وحمالة العرش الثمانية الكرام الذين هم اليه مقربون ، عدتي في شدتي وعدة المؤمنين ، سر عقد ع م س .

١١ . سورة الشهادة ، والعامة تسميها الجبل (*)

شهد الله انه لا آله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لا آله الا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله الاسلام . ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين بشهادة ع م س . اشهد على ايها الحجاب العظيم ، اشهد علي ايها الباب الكريم اشهد على يا سيدى المقداد اليمين ، اشهد على يا سيدى ابو الدر الشمال ، اشهد على ياعبدالله اشهد على يا عثمان ، اشهد على يا قنبر بن كادان ، اشهد على يا نقيب ، اشهد على يا نجيب ، اشهد على يا مختص، اشهد علي يا مخلص ، اشهد على يامتحن ويا مقرب ويا كروبي ويا روحاني ويا مقدس ويا سائح ويا مستمع ويا لاحق ، اشهدوا على يا اهل المراتب . ويا عالم اصفا (١) اجمعين انى اشهد بان ليس الهاً الا على بن ابى طالب الاصلع المعبود ، ولا حجاب الا السيد محمد المحمود ، ولا باب الا السيد سلمان الفارسي المقصود واكبر الملائكة الخمسة الايتام . ولا رأى الا رأى شيخنا وسيدنا الحسين بن حمدان الخصيبي الذى شرع الاديان فى سائر البلدان . اشهد بان الصورة المرئية التى ظهرت فى البشرية هى الغاية الكلية وهى الظاهرة بالنورانية ، وليس آله سواها وهى على بن ابى طالب وانه لم يحاط ولم يحصر ولم يدرك ولم يبصر . اشهد بانى نصيرى الدين ، جندبى الرأى ، جنبلانى الطريقة خصيبي المذهب ، جلى المقال ميمونى الفقه (٢) واقر فى الرجعة البيضاء (٣) والكرة الزهراء ، وفى كشف الغطاء وجلا العماء ، واظهار ما كتم واعلان ما خفى وظهور على بن ابى طالب من عين الشمس ، قابض على كل نفس ، الاسد من تحته وذو الفقار

(*) ويتضح من هذا العنوان ان الطبقة العامة لم تكن منحاة عن الامور الدينية بالكلية .
(١) لا ننسى ان هذه السلسلة هى عين التى فى السورة السابعة
(٢) راجع الاسماء الموجودة فى النصف الاخير من السورة الرابعة
(٣) ان الرجعة فى نظر السنيين هى البعث والنشور وعند النصيريين هى رجوع الروح بعد الموت الى عالم الحياة مره اخرى فى جسم لا يماثل الجسم الاول، فالرجعة البيضاء هى الاستحالة الاخيرة اى الرجوع الى جسم سماوى

بيده (١) والملائكة خلفه والسيد سلمان [illegible] والماء ينبع من بين قدميه ، والسيد محمد ينادي ويقول هذا مولاكم علي بن ابي طالب فاعرفوه وسبحوه وعظموه وكبروه هذا خالقكم ورازقكم فلا تنكروه ، اشهدوا علي يا اسيادي ان هذا ديني واعتقادي وعليه اعتمادي وبه احيا وعليه اموت ، وعلي بن ابي طالب حي لا يموت بيده القدرة والجبروت ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا . علينا من ذكرهم السلام . تمت

١٢ . سورة الامامية

اشهدن على ايها النجوم الزاهرة ، والكواكب النائرة ، والافلاك الدائرة بان هذه الصورة المرئية ، المعاينة الناظرة ، هي علي بن ابي طالب القديم ، الاحد الفرد الصمد ، الذي لا يتجزأ ، ولا يتبعض ، ولا ينقسم ولا يدخل في عدد ، فهو الهي و الهكم ، والهكم والهي ، امامي ، وامامكم ، وامامكم وامامي ، امام الائمة ، وسراج الظلمة ، حيدرة ابي تراب الظاهر بالاصلع ، الباطن بالانزع ، الظاهر من عين الشمس ، القابض على كل نفس ، الذي له ، ولعظم جلال هيبته ، ولكبرياء سني برق لاهوته تخضعت له الارقاب ، وذلت له الامور الصعاب ، سر الآه في السماء ، وهو امام في الارض ، سر امام كل امام ، سر علي بن ابي طالب قديم الزمان ، سر حجابه السيد محمد ، وبابه السيد سلمان باب الهدى والايمان ، علينا من ذكرهم الرضى والسلام .

١٣ . سورة المساحرة

سبح لله ما في السماوات وما في الارض وهو العزيز الحكيم ، اصبحنا واصبحنا واصبح الملك لله . وسبح الملك لله ، بسم الله وبالله وسر السيد ابي عبدالله سر الشيخ واولاده المختصين الشاربين من بحر ع م س . منهم واحد وخمسون ، منهم سبعة عشر عراقي ، وسبعة عشر شامي ، وسبعة عشر مخفي (٢) وهم واقفون على باب مدينة حران (٣) ياخذون بالحق ويعطون بالحق (٤) من يتدين بدياناتهم ، ويعبد عبادتهم ، وفقه الله الى معرفته ومن لا يتدين بدياناتهم ، ولا يعبد عبادتهم فعليه لعنة الله . بسر الشيخ واولاده المختصين بسرهم . اسعدهم الله اجمعين .

---

(١) اسم لسيف العاصي بن منابه الذي قتل في وقعة بدر ، وقد اعطاه النبي الى علي بن ابي طالب

(٢) ان هؤلاء الواحد والخمسين هم كوكب ينتمي الى العالم النوراني الاصفر

(٣) القصد من مدينة حران ، هي السماء

(٤) اي ينقذون من يروم شفاعتهم بتضحية الضحايا ، ويسوقون ارواح الكفار الى الحيوان والجماد (الباكورة ص ٢٩)

١٤ ـ سورة البيت المعمور

والطور وكتاب مسطور فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور ، بسر طالب وعقيل ، وجعفر الطيار . هم اخوة علي بن ابي طالب ، نور من نور وجوهر من جوهر ، وعلي بن ابي طالب منزه عن الاخوة والاخوات والآباء والامهات ، احداً ابداً موجود باطن بغير غموض ، سر البيت وسقف البيت وارض البيت واربع اركان البيت . اما البيت فهو السيد محمد ، وسقف البيت ابو طالب ، و ارض البيت فاطمة بنت اسد واربع اركان البيت هم محمد وفاطر والحسن والحسين ، سر الزاوية الغامضة الخفية التي هي فى نصف البيت هي محسن سر الخفي ، سر صاحب البيت (١) العلوى الشريف الهاشمي الذى هشم القرون وكسر الاصنام ، علينا من ذكره الرضى والسلام . (٢)

١٥ ـ سورة الحجابية

سر الحجاب العظيم ، سر الباب الكريم ، سر سيدى المقداد اليمين ، سر سيدى ابو الدر الشمال ، سر الملكين الكريمين الطاهرين هما الحسن والحسين ، سر الوليين هما نوفل بن حارثه وابو برده ، سر الصفي وعالم الصفى ، سر كل كوكب فى السماء ، سر قدس العلى وسكانه علينا من ذكرهم الرضى والسلام .

١٦ ـ سورة النقيبة

فنقبوا فى البلاد هل من محيص . نذكر اسامى السادة النقباء الذين اختارهم السيد محمد من السبعين رجلاً فى ليلة العقبة فى وادى منى . اولهم ابو الهيثم مالك بن التيهان الاشهلى والبر بن معرور الانصارى ، والمنذر بن لودان بن كناس الساعدى ، ورافع بن مالك العجلانى ، والاسد بن حصين الاشهلى وعباس بن عبادة الانصارى ، وعبادة بن صامت

---

[١] صاحب البيت محمد صلعم

[٢] يتضح من هذه السورة قصد النصيريين من الحج . يزعمون ان البيت الحرام هو محمد والصفا هو مقداد ، وعتبتا الكعبة هما الحسن والحسين ، والمروة هى ابو الدر ، والمشعر الحرام ، سلمان الفارسى فمعرفة هؤلاء هى عين الحج . وان محمد بن نصير كان ينكر على السنيين فريضة الحج ، وله خطاب فى كتاب الاعياد يخاطب به النبى عليه السلام . ويقول ان الذين ظنوا انك مدفون هنا حملوا لك ضريحا وهموا لزيارتك ، ولكنهم كاذبون] ، وان الشيخ محمد الكلازى الذى ينتمى اليه الكلازيون ، اغرق فى الافراط ، وروى هذه الخرافة ، [ان المفضل استفسر يوما من جعفر الصادق عن بيت الله الذى يحج اليه المسلمون ، فقال له ، ان هذه التقاليد كفر . لان الكعبة مبنية من الحجارة فهى بمثابة الصنم ، « الباكوره ، ص ٣١ »

النوفلي، وعبدالله بن عمرو بن حرام الانصاري، وسالم بن عمير الخزرجي، وابي بن كعب ورافع بن ورقه وبلال بن رباح الحبشي، سر نقيب النقباء ونجيب النجباء سيدنا محمد بن سنان الزاهري (*) علينا من ذكرهم الرضا والسلام.

— ٨ —

المهاجرة
و
تناقص السكان في سوريه

لا جرم، ان المهاجرة هي احدى المسائل التي لا تزال تشغل اذهان الوزارت، وادمغة المفكرين في هذا العصر. ولا ريب في ان رقي البلاد وعمرانها وتمكنها من اشغال مقام رفيع في نادي الدول، يتوقف على كثرة سكانها وثباتهم ونجاحهم في معترك الجدال الحياتي. لم يخطأ قدامى المؤلفين في تشبيههم الامة بالشخص. لان المرء القوي القادر يقتدر على ان يسعد ويرقى بعلو الهمة والعزم الصادق. وهكذا الامم فان سعادتها وشقائها وانتصارها في الجدال الحياتي او عدمه، يختلف باختلاف قدرة افرادها اوضعفهم، وكثرة اقويائها واذكيائها وعلمائها او قلتهم.

ولذلك نرى الدول الراقية لا تدخر وسعاً في تحري الوسائل الفنية والاجتماعية والاخلاقية التي من شأنها ترفيه عيش رعيتها، او بالاحرى دعائم عزها وسلطانها؛ وتزييد عددهم.

ان الدولة الفرنساوية التي قضت عليها بعض الاسباب الاقتصادية والاجتماعية بتناقص السكان ما فتئت منذ خمسين سنة وهي تسعى السعي الحثيث لايجاد ما يدرأ عنها هذا الويل الحياتي من الوسائل. فتسن القوانين وتضع النظامات، ولا تزال نسلها يرزح تحت ضغط ذلك البلاء القاهر (**) حتى ان الامة الالمانية، الايتالية المشهورتين بكثرة الولادات لم تقعدا قط عن التذرع بالتدابير القانونية والاجتماعية لاجل تزييد السكان. ومع هذا فان كثرة اسراب المهاجرين من البر العتيق الى البر الجديد لا تزال تعرقل مساعي الدول في امر تزييد النسل.

(*) ان محمد بن سنان الزهري محترم لدى الاسماعيليين ايضاً.
(** لا تتجاوز زيادة النفوس في فرانسا (١٠٠ الف نسمة في كل سنة.

يعد ان اكتشف كريستوف كولومب القارة الامريكية واخذ الاوروبيون يتوافدون [illegible]
على ما هنالك من الثروة [illegible] وذلك فى القرن السادس والسابع عشر الميلادى . اتخذت
الوف من الاسر الانكليزية والالمانية والاسبانية والفرنساوية تبارح اوطانها وتتقاطر زرافات
وافوجاً على ذلك المهجر الفتى حيث تستقر فيه وتتخذه مسكناً ووطنا . والكيان الاجتماعى
لم يكن يومئذ على حالة يتأثر فيها من هذه الحادثة . لان الامم ما كانت تقتنى ما تراه اليوم
من الجنود الدائمة وما كان نطاق المزاحمة الاقتصادية متسعاً بعد .

ثم جاء القرن التاسع عشر وحدث فيه التبدل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى حيات
الامم الراقية . فنهضت كل دولة تتحرى ما يؤمن بقائها ويؤيد تجارتها ويمكنها من تحكيم
بسطتها بين باقى الامم .

على ان ضنك المعيشة ما زال يعدد الاقبال على المهاجرة . واخذ السكان فى هذه الايام
ايضاً يتسربون من آلمانيا وايرلاندة وايتاليا وروسية واوستريا الى القارة الجديدة افواجاً
افواجاً . ولم يلبث هذا الحادث الذى كان غامضاً فى اواسط هذا القرن ، ان دخل اليوم
فى دور حاد واستلفت انظار الرجال السياسة . ولا يحمل دخول مسئلة المستعمرات فى
سياسة جميع الدول الغربية — ما عدا انكلترة — الا على امر المهاجرة الخطيرة . فاذا شئنا
التنقيب عن سوائق « الغلو » فى السيطرة ، (ايمبريالزم) نضطر لان ندخل فيها درس المزاحمة
التجارية ، والمهاجرة ايضاً الذين هما من امهات المسائل الاجتماعية . لان الاولى بالايدى
العاملة القوية من ابناء الوطن ان تدأب فى بلادها او مستعمراتها ، ولا تموت وهى منكبة
على استثمار انحاء « سن لوران ، ميسيسيبى ، وآمازون » .

هاجر فى القرن التاسع عشر للميلاد من بلاد آلمانيا التى تربح كل سنة (٨٠٠٠٠٠)
من النسمات ما عدا الوفيات (٦—٧) ملايين . وفى سنة ١٨٨٠ غادر البلاد الالمانية
(٢١٠٠٠٠) من المهاجرين يرتادون العيش الرغيد فى الاصقاع الاجنبية والبقاع الخصبة
الغنية . ولكن ما لبث هذا المقدار ان نقص بما تذرعت به الحكومة من التدابير الاقتصادية
الاجتماعية . فكان فى سنة ١٨٩٠ (١٠٠٠٠٠) وانخفض سنة ١٩٠١ الى (٢٠٠٠٠) نسمة .
ولم يزد عن (٢٠) الفاً فى السنة التى اشهرت فيها الحرب العامة . (*)

ومقابلاً لنجاح هذه الدولة فقد احدثت المهاجرة فى ديار الامة الايتالية خلواً ملموساً
وفراغاً محسوساً . اذ ما زال يهاجر منها كل سنة مقدار (٦٠٠—٧٠٠) الفاً من النسمات منذ
سنة ١٩٠٥ ويتركون الحالة الاقتصادية ، والوسائل الدفاعية فى اوطانهم عرضة للمشاكل

[*] راجع كتاب « اهم حكومات الدنيا » لشراده روطاللوثه ده ، ص ٢٦٥ پارس ١٩١٣

[illegible] (*)
يقول المؤلفون الباحثون في هذا الموضوع :
يمكن ارجاع اسباب المهاجرة التي كادت تكون الطامة الكبرى على الوطن الى سببين :
الاول : كثرة الولادات (**) وفقدان ما يقوم بمعاشهم من الاراضي [illegible] . . .
والثاني : كون الاحوال الاقتصادية في ايتاليا غير كافية لدرأ الحاجيات العمومية .

لم تنج سورية ايضاً من هذه المهاجرة التي شملت جميع انحاء العالم المتمدن على درجات مختلفة . بل نهض اكثر اقوامها منذ ربع قرن . بعدما كانوا قبل ذلك المعهد مرتبطين باوطانهم ربطاً وثيقاً . واخذوا يهاجرون الى اميركا مقلدين الاجانب الذين قصدوها طلباً للغنى وحصلوا على جانب عظيم منه . وانهم لما ورثوا خصائل الفينيقيين الذين طبعوا على حب الاسفار الطويلة كان الميل للهجرة بين تلك الخصائل ايضاً .

اول من هاجر من سورية بضع عائلات من قصبة بيت لحم . وكانت حرفتهم في مهجرهم بيع المسابح والصلبان وهياكل صغيرة لاعزاء الدين . وبدأت الهجرة قبل ثلاثين سنة بصورة خفيفة . ثم اخذت تتدرج بالتوسع حتى اصبحت في السنين الاخيرة على درجة هائلة ذعر منها كل محب للوطن . ويا للاسف لا علم لنا بعدد المهاجرين الذين ما انفكوا يبارحون هذه الربوع العثمانية الثمينة منذ ربع القرن الى الان . وان دوائرنا الرسمية التي ما زالت بعيدة عن الاحاطة بمقدار نفوسنا ؛ اهملت هذه المهمة ايضاً . ويرى ذلك من الامور العادية . ونحن وان لم نعف عن هذا الاهمال ولكن لا يسعنا الا ان نقابله بما عهد فينا من عدم المبالاة والاناة ونعرض لانظار المدققين الذين رأوا قبل الحرب كثيراً من البيوت المقفلة في القرى والقصبات والامصار وشاهدوا القرى الخاوية . واحسوا بنقص النفوس المتسارع ، ان قد هاجر من سورية الى البلاد المتحدة فقط سنة ١٩٠٥ (٤٨٢٢) وسنة ١٩٠٦ (٥٨٢٤) وسنة ١٩٠٧ (٥٨٨٠) وسنة ١٩٠٨ (٥٥٢٠) نسمة . فيكون مجموع ما فقدناه في هذه السنين الاربع « ٢٢٠٤٦ » نسمة .

ويقرب عدد المهاجرين الى اميركا الجنوبية ومصر واوربا وافريقيا الشمالية والانحاء الاخرى قريباً من ١٥٠٠٠ من النسمات . وبذلك يكون مقدار المهاجرين السوريين قريباً من ٢٠٠٠٠ من النسمات في السنة (***) . وبهذا نطلع على ما يلم بحياتنا القومية والاقتصادية من البلاء .

---

[*] راجع كتاب « اهم حكومات الدنيا » لشرادهروغالوشده ، ص : ٣٠١ باريس ١٩١٣
[** يوجد في ايتاليا ١٢٠ نسمة في كل كيلومتر مربع ، وفي بلجيقا : ٢٤٨ ، وفي انكلترة ١٤٤ وفي المانيا : ١٢٢ ، وفي اليابان : ١٠٣ وفي النمسة والمجر : ٧٦ وفي فرانسة : ٧٣ .
[***] مجلة المشرق سنة ١٩٠٥ ، ص ٨٢٨

ان دولة المانيا التى مساحتها (٥٤٠٠٠٠) كيلومتر مربع ، ونفوسها بمقدار (٧٠) مليوناً لا تفقد فى كل سنة الا مقدار (٢٢) الفاً من رعاياها . لم نقصد هنا الا نصل من الغرابة الى المقابلة بلادنا بالبلاد الالمانية التى ادركت منتهى الكمال فى الاحوال الاقتصادية وبلغت الدرجة القصوى فى الرقى التجارى والصناعى حتى اصبحت وهى اليوم من اغنى وارقى البلاد المعمورة . ولكن سورية التى تضم من الاراضى ما يبلغ الساحها (٢٩٦٠٠٠) من الكيلومتر المربع ، ولا تحتوى الا على ثلاث ملايين من النسمات ، هى ويا للاسف على عين الدرجة مع المانيا فى المهاجرة فيمكن ذكرها بازائها . وعلى كل حال ان ضياع عشرين الفاً من النسمات فى كل سنة من هذه القطعة العثمانية التى لاتتجاوز كثافة نفوسها العشرات والتى خيم فيها الجهل والفقر هو جدير بان يدعونا للافتكار والاهتمام .

ان سورية التى كانت تمير عشرة ملايين من السكان ما زالت تهيج اطماع الانام بما فيها من الكنوز الطبيعية ، والسواحل التى كونت كما تشاء التجارة ، وبجبالها اللطيفة ووديانها الخصبة ، وبارتكازها فى منتصف السبر العتيق . وقد اصاب هذه البلاد باهمالنا المعهود من الدمار ما جعلها تعجز عن اعاشة ثلاثة ملايين من اولادها . واضطر اهلوها المطبوعون على الذكاء والعزم والمفطورون على استعداد كامل فى الامور الفكرية والتجارية ، لان ينقبوا فى البلاد ويرتادوا سبيل العيش . فاقوت القرى واقفرت السهول وعطلت الارض عن الزرع وكان اهلوا الغاية من الصهيونيين فى المرصاد ، فاهوى بهم الحرص على امتلاك ثروة البلاد فاغاروا على تلك القرى التى اضاعت اربابها ، وشروها بثمن بخس باسم مهاجرى اليهود الذين جلبوهم من البلاد الروسية والرومانية. (*)

كثرت الكتابات فى المهاجرة عليها ولها . فقال المحبذون :

اولى للمرء من ان يخلد الى ارض جفت نعمها ؛ ويرضى من العيش باجرة زهيدة ويطفا حياته جراً وزحفاً ؛ ان يذهب الى اميركا ويشاهد ما هى الحياة المدنية ، ويحصل على الثروة الطائلة . والوطن من البلاد ما يعيش فيه المرء ناعم البال ، راغد العيش ، سعيداً ماستطاع . وليت شعرى هل يصدق من يقول « وطنى الحبوب ! » لبقعة لم ير فيها وجه الراحة ، ولم يكن له ولعائلته فيها ادنى سعادة ؛ ثم لم يجد فيها اماناً ولا انصافاً وعدلاً ؟ .

ان كثيراً من السوريين الذين غادروا اوطانهم من المتربة ، وضنك المعيشة ؛ او لخلوها من الانصاف والعدل ، اصبحوا اليوم وهم من اشهر التجار فى نيويورق . او شيقاغو ، او ريو دهجانيرو ، او بوئنوس آيرس . وان ما يملكه اليوم عشرة الاف من السوريين من الاموال المنقولة وغير المنقولة فى الخطة المصرية يقدر بثلاثين الف ليرة انكليزية . وان

---

[*] راجع المجلد الاول ، ص « ٣٠ — ٣٥ »

مجموع ثروة هؤلاء الوطنيين في اميركا وغيرها من البلاد لا يقل عن ٢٠٠ مليون ذهبة انكليزيا (*) لا ينكر ان سورية فقدت الى الآن سدس نفوسها العمومية ، ولكن لا ننسى ان لو ظل هؤلاء في اوطانهم لما استطاعوا الاستحواذ على هذه الثروة ، ولا فتوا حياتهم كالى ترج بهم البطالة في الذل والمسكنة .

وقال (آلن مكلولن) احد اطباء دائرة الصحة في الولايات المتحدة ، في كتاب الفه باحثاً فيه عن المهاجرة :

ان انجح المهاجرين بعد اليهود هم السوريون . وعدد من لم ينجح من مهاجرى اليونان ٦٨ ، ومن البولونيين ٦٣ ، ومن الايتاليين ٥٩ ومن السوريين ٣٤ ، ومن اليهود فقط ٩في المأة (**)

نضطر في نقطة واحدة الى التسليم بقول هؤلاء الذين تكلموا عن المهاجرة مستندين على الماديات المحضة ، ان السوريين ولاسيما اولاد السواحل منهم لا يزالون معروفين بالعزم والاقدام ، ومشهورين في عالم التجارة بنجاحهم ، وكثيراً ما تحدث الرقابة الاقتصادية بين التجار المعروفين في بيروت او طرابلس الشام او يافه او غيرها من الثغور ، وبين التجار الاجانب فيكون الظفر في اكثر المرار للتجار السوريين . والسوريون لهم جل الذكرى في عالم التجارة المصرية وجميع المطبوعات هناك كادت ان تكون في ايديهم . والمخازن العثمانية في اهم ثغور البر الجديد ، هي من الانتظام والكمال في درجة يحق لكل وطني ان يفتخر ويباهى بها . وما عدا هذا فان هؤلاء المهاجرين غير منقطعي العلاقة مع اوطانهم ، وما زالت سورية تتقاضى من ابنائها المهاجرين في كل سنة مقدار (١٤٠٨٠٠٠) لبرة بواسطة الشعبة البيروتية للمصرف (البانق) العثماني فقط .

حتى ان الربع منهم يرجع الى بلاده بعد ان يحصل على شئ من الثروة ، ويبدل خلفه القديم برفاهية حديثة ، ويعيش عمره دائباً في احياء الاراضي الموات وزرعها . على ان جميع هذه الفوائد لا تصلح لتبرير المهاجرة والتحبيذ عليها . والاوطان لا ترقى وتعمر الا بهمة اولادها ومساعيهم . اما النقود التي تدخل البلاد فاكثرها يصرف في تشييد القصور الشاهقة والابنية الجسيمة اما في لبنان ، او جبل عامل ، او في احدى قصبات الساحل ،

واكثر عائلات المهاجرين في سورية تعيش عيشة الطير ، رزق جديد في يوم جديد . فتدوم الحياة الزاهية ما دام لراتب الاميركي متصلاً ، اما اذا ابطأ ذلك المدد او انقطع فلا بد لتلك السعادة ان تنقلب الى الشقاء ، وتستحيل الرفاهية الى الشظف في آن واحد . وهذا

(*) مجلة الهلال . جلد ١٣ ، ص ٤ ٣٠
(**) مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ ، ص ٤٩٠

بحرانا اليوم هو انطلق برحلتي الى بيما الدعية . فعلينا ان نؤمل من الحكومة التي تدرس هذه المسألة البيهة الحرب وتضع الاساس المتينة التي من شأنها احياء البلاد والسكان .

— ٩ —

الآثار النافعة

ان أكثر البلدان والقصبات فى ولايـة بيروت موصلة فى لوائى لبنان والقدس وولاية سورية ، بطرق معبدة يحتوى بعضهـا على خطوط حديدية . يتبين من تدقيـق الجدول المرتب من قبل دائرة النافعة فى الطرق والمعابر ، الذى اثبتنا صورته فى كتابنا ان طول الطرق التى مهدت ، او مزمع على تمهيدها هو (٩١٠) من الكيلومترات و(٦٣٠) متراً . منها (٥٩٧) كيلومتر و٨٠ متراً تم عمالها و٤٧ كيلومتراً و١٥٠ متراً تمت تسويته فقط اما الذى لم يشرع به بعـد فهو ٩٠٠ — ٢٦٥ كيلومتراً .

طريق اللاذقيه — حما . — يبدأ من اللاذقية وبعد ان يقطع قضائى صهيون وجبله ، ويصل الى ناحية قدموس عن طريق بانياس ، مركز قضاء مرقب يدخل حدود سورية من المحل المسمى بدير الشامى . وبهذا يكون قاطعاً جبال النصيرية من الغرب الى الشرق، ولم ينتهى ربعه الى الآن مع انه شرع فى تعبيده سنة ١٨٨٤ . وقد قال مهنـدس الولاية الاول (سر مهندس) فى لائحة النافعـة التى عرضها على المجلس العمومى باحثاً فيهـا عن طريق اللاذقية — طرابلس الذى هو الشكل الاخر لهذا الطريق :

— لقد خصص (سنة ١٣٣١) «٤٠٠٠٠٠٠» غرش لاجل اجراء العمليات التعبيديـة من جديد . ولكن لم يمكن عمل شىء بسبب الاحوال الحربية . وعليه اضيف الى موازنـة (سنة ١٣٣٢) «١٥٠٠٠٠٠٠» غرشاً لقاء التعبيد ، وما يلزم من الاعمالات الصناعية .

لا تنقضى الاعمال بمجرد ادخال المبالغ الجسيمة فى الميزانيات . وليس بالمذاب الهين ما يتكبده الانسان من المشقـة التى لا تخطر على البـال فى قطع هـذا الطريـق الواصل بالولاية فى ابانها المهمين. لاسيما اذ اوجب الشقاء على احد التجار ، او المأمورين ان يتطرق هـذا الطريق فى الشتاء . فهنالك تكبر المحنة والمشقة عن الوصف . انهـار شتى يمدهـا المطر فتسيل وتطغى . وآخرها خلو من الجسور . فما على المسـافر الا الاستسلام بحياته وماله الى البخت الاعمى ، والانغماس بمركبه فى هذا السيل الطامى . وهنالك يأخذ الموت بخناقه ، وهو بخناق الموت ويتعاركا فى تلك اللجة الهائلة وربما يسعده الحظ فيصل الى الضفة الاخرى وهو غريق حى . لا يعلم المتجول فى تلك الانحاء انه فى قطعـة سورية

اللطيفة ، بل يظن نفسه فى بلاد لم تصل اليها يد الانسان ، ولم تمسها الخطى البشرية . نعلم ان القسم الشمالى من الولايـة لم يجعل الاهال له شيئاً من آثار العمران . ولا جرم ان النصيريين القاطنين تلك الاصقاع لم يقتدروا على الاحتفاظ بخشونة طباعهم وغلظة شمائلهم الا بهذا الاهال السرافى . فمن محتم الوظائف على حكومتنا المشروطة ان تجعل تعبيد الطرق فى مبدأ مسعاها الذى تريد صرفه لتأمين الامن ، ورقى الفلاحة الزراعية .

طريق طرابلس — حمص — حما . — يقطع هذا الطريق قضـائى طرابلس وحصن الاكراد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ويدخل الى ولاية سورية فى محل عين السوده الواقعة على الكيلومتر (٦٢) ثم يتطاول الى ان يصل حمص ، ثم ينعطف فى هذه البلدة من الجنوب الى الشمال ويمشى الى حما . والمسافة من عين السوده الى حما هى (٧٩) كيلومتراً . وتتشعب شعبة من معبر نهر العرقا وتصل الى قصبة حلبا على مسافة (٢١) كيلومتراً وقد احتفظت احدى الشركات بامتياز اجراء المناقلات على هذا الطريق . وكانت قبل الحرب ، ولاسيما قبل تمديد خط الحديد من طرابلس الى حمص ، تسافر على هذا الطريق المركبات الجسيمة (دېليژانس) لنقل الركاب ، والعجلات لجر الاثقال . والتى انشأت هذا الخط هى شركة فرنساوية .

طريق بيروت — الشام . — حصل على الامتياز بفتح هذا الطريق (قونت پەرتويس *Comte de Perthuis*) سنة ١٨٥٩ ، واتم عمله سنة ١٨٦٣ . وما زالت هذه الشركة التى تأسست فى اوانها من حيث الدوام بالانشاآت ، واجراء المناقلات ، تستفيد من هذا الامتياز الى سنة ١٨٩٢ . ثم اتفقت مع شركة فرنساوية اخرى ، وفرغت عن امتيازها . وقد كانت هذه الشركة حائزة على امتياز بتمديد خط حديدى (شمندوفر) (سنة ١٨٩١) من بيروت الى الشام على طول ١٤٦ كيلومتراً . وفى عين التاريخ جاءت شركة باجيقيـة وحصلت على امتياز بتمديد خط حديدى من الشام الى مزاريب . فاتحد الشركتان وكانت منهما (شركة الخطوط الحديدية الاقتصادية العثمانية فى سورية) .

ثم ما لبثت هذه الشركة ان حصلت على امتياز آخر بتمديد خـط عريض من رياق الى حما ومنها الى حلب . وهذا الخط مضمون على ١٥٠٠٠ فرنك ولكن متى اتصل الخط بغداد يتنزل هذا المقدار الى نصفه .

الخطوط الحديدية . — ان الخطوط الحديدية فى البلاد العربية من اوروبا تأسست بعد تعبيد الطرق العمومية ، ولذلك تراها تتعقب هاتيك الطرق ؛ اما فى آسيا الصغرى فكان الامر معكوساً ، اذ خطت وسـا الخطوط الحديدية اولاً ، ثم شرع بتعبيد الطرق . وهذان الطريقـان من ضروريات بعضهما . لان الطرق المعبدة تنهض بالتجارة ايضاً كالخطوط

الحديدية . ويجب فى هذه الطرق ان تكون صالحة لاستعمال احدث الوسائط النقلية .

كتب المهندس (ويلهلم فون پرسسل) كتاباً مهماً جداً وبحث فيه عن الخطوط الحديدية فى آسيا الصغرى ، واوجد لائحة فى ما سيؤسس فى الاناطول ، وبلاد الجزيرة من الخطوط الحديدية .

مما لا يخفى ان الخطوط الحديدية تفيد وتدوم فى الاصقاع التى يمكن ، او يحتمل اجراء المناقلات الجسيمة فيها . ولهذا يجب ان تكون الانحاء التى يمر عليها الخط خصبة منبتة ، وسكانها مستعدين للاشتغال بالتجارة . وعليه فالنقود التى تصرف لتمديد الخطوط فى الاراضى المقفرة لا جرم تذهب ضياعاً .

ومما هو جدير بالبحث مسئلة الخط المنفرد ، او المضاعف . والعريض بمقدار ١،٤٤ متراً كما هو فى اوروبا ، ام الضيق الذى عرضه مترو واحد . فاى هاتين الطريقتين هى الراجحة يا ترى ؟

اذا صرفنا النظر عن الوجهة العلمية والفنية فى هذه المسئلة ، ونظرنا اليها من حيث التجارة نجد ان للخطوط المضاعفة منافع جمة . ولا جرم ان رأس المال فى الخطوط المضاعفة يكون على غاية من الجسامة . ولكنه يتلافى بما يحصل عليه من زيادة الوارد . اذ بهذا التدبير يمكن تضعيف عدد القطر . هذا وان كانت المسئلة تجارية ، فان الحكومات عليها ان تفكر حين تفويض الامتياز براحة الاهلين ومنافعهم ، وتأخذ بالشرائط التى تكفل لها السرعة الممكنة لكى لا تتراكم الامتعة بين منبع الحاصلات ومخرجها . فاذا كان الخط واحداً فان اقل مانعة توجب تعطيله الزمن المديد . وتتراكم العجلات فى المواقف ، وتبلى الاموال فى المستودعات .

يرجح الخط المضاعف على الخط المنفرد بهذه الاسباب ؛ ولكن لا ننسى ان الخط المضاعف يحتاج الى المغرم الباهظ . ولهذا يمكن ان يكتفى فى بادئ الامر بخط واحد بشرط تأهيب الممر لاستيعاب خط آخر . فتشيد الجسور ، وتعد الانفاق ، وغيرها بالنظر لهذا الاحتمال . وبهذا تمكن حين اللزوم مضاعفة الخط على اتم السهولة لان الاساس يكون حاضراً ، فلا تحتاج الا لتمديد القضبان .

اما المسئلة الثانية ؛ فهى اخطر من الاولى . وان الحكومة العثمانية لم تؤثر الخطوط الضيقة فى بلاد الاناطول بل كل امتيازاتها كانت مشروطة بعرض ١،٤٤ متراً ومع هذا فان الخطوط القديمة فى سورية كانت كلها ضيقة .

على ان هذه الخطوط التى عرضها مترو واحد ، تقوم بعين الخدمة . ولاسيما انها اقل

محروماً من الاولى . (*)

خط عكا — الشام . — احيل امتياز تمديد خط حديدى من عكا الى الشام (فى ٣ ايلول سنة ١٨٩١) الى رجل انكليزى اسمه پلينغ Pelling ، ويوسف الياس من اهل هذه الديار . وان الحكومة لم تضمن هذا الخط الذى طوله ٢٥٣ كيلومتراً على عرض ١٠٤٤ متراً بمبلغ ما . ولكن حصل اصحاب الامتياز لقاء هذا على رخصة من الدولة بتسيير السفائن فى بحيرة طبريا ، واذنوا بانشاء رصيف ومرفأ فى فرضة عكا او حيفا فى مدة اربع سنين اعتباراً من تاريخ الامتياز . فتأسست هذه الشركة بعنوان Syria Ottoman Railooy واصدرت (٣٠٠٠٠٠) من الاسهام قيمة كل واحد (١٢) ليرة . واذنت باصدار (١٥٠٠٠٠) من الاسهام اذا اوجب الامر . ثم ما ابطأت ان شرعت بالعمل ، ولكن لم يتمكن المؤسس پلينغ من الحصول على ما يحتاجه المشروع من المال لغاية (سنة ١٨٩٥) .

وعليه اعلنت الحكومة العثمانية انفساخ امتياز هذا الخط الذى كانت حصة ولاية بيروت منه ١٠٠ كيلومتر ، وصادرت الرهنية المودوعة فى المصرف (بانق) العثمانى . وهى (١٠٠٠٠) ليرة عثمانية . وما لبثت ان ردتها الى اصحابها بعد مناقشات ومدافعات طويلة وبهذا تخلى پلينغ عن المشروع ، وغادره الى شركة انكليزية ما ابطأت ان شرعت بالعمل ايضاً . ولكن كان العمل على غاية من البطائة حيث دخلت سنة ١٩٠٠ ولم يبعد عن حيفا الا (٥) كيلومترات . وفى ذلك التاريخ ارتأت الحكومة ايصال السكة الحجازية الى حيفا فاصرت الشركة بتعطيل العمل متمسكة بانفساخ امتياز پلينغ منذ امد بعيد . فاحتجت الشركة على هذا العمل ، وراجعت سفارتها ، وبتوسط السفارة اتفقت الحكومة مع الشركة (١٩٠١) وابتاعت حريتها فى هذا المشروع ثم كان ذلك الخط الفرعى .

وفى اول سنة للحرب شرع باجراء المناقلات على الخط الفرعى الذى مدد من حيفا الى عكا بطول (١٧) كيلومتراً . ولكن لم يكن حظ سكان حيفا من هذا الخط اكثر من شهرين . ثم قلعت قضبانه وانشاء منها الفرع المصرى من السكة الحجازية . ثم عمد الى موقف عفوله من فرع حيفا ومدد الخط منه الى القدس ، ثم الى بئر السبع ، وارغل به فى شبه جزيرة سيناء واخذ يستخدم فى العمليات العسكرية .

خط طرابلس — حمص . — هو على طول (١٠٢) من الكيلومترات . وقد قامت به شركة فرنساوية رأس مالها (٣٠٠) الف ليرة فرنساوية وذلك بمظاهرة شركة الشام — حما ، وانهته فى مدة سنة ونصف . وجميع الشركاء فيها من الفرنساويين . وقيمة السهم

(* فائق صبرى ؛ عثمانلى جغرافياى اقتصاديسى : صحيفه ٢٣٦ — ٢٣٨ .

فيها خمس ليرات . ومن جملة شرائط المقاولة ان لا يكون للاهلين حق بالاشتراك فى رأس مال الشركة . وقد قلعت قضبان هذا الخط ونقلت الى فرع رأس العين من سكة بغداد. وبذلك جردت بلدة طرابلس الشام من خطها الحديدى .

— ١٠ —

نبذة من تاريخ سورية (*)

١ — المماليك البحرية

المماليك البحرية . — كان المماليك من الجنود الخاصة لسلاطين مصر . وفى اواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، قام التاتار من آسيا ، واندفقوا على الانحاء الغربية حيث هددوا بخطرهم بلاد العجم ، واصقاع العراق ، وعمد الافرنج لانحاء سورية وتوفقوا فيها لاحياء حكومتهم البائدة . اما الخوارزميين الذين فروا من هول التاتار الى الجهة الغربية كانوا يهددون البلاد الفلسطينية بخطرهم . وفى هذا الزمان الحرج جلس الملك الصالح سابع الملوك الايوبية على عرش السلطنة فى مصر ، فرأى من الصواب ان يختار لنفسه جنداً خاصة ممن يثق بصداقتهم . وكانت افراد عشيرة القبچاق مشتتة عن اوطانها بسبب اكتساح المغوليين بلادهم وقد ابتيع منهم عدد وافر وقدم الى سلطان مصر باغلى الثمن . والملك الصالح الذى ما زال يترصد الفرص لم يهمل امر هؤلاء الافراد ، بل سربهم وقربهم اليه دون الاكراد الذين كانوا من دعائم جنوده . وكان عند هؤلاء الاتراك المهاجرين من المحبة والاحترام لسيدهم ما يفوق الحد المعروف . فبنى السلطان لهؤلاء الجنود ثكنة فى جزيرة الروضة الواقعة تجاه القاهرة واسكنهم فيها . وبما ان هذه الجزيرة كانت فى منتصف النيل سمى سكانها بالمماليك البحرية ، وكانوا يسمون بالحلقة لانهم يحيطون بالسلطان .

لم يكتف السلطان باقامة الاتراك فى الثكنة ؛ بل رتب لهم دروساً عن كمية ادارة البلد والجنود ؛ واعتنى بتدريسهم اياها . وكان الملك الصالح على غاية من السرور بنجاحه فى تأسيس

(*) يوجد فى القسم الشمالى من الولاية كثير من الجوامع والتكايا ، والمدارس ، والحصون والقلاع والاسم الاهم من الكتابات التى رقمت على جدران هذه المبانى التاريخية لم يزل على ما هو : فآثرنا اتماما للفائدة ان ننقل عين هذه الكتابات المهمة ، وندرجها فى كتابنا وقد استندنا فى النقل الى كتاب المستشرق المعروف (سوبيرنهايم Sobernheim) Corpus Inscriptionum arabicum. وقد آثرنا درجها ايضاحا لما يمر فى هذه النبذة التاريخية ، وما سنراه اثناء البحث عن الصليبيين ؛ وما تتضمنه تلك الكتابات العربية من اسماء الاشخاص والوقوعات .

هذه المؤسسة التي اعدها قوة التأييد سلطة اسرته وظن ان هذه القوة تكون سلاحاً لصيانة اخلافه من التجاوز والغدر . ولكن الحادثات التي كانت بعد وفاته كشفت عن درجة خطاء في هذا الاجتهاد .

جلس على كرسي السلطنة بعد وفاة الملك الصالح ابنه توران شاه ، ودعي بالملك الاعظم فعزل اكثر قواد ابيه ، وعقد هدنة مع سن لوقي ملك فرانسة دون ان يستشير بشأنها احداً . وكان من شرائط هذه المعاهدة ان يسلم الفرنساويون قلعة دمياط التي استولوا عليها الى المسلمين ورضي السلطان المعظم بفك سن لوقي من الاسر بفدية باهظة ، فنهض الوزراء والقواد الذين لم ترق في اعينهم سياسة هذا السلطان الجديد ، واستمالوا رؤساء الحلقة السهم ، واجمعوا على كيد السلطان .

وبينما كان السلطان راجعاً من الوليمة التي اقيمت بسبب المعاهدة بوغت بهجوم رتبه المملوك (ركن الدين بيبرس) الذي سترى تسلطه على الديار المصرية . واصابته جروح في زنده . وقد علم السلطان ان هذه المكيدة كانت من المماليك وتحفز ليبطش بهم وينتقم لنفسه . ولكنهم عاجلوه قبل ان يقضي عليهم وعمدوا الى قصره فشبوا فيه النار . وحاول الملك المعظم ان ينجو بنفسه من هذا البلاء فما نجح ، واقتحمه مماليك ابيه فقتلوه . ومع ذلك فقد جددت المعاهدة مع الفرنساويين . ثم اجمع المماليك بعد قتل السلطان على امرأة ابيه (شجر الدر) واقعدوها على كرسي السلطنة . ثم تزوج بها (عز الدين ايبك) من المماليك ونصب نفسه وصياً لها . ولم يطل عليه الامر حتى استصعب ادارة الملك بالاشتراك فخلع زوجته من السلطنة واعلن سلطته واخذ يدير البلاد لوحده . ثم احس اكثر الوزراء بشدة وطأة الفوضى . وعمدوا الى موسى من احفاد السلطان الكامل واجلسوه على تخت الملك وهو يومئذ في الثامنة من عمره وسموه الملك الاشرف . وبعد اربع سنين (١٢٩٤م) انتهز عز الدين ايبك مساعدة الظروف ، ولم يطق الشراكة في السلطنة فخلع آخر بني أيوب واستبد في الادارة وحده للمرة الثانية . ثم قصد ان يتزوج بابنة بدر الدين امير الموصل ، فاغتاظت زوجته شجر الدر منه ، وساقتها الغيرة الى الجرأة على قتله فخنقته في الحمام . وبعد وفاته اجمع المماليك على تولية ابنه نور الدين علي ، فكان سلطاناً لمصر بعد ابيه .

ثم نهضت والدة السلطان الجديد للانتقام من شجر الدر ، ونصبت لها مكيدة فاغتالتها فيها . وقتلت تلك التي ابلت البلاء الحسن في ايام انحطاط السلالة الايوبية ، ولم تستمتع الاحتفاظ بحسن سيطها لما طبعت عليه من حب الحرص والطمع ثم جردت من ثيابها وحذفت جثتها الى الكلاب في خندق القصر .

وبابتداء حدوث هذه الجنايات الغليظة كان الشرق معكساً للوقوعات الهائلة . لان هلاكو

كان مخيماً بجنوده من التاتار على ابواب بغداد ، ومحاصراً لخليفتها ، بصدد ان اغرق آسية الغربية في بحر من الدم .

لما تقرب هلاكو من انحاء بغداد قابله الخليفة بجنوده وتحارب السلطانان فغلب الخليفة وبكر راجعاً الى بغداد ، ثم طلب الوزير ابن العلقمي من الخليفة ان يذهب الى هلاكو ويدعوه دعوة حبية الى الدخول في بغداد . وبرر على رأيه بان سيق لا وطغرل بك ان قوبل بذلك وادخلها . ولكن لم يجسر الخليفة على هذا العمل ، فذهب بن العلقمي لوحده الى مخيم هلاكو وحصل على الامان لنفسه . ثم عاد الى الخليفة وخبره ان هلاكو يميل الى الصلح وانه يريد ان يزوج ابنته من ابن الخليفة ، واصر عليه بالذهاب . حتى وافقه وذهب ، واذاع بن العلقمي خبر النكاح واهاب بالناس لان يحضروا في الاحتفال به ، واخرجهم الى خارج البلدة .

ولكن التاتار انتهزوا هذه الفرصة ، وحكموا سيوفهم في الرقاب واادوا جميع الناس ، ولم ينج ابن العلقمي ايضاً من هذا الظلم العادل بل جوزي بما كسبت يداه من الخيانة (١٢٥٥ م) .

داع بعد فجائع العراق ان التاتار يزمعون اكتساح سورية ومصر ايضاً . ولذلك وجب نصب وصي للسلطان المراهق لاجل التذرع بوسائل الدفاع ، والقيام بما يقتضيه الامر من التدبير . فانتدب لهذه المهمة سيف الدين قوطوز احد مماليك عز الدين ايبك واعلنت وصايته . وكان قوطوز قائداً شجاعا ولكنه مفطور على الطمع والحرص .

ولم ترق في عينه تلك السلطنة المشتركة فعمد الى نور الدين علي فخلعه ، ونصب نفسه سلطاناً على البلاد باسم الملك المظفر . وكان قد جهز الجيوش ، فمشى بهم الى سورية حيث التقى بالتاتار في وادي غزة فمزق شملهم وغلبهم شر غلبة . ثم بالغ في تنسيق ادارة سورية وحكم ربطها بمصر . على ان هذا السلطان الذي امده الحظ ومشى في ركابه لم يقتدر على ضبط « ركن الدين بيبرس » قاتل الملك المعظم . فانه وعده بعد الظفر ان يقطعه ولاية حلب ولم ينجز بوعده ، وما لبث ان قتل بيد ذلك الخصم القاهر . وبهذا تمكن بيبرس الذي لم يستطع ان يقنع اولياء الامور بانه اهل للرياسة ، من الارتقاء الى عرش السلطنة المصرية ، واخضع لسلطانه جميع ولاة سورية ثم قفل الى قاعدة ملكه .

وظفر هناك باحمد احد امراء السلالة العباسية الذين مزقت سلطنتهم بايدي هلاكو ، فتلقاه باحتفال عظيم ، وقابله بالحفاوة الكاملة . ثم لم يلبث ان اعلن خلافته وسماه « المستنصر بالله » ورأى الخليفة الجديد ان يجزي حاميه بيبرس ويقابله على احسانه ، فحباه عنوان « السلطان » .

وقد كان بيبرس يقدر قيمة هذا العنوان الصادر عن مقام جليل ، لما يعلم من وقعه العظيم

لدى الناس . وما ابطأ بيبرس ان استصحب الخليفة وقصد سورية للمرة الثالية وبهذه السفرة فقد الخليفة فى الطريق ولم يعلم بما نزل به ، اقتل ، ام مات مسموماً ، او ضل عن الطريق فى ذلك المهمه القفر ؟

ثم عاد بيبرس الى القاهرة وبعد ان شيد فيها المبانى الجسيمة المزخرفة ، عمد لاشهار الحرب على الافرنج ، واستولى فى بادئ الحرب على قيسارية ، وما فى جوارها من القصبات وفتح قلعة صفد عنوةً (١٢٦٠ م) .

وبعد سنتين هدم يافا ، ونهب طرابلس ، ثم حاصر انطاكية وفتحها . وظل هذا السلطان الذى لا يعرف الكلل يهاجم الافرنج ويظهر عليهم مراراً عديدة . وفى سنة (٨١ ١م) عقد الهدنة مع ملك القدس ، ثم اندفع على حكومة الارمن فى شمالى سورية ونكل بها . وبعد اربع سنين استيقظ التاتار وعادوا الى ما عهد فيهم من ايقاع الفساد ، واصبحت البلاد ولا سيما سورية من توالى هجماتهم على شفا الدمار . وكان السكان فى اشد الحاجة لمن يجيرهم ، وينقذهم من هذا البلاء الذى جعل اموالهم وارواحهم تحت الخطر . ولم يطل الامر حتى قدم بيبرس بجيش عرمرم ، واقتحم جنود التاتار فمزقهم كل ممزق . وهذه العزيمة الصادقة والهمة العالية سحرت للسلطان المذكور قلوب جميع الناس وآنسته حب رعيته اياهم . وفى سنة ١٢٧٧ م توفى هذا السلطان النشيط فى مدينة الشام بعد ان اشغل دست السلطنة مقدار (١٩) سنه ودفن فيها (*) . ولم يتسع نطاق حكومة المماليك التى اسست فى مصر الا بهمة هذا السلطان .

ثم ان بيبرس قوى مركز حكومة المماليك برد غارة المغولين عن سورية ، وكبح جماحهم . واقتدر على تخليص اعظم القلاع والمعاقل كصفد وحصن الاكراد وانطاكية من ايدى الافرنج . وكانت مملكة المماليك حين وفاته ممتدةً من صحراء النوبه الى وادى الفرات . وكان قد عهد بالملك من بعده لابنه « بركه خان » . فلما مات صار الملك اليه وسمى بسعيد ناصر الدين . ولكنه عجز عن الادارة ؛ وابتدأ منه الفساد فلم يمهل الا سنتين وخلع عن سرير السلطنة واجلس مكانه اخوه بدر الدين سلامش وسمى الملك العادل ، وبعد مدة اقام سيف الدين قلاوون نفسه فى ١٢٧٩ . وبعد مدة من هذا التاريخ خلع هذا السلطان الذى لم يتجاوز السنه السابعة من عمره واحيل الى قلعة حصن الاكراد ونفى اخيراً . ثم وقع الخلاف بين امراء اصحاب السلطنة ، وقام الامير سنقر فى الشام وادعاها لنفسه ، وعارضه

(*) كان بيبرس من عبيد بندقدار ، ومن مماليك الملك الصالح . وعنوان (الصالحى) الذى نراه فى الكتابات التى كتبت فى زمانه منبعث من هذا السبب .

قلاوون من امراء المماليك ايضاً ، فافضى امرهم الى الحرب ، حيث كان الحظ موآزراً قلاون فقهر خصمه ، وانتهى الخلاف ، واذعنت جميع الامراء لسلطة هذا القائد المظفر (١٢٨٠م) .

ان قلاوون هذا الذى سمى بالملك المنصور كان من احسن ملوك المماليك وقد حذا بسياسته تجاه الافرنج فى سورية حذو الملك بيبرس . وبعد اربع سنين عمد قلاوون الى حصن « مرقب » الذى هو من اعظم معاقل الافرنج وانتزعه عنوة من ايدى صليبيى « سن جان » ، ثم استولى على بلدة طرابلس (١٢٨٩ م) . ونقلت البلدة الى مسافة ثلاثة كيلومترات عن الساحل وبنيت من جديد . وفى السنة التى بعدها توفى قلاوون الصالح على الطريق بينما كان قاصدا عكا ليفتحها . ودامت سلطنته احد عشر سنة وثلاثة شهور .

وكان خليفته ابنه « الملك الاشرف» صلاح الدين خليل . فعمد هذا الى محاصرة قلعة عكا عملاً بوصية ابيه . وقد بالغ صليبيو (سن جان وتاميليه وتوتون » فى الدفاع ، واشتدت المحاصرة ودامت خمسة اسابيع ، ثم سخرت تلك القلعة التى هى آخر قاعدة لحكومة الافرنج بعزم السلطان خليل الاشرف وهمته (١٢٩٧ م) وفتحت بعدها قصبة صور وبهذا أجلى الافرنج عن الارض المقدسة .

وقد قتل الملك الاشرف الذى اباد حكم الافرنج من سورية ، اثناء انشغاله فى الصيد . (١٢٩٣ م) .

ثم اصبح الامر فوضى فى تلك الحكومة ؛ لان السلطنة لم تكن منحصرة فى سلالة خاصة ، بل كانت تتداول بين الامراء ؛ ومكثت مدة فى سلالة سيف الدين قلاوون سابع ملوك المماليك ولكن لم تجد فيهم اهلاً تستقر عليه . ولم ينج منهم من الخلع او القتل الا قلاوون . وقد اهمل فى دورهم امر العمران لسبب الفتن والمفاسد ، حتى شفت مصر على الخراب . ثم انتهت دولة المماليك فى اواخر القرن الرابع عشر للميلاد (١٣٩٢ م) وانتقل الملك منهم الى ملوك الجراكسة وفى زمن هؤلاء الامراء كانت البلاد اشد تعاسة ، واعظم بلاء ؛ وتجرعت اهلك الثورات ، ودام حكم الامراء الجراكسة مائة وخمس وثلاثين سنة (١٣٩٢ — ١٥١٧ م) .

تحارب (قانصو الغورى) الثانى العشرون من هؤلاء الامراء مع السلطان سليم باوز فى مرج دابق فغلبه وقتل فى تلك الوقعة ، اما خلفه (طومانباى) فقد اسره السلطان سليم بعد مرور سنة من تلك الوقعة ، وصلبه فى مصر ، وبهذا دخلت سورية ومصر فى عداد البلاد العثمانية .

٢ — الصليبيون فى سورية

كانت حومة التاريخ فى القرون الوسطى مجالاً تلعب فيه سلطة الامتين العظيمتين ، امة محمد ، وامة المسيح .
فكانت سلطة الاسلام فى آسيا وافريقيا ، وقسم من اوربا ، وسلطة النصارى فى اوربا وقسم من آسيا .
وكانت الاحوال تدل على ان لا بد من تناطح هاتين الطائفتين القادتين برياسة الخليفة والبابا السياسية ، وما لبثت ان وقعت تلك المصادمة باسم الصليبيين .
لماذا تصادم يا ترى هاتان الفرقتان اللتان تقاسمتا البشرية فى ذلك الزمن ؟ واى فرقة كانت اقدر على الظفر من هاتين الفرقتين لدى اول خطوة تجاوزية ؟ واى الطائفتين كانت على الحق ؟ لقد كتب مؤلفو الاسلام والنصارى، من المؤلفات فى هذا الموضوع الواسع ما يكون المكتبات الحاشدة . ونحن لا نريد الآن ان نطرق هذا البحث المعضل ، ونبتعد عن موضوعنا الاساسى . بل اننا نعلم ان بلادنا ظلت فى ادارة الافرنج مقدار (١٩٥) سنة ولذلك نريد ان نطلع على كيفية ادارتها فى ايدى اولئك الاجانب .
يدل اسم الارض المقدسة على انها ما زالت البقعة المباركة فى نظر جميع اهل الكتاب لا سيما ان تربتها وقدسيتها فى نظر النصارى عظيمة جداً ، لان عيسى عليه السلام هبط الى عالم الوجود فى هذه البقعة ، وصدع بكلام الله ، وتكبد الالام والعذاب لانهم فيها .
ويزعم ان هيلانة والدة قسطنطين الكبير ، لما قدمت القدس بقصد الحج ، بحثت عن الصليب الذى صلب عليه المسيح ووجدته ووضعته فى الكنيسة التى بنتها فوق المغارة التى دفنت فيها .
ومنذ ذلك الزمن كان الحج الى القدس من التقاليد الدينية عند النصارى .
لم يحس حجاج المسيحيين بوطأة انتقال القدس من ايدى النصارى الى ايدى المسلمين لان العرب لم يصدوهم عن زيارة القدس ، ولم يعارضوهم فى تقاليد دينهم . ثم لم يلبث الخلفاء الذين كانوا من اولاد عمومة الرسول ان تراخوا بايقاء ظرفهم المقدسة فى زمن العباسيين ، واختلت شؤون الادارة منذ ولى امرها من قبلهم الى الامراء والوزراء الحاكمين فى البلدان . فبدأوا يتقاضون من حجاج النصارى الضرائب والرسوم و[illegible] هؤلاء الزائرين بكبد اللصوص .
وما لبث ان نهض [illegible] حامى المذهب النصرانى ، واخذ يدعو النصارى جميعهم بتحدوا ويتفقوا على مهاجمة الشرق والانتقام من المسلمين بسبب بضعة افراد من متشردى النصارى فبدأت اول حملة للصليبيين سنة ١٠٦٦ ثم تكررت ثمانى مرات ودامت الى سنة ١٣٩١

وقد تمكن الصليبيون فى القرن الحادى عشر للميلاد من تسخير الرها *Edesse*) وانطاكية وفتح القدس ، وفى بداية القرن الثانى عشر استولوا على جميع انحاء سورية ما عدا القصبات والبلاد الواقعة على الخط الممتد من حلب الى الشام .

الاسس الادارية — تأسست حكومة ارمنية فى انحاء (سليسيا) الواقعة بين جبال طوروس وساحل البحر ، والكائنة فى الجهة الشمالية من الاراضى التى استولى عليها الصليبيون ، وانحاء (الرها — اورفه — *Edesse*) الممتدة الى ضفاف دجلة كانت فى ادارة قائد يسمى بودوين *Baudouin*) كانها بقعة فرانساوية . وقد كان لهذه الايالة الاخيرة قيمة عظيمة فى نظر الصليبيين . لانها تكون حائلاً بين مسلمى سورية ، وبين ما يحتمل ارساله اليهم من الامداد من انحاء الموصل وبغداد .

ثم تأسست ما عدا هؤلاء ايالة انطاكية وطرابلس ، وفى الدرجة الثانية مقاطعة (قونتية) عسقلان ، يافه ، قيسارية ، ثم ايالة الجليل . اما فى الداخل فان انحاء حلب وحما وحمص والشام بقيت فى ايدى المسلمين ونجت من حكم الصليبيين وعليه تكون المستعمرة النصرانية فى سورية عبارة عن حكومة الا من ، وايالة انطاكية وطرابلس ، وحكومة اللاتين فى الساحل ؛ وايالة الرها فى الداخل . فتكون الحدود الشرقية للحكومة النصرانية فى سورية عبارة عن جبال النصيرية التى تفصل ايالة طرابلس وانطاكية عن مسلمى حمص وحما ، وجبال لبنان التى تفرق نصارى لبنان عن مسلمى الشام ، وفى الجهة السفلى عبارة عن الخط المنخفض الذى يكونه نهر الشريعة وبحيرة لوط . فكانت المستعمرة الفرنساوية تمتد الى الجنوب الشرقى فتحتوى على المواقع الموجودة من الكرك الى خليج العقبة كالكرك مونتره آل نهلات . وتسمى تلك الانحاء باراضى ما وراء الشريعة [illegible]

اما القسم الجنوبى من سورية فهو القسم الذى يكون الحكومة الاساسية . وكان من بلادها المشهورة بلد القدس التى هى قاعدة تلك الحكومة ثم فى الداخل من الجنوب الى الشمال قصبات الخليل ، بانياس ، نابلس ، ايبهلين ، رام ، لدا ، حرون ، و قصبة ابراهيم المقدسة . وفى الساحل ؛ عسقلان ، يافه ، آرسور ، قايفا ، آقر ، تير ، سايدت ، باروت وامثالها من القرى الساحلية وكان ايتاليو ، بيزه ، جنوه ، و لبندقيه الذين هم السواد الاعظم بين سكان تلك البقعة ، ممتازين عن غيرهم لانهم حسن بلاؤهم فى الحملة الصليبية الرابعة .

اما فى الحدود الجنوبية فتوجد صحراء التيه . وقد شيدت على تخومها قلاع روبر (هى فى جانب بحر لوط) ، سهموآ ، قارمهل . بيت جيبه لين داروق . ثم وراء هذا الخط الدفاعى توجد معاقل شبهلين و لانش غارد [illegible]

وتوجد وديان كبيرة تمتد من الشرق الى الغرب بين منتهى الجنوب من لبنان وبين بحر

لوط، فكانت جيوش الاسلام تتمكن من مخاتيك الوديان ان تهدد الثغور الافرنجية وقد شيد الافرنج فى هذه الانحاء قلعة الشقيف Chateauneuf Castellet و Beaufort فى صفد وفى جنوب البحيرة قلعة بوواد Beauvoir . وما عدا هؤلاء فقد كان للافرنج فى الجهة الشرقية قلعة بانياس .

اما فى الجهة الوسطى فان الحدود التى تفرق مستعمرة الصليبيين عن بلاد الشام هى جبال لبنان التى كان سكانها من المسيحيين ولذلك لا تحتاج الى القلاع والحصون . اما فى الجهة الشمالية فنهر ابراهيم (آدنيس الفينيقيين) الكائن بين بيروت وجبيل الذى يصب على البحر من وادى عميق بعد ان ينبع من شواهق لبنان هو فاصل الحد الشمالى للحكومة اللاتينية .

واعتباراً من ضفاف هذا النهر تبتدأ حدود أيالة طرابلس . وتوجد جبال النصيرية فى الجهة الشرقية الشمالية من هذه الايالة . وقد شيد الافرنج فى تلك الاصقاع قلاعاً وحصوناً عديدة ليتمكنوا من الدفاع عن كيانهم تجاه ما وراء العاصى من مسلمى حمص وحما . ويوجد فى جبال عكار حصار عكا ، وان حصن عرقا الذى نراه اليوم خراباً ، شيد لاجل الدفع عن البلاد فى ممر النهر الكبير . وما عدا هؤلاء يوجد Krak des Chevaliers و بالتعبير الحالى حصن الاكراد الحاكم على الممر الذى يصل سيف البحر فى وادى العاصى ، ثم فى الشمال منه قلاع آريمه [illegible] ، برج صافيتا ، سارق ، قوله وهؤلاء مربوطون ببعضهم بيد ج قيمتها من الدرجة الثانية .

اما ايالة انطاكية فهى عبارة عن الانحاء الشمالية من جبال النصيرية ، والجانب السفلى من وادى العاصى ، ومن اشهر بلادها فى الساحل : موانى اسكندرون ، بوربونه ل [illegible] ، سودهن او سن سيمه ؤن ، لايش [illegible] ، زبيل . وفى وادى العاصى : نصبتى الثغور ، وهمى ، وفى الجهة الشرقية بلاد البارا آرتهزى ، قافاردان ، روح اما انحاء قسموس ، ابقا ، ميعاد فكانت مسكونة الاسماعليين الذين كانوا تجاه الافرنج على نوع شبيه بالاستقلال . اما القلاع والمعاقل التى كانت فى جبال النصيرية ، فقد اقطعها امراء الايالات الى جمعية الزهاد الصليبيين لاجل اشكال المحافظة عليها والمدافعة عنها .

جمعية الزهاد الصليبيين — ان جمعية الزهاد المسلحة التى خلقت الحروب الصليبية ، كان لها اليد البيضاء فى تمديد حياة الحكومة القدسية . وأسس هؤلاء الزهاد ثلاث جمعيات : المعبدية [illegible] Les Chevaliers du Temple وفرسان سان جان [illegible] Jean والشركة التوتونية [illegible] Teutonique .

فالمعبديون من هؤلاء تأسست سنة ١١١٨ من قبل هوك دوپه ين ورفقائه بقصد الدفاع عن نصارى الارض المقدسة . وقد اهداهم الملك بودوين الثانى [illegible] بيتاً مجاوراً

معبد سليمان عليه السلام ، ليتخذوه مركزاً لجمعيتهم. ولذلك سميت بالمعبدية . وقد تمكنت هذه الجمعية بعد تأسيسها باقل من قرنين، ان تحصل على مكانة تامة ، وتشغل مقاماً متيناً . وكان رؤساؤها ... Grand Meitre بمثابة الامراء، لهم جنود وقواد وقلاع ويزعم ان دخل هذه الجمعية في اوروبا كان يربو عن مئة مليون . وكان لها في سورية ١٨ قلعة مع توابعها . وطرطوس — Tortosa ، عتليت Chateau Pèlerin كانتا من اهم تلك القلاع وكادت هذه الجمعية ان تكون على اتم الاستقلال في الامور الحربية . وقد عقدت مباشرة مع المسلمين هدناً عديدة . ولم تنقطع المناسبات بين رؤساء المعبدية وامراء المدائن ، وكان الامراء يطلبون كفالة المعبديين في اكثر هدنهم مع اللاتينيين . وقد الغيت هذه الجمعية بامر البابا ... من الخامس بايعاز مالك فرانسه وطمعاً بما عندها من الثروة .

اما رسان سنجان ، وتسمى بزهاد رودوس ومالطه ايضاً فقد اسسها زوار طوم — Saint Jean سنة ١٠٩٩ لحماية النصارى الذين يقصدون القدس لاجل الزيارة ، ولمداواتهم اذا مرضوا ، وادارة مستشفياتهم . ثم توسعت هذه الجمعية في الموضوع ولم تلبث مريدوها ان شرعوا بالاشتغال في الامور الحربية ايضاً (١١٢١ م) . ولما فتح السلطان صلاح الدين الايوبي بلدة القدس ، نقلت هذه الجمعية مركزها الى عكا .

ومن ذلك التاريخ اخذت عكا اسم ... St. Jean d'Acre . ولما طرد الصليبيون الطرد النهائي من سورية انتقلت هذه الجمعية من عكا الى قبرص ، ثم الى رودوس وبقيت هناك مقدار قرنين . ولما فتح السلطان سليمان القانوني مالك الجزيرة طردهم منها فذهبوا الى مالطه ونالوا هناك الى زمن نابليون بونابارت ، وكانت قلعة ... الاكراد ... Krak des Chevaliers في ايدي هذه الجمعية ، وكان ... عنهما ... بها .

اما الفرقة توتون ... Chevaliers Teutoniques فقد اسسها صليبيو الالمان سنة ١١٢٨ وقد كانت هذه الجمعية معرضة عن الامور الدنيوية ، ومنكبة على الحرب ... وقد دخلت هذه الجمعيات تحت حماية البابا منذ تأسيسها لانها كانت عبارة الآلة ... بمشيئته ... ای امر اراده وقد ... في نظام مخصوص وطائف هذه الجمعيات وبين ... باسها ، فكانت علامة (...) صليب ابيض على ... والمعبديين صليب احمر على لباس ابيض والتوتونيين صليب اسود على ثياب بيض . ولما كانوا ... مأذونين بالزواج . ولكن ... البابا ... هؤلاء الزهاد ، ومقاومة الابطال الذين ناظروا زمراً ... حرب المسلمين في القدس ... لهم البابا سيآتهم ... عن ... لم تكد تنفع شيئاً في محافظة ...

القدس . بل تمكن المسلمون بعد معارك دموية دامت ١٩٥ سنة، من طرد هؤلاء الغاصبين عن ملكهم ، واحتفظوا باوطانهم ، ولم تزل الارض المقدسة فى ايدى اصحابها المسلمين .

— ١١ —

الكتابات التاريخية

(١) (كتابة السلطان خليل) « ٦٩٣ هـ » فى الجامع الكبير لطرابلس — ا. هـذه الكتابة محفورة فوق باب الجامع الشمالى المبنى على الطراز العوتى وعلى الحائط الذى هو على يسار ذلك الباب :

« البسمله . . . امر بانشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الاعظم سيد ملوك العرب والعجم . قاتل الاعداء ، ومبيد الكفار الملك الاشرف صلاح الدنيا والدين . خليل قسيم امير المؤمنين بن مولانا السلطان المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى خلد الله ملكه ، فى نيابة المقر العالى الاميرى الكبيرى العزى ، عز الدين ايبك الخزندار الاشرفى المنصورى نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة عفا الله عنه وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة والحمد لله وحده » .

تولا عمارة هذا الجامع المبارك لعبد الفقير الى الله تعالى سلم الصهيونى بن ناصر الدين العجمى عفى الله عنه »

ومما يغلب على الظن ان هذا الجامع كان كنيسة فى زمن الصليبيين . فحولها السلطان قلاوون الى جامع ، وبابه الذى كان مبنياً على الطراز العوتى ، قلب فى زمن خليل الاشرف بن قلاوون وبنى على الطراز العربى . والقناطر الموجوده فى حريم الجامع ومنبره اللطيف شيد فى زمن سلطنة محمد الناصر ثانى اولاد قلاوون وهذه الكتابة تبرهن عنه :

(٢) — « البسمله . . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . امر بانشاء هذه الرواقات ، تكملة الجامع المبارك مولانا السلطان محمد بن قلاوون خلد الله ملكه فى نيابة المقر الشريف العالى السيفى كستاى الناصرى ، كافل المملكة الشريفة الطرابلسيه عز الله انصاره بانظاره المقر العالى (*) البدرى محمد بن ابى بكر شاد الدواوين (**) اعمرة ادام الله نعمته وكان الفراغ منه فى شهور سنة خمس عشر وسبعمائة وصلى الله على سيدنا محمد .

(*) هى من المراتب العالية .
(**) الناظر على الدواوين .

تولا عمارته العبد الفقير الى الله تعالى احمد بن حمدون البعلبكى. (*)

* * *

(٣) — كتابة الامير قرطاى على المنبر (٦٢٦ هـ). — «امر بانشاء هذا المنبر المبارك العبد الفقير الى الله تعالى قرطاى بن عبدالله الناصرى اثابه الله فقام به من ماله بكتوان بن عبدالله الشهابى، تقبل الله منه وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ستة وعشرين وسبعمية».

حفرت هذه الكتابة باحرف صغيرة لطيفه. والامير قرطاى المذكور فى الكتابة هو من مماليك السلطان قلاوون. وقد نصب (مقدم الف). ووجد وال فى طرابلس من سنة ٧١٦ الى ٧٢٦. وقد توفى فى هذه البلدة بعد هذا التاريخ بثمانى سنين. وقد خلفه فى الامارة الامير طانيال الذى سيمر علينا اسمه.

(٤) — صورة امر السلطان صالح (٨١٧ هـ) — نقش هذا الامر فوق الباب الواقع فى الجهة الجنوبية الى الشرق:

«الحمد لله. رسم بالامر العالى السلطانى الملكى المؤيدى ابى النصر شيخ اعلاه الله وشرفه وانفذه وصرفه بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم، والخبز والطرح وغير ذلك بحيث لا يعود، ويبطل ذلك جميعه فى هذه الايام الزاهرة خلد الله سلطانها وادام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الاول سنة سبعة عشر وثمانمايه والحمد لله (**)»

يعلن فى هذا الامر، وفى الكتابة المحفورة على الباب الشرقى الموصل الى حريم الجامع ايضاً. منع الاحتكار فى الحاجات الضرورية كالقمح، واللحم، والخبز. ويصرح فى تلك الكتابات ايضاً، لغو كل ضريبة لم يأمر بها القرآن.

* * *

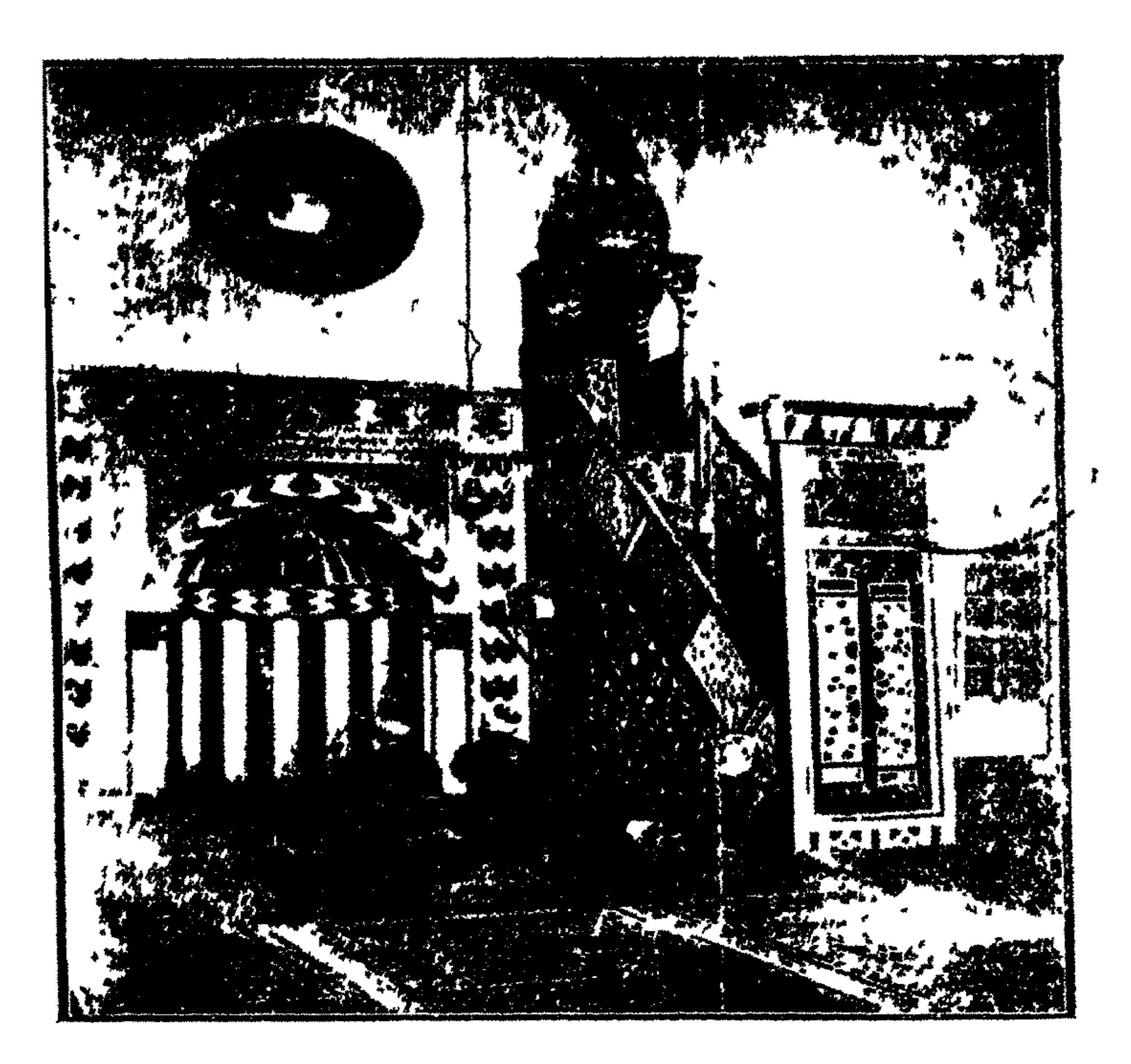
(٥) — كتابة الامير ازدمير «٨٨٣ هـ». — منقوش على احد محاريب الجامع الكبير:

«امر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى ازدمير الاشرفى كافل المملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة اعز الله انصاره فى ايام مولانا وسيدنا قاضى القضاة الشافعى الامام. فى مستهل ربيع الاخره سنه ثلاث وثمانين وثمانماية، بمباشرة محمد الشاد»

ترى اسماء القضاة الذين كانوا على غاية من النفوذ فى اواخر ايام المماليك، مكتوبة فى اكثر الكتابات المحفورة فى ذلك الزمن.

(*) هذه الكتابة مكتوبة على حائط يرى الى الجنوب فى حريم الجامع.

(**) نقش عين هذا الامر على الحائط الشمالى فى جامع طوبا فى طرابلس.



المنبر الظريف في الجامع الكبير الطرابلسي

ويوجد اسماء قضاة كثيرة في من هذا القبيل في خرب بعلبك .

لم يكن اسم ازدمير معروفاً قبل تسلطن قايتباى « ٨٧٩ هـ : ١٤٧٤ م » ولكن هيئة كان من قرباء السلطان ، فنبغ بسرعة زائدة . ثم توفى وهو وال في حلب « ٨٩٨ » بعد ان صار وال في صفد وطرابلس . وشهد الوقايع الكثيرة .

*
* *

الكتابات في المدرسة الشمسية — يوجد ثماني انواع من الكتابات على الحائط الجنوبي لهذه المدرسة الملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية . وكانت الكتابة الاولى اثناء ولاية « سيف الدولة قصروه » من مماليك الامير تيرار الظاهرى ، منع فيها الملك الاشرف برسباى في طرابلس تسخير حيوانات الركوب والنقل للاستخدام في نقل البريد « ٨٢٦ هـ » ومنع في الثانية الملك الظاهر جقمق اثناء ولاية برسباى الناصرى الظاهرى [*] ، جباية الضرائب والرسوم الباهظة التي كانت مضروبة على صانعي النساجة ، وعلى الكروم . « ٨٤٦ هـ » . والثالثة منع فيها الملك الاشرف ابو النصر قايتباى ، جباية « ١١٤ » درهم التي كانت تجبى كل يوم من مسلخ طرابلس باسم واليها « سيف الدين اينال الاشقر » . ثم في زمن وال آخر لطرابلس اسمه « اينال الاشرفي » [**]

وايام سلطنة قايتباى حجر في احدى الكتابات على الحكومة ان تبتاع من الاهالي الصابون والزيت والعنب . وغيرهم من الحاجات الضرورية بثمن بخس ثم تبيعه بثمن غال . قد افصحت الكتابة عن ان هذا القرار كان بعد شكاية قدمها التجار الى الحكومة .

*
* *

(٦) — صورة منشور السلطان قايتباى (٨٨٩ هـ) — محفور هذا المنشور السلطاني على نفس الحائط بين النافذة الثالثة والرابعة :

« الحمد لله لما كان بتاريخ العشرين من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع وثمانين وثمانمائة ، ورد مرسوم الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الاشرفي السيفي ابو النصر قايتباى اعلاه الله وشرفه وانفذه في الآفاق ؛ وصرفه بابطال مكس الدواليب الحرير ، والقصابة بالكوف

(*) كان برسباى الناصرى من مماليك (السلطان الناصر فرج . ماعان جقمق) الذى رقى الى السلطنة بعد ان كان رئيساً لحجاب السلطان برسباى ٨٤٢ هـ . وآزره على تأييد سلطته ، وعليه جزاه جقمق باقطاعه ولاية طرابلس .

(**) ان اينال الاشرفي كان وال في طرابلس من سنة ٨٨٦ الى ٨٨٩ . ثم التحق بالامير (اقباردى) الذى شق عصا الطاعة على (السلطان محمد الناصر) خليفة قايتباى ولكن ما لبث ان غلب مع سيده في مرعش وقتل :

والقدموس وابطال مكس تجيلة البقر والجاموس وقطع الضأن، وقدم الاساكفة بالقدموس والخوابي على حكم ما بيدهم من المراسم الشريفة على جاري عادتهم بقصته بالخط الشريف المرفوعة عن اهل الكهف والخوابي والقدموس بتاريخ تاسع شهر رمضان المعظم قدره سنة ثمان وثمانين وثمانماية ».

صرح فى هذا الامر بالغاء الضرائب والمكوس التى كانت تجبى من تجار الحرير والقصابين فى قلاع الكهف والقدموس، والمكوس التى كانت تجبى من اساكفة قدموس وخوابي، ومكوس تجيرة الحيوانات فى هاتين القصبتين. وان بعض هذه المكوس تشبه (ضريبة النوافذ) التى تجبى اليوم فى فرانسة. اذ كانت تطرح مبسوطة فى التناسب مع نتيجة السعى. وقد جاء فى الكتابة ان كثرة الوارد وقلته، يتبع كثرة معلمى الصنعة (قرم الاساكفة) وقلتهم. وعليه اذا كان فى احد المصانع معلمان، وفى الآخر خمسة، يكون مكس الاول اقل من الثانى، ولو كان مقدار العمال فى المصنعين واحداً.

اما الكتابة الثامنة فهى على نفس الحائط بين النافذة الثانية والثالثة وقد جاء فيها [ان الوالى « قنصوة اليحياوى» سمع بان ناظر القصر يدفع نصف ما يجب عليه دفعه من مخصصات الحرمين الشريفين فى كل سنة، ويجبي النصف الآخر من قروى الاراضى الموقوفة. ويبين فيها ان هذا العمل اختلاس، وانه ممنوع البتة ويؤمر فيه بان لا يؤخذ من هؤلاء القرويين الا الجزية الشرعية، او المال المقرر (اى الخراج).

*
* *

جامع طايلان، وكتاباته — يوجد هذا الجامع على يسار « نهر ابوعلى» خارج السور. وكان كنيسة من بناء الصليبيين. ولما فتح السلطان قلاوون البلدة (سنة ٦٨٨) بقى هذا المعبد مهملاً، ولم يزل الى سنة (٧٣٦) حيث حوله سيف الدين طانيال والى طرابلس الى جامع. وهو مستطيل الشكل يتألف من رواقين مسقوفين. وله غرفة على يمين الباب معدة للخطيب. ويفهم من الكتابة التى على المزار، انه كانت فى الجانب الاخر من الباب غرفة اخرى. ويدخل اليوم الى غرفة الخطيب من باب خارجى. وتوجد عن الرخام فوق الباب العام هذه الكتابة

« ٧ » — « البسملة . . امر بانشاء هذا الجامع الشريف بطرابلس المحروسة اتماماً المبارك المقر الاشرف العالى المولوى الاميرى نائب السلطنة فى ايام الملك الناصر فى شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعماية ».

وقفية الجامع .— ان هذه الوقفية الجملة محفورة بحروف ناتئة على الحجر الكائن فى الرواق الاول على الناحية الشمالية الغربية من الباب :



اكبر ابواب الجامع الكبير في طرابلس

« (٨) — « البسملة ... امر بانشاء هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا المقر الاشرف العالى المولوى الكافل ، السيدى المالكي المخدومى السيفى طينال الملكي الناصرى كافل الممالك الشريفة الطرابلسية بلغه الله آماله وتقبل فى الصالحات اعماله ، ووقف عليه لمصالحه المعينة فى كتاب وقفه جميع البستان المعروف بالحوى بظاهر طرابلس ، وجميع الحانوتين الملاصقين لبابه ، وجميع البستان المعروف قديما بالطنطاش بسق طرابلس وجميع الحانوتين الملاصقين لسوق السلاح بجوار الحمام المعروف باسندمر ، وهى الان ملك الواقف وجميع ثلث الخان المعروف بدار الوكالة القديمة ، وجميع القرية المعروفة مارزونية من عمل عرقا بجون طرابلس وشرط انه مهما فضل عن ريع هذا الوقف عن ارباب وظائفه ومصالحه المعينة فى كتابه يصرف للفقراء والمساكين المقيمين بطرابلس ، والواردين اليها حسبما يراه الناظر فى ذلك من غير ان يرتب لاحد فى كل شهر او كل يوم ، ومن غير ذلك او بدله او رتب شيئاً مستمراً كانت عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . »

وعلى رواية الصفدى والمقريزى ان الواقف الامير سيف الدين طاينال مملوك السلطان محمد الناصر وحاجبه . وكان قائداً لمائة من الجند ثم ولى ولاية طرابلس مرتين سنة ٧٢٦ و ٧٣٥ . وقد بنى الجامع المسمى باسمه اثناء ولايته الثانية . ويروى المؤرخون ان طاينال هذا ان من الولاة الاذكياء والمدبرين ولكنه عرف بالخسة والطمع . وقد توفى سنة ٧٤٣ اثناء مروره بالشام . ولكن لم يتضح مدفنه أفى طرابلس ام فى الشام ام فى بلدة صفد التى ولى امرها مدة . وتوجد فى الشام مدرسة تسمى باسمه .

وقد بنى هذا الامير تربة فى الجامع نفسه لتكون مدفناً له ، وحفر على بابها وقفية اخرى ، عدد فيها من الاملاك والعمارات ما يجهل اليوم اكثره ، ووقف ريعها ليصرف على هذه التربة . وتوجد هذه الكتابة منقوشة على المنبر :

(٩) — « البسملة — انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلواة وآتى الذكواة ، ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . تكمل هذه المنبر فى شهر ذى القعدة سنة ست وثلاثين وسبعماية . »

ومنقوشة على المنبر هذه العبارة :

« عمل المعلم محمد الصفدى رحم الله من ترحم عليه ».

« الكلمة المخطوطة تحتها خط مكتوبة خطأ ». لان المنبر مذكر فيجب ان يكون اسم الاشارة مذكراً ايضاً . ونظراً لاتمام انشاء الجامع فى شهر رجب كما مر فى الكتابة السابعة يكون الشروع فى المنبر بعد ثلاثة شهور من ذلك التاريخ .

قلعة طرابلس وكتاباتها — حاصر ريموند الرابع امير (قونت) طولوز طرابلس فى ايام

الصليبين (١١٠٤ م) وبناءً على استبسال السكان فى الدفاع دامت تلك المحاصرة خمس سنين فمدد المحاصرون وبنوا لهم حصناً فوق هضبة جبل الحاج . وشرع فى بناء البلدة حول هذا الحصن فى زمن استدمير الكرجى الذى ظل وال فى طرابلس من سنة (٧٠٠) الى (٧٠٩ هـ) وسفح هذا الحصن من الجانب الشرقى عمودى يهوى الى اعماق وادى (نهر ابو على) . وهـذا الحصن يشبه اجمالاً حصون البـابا فى اويتيون *Ovignon* احدى البـلاد الفرانساوية .

(١٠) — منشور السلطان شعبـان العسكرى — حفرت هذه الكتابة على باب القلعة الثانى ، المطل على الناحية الشمالية « البسملة . . . لما كان بتاريخ العاشر من شعبـان المكرم سنة ست واربعين وسبعماية للهجرة النبوية ، برز مولانا السلطان الاعظم ، المالك الملك الكامل سيف الدنيا والدين شعبان بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون لا زال مراسمه نافذة فى الافاق ، هاطـلة سحب سماحهـا بالاغراق والاطلاق ، ان يسامح جميـع الجيوش المنصورة الاسلاميـة والامراء والمماليك السلطانية والجند بالحلقات والاصحاب والامراء والاتباع عما لعله يتعين للديوان المعمور على كل مفصل منهم من بقية خدمه او تفاوت ايام الديوان ما بين السنين الشمسية ما بين السنين الشمسية (تكررت الجملة مرتين) والقمرية ويبطل تخريج ما قبل ذلك بديوان الجيوش المنصورة بالممالك الاسلامية بحيث يبقى الديوان المرتجع مدخل فى اقطاعات المقطعين ويكون جمع ما يتعين من الديوان محاسبات مسموحاته داخلاً فى هـذا الانعام على توالى الايام مشتمل عليه العطاء الذى شمل جوده الخاص والعام . ومثوبة محمداجرهـا فى دار الكرامة وسنة حسنة له اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن ثابر على لاقتداء فيه فيـه (تكررت الكلمة مرتين) حقق الله من الخير ظنونه ، ومن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، ومن نقصه او قصد نقصه على مر السنـين فيكون الله عز وجل خصمه ونبيه محمد سيد المرسلين ويحقق عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ويبوء بالاثم الذى يخسر به الدنيا والاخرة وذلك هو الخسران المبين . . . . ومن . . . وهو خير الوارثين فى ايام ملك الامراء المدر الاشرف العالى الكافلى السيفى قمارى الكاملى كافل السلطنة الشريفة بالفتوحات الطرابلسية عز نصره . . »

كتب هذا المنشور الباحث عن الميزانية العسكريه فى ايام شعبان بن محمد بن قلاوون من سلاطين المماليك (٧٤٦ — ٧٤٧ هـ ؛ ١٣٤٥ — ١٣٤٦ م) .

وقد بحث المؤرخ المعروف ابو الفدا . وابن الوردى عن هذا المنشور وقال ابو الفدا وفى هذه السنة كتبت الكتابات على قلعة حلب وغيرها من الحصون .

وقد طمست هذه الكتابات فى قلعة حلب ، والشام ، وبصرى . اما فى حصن الاكراد

ليس على شقها ! ولا تكاد تقرأ الا بصعوبة . واما في طرابلس فهي على غاية من الوضوح ولكن اسلوبها معقد غير واضح ، والكلمات التي خط تحتها اما مكررة ، واما فيها خطاء ولا يمكن الاطلاع على مضمون هذه النشرة البعيدة باسلوبها عن العربية ما لم تراجع الكتب التاريخية التي كتبت في ذلك الزمان .

ويفهم من هذا المنشور ان الرواتب كانت مرتبة على الحساب الشمسي غير انها تدفع عند انتهاء الاشهر القمرية . وكانت الامراء والقواد ، والجنود تربح كل سنة راتب احد عشر يوماً ويكون هذا الربح عطية سلطانية . ويروي المؤرخون انه اذا توفي احد القواد او الجنود دون ان يتم مدته المقررة ، يلزم وارثوه يرد المبلغ الذي كان اخذه . ومنشور السلطان شعبان الذي نبحث عنه قضى بفسخ هذا الاصول ، واقال اسر منسوبي الجندية هم هذا الدين العسر .

لا يغرنا هذا المنشور بمضمونه الحسن فنحكم بسببه على بعد نظر السلطان شعبان في الشؤون الادارية واعتنائه بتنظيم الامور العسكرية . بل ان شعبان هو الاجدر بالكراهية والنفرة بين سلاطين المماليك لانه كان منكباً على السفاهة ، وغارقاً في اللهو والهوى . والغاية من اصداره هذا المنشور هي تطييب نفوس الجنود الذين كانوا على غاية الاستياء منه واستمالة قلوبهم نحوه . ولم يكن اعفاء أسر القواد من هكذا دين مبتكراً . وقد اسهب ابو المحاسن في كتابه « المنهل الصافي » في تفصيل ما ارتكبه السلطان شعبان من الظلم والجور على الرعية ، وما كان عليه من حب المال والحرص على جمعه .

(١١) — كتابة السلطان سليمان القانوني (٩٢٧ هـ) — . تقرأ على باب القلعة الاول المطل على البحر هذه الكتابة :

« البسملة . . . رسم بالامر الشريف العالي السلطاني الملكي المظفري سلطان سليمان شاه بن السلطان سليم شاه لا زالت اوامره الشريفة مطاعة في الامراء بان يجدد في هذا البرج المبارك ليكون حصناً منيعاً على دوام ، وكان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة سبع وعشرين وتسعمائة »

من المعلوم ان السلطان سليم الاول فتح سورية ومصر معاً ، واضافهما الى الملك العثماني سنة (٩٢٢ هـ و١٥١٧ م) . ثم خلفه السلطان سليمان القانوني «٩٢٦—٩٧٤» وبعد تسلطنه ببضع شهور جاء الى سورية ، وجمع ولاة الايالات في مجلس تحت رياسته . وقرر فيه على اصلاح قلعة حلب وطرابلس . ويرى في الكتابة انه اضيف لاسم السلطان عنوان « شاه » هو تعبير ايراني . مع انه قد استعمل في الكتابات العثمانية الموجودة في مصر عنوان « خان » الذي يستعمله المغوليون . وقد نبه على الاغلاط في هذه الكتابة برسم خطوط تحتها .

جامع المسكوركية فى طرابلس وما فيه من الكتابة — هو على الضفة اليسرى من نهر ابو على وقريب من جامع طانيال . وان هذا المعبد الذى قوض بنيانه ، واشفى على الاندراس ، هو الآن مسكن تقيم فيه احدى العائلات الاهلية ، وله اوقاف كثيرة كشأن غيره من المؤسسات الدينية فى البلاد الاسلامية . وقد قيض الطمع له من سلبه جميع اوقافه من الايدى الجائرة ، فاصبح والخراب ينقصه من جميع اطرافه . وان وقفية هذا الجامع التى درجناها هنا ، هى مما يدع العقل فى حيرة ووله . فكيف مكن اولئك الظالمون من الجناية على هذا المعبد ، وسلب جميع مستغلاته التى تربو على المثل بجسامتها ؟ . وان هذا البنيان المقدس الان هو على ما ينفطر له الفؤاد من سؤ الحال والخراب .

(١٢) وقفية الواقف (٧٦٠ هـ) — مكتوبة هذه الوقفية على الصفحة الجنوبية من الجامع :

« البسملة . . . وقف الجناب الكريم اقطرق الحاجب هذا المكان المبارك مسجداً لله تعالى ، وتربة للدفن ووقف على مصالحه وعمارة اثاثه وتطاويقه ، جميع المزرعتين المتلاصقتين من عمل حصن الاكراد وهما مرج السلطان وقيمرة وجميع البساتين المتلاصقين بقرية رشعين من عمل طرابلس احدهما يعرف بمحمود والآخر بابن الافرمى ، وجميع الحوانيت الاربعة المتلاصقات بالصف الشرقى من سوق الحلاويين طرابلس وجميع الدار الملاصقة للمسجد ، وجميع الآدر الثلاث المتلاصقات بخان المصريين بطرابلس وجميع الحصة الشايعة وقدرها . والنصف ، والربع من جميع الدار شمالى خان المهندس بالجسر العتيق وجميع الفرن المعروف بكرخولد للمسجد المذكور وقفاً شرعياً يبدأ من ريعه بعمارته واصلاحه ويصرف منه فى كل شهر اربعون درهماً للامام بالمسجد المذكور وخمسون درهماً الى مؤذنين بالنوبة يؤذنان بمأذنة المسجد المذكور وثلاثون درهماً الى قيم المسجد والتربة وخمسون درهماً فى ثمن زيت وقناديل وآلة الكنس والاستسقاء . ويصرف فى يوم الاثنين من كل اسبوع ثلاثة دراهم فى ثمن خبز يفرق بباب التربة ودرهم واحد فى ثمن ماء وثلج وكذلك يصرف فى يوم الخميس من كل اسبوع . ويصرف فى كل شهر احدى عشر درهماً فى ثمن كسوة من قميص او لباس قدم وغير ذلك للايتام والارامل والفقراء المسلمين وما فضل بعد ذلك يصرف الى من كان ، فقيراً محتاجاً من اولاد الواقف وانساله ومن عتقائه بالسوية فان لم يكن فيهم محتاج صرف لفقراء المسلمين فى باب التربة وشرط الواقف النظر لنفسه ثم للارشد من اولاده وانساله والى من كان امير حاجب كبيراً بطرابلس وشرط الواقف ان لا يؤجر وقفه باكثر من ثلاث سنين وليصرف هذا ، ولا تقدر عليه ظالم ولا مكوس حسبما ضمن ذلك كتاب الوقف المؤرخ بمنتصف ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وسبعماية الثابت المحكوم به بمحاضر الحكام العزيز بطرابلس المحروسة ونقش ذلك فى ربيع الاول سنة ستون وولاء لهذا المسجد من المـ

بحقها وبجيب. تسقف بأربع اسمع من قناة طرابلس (*)

المدرسة الخاتونية في طرابلس — سميت هذه المدرسة بالخاتونية لانها بنيت على نفقة (ارغون خاتون) ، بمعارفة زوجها . وكانت على الضفة اليسرى من نهر ابو علي قريبة من باب جامع طيلان ، وهي الآن خاوية مهملة ، لا يقصدها الا ذوو الحاجة للمرحاض . وكان لهذه الدار الخيرية اوقافاً عميمة الدخل وهذه الوقفية تطلعنا على حقيقتها :

(١٣) — وقفية المؤسس عز الدين ايدمير الاشرفي (٧٧٥ هـ) — البسملة . . . الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد انشأ هذا المكان المبارك مولانا المقر الاشرف العالي المولوي المخدومي الكافلي المرى ايدمير الاشرفي مولانا ملك الامراء اعز الله انصاره في شركة آدره الكريمة الجهة المصونة ارغون ، تغمدها الله برحمته حسب وصيتها المتقدمة ووقفت جميع القيسارية المعروفة بالدهيشة .

وبساتين الحريريين والحوانيت التسعة والمقعدان لدى

ذلك خارجها ومعروفين بها ويغلق عليها باب

بالمقعد خارج الباب القبلي ملاصق له عن يمنة الداخل

منه ومن الحوانيت التسعة اربع حوانيت كبار ملاصقات لها عن

يمنة الداخل من بابها القبلي حانوتان وعن يسرته حانوتان

والخمسة اقباء ملاصقات القيسارية ايضاً وجميع الحوانيت

الثلاثة المتلاصقات تجاه باب القيسارية القبلي

وجميع الحوانيت المتلاصقين بوسط السوق الشرقي

بالصف الشرقي بالقرب من قيسارية التجار وموقع

ذلك جميعه بطرابلس المحروسة على نفسها مدة

حياتها ثم من بعدها يصرف ذلك على الوجوه الآتي شرحها فيه : وهو ان الناظر في الوقف شرعا يقرر بالتربة التي عينت للواقفة ، وتدفن بها اربعة حفاظ من القرآن العزيز ، ويقرر لهم من المعلوم ما اقتضا رأيه على انهم يرددون كل يوم الى تربة الواقفة ويقرؤن بها ربعاً كاملاً من القرآن الكريم ويدعون عقيب القراءة للواقفة ومعتقها زوجها المشار اليه اعلاه ويترحمون عليها ، ويسألون الله عز وجل لهما بالعفو والمغفرة ويهدون ثواب القراءة الى زوجها ويشركون جميع المسلمين في الدعاء ويختمون الدعاء بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجعلون ختم القرآن في كل ليلة جمعة بحسب

(*) لم نعثر في الكتب التاريخية على ما يعرفنا بهذا الواقف

انهم يقرأون على قبرها فى كل سبعة ايام ختمة كاملة . فاذا كانت ليلة الجمعة يجتمعون بالتربة فقراء يحضرهم من المسلمين ومساكينهم يختمون الختمة الشريفة على قبرها ». ويدعون ويقرأون كما تقدم وان يعمل الناظر الشرعى فى لونين من الطعام حسبما يقتضيه رأيه ويحضر قنطاراً من خبز الخنطة الطيب الصافى ويوضع بالتربة ويفرق على الفقراء والمساكين من امة محمد صلى الله عليه وسلم ويكون ذلك كل ليلة جمعة عند ختم القرآن العزيز وان يصرف بالتربة ما يحتاج اليه من فرش وغير شىء ومغاز قائم مقيم يقوم بها بكنسها وتنفيضها وفرشها وتنويرها وان يجعل لطرابلس كتاب ايتام يجلس لهم الفقيه على العادة يقريهم القرآن ويعلمهم الكتابة وكل ما ختم القرآن العزيز ؛ او مات او اعرض عن الحضور للتعليم يرتب الناظر غيره من ايتام المسلمين ، وان يقرر لمعلم فى شهر مبلغ ثلاثين درهم يصرف اليه وان يصرف الى كل واحد من الايتام كل يوم ربع درهم ويكسى كل منهم كسوة كاملة حسبما رآه الناظر من قميص وقبع ولباس وجبة ومتاع ومال هذا الوقف عند انقطاع سبله وتعدية جهاته الى الفقراء والمساكين من المسلمين والبدأة من ريع ذلك بعمارته ،وشرطت اليصرف لنفسها ولها ان تثبت وتوكل فيه وتسنده الى من شائت ثم من بعدها يكون النظر لمعتقها مولانا ملك الامراء المشار اليه اعلاه اعز الله انصاره ثم الارشد فالارشد من اولاده منها ، ثم الى من شرطته فى كتاب وقفها المؤرخ فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وتولى عمارة هذا المكان المبارك جميعه الفقير الى الله تعالى الامير جمال الدين يوسف بن المرحوم العزى غزان الشيفى اثابه الله تعالى بالاجر العالى اعلاه الله تعالى وكان الفراغ من ذلك فى سنة خمس وسبعين وسبعماية »

ان ارغون خاتون صاحبة هذا الوقف التى ذكر اسمها فى الوقفية هى معتقة عز الدين ايدمير الاوتوكى الناصرى الاشرفى والى طرابلس ، وزوجته . وبنيت هذه المدرسة والتربة بهمتها. وقد بحث ابوالمحاسن وابن حجار ، والعسقلانى ، والمقريزى من المؤرخين فى كتبهم عن ايدمير بحثاً شافيا .

وعز الدين هذا كان من مماليك (اونوك) ابن السلطان محمد الناصر قلاوون. ثم دخل فى الجنود الخاصة وعلت مرتبته حتى اصبح من المقربين. وقد اجلى الى سورية عد ان قتل السلطان ولم يلبث الا قليلاً حتى صار (مقدم الف) فى القاهرة وبعد برهة وجيزة ،نصب وال على طرابلس . وبقى فيها الى سنة (٧٧٣) ثم بارحها ورجع اليها فى سنة (٧٧٤). وتوفى وهو مستشار الجيش (اتابك) سنة (٧٧٦) .

لا نعلم كيف استطاع الظالمون عباد الطمع اختلاس هذه المستغلات الوقفية ، وهضموا حقوق هذه المؤسسة الخيرية كما فعلوا بوقف السكركية ؛ واهووا بها من شامخ مجدها الى حضيض المهانة والذل .

«... واما اهالي الاقضية من سائر الامم الشرقية من الحسن . لانها على اغرب العجاب من المهارة في سرقة الاملاك الوقفية والاختلاسات . لسمع بمن يأخذ بيد الحكومات في الغرب من المتمولين ويمدها بالاموال الطائلة لتنهض بامر معارف البلاد ، ويشيد المؤسسات الكافلة لهذه المهمة في قاعدة الملك ، وغيرها . فنحبذ على هذه الاعمال الشريفة ونتشدق بامتداحها ونظهرها مظهر عمل البر والاحسان ، ولكن لا تاخذنا الاريحية لتاسيس المستشفيات التي تدرأ عنا الامراض السارية ، ولا لتشييد المدارس التي تقوم اعوجاج اخلاقنا . وليتنا نقف عند هذا الحد ؛ بل نجد اكثر ما شيده الاسلاف من الاوقاف الخيرية في اربع اقطار البلاد الاسلامية اصبح اليوم منطمس المعالم ، دارس الاثار ، التهمته افواه اولئك المتغلبين الظالمين الذين ختم الله على قلوبهم فلم يعلموا انهم يأكلون ناراً تصهر ما في بطونهم . ويدعي المدعون انه موجود في طرابلس من الاوقاف اكثر من «٣٦٠» مؤسسة معدة لاغاثة الفقراء واليتامى والمساكين ، والايامى من النساء والتخفيف عنهم والقيام بجميع حاجاتهم الضرورية . وقد علمنا من دائرة الاوقاف في طرابلس ان قيمة الاوقاف المضبوطة فيها اليوم تناهز سبعة ملايين غرشاً ، ودخلها السنوي (٢٢) الف غرش ولا يمكن ان نبين — ولو على وجه الاجمال — شيئاً عن الاوقاف غير المضبوطة . ولكن من المحقق ان هاتيك الاوقاف التي لم تزل تحت رحمة متوليها لا تقل عن عشرة امثال الاوقاف المضبوطة . فاين تذهب هذه الغلال يا ترى ؟

ومن العبث ان نرتاد في طرابلس ما ينطبق على حقيقة المؤسسات الخيرية . ومن هذه الغلال التي تقدر بثلاثة ملايين من القروش لا يصرف ولو واحد من مائة فيما وضع له . ونرى ان هذه الشائبة الاجتماعية والاخلاقية الموجودة في جميع البلاد الاسلامية ؛ وصلت من الافراط الى درجة جديرة بان يهتم لها اولياء الامور وينظروا فيها ، بل كان من الواجب التوسل بالتدابير المؤثرة لقلب هاتيك الاوقاف الى ما تقتضيه المدنية من المؤسسات الخيرية او العلمية .

سبيل التينه في طرابلس — يوجد هذا السبيل في موقع مرتفع على الضفة اليسرى من نهر ابو علي وتجاهه الجامع المعلق . وقد كتبت هذه الخطوط في اعلاه :

«البسملة . . . انشأ هذا السبيل الفقير الى الله تعالى محمد بن المرحوم زين الدين مباركشاه العلاي في مستهل سنة ست عشرة وثمنمائة» .

منقوش في اربعة اطراف الكتابة على هذا السبيل الذي نشأه (محمد بن زين الدين مباركشاه العلاي) هذه الاشارة التي تشبه الكتابة الهيروغليفية : ونرى اكثر ملوك المماليك يستعملونها في شعارهم .

[illegible] بانه في ترتيب [illegible] الكبير يوصفه في كتابه [illegible]
[illegible] وحتى على مثل هذه [illegible] التي [illegible] في
الجامع الكبير في الشام ، وعلى سبيل الدحيشة الذى بناه السلطان الناصر فرج في [illegible]
وآرتين باشا ينسبها الى السلطان الناصر ، وسبيل التينة في طرابلس لا يمكن ان يكون من آثار السلطان الناصر الذى كانت سلطنته من سنة (٨٠١) الى (٨١٥ هـ) ، لانه بنى سنة (٨١٦ هـ) .

(١٤) — كتابة المدرسة الرفاعية في طرابلس (٨٧٠ هـ) — حفر السلطان خشقدم هذه الكتابة على الجدار الشمالى لهذه المدرسة الكائنة على الجانب الايسر من نهر ابو على قريباً من الطريق الكبير الذى يصل البلدة بالمينا :

« الحمد لله ، لما كان بتاريخ مستهل ربيع الآخرة سنة سبعين وثمانماية ، ورد المرسوم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى ابوسعيد خشقدم نصره الله تعالى وخلد ملك مالكها وادام اقتداره الى المقر الاشرف الناصرى محمد بن مبارك مولانا ملك الامراء كافل المملكة الطرابلسية المحروسة اعز الله انصاره من مضمونه ان لا يؤخذ من التجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهى على الالف عشرة دراهم لا غير من غير زيادة على ذلك وان لا يتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة ولا يؤخذ شىء ممن باع سلعته بغير دلال ، ومنع من يعارض ابناء السبيل وابطال ما جدد على ذلك وهى الخمسة الزائدة على كل الف حسب ما شهد به المحضر الشرعى وان تسطر هذه المثوبة رفعاً للظلامة فى الصحائف الشريفة اقتناءً بقوله تعالى « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم » ورسم ان يستمروا ابناء السبيل فى السمسرة والترجمة . وملعون ابن ملعون من يغيره او يبدله او يسعى فى ابطاله او اعادته او بشا عنه كان عليه لعنة الله و الملائكة والناس اجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم »

ان الملك الظاهر خشقدم من ملوك المماليك حكم من سنة (٨٦٥) الى (٨٧٢ هـ) وكان والى طرابلس يومئذٍ من العرب لا من الترك خلافاً للعادة . وهذا المنشور يبحث عن التجار والسماسرة ، وهاتان المهنتان كانتا فى الشرق الادنى منذ امد بعيد . وكان التجار الافرنج الذين يأتون من اوروبا . ومن سورية فى زمن اهل الصليب يحتاجون الى ترجمان لعدم وقوفهم على اللغة العربية .

(١٥) — كتابة السلطان قايتباى فى جامع آرغون شاه (٨٨٠ هـ) . — حفر هذه الكتابة السلطان قايتباى فوق مدخل هذا الجامع الكائن على الضفة اليسرى من نهر ابو على بين جامع السكركية ، وباب جامع طايلان :

« الحمد لله . لما كان بتاريخ الخامس عشر جمادى الآخرة سنة ثمانين وثمانمائة ورد مرسوم شريف مربع جيتكي من الابواب الشريفة السلطان الملك الاشرف قايتباى خلد الله ملكه ، بان جهات وقف المرحوم ارغون شاه بالسق بطرابلس المحروسة لا تؤجر لا لمتجوه ولا ذى شوكة واجهار الندى لزراع الاراضى بالحماية والرعاية ومنع من يعارضهم حسب ما شرط به الواقف فى كتابه وتسليم الاراضى للسيد الحسيب النسيب السيد نور الدين محمود الحسيني الادهمى الناظر والشيخ بها بالزاوية المذكورة فاشار به المقر الاشرف العالى المولوى السيفى ازدمير الاشرفى مولانا ملك الامراء كافل المملكة الطرابلسية اعز الله انصاره ورسم بنقش ذلك على باب المدرسة حسب ما شرط به الواقف فى كتابه وملعون من يغير ذلك ويسعى فى تجديده . »

يظهر من الكتابة انها خطت فى زمن السلطان قايتباى (٨٧٢—٩٠١ هـ) وفى اثان ولاية ازدمير الاشرفى الذى ترجمنا عنه فى الكتابة الخامسة . وهذه الكتابة حفرها جيد وخطها واضح ومقرؤ .

(١٦) — مرسوم السلطان قايتباى فى جامع الدباغين (٨٨٢ هـ) . — ان هذا الجامع هو على الجانب الايسر من نهر ابو على قريب من الجسر الجديد ، فى جوار جامع الطوبا . ومحفورة هذه الكتابة على حجرين فوق الباب :

الحمد لله . لما كان بتاريخ ثالث وعشرين جمادى الآخرة من شهور سنة اثنين وثمانين وثمانمائة برز المرسوم المولوى السلطانى الملكى الاشرفى ابو النصر قايتباى خلد الله ملكه الشريف عند حلول ركابه بطرابلس المحروسة بابطال ما على جماعة الدباغين بطرابلس من المكس المقرر لديوان المواقف الشريفة وان لا يكلفوا الى الدرهم الفرد وان ينقش ذلك فى بلاطة على المسلخ بطرابلس لتسطر هذه المثوبة فى الصحائف الشريفة وملعون بن ملعون من يجدد ذلك او يغيره » .

وليس اليوم من اثر للمدبغة التى يجب ان تكون على الضفة اليسرى من نهر ابو على . تحول السلطان قايتباى سنة (٨٨٢ هـ — ١٤٧٧ م) فى سورية لاحل المشارفة على الاعمال ، والغى المكوس التى كانت تؤخذ من الدباغين باسم الخزينة الخاصة :

وفى محل آخر من هذا الجامع ، يوجد هذه الكتابة :

(١٧) — « جدد هذا المسجد المبارك (. . .) بن يوسف شيخ الدباغين بطرابلس المحروسة بتاريخ عشر شوال سنة ٩١٣ واوقف عليه بعد وفاته دكان وولد [*] ومخزن . . . »

(*) هكذا فى الاصل

اصلح هذا الجامع . . . ابن يوسف [illegible] في ايام الملك الاشرف قانصوه الغوري الذي قهره السلطان سليم ياوز العثماني وقضى على سلطنته وبلاده (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ) [illegible]
جامع المعلقة [illegible] هذا الجامع [illegible] وهو [illegible] عن طرابلس [illegible] والكتابة تدل على انه انشئ في زمن العثمانيين :

(١٨) — « البسملة . . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة ، وآتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . انشأ هذا الجامع المبارك العبد الفقير محمود بن المرحوم لطفي الزعيم رحمه الله وكان تمام النشائه في شهر ربيع الاول من شهور سنة سبع وستين وتسعماية . »

ومحمود بن لطفي الزعيم هذا ، كان في زمن السلطان سليمان القانوني العثماني (٩٢٦— ٩٧٤ هـ) . ورغماً عن هذا فان الجامع ، وما حفر عليه من الكتابة هو على الطراز السابق في دور المماليك .

جامع الطويا — هو قريب من جامع الدباغين ، وقد شيد سنة (١٠٢١) هجرية ، وهذه كتابته :

(١٩) — « الحمد لله الذي من على عبده من جريان فيض فضله ويسر هذا الخير على يده وهداه الى العمل بقوله سبحانه وتعالى ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله ، محل وجدد هذا الجامع الشريف لوجه الله الكريم بعد هدم جداره ومنبره ومحرابه ، وسبيل مائه من الفيضة الكبرى في سادس عشر ذي القعدة سنة عشرين بعد الالف ، الواثق بالملك البارى احمد بن محمد الشرابداري الانصاري كتخداى حضره حسين باشا بن يوسف باشا السيفي امير الامراء بطرابلس ايد الله تعالى الدولة والسعادة عليهم وعفا عنهم وعن المسلمين اجمعين آمين ، وتم بنائه في شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين والف ختمت بالخير » .

يتميز هذا الجامع العثماني عن المؤسسات الدينية التي كانت في دور المماليك بوضوح كتابته وسهولة قراءتها . والفيضة التي ذكرت في الكتابة كانت في زمن السلطان احمد الاول (١٠١٢ —١٠٢٦) ، وقد نسفت كثيراً من الابنية ، وهدمت جدار جامع الطوبا ومنبره ومحرابه وسبيله ثم اصلحه احمد بن محمد شربتدار عمدة حسين باشا بن يوسف باشا والى طرابلس وهذا كان معروفاً بالطمع والحرص ، والانهماك في الحرب والجدال . وقد افنى عمره وهو في جدال مع الحكومة ، ولاسيما مع فخر الدين امير الدروز المعروف .

مدرسة خيرية حسن — قريبة من جامع السكركية والخاتونية . ولا يوجد تاريخ في هذه الكتابة .

(٢٠) — « وقفت جهة المرحوم قطلو المصبنه والمعصرة ، والربع فوق المعصرة وحمس

قراريط [illegible] بطاحون الداهية [illegible] والمستدعوية [illegible] كفر [illegible] علاء طرابلس [illegible]
وثلاث قراريط ونصف [illegible] وثلث [illegible] بمصلحة [illegible] زيتون [illegible]
والقاعة والبحرة ، والطبقة جوار المدرسة ونصف طاحون الجديدة بمردات [illegible]
في بطرام وطبقة [illegible] الافرنج » ..

لم يذكر اسم صاحبة الوقف في هذه الكتابة ولذلك لم تمكن الترجمة عنها :: ويظهر من هذه الكتابة ان الوقف غني وافر الغلة . وايضاً لم تنطق الوقفية عن غاية هذا الوقف . ولكن لا بد ان يكون مخصصاً الى مصاريف المدرسة ورواتب معلميها .

جامع البرطاسي — هو في جانب الجسر العتيق الكائن على نهر ابو علي . وهذا هي كتابته التي يدل اسلوبها على انتمائها الى دور المملوك البحرية ، وان خلت عن التاريخ :

(٢١) — « البسملة . . . اوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسي عفا الله عنه على المشتغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشافعي واقامة الجمع والصلواة المكتوبة وشرط ان لا يرسم فيها على احد ولا يسكنه من لا له الحق في ذلك » .

جامع عكار العتيقة — كان يوجد في قضاء عكار التابع للواء طرابلس حصن مبني في موقع هو على جانب عظيم من المكانة والجدارة الموقعية بالنظر للدفع عن البلاد ، وذلك لسبب اطلاله على طريق طرابلس — حمص — بعلبك .

وقد اخذ هذا الحصن المسمى بحصن (فرسان سن جان) دوراً مهماً اثناء حروب الصليبين . وبازائه خرابة جامع عكار العتيقة ، حفر على مدخله السلطان قلاوون هذه الكتابه :

(٢٢) — « البسملة . . . جدد هذا الجامع المبارك في ايام مولانا السلطان العالم العادل الغازي المجاهد المؤيد المظفر المنصور سيف الدنيا والدين قلاون الصالحي قسيم امير المؤمنين خلد الله ملكه بمرسوم المقر العالي المولوي الاميري الكبيري السيفي اعز الله نصره بلبان السلاح دار ، كافل المماليك الشريفه باشارة الجناب العالي الاميري الكبيري العالي ادام الله عزه سنجار الجماق دار نائب السلطنة المعظمه بحصن عكار المحروس وذلك في شهر ذي الحجة سنه ست وثمانين وستماية بولاية العبد الفقير بكجري » .

بني هذا الجامع في ايام السلطان قلاوون بامر والي المماليك المفتوحة سيف الدين بلبان السلاحدار في شهر ذي الحجة سنة (٦٨٦) . وقد بناه من يدعى بكجري برعاية الامير الكبير سنجار الجمقدار يقول ابن المحاسن في كتابه المنهل الصافي اثناء البحث عن « بلبان بن عبدالله الطباخي المنصوري الامير سيف الدين » ، ان مولاه السلطان قلاوون ولاه ولاية طرابلس اولاً ، ثم ولاية حلب ، ثم دعي سنة (٦٩١) الى القاهرة حيث احل

فى منصب سام . وبعد تسع سنين نصب قائداً على احد الفيالق ، وسيق الى سوريا لتوقيف على الطريق فى عملة اوغزة ، وقد حاز على الشهرة الرنانة بين الامراء بشجاعته وبسالته وكرمه وتقواه .

وجقدار تتركب من كلمة (جق) التركية ومن اداة (دار) الفارسية ومعناها « ذو المقيسة » ويشترط فيمن ينال هذه الرتبة ان يكون مهندماً ذا هيبة . وكان الجمقدار يقف فى الايام الرسمية على يمين السلطان وفى يده مقمعة من ذهب . وسنجر الجمقدار هذا هو من رجالى محمد الناصر ، واسم (بكجرى) مركب من كلمة (بك) ومعناها الرئيس ومن (جرى) ومعناه العسكر . فيكون معنى التركيب رئيس العسكر .

كتابات حصن الأكراد . — ان هذه القلعة مبنية فوق الجبال التى تفصل وادى العاصى عن ايالة طرابلس . فى موقع يهدد الطريق الواصلة حماوحمص بطرابلس وطرطوس وكانت فى زمن الصليبيين من اهم القلاع الموجودة فى حوزة فرسان سن جان . وقد استولى عليها سنة «٥٠٣ هـ ١١١٠م » تنكريد *Tancrede* امير انطاكية بعد ان غلب مسلمى حمص عليها . وبقيت هذه القلعة فى ايديهم الى سنة « ٦٦٩ هـ — ١٢٧١ م » وذلك باستماتة فرسان سن جان فى الدفاع عنها . وفى هذا التاريخ هاجمها السلطان بيبرس من الملوك البحرية ، وحاصرها مقدار سبعة اسابيع ثم سخرها عنوة ، وطرد الصليبيين عنها واصلح شعثها ورأب صدوعها . وبرهاننا على صحة هذا الادعاء ، هى هذه الكتابة المنقوشة على مدخلها :

(٢٣) « البسملة . . . « صورة اسد » [*] امر بتجديد هذا الحصن المبارك فى دولة مولانا السلطان الملك الظاهر العالم « صورة اسد » العادل المجاهد المرابط المؤيد ، المظفر المنصور ركن الدنيا والدين ابو الفتح بيبرس قسيم امير المؤمنين وذلك بتاريخ نهار يوم الثلاثاء خامس وعشرين من شعبان سنة « ٦٦٩ » »

والكتابة الثانية محفورة فوق البرج الاسطوانى الذى بنى باسم السلطان بيبرس وولى عهده بركهخان فى الزاوية الغربية من السور الخارجى وهى :

(٢٤) — « البسملة » . . . « صورة اسد » امر بتجديد هذا الحصن المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ابو الفتح بيبرس قسيم امير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين وذلك بتاريخ نهار الثلاثا خامس وعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ هـ « صورة اسد ».

---

*) ان كل الكتابات التى كتبت فى ايام السلطان بيبرس يصور عليها صورة الاسد التى كانت شعاراً له .

ومكتوب باسم السلطان بيبرس ويليه صورة ايضاً على البرج الاسطواني الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للسور الخارجي هذه الكتابة :

(٢٥) — « صورة اسد » البسملة . . . امر بتجديد هذا الحصن المبارك في دولة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس اعز الله نصره وولي عهده السلطان الملك السعيد ناصر الدنيا والدين وذلك بتاريخ نهار الثلاثا خامس وعشرين من شعبان لسنة ٦٦٩ « صورة اسد » .

وهذه الكتابات الثلاث التي تنطق على ان قلعة حصن الاكراد اصلحت في زمن السلطان بيبرس حفرت كما جاء فيها سنة ٦٦٩ يوم الثلاثا .

كتابة السلطان قلاوون — هذه الكتابة خطت على البرج المربع الكائن بين جداري الحصن من الجهة الجنوبية :

(٢٦) — « البسملة . . . جدد هذا البرج السعيد في ايام مولانا السلطان الاعظم السيد العالم العادل المؤيد المجاهد الغازي المرابط المثاغر المظفر الملك المنصور سيف الدولة والدين قلاوون الصالحي قسيم امير المؤمنين خلد الله ايامه ونصر اعوانه وكانت عمارته في سنة ٦٨٤ » (١٢٨٥ م) .

اشتدت ثورة الصليبيين سنة ١٢٨٤ . وبلغت الى درجة جعلت حصن الأكراد تحت خطرها وتهديدها . ثم عمدت امارة طرابلس ، وجماعة « سن جان » واشهروا الحرب على السلطان قلاوون رغماً عن الهدنة التي عقدت بينهم في السنة التي تسلطن فيها قلاوون (١٢٨٠ م) وعليه اراد السلطان ان ينزع من ايديهم حصن مرقب الذي هو اكبر معقل لهم مهما كلفه الامر . فحشد الجنود وولى امر قيادتها الى (بالابان الطباخ) (*) . ثم تفقد صدوع القلعة قبل ارسال الجيش فاصلحها وحفر عليها هذه الكتابة .

وكتب محمد بن قلاوون هذه الكتابة في الزاوية الجنوبية الشرقية من السور الخارجي على ارتفاع عشرة امتار :

(٢٧) — « جددت هذه البدنة المباركة في ايام مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الشهيد المنصور قلاون الصالحي قسيم امير المؤمنين وذلك في ايام الجناب العالي الاميري الكبيري البدري بيليك السديدي نائب حصن الأكراد المحروس في شهور سنة ٧٠١ »

ويوجد في حصن الاكراد من الآثار الاسلامية ما عدا هذه تربة بدر الدين البيداري من مماليك بالابان الطباخ ، وكنيسة مهدومة حولها بيبرس الى جامع ، وتوجد انقاض

(*) راجع عدد « ٢١ » من الكتابات

[illegible] بكتمر بن عبد الله الاشرفي نائب السلطنة في حصن الاكراد وخصص لهما الدخل الوافر سنة ٧١٩ ه. والحقيقة لبكتمر ما عدا هؤلاء منشآت [illegible] اوقافاً كثيرة، وهذه الكتابة الموجودة في احد البيوت القديمة في حصن الاكراد [illegible] على وجود ذلك المستشفى:

(٢٨٥) «البسملة» .. «انشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى بكتمر بن عبد الله الاشرفي نائب السلطنة المعظمة بحصن الاكراد اثابه الله تعالى واوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين بذلك في شهور سنة تسع عشرة وسبعماية».

وقد عدد وقف هذه المؤسسة الخيرية في كتابة منقوشة في كوخ يسكنه اليوم شخص يدعى محمد عثماني.



المباحث المحلية

الباحث المحلية

—١—

ربوع لبنان

١ — من بيروت الى البترون

سفر طويل ، فى حرارة الصيف ...

لا مناص من هذا ، فانه واجبنا المحتم فى هذه السنة : وقد كنا على بصيرة مما تكبدناه العام الغابر من المشقة المبرحة اثناء التجوال فى الانحاء الجنوبية من الولاية ، ولا تزال قلوبنا واجفة من ذكراها لا من الرجوع اليها . ولكن لا ندرى لماذا هششنا لاقتحام هذه الشقة واقدمنا على هذا المأزق الصعب ؛ لما قيل لنا :

— هلم الى القسم الشمالى من الولاية فادرسوه ، ونقبوا عنه !

من اعظم واجباتنا تصفح صحائف هذا الوطن العزيز ، وتعقب سطوره الكريمة قراءة ودرساً ؛ وان لنا لسعادة برشف هذا الرحيق الطيب من تلك الاكواب الفاخرة. فذلك الواجب الحق ، وهذه السعادة العظمى، جمات فى عزائمنا من القدرة ما تلاشت لعظمتها تلك العقبات ، وخرت امامها تلك الجبال الراسيات .

عامنا ان قد آن ان نرمق آفاق بيروت الهادئة بنظرة الوداع ، ونقطع ربوع لبنان الى الاصقاع الشمالية . فتناولنا كتاب « دليل سورية وفلسطين » لبدكر الذى لا يزال يتداول فى الايدى ، وفتحناه :

— ستون ... من بيروت الى البترون؛ وثلاثون ... من البترون الى طرابلس !

اذاً ، علينا لاول وهلة قطع مسافة تسعين كيلومتراً . ولو لم يكن الحجر على طريق البحر ، لتسنت لنا باخرة توصلنا الى وجهتنا بثلاث ساعات . ولكن اولى لنا من ان ننغمس فى لجة البحر ، ونرمق جمال ملاك لبنان على شاسع البعد ؛ ان نعتنق تلك الآلهة البديعة التى ما زالت يعبدها كثير من الاقوام منذ زمن الفنيقيين.

الآن تدرج مركبتنا بضجاتها على الجسر الهرم فوق نهر بيروت الذى سماه القدماء (ماغوراس *Magoras*) ، الفاصل حدود بيروت عن لبنان من الجهة الشرقية ، ولا نكاد نحس لهذه الرحلة الخيرية بوطئة ما .

.. تزلزلت الشمس، وتعممت ذرى الفضاء فوق هامات تلك الربى الخضراء؛ ربى «برمانا» و«بعبدات»، كأنها عين من مذاب الذهب، واخذت تسجد بشعاعها الابريزى سطوح النهر والبحر عن شمالنا، واحراج الصنوبر التى التفت من البعد بدثار الابهام فى انحاء «رستم باشا» عن يميننا؛ وكان نسيم الصبح كالمروحة القدسية، ينفحنا بهبة بليلة، تحف الارواح بنكهة ملاك الجبل العاطرة.

كانت مركبتنا على شفا الدخول بين اجمات القصب فى الطريق، والتفتنا نتزود من بيروت بآخر نظرة، فتجلت وهى معكس للانوار الخافقة، كأنها صيغت من قوارير.

فكنا نقول، ودمعة انبعثت من اعماق عيوننا تتدحرج على صحيفتنا كأنها شرارة من نار:

— بيروت! ايتها العزيزة، هل لنا ان نرجع اليك...؟

ثم تغلغلت المركبة بين هاتيك الاجمات، وانطمس علينا ذلك المنظر النضير، فانقطعت مراسم الوداع لذاتها. ولم نلبث برهة، الا ودخلنا فى بحر من العجاج... ها نحن نمر على قرى لبنان، بل نمشى فى داخل بيوت لبنان. ما الطفها من قرى؟ روضة صغيرة، وبضع شجرات، ويسير من خضرة ثم البيوت المستطيلة المبنية بالاحجار، يفسح عن وسطها بقنطرة كبيرة، منضدة سطوحها بالقرمد الاحمر، او مطلية بالتراب، وكثيراً ما يكون الطابق الاسفل من هذه البيوت حانوتاً كبيراً، آخذاً نصيبه من النور؛ او مخزناً. ويكون البيت حينئذ متعدد الطوابق. اما البيوت التى هى عبارة عن طابق واحد، فلا بد ان يوجد فى جانبها سلم من الخشب ثخين الدرجات وربما وجد تحت ظلال الاشجار بضع بقرات، او شياه ثم الدجاج، والاقواب مبعثرون هنا وهناك.

ترون امام البيوت، غادات لبنان سفعت وجوههن الشمس، والعجائز والرجال كل له مشغلة يثابر عليها. فالبنات فى ايديهن المخرمات او قطعة من نسيج، والعجائز قبضة من صوف، والرجال فى ايديهم المرور او المعاول. وربما ترونهم وهم منتدون بأسمى المحيا. وان المحبة والوفاء والاخلاص والوقار لهى من الاوصاف الطبيعية لهؤلاء القوم لا تنفك عنهم. لا تملكون انفسكم ان تقولوا وانتم مارون بهم.

— يا للسعادة ما احبهم لبعضهم؟

جل ما ترون من المناظر، نظرة محشوة بالابهام والود من شاب، وصوتاً يتدفق سروراً من فتى؛ وسكوناً دون اكتراث من شيخ يعالج جمع قواه لينهض. وثم قهقهة الآنسات الرنانة... وهذا دائم ومطرد...

اذا وجد حانوت تحت البيوت، فيعرض المنظر اوصافاً اظهر وابرز. لان تلك الحوانيت مشهر الاضداد، او مجمع كل متاع. يجتمع فيها بصورة غريبة كل ما ليس له علاقة بغيره.

[illegible] معقوداً من علب كأنه اجراس النحب ، ثم مكنسة ، وهنالك سريع.ا تدليه قطعة من نسيج ، ثم الاحذية وبقربها دبطة الخروم معلقين جنباً لجنب . ولو امعنتم في داخل هذا [illegible] لوجدتم فيه الحبوب والحرير والاحجار والحديد ، والمشروبات والنمال ... والخضر والفواكه والخشب ، وكل شيء . . . . .

في اللبنانيين الى وكونهم الحجرية المبعثرة في انحاء الرياض ، والحقول انجذاب قوي وميل لا يرد . ولو تحادثتم مع ابسط الناس ممن يقطن الجبل لايلبث ان يطلعكم على سريرته ويقول :

لو تعلمون ما اشد ولوعنا في بنيان البيوت ، لا نبالي بصرف جميع ما في ايدينا لهذا الغرض . ولا نهتم للنقود كافيــة كانت او لم تكن . ولهذا ترون هنا نصف سلم ، وهنـاك بيتاً بلا سقف ، وبضع غرف غير مطلية . . . وعلى الأكثر اكواماً من الحجارة والتراب ، وغيرها من لوازم البنـاء . . . نهجر اوطاننا لنحصل على نفقة البنيـان ونرضى حتى بالذهاب الى اميركا لهذه الغاية ، فنسعى هناك جهد الطاقة . وتمضي السنين ثم نرجع ولدينا بضع مآت ، او الوف من الذهب . ونعلم ان من واجبنا اعمار بقعة من هذا الوطن العزيز ، فنعمد الى الارض ونجلي عنها الاحجار ، ونغرس البساتـين والكروم على الدكك والمصاطب ، ونبني البيوت . وهكذا الى ان تنضب الجيوب ، ونبذل كل ما في اليد. ويومئذٍ نستأنف الكرة الى اميركا بلاد الذهب ونتوخى ان نجلب لبلادنا الوفر والحيـاة والراحة . واولادنا ونساؤنا لا ينقطعون ههنا عن العمل . بل يكسبون اقواتهم بمساعيهم... لا نرى مساغاً للحفظ على النقود والثراء ، بل نرجح كومة من حجارة ، على جراب من ذهب ، ورقعة من ارض ، على كدس الفوائد .

ان هذه الاعترافات التي ينطق بها كل جبلي ، لا جرم هي عين الحقيقة . وها نحن الآن نسير على الطرق المعبدة في هذا الجبل ، ونرى بلا انقطاع تسلسل البيوت التي سدتها دنانير مهاجري اميركا على عرض الدروب ، ونسمع الاسماء الرنانة لتلك القرى التي تتألف من اجتماع بضع بيوت : مثل بوشريه . . . دوره . . . جديده . . .

وربما رأينا على قارعة الطريق صيدلية لوحدها ، او كنيسة صغيرة .

سرنا في المتصرفية مقدار نصف ساعة ، وقد كاد الطريق يتضح بسد.. تزحزح العجاج.. فكنا نرى عن شمالنا البحر كصحيفة الاطلس الزرقاء ، وعن يميننا جبال لبنان الخضراء التي تكل الطرف ، ويرجع عن اختراق شواهقها البصر خاسئاً ؛ وابناء السبيل الذين كانوا يقفون اثرنا ، ثم يتحولون عن سبيلنا الى انحاء متعاكسة . وكلهم يرمقنا بنظرة ملؤها الاستكناه والاستفسار . يقصدون بيروت وعلى كواهلهم صناديق البقول ، او قراطيل الاثمار ، وكنا ننظر اليهم نظر الحيرة والعجب . ثم ما لبث رفيقي ان انهى اطراقه الذي كان عليه منذ مدة ، وقال ؛ كأنه هب من سبات :

. ليس لهؤلاء الملة الكبرى حتى صحيفة بعد وثلبه . ولو لم يكن هؤلاء الجبليون . . .
. وعليه التفتيش بيوت من غير دورة فرأيتها تبسط حضن البحر كلما الجبال ، يكاد وميضها يأخذ بالابصار ويموجها لبنان من جهاتها الثلاث . . ثم سمعت رفيقي يتكلم بصوت وجعى نحوه . فكان يقول :

— لسرعان ما استحالت ربوع لبنان ! . . .

نعم ان هاتيك الربوع قد استحالت بطرقها ، وبيوتها وسكانها ، وحتى بإصفر ورقاتها . ما كان انظم هاتيك الطرق ، وانظف تلك البيوت واهناها ؟ اين فتيان لبنان ، بلابل هذه الربوع ؟ واين كواعبه واترابه ، بل ازهار ربيعه . ام اين اشياخه ذوو الوجوه الطلق والمحيا الباسم ؟ ام اين كان شبان هذه الديار الذين هم نموذج القدرة والسعادة بحمرة وجوههم ، وقوة اجسامهم ؟ . . . لا اثر لكل ذلك ؟

لم نزل نتحرى ما كنا نعهد في لبنان من الحسن الطبيعي والصناعي ، وتلك الحياة التي كانت تطفح ابتهاجاً وسروراً .

هذه مركبتنا تغور وتنجد في حفر الطريق الذي بعد عهده عن التفقد والاصلاح ، وتخترق بنا بحر العجاج الكثيف . وكنا نمعن النظر في ما حولنا من البيوت . فنرى اكثرها موصد الابواب والنوافذ . ولا جرم انه قد اناخ عليها صرصر التجريب ، فنخر ابوابها وجدرانها . واحالها اوكاراً للبوم بعد ما كانت كنساً للظبا . واصبح اولاد سود الوجوه تحسبهم قديداً من النحول ، ممددين على عرض الطريق ، لا حراك بهم ؟ وبناتها تلك الملائك اللطيفة ، يقفن على قارعة الطريق حفاة ، باطمارهن الرثة ، وشعورهن المبددة ، ووجوههن التي غبرتها الذلة والمهانة ، ويمددن ايديهن الى ابناء السبيل ويصرخن بصوت خافت :

— يا للجوع ؟ بربكم ... كسرةً من خبز...

اما الشيوخ فقد وصلوا ديار البقاء منذ امد بعيد . ان القذارة والفتور والمجاعة والفاقة نمت على تلك القرى التي كانت موطن السعادة والرغد وجعلتها عقيماً لا يبقى ولا يذر ، ديست الاشجار واقفرت الحقول وكلحت صحيفتها ، وغارت تلك المياه الفضية عن مجاري الطواحين ، وجف ري الشفاه ، وانطفى سراج الالحاظ واخذ كل شيء يركض الى قصارى بلائه .

وكنت اقول لنفسي :

ماذا على الجبليين لو كانوا حازمين ومقتصدين ؟ ما اشد البلاء بعد بذل الوجد على تشييد الابنية ونضوب الوفر ؟ يا له من راى قائل ! كيف لا يلامون في التسرع بافناء ثمرة سعيهم التي نقدوها بحياتهم ، وبكدهم الاحاها في اميركا امر العمر ؟ كيف لا يلامون على فقد الاصابة بلفناء امانيهم السرابية في اميركا واتكالهم عليها ورضائهم بذميم العيش ، واعتناق البطالة والكسل ، كيف لا يلامون على خلودهم في الجهالة المظلمة ، ثم اصرار الحياة على

خبط [illegible] يتطلب العمل ، فلا يعرفون ان [illegible] يحتاج للكدح [illegible] مثمر ، لا تسعد الا الايدي العاملة التي تجعل لبنان [illegible] ام يحسب اللبنانيون الناشطون عن كل قيد ومعرفة ، البعيدون عن الحزم والتبصر ان ميزان الذهب لا يزال [illegible] بينهم وبين امريكا ؟

ها هي « الحرب » ؛ تلك الطامة الكبرى ، ما لبثت ان مزقت سراب امانيهم المذهبة . وها هي اطفالهم ونساؤهم وكهولهم اصبحوا يتامى ، ايامى لا كافل لهم رازحين تحت اعباء الرزايا .

ما عادت تعدهم امواج بحر الابيض بالسعادة ، وامسكت عن ايصال الاخبار والبشائر ، ولا قبضة من ذهب ، حتى ولا طيف سلام يقر العيون من اولئك الآباء والاولاد ، او الاخوة والاخوات . وعجز لبنان بحجارته وصخوره عن تأمين حياة ابنائه ، فاخذ الدم الفياض الذي اعدته الايام السعيدة يتدرج بالجفاف قطرة قطرة .

كنا نقطع تلك المسافة وقلوبنا تمض تجاه الايدي الممدودة من اولئك الاشخاص الذين اكل الجوع لحومهم وشرب دماءهم ، ونتحرى على اقل وسيلة تمكننا من الفرار من امام هذا المنظر الفجيع .

اخذت اشغل نفسي بتدقيق ما على طريقنا من العوارض الطبيعية : فها نحن نجتاز جدولاً صغيراً [نهر الموت] ، وهذا جدول آخر [عين برشلو] . وتراءت عن يميننا شواهق «ديك المهدي» بعد جبال « برمانا » .

ما لبثت شمس حزيران ، المحرقة الا وتسلقت الافق ، واخذت تسلق بشعاعها الذرى ، ما كان على حفاف الطريق من شجر الليمون .

اجتزنا بيوت « جل الديب » ووصلنا الى موقف (انطلياس) الكائن على السكة الحديدية بين بيروت والمعاملتين وهنا رأينا شيئاً من آثار الحياة .

ومن هنالك اطردت المنازل ، فكان البحر عن يسارنا والجبال البعيدة عن يميننا وبين ايدينا الطريق الفاسد بغباره ، ثم الجداول الصغيرة ، وسلسلة مقطعة من كروم الاشجار .

ان هذا الاطراد في المشهودات اهاب بذكرى الماضي ، فبعثها من مرقدها وتحركت في فكرتي كانها تطلب ان تحيا . ما تراءت ادغال موقع (ضبيه) من بعيد الا ونفخت في هاتيك الذكرى روح الحياة ، اذ كنت اعهد :

ان هذه الربوع وهذا الطرق ، ولاسيما موقع (ضبيه *Debayé*) كان من انعش مقاصف بيروت والطفها . مآت من المركبات كانت تندفع الى هذا الساحل الجاذب في كل يوم ، والوف من المترفين كانت تنفض على هذه الآفاق من سرورها ، وتملئ عباب جوها

[illegible] . اما اليوم [illegible] [illegible] وها هو يتدرج بالانطلاقة [illegible]
[illegible] ولا [illegible] [illegible]

قربنا من الضبيه فتراءى لنا خلال الاشجار العظيمة معمل شركة الماء المسماة
(*Beyrouth water works Company Limited*) ، التي تسوق الماء العذب الى مدينة بيروت في انابيب من حديد . ثم لم نلبث ان اجتزنا شلالات الضبيه التي لا تزال تسحر ارواح البيروتيين بلطافتها . ومرت مشجرة الضبية ايضاً ثم اقفر سبيلنا فكانت الجبال الوعثة عن يميننا وعن شمالنا البحر والرمل، ثم سكة الحديد السوداء الممدة . وبعد ربع ساعة وصلنا الى (جبل مار يوسف البرج) العالي، وبعد عطفة صغيرة اتينا موقع (نهر الكلب) .

ان هذا المكان هو ابدع المواقع في لبنان . تصوروا واد يتغلغل في البعد حيث تطلع الشمس ويتلوى يمنةً وشمالاً ، محصوراً بين اطواد تنطح السحاب بشواهقها الخضراء ، يسيل فيه سيال كذاب النور حيث ينغمس في زرقة البحر ، ويتلاشى بهدو وسكينة ؛ وضعوا روضةً خضراء في حضن البحر بشلالاتها ، واشجارها ومروجها لتكون مصطافاً بديعاً . ثم ابعثوا من اعلى تلك الذرى نسيماً يمشط الغابات ويماشي الوادي على امتداده ، واجعلوا العواصف الطائشة تنبعث من كبد البحر حيث يلتقيان في تلك الجنة البديعة ، ويعتنقان نحراً لنحر .

هذا هو نهر الكلب . . . كان محشراً للبدايع الممتازة . وقبل بضع آلاف سنة عمد قوم من عباد الجمال الى هذه الدمنة الخضراء واقاموا فيها تمثالاً عظيماً . وكانت عواصف هذه البقعة تندفع في جوف ذلك الهيكل فتصيت مثل الذئب ، وعلى رواية مثل الكلب . ولكن (ليقوس *Lycos*) الذي سماه الاقدمون بنهر الذئب اوبنهر الكلب اصبح اليوم في معزل عن ذلك الصدى الذي انغمس في بحر التاريخ .

وقفت اسائل (ليقوس) عن ذكرى ماضيه فاتحف روحي بنكهة عنبرية ثم قال :

— كم من ذكرى ثمينة دفنت في هذا الوادي الذي ما زالت تعوي فيه الرياح الطائشة . وان صدى الاجيال الغابرة لا يزال يصرخ فوق هام تلك الذرى التي ترونها تخترق السحاب . اذا شئتم ان تروا آثار المصريين والاشوريين واليونانيين ، والرومانيين ، والصليبيين في هذا المدخر التاريخي ، فانظروا في ناصية جاري ، هذا الجبل الهرم . . .

حولنا النظر الى ذلك الجبل ، واخذنا نمعن في نقوشه :

ما ابلغها نقوشا من عبر تاريخية نطقت بذكرى الملوك كسيزوستريس او رامسه‌س الثاني وسالماناسار واسرحدون وامثالهم :

هذا نقش آشوري : ملك رافع يمينه . ويقربه منظر رأس فقط ، وهو الاثر الثاني

[illegible] ايضاً [illegible] الكتابات [illegible] ، ثم [illegible]
مصر [illegible] فرعون يقرب قرباناً لرا آلهة الشمس ، وعلى غلوة [illegible] كاركلي [illegible]
[illegible] ثم صحيفة ذكرى الحرب [illegible] ... الخ [*]

مشيت على الطريق الذي مهده (قاراقالا Caracalla) امبراطور الرومانيين بعد الميلاد بقرنين ، ومررت على تلك النقوش والكتابات التي يناهز عددها الاحدى عشر ، وكان دماغي يطأطأ تجاه هذه الخاطرات الخالدة تعظيماً واجلالاً لقدرها .وكأني اسمع التاريخ يهتف بهذه الأسماء السامية التي اختارتها حافظة الكون من مشهور الاقوام الخالية . وهذا جسر قديم ايضاً يحفظ بذكرى ايام السلطان سليم ياوز .

وقد سكرت فكرتي من تصفح تلك الآثار القديمة واصبحت تأبى ان تشتف ولو قطرة تاريخية فقط .

ثم سارت مركبتنا على الجسر الجديد الذي شيده السلطان السابق (عبد الحميد) وامعنت في الاسراع فكنا نرى على يميننا فوق قمة الجبل قرية (سوق مصبح Souk Misbeh) وبضعة بيوت بعدها وما كان اكثر من ساعة الا ومرت علينا جبال [دكان الصنوبر مذوق حريصا] وقرى « درعون » غستا » وموقف (قاسليق) وجبال (سوق ميكائيل Souk Mikail) من ورائها موقع (بكركه) الذي فيه البطريركية المارونية . . . ثم قرية (صربا Sarba)

وبعد برهة . اشرفنا على مينا « جونية » مصدر الحركة النصرانية في لبنان ومواردها وتراآى لنا تمثال « سيدة لبنان » فوق قمة الجبل .

لا جرم ان هذا التمثال الذي يمثل محيا العذراء ، هو رمز النصرانية في هذا الجبل . كانهم يريدون ان يقولوا بهذا الهيكل المطل على المرآة الزرقاء في جونيـة التي هي اصلح مدخل بحري في لبنان ؛ وعلى بيوتها الرخامية البيضاء التي تجملت بالطف الذوق الصناعي وعلى جميع لبنان وحتى على بيروت ايضاً :

— ان في لبنان روحاً مسيحية .

ونحن ايضاً قد الهانا الامعان في هذا الرمز النصراني ، فما كنا نشعر بمن يساور مركبتنا من مطاعين الجوع ، ولم نكد نسمع صراخهم الموجع .

- - - - - - -

[*] يقال ان الكتابة التي حفرت هناك تذكاراً لدخول الجنود الفرنساوية هذه الديار (١٨٦٠ — ١٨٦١) قد محيت بعد الحرب العام .

ثم ركبنا نتبع الساحل بعد ان بارحنا شوارع جونيه المنتظمة ، وبعد برهة وجيزة وصلنا موقع « المعاملتين » التي هي آخر محطة للسكة الساحلية . ورأينا على يميننا من بعيد قرية (شننعير) ، ثم على غلوة منها قرية (غدير) . ومن هناك كان على يسارنا ساحات الرمل ، يعقبها البحر ، ومن اليمين مررنا على جسر قديم روماني ، ثم صعدنا المرتفع وجزنا (رأس الرامية) الى وادي الرامية ، ثم وصلنا قريتها . وهناك قرية « وطأسبلان » على الساحل ، و « فرسيلان » على اعلى الجبل ، وبعد ان بارحنا « البرجه » او « طبرجه » التي كانت ملجأ لسفن الفينيقيين بعدة وصلنا الى وعثاء « بلاطة الغربه » وبعد منحدر قليل الى « مرصوفة » ثم الى قرية « بوار » الكائنة على الطريق ، ومن اليمين الى قرية « صفره » التي هي في ذيل الهضبة ، ثم الى مغارة « عين ماحوز » وبئرها ، وآخر الامر وصلنا الى موقع « نهر ابراهيم » .

* * *

هذا النهر هو الذي سماه الفينيقيون « آدونيس » . وكان لهم آله يتصورونه على هيئة شاب ويدعونه بهذا الاسم ايضاً . وبينما كان آدونيس يتجول في انحاء لبنان اعترضه آله حسود فقتله ، وقد كانت زوجته « عشتروت » تحبه محبة عظيمة ، وقامت تطلبه في الجبال . فرأته يتخبط في دمه ، فرمت بنفسها عليه واخذت بالبكاء والعويل ، ولم تلبث الآلهة بضعة شهور الا وردت روحه اليه . وقد كان من تقاليدهم ان يرتبوا في موسم الصيف من كل سنة احتفالاً يحيوا فيه ذكرى تلك الحادثة . لا سيما في اواخر ايام الخريف حينما تهطل الامطار على تلك الانحاء فتجرف التراب الاحمر وتلقيه في النهر حيث يخضب الماء بالحمرة ، او على زعم الفينيقيين بدم « آدونيس » . وهنالك يجددون المأتم ، ويثابرون على النحيب سبعة ايام ، وفي اليوم الثامن ينقلب العزاء سروراً فيحتفلون به ايضاً .
كنت امتع النظر بنهر « آدونيس » المسمى بنهر ابراهيم نسبة الى الامير ابراهيم احد امراء لبنان الذي بنى عليه الجسر ، واشاهد كيف يجري نافذاً لساحل البحر ، ثم ينعطف على ارض بيضاء حيث يقطعها ويمتزج في البحر . فلمع في فكري ذكرى الشاعر الانكليزي « ميلتون » عاشق القرون الخالية . يحكي ميلتون في مؤلفه « الجنة المفقودة *La Paradis perdu* » الذي هو احمل مؤلفاته عن غانيات سورية كيف كانوا يأتون الى ضفاف « آدونيس » في حلل ارجوانية ، ويصف بكل ما يملك من القدرة الشاعرية هذا المأتم ، وبكاء تلك الآنسات .
بارحنا تلك البقعة ولا يزال صدى ذلك الشاعر الاعمى يتموج في صماخي بجميع بدايعه .

* * *

مررنا بعد برهة بـ « مغارة المصمورية » وغادرناها عن يميننا ، ثم جاوزنا قرية « حالات »

[illegible] البوق » و « حروف القيدار » كوعن الشمال انقاض قلعة « برج حاج » ، ثم نهر « القيدار » وجسره ، ثم عن اليمين قرية « مستيتا » على الزبوة ، قريبا من « حروف » وبعد ان قطعنا عقبة وعرة ، رأينا عن اليمين سلسلة من القرى . ثم حرج الصنوبر ، وقرية « ارطبون » ووراءها قرية « بلاط » . وها نحن داخلون بين بيوت جبيل ذات القرميد الاحمر .

سمى التاريخ قصبة « جبيل *Djébeil* » باسما مختلفة . ويروى [*] ان هذه البلدة القديمة الفنيقية التي كان اسمها « افايا » ، يسميها العبرانيون « جبال — *Gébal* » ، واليونانيون « بيبلوس — *Byblos* » والصليبيون « جبله — *Giblet* » ثم عربت فكانت « جبيل » . ولأول نظرة الى هذه القصبة يعلم الانسان انها غنية بالآثار التاريخية بما فيها من البروج القديمة ، وغيرها من آثار الأدوار الاولى . ولا سيما « قلعة جبيل » التي هي من آثار الصليبيين ، فأنها موجودة بأكثر اقسامها في حجر البحر .

فارقنا جبيل ، وقطعنا واد صغير ، ثم « جسر الجبيج » ثم مرتقى قطعناه في ساعة . ومررنا من قرب عمشيت التي هي اغنى بلاد الجبل ، وسرنا بجانب كروم التين برهة ، ومن هنا اصبحت القرى منفصلة عن بعضها . وبعد نصف ساعة تراءت لنا قرية « حصرائل » و « ريحانه » من بعيد . وبعد مرورنا بجسر التروه وقرية « بعشته » ونهرها ، وجسره ، مرت اعيننا قرية « حلوه » و « برباره *Berbara* » ، وبالنهاية شاهدنا « البترون » من بعيد على رأس الشاطئ . وكان يلزمنا سير ساعة حتى نصل اليها .

وبما اننا كنا نتوقف لأجل الراحة في اكثر المواقع التي نمر عليها ، ما كدنا نصل لهذا المحل الا وكادت الشمس تغرب . والآن كانت شمس آفاق الفنيقيين المحرقة متأهبة للانغماس في مغربها ، وتنثر انوارها الذهبية على تلك الاصقاع وغدت اعشاب الطريق تصفر ، ثم شرعت تحمر ، ثم طبق ظلل العشى واخذ يتسرب الى منتهى الآفاق رويداً رويداً وبهذه البرهة كانت قريه « طحوم — *Pehoum* » و « جسر المدفون » و « نبع طحوم » تمر من امام انظارنا . ثم قطعنا قرية « فدعوس » كفرعبيتا — *Kafr Abitx* ومشجرة الزيتون التي هي على يميننا ، ووصلنا البترون — *Batroun* » وقد هدات عليها استار الظلمة .

٢ — من بترون الى طرابلس

مابجل لبنان على ارواحنا ببدايعه ، ولا بآثاره التاريخية ، في هذا اليوم الذي مر بحره وبجره ريثما وصلنا الى البترون . ولكن لم يزل صماخنا يطن بصدى اصوات النساء والاطفال الجبليين التي اخفتها الجوع ، وخنقتها الفاقة . ولا سيما ان تدحرج المركبة زلزل

قوّاتنا ، وجعلنا لانبغى حراكاً من الوقى .

اما نزلنا الذى يمثل بيتاً كبيراً من بيوت بيروت ، فكان يعدنا براحة ثمينة . ورغماً عن هذا فقد ازمعنا على ان نلبث هنيهة فى البهو المطل على بيوت البترون البيضاء التى عامت فى بحر من نور القمر ، وعزمنا على التمتع بهذه المناظر الشعرية ، ولكن لم تمهلنا ربة النزل العجوز ، بل جاءتنا واخذت تشكوا لنا ما ألم بها بصوت مرشح للانطفاء فأضرمت فى افئدتنا ناراً حامية . كانت تلك البائسة تكفكف دمعها وتقول :

— اناشدكم الله ، نبئونى ، متى تنتهى هذه الحرب الطاحنة ؟ ايجدر بأصابعى هذه التى كانت تلعب بمآت ، بل بالوف من الدنانير ، ان تبحث فى فضالات البيوت على قارعة الطريق . ام اكون مثل العود اليابس كهؤلاء الذين عرقتهم الرزايا ثم اسقط ممددة فى الشارع واودع الحياة ؟ كانت هذه البائسة تجهد للافصاح عن دائها ، وقبضتها مدفوعة الى الامام تشير بأصبعها اشارة اليأس الى ماوراء الآفاق ، كأنها تريد اميركا ، وتقول :

— اولادى هناك .... لو كانو لدى ...

اما نحن فكنا نستعيض عن جلاليل البترون ، بتهطال الدموع ، ثم اضطررنا للانسحاب الى غرفتنا وقلوبنا كادت تنفطر . ذهب اكثر من نصف الليل ، ولم نزل نسمع فى الخارج صوتاً يقول بلهجة جبلية :

— جيعان ، جيعان ....

وكان هذا النداء من صغار الفقراء يمزق احشاء ذلك الليل المقمر ، ويملأ بذلك الصدى الفجيع ، انحاء الآفاق .

*
* *

هببنا من النوم بعد مااغرقت الشمس بضيائها هاتيك البيوت الناصعة ، فى تلك البلدة الفنيقية التى سماها اليونانيون ببلدة « بوتريس — *Botrys* » . وما كان الطف منظر هذه البلدة القديمة التى يعزى تأسيسها الى « ايتوبعل » ملك صور وذلك قبل الميلاد بزهاء خمسة عشر قرناً .

كان نظرنا يزلق بين تلك البيوت البيضاء ، الباسمة ، ويتغلغل فى البعد الى ان يصل الى الشاطئ ، ثم يقف ويرمق ماهناك من الآثار القديمة . وفكرنا مازال باهتا بما رآه من آثار القرون الخالية .

ثم عدنا الى مركبتنا بعد ما جاملنا ربة النزل بما يسلى عن فؤادها شيئاً من الاكدار . وها نحن الآن نسير بين اشجار التوت ، واجمات القصب ، وبعد ربع ساعة مررنا بقرية « كبه — *Kobbé* » ومن ورائها قرية « مسيلحه *Mseilha* » على راس قمة الجبل . ثم واصلنا السير فى ارض مرملة قفراء واتبعنا شاطئ البحر ، وصرنا عن اليمين الى « برج

المتين ، وعن الشمال الى « حنوش » التي تتألف من بضعة بيوت. وهنا تتراءى لنا « رأس الشقعة » على بعد ، بكامل سموه وعلوه .

شرعنا الآن بقطع الاقواس القصيرة ، والمشي على السكة المحدودبة . وأخذنا نتسلق في جبل شاهق وعر : وكانت المركبة تسير بصعوبة في هذا الطريق ، ثم بعد نصف ساعة وصلنا الى سفح منحدر . وهذا الموقع هو « رأس الشقعة » .

لاريب في ان « رأس الشقعة » هو ارهب موقع في سورية على شاطئ البحر الابيض. وهذا الموقع عائل في الارهاب والادهاش الفضالة الجبلية الكائنة بين عكا وصور ، المسماة بـ « رأس الناقورة » [*]

تصوروا فوقكم شاهقاً يخترق السحاب ويكاد يهوي عليكم من علوه ، وتحتكم على عمق « ٣٠٠ » متراً خضماً رهيباً تضطرب وتقصف امواجه الهائلة ، وانتم تسيرون في نقب « طريق الجبل » كلسي مائل ، لايكاد يستوعب المركبة من ضيقه . « لا جرم ان مجرد تصور العثور هناك يبعث الدوار في الدماغ :

كنا برهة من الزمن تقابل العيوق وجها لوجه على ذلك المنبر المعلى الذي لازالت تنطحه الخافقات الطائشة . وهذه الفضالة الجبلية التي سماها الاقدمون ، وابن السمعاني المؤرخ بـ « وجه الحجر » وسماها الادريسي المؤرخ بـ « انف الحجر » من العظمة في درجة يصغر لديها الانسان الذي انطوى فيه العالم الاكبر . ولم يخطئ قدامى اليونانيين في تسميتهم له بـ « تثوبروسوبون *Cyoouprosopon* » اي « وجه الله » .

ها نحن الآن نطل على ساحة واسعة شحنت بأبهى البدائع تنتهي من الجنوب في بيروت ، ومن الشمال على زيال « رأس الناطور » ، « رأس المينه » . ونرسل الطرف يرتاد كل ناحية . هذا الموقع الذي ما زال يسحر مخيلتنا بلياليه النيرة ، وعشاياه المغندرة. فارقنا هذا المنبر السامي ونسيمه المعطر بنكهة الآس لا يزال يسكر الالباب ، وقد تراءى لنا على هام الجبل دير (سيدة حنوش) الماروني ، وفي جانبه دير « النورية » للروم الاورتودوكس .

دخلنا في بضعة انفاق ، ثم اتبعنا منحدراً يرمي الى ساحل البحر فقطعناه بنصف ساعة وكان امامنا قوس ساحلي يمتد الى موقع « انفه » . وكنا نمشي قريباً من ماء البحر لدرجة لم تكد مركبتنا تخطو الا على كسارة الامواج بين الرمال البيض .

وصلنا الى (الهري) وهي قرية للمسيحيين بعد ان اجتزنا محجرة من الزيتون على شاطئ البحر . ثم قطعنا جسر الهري ، فكانت على يميننا اشجار الزيتون والتوت وبعض اشجار

* راجع « ولاية بيروت — القسم الجنوبي » صحيفه ٢٨٢ .

الهياق » وما لبثنا ان وصلنا الى قرية « شكا Chakka » . وكان لهما منظر لطيف بقصبها الأصفر . ورأينا ان نمكث هناك هنيهة ريثما نستريح . لاننا لا نلبث بعد هذه السياحة اللطيفة ان ندخل في اوعر الطرق الجبلية ، لاسيما وان الطريق الساحلية بين (شكا) وطرابلس كانت فاسدة لا سبيل لسير المركبة فيها . ولذلك كنا مضطرين الى التحول عن طريق [انفه — زكرون — رأس الناطور — فالامون] الى طريق اطول منه بضعفين :

ومع هذا ما كدنا نلبث الا وغادرنا شكا وانعطفنا نحو الشرق ، واخذنا نتسلق الجبل، وكنا كلما اوغلنا في التسلق نزداد انشراحاً ونشاطاً بدلاً عما توقعناه من المشقة والالم . كنا نرتقي معارج الجبل ومنعطفاته المقوسة ونرى تحتنا في حضن البحر ، شكا . وقريباً منها انفه ، ونتمتع بتلك المناظر التي لا تتيسر رؤيتها الا لحائمات الجو . ووددنا ان لو طالت هذه المنعطفات زمناً مديداً:

امتد هذا المرتقى بعد خرابة « شكا العتيقة » اكثر من ساعة ونصف . وكانت الشمس فوق هاماتنا ترج على الافاق سهاماً من نار بشعاعها ، على ان النسيم العليل في ذلك الجبل العالي كان يخفف وطأتها ، ولم نستوحش اليوم من هذه الجبال المسماة بجبال « عين كين » رغماً عن اطراد منظرها الذي هو عبارة عن سلاسل متتابعة من الطبقات الكلسية . ولكن لم يطل الامر الا وانقلب ذلك المنظر القاحل الى منظر خصب منذ اشرفنا على قرية « فرحه زير » .

تراءت لنا من اليمين من بعيد قرى « آميون Amioun » و « كسبه Kesba » ثم المشجرات الزيتونية في انحاء « الكورة » وعلى غلوة منها قرى « كفرعكا Kaf. Akka » و « كفرسالون » ، وعلى يمينهم من بعيد قرى « كفرحوتا ومقبورا » وكمتون . او قد لمع وراء هؤلاء جبال « ارز لبنان » . ثم اخذنا بالانحدار ، فتتابعت على انظارنا اشجار الزيتون الخضراء ، واشجار التين والحقول والمشجرات . وبعد ان جاوزنا عن اليمين قرية « بشمزين Bchemzin » شاهدنا على يسارنا من بعيد قرى « عفصديق » و « فيع » و « الحاد » .

وبعد يسير وصلنا الى « البتورن Btourran » . ويوجد هناك اخصاص لدود القز تخص اغنياء طرابلس الشام . سرنا بين شجر الزيتون مقدار نصف ساعة ، وأخذت تبدو لانظارنا عن الشمال قرى « طراطيش وغابه » وعن اليمين « بصرما » وبعدها قرى « دير سيدة النجا وكفرقاهل وبشنين وعول » فوق هضاب عالية ، ثم « داريه وكفرفو ورأس كيفه وكرم سده ، وسبعيل ، غيطو » ثم « جبال الاربعين » التي حشرت فيها هذه القرى الظريفة اللبنانية الخضراء . وكان بين طريقنا وبين هذه القرى

« نهر ابو علي » الذي ينبع من « وادي اخاب » و « بشري » الذي وراءه ، ثم ينصب عليه جدول « نهر رشعين » و « نهر جوعيت » ويجري ميمماً طرابلس الشام . ولهذا كان منظر هذه البقعة لطيفاً جداً .

قطعنا مكان « دكانة خضر » التي يتألف من بضعة بيوت ووصلنا الى قرية « كفتين *Keftin* » . وهناك ظهر لاعيننا البحر بلونه الازرق بعد ان فقدناه منذ بضع ساعات . لم يبق بيننا وبين طرابلس الا مسافة ساعة واحدة . فاخذت مركبتنا تسير على التراب الاحمر الى ان وصلنا الى قرية « ظهر المين » . ولم يبق لنا من الطريق الا مسافة ربع ساعة . ومع ذلك لم نزل في ارض لبنان وكانت هضبة « ابو سمره » لا تزال حائلة بيننا وبين البلدة . فما كنا نراها رغماً عن قربنا منها .

كنا نمعن النظر في « جبل تربل » الذي كان قريباً منا ، وذهننا لا يزال مشغولاً بخيال الجسور والوديان ، والنجود والاغوار ، والكبير والصغير من القرى التي شاهدناها في الطريق . ثم هرولنا في منحدر ووصلنا الى « جسر البحصاص » الذي تنتهي على ازيائه حدود لبنان . ويبدأ من هنالك مشجر الزيتون الطرابلسي .

ثم بعد برهة كنا امام بيوت طرابلس البيضاء حالة النجم والهلال وكانت الشمس بعيدة عن الغروب بعد .

— ٢ —

لواء طرابلس الشام

١ — الموقع والحدود

ان لواء طرابلس الشام الكائن في القسم الشمالي من ولاية بيروت يحيطه من الجنوب لوا جبل لبنان ، ومن الشرق لواء حما ومن الشمال لواء اللاذقية ، ومن الغرب البحر المتوسط . ومساحته ٥٩٦٩ كيلومتراً مربعاً .

٢ — الاحوال الطبيعية

[١] — **الجبال والانهار** — يتكون لواء طرابلس الشام من سهول « جون عرقا » الخصبة ، التي تمتد على طول الساحل . ومن مرتفعات صغار تتسلسل متقطعة ، واراضي ذات عوارض في الداخل . وجبال النصيرية التي تفصل هذا اللواء عن ولاية سورية من

الشرق تمتد من الشمال الى الجنوب حتى تكون قريباً من مركز قضاء عكار فينقلب اسمها الى « جبال عكار » ثم تنغمس في سلسلة لبنان. ويخترق هاتين السلسلتين من بعضهما وادي النهر الكبير .

اما الجبال الموجودة وراء بلدة طرابلس تتعالى حتى تبلغ بارتفاعها عن سطح البحر (٣٠٥٠) متراً ، وارتفاع « ظهر السودا » من « جبال ضنيه » يبلغ (٣٠٤٧) متراً ، وارتفاع العقدة التي تتصل فيها جبال عكار بجبال لبنان هو (٢٠٩٠) متراً . وتتألف هذه الجبال من الصخور اليرمية المنتمية الى الدور الثالث . اما جبال حذور التي هي من اعمال مركز القضاء فهي مركبة من الطبقات البركانية الحديثة .

وانهار [ابو علي ، البارود ، العميق ، العرقا ، الحويق ، الشيخ زناد ، النهر الكبير ، الشلالات ، الابرش ، الصاروت ، القمقمه ، الحصين] كلها تنبع من جبال عكار وحصن الاكراد وتصب في البحر المتوسط .

فنهر ابو علي والنهر الكبير هما من الانهار الدائمة في الجريان . اما الانهار الاخرى فهي تفيض وتغيض . ان نهر ابو علي المذكور في التوراة باسم « كاديشه » ينبع من جبل « ماثال » الواقع في ناحية « بشرى » التابعة لقضاء « البترون » ، ويمر بجوار قرى « اهدن وزغرتا » ويدخل في لواء طرابلس ، ثم يسقي اراضي قضاء طرابلس المخصبة . وطوله من منبعه الى مصبه يناهز (٣٨) كيلومتراً . اما (النهر الكبير — *Elefteri*) الذي يصب في حوض « عرقا » فهو كما ذكرنا سابقاً اصلح مدخل يدخل فيه من الساحل الى داخل سورية .

[٢] — اوقليم — ان اقليم هذا اللواء الذي نبحث عنه هو معتدل وحار ورطب . ولكن ناحية الضنية التابعة للمركز التي هي على ارتفاع ٢٠٠٠—٣٠٠٠ متراً وقراها الكائنة على السفح الغربي في « جبل القضيب » من سلسلة لبنان فهي باردة الاقليم بسبب ترفعها عن سطح البحر . والحرارة في الدرجة الوسطى في هذا اللواء هي ١٦٫٥ درجة «سانتيغراد» وتكون في الصيف (٢٥) وفي الشتاء (٩) . والحرارة في الربيع والخريف لا تنخفض عن (١٦) درجة . وفي كانون الثاني حيث تشتد سورة البرد تكون الحرارة (—١٫٥) درجة . ولا يندر بلوغ الحرارة الى (٣٦) درجة في شهر اغستوس .

[٣] — العواصف والرياح والامطار — يوجد في طرابلس الريح الشرقي الشمالي ، والغربي الجنوبي بصورة دائمة . اما رياح الجنوب والشمال والشرق والغرب الشمالي تهب بندرة . وفي اواخر الربيع يهب من الغرب الجنوبي ريح السموم وهو حار مخنق ، ولربما يكون العواصف والزوابع .

ان جنوق [illegible] من بقرة طرابلس [illegible] ولاية بيروت ولواء لبنان [illegible] على ارتفاع (٣٠٣٥) متراً . ويدوم عليه الثلج ثلاثة او اربعة اشهر في السنة ولهذا السبب لا ينقطع هبوب الريح هناك تارة من الجبل الى البحر واخرى من البحر الى الجبل . يسخن هواء البحر في ليال الصيف فيصعد الى فوق بسبب خفته وفقاً لقانون التوازن ، وقبل بزوغ الشمس بساعة ونصف تهب من جانب الجبل ريح باردة كثيفة وتسمى عند المحليين : « ريح الجبل » ثم يعقبها الغربي ويهب نحو الجبل .

يزعم ان مقدار الامطار السنوية في طرابلس هو (٥٥٠) مليمتراً . وقد تشتد سورة الشتاء في شهر كانون الثاني وشباط حيث تهطل الامطار متوالية دون انقطاع . ويسقط الثلج على اكثر انحاء اللواء ويكون بثخن (١٠—١٥) سانتيمتراً ، على انه يبلغ في ناحية ضنية ولاسيما في الانحاء العالية منها الى اكثر من ثلاثة امتار . وهنا يسقط الثلج منذ تشرين الثاني الى غاية شباط .

٣ — عدد نفوس اللواء

اثبتت القيود الرسمية لسنة (١٣٣١) ان مجموع عدد نفوس لواء طرابلس الشام من ذكور واناث هو (١٧٦٥٢٥) نسمة ، منهم ١١٩٠٣٧ من المسلمين والنصيريين وما بقي (٥٩٤٨٨) من غير المسلمين . وان هذا اللواء بالنسبة لالوية الولاية يأتي في الدرجة الثانية عن بيروت بالنظر لازدحام خلقه ، وكثرة غير المسلمين فيه . ويكاد ان يكون ثلثان السكان المسيحيين هناك من الروم الاورتودوكس . اما المارونيون فيقرب عددهم من (١٥) الفاً . وبما ان مجموع مساحة اللواء يبلغ (٥٩٦٩) كيلومتراً مربعاً ، يكون نصيب كل كيلومتر (٢٩،٦) من النسمات اما تقسيمات اللواء الادارية فهي على ما يأتي :

النفوس		عدد القرى و المزارع	النواحي
٦٦٥٤٨	مركز قضاء طرابلس الشام	٩٦	اسكله، طرطوس، ارواد
٤٢٣٦٣	« « عكار	١٧٥	ضنيه ، ميه ، حذور
٢٩٧٠١	« « حصن الأكراد	١٧٦	—
٣٧٩١٣	« « صافيتا	٣٥٥	—
١٧٦٥٢٥		٨٠٢	

٤ — المعارف في اللواء

« ان حياة الاقوام ، وخلود البلاد ودوام الامم في هذا العالم البشري يتبع عزائمهم وهممهم في الاقبال على امر المعارف . اذا امعنا النظر في ولايتنا التي اشتهرت بين الولايات

العثمانية بقوانين ما ضيناه من العلوم والمعارف نجد ويا للاسف تلك الشهرة المكوسة ؛ وما ذلك الرقي الملتى الذي نرمقه اليوم بنظرة السرور ونباهي به الا مفاسد اخلاق اجنبية تحتم علينا ان نعاجلها بالهدم والتخريب وعيوننا تقطر الدم لا الدمع ، وما التربية الاخلاقية التى نتلقاها من الاعداء ، الا سكينا مذهبة مسمومة النصل، اهديت الينا لتقتل انفسنا بها ، اوشكت في اوردتنا لهذه الغاية . ان الانقلاب الفكرى والتربيوى الذى نتوخاه لرقى العثمانية واعلاء كلمتها ، او بالاجدر الاحتفاظ بهذه الهيئة التى اربت سنيها على ستة قرون لا يكون بهذه الوسائل القتالة . اننا اذا لم نخلق المعارف التى ترتكز على اسس عمومية ملية لا قومية ، لا جرم لا يكون لنا حظ من الحياة الاجتماعية .

اذا نظرنا فى حالة معارف الولاية قبل ما تأسست الادارة الخصوصية اى قبل سنتين، نجد مخصصات جميع المدارس المربوطة بادارة المعارف، والمدرسة السلطانية ايضاً لا تجاوز عشرة آلاف ليرة . وعدد المدارس قليلة ودرجتهم منحطة جداً . لم تعزب هذه المسائل عن نظر حكومتنا الحاضرة ، ولذلك اسست اصول الادارة الخصوصية لكى تتمكن من ازالة هذه النواقص ورفعها .

كان الاهتمام بميزانية المعارف سنة ١٣٣٠ — ١٣٣١ على قدر ما يستطاع ، فى هذه السنة خصص لها (٣٦٥٠٨٢٥) غرشاً . ورغماً عن هذا فان النقص فى المعارف لا يزال ظاهراً ليس بخاف .

وبهذه المخصصات التى وضعت فى ميزانية السنة الحالية تمكنا من ادارة قسم واحداث قسم آخر من المدارس التى بينا اسمائها هنا .

المدارس الاعدادية — يوجد فى مركز الولاية من هذه المدارس ثلاث خارجية، وفى مركز كل لواء واحدة ما عدا مدرسة طرابلس الشام الذى قلبت الى سلطانية .

المدارس النموزجية « نمونه » — يوجد من هذا النوع مدرسة واحدة فى بيروت مركز الولاية ولم يتم ترتيبها .

المدارس ذات الستة صفوف — عندنا منها عشرة مدارس سبع للذكور ، وثلاث للاناث .

ذات الخمسة صفوف — عندنا منها ثلاث عشرة مدرسة كلها للاناث .

ذات الاربعة صفوف — عندنا منها ثمانى عشرة مدرسة ، اثنى عشرة للذكور وست للاناث .

ذات الثلاثة صفوف — لدينا منها اثنى عشرة ، ثمانى للصبيان واربع للبنات .

ذات الصفين — لدينا منها واحد واربعون مدرسة (٣٣) للذكور و (٨) للاناث .

وحيدة الصف — لدينا منها (١١٨) مدرسة منها (١١١) للذكور و (٧) للاناث .

فلنا نتقل للمدارس التي اسست منذ عشرين سنة في قرى الولاية ... الاهلين
ثم لنثنِ بالحكومية حديثة العمارة المعارف وعددها (١٤٣) مدرسة للذكور يكون مجموع
وحيث ان الملحق من المدارس في الولاية (٢٦١) مدرسة فمجموع المدارس التالية والابتدائية
٣٥٩ مدرسة .[*]

وبما ان عدد الذكور في الولاية (٤٦٦٠٥٠٠) وعدد الاناث (٤١٤١٨٠) يكون لكل (١١٢٠) [**] من النفوس مدرسة واحدة [***] »

اقتبسنا هذه المعلومات لنتمكن من اعطاء فكر اجمالي في مدارس الولاية الحالية . وبما ان عدد نفوس لواء طرابلس (١٧٦٥٢٥) . وعدد مدارسها الحالية (٩٦) . يكون لكل (١٨٣٨) من النسمات مدرسة واحدة

اول ما يراجعه العلماء الباحثون عن التكامل الفكري في اي امة كانت . هو الاطلاع على عدد المدارس ثم على عدد السكان ثم النظر في النسبة التي تقوم بين هذين المجموعين ليكونوا في بحثهم على بصيرة . نعم ان الوطنية وحسن الخلق ومتانة العزم وغيرها من المزايا الاخلاقية والاجتماعية التي يناط بها الرقي البشري لا تكون الا بنشر المعارف الحقيقية . ولا جرم ان درجة العلم تزيد وتنقص بنسبة عدد المدارس . وعليه نرى جميع الامم الراقية تقصد تزييد هذه النسبة حين ترتيب ميزانية معارفها . ولا يقصدون من هذه المدارس الا ان تكون دوراً للتربية الاخلاقية والصحية تهذب ، اخلاق الامة وتبث في نفوسها الافكار المتينة والضمائر الحية . ان المدرسة في نظر الالماني والانكليزي او السويسري هي كناية عن مؤسسة تضم المعلمين الذين تخرجوا في دور المعلمين واخذوا نصيبهم من التربية الفكرية والوطنية ، واختاروا مسلك التعليم براتب واف ، ثم ما جعل في ادارتهم من البنايات المنتظمة التي جمعت كل شرائط التدريس ، وتالفت من الغرف الكافية . ولا ادري هل يكون صحيحاً اطلاق اسم المدرسة على مؤسسات لا حظ لها من هذه الشرائط .

نحن معشر العثمانيين لم نزل نحمل معنى المدرسة على غير حقيقتها في جميع انحاء بلادنا لا في ولايتنا فقط ، ولا نزال نتوسع في ميزانيتنا العمومية والخصوصية على غير جدوى ، وذلك بتأثير هذا التفسير الواهي . اول ما يلاحظه الاقوام حين وضع التخصيصات

(*) نتيجة تنقبض لها نفوس انصار النساء : اذ من هذه المدارس « ٣١٨ » للذكور و « ٤١ » فقط للاناث

(***) ان هذا الحساب غلط : يجب ان يكون « ٢٢٨٠ » لا « ١١٢٠ »

(**) جريدة ضبط المجلس العمومي سنة ١٣٣١ ص : ١٦ — ١٨

المدرسية فى الميزانيات العمومية فى الابتدائيات التى تكون على اتم الشروط الصحية وغيرها ثم المعلمون الذين جهزوا بالتربية الفكرية والوطنية . ومرنوا على القيام بالواجب ؛ اما نحن فلا نزال نأخذ بالنقيض . ولعرفنا ان تأسيس المدرسة الابتدائية يكون بوضع مائتين او ثلاثمائة غرشاً فى ميزانية الولاية لتكون راتباً لمعلم او معلمين . ما زلنا لا نقدر على تأسيس مؤسسة تربيوية تضم جميع لوازم التدريس ، وتكفل راحة المعلمين فى قرانا التى لا يعثر فيها على الراحة . ثم تضمن لنا حياة فتيان الوطن بالتعليم والتربيـة . فما بالنا نصدع فى المجالس العامة ، او بالاجدر امام الامة ونقول : كان عدد مدارسنا بالامس كذا ، واليوم زدناها كذا ، ونزعم بهذا التصريح اننا نركض وراء الرقى بخطى واسعة :

تجولنا فى الولاية من باير وبوجاق . . . الى جباعين ، فكم مدرسة رأينا يا ترى من اللاتى كملت فيها الشرائط المؤملة ؟ اولى بنا من ان نزيد فى عدد مدارسنا التربيويـة الزيادات القشرية التى لا تجـدى نفعاً ، ان نلغى بعضها ونمد لما بقى منها فنعطيه حقه من الترتيب والانتظام بمعلميه ومبانيه ولوازم تدريسه . وهذا انسب التدابير التى تتطلبها حاجة الامـة الى العلم والعرفان . ولا بأس ان يكون عدد المدارس قليلاً لمـدة قصيرة ولان آتى الامر متأخراً خير من ان يكون صعباً .

٥ — الزراعة فى اللواء

[١] — **معلومات اجمالية** — ان سيـف البحر فى لواء طرابلس صالح لزرع الحبوب بانواعها ، وغرس الاشجار المثمرة . لان ذلك الصقع يضم من الحرارة ما يبلـغ «٣٩٨٠» درجة . وهذا المقـدار يكفى لنمو الاشجار واقتدارهـا على حمل الثمر ، ويساعد ايضاً على انضاج الاثمار بعد دور الازهار . وتغرس هـذه الاشجار فى اسياف البحر الابيض ابان اليبوسة اى ايام الربيع والصيف . وقـد سمى بعض علماء النبات هذه الاصقـاع بارض الزيتون . يمكن غرس شجر الزيتون فى لبنان فى الانحاء التى لا يزيد ارتفاعها عن «٤٨٨» متراً .

اما شجر التوت الذى تقطف اوراقه فى شهر مايس وحزيران ، يشترط فى غرسه وامكان الاستفادة منه ، ان لا تقل درجة الحرارة فى اقليمه عن ١٢٥٥ درجة فى ثلاثة شهور . اما الكروم فانها تحتاج الى حرارة كثيرة ولكنها لا تبالى بالبرد الشديد . ولذلك نرى اكثر من مائة كرم فى قرية « اهدن » اللبنانية التى لا يقل علوها عن (١٤٤٣) متراً . على ان هـذه الانواع من المغروسات تصير لذيذة الاثمار فى الاقاليم التى يكون ربيعهـا يابساً وحاراً .

وقد توفرت جميع هذه الشروط فى القسم الشمالى من الولاية .

احسن ما يكون فى الاشجار المثمرة ان تغرس فى ارض كلسية Calcaire . لاسيما ذوات النوى من الاشجار فان ثمرها يكون و هكذا اقاليم يابسة على الغاية من الجودة . وان معظم الاراضى السهلية والجبلية فى لواء طرابلس واللاذقية هى من هذا النوع . واذا زرع شجر الزيتون فى الاراضى المنحدرة تكون حباته اوفر زيتاً واقبل. اما شجر السهول فيكون زيته قليلاً .

يختلف تأثير موقع الاراضى ، وما حوته من المواد العضوية والمعدنية على النبات باختلاف جنس ذلك النبات ، فشجر الليمون ينمو نمواً تاماً فى الاراضى المنحطة التى يمكن سقيها كما هى عليه سهول طرابلس . اما الكروم فانها اقل ارتباطاً بطبيعة التراب . ولهذا فان فرانسة اقامت فى كثير من اراضيها المتنوعة فى موادها كروماً على غاية فى الكمال .

اذا روعيت القواعد الفنية التى يقضى بها علم الزراعة فالنجاح محتم سواء كانت الارض طينية او كلسية . وان لمواقع الاشجار تأثيراً عظيماً على كمية المحصول . فاذا غرست اشجار الزيتون فى السفوح اليسرى من المرتفعات بحيث تكون قادرة على استنشاق ريح البحر كما هو الحال فى سورية ، لا بد ان نرى عظيم الفرق فى المحصول . ولو كانت جبال هذه الانحاء تقطع البلاد عرضاً لا طولاً ، اى لو كانت سفوحها تطل على الشمال والجنوب لا على البحر ، لا جرم تكون عرضة للريح الشمالى البارد والجنوبى الحار . وحينئذ لا يتسنى لسورية ان تستحوذ على هذا الاستعداد الخاص باصقاع البحر الابيض ، وكنا نحرم من انفس اثمارنا، العنب والزيتون والليمون .

[٢] — الاموال والمحصولات الزراعية — بما ان الاراضى فى مركز قضاء طرابلس خصبة منبتة، قسمت الى اقسام صغيرة ، وغرس فى اكثرها شجر الزيتون والليمون . اما معظم الاراضى فى النواحى المربوطة بالمركز فهى منقسمة الى مزارع تزرع اما من قبل اصحابها ، او بطريق الايجار واما بشركة المناصفة . والشركة شكل آخر ، وهو ان صاحب الملك يدفع اراضيه للشريك ، وهذا عليه البذر والعمل ، ويكون لصاحب الملك من الوارد ثلثه او ربعه اما العشر فيكون من المجموع .

ولهذه الشركة شكل آخر ايضاً وهو ان صاحب الملك يضع البذر والآلات والحيوانات ويكون على المزارع العمل فقط ، ويأخذ ربع الوارد لقاء عمله وهذا الشكل معروف من القديم وهو الشايع فى هذه الانحاء .

تتراوح الاجرة اليومية التي يدفعها اصحاب الملك للذين يستخدمونهم في الحصاد بين خمسة قروش وعشرة ، اما في الايام العادية فاجرة العامل او الحارس ، او الراعي تكون مقطوعة وسنوية . ومقدارها الوسطي ثمانية شنابل (١٨٠ اقه) من القمح وكيلان (١٤٥ اقه) من البرغل ، ويعطى لرئيس العمال والشحنة في السنة (١٠ـــ١٥) شنبلاً من القمح .

اما الاراضي التي تستعمل لزرع البقول فقد تثمر مرتين في السنة بفضل الاعتناء والهمة التي تصرف عليها . اما السماد فانه يستعمل في مشجر الليمون وبعضاً في الزيتون ، اما الاراضي التي خصصت للزرع الخفيف فلا تسمد الا مرة في كل ثلاثة سنين .

اما الآلات الحراثية التي تستعمل في اللواء فهي على حالة بدائية جداً . ومع هذا فقد شرع ارباب الزراعة يستعملون الآن آلة العربلة و آلة الحراثة ذات السكك المديدة واخذوا يدركون فائدتها . ولم يكن في جميع اللواء قبل خمسة عشر عاماً ولا آلة واحدة للحصاد . وفي سنة ١٣٢٩ مالية ابتاع الاهالي اكثر من مائة واحدة منها .

ان زرع المحصولات الصيفية « الذرة الصفراء والبيضاء والسمسم» يكون في شهر نيسان ومايس، وموسم المزروعات الشتوية يكون في شهري تشرين . اما الحصاد في اللواء يكون في اول مايس للشعير وفي اواخره للقمح والسمسم والذرة الصفراء تنضج في اغستوس وايلول .

ان مستغلات اللواء السنوية هي على ما يأتي :

جنس المحصول	الاراضي المزروعة دونم	الغلات كيله
القمح	٢٩٠٠٠٠	٢١٨٠٠٠٠
الشعير	١٣٠٠٠٠	٩١٠٠٠٠
الذرة البيضاء	٩٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠
الذرة الصفراء	٤٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
الحمص	٢٥٠٠	١٥٠٠٠
الفول	١٩٠٠	١٥٢٠٠
السمسم	٣٠٠٠٠	٦٠٠٠٠
العدس	١٣٥٠٠	٣٧٥٠٠
الجلبان	٢٧٥٠٠	٥٣٥٠٠

[illegible]

	دونم	كيلوغرام
التنباك	؟	؟
الدخان «التبغ»	؟	؟
البطاطة	؟	؟
الكروم	١٢٧٩١	٢١٥٥٥٠٠٠ العنب
		١٠٨٠٠١ الورق

ثم ما عدا هذه المحصولات يوجد فى اللواء (١٩٠٠٠٠) شجرة زيتون يعصر منها فى كل سنة (٩٥٠٠٠٠) اقة من الزيت ، و ٦٦٠٠٠٠ كيلوغرام من الشرانق القاء تربية ٢٢٠٠٠ علبة بذر .

٦ — الاحراج والمعادن

ان اهم الاحراج فى لواء طرابلس الشام هى احراج عكار وضنيه . تبتدأ هذه الاحراج التى تشغل قريباً من (١٥٠) الف دونم من قرى (قابات وتحفت) وتمتد الى اواخر حدود الضنيه . وتوجد على السفوح التى لا يزيد ارتفاعها عن ١٥٠٠ متراً . وان احراج قبابات عنفنت ، ارمون ، عرض الحريق ، دوبر ، جورديرى ، وادى جهنم ، قاطر فريم ، ضنيه هى من فروع هذه السلسلة .

اما الاشجار التى توجد فى الازيال ، والسفوح القريبة من الاذيال فهى من نوع السنديان ، والصنوبر والعرعر وهى تصلح لاعمال الالواح والاخشاب القصيرة التى يمكن استعمالها فى الابنية البسيطة ، ثم يوجد فى الذرى وفوق مقاسم المياه من شجر الصنوبر ، والارز مايبلغ ارتفاعه عشرة امتار وقطره متراً ونصف ، وهى صالحة لان يستفاد منها فى جميع الصنايع . ويقطع من هذه الاحراج فى كل سنة مقدار «١٠٢٤٠» قنطاراً من الفحم و«٥٢٠٠» قنطار من الحطب . وقد يدخل ميناء طرابلس الشام على طريق البحر مقدار «٧٠٠٠» متر مكعب من اخشاب الاناطول والواحها فى كل سنة .

ولا اثر للمعادن الثمينة فى هذا اللواء ، وتوجد فى قضاء صافيتا وعكار مناجم الجبس ، والحجر الرملى . ويستعمل الطرابلسيون فى ابنيتهم هذه الاحجار ويعثر فى انحاء متعددة من هذا اللواء على المغرة الحمراء *Ocre rouge* والمغرة الصفراء *Ocre jaune* .

مركز قضاء طرابلس الشام

١ — الموقع والحدود

ان هذا القضاء قائم فى القسم الغربي الشمالى من اللواء وهو محاط بلواء اللاذقية من الشمال ، وبقضاء صافيتا وحصن الأكراد وعكار من الشرق ، وبلواء لبنان من الجنوب ، وبالبحر الابيض من الغرب .

ويوجد فى هذا القضاء ستة نواحى منها ناحية ارواد وحذور الحقت بهذا المركز فى الدور الحميدى ، ولكن لا يزال الاهلون غير مرتاحين لهذا الالحاق بسبب بعدهم عن هذا المركز وعدم توافق موقعهم الجغرافى تجاهه ، اذ ليس بالهين على احد الحذوريين ان يغادر ناحيته ويتكبد اشق الالم فى قطع المسافة التي لا تنقص عن اربع عشرة ساعة ، على ذلك الطريق الفاسد ، ويأتى الى طرابلس لامر مالي او حقوقى . ومن الامور المحتمة ان يلتفت لهذه التقسيمات السقيمة الى لا نرى لواء فى الولاية يخلو منها .

٢ — المساحة والنفوس

ان مساحة هذا القضاء هى على التخمين الرسمى « ٦٢٠٠٠٠٠٠ » مربعاً بالذراع القديم . منها « ٥٠٠٠٠٠٠٠ » من الاراضى الاميرية و « ١٢٠٠٠٠٠٠ » من الاراضى المملوكة و « ٢٠٠٠٠٠ » من الاراضى الموقوفة . اما عدد نفوسه فقد كان سنة ١٣٣١ : « ٦٦٥٤٨ » من النسمات ذكوراً واناثاً . منها « ٣٥٤٧٠ » من الذكور و « ٣٢٠٧٨ » من الاناث واقسام هذا العدد على النواحى هو على ما يأتى :

الاسماء	النفوس	عدد البيوت	عدد القرى
بلدة طرابلس	٢٤٠٣٦	٤٢١٤	٠
ناحية المينا	٨٥٣٥	١٦١٢	٠
ناحية طرطوس	٥١٦٩	٨٦٩	١١
« ارواد	٤٠٥٣	٨١٠	٠

[illegible]

« شيطا	٣٦٩٣	١٤٦٧	٢
« شنيه	٩٨٠٧	٦[illegible]	٣٦
« حذور	٤٧٣٦	٣٤٦	٣٧
القرى العشرة	٦٥١٩	١٤٧٥	١٧
يكون	٦٦٥٤٨		١٠٥

وعدد المسلمين في هذا المجموع (٤٩٥٦٠) ، وفيه يسير من النصيريين . اما النصارى فهم الروميون في الدرجة الاولى من الكثرة لان عددهم ١١١٢٤ والمارونيون ٥٦٥٧ واللاتينيون (٢٠) والكاثوليك (٤٦) والبروكستانت (٦٩) واليهود (٧٢) نسمة .

وقد كانت تولدات القضاء سنة ١٣٣٢ مقدار ١١٥٨ ووفياته ٣١٢٨ نسمة . وفي تلك السنة كانت الحمى التمشية « تيفوس » تفعل افاعيلها في ذلك القضاء ، وقد جرعت القرى والقصبات الامرين وباد فيها خلق كثير . وكانت الوفيات « ٦٣٤ » نسمة في سنة ١٣٢٧ و « ٣١٨ » نسمة سنة (١٣٢٩) . اما الولادات فكانت (١٢٠٢) سنة ١٣٢٧ و (٤٤٩) سنة ١٣٢٩ .

٣ — المعارف

يوجد في مركز قضاء طرابلس (٧٦) مدرسة . منها (٣١) على نفقة الحكومة . وما بقي من المدارس الخصوصية تتفقدها المحاسبة الخصوصية بيسير من المعونة النقدية . وهذا جدول يحتوي على مفردات تلك المدارس :

المدارس الموجود	ناحية حدور ذكور	ناحية حدور اناث	جزيرة ارواد ذكور	جزيرة ارواد اناث	ناحية طرسوس ذكور	ناحية طرسوس اناث	القرى العشرة ذكور	القرى العشرة اناث	ناحية ضنيه ذكور	ناحية ضنيه اناث	ناحية منيه ذكور	ناحية منيه اناث	ناحية الميناء ذكور	ناحية الميناء اناث	قصبة طرابلس ذكور	قصبة طرابلس اناث	يكون ذكور	يكون اناث	الاجمال
المدرسة السلطانية															١		١		١
الداخلية الرسمية																			
المدارس الاعدادية																	١	١	١
الاميركانية الداخلية																			
دار المعلمين الخارجي																	١	١	١
الرسمي																١	١	١	٢
المدارس الابتدائية الداخلية	١																		
الخصوصية مارونية واميركانية																			
المدارس الابتدائية الخارجية	١		١	١	١		٢		٢		٢		٢	٢	١٠	٥	٢١	٨	٢٩
الرسمية																			
المدارس الابتدائية الخارجية													٢		٢	١	٤	١	٥
لغير المسلمين الخصوصية													١		٣٠	٥	٣٢	٥	٣٧
مدارس ... للمسلمين					١														
يكون	٢		١	١	٢		٢		٢		٢		٥	٢	٤٥	١٢	٦١	١٥	٧٦
جدول الطلاب	٦٠		٨٠	٣٠	٧٠		٨٠		٥٠		٣٠		٢٥٠	٩٥	٢١٢٠	٨٨٠	٢٧٤٠	١٠٠٥	٣٧٤٥

يتضح من هذا الجدول ان مجموع الطلاب فى قضاء المركز هو (٣٧٤٥) منهم ٣٠٠٠ منهم — ٢١٢٠ ذكور و٨٨٠ اناث — فى نفس طرابلس والباقى اى ٧٤٥ طالب فى النواحى .

لا ادرى هل يجوز ان نسمى هؤلاء الفتيان الوطنيين طلاباً . ان النتائج التى ما زلنا نحصل عليها من مساعى المعلمين المتخرجين فى مدارس دور المعلمين — مع قلتهم — هى غير متناسبة مع ما تتكبده الامة من المفاداة فى طريق تعليمهم و ارشادهم . وليس اكثرهم بقادر على ادارة مدرسة ابتدائية . اما المعلمون المتخرجون فى المدارس الرشدية او المدارس الدينية فابقائهم فى تلك المؤسسات التربيوية حرام . لانهم بعيدون عن ادراك آمال الامة التى لم تزل فى اشد الحاجة الى العلم والرقى . لا زلت اقول ان المدارس الابتدائية لا تقوم بستة ثلاثمائة او خمسماية غرش . بل الواجب ان نعتنى باعداد المعلمين الاذكياء الذين لا يعرفون الكلل فى سعيهم من المتشربين حب الواجب . لم يمكنا الاطلاع على حقيقة مدرسة دار المعلمين فى طرابلس الشام بسبب العطلة الصيفية وقد استطلعنا عن حياتها التدريسية فالفيناها بعيدة عن الغاية الشريفة التى اسست لاجلها . وان فى مركز الولاية ولاسيما فى البيئة الطرابلسية اندفاعاً نحو آ لتزييد عدد المدارس فى طرابلس . على ان الاولى بهذه القوة ان تدأب لاصلاح المدارس الموجودة لا لتزييد عددها ، فان ذلك انفع للوطن .

٤ — المستغلات الزراعية

هذه مستغلات مركز القضاء فى لواء طرابلس نثبتها فى هذا الجدول

جنس المحصول	الاراضى المزروعة دونم	الغلال كيلة
القمح	٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠
الشعير	٢٠٠٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠
الذرة البيضاء	١٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
الذرة الصفراء	٠٠	٠٠
الحمص	٠٠	٠٠
الفول	٥٠٠	٤٠٠٠٠
السمسم	٣٠٠٠	٦٠٠٠
العدس	٠٠	٠٠
الجلبان	٤٠٠٠٠	٨٠٠٠٠

	مركز قضاء طرابلس الشام	
الزيتون	١٥٠٠٠٠٠	كيلو غرام
الشرانق	١٥٠٠٠٠	
التبغ « الدخان »	؟	؟
التنباك	؟	؟

٥ — الآثار القديمة والمواقع المشهورة

[١] — في طرابلس والمينا — من العبث ان ترتاد الآثار القديمة في هذه الميناء ان المرفأ محفوظ من الجانب الشمالي الغربي بحاجز قديم للموج يمتد مسافة ميلين. وان الريح الشمالية اليوم توقع السفائن التي تحط في هذا المرفأ في اعظم الخطر. وهذا السبب كثيراً ما يجر السفائن الشراعية فيحطها على الرمال. وتوجد سلسلة صخرية قبالة المرفأ. واقربها صخر « بكار » الذي يمتد مقدار (٣٠٠) متراً. وقد كان في ايام الفينيقيين حاجزاً طبيعياً يحفظ مرفأ « مشتا » الفنيقي من سورة الزوابع وهناك ثغرة خاصة للسفائن والقوارب اسمها (فايلون).

وتوجد جزيرة « بيلام » بمسافة «٤٠٠» متر من بكار. ولا تزال آثار المخازن والمآكن القديمة مشاهدةً عليها الى الآن.

لا يوجد في طرابلس من الآثار القديمة ما يستحق الذكر، ما عدا القلاع العالية التي ذكرناها في المبحث الخاص (*). وهناك ستة حصون مبنية اعتباراً من قصبة المينا الى مصب نهر ابو علي لم يبق الان الا انقاضها ويعثر في بعض انحاء الساحل على اعمدة من الصوان الاخضر، يحتمل ان تكون مجلوبةً يومئذٍ من انحاء مصر. يوجد في المينا من هذه البروج انقاض برج المشته وبرج المغاربه وبرج الشيخ عفان، وعلى ثماني دقايق منهم برج القناطير، وعلى سبع دقايق برج السبع(**) الذي لا يزال محافظاً عليه. وفي الشمال اي عند مصب نهر ابو علي يوجد برج رأس النهر. وهذا البرج يبعد عن طرابلس مسافة عشرين دقيقة بطريق وادي ابو علي. وقد بنيت هذه الحصون في زمن المسلمين.

[٢] — ناحية ارواد وآثارها — ان جزيرة ارواد، او بالتعبير القديم «آراد» التابعة الى قضاء المركز، هي في الجهة الشمالية على بعد خمسين كيلومتراً عن طرابلس، وتقع على

(*) راجع ص: ١٥٥—١٥٦

(**) كان يوجد في مدخل هذا الحصن اسدان امكن الاحتفاظ عليهما الى بداية القرن الحالي، ولهذا سمي هذا البرج ببرج السبع.

كلومترات عن طرطوس . والارواديون الذين هم من اعظم القبائل الفنيقية كانوا من رقباء صيدا وقد ظهروا عليها وتمكنوا من الاستحواذ على السواحل السورية الشمالية ، واسسوا بين طرطوس الحالية وأمريت القديمة مستعمرات بالتوس Paltus وبالانه Balanea وقارن Carne وايسدرا Enydra وامريت Amrit . وقد كان منهم ان اتفقوا مع القبائل القاطنة في الانحاء الشمالية من سورية ، وتحاربوا مع طوطميس الثالث ورعمسيس الثاني والثالث من فراعنة الاسرة الثامنة عشر . ولما تحارب الاشوريون والمصريون حربهم الطويلة كان هؤلاء تارةً يطيعون الغالب ويظاهرونه واخرى يخرجون عليه ويعصونه .

ولما استولى الايرانيون والاسكندر الكبير على البلاد السورية كان الارواديون يتمتعون بما منحوا به من الادارة الشبيهة بالاستقلال . وقد ظلت التجارة البحرية في القسم الشمالي من سورية مدة وافرة في ايديهم . ولكن ورود الرومانيين صد الارواديين واخرهم لاسيما سكان انتارادوس او آنتي آرادوس « طرطوس الحالية » التي اسستها جالية الارواديين ما لبثوا ان زاحموا اوطانهم الاصلية في التجارة ، واحرزوا فيها قصب السبق عليهم .

ان جزيرة ارواد التي طولها ٨٠٠ متراً وعرضها « ٥٠٠ » فيها اليوم « ٨١٠ » بيوت و٤٠٥٣ نسمة . والقصبة التي اسست في الجهة الجنوبية منها كانت مسورةً بجدار عريض ليس فيه الا ثغرة واحدة من الجانب الشرقي توخي فيها ان تكون بمثابة المينا لهذه القصبة ولا يزال قسم من هذا السد موجود في الناحية الشرقية على ارتفاع ٩—١٢ متراً وهناك مخازن محفورة في الصخور وانقاض القلعة التي شيدها العرب في ارفع محل من الجزيرة وما عدا هؤلاء يوجد مخازن للماء لم تزل محافظة على كيانها الى الآن . وايضاً توجد في الجهة الجنوبية منها بنايات تحت الارض معلقة على جدرانها الكتابات .

ومن غرائب الطبيعة انه توجد بين قصبة المينا وقرية طامو الكائنة في الجهة الجنوبية بمسافة ساعة ونصف ينابيع الماء العذب تفور في عباب البحر على بعد ٥٠—٦٠ متراً من الساحل . وايضاً يوجد هكذا ينبوع بين طرطوس وجزيرة ارواد على عمق ثمانية امتار من سطح البحر . وكان الارواديون يستمدون ايام حروبهم من هذا الينبوع بواسطة انابيب من جلد يمدونها الى جزيرتهم . ولا يستكبر هذا الحال لان الماء يأتي من هضبة عن الساحل يبلغ ارتفاعها (٢٥) متراً . وان قانون الموازنة في الاجسام السيالة يقضي بترفع هذا الماء الى ان يبلغ سطح البحر .

ان مهنة الارواديين الذين معظم عددهم من المسلمين ، هي الملاحة واستخراج الاسفنج من البحر .

[ناحية] سنة ناحية طرطوس: واما القرى — تحد هذه الناحية من الشمال نهر الحصين وناحية خوابي ، ومن الشرق والجنوب قضاء صافيتا ويفصلها عن هذا القضاء نهر غمقة . وطولها اربع ساعات من نهر الحصين الى قرية عين الزرقة التابعة الى قضاء صافيتا وعرضها ساعة واحدة . اما مساحتها فتقرب من (١٦) كيلومتراً مربعاً .

ويوجد فى هذه الناحية التى غربيها الشمالى عبارة عن سهول ، وجنوبيها من الاراضى الرملية ، انهار حصين وغمقه وقبله . وجبال الشيخ سعد والدوير والخربيات فى الجهة الشرقية منها . وينبع نهر الحصين من ناحية خوابى الكائنة فى الجانب الجنوب الشرقى من قضاء مرقب ، ثم يقطع مسافة ثمانى ساعات حيث يصب فى البحر شمال طرطوس بساعة. اما جدول الغمقة الذى يصب فى البحر على نصف ساعة من العقبة فهو ليس بدائم الجريان . وطوله يبلغ خمس ساعات وينبع من جنوب قصبة برج صافيتا . ثم جدول القبله فقد ينبع بمسافه ثلاثة ارباع الساعة من الساحل ويسقى زهاء «٢٠٠٠» دونم من الاراضى ويصب فى البحر عند خرابة امريت . وان هضاب الخربيات التى هى اهم مرتفعات هناك يبلغ ارتفاعها «١٥٠» متراً .

ان الناحية تتألف من «٦٥،٠٠٠» دونم . ولا يستفاد الا من «٤٠،٠٠٠» دونم وما بقى منها فهى اما اراضى رملية ، او اراضى موات . مع ان مؤرخى الصليبيين يذكرون ان [جبال] طرطوس كانت محشوةً بالاحراج الكثيفة .

ها نحن نبين المحصولات السنوية لتلك الناحية

جدول سنة ١٣٣١

جنس المحصول	كيلوغرام
القمح	٥٠٠،٠٠٠
الشعير	١٥٠٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠،٠٠٠
الفول	٣،٠٠٠
الحمص	٣،٠٠٠
الترمس	١،٤٠٠

[و]تحمل الاراضى المغروسة اشجار الزيتون والتين فيها بمقدار ١٥،٠٠٠ دونم . غرس [فيها] قبل الحرب ثلاثة ملايين من الليمون . ويستغل الآن من كل واحد منها «٦٠٠ — ٦٠» [ليمونة] فى السنة .

[ا]ن ناحية طرطوس هى فى الجانب الشمالى بمسافة خمسين كيلومتراً من مركز اللواء ،

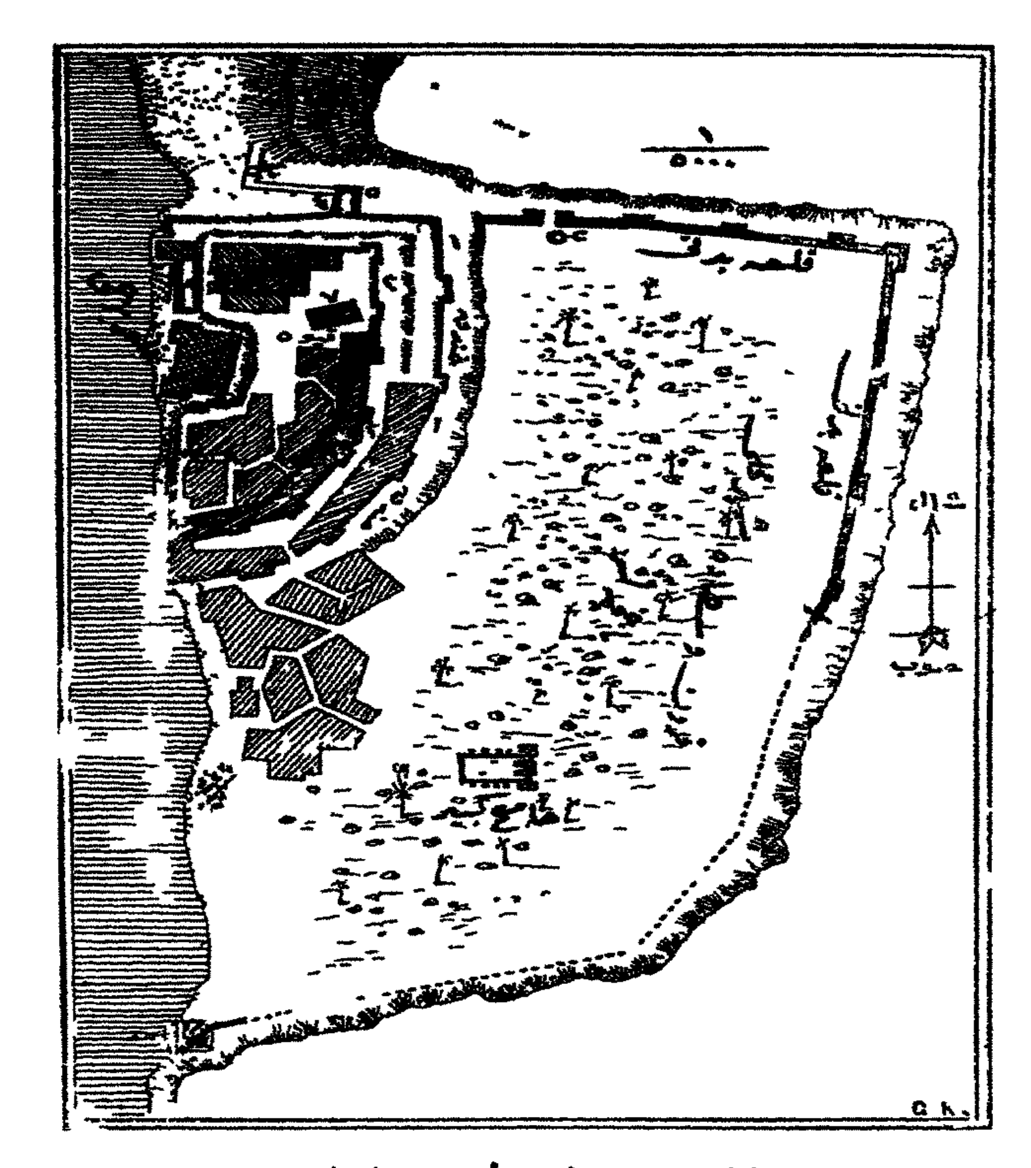
وتتألف من مركزها الكائن على الشاطئ والمسمى باسمها ومن اربع قرى وست مزارع. ومجموع نفوسها ذكوراً واناثاً (٥١٦٩) نسمة منهم «٣٨١٦» مسلمون و(٨٠٨) من الروم الارثوذكس و(٥٢٧) من المارونيين و(١٨) من البروتستانت. وبناء على الفقر المدقع السائد فى هذه الناحية، ما فتئ سكانها يهاجرون الى اميركا منذ خمسة عشر عاماً، فذهب اولاً المسيحيون، ثم المسلمون والنصيريون. وقد بلغ عدد المهاجرين الى الآن، زهاء «٣٠٠» نسمة. ويرسل هؤلاء الى عائلاتهم فى كل سنة مقدار (٥٠٠٠) ليرة.

ان قصبة طرطوس، مركز الناحية هى من آثار الفنيقيين، اسسها جالية الجزيرة المذكورة تجاه الجزيرة ولهذا سميت باليونانية (انتارادوس) اى تجاه ارواد وكلمة طرطوس محرفة منها.

ولما حل الرومانيون فى سورية اخذت هذه القصبة تسرع فى الرقى وزاحمت جزيرة ارواد. ثم ان قسطنطين ايمبراطور الروم شيد جميع ابنيتها سنة «٣٤٦» ميلادية ولهذا سميت قسطنطينا برهة من الزمن. وقد حصلت هذه القصبة التى ردت الى اسم *Tortosa* فى القرون الوسطى على موقع خطير والحقت بمقاطعة «قونتية» طرابلس. وفى سنة ١١٨٣ شيدها فرسان تامبليه وجعلوها فى الدرجة الاولى من التحصين. وفى سنة ١١٨٨ اضطر الفرسان «شواليه» لان يسلموا قسماً من قلعتها الى صلاح الدين الايوبى، بعد ان دافعوا عنها جهد الطاقة. ولم يلبثوا ان استردوها بعد وفاة ذلك البطل المجاهد ودامت سلطتهم فيها الى سنة ١٢٩١.

وفى هذه السنة قهر صلاح الدين خليل من الملوك البحرية فرسان طرطوس وغلبهم واستولى على هذه القصبة وجميع مشتملاتها وسلمها الى المسلمين، واضطر سكانها الى مبارحتها والانجلاء الى جزيرة قبرص. وهذا كان آخر حصن اضطر فرسان تامبليه الى تسليمه للمسلمين فى المحاربات الصليبية

تتألف هذه القصبة من الحصن، وسوره الذى شق خندقه فى الصخر. وان معظم هذا السور الذى كان على شكل رباعى غير منتظم مجهز بالبروج قد قضى عليه كر الادوار بالخراب ولم يبق منه الا الباب فى الجهة الشمالية. ويوجد فى داخل السور كثير من البساتين ودير طرطوس ايضاً «هو الان جامع». وهذا المعبد الذى هو احمل نموذج لطرز البناء فى القرن الثانى عشر يمتد من الشرق الى الغرب على طول اربعين متراً، وعرضه (٢٧) متراً. وبابه الظريف الذى فتح فى الجانب الغربى هو على الطراز العوتى وفوقه ثلاث منافذ، وتوجد فى جبهته دائرتان صغيرتان فيهما محراب. وداخل هذا المعبد عبارة عن مدخل يتحلله عمد متوجة تزدان حناجرها بالاوراق. ويزعم ان باني هذا المعبد هو «سن بيير» ولذلك كان حجاج النصارى يحجون اليه من كل الجهات.



الخطوط الداخلية فى قلعة طرطوس

١ بدن القلعة الثانية ، ٢ بدن القلعة الثالثة ، ٣ الجسر ، ٤ باب ، ٥ برج ، ٦ بهو كبير ، ٧ الكنيسة ، ٨ ممر مسقوف .

اما الحصن الكائن في الجانب الشمالي الغربي من القصبة القديمة فهو منفصل عنه بخندق واسع، وعليه كان لا يمكن المرور اليه الا على جسر نصب فوق هذا الخندق. يدخل اولاً من البرج الكبير الى دهليز ذي قبة؛ ومنه يوصل الى سور القلعة. ثم يقطع السور الثاني من خندق يعلوه الآن بالتراب الى ثغرة قائمة مكان الباب القديم، ومنها يدخل الى صحن القلعة ويوجد على يسار الباب بهو فسيح. وهذا البهو الذي هو اجمل و افسح من جميع البنايات التي بناها الصليبيون على هذا الطراز لم يبق منه الآن الا قسم يسير. وطوله ٤٤ متراً وعرضه « ١٥ » متراً.

وتوجد في الجهة الجنوبية الشرقية كنيسة. وفي منتصف صحنها باب. وكان يوجد في موقع القصبة اليوم بيوت خاصة للفرسان. ويروي ابن الاثير ان برج القلعة المشاهد في الجانب الغربي كان مجهزاً بمعاقل مربعة الشكل منها كان الفرسان يدافعون عن القلعة في قيادة رؤسائهم لما هاجمتهم جنود صلاح الدين الايوبي. وقد كان يدخل الى المخازن الفارغة التي لا تزال اليوم موجودة من باب مطل على البحر. ومنه كانت تدخل الذخائر التي تقلها اليهم السفائن.

[٤] — خرائب امريت — ان هذه الخرائب موجودة في الناحية الجنوبية من طرطوس على مسافة خمسين دقيقة. وتسمى عند الافرنج « ماراتوس *Marathus* » ولربما تكون هذه الكلمة مقابل امريت في اللاتينية.

ان هذه البلدة التي اسمها الارواديون كانت غنيةً ومعمورةً جداً اثناء تسلط الاسكندر الكبير على هذه البلاد. وفي سنة ٢١٩ الميلادية قطع اهلوها العلائق السياسية مع الارواديين. وقد نشبت بينهم حرب قبل هذا التاريخ في سنة ١٤٨ والقت بينهم العداوة والضغائن. ثم ان هذه القصبة فقدت قيمتها في زمن الرومانيين.

ان هذه الخرائب توجد الآن على ضفاف جدولي (امريت وقبله) وكانت قصبتها مبنية على هضبة صخرية، ثم اخذت تتسع حتى امتدت الى السهل. واول خربة من هذه الخرائب تسمى المعبد وهي في الشمال على مسافة كيلومتر واحد من مصب امريت. وهذه البناية عبارة عن صحن منحوت في الصخر طوله ٥٥ متراً وعرضه ٤٨ وجداره في الجهة الجنوبية لا يزال قائماً على ارتفاع خمسة امتار ويظن ان الجهة المطلة على الجانب الشمالي كانت محاطةً بجدار فيه بضعة ابواب. وتوجد في منتصف الصحن صخرة مربعة يبلغ ارتفاعها ثلاثة امتار، شقت من الشمال بشق يحاذي الوادي، وضربت عليها قبة. وترى آثار السلم في جانبها. يقول آرنست رينان في بحثه عن هذه الخربة [هذه هي اقدم معابد الساميين. ولا يمكن العثور على بيان غيرها يشف عن التقاليد الدينية لدى اولئك

ولهذا يمكننا ان نقول: ان طرابلس معرض فخم للبدايع والمحاسن، وللاحجار الكريمة التي تجذب معجب الانظار ترصيع لطيف، في تلك الارض الزاهرة، وتنسيق باهر .

اقترن فيها الياقوت والمرجان، والزمرد والزبرجد اقترانا سعيدا، فكان ذلك المنظر البهيج الذي هامت ببهجته الانظار . وما اصدق الشاعر السوري [*] الذي ادرك رحيق هذا الانجذاب، حيث قال مترنما بالوان طرابلس :

فالبحر والمرج النضير ورملها
فيروزج وزبرجد، مرجان

وهذا المعرض اللوني المشهور في طرابلس ما زال منذ القدم يحرك اوتار الشعراء ـ صمه وقد قال ابن مامية الرومي:

طاربعة سادت وساد مقامها
على سائر الامصار في البحر والبر
بابيض ثلج واحمرار كثيبها
وخضرة مرج قد حلا زرقة البحر ...

نعم ان طرابلس، كما قال مؤلف « تاريخ سورية » الفاضل [**] بيوتها المطلية سطوحها وجدرانها بالكلس، هي كالحمامة البيضاء المرفرفة على نهر « قاديشا » القديم الذي يخترق تلك الديار من الشرق الجنوبي، الى الشمال الغربي

ان هذا النهر الذي يسمى الآن بنهر ابو علي، ينبع من الجبال الجنوبية ثم يدخل بلدة طرابلس فيخترقها حيث يكون ربعها عن يمينه وثلاثة ارباعها عن شماله وبعد ان يتلوى بين بساتين الليمون مقدار نصف ساعة، يسير الى الجانب الشمال الغربي من طرابلس ويغمس في زرقة البحر

اما الناحية الجنوبية والشرقية من البلدة فهما تشكل هضبتين ويمر انهر ما بينهما فاذا اضربنا عن هذه البيوت التي يعلو بعضها بعضاً، تبقى البلدة عبارة عن شكل (قطع ناقص) يمتد من الشمال الى الجنوب في ساحة مستوية . فاذا فكرنا في اشجار الزيتون الخضراء التي اشغلت مسحة عظيمة على امتداد طرفي قطر هذا الشكل الهندسي العظيم، وتلك البقعة الخضراء المكونة من اشجار الليمون وغيرها التي احاطت بالبلدة من الجانب العربي، والشمال الغربي في ساحة لا تقل مسافتها عن كيلو مترين او ثلاثة تنتهي على رؤوس الامواج البيضاء من البحر الابيض، نعلم بداعة ان طرابلس ممنصة بهالة من الرياض الخضراء

---

[*] عبد الغني النابلسي .
[**] تاريخ سورية — جرجي يني

لاسيما وقد قام في جانب هاتيك الساحة الزبرجدية او الاكليل الزمردي، لمحيط طرابلس الالماسي ، بحر يتغلغل في البعد الى ما وراء مرامي البصر ، فكان كهالة من فيروزج لذلك التاج البهيج يزيده نوراً على نور .

وقصارى القول ان ضواحي طرابلس هي البقعة التي فاضت بالبدايع البهجة ، ثم ان الرمال الصفراء والحمراء التي غشيت هذه البلدة الفريدة من الجانب الشرقي والجنوبي لا تزال تلمع فيها ذكرى الكهرباء والياقوت . ولا بد للابصار ان تقمر حينما تبزغ الشمس من اعالي جبال « البعل » ، وتتوج بنورها الفضي على تلك البلدة البهيجة . وما الطف ماء طرابلس ايضا . ما اجمل ما يراه الناظر الذي يتصفح تلك الانحاء من سنام الهضبة الشرقية او الجنوبية يرى عيناً من نور معلقة باهداب الزرقة الملتهبة في الافق الاقصى، يندلق منها سيال ذهبي ينساب على اطلسة البحر ، وتتلاشى خيوطه النورية عليها. ثم يجعل « مينا » طرابلس القائمة في حجر البحر كانها صيغت من مينا غريقة في لج من نور ، ثم يجوس خلال هاتيك الرمال المرجانية ، ويتخطاها الى الرياض الزمردية ثم يندفق على البلدة حيث ينغمس بالماسها الساطع ، فيتموج بنوره الصفاض والوانه الجوالة برهة وينتشر بتلك الآفاق الزاهرة من طرابلس العطرة ، وينقلب الى رقدة قدسية . فترقد طرابلس تحت ظلال ذلك اللحاف المفروش في قبة السماء فوق تلك الساحة الفردوسية المرصع بلآلئ لامعة: هنالك تتعطر جميع هاتيك الانحاء بما تبعثه تلك المبخرة الصمدانية من النكهة المسكرة الى ان تودع الديجور مترقبة انفجار بركان النور من فوق هضاب « بعل » السامية . يا رب ما اجمل طرابلس ، وما الطفها !! ان كانت سورية في ديوان جمال الكون بديع قصيدة ، فلا جرم ان طرابلس هي بيت القصيد لتلك المنظومة الجمالية . لم يخطئ من سماها متندون بوحدة الحس على اختلاف انواعه ؛ وعلى هذا المذهب ، ان طرابلس هي انموذج للجمال .

لا بلدة في سورية تستطيع ان تفاخر بمناظرها الوافرة كطرابلس، ولا تكون غنية مثلها الا دمشق فوا اسفاه ليس لديها بحر . وبيروت ايضاً التي هي ملكة سواحل سورية لم تكن غنية ببدايع بهذه النسبة .

اما الامصار الاخرى السورية ، فلا ارى ان ابحث عنها . وعلى كل حال ان طرابلس بهضابها الخضراء ، ورمالها الحمراء ، ونهرها المقدس (*) الذي هو كخنية من سيال الجوهر وبمنتزهاتها المدنية ، وبخضرتها التي لا تتناهى ، ثم بحرها الذي كأنه من مذاب الفيروزج ، وبلياليها الفضية ،وبلآلئ نجومها المبتسمة في كبد سمائها، وبمحاسنها المتنوعة هي اجمل بلدة في سورية . وعليه فليقتصر سكانها عابدي التواضع عن تسمية ذلك المشهد الجمالي بدمشق الصغرى.

(*) ان نهر قديشا معناه « النهر المقدس »

حتى ان الفينيقيين ارادوا ان يقيموا في هذه الساحة الزاهرة تتوزجاً للبلدان ، فزجوا اذواق الصوريين والصيداويين والارواديين واوجدوا هذه البلدة الكاملة المؤلفة من ثلاثة بلاد . وايضاً ان اليونانيين يعتبرون هذه البلدة التي يسمونها «تريبوليس *Tripolis*» معادلة لبضعة بلاد . وعليه يحق للطرابلسيين ان يفاخروا ببلدتهم التي تجلت عن المثيل بين البلاد .

٢ — الخطوط الداخلية في طرابلس

[١] — بعد القصبة وبنيانها — كانت الساحة التي اشغلتها طرابلس في زمن الفنيقيين عظيمة جداً . وكانت البلاد الثلاث المجتمعة التي اسسها الصوريون ، والصيداويون ، والاوواديون تفترق عن بعضها بفراغ يسمونه مرحلة (ستاد) يمتد مسافة فرسخ . وحدود هذه البلاد كانت تبتدأ في الشرق من موقع مقبرة الروم الارثوذوكس القريبة من البلدة الآن في حدود الجبل وتمتد في الغرب حتى شاطئ البحر وتشمل مساحة بضعة كيلومترات . فاول هذه البلاد الثلاثة كانت على شاطئ البحر في موقع « الميناء » الحالية التي تبعد عن طرابلس مسافة نصف ساعة ، والثانية كانت في محل الملفتانية ، وهو محل مقبرة الروم الاورثودوكس اليوم ، والثالثة كانت في موقع « البحصاص » وهو في الجنوب الغربي من طرابلس .

اما قصبة طرابلس اليوم فهي تشغل السهل الكائن في حفاف هضبة «جبل ابو سمره» وهي كما بينا اثناء البحث عن ضواحيها مطوقة باشجار الزيتون والليمون . وتكاد تكون على شكل « قطع ناقص » . وطولها من الشمال الى الجنوب يقرب من كيلومترين وعرضها من الشرق الى الغرب يزيد عن كيلومتر . اما ناحية قصبة الميناء المربوطة بطرابلس و لكائنة على شاطئ البحر ، في نهاية البساتين التي تشمل بضعة كيلومترات هي فرصة لبلدة ، وبنية فضالة لها . واذ ان خط الترام الذي يسير بين طرابلس والميناء يقطع تلك المسافة بعشرين دقيقة اصبحت هذه الناحية من مشتملات تلك البلدة . لاسيما وان العمران على طريق الترام الذي يمتد في طرابلس من الشرق الى الغرب ، وفي الميناء من الغرب الى الشرق ، ولهذا السبب لا تلبث طرابلس ان تصل الى الشاطئ ، وتمتزج بتينه في الساحل .

ولنذكر انه لا يعثر الآن على شيئ من آثار البلاد الثلاثة القديمة الا على بقايا من مجاري المياه التي لا تزال تشاهد في خارج البلدة . اما البروج الموجودة على شاطئ البحر ا من مصب نهر ابو علي الى داخل الميناء وهي بروج « رأس النهر » و « الاربعين » و « السبع »

المغاربه والمفتى ، الشيخ ، هم من الآثار التاريخية التى كانت بعد الفينقيين ، وانما نتكلم عنهم حين البحث عن احوال القصبة التاريخية .

يتضح لنا من الابحاث المتقدمة ان طرابلس والمينا لا يفترقان ، ولذلك فان الآراء التى نبديها على خطوط طرابلس الداخلية ، ولاسيما على بنيانها فهى تتناول عين الاحوال فى المينا .

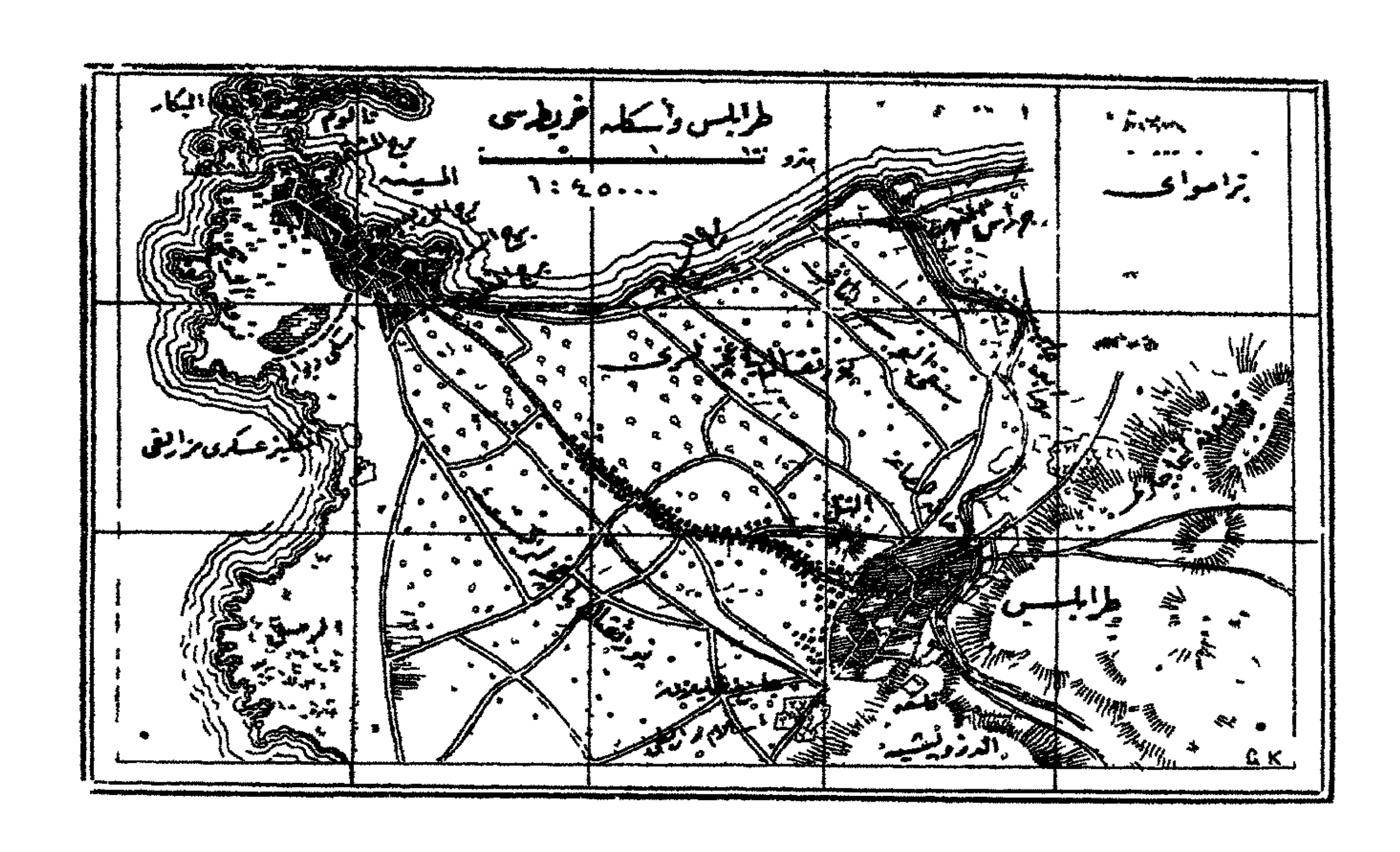
لا يصعب علينا ان نقسم البنيان فى طرابلس والمينا الى قسمين ، ونفرق بين الذوق القديم فى الانشاء ، وبين الحدث منه . ففى القسم الاول يغلب فى الابنية تقليد طراز الشام وطراز بنيانها ، والثانى يغلب فيه الطراز البيروتى .

ولنصحح هذه النقطة : من المعلوم ان بيوت الشام قائمة على ضفاف (بردى) وتوابعه من الانهار ، ولهذا كان من السهل ادخال المياه الى اكثر المساكن . وكثرة المياه هناك حدت بالشاميين لاعداد الرياض الصغيرة والسواقى والاحواض فى البيوت ، وكثرة الاحجار هناك مكنتهم من ايجاد الصحون فى دورهم ، وتبليطها بالرخام او الاحجار ، واعداد الاحواض فيها . ويبنون اكثر اقسام تلك البيوت فى الطابق الارضى ليتسنى لهم التمتع بالمياه ومناظرها ويتفننون فى ذلك فيشيدون الابهاء ، وفى منتصفها الاحواض والفوارات الرخامية .

والطرابلسيون ايضا اقبلوا على الاستفادة من مياه نهر ابو على ، واخذوا يقلدون الشاميين حذو القذة بالقذة ، وتراهم يفخرون بتسمية مدينتهم بالشام الصغرى . ولهذا السبب فان جميع البيوت القديمة فى طرابلس مبنية على هذا الطراز .

ومن اليوم نرى الطرابلسيين يحذون حذو بيروت فى الطراز ، فيشيدون بيوتهم على الطراز الحديث اى [illegible] ، ويمكن تعريف هذين الشكلين من الابنية بعبارة بسيطة فالطراز القديم [illegible] له سطوح مستوية مطلية ومرصوفة بالكلس الابيض ، اما بيوت الطراز الحديث فهى مستورة بسطوح مجلدة من القرميد الاحمر . واكثر بيوت طرابلس مبنية بحجارة سمراء تضرب بلونها الى السمرة ، يؤتى بتلك الاحجار من المقالع الكائنة على الساحل قريبا من المينا . وقد اخذ منذ [illegible] خمس عشرة سنة يطلون جدران البيوت بملاط الاسمنت « سمينتو » كي [illegible] خلال الاحجار ويحددون [illegible] خطوط [illegible] ، ثم تركز على [illegible] والهلال .

ونقدر ان نقول ان بيوت طرابلس [illegible] تارة ، والطراز الشامى الحديث ، او تمزج هذين الطرازين [illegible] . وكلها مبنية بالحجارة ، ولا يصنع من الخشب الا ابوابها ونوافذها وغيرها من فروع البناء . وبعض البيوت من الطراز القديم ، واكثرها من الطراز الحديث [illegible] على طبقتين .



طرابلس و أسكله خريطه سى
متره
١:٤٥٠٠٠
ترامواى
الميناء
طرابلس
الدرويشيه

المغاربه والمشتى ، الشيخ » هم من الآثار التاريخية التى كانت بعد الفنيقيين . واننا نتكلم عنهم حين البحث عن احوال القصبة التاريخية .

يتضح لنا من الابحاث المتقدمة ان طرابلس والمينا لا يفترقان ، ولذلك فان الاراء التى سنبديها على خطوط طرابلس الداخلية ، لاسيما على بنيانها فهى تتناول عين الاحوال فى المينا .

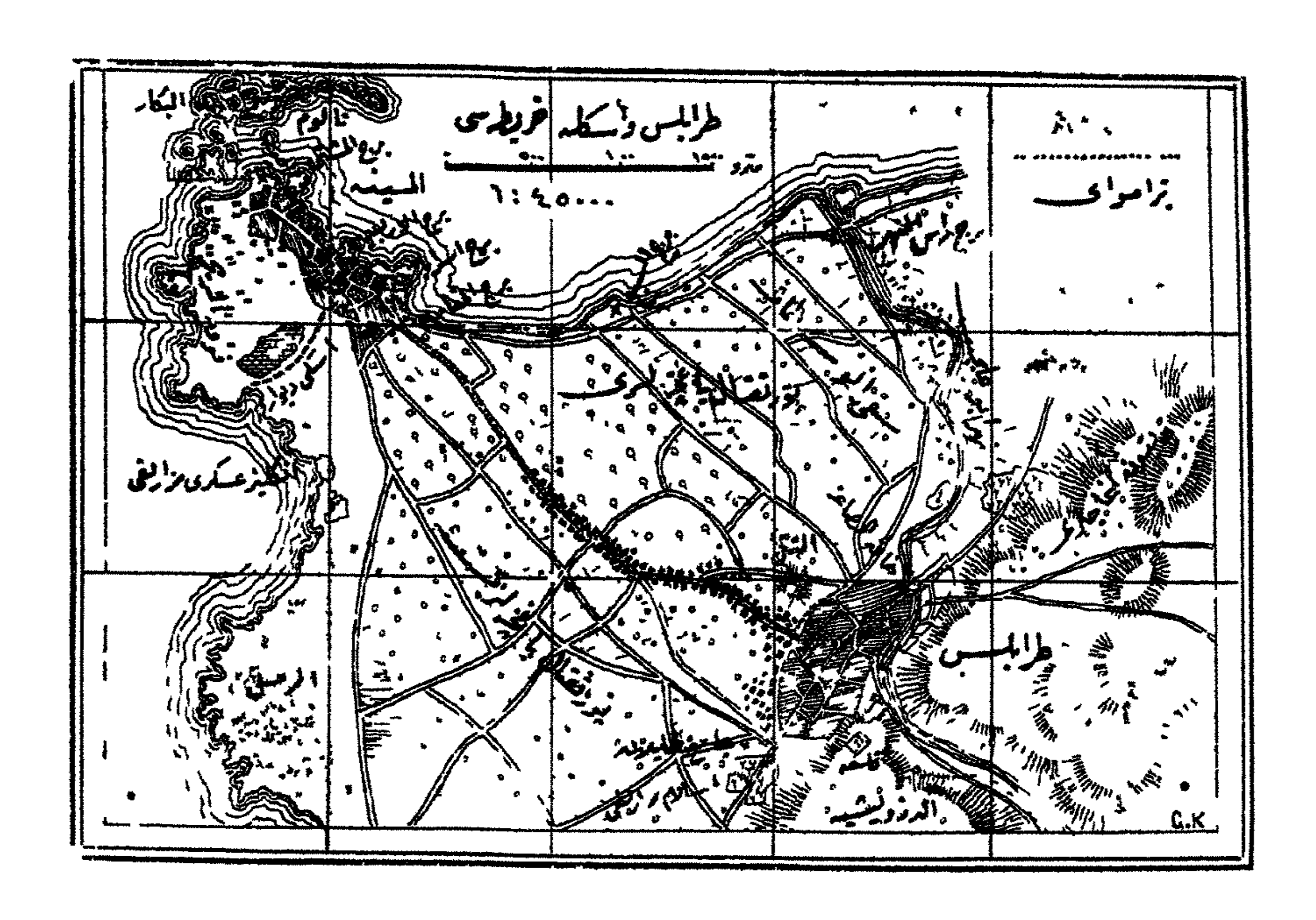
لا يصعب علينا ان نقسم البنيان فى طرابلس والمينا الى قسمين ، ونفرق بين الذوق القديم فى الانشاء ، وبين الحديث منه . ففى القسم الاول يغلب فى الابنية تقليد طراز الشام وطراز بنيانها ، والثانى يغلب فيه الطراز البيروتى .

لنفصح عن هذه النقطة : من المعلوم ان بيوت الشام قائمة على ضفاف (بردى) وتوابعه من الانهار ، ولهذا كان من السهل ادخال المياه الى اكثر المساكن . وكثرة المياه هناك حدت بالشاميين لاعداد الرياض الصغيرة والسواقى والاحواض فى البيوت ، وكثرة الاحجار هناك مكنتهم من اتخاذ الصحون فى دورهم ، وتبليطها بالرخام او الاحجار ، واعداد الاحواض فيها . ويبنون اكثر اقسام تلك البيوت فى الطابق الارضى ليتسنى لهم التمتع بالمياه ومناظرها يتفننون فى ذلك فيشيدون الابهاء ، وفى منتصفها الاحواض والفوارات الرخامية .

والطرابلسيون ايضا اقبلوا على الاستفادة من مياه نهر ابو على ، واخذوا يقلدون الشاميين حذو القذة بالقذة ، ونراهم يفخرون بتسمية مدينتهم بالشام الصغرى . ولهذا السبب فان جميع البيوت القديمة فى طرابلس مبنية على هذا الطراز .

[illegible] نرى الطرابلسيين يحذون حذو بيروت فى البناء ، يشيدون بيوتهم على [illegible] مسقوفة [illegible] . ويمكن تفريق هذين الشكلين من الابنية بنظرة بسيطة [illegible] له سطوح مستوية [illegible] ومرشوشة بالكلس الابيض ، اما بيوت الطراز الحديث فهى [illegible] محدبة من القرميد الاحمر ومن اكثر بيوت طرابلس مبنية بحجارة سمراء [illegible] ، وتؤتى بتلك الاحجار من المقالع الكائنة على [illegible] من [illegible] . [illegible] خمس عشرة سنة يطلون جدر البيوت بملاط ابيض [illegible] كى لا [illegible] رطوبة من خلال الاحجار ويحددون بها [illegible] ، ثم [illegible] شارة نجم و هلال .

[illegible] القول ان بيوت طرابلس يغلب فيها [illegible] تارة ، والطراز الشامى اخرى ، او تمزج هذين [illegible] فيها ، وكلها مبنى بالحجارة ، لا يصنع من الخشب الا [illegible] وابوابها ونوافذها وغيرها من فروع البناء . وبعض البيوت من الطراز القديم ، واكثرها من الطراز الحديث [illegible] على طبقين .



طرابلس وأسكله خریطه سی
متره ١٥٠٠ ١٠٠٠ ٥٠٠
١:٤٥٠٠٠
ترامواى
المینه
طرابلس
الدرويشيه
C.K

. وان ثلثي البيوت في طرابلس التي يبلغ عددها عشرة لاف بيتاً هي من الطراز القديم وثلثها من الطراز الحديث . فالقسم الذي يبدأ من يسار نهر ابو علي ويمتد الى الجانب الغربي من البلدة المسمى بالتل ، او طرابلس القديمة . هي عين دمشق القديمة . والبيوت في هذا القسم وان وجد في بعضها رياض صغيرة ، وبينها دروب ضيقة ولكنها متصلة ببعضها ومسورة بالجدران الطويلة المجتمعة . وان هذه الدروب في القصبة هي على درجة من الضيق تذكرنا بالقرون الوسطى ، وعقدت فوقها الحنايا والقباب الراطبة المطحلبة [*] فزادتها ضيقاً على ضيق .

ثم ان الرطوبة التي احدثها رشح المياه من المجاري المارة في اسفل الجدران ، والعفونة القذرة التي تنبعث من مجاري المراحيض تحت الطرق جعلت ممر هاتيك البيوت لا يسلك . وداخل تلك البيوت ايضاً هو على آخر ما يكون من الرطوبة وعدم تجدد الهواء . ومهما ادعى بعض مدافعي طرابلس بان بيوتهم الوسخة التي يظنها الانسان مهيأة للسقوط على رأسه ، هي نظيفة نقية من الداخل . فعندي لها الرأي الذي لا يتزلزل . وهو انها من الشوائب المدنية والصحية في طرابلس . وعليه يجب ان تختم حياتها ، ولا يجعل له نصيب بعمر اكثر من هذا .

اما البيوت من النسق الحديث فهي تشاهد في موقع « القبة » العالي المتصل بالمحلات الكائنة على يمين ساحل نهر ابو علي ، ثم في انحاء « التل » من غربي البلدة .

ان موقع «القبة» في طرابلس يطل على منظر متناه في اللطافة والحسن ، يستقبل الهواء الحلو الذي يهب من الغرب ولهذا كان ارغب المحلات في نظر الطرابلسيين ، واذا نظرنا الى البيوت التي شيدت في اعالي هذا الموقع ورأينا تباعدها عن بعضها بصورة تفسح الى الهواء ان يسترسل فيها . ثم الى ابنيتها حيث تطل على جمع البدائع الطبيعية في طرابلس . يسهل علينا ان نطلع على درجة رجحان تلك المساكن وتفوقها .

ثم ان نظارة موقع التل من جهة البلدة لطيف ايضا . اذ يرى الناظر البيوت ايضاً تتدرج بالترفع بعضها فوق بعض بصورة تكون حبلاً من العمران . ثم ان القسم الآخر من الابنية الحديثة هو في الساحة التي عرفت باسم « التل » . وكان هذا الموقع من قبل ، عبارة عن سهل رملي . اما الآن فقد شيدت فيه كل البنايات الفخمة التي تفتخر بها طرابلس ثم ان دار الحكومة ، وبرج الساعة ، وروضة البلدة ودار البريد والقنصليات والمصارف والفنادق ، ومركز الترام ، واغنى المخازن كلها حشدت في تلك الناحية ، ولهذا اصبح موقع التل له الموقع العظيم في تلك البلدة . بما فيه من الشوارع الواسعة والمباني الرصينة

---

* الطحلب خضرة تعلو الماء المزمن .

وما زال يتدرج في الرقي . ويمكن ان نقول ان طرابلس الجديدة عبارة عن هذا الموقع . ولا يفتأ الطرابلسيون يترنمون بامتداح ما كان من حسن هذا الموقع قبل نشوب الحرب العامة يزعمون انه كان يلتطم نهاراً بازدحام هائل من الناس والمركبات حتى لقد يعسر المرور منه . وان المركبات كانت تضطر كثيراً الى التوقف في الطريق الموصلة الى المينا حتى تتمكن من المرور . اما في الليل فكان يتلألأ فيه اكثر من ستين مصباحاً تجعله غريقاً في لجة من نور . ولا يمكن تصوير تلك الضجات وجلبة الطرب والسرور من الناس الذين حشدوا في تلك المسارح ومحلات اللهو المتعددة .

نعم لم تزل تبنى على حفافي شارع الترام الابنية المنتظمة ، التي تناهت في الظرافة والمتانة فاذا ثوبر على هذا الاعمار ، وكثر عدد تلك المباني ، ترشح طرابلس ان تكون اول بلدة في سورية بخطوطها الداخلية ايضاً كما كانت في مناظرها الخارجية .

ومع ذلك فان طرابلس بجوامعها العظيمة ، وكنائسها الكبيرة تشعر بانها بلدة «شرقية» ويوجد في طرابلس مقدار اربع عشرة جامع منبثة في انحاء البلدة بمنارات ظريفة ناصعة ، رفيعة الذرى ، وقباب بيضاء . منها «الجامع الكبير المنصوري ، التوبه ، العطار ، الطحـام ، ارغونشاه ، المعلق ، طيلان ، عبد الواحد المغربي ، الاويسية ، البرطاس ، محمود بك السنجق التقاص — الحميدي »

ثم اذا علمنا انه يوجد فيها ما عدا هؤلاء الجوامع مقدار عشرين مسجداً ، ومدارس قريبة من هذا العدد ، واربع تكايا ومولوية (درويشية). نعلم ان طرابلس بلدة اسلاميـة دون شك . ولكن يا الاسف ان اكثر هذه الآثار الاسلامية مهملة لا يعبأ بها ، مشرفة على الخراب لدرجة توجب العار والخجل. ثم ان الملة النصرانية اوجدت هناك كثيراً من المعابد الجميلة . مثل كنيسة «ملاك ميخائيل ، السيدة العذرا » للمارونيين ، و« جاورجيوس» للروم الكاثوليك و« مار جرجس ، مار نيقولا ، مار ميخائيـل» للروم الاورتودوكس . ومجموع عددهن اربع عشرة كنيسة . ثلاث منها للروم الاورتودكس وخمس للاتينيين [ومن هؤلاء الخمس ثنتان للفرنسيسكان والواحدة تخص «*Filles de la charité*» ، وواحـدة الى اللازاريين ، وواحدة تخص «*Carmes*»] واربع للمارونيين ، وواحدة للروم الكاثوليك وواحـدة للبروتستانيين . وكنيسة لليهود ، وتوجد دار للايتام ومدرسـة للبنات تخص «الاخوات *Sœurs*» الفرنساوية . وجماعة «*Les frères des écoles chrétiennes*» دير ومدرسة (*) ويوجد مسكن يسكن فيه المبشرون الاميركانيون ، ومدرسة للبنات تخصهم وهذا يدلنا على درجة غناء طرابلس بالابنية .

---

* تسكنه اليوم المدرسة السلطانية .

نريد قبل اتمام هذا البحث ان نتكلم على بعض المباني التاريخية ، والرسمية والخانات وما يماثلها . ولا مرية في ان اهم بناء تاريخي في طرابلس هي القلعة الكائنة في الجانب الشرقي من البلدة . وبما اننا سنتكلم عنها اثناء البحث عن تاريخ طرابلس ، نضرب الآن عن الدخول في هذا الموضوع . ومع ذلك فان تلك القلعة التي جعلت اليوم سجناً للمحكومين هي على جانب عظيم من اللطافة . وقد كانت مشهورة بمناعتها وحصانتها . ولما فتحها السلطان قلاون هنأه بهذا الفتح « مجد الدين الحيمي » لشاعر بقصيدة غراء مطلعها :

هنيئاً ايها الملك الهمام
بنصر لا يريم ولا يرام

ثم بعد ان هنأه بهذا الفتح العظيم ، انتقل الى بيت القصيد فقال واجاد :

وظنوا انهم قوم عظام
فها هم في جوانبها عظام

والآن فان تلك القلعة المسيطرة على موقع طرابلس تشمخ كانها تريد نطح السحاب بما تحتويه من رميم العظام .

اما المباني الرسمية فمنها دار الحكومة ، ودائرة البلدية ، وخان العسكر الذي كان ثكنة للجنود ، ثم خان الماء ، والمستودع العسكري ، وبضع بنايات للمدارس . وكلها ليست من المكانة والرصانة بدرجة تليق بعظمة موقع طرابلس . ثم يوجد برج الساعة تجاه دار الحكومة ، وهو خلو عن كل مهارة وصنعة .

ولكن « مستشفى عزمي بك » الذي شيد العام الماضي في الجنوب الشرقي من القصبة على هضبة عالية هو اثر عمراني ثمين جداً ، نتعزى به الآن .

اما المخازن والحوانيت والخانات وما اشبهها فهي كثيرة في هذه البلدة ، ويمكن ان يبلغ عددها الى الفين . ولا بأس بمخازن الامتعة والاقمشة الحريرية في طرابلس . ولا سيما أبهاء الحلاقين فانها متناهية في الزينة والترتيب وفيها سبعة او ثمانية حمامات وهي تماثل حمامات الشام . ويوجد بين خانات طرابلس التي يبلغ عددها الثلاثين ما هو حري بان يسمى مجمع التجارات . اما الحوانيت الموجودة خارج هذه المحلات فانها عبارة عن زوايا للاوساخ .

هذا ولننقل البحث ، بعد ما اجملنا الخطوط العمرانية في طرابلس الى المينا التي بينا سابقاً انها تتمة لهذه البلدة :

ان هذه القصبة التي تحتوي على قريب من الفي مسكن ، وثمانية آلاف من النسمات هي فرضة متوسطة في الجسامة .

ما زالت هذه القصبة تمعن في الرقي والعمران بفضل اهتمامها في الامور البحرية ،

حتى دهمتها الحرب، فسقطت عن مركزها وغدت تتجرع الم الاضمحلال وياللاسف. فالجمرك، والرصيف، ووكالات البواخر والمستودعات وبيوت التجارة والفنادق وامثالها من المؤسسات التى كانت معرضاً للبيع والشراء البالغ، اصبحت اليوم وهى خراب ينعب فيها البوم والغراب، واغلقت الحوانيت وفرغت البيوت واقفرت الشوارع، وفقدت القصبة جميع حياتها ما عدا بضعة بيوت كبيرة لمتمولى طرابلس فى الجهة الشرقية من القصبة.

اصبحت هذه القصبة التى لا يزيد عدد نسماتها اليوم عن الالف تتجرع غصص الاحتضار الهائل ببيوتها التى كانت ميدان الهمة والعزم، او معاهد الذوق والطرب. وانها تنتظر زوال هذه الحرب اكثر من كل البلاد. ويتمنى القلب ان لا يطول انتظارها والا فالدمار محتم على هذه الفرضة الطرابلسية اللطيفة.

[٢] — *محلات طرابلس، وطرقها، وجسورها* — يجب علينا قبل البحث عن محلات طرابلس ان نعين التقسيمات التى اوجدتها العوارض الطبيعية. نعم ان نهر ابو على من جهة والهضبة الكائنة فى الشرق الشمالى من البلدة من جهة اخرى قسمت طرابلس الى ثلاثة اقسام:

فالقسم الاول، هى الساحة الكائنة على الجانب الايسر من النهر، وهى تضم ثلاثة ارباع البلدة، والقسم الثانى الذى على الضفة اليمنى من عين النهر، والقسم الثالث هو انحاء القبة».

توجد على الضفة اليسرى من النهر ثمانى محلات. تمتد من الجنوب الى الشمالى على شكل قطع ناقص، وهى «بوابة الحدادين والمهاترة، النورية، التربيعه، باب الحديد، العدسه، ثم فى الجهة الغربية من هؤلاء محلة (الرمانة) وبعدها (تل الرمل)،

وان احدث هذه المحلات، واجدرها بالبحث هى محلة (تل الرمل) التى مر ذكرها. وان توسع هذه المحلة واقبال الطرابلسيين عليها حيث يتخذون مساكنهم فيها وينقذون انفسهم من رطوبة البيوت القديمة وعفونتها، هو من الامال التى يجب الركض وراء تحقيقها،

اما فى الجانب الايمن من النهر فتوجد محله «الجسرين» و«باب التبانة» وفى الجهة الشرقية الشمالية توجد بيوت «قبة النصر».

ولا جرم ان احسن محلة بين هؤلاء المحلات من حيث جودة الهواء وجمال النظارة هى «القبة». ولكن «التل» هى الارجح من حيث العمران وانتظام البنيان.

لم تتعين المحلات فى طرابلس على طريق الاختصاص باحدى الملل المختلفة؛ بل ان النصارى الذين هم خمس السكان يقطنون فى محلات المسلمين، ولا يزالون محافظين على هذه العادة. على ان عددهم فى محلة التربيعة والرمانة والنورية كثير بالنسبة لغيرها.



اسكلة طرابلس الشام

اما الطرق فى طرابلس ، فهى تنقسم الى قسمين . لأن بين الطرق فى داخل البلدة وبين الخارج منها بون عظيم. ان الطرق الكائنة فى خارج البلدة وان تكن على غير كفاية من الاتساع ، لكنها تصلح للمرور . ولكن الطرق الموجودة فى الداخل فهى من القذارة، والعفونة بدرجة لايتصور اكره منها . وهذه الطرق بطحلب مقاسم المياه، وقذارة مجارى المراحيض المارة من تحتها، المياه الوسخة التى تندفع من البيوت ، وبالأوساخ التى يعارج بها السكان ، هى لامراء بمثابة الامعاء المحمومة فى جسم تلك البلده اما الاقسام الموصله الى النهر التى تصعد وتهبط فهى احط وادنى من انقاب الجبل . لاسيما وان المرور من الطرق التى تباع فيها المواد الغذائية فهو مما لايتحمله ارباب الذوق السليم ،ومن اعظم خطأ الطرابلسيين الذى لايجوز الاغضاء عنه ، هو افراز اوساخهم ، وقذفها على الطرق . فهذا الاهمال لاينطبق على مايؤثر عنهم من نظافة بيوتهم .

لايمكن تعداد هذا النوع من تلك الازقة التى تعقدت فى بعضها وليس ينافع ايضاً ولذلك اننا نذكر الطرق الموجودة فى خارج البلدة ، ثم الطريق الوحيد فى الداخل :

فالطريق الاساسى فى الداخل يبدأ من جنوب البلدة من مقبرة المسلمين القريبة من محلة بوابة الحدادين ويقطع القصبة من مبدأها الى منتهاها . وله رصيف ، وهو [illegible] وليس له اسم لانه يتسمى باسم المحلات التى يمر عليها . كبوابة الحدادين و[illegible] والعطارين والصاغة والبزركان ، والملاحة والجسر والتبانة . ومعظم ازقة طرابلس [illegible] بهذا الطريق .

اما الطرق الموجودة فى خارج البلدة ؛ فأولها طريق الاسكلة . وهو طريق [illegible] يبدأ من تل الرمل وينتهى فى الميناء . وطوله كيلومتران ونصف . اما عرضه [illegible] وعشرين متراً . و الترام الذى يجر بالخيل ويصل البلدة بالميناء يمشى على هذا الطريق

اما الطريق المعروف (بطريق البحصص) ؛ فهو يبدأ من دار الحكومة [illegible] الى منتهى الجنوب من البلدة . وله فرع يمتد من تل الرمل الى محلة [illegible] ثم [illegible] بطريق حمص .

ويوجد الطريق المسمى « طريق عزمى بك » وهو يمتد من [illegible] تل [illegible] البحر . وطوله يقرب من كيلومترين وعرضه خمسة وعشرون متراً وكان [illegible] والتعبيد بطريق الوزن

ثم يوجد خارج البلدة [illegible] هذه الطرق [illegible] الطريق [illegible] وينتهى فى بيروت [illegible] حمص [illegible]

ثم هناك فرع [illegible] طرابلس ـ حمص [illegible]

اما جسور طرابلس فهى [illegible] ابو على . [illegible] « الجسر الجديد » كائن فى محلة

« الجسرين » ثم « جسر الشيق » فى محلة التبانة ، والثالث « جسر التراموای » الكائن فى اقصى الشمال من البلدة . والجسران الاولان هما على غاية من الوهن والتداعى.

[٣] — ماء طرابلس — يمكن ان يقال ان طرابلس غنية بالمياه غناً كاملاً . لان نهر ابو على الذى يقطعها من مبدأها الى منتهاها ، وماء رشعين — مع محاذيره التى سنتكلم عنها حين البحث عن الاحوال الصحية — الموزع على اكثر انحاء البلدة بانابيب الفخار لا زالا يفيضان الحياة الخضراء على تلك البقعة . ونهر ابو على هذا كان الاقدمون يسمونه « قاديشا » كما بينا سابقاً . ويزعم الطرابلسيون انه كان على ضفاف هذا النهر مستشفى اسم صاحبه « ابو على » ، فنسب نهر قاديشا الجارى من هناك لاسمه : وكان نهر ابو على .

ينبع هذا النهر من موقع يعرف بالدواليب الكائن تحت « ارز لبنان » الشهير وفى جوار قصبة بشرى فى لبنان. فيتجه الى الجنوب الغربى ، ثم يصب عليه جدول « رشعين » و« المخاضه » ويمر من طرابلس متجهاً من الشرق الجنوبى الى الغرب الشمالى ويصب فى البحر بعد ان يتسع مسافة كيلومترين منها .

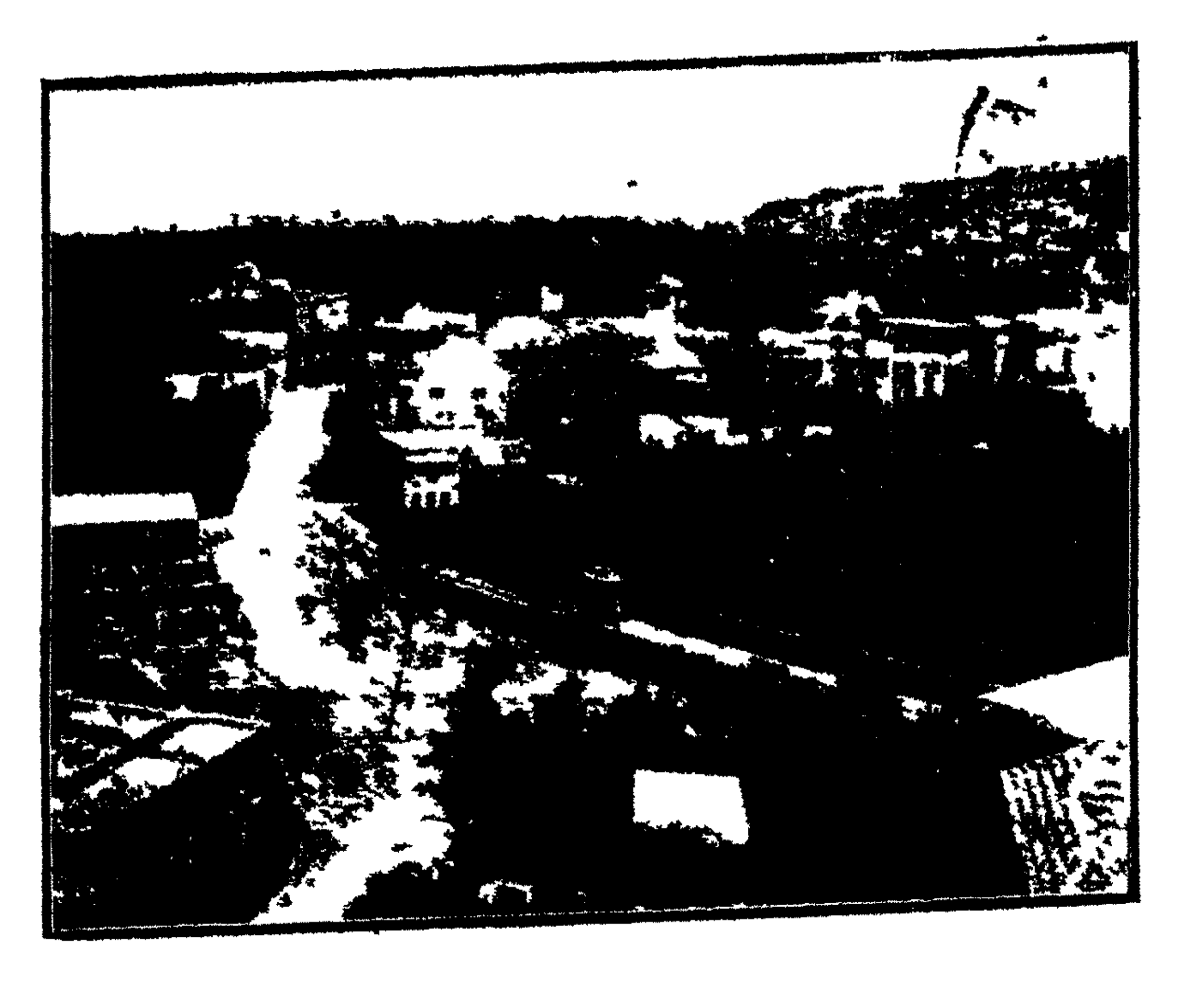
كان هذا النهر عرضة لكل وساخة حين مروره من طرابلس. وعليه فالذين لا تمكنهم الاستفادة من ماء رشعين لبعد علو بيوتهم يستعملون ماءه ، ولا جرم انهم ليضرون بها انفسهم على ان هذا النهر يروى بمائه بعد ان يفارق طرابلس ساحة عظيمة من الحدائق التى جعلت الحياة الفياضة فى طرابلس. وهو الذى اتحف تلك البلدة بجناتها الزمردية .

ان مياه طرابلس الاساسية تأتى من « رشعين » . وهذا الجدول ينبع من موقع فى جبل لبنان يسمى بهذا الاسم ، ثم بعد ان يصل الى قصبة (زغرته) يفترق عنه القسم الذى يقوم بحاجة طرابلس . ويؤتى به الى « تحت القلعة » حيث يوجد مدخر الماء ، ومقاسم التوزيع .

وقد يزعم بعض القناة التى يجرى فيها الماء اليوم هى من زمان الصليبيين . وان تسمية بعض قسامها بقنطر البرنس يدل على صدق هذا الزعم .

بعد ان يتكوم ماء رشعين فى مدخر تحت القلعة يسيل فى انابيب الفخار الى جميع اطراف البلدة . وهذا الماء ينقسم بعرف البلدة الى اثنين وسبعين مقسما « قرية » ، ثم ان كل قرية تنقسم الى اثنى عشرة شعبة « مقسم صغير » . وعلى هذا الترتيب توزع المياه على بيوت طرابلس حسب الاستحقاق المعروف فى البلدة ، والمسجل فى دائرة البلدية . ويوجد لهذه المقاسم مقاسم اخرى فى داخل البلدة تنقسم فيها المياه مرةً ثانية .

ان اصل ماء رشعين هو صاف ونظيف ، ولكن اساته فى انابيب الفخار التى لا تمنع ترشح الماء



شارع الزاهرية في طرابلس الشام

وتحليه اوجبت تعكير صفوه وتلوثه بعد ان دخل البلد ، ولو كانت انابيبه مصونة صحية لافاض ماء الحياة الحقيقى على هذه البلدة . فيجب على الطرابلسيين ان يفكروا بهذا الامر الحياتى قبل كل شيء . وما عدا هذا يوجد فى بعض البيوت الكبيرة آبار من المياه العذب . ولكن عددهم قليل لا يستحق الذكر . ثم يوجد اكثر من مايسة صهريج اكثرها فى محلة القبة ، تخزن فيها مياه المطر ، ولا جرم انها انظف ، واطيب المياه الموجودة فى طرابلس .

[٤] — **المنتزهات والمقاصف** — ان ما مر علينا من البحث عن ضواحى طرابلس عرفنا بان جميع انحاء هذه البلدة الزاهية هى منتزهات ومقاصف .

نعم ان طرابلس الجديرة بان تفتخر على معظم البلاد بمناظرها البديعة الوافرة ، فيها منتزهات عديدة ومقاصف شتى . فالقبة التى حازت بارتفاعها على ابهى المناظر ، وهضبة « ابو سمره » هما بالنظر الى طرابلس من اجمل المواقع الشعرية التى تسل الهموم من القلوب ثم ان هالة الرياض التى توشحت بها تلك البلدة الطيبة فيها اهنأ الاندية الزمردية لاولى الاذواق والطرب . لاسيما تلك الساحة الخضراء ، اللطيفة القائمة بين طرابلس والمينا لا يكون ابدع منها عند المساء او فى الليالى المقمرة ، وان تل الرمل وما فى جواره ، بنسيمه الذى يتاقى الارواح بابتساماته المنعشة ، لا جرم هو من اهنأ البقاع ، ارغدها .

وان موقع لدرويشية فى الناحية الجنوبية المطل على الوادى وما حوله هو لطيف ايضاً ثم « البداوى » فى الشمال ، و « برج رأس النهر » مصب نهر ابو على فى الجانب العربى ، وغيرها من البقاع هى على ما لا مثيل له بالجمال واللطافة .

يود القلب ان لو كانت الآثار الصناعية والمدنية فى طرابلس موفرة وراقية تجاه تلك الثروة الطبيعية الممتازة . فتتمتع بالسعادة و لعمران . نعم لو كان لهـا نصيب من البدائع المدنية ، وقامت فيها الشوارع الواسعة النظيفة ، ووسائط الجر الكهربائية والجسور المنتظمة والمياه النظيفة والمعامل الجسيمة والمدارس العظيمة ، والمؤسسات الخيرية العمومية ، واستعد نهرها لسير السفن ، وشيدت فيها التماثيل وحنايا الظفر ، ودور التمثيل ، ومعارض البدائع والمنتديات الحية ، والمطابع الضخمة وكان لها امة حية ، وادمغة كبيرة محترمة . لارتبت اتقان الانسان معززاً بابداع الخالق . ولكانت يومئذٍ جديرة بان تنحنى امامها الرؤس اجلالاً .

٣ — الاحوال العمومية

[١] — **قصبة طرابلس الشام** — ان هذه القصبة كائنة على ٣٤،٢٦ درجة من

العرض الشمالي و٣٣،٣٠ درجة من الطول الشرقي على شعبة من سلاسل لبنان تبعد عن شاطئ البحر مسافة عشرين دقيقة ، وهي في الشمال الشرقي عن بيروت بمسافة (٨٠) كيلومتراً ، وفي الجهة الجنوبية من اللاذقية بمسافة (١٣٥) من الكيلومترات وان نهر ابوعلي المسمى في التوراة «كاديشه» اي المقدس، يجري في وسط تلك البلدة ويقسمها الى قسمين . وينبع هذا النهر من محل «الدواليب» حيث يوجد ارز لبنان فوق قرية البشرى ، ويتجه الى الجنوب الغربي فيصب عليه جدول رشعين والخاضة ، ثم يدخل طرابلس فيقطعها من الشرق الى الغرب ، ويصب على البحر عند برج رأس النهر.

تتألف هذه البلدة من قسمين، كما هو الحال في بعض المرافئ السورية . فقصبة الاسكلة الواقعة على الشاطئ ، تبعد عن البلدة مسافة ثلاثة كيلومترات ، وهي مركز الناحية التي تدعى باسمها ، وهي مربوطة بالبلدة بخط ترام انشئ في زمن مدحت باشا .

[٢] — عدد السكان — كان عدد السكان في بلدة طرابلس سنة ١٣٣٢ (٢٤٠٣٦) نسمة ، في قصبة الميناء (٨٥٣٥) نسمة هذه مفرداتها :

	بلدة طرابلس		قصبة الميناء	
	الذكور	الاناث	الذكور	الاناث
المسلمون	١٠٢٥٠	٩٧٠٤	٢١٣٦	٢٠٢٠
الروم الاورثوذوكس	١٥٠٠	١١٤٣	٢٣٨٩	١٧٥٩
المارونيون	٦٢٨	٦١٤	١٢٤	١١٠
اللاتين	٩	١١		
كاثوليك	٢٤	٢٢		
البروتستانت	٢٤	٢٧		
اليهود	٣٥	٣٧		
المجموع	١٢٤٧٠	١١٥٥٨	٤٦٤٩	٣٨٨٦
	٢٤٠٣٦		٨٥٣٥	

كان عدد سكان طرابلس سنة ١٣٢٣ (٢٤٣٦١) نسمة وعليه يكون مقدار الزيادة في عشر سنين قليلاً جداً .

اما عدد الاجانب فيها فكان سنة ١٣٠٧ [illegible] وسنة ١٣١٩ [illegible] وسنة ١٣٣٢ (٤٤٨) نسمة [illegible] سنة ١٣٢٧ [illegible] (١٧١) و [illegible] ٣٢٩ (١٢٦) وسنة ١٣٣٢ بلغت الى (١٢٣١) نسمة

ان الجدول الاخير يرينا بمقدار بعد ارقامنا عن الحقيقة . لان الحمى التمثية التي انشبت مخالبها القتالة في طرابلس وفتكت بسكانها فتكاً ذريعاً سنة ١٣٣٢ ، لم تهلك ١٢٣٦ نسمة فقط ، بل افنت خمسة او ستة امثالها . ان البحث عن لدات البلاد ووفياتها هي بمثابة الاستطلاع على حالتها الصحية ، او بالاجدر هي وزن قدرتها وعظمتها . بيد ان الميزان الذى استعملناه مصنوع مادته بعيدة عن الحس ولا تعرف قدر الوظيفة تراها لا تعبأ بجداول الاعداد زراعية كانت او صحية او اجتماعية . فالارقام الرسمية التى حررناها فى كتابنا الاول وفى هذا الكتاب ايضاً ، لا ننكر انها خطأ . لانها ضبطت على غير علم وروية . يود القلب ان لو كانت لدينا ارقام واضحة وصحيحة فنطلع منها على ما ، ان طرابلس الشام احسن حالاً من بيروت ، وعكا ونابلس ، فى الامور الصحية والزراعية وغيرها ام لا ؟ ماذا علينا لو اعتنينا فى استقاء الارقام الصحيحة كما فى الدول الراقية ، او على الاقل كبلغاريا وصربيه ويونان الذين لم يطل عهدهم بالرقي . ولكن من العبث ان نتطلب الانتظام فى قيود النفوس بأسسنا الحالية ، وبهؤلاء المأمورين الذين لا يزيد راتبهم عن خمس ليرات ، ولا سيما المخاتيرة الجاهلون الذين لا يعرفون معنى الوظيفة . فهل تحصل يا ترى فى الآتى على دواء لهذا الداء العضال ؟ ! ...

[٣] — *مجمل تاريخ طرابلس* — كانت هذه البلدة موجودة فى القرون الاولى . ويزعم قدامى المؤرخين ان فنيقيو صور وصيدا وارواد اسسوا مجلساً دائماً يلتئم فى طرابلس لاجل الاشتغال بالامور الخطيرة وقد كانت كل بلدة من هذه الثلاث ترسل مأة عضو الى هذا المجلس ، وقد كان اولئك المفوضون يسكنون فى محلات متفرقة ولهذا سميت (ترابوليس Tri-polis) ، معناها ثلاثة بلاد . وكانت هذه البلاد فى موقع الاسكلة اليوم ، والسلفتانية التى هى اليوم مقبرة الروم الارثوذوكس وموقع البحصاص .

ويظن ان الهياج العام الذى اقامه الفنيقيون تجاه الايرانيين سنة ٣٥١ قبل الميلاد كان بتراء من هذا المجلس . والفنيقيون الذين كانت حياتهم فى التجارة كانوا يبنون جميع بلادهم على السواحل ، ولذلك كانت بلدة طرابلس مبنية فى شبه الجزيرة الموجودة عليها اليوم قصبة الميناء . وقد كانت كل واحدة من هذه البلاد الثلاثة محاطة بخندق يعصمها من كيد الاعداء وتجاوزهم .

العرب الذين نهض بهم قوة الايمان من مكة والمدينة ودفعتهم الى افتتاح سورية تمكنوا من سحق طرابلس وتضوا فيها بالدمار على سلطة البيزنطيين التى لم تكن عبارة لاعن قدرة عمياء حاملة كل سفاح وروبله . وهذا الفتح كان سبباً لتأسيس حركة علمية واقتصادية فى تلك البلدة . فنهض المسلمون بذكائهم الوقاد ، ومشاريعهم العلمية والمدنية . واخذوا

يستفيدون من استعداد هذه البقعة ، وسلكوا بها سبيل الرقى المدنى والعمران . فكانت الزراعة والصناعة والتجارة فى آن واحد آخذة فى الرقى بنسبة متزايدة . وكان المسلمون لا يألون جهداً بنشر العلوم والسعى لانارة افكار السكان . ويشيدون الجوامع والتكايا والمدارس . واسست فى اكثر انحاء القصبة المكتبات التى كانت تعمل لتحرير الافكار من اسارة الفلسفة القديمة المضرة . وان المكتبة الجسيمة التى اسسها آل عمار فى طرابلس فى القرن العاشر للميلاد كانت كعبة للعلوم يحجج اليها العلماء من كل فج ويحصلون فيها على ما يشتهون من المصنفات المفيدة . وقد تردد ابو العلاء المعرى شيخ الفلاسفة الاولين على هذه المكتبة زمناً طويلاً ، واستفاد منها ما شاء له ذكاؤه .

ولكن لم يطل زمن هذا الفيض العلمى ، بل رمت اوروبا هذه البلاد بشرذمة من جهلائها الصليبيين الذين هم اعداء العلم والمعرفة ، فكانوا المانعين لبقاء تلك النعمة العظمى . وقد كان موجوداً فى طرابلس ابان هجومهم زهاء اربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف ، فلم يدرك اولئك الافرنجيون قيمة تلك الثروة البشرية والطبيعية . بل كانوا يخربون كل ما اوصلت ايديهم السوداء اليه من آثار العمران . فقلعوا اشجار الزيتون بقصد نكاية المسلمين ؛ ثم عمدوا الى الرياض المحيطة بالبلدة على مسافة بضعة كيلومترات فأبادوها قطعاً وقلعاً وجعلوها خاوية على عروشها . ولذلك فأن الزراعة والصناعة تقهقرت بعد استيلائهم على البلدة حتى اشفت على العدم .

سارع امير طولوز « قونت » [سن جيل *Reymond de Ss Gilles*] الى محاصرة « طرابلس » ، فاستبسل المسلمون فى الذب عن حياضها . ولكنه لم يفتر ، بل ثابر على ادامة الحصار وعمد الى هضبة الحاج *Mans Pelleginus* المسيطرة بموقعها على القصبة وشيد عليها قلعة لتشديد الحصار . ولكن عاجلته المنية ، فهلك وهو مشغول بالحصار (١١٠٥ م) . ثم قام الجدال على ساق وقدم بين ابن اخيه كيوم دوجوردون *Guillaumede jourd·ˇn* » وبين دعيه براتران *Bertrand* الطولوزى الذى جاء من فرانسه الى سورية لمجرد الاستفادة من الميراث ، وبعد وقايع دموية ، حصل بينهما الفرق على ان يأخذ كيوم انحاء عرقا وطرطوس ؛ وبرتر ان يأخذ هضبة الحاج ، وطرابلس بشرط ان يسخرها وقصبة جبيل ايضاً (١١٠٩) .

لم يلبث كيوم ان قتل فى الحرب وانحصر الارث فى برتران . فقام هذا وفتح جبيل وطرطوس بمعونة الاسطول الذى ارسلته له جمهورية جنوه . وقبل هذا بمدة يسيرة فتحت بلدة طرابلس على يد «بودوين — *Baudovin*» . ويجب ان نعتبر هذه الحادثة التاريخية مبدأ لسلسلة الظلم والتجاوز المشؤمة التى ارتكبها الصليبيون فى الديار الاسلامية . وانحى جهل اولئك الافرنجيون الضالون على مكتبة آل عمار الثمينة فجعلوها ضحية لجهلهم انتقامهم .

فأكلت نارهم السوداء آلافاً من الكتب الفلسفية والعلمية الثمينة ، واحالتها الى رماد تذروه الرياح!!

هذا ولينكر الجزويتيون . ومتصلبوا الكاثوليك هذه الجناية التى استهدف فيها دماغ لعلم وقلب الفضيلة . ماشاؤا ان ينكروا . فنحن نقابلهم على التهمة فى مكتبة الاسكندرية الموهومة التى انكرها عليهم اصدق مؤرخى الغرب ، بهذه الحقيقة الناصعة التى يحمر لها وجه الفضل ، وينفطر منها كبد العلم . ولا نستشهد لهم بأقوال مؤرخى الاسلام اذ لابد ان يلصقوهم بالتحامل والافتراء . وهذه براهين تكفى لاقناع عشاق الحقيقة الذين يرون بياض الابيض ، وسواد الاسود :

« ان الافرنج تسببوا لضياع كنز ثمين باحراقهم المؤلفات التى كانت فى مكتبات طرابلس . وقد كان يوجد فى هذا المدخر العلمى كثير من كتب العجم والعرب ويونان وكان هناك كثير ممن يثابرون على استنساخ المصنفات الثمينة . ويروى ابن طى ، المؤرخ العربى ان عدد هؤلاء الكتب كان اكثر من ثلاثة ملايين ، وعلى رواية اخرى انها كانت مائة الف وصاحب هذه المكتبة ، القاضى ابو الحسن طالب ، كان المتولى على طرابلس ، وقد الف كثيراً من الكتب النفيسة . وكان يرسل المراسلات الى اقطار البلاد ، ويبذل الأثمان الباهظة ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة . وما من مؤرخ عربى الا وكتب وبحث على الاسف عن ضياع تلك المكتبة الفظيع . اما متصلبو الكاثوليكيين الذين كتبوا تاريخ الصليبيين ، لم نرهم يبحثون عن مكتبة طرابلس البتة ، ذلك ليستروا على الافرنج ذلك التجاوز الذى لا يمكن تلافيه » (*)

وقد جاء فى كتاب لغة التاريخ والجغرافية الذى نشره موسيو بويه — *Boulleh* ان الصليبين احرقوا تلك المكتبة الثمينة ؛ وذكر المستشرق الشهير رونه دوسسو فى مقالته التى كتبها برسم « انسيقلوپەدى الكبير *Grande Encilogedie* » وبحث فيها عن احوال طرابلس الشام العمومية ، ان مستخلصى القدس من النصارى احرقوا تلك المكتبة العربية الطائرة الصيت .

انتقلت امارة طرابلس بعد الاسرة الطولوزية الى بوهموند السادس والسابع الذى قهره المسلمون فى انطاكيه وطردوه منها . وحاصر هذه البلدة صلاح الدين الايوبى سنة (١٢٨٨م) ثم بيبرس سنة (١٢٦٦م) ، وتيسر للسلطان المنصور قلاوون فتحها وارجاعها الى الحكم الاسلامى (٢٦ نيسان سنه ١٢٨٩) ، ثم ضمت الى البلاد العثمانية فى زمن السلطان سليم ياوز مع غيرها من بلاد الشام وبقيت مدة طويلة وهى مركز ايالة :

(*) راجع تاريخ سورية لجرجى ينى

[٤] بلدية طرابلس — قلنا فى الصحيفة (٢٣٥) من كتابنا الذى نشر العام الماضى :

[وللاهلين الحق بأن يطالبوا بزيادة الهمة والعمل من البلدية التى تميل نحو رؤية الاعمال سواءً كانت سيئة او قبيحة . وجدير بمدينة حيفا التى تزيد فى كل عام لااقل من خمسين داراً بالحساب المتوسط ان ترى بلديتها اكثر مدنية ، واوفر ثروة ، واعظم اهتماماً بوطنها بنسبة الاهمية الموقعيه] .

تنطبق هذه الآراء على بلدية طرابلس ايضاً ، بدرجة اشد واوسع . ان فى طرابلس من الاسر التى ليست كالاسر الحورانية والجليلية فى البعد عن الوطنية ، بل هى لم تزل تمتن من خير بلادها منذ مآت من السنين حتى تسنى لها الحصول على الثروة الطائلة ولهذا كانت طرابلس اغنى بلاد الولاية بلديةً بعد بلدة بيروت . لان دخل البلدية فى حفا التى يسدها المستقبل بموقع تجارى خطير ؛ هى ٢٠٠،٠٠٠ غرشاً . وفى قصبة نابلس «٢٨٧،٢٠» ، وفى صيدا «١٥٩٧٠٠» غرشاً اما دخل بلدية طرابلس كان «٧٣٧،٢٨٤» سنة ١٣٣٣ . منها «١٥٠،٠٠٠» من مكوس وسائط النقل ، و«١٣٣٩٢٥» من دخل تمهيد الطرق الذى يسمى «شرمية» و«٣٧،٠٠٠» من الرسوم التى تتقاضاها البلدية بنسبة الضرائب على بدل ايجار الاملاك و١٠٦٠٠٠ من المكوس المختلفة فيها «٤٥٠٠» غرشاً من دخل بلدية المينا والباقى من المكوس وبدلات الايجار .

اما خرجها السنوى فهو يبلغ مقدار «٧٥٦٢٨٤» غرشاً ينفق منه «١٢٤٥٢٨» غرشاً على الرواتب و«٢٢٥٠٠٠» على الطرق العمومية و«٩٦٠٠٠» على التنظيف والتنوير . ثم يصرف ما بقى منه على المستشفيات واعانة الفقراء وتجهيز امواتهم وتكفينهم ، وعلى حديقة البلدة وغيرها من النفقات المختلفة. وما عدا هذه النفقات تدفع بلدية طرابلس كل سنة مقدار ١٥٢٢٥٦ غرشاً لاجل القيام بامور البلدية فى قصبة المينا .

ونعلم من هذا ان بلدية طرابلس هى قادرة على القيام بالعمل اكثر من غيرها فى القصبات الاخر . ان هذا الدخل الذى ينوف عن سبعماية الف من القروش ، لو كان له رئيس مدرب ذكى ، عنده فكرة علمية وفنية ، لاقتحم فيها اعمالاً فى طريق اصلاح البلدة وتنسيق احوالها الصحية ، تقتضى ميليوناً من القروش . فاذا كانت الاعمال عن بصيرة وحزم، لاجرم يكون نجاحها محتماً .

ان محلة التل فى طرابلس هى اظرف واحسن بقعة فيها . ولها منظر زاه جداً بمبانيها المتينة ودار حكومتها وملاهيها ، ولاسيما بمحلتها الجديدة المطلة على فسحتها ببرج ساعتها . وشارع البلدة لا يزال موقع الاستحسان والتقدير باشجاره المعمرة . اما داخل البلدة فهو فى اشد الحاجة الى الاصلاح والمبالغة فى السعى . وان الصحة العامة تتطلب عظيم الاهتمام وعاجله

فى اصلاح مجارى المراحيض التى تراها تماشى كل طرق البلدة وليس عليها حاجز. ثم ان الطرق الضيقة والاسواق المسقوفة التى لا تكاد تنطبق على الخير الصحى ولا على النسق المدنى، ولا يمكن تنظيمها؛ ولاسيما السبلان التى تنفث عفونتهـا السم القاتل، وكل ما هنـالك من مشينات البلدة هى من المؤثرات التى تدعو دائرة البلدية الى النهوض والنشاط الى العمل الاصلاحى.

[٥] — **بساتين الليمون** — ان الارضى المحيطة ببلدة طرابلس تتألف من التراب الذى يجرفه نهر ابو على من الربوع اللبنانية، وهى على جانب عظيم من قوة الانبات بسبب ما يتركم فيها من فتات الاحجار الكلسية والصوانية وذرات الصلصال التى تنهال عليها من [illegible] لبنان. [illegible] وقف المرء [illegible] الهضبة المرتفعة حيث يوجد «[illegible]» الذى جرى تدشينه منذ زمن يسير يرى بساتين الليمون التى تمتد حتى ساحل البحر، ويرى ان جميع المرتفعات هناك مستورة باشجار الزيتون. يبلغ [illegible] بساتين الليمون مقدار «٢٥٠٠» فدان [كل فدان يشغل [illegible]]، وقيمة كل فدان تتراوح بين ٢٠ و٢٥ الف غرش. وقد كان [illegible] الحرب الى استانبول، [illegible] ايضاً «٤٠٠،٠٠٠» صندوق من الليمون فى كل سنة. فاذا اعتبرنا [illegible] ريالاً مجيدياً على الاقل نعلم ان طرابلس تربح من الخارج فى كل سنة [illegible] ليرة. [illegible] ما [illegible] الليمون [illegible] وحمص [illegible] البلاد [illegible] يقرب من (٢٥ — ٣٥) الف ليرة ايضاً. [illegible] بساتين [illegible] مقدار (١٠٠ — ١٣٠) الف ليرة كل سنة.

[٦] — **اشجار الزيتون و[illegible] الصابون** — [illegible] تقرب من «٢٥٠٠٠» [illegible] ٥٠٠٠ غرش [illegible] سنة [illegible] «٠٠٠٠٠٠ ١» [illegible] الزيت. [illegible] الصابون [illegible] ١٣٠٠ [illegible] تلك القدر [illegible] ثمانية او ثلاثة [illegible] [illegible] ١٠٠ [illegible]

[illegible] ١٥٠ [illegible]

السلم تبلغ قيمة الطبخه ٣٤٠٠٠ — ٣٥٠٠٠ غرشاً . ويكون ربحها المتوسط مقدار ٥٠— ٧٠ ليرة [*] اما طبخة طرابلس ، فيزعم تجارها انهـا لا تربح اكثر من (٢٠—٢٥) ليرة [**] . وان ربع تلك الطبخات التى تبلغ فى عددها مقدار (١٢٠٠) واحدة يخص آل الذوق . والربع الآخر لاسرة عدره ، والربع الثالث لاسرة عويضة ، ثم ينقسم الباقى بين من يشتغل بتلك المهنة من التجار [***] .

وهنا يضاً لا نرى اقبالاً على عمـل الصابون المعطر ، كما هو الحال فى نابلس . لو تشبث التجار الطرابلسيون الذين يسوقون الصابون الى مصر ، والاناطول ، وديار العجم و ... ق ويحصلون على الارباح الجسيمة ؛ وجلبوا من اوروبا آلات تمكنهم من اعمال صابون الزينة باشكاله الظريفة لكانوا يربحون ضعف ربحهم اليوم .

[٧] — *تجارة الحرير* — ان صنعة الحرير هى من اهم منابع ثروة هذه البلدة وما زالت هذه المهنة معروفة فى طرابلس ولبنان منـذ القدم . ويروى انه كان موجوداً فى طرابلس قبل هجوم الصليبين مقدار (٤٠٠٠) مصنعاً لنسج الحرير . اما اليوم فقد هبط هذا العدد الى (٢٠٠) .

تنسج هنا من الحرير المنـاطق الزرقاء الظريفة على تقليد الشال ، واقمشـة القمصان والحبرات الحريرية والمناديل والكلل (****) وغيرها من النسيج الحريرى . ومع ذلك فان مصنوعات الشام هى اظرف وامتن من هذه .

يحصل فى لواء طرابلس الشام والقسم الشمالى من لبنان كل سنة مقدار (٣٠٠) رزمة معنية من حرير و(٢٧٠٠٠٠) كيلو من الشرانق . وكانت هذه البضاعة ترسل مباشرة الى معامل ليون . وقبل الحرب بسنتين شرع تجار الحرير ببيع عشر حاصلهم الى معامـل ايطاليا . و ... فى فرنسة رزمة الحرير الطرابلسى الذى هو اقل ظرافة ومتانة من الحرير ... و ... بثمن يتراوح بين (٤٥) و(٦٠) فرنك .

وثمن الاقه من الشرانق يتراوح بين (١٨—٢٨) غرشاً . وتجـارة الحرير فى طرابلس هى فى يد الاسرتين الذوقية والعدرية . هذا وان اشتغل الطرابلسيون فى استحصـال ... من هذه الصنعة ذات عادات لبنان وكادت تنحصر لهن . لان الفرنساويين الذين ... خذوا هذه الصنعة الى سورية ، اسسوا اكثر معاملهم فى لبنـان وعلموا اهليهـا

(*) راجع القسم ... ص : ١٢٠

** لا ... هذه لا ... يخص ... السلم

*** يزعم ... ان مقدار الزيت فى طرابلس « ٢٠٦٠٠٠٠٠٠ » اقه ، ومقدار الصابون « ٤٠٠٠٠ » قنطار فى كل سنة .

**** ... كلة ، وهى الستر الدقيق . م

تلك الصنعة . وان الصناعة الحريرية فى طرابلس اصيبت فى الزمن الاخير بالتقهقر والاهمال فاصبحت اليوم وهى على شفا التلاشى . وحماية هذه الصنعة التى تربح منها البلاد الارباح الوافرة ، هى من الوظائف المحتمة على الحكومة اليوم .

[٨] — خط الترام بين طرابلس والمينا — من المعلوم ان بلدة طرابلس تبعد عن فرضتها مقدار ثلاثة كيلومترات وكثرة المناقلات بين هاتين القصبتين قضت بلزوم تعبيد الطريق بينهما ليسهل النقل وعليه اسس هذا الطريق منذ نيف واربعين سنة . ثم ان مدحت باشا الذى كان وال فى الشام سنة ١٨٧٩ اراد ان يجعل نصيباً لطرابلس من آثاره العمرانية التى اوجدها فى عدة انحاء من سورية . ورأى لما مر بطرابلس اثناء تجواله كثرة الازدحام ، ووفرة المنقولات التجارية بين البلدة والمينا فشعر بضرورة تأسيس ترام بين هاتين البلدتين. وعليه جمع اغنياء البلدة ، وجعلهم يؤسسون شركة لهذا المشروع رأس مالها عشرة آلاف ليرة ، فاصدرت تلك الشركة التى سهم كل واحد بخمس ليرات . ومنحتها الحكومة امتيازاً بلا مدة . وان اغنياء المسلمين الذين وافقوا مدحت باشا على اقتراحه يومئذٍ لمجرد الاطاعة ، وكانوا على ريب من نجاح هذا المشروع ، ما لبثوا ان رأوا تلك المنافع العظيمة التى كانت لهم ولبلدتها ، فشهدوا بالفضل لذلك المصلح الشهير وقبل اشهار الحرب بمدة وجيزة كان يباع السهم من هذه الشركة بمبلغ (٣٧٠) فرنكاً . وكانت الشركة توزع على اعضائها كل سنة مقدار تسعة فى المئة من التمتع . وقد جلبت مهماتها ولوازمها حين التأسيس من بلاد انكلترة ، وبناءً على متانتها لم تزل تستعمل الى الآن .

نهض حضرة عزمى بك افندى والى الولاية العالى الذى هو تمثال العزم والهمة ، وعمد حينما كان متصرفاً فى هذه البلدة قبل خمس سنين الى توسيع نطاق هذه الشركة وقلبها الى ترام كهربائى . ثم ابلغ اسهامها من (٢٠٠٠) الى (٣٠٠٠) سهماً . واعلى قيمة السهم من مائة فرنك الى مائتين .

منحت ولاية بيروت تلك الشركة امتياز الكهرباء . وما لبثت ان عهدت باستحضار آلات الجر الى معمل المانيا ودفعت نصف القيمة . ثم حملت تلك الآلات من مرتبة على الطراز الحديث والاسلاك وقضبان الحديد على باخرة مخصوصة وسيرت الى بيروت . ولكن ما كادت تصل تلك الباخرة الى الاسكندرية الا واشهر الحرب . فعطلت بسبب النقل البحرى ، ولم يتيسر لطرابلس ان تظفر بمشروعها الكهربائى . اما الاحوال المالية فى الشركة اليوم فهى على غير ما يرضى .

[٩] — **مستشفى عزمى بك** — ان طرابلس التى هى من ارقى البلاد السورية بلطافة الطبيعة ، وبسعة تجارتها وصناعتها ، كثرة حدائقها ورياضها كانت خلواً من مستشفى بلدى تتوفر فيه الشرائط الصحية ، وكان هذا نقصاً عظيماً فى تلك البلدة الكاملة . وعليه نهض [illegible] لما كان متصرفاً فى تلك البلدة لاكمال هذا النقص ، فرتب سباقين جمع [illegible] واعدها لنفقة تشييد ذلك المستشفى ولكن لم يلبث ان استقال [illegible] البلدة وعليه ادخل المبلغ المذكور فى موازنة البلدية ثم شرف حضرته [illegible] على [illegible] الرارة [illegible] هذه المشروع [illegible] حتى [illegible] طرح [illegible] حضرته يعادر البلدة الا ووقف العمل على ما [illegible] يشرع [illegible] هذه الموسسة بصورة [illegible] سنتين ونصف وقد امدت [illegible] مشروع الجديد [illegible] وتركت مدينة طرابلس بهذا [illegible] ولم ينفق عليه لا [illegible] تلك الموسسة الخيرية التى اوجدها العزم [illegible] الامتنان والشكر الخالص [illegible] بذلك المشروع .

[١٠] — **المشاريع الخالية والصالحة** — [illegible] صدق [illegible] الفاضل ان قال اذ [illegible] على ما [illegible]

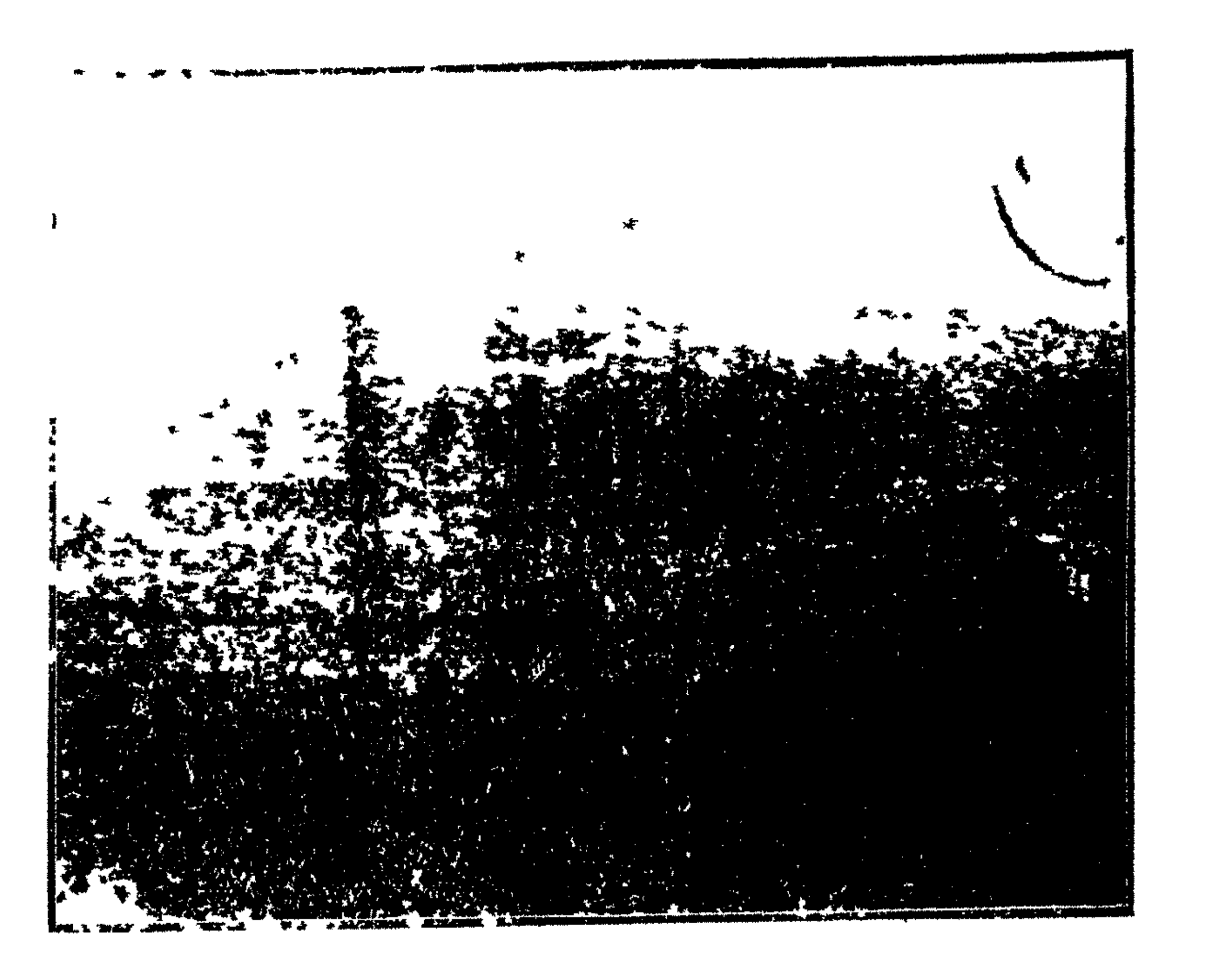
[illegible] على ضعف [illegible]

[illegible] ما يمكن انهم [illegible]

[illegible] تامة [illegible]

[illegible]

[illegible] سلامية شاؤنهم .



مستشفى عزمي بك في طرابلس الشام

فترون سكانها يعيشون عيشة الطير ، ارزاقهم تجد بتجدد الايام، لا يفكرون بالغد مطلقاً ولو رمتم انذارهم يجيبونكم بانه الله ، كريم ويلوون اعناقهم ، ويهزون اكتافهم كانهم يريدون اطلاعكم على وجوب التوكل . ولهذا لا ترون فى المحلات الاسلامية اثرا للعزم والنشاط كلهم منغضون رؤوسهم فى جيوبهم كانهم يعدون دقائق حياتهم وان هذا الا بلاء عظيم . لان عصرنا بعيد عن المعنويات . هذه الحرب العامة التى ضمت حومتها العالم باسره واخذ فيها كل يحرص على الظفر بتضحية الحياة، لم تحمل بطون التاريخ الى الان مثيلها . وما كانت هذه المذبحة الانسانية الا لتأمين الظفر الاقتصادى وهذا صوت القيصر الالمانى يهتف بما قاله بعد نشوب الحرب ببضعة شهور ، بتلك الصواعق الحقة :

— الويل ، الويل لمن غلب ! !

يريد بهاتين الكلمتين ان يطلع ابناء وطنه على هول الموقف فى هذا الجدال الطاحن . تجولنا فى انحاء الولاية العام الماضى، وهذا تجوالنا الثانى ايضاً . فابكانا ما رأينا فى ابناء اوطاننا وجنسنا من الكسل وانفطرت افئدتنا لما رأيناهم ساهين عن الوظائف التى رمى بها هذا العصر الكادح كاهل البشرية اليوم . صعب على قومنا ما اظهرناه فى كتابنا الاول من التأثر الذى كان ناشئاً عن تلك الانطباعات المرة . وما كنا فى تلك الكرة الا منذرين لهؤلاء الذين اخذتهم غفوة الجهل وموقظين . وما اردنا بتلك الصيحة الشديدة الا تمزيق غشاء العطالة والمسكنة ، والصدع بتشريح ما حملنا اياه هذا العصر من الوظائف المعضلة الكبرى . الكتاب لم ترق فى عين بعض المستبدين ، ولم يستحسنها بضعة من المتغلبين الذين لا حظ لهم من الحق والحقيقة لانها كانت عامة تنصر الضعيف ، وتأخذ بضبع القرويين الذين هضمت حقوقهم وليس لهم من قوة ولا ناصر . دعهم يغضبون ويفعلون ما يشاؤن، فنحن دستورنا « قل كلمتك وامش » . نعم حملنا على العادات السخيفة حملة شعواء ، وطعنا السيئات فى نحرها ولكننا لم نضرب عن قيد المآثر الجليلة التى ثلجت لها افئدتنا وما زلنا نفرح بها ونفتخر .

الطرابلسيين مع انهم لم يخلصوا من تلك العطالة العقيمة ، لم يفتهم النجاح فى كثير من صفحات الحياة الاقتصادية فى بلدتهم بل ان تجارة الحرير واعمال الصابون واستخراج السفنج ، وحتى ان المعاملات الصرافية ايضاً هى عندهم على ما يوجب الفخر والمباهات من لوازم . ولا بأس ان نفصل نبذة من هذا الاجمال :

[١] — **مصرف الذوق وعبد الواحد** — تأسس هذا المصرف سنة ١٨٩٣ برأس مال مقداره (١٠٠٠) ليرة فقط على شكل شركة متضامنة « قوللكتيف » . ولم يكن يومئذ غيره من المصارف فى طرابلس . فمشى المؤسسون بالصدق والامانة ، ولم يطل عليهم الامد حتى

توسعوا في المعاملات الصرافية واحرزوا وكالة المصرف العثماني وقريديه ليونه وقونتوار ناسيونال ده سقونت دوپاري ، ومصرف سلانيك وغيرهم من المؤسسات المالية . وعهدت اليهم الخزينة المالية وادارة الدخان وادارة المنارات (فنار) بنقل نقودها ايضاً .

تدرج هذا المصرف بالاتساع حتى اصبح وهو يضطلع المشاريع التي تبلغ اضعاف رأس ماله . فكانت معاملاته سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ تبلغ في كل شهر الى (٥٠) الف ليرة . وقد هبط هذا المقدار الى (٢٠) الف ليرة بعد ان اسس المصرف العثماني ومصرف سلانيك فرعيهما في طرابلس ، ولكن ما زال ذلك المصرف مثابراً على عمله بتلك الهمة العالية وخادماً لمؤسسيه والتجار الوطنية معا .

كان مقدار القطع « اسقونطو » الوسطي في هذا المصرف ثلاثة من المأة ، ومقدار الربح في الاقراض تسعة منها . ويمكننا ان نقول ان ثلاثة ارباع ثروة الاسرتين ، الدوقية والواحدية ، منقولة كانت او غير منقولة هي من ارباح هذه المؤسسة المالية وريعها . وبما ان المصارف هي من المؤسسات الاعتمادية ، يجب فيها ان تكون محلاً للاعتماد بكل معنى الكلمة . والا فلا حياة للمصارف التي لا تكون حائزة على هذا الشرط . فالجدية والامانة والصدق هي بمثابة الروح لهاتيك المؤسسات . واقل شبهة توجب الشك ، او الاخلال بالقيام بالعهود يقضي عليها بامضاء العاجل . ان مؤسسي هذا المصرف كانوا على بصيرة من هذه النقاط . وعليه لم يألوا جهداً في القيام بوجائبهم حتى في احرج الظروف ولما استولى الارمنيون على المصرف العثماني في دار السعادة وذلك سنة ١٨٩٤ تنخى مصرف الدوق ودفع جميع ديون فرع المصرف العثماني في بيروت بظرف احد عشر يوماً رغماً عن البحران الهائل الذي كان سائداً يومئذٍ لسبب تلك الحادثة . وهذه الهمة التي تكللت بالنجاح كانت سبباً لسمو مقام هذا المصرف في نظر التجار والاهالي ، ولاسيما المصرف العثماني فانه ما فتئ منذ ذلك اليوم مجازفاً باعتماده على هذا المصرف وامنيته له .

[١٢] — **معمل الاثاث** — ان هذا المعمل الذي اسسه الشاب رفيق افندي المتعال للتنجيد والتجارة ، فيه آلة تتحرك بالكاز بقوة عشرين حصاناً تتألف من محرك ، وعشرين آلة غيره . وقد جلبت هذه الآلات من اشهر المعامل الاوروبية وهي صالحة لعمل كل ما يلزم البيوت من الاثاث والفرش على اتقن وامتن طراز . ولهذا المعمل دوائر اخرى تشتغل صنع الكراسي وصناديق الليمون . اسس هذا المعمل سنة ١٩١٠ برأس مال قدره (٢٠٠) الف غرش . ثم ضوعف هذا المبلغ وكان (٤٠٠) الف ووسع نطاق المشروع . ولكن لم يلبث ان اوقف عمله في اول سنة اشهر فيها الحرب .

كان يوجد في هذا المعمل اكثر من ستين عاملاً تتراوح اجوراتهم اليومية بين الخمسة



احدى غرف المرضى فى مستشفى عزمى بك

[illegible]
[illegible]
يحسنون القيام بتلك المهنة ، فاضطر صاحب المشروع [illegible] في معامله
مصر وبيروت من اللبنانيين والبيروتيين .

بدأ صاحب المعمل ب[illegible] .. ثم توفق لسوقها الى اللاذقية قبل الحرب بسنة وحصل بذلك على ارباح لا بأس بها . ثم شرع بتأسيس فرع في حمص وبوشر بالعمل فيه . ثم ترك لما وقف المركز عن العمل .

وقد خدم هذا المعمل خدمة مبرورة في بلدة طرابلس لان جميع صناديق الليمون كانت تصنع فيه ، والاثاث البيتية هناك ايضاً كانت تصنع فيه على احدث الطراز ، وينصف الثمنة بالنسبة الى مصنوعات البلاد الاجنبية . وبهذا دخل الذوق السليم في فرش البيوت في طرابلس ، ثم سرى هذا الانتظام الى المخازن ايضاً فكانت منه على حظ عظيم . فالمفروشات وخزائنات البللور الموجودة في اعظم المخازن كانت من مصنوعات هذا المعمل . وخدم هذا المعمل لرواج الصنعة لانه اقتنى كثيراً من العمال الذين كانوا محرومين من كل مهنة ، وعلمهم هذه الصنعة التي تكفل لهم الحصول على اسباب المعيشة ، وتخلصهم من البطالة والفقر . فيجب علينا جميعاً ان نحبذ على هكذا مشاريع صناعية . ويجب ايضاً ان نقبل على هذه المؤسسات وتفرش الدوائر والابنية الرسمية من مصنوعاتها . لان الوطن لا يرقى الا بقيام ابنائه في هكذا مشاريع وتمتعهم بالربح الوافر .

*
**

يوجد في طرابلس ما عدا هذا المعمل معمل آخر للاثاث وآخر للثلج وواحد لصنع الكازوز . فمنها الاول يتألف من محرك بقوة اثني عشر حصاناً ، ومن ثماني آلات مختلفة . وقد اسسه الشيخ محمد افندي الشهال سنة ١٩١٠ ، وكان رأس ماله في بادئ امره ٤٠٠٠٠ غرش ثم ما لبث ان صار (١٠٠) الف . وان محمد افندي صاحب هذا المعمل لا يزال معروفاً باتقان صنعة الآلات والادوات الدقيقة وقد صنع بيده بعض آلات تفيد لتربية دود القز ، ومنح بالوسام الذهبي لاجل تلك المهارة . وله اليد الطولى بعمل الاشكال المتعددة من الصابون ، وصنع الآلات الدقيقة التي يحتاج لها المعمل . وما زال معمله مثابراً على العمل الى بعد اشهار الحرب بسنة ثم اضطرته الاسباب الاقتصادية على توقيف العمل .

اما معمل الثلج والكازوز فقد اسسهما رجل لبناني يدعى راجي افندي دانيال سنة (١٩٠١) ولم يزالا في العمل الى اعلان النفير العام . ثم ابتاعهما منه رفيق افندي صاحب معمل الاثاث . وكان هذا المعمل يتالف من محرك ابتاعته الادارة العسكرية قوته اثنى عشر حصاناً

ومن آلتين لعمل الثلج والكازوز وكل الآلات كانت كاملة وهي على حالها واحدث نسق، وكان يصنع كل يوم مقدار اربعة آلاف كيلو من الثلج، وبناء على فقدان الآمونياق (النشادر) والكاز اصبح اليوم معطلاً عن العمل».

٤ — الاحوال الاجتماعية في طرابلس

[١] — طبقات الاهالي، ونمط المعيشة — يمكن ارجاع الطرابلسيين الذين يبلغ عددهم ثلاثين الفاً؛ الى ثلاثة اقسام من الوجهة الدينية، الاسلام والنصارى واليهود. وبما ان اليهود لا يتجاوزون السبعين في عددهم، فلا يكون لهم موقع في ذلك المجموع الضخم، والنصيريون المعدودون في القيود الرسمية من المسلمين لا يتجاوزون العشرات في عددهم، ولهذا لا نجد لزوماً لاعتبارهم قسماً منفرداً.

وعليه نضطر في تدقيق الطرابلسيين الى ان نرجعهم الى قسمين كبيرين، المسلمين السنيين والنصارى الذين يتالفون من مختلف الطوائف.

ان المسلمين في طرابلس، كما مر علينا في جدول النفوس هم اربعة امثال النصارى في العدد او بالاوضح؛ ان اربعة اخماس الطرابلسيين مسلمون، وخمسهم نصارى.

ويمكننا تقسيم المسلمين الذين يتجاوزون في عددهم عشرين الفاً الى ثلاث طبقات مستقلة؛ ولقد يمكن تقسيمهم باعتبار الغنى الى اغنياء ومتوسطين وفقراء، على ان الاوصاف الاساسية الظاهرة المستبينة تسوغ لنا مع قليل من التسامح لان نقسمهم الى تجار، وزراع، وصناع.

فالاغنياء الذين تتألف منهم الطبقة الاولى او قسم التجار، وان كان لاسرهم وان لم تزل تتوارثه منذ احقاب وقرون ونسب طوق بهالة من الاصالة والشرف، بيد انهم ليسوا على تصلب في السؤدد كتصلب سكان البلاد المتحادة عن اقصى العمران بما اتصل اليهم من الرياسة التي مزجت بالظلم والجور. ولا بد لنا من البحث عن هذه النقاط وايضاحها مع بيان مؤثراتها.

نعم يوجد في طرابلس بضع عشرة من الاسر العريقة في القدم، والمعروفة بالثراء الحقيق. ويمكن ايصال سلسلة النسب في اقدم هذه الاسر الى خمسة او ستة قرون — كما يزعمون — . ويوجد منهم مقدار اسرتين او ثلاث . ثم توجد ثلاث او اربع اسر من اللاتي اربت سنيهم على ثلاثة او اربعة قرون . ثم يأتي بعد هؤلاء من يرجع بنسبه الى قرنين، ثم الى قرن واحد وبعدهم من لم يتجاوز عمر اصالتهم خمسين او ستين عاماً ويوجد بينهم بضعة اشخاص ممن لم تعرف لهم ذكرى الاصالة في الماضي، ولكنهم سعوا

بأنفسهم وحصلوا على الثروة الطائلة في هذه الايام ، وها هم مرشحون اسماءهم لتكون لأخلافهم عنوان اصالة وشرف .

من هؤلاء المثرين الذين ابلغنا عددهم الى خمسة عشر، من تتراوح ثروته بين (١٠٠) و(٢٠٠) الف ليرة ، ومنهم من لا تتجاوز ثروته بضع آلاف من الليرات وعلى هذا يمكننا ان نقدر ثروة اغنياء طرابلس ببضع مآة الف من الليرات.

ثم ان الاموال غير المنقولة التى يملكها منتسبو هذه الطبقة ليست بقليلة . فمنهم من تقدر املاكه بمائة الف ليرة ، واقلهم ملكاً لا تنقص املاكه عن قيمة بضع آلاف من الليرات . وان مجموع قيمة هذه الاملاك هو لا جرم اعظم بكثير من مجموع الثروة النقدية .

وقصارى القول ان من الاسر الغنية فى طرابلس من يكون دخلهم السنوى بمقدار عشرين الف ليرة ، ومنهم من له مبلغ الف او الفين .

ثم ان جميع هذه الاسر الغنية تشتغل بالتجارة والزراعة ، ولاسيما بالفائض. ولذلك يمكن ان نسميهم تجارا بالمعنى العمومى . لان الارباح التى تحصل من الصابون والزيت والحرير والغنم والحبوب وامثالها من المواضيع التجارية هى اعظم بكثير من ارباح الزراعة ودخل الاراضى . حتى انه يوجد فى طرابلس من اسس مصرفا ، واخذ يصطاد به الارباح الجسيمة .

ان هذه الثروة التى حصل عليها اغنياء طرابلس ، لم تكن ناتجة — كما يفهم مما اجملنا فى هذا البحث — الا عن المساعى البالغة التى اشغلت السنين الوفيرة . وليس من دليل يدل على انهم طغوا وبغوا على مساكين الفقرا ، وهضموا حقوقهم كدأب بعض الظالمين الذين تغالوا بالاعتساف والعتو ، ومثلوا ادوار القرون الوسطى حيث شيدوا بنيان عزهم وشرفهم على رفات المظلومين وشقياتهم . هذا وان شفت الرواية عن اندماج عنصر الحرام فى رشم تلك الثروة ، وذلك بالتهام الاوقاف الطرابلسية التى ذهبت ايدى سبا ، فلا ننكران لما كان من المساعى البالغة لتوسيعها وتزييد مقدارها اضعافاً مضاعفة .

ان طرابلس بموقعها الطبيعى والجغرافى ، هى بلدة خلقت للتجارة . ولذلك فقد سلك اكثر اسرها هذا السبيل . واذ ان التجارة هى اسهل من الزراعة ، يكون اصطفاء الطرابلسيين لها امراً طبيعياً ايضاً .

وبما ان اكثر المتنفذين فى بلادنا يكونون من ارباب الارضى ، ومنسوب الزراعة . فلم تخلق فى طرابلس هكذا طبقة بالنسبة الى البلاد الداخلية . لاسيما وان طرابلس بلدة ساحلية تختلط جميع طبقاتها ببعض ، ويخدم هذا الاختلاط لتنوير الافكار اكثر مما عليها البلاد الداخلية . وبه لم نكد نجد فيها اولئك المسلطين النافذين .

وهناك بعض اسباب اخر تصد ارباب الاراضي والزراعة في طرابلس عن التسلط والاستبداد ، فمنها شدة الطبع التي فطر عليها اهالي الملحقات ولاسيما زراعهم . ثم وجود من يقتدر على التسلط والنفوذ في الملحقات اكثر من الطرابلسيين ، وانّنا سنبين رأينا في هؤلاء الزمر اثناء البحث عن قضاء عكار وحصن الاكراد .

وقصارى القول ان هذه الطبقة الاولى تختار الحياة الهادئة ، والعيشة الساكنة في المنازل الفخمة البديعة ، وتبتعد عن كل ضجة وجلبة. وان لاكثرهم الرياض الغناء والحدائق اللطيفة في جوار البلدة يمضون فيها سويعات اللهو والطرب . فيذهبون اليها حينما يشأون ويحصلون منها على بعض حاجاتهم البيتية ايضاً . وعليه فان علاقتهم بالتراب لا تزيد عن هذه الدرجة .

ان اكثر الاغنياء الطرابلسيين اقاموا لانفسهم القصور المشمخرة ، او المنازل الظريفة ، المشيدة على احدث نسق في الطف البقاع من البلدة او الميناء . ومنهم من لا يزال مقيماً في القسم القديم من البلدة ، لاتؤلمه تلك البيوت الشامية بطرقها المعقدة . وبعفونتها المزعجة ، وبخلوها عن الهواء النقي .

وعلى الاجمال ان طرابلس بسبب وجودها في الساحل ، وقربها من بيروت ، وكثرة الاختلاط ، لم تكد حياة اسرها الكبيرة تخلو من تحول محسوس — ولو كان قشرياً — وتجدد منظور . ويشاهد هذا التجدد في مبانيهم وفي ترتيب داخل بيوتهم ، وفي لباس رجالهم ونسائهم . هذا وان يكن ليس لاكثر هؤلاء الاغنياء شيء من الانتباه الفكري الذي يستند على العلم ، ولم يتمكن نور العلم من انارة طائفة نسائهم ؛ فلا ينكر على اولئك العريقين ميلهم في الظاهر الى التجدد ، وبعضاً نجاحهم في الوصول اليه .

ومن جهة اخرى — كما سنفصل بعد — وان لم يكن الشبان الذين تخرجوا في المدارس وكونوا الحزب المنور في تلك البلدة ؛ من منسوبي الطبقة الاولى — ما عدا بضعة اشخاص — فهذا لا يسوغ ان يكون دليلاً على رغبة الاغنياء عن تعليم اولادهم وتنوير افكارهم ،

يمكننا التسليم بانهم ميالون الى التجدد والتعلم . ونضطر الى الاعتراف بوجود الامساك والاقتصاد التجاري في كمية ذلك الميل . ولا جرم لو شاء اركان هذه الطبقة ، لكان لهم النجاح الاعلى في العيش المرتب والحياة العمومية الداخلية ، ولم يلبثوا ان يقبضوا على محور العلم والعرفان وينالوا الحياة المدنية الحقيقية ، لما بسطوا ايديهم الى محور التجارة منذ نصف قرن ، واستطاعوا الاستحواذ عليه بالجد والاهتمام . ولكن مع الاسف ان ذاك النور الذي ما زال يحوم في آفاق طرابلس . ويرفرف على سنام قصورها . لم يستطع بعد ان يلج هاتيك القصور ، او ينفذ الى تلك الادمغة . واننا لنرجو حصول هذه الامنية في القريب العاجل .

*
* *

اما الطبقة الثانية : ويمكن ان نسميها « المتوسطة » او مع قليل من الاغضاء — كما بينا سابقاً — نطلق عليها « طبقة الزراع » .

نعم ان منسوبي هذه الطبقة هم الاوساط بالمعنى الحقيقي . ودخلهم السنوي اقله مأة ليرة ، واعظمه خمس او ستمأة ليرة ، وهم السواد الاعظم في هذه البلدة . وان لهذا الدخل مصادر مختلفة ، فمنهم من يشتغل بطبخ يسير من الصابون وبيعه . ومنهم من يتاجر في الحب او الحرير وغيره ، ومنهم من له مخزن يبيع فيه الاقمشة ، ثم الذين يشتغلون في بساتين الليمون ، او بالاحرى في الزراعة . وكلهم من المتوسطين .

ولا يفهم من تعبير المتوسط في طرابلس ، الا هؤلاء الزراع ، اصحاب البساتين وتجار الليمون .

وهذا يدلنا على ان الطبقة المتوسطة تفترق عن الطبقة الاولى بان عنوان اسرها اقل اشتهاراً ، وهي اقل مالاً ، ومشاغلها التجارية متنوعة ومختلفة بصورة تستلزم السعي الشخصي . ولا جرم ان هذه الطبقة احط من الطبقة الاولى بمنازلها وكسوتها ، وبنسق معيشتها . واكثرهم يلبس في رأسه طربوشاً قصيراً ويتعمم بعمامة بيضاء خالصة او منقوشة بالحرير . ولهم سراويل من الجوخ الرصاصي ، فوقه صدار من قماش ثم جبة من جوخ .

ومن العجب ان هذه الزمر المسرولة المتعممة ، هي ادنى واحط من ارباب الطبقة الاولى في العلم والمعرفة ، ولكن الشبان الطرابلسيين المتخرجين في المدارس ، وارباب الفكرة العاميه هم من اولاد هذه الطبقة . ولا جرم ان هذه الحركة العامة في الناس ، وميلهم الى العلم هي جديرة بالاستحسان .

*
* *

اما الطبقة الدنيا التي تتألف من الصناع والعمال ، فهي صنف الفقراء . وهؤلاء يشتغلون في الوتية وصيد السمك والحمل ، او يكونوا عمالاً في الانشاآت ، او اعداد البساتين ، او يشتغلون ببيع البقول او غيرها من الاعمال التافهة التي يحصلون منها على اقواتهم اليومية بشق الانفس . ويبلغ عددهم الى قريب من ثلاثة آلاف .

وهؤلاء يسكنون في اسوأ المحلات الطرابلسية . ويكونون في حالة السعي الدائم ليتيسر لهم تأمين لعيش . ويلبسون في رؤسهم قبعات من صوف طويلة ترابية اللون ، وسرابيل باليات ثم السراويل ، وفي ارجلهم العراة حذاء ممزق . اما نساؤهم فانهن في الحد الاقصى من سوء الحال والمذلة .

ومع هذ فان الفقير لا يعدم هناك تأمين معاشه ببذل بدل يسير ، لان البلدة ذات

فيض عميم وخير وافر . ولا بد ان يجد كل واحد منهم شغلاً يشتغل فيه ، ولهذا لا نرى منهم احداً يسقط في الذل والمهانة مهما كان فقيراً ؛ وان الحرب التي حطمت بصولتها البلاد في هذه السنين الاخيرة لم تدهمهم لا بقليل من ويلها .

اذا اردنا ان نجمل ما فصلنا الى الآن نقول ان في حياة طرابلس الاجتماعية للطبقات المسلمين ، بعض آثار تطمن القلب ، وتعد اولئك السكان الذين اكثرهم من المتوسطين ، بآت ينطوي على آمال عالية مفيدة .

*
* *

بعد ان بينا رأينا في الطائفة الاسلامية في طرابلس ، نرى من الواجب نقل البحث الى الطائفة المسيحية . ان ثلثي المسيحيين الذين هم خمس السكان في طرابلس ، هما من الروم الاورتودوكس . اما الثلث الآخر فهو من المارونيين والكاثوليك واللاتين والپروتستانت . ويزعم بعض افراد الطبقة المنورة منهم ان تاريخ الطائفة النصرانية في طرابلس قديم جداً . ويروى عن بعض الاسر النصرانية المعروفة انها من احفاد الغسانيين . ومع ذلك فان في طرابلس من النصارى الذين جاؤها من الخارج وتوطنوا فيها ، ثم توحد بينهم جالية اليونانيين الذين اختاروا الاقامة فيها ، وكادوا يكونون من الوطنيين .

يقابس بعض الباحثين الحالة الاجتماعية والتجارية في نصارى طرابلس قبل خمسين سنة بحالهم اليوم ويزعمون انهم اصيبوا بانحطاط محسوس . ويفيضون بتعليل هذا الانحطاط وتشريح اسبابه :

كانت التجارة قبل نصف قرن في ايدي النصارى . وكانت ثروتهم في ذلك الزمن بالغة جداً . اما المسلمون وكانوا ارباب حقول ومستغلات . ولم يكن لديهم شيء من النقد . ثم شرعوا باستقراض النقود من النصارى واخذوا يتعاطون التجارة . وما لبث اغنياء النصارى ان اهملوا التجارة مستندين على ثروتهم النقدية الطائلة وربحها الوافر ، وامعنوا في اقراض النقود بربح فاحش ، وانغمسوا في مسائل الصرافة ، حتى غشيهم البحران المالي سنة ١٨٧٢ ودام خمس سنين ؛ ثم انضمت عليه اسباب أخر حتى خسر المسيحيون اموالهم ولم يبق لديهم طوق للنهوض من هذه العثرة . وكان عددهم قليلاً ، وغادر بعضهم طرابلس مهاجراً الى مصر وبهذا خلى الجو للمسلمين وخلصت لهم امور التجارة فانفردوا فيها ، ومن ثم كانت في ايديهم ولم تزل .

والان لا تزال بعض الاسر المسيحية من الطرابلسيين في مصر يتعاطون التجارة ، ولديهم من النقد ما يفيض عن بضع مئات الوف من الليرات . وان ما يرى اليوم من الثروة في ايدي الاسر المسيحية في طرابلس هو من الثروة التي تكتسب في الخارج وتدخل الى طرابلس . والا فان دائرة الصرافة الاسكندرية قد ابادت ثروة نصارى طرابلس منذ امد بعيد .

يمكننا هنا ان ندقق ما يملكه المسلمون والمسيحيون في طرابلس من الاموال المنقولة وغير المنقولة ونستنبط منهما اجمالاً او بالاجدر نعادل بينهما قياساً .

اذا كان مقدار الثروة النقدية مليوناً من الليرات على التخمين فان عشرها اي مائة الف ليرة منها في ايدي المسيحيين . على اننا لو نظرنا الى مقدار النفوس لرأينا من الواجب ان تكون تلك الثروة ضعف ما هي عليه . ولهذا السبب نعلم ان المسيحيين على تأخر .

اما الاموال غير المنقولة يجب ان تقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول زيتون طرابلس والثاني البساتين ، والثالث العقارات والمسقفات .

اذا قدرنا قيمه الزيتون في طرابلس بثلاثماية الف ليرة ، يكون ثمنها مقدار ثلاثين الف ليرة ، اي عشرها في ايدي المسيحيين . وهذا قليل ايضاً . اما قيمة البساتين فانها تقدر باكثر من نصف مليون ليرة . وحظ المسيحيين منها مقدار عشرة آلاف ليرة فقط . وعليه تكون نسبتهم الى المسلمين واحداً من ستين . ولا حاجة للاشارة على قلة هذا العدد .

اما العقارات والمسقفات ، فان قيمتها بالنظر الى القيود الرسمية ، هي تقدر مليون من الليرات ، ولكن حقيقتها تربو على مليون ونصف . والذي في حوزة النصارى منها يقرب من الخمس ، اي مقدار مائتين ، او مائتين وخمسين الف ليرة . وهذا يدلنا على وجود التوازن في هذا القسم من الاموال بين المسلمين والنصارى .

***

وبعد هذا الاجمال في الحالة المالية بين المسلمين والنصارى ننقل البحث الى طبقات النصارى وحالتهم الاجتماعية .

نستطيع تفريق النصارى ايضاً الى ثلاث طبقات ، كالمسلمين ، الاغنياء ، والمتوسطين والفقراء .

ان اغنياء النصارى عبارة عن ثلاث او اربع اسر . وتقدر ثروة كل منها بخمسين او ستين الف ليرة . اما حياتهم الاجتماعية والعائلية هي ارقى بكثير من حياة امثالهم ، حتى من فوقهم بالغنى من المسلمين ولربما يكون اطلاعهم على اللغات الاجنبية هو الذي قربهم الى المدينة ، وربطهم بها .

اما موقعهم الاجتماعي فانه مكين وسعيد لان الرجال والنساء من منسوبي هذه الطبقة كل له نصيب من نور العلم والمعرفة .

اما الطبقة المتوسطة المسيحية ، فيكاد يدخل فيها جميع المسيحيين هناك . وهم يدأبون لتأمين معاشهم بتعاطي التجارة او معاناة الحرف وغيرها من وسائط المعيشة . وهؤلاء ايضاً يرجحون على غيرهم من المتوسطين ، ان لم يكن بالعلم فبانتظام العيش .

وكسوتهم ميالة لان تكون غربية الشكل ، على ان الغرائز الشرقية ما زالت مستأصلة في طباعهم . وما كان نساؤهم يدخلن الاسواق الا بازر يسمونها الحبرات ، حتى العهد القريب والآن ايضاً يعثر على بقية لهذه العادة . وهم مربوطون برجال دينهم ومعابدهم ربطاً وثيقاً .

ويمكننا ان نصف طبقة الفقراء منهم بهذه الاوصاف العمومية التي لا يشذ عنها نصراني . على ان طبقة الفقراء بين النصارى محدودة . وفقراؤها قليلون جداً . وهم عبارة عن بضعة اشخاص من المارونيين وما زالوا يتدرجون في التناقص .

ونفهم مما شرحنا ان نصارى طرابلس ايضا ليسوا على شيء من آلام الحياة والمعيشة . فعليهم ان لا يكونوا في ريب من الآتي .

[٢] — *الارقام الاجتماعية* — نريد ان نثبت ما عثرنا عليه من الارقام الاجتماعية قبل ان نختم كلامنا في البحث عن احوال طرابلس الاجتماعية والعمومية .

يجب في هكذا ارقام ، يستند عليها في القياس وابداء الرأي ، انتكون ذات قيمةعلمية ، او بالاوضح ؛ ان تكون محرزةً بالوسائط الكاملة والصحيحةالمستندة على المعلومات الصادقة وتدرل مختلف الازمنة لتكون اساساً للمقايسات الاجتماعية . ونحن نرى جميع ما عثرنا عليه من هذه الارقام لا يخلو من ان ينقصه شرط او شرطان ، او كثير من هذهالشروط المحتمة . ما جال في خاطرنا الى الآن احصاء الحادثات الاجتماعية بالارقام . وما اثبتنا هذه الارقام — مع اعتقادنا بعدم صحتها — الا لسببين :

الاول — اطلاع القراء على بعض الارقام الاجتماعية ، ولو كانت ناقصةً

الثاني — ايجاد جريان احصائي يكون وسيلة لدفع هذا النقص في المستقبل ، وتمهيد السبيل له . وبهذين السائقين الذين يتناول احدهما المبدأ ، والثاني الغاية ، آثرنا ان نثبت هذه الارقام التي هي جزء من الاحصائيات الاجتماعية . على علاتها :

[القتل والقاتلون] — رأينا فيجدول حصلنا عليه انقد حدث فيطرابلس وتوابعها من هذه الجرائم (٢٢)، سنة (٣٣٠) و (٩) ، سنة (٣٣١) و (٢٦) ، سنة (٣٣٢) . وان سقوط عدد هذه الجرائم من (٢٢) الى (٩) سنة (٣٣١) يمكن ان يفسر بالارتباك الذي حصل فوريا بسبب اعلان النفير العام . ورجوع هذا العدد الى نسبته القديمة سنة (٣٣٢) يؤيد رأينا .

لم يمكن ايضاح اسباب حدوث هذه الجرائم . ولكن كان بالنظر لمجموعها في السنين الثلاث ، وهو (٥٧) حادثة ؛ منها (٢٦) ناشيء عن العداوة و (٣١) عن اسباب متنوعة . ونرى ان هذين العددين محفوفين بالابهام ، والبكم .

اما شخصية القاتلين فيمكن تعيينها : ان (١٧) من (٥٧) في السنين الثلاث كانوا من العزاب و (٣٦) من المتأهلين و (٤) من الارامل . ثم من جهة المهنة ؛ منهم (٤٣) من الزراع و (٧) من العمال و (٨) من ارباب الحرف . ثم الذين يحسنون القراءة والكتابة بينهم (١٠) والاميون (٤٧) .

(الجنايات والجنح) — حدث في لواء طرابلس سنة (٣٣٠) ، (١٤٤) وسنة (٣٣١) (١٦٠) وسنة (٣٣٢) ؛ (١٦٦) جناية . ونرى ان هذه الجرائم محافظة على نسبتها ، وهذا يدلنا على ان الجنايات تقع في هذا اللواء في كل يومين مرة .

اما الجنح — فعددها (٨٢٣)، سنة (٣٣٠) و (٩٢٠) سنة (٣٣١) و(٩٣٧) سنة ٣٣٣ وازدياد العدد على تداول السنين يجب حمله على كثرة السرقات بسبب ضنك العيش . وعلى هذا الحساب يكون عدد هذه الجرائم في طرابلس كل يوم (٢—٣) . واذا نسبنا هذا العدد الى مجموع السكان نجد ان كل واحد من ثلاثين تصيبه جنحة في السنة .

[النكاح والطلاق] — ان المسلمين في مركز طرابلس الذين تزوجوا بعد استحصال الاذن من المحكمة الشرعية وفقا للقانون كان عددهم سنة « ٣٢٨ » « ٨٤ » وسنة « ٣٢٩ » « ١٠٢ » وسنة « ٣٣٠ » ، «٢٩» وسنة «٣٣١ » ، «١٧» ، وسنة «٣٣٢» ، « ١٢ » . وترى من هذه الارقام ان الزواج في السنين الثلاث الاخيرة انخفض الى عشر ماكان عليه من قبل . ولا جرم ان هذا التخفض ناشئ عن وجود الشبان في الخدمة العسكرية . اما الطلاق ، فقد حدث منه «١٩» حادثة في سنة «٣٣٢» ، ولم يمكنا الاطلاع على حادثات السنين الاخرى ، ولذلك لانجد مجالاً للتكلم عنه .

[السجناء] — يوجد في طرابلس «٢٦٠» سجيناً و«١٠» من النسوة السجنى . ثم لم يمكن الاطلاع على عدد السجناء في السنين الاخرى . وهؤلاء السجناء يمكثون في السجن ، ويأخذون نصيبهم من البطالة والكسل .

[المتأهلون والعزاب] — لم نستطع ان نطلع على كمية المتأهلين ، ولا العزاب . ولكن يزعم ان «٤٠» في المائة من الذين يتراوح سنهم بين « ١٥ » و«٢٥» ، هم متأهلون و« ٦٠» في المائة منهم عزاب .

[العائلات] — يظن ان سكان طرابلس تتألف من « ٥٠٠٠ » عائلة ، وربع هذه العائلات تتألف من سبعة اشخاص او كثر ، وافراد الباقي اقل من هذا العدد .

[مايتعلق بالولادات] — وجد بين الولادات التي حصلت في ظرف خمسة سنين « ١٣ » توأماً من الذكور و«٥» من الاناث .

اما عدد اللقطاء المجهولي الوالدين فهو «٢٤»، منهم الذكور «١٥» و«٩» من الاناث اثناء خمس سنين .

[مايتعلق بالنفوس] — لم يمكنا الاطلاع على عدد التجار والزراع ، والعمال وغيرهم من الصنوف الاجتماعية بين سكان طرابلس ، ولكن يزعم ان عدد ارباب الاملاك هو « ٢٥٨٠ » ، وبهذا يكون عشر السكان من ارباب الاملاك .

[ذوو العاهة] — يوجد في طرابلس من العمى والصم والبكم ، عشرة من كل صنف

[اشياع الطرائق] — يروى عن وثوق ان في طرابلس كثير من اشياع الطرائق المختلفة . فاتباع الطريقة « الخلوتية » [٤٠٠٠ — ٥٠٠٠] شخصاً ، واتباع الطريقة القادرية مثلهم واتباع الرفاعية «١٠٠» ، والشاذلية « ٣٠ — ٤٠ » والنقشبندية «١٠ — ١٥» شخصاً . فاذا سلمنا بصدق هذا الحساب ، يكون جميع الرجال في طرابلس منتسبين الى الطرائق .

[٣] — العادات الاجتماعية — ان لكل من الطائفتين الاسلامية والنصرانية في طرابلس عوائد ، وتقاليد اجتماعية تختص بها ، وهي منفصلة عن بعضها . وان هذه العادات والتقاليد في الفريقين مقتبسة عن غيرهم ؛ مثلا ان طرز المعاشرة ، وغيرها من المناهج الاجتماعية عندهم ، هي على عين ماهو معروف عند اسلام بيروت ، ونصارى القسم الشمالي من جبل لبنان المجاور لطرابلس ، او هي قريبة منها . وان المناهج الاجتماعية في مسلمي سورية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، الاول يختص بسكان السواحل والمدن ، والثاني بسكان الداخل والقرى ، والثالث بالعشائر . ولهذا السبب فان العادات ، والتقاليد الموجودة في بيروت وصيدا مثلاً . توجد مع يسير من الفرق في طرابلس واللاذقية ، وحتى في الشام ايضاً . وفي القرى الداخلية ايضاً يسود عين الدستور ، فترون العادات الموجودة في احدها متفشية في سائر القرى بفرق يسير بصورة تحصل من هذه المماثلة وحدة يمكننا ان نسميها « الخلال القروية » .

على اننا نجد العادات الاسلامية في سورية مدنية كانت او قروية كلها تستمد اساسها من الشام ، تلك البلدة القديمة التي هي ام عوائد هذه البلدان . فاذا شئنا استقصاء العوائد الاجتماعية في سورية لانجد لها مصدراً اساسياً الا الشام . اما البلاد الاخر فتكون بمثابة الفروع الكبيرة والصغيرة . وحتى ان عوائد القرى والقرويين كلها ملهمة من هذا المركز الحافل . واما الفروق التي يعثر عليها هناك في هذا الخصوص هي من تأثير تقاليد العشائر البدوية وعوائدهم لان عوائد تلك العشائر هي على بون شاسع عن العوائد العريقة في المدنية . وخلاصة القول ان بين البلديين المدنيين ، وعشائر البدو من سكان سورية فروق اساسية

بالنظر الى العوائد الاجتماعية اما عادات القرويين فهي قائمة بين هاتين الطائفتين وهي الحد الفاصل بينهما ولهذا يكون لها نصيب من كلتي الجهتين .

لهذا السبب يجب حين البحث عن العادات الاسلامية في طرابلس الشام ان نلتفت الى عادات الشام ، او على الاقل بيروت ؛ وننظر الى عادات بيروت ايضاً ، ولا سيما لبنان في البحث عن عادات النصارى وتقاليدهم الاجتماعية . واننا الآن نرجئ التكلم عن هذه النقاط الى بحثنا عن عوائد بيروت الاجتماعية . ونكتفي الآن بقيد النقاط الخصوصية التي عثرنا عليها في طرابلس .

*
* *

لا اثر في طرابلس للاشكال بخصوص انتقاء الازواج . ولا تصلب بين طبقات الاهالي على بعضهم في مسائل النكاح . وان وجد بضعة اسر لاتنكح الا من افرادها ، ولم يزل بعضهم يعتني بمماثلة الطرفين وكفائتهما لبعضهما في المذهب ودرجة الموقع الاجتماعي ، ولكن كون الطرفين من ارباب اليسر والغنى هو المرجح عندهم على الجميع . وعليه فان السن والصفة الاجتماعية ، وغيرها من اوصاف الكفائة محكوم عليها بالسكوت تجاه هذا المقصد الاساسي .

ان من قصد الزواج في طرابلس معرض — كما هو الحال في اكثر بلادنا — للمفادات بوجده . وتكبد النفقة الباهظة في المهر ، وتقاليد النكاح والازدواج ، ربما اوقعه سوء التدبير تحت الديون الجسيمة التي ترزحه السنين الطوال . يمكن ان يعفى عن الاغنياء ببذل تلك الثروة الطائلة في هذا السبيل ، ولكن لايغضى عن قصور ذوي الثروة المحدودة باستسلامهم لتلك المظاهر الواهية ، وتكبدهم من النفقات ماهو فوق طاقتهم ، واحراجهم انفسهم . وايضاً ان حملهم على صرف النفقات خطأ اعظم .

اذا علمنا ان مقدار المهر في طرابلس ربما يبلغ الى مائتي ليرة او الاهمية نصادق على عظم مايجب انفاقه في طريق الاحتفال ، وتقديم الهدايا وغيرها من موجبات البذخ . ونرى من الضروري ان نوسع هذا البحث ، ونفيض يسيراً في شرحه :

ان الاحتفال بالعقد في طرابلس جرت العادة فيه ان يكون في بيت المخطوبة ، اما مايجب صرفه من المشروبات ، والهدايا وغيرها يكون من جانب الخاطب . ثم على الخاطب ان يرسل يوم العقد العربون الذي يسمونه « العلامة » وهو اما خاتم ، او قطعة من الحليات . ثم يدفع المهر بعد العقد ، ويجب على العريس ان يقدم هدية حين اعداد الجهاز تبلغ قيمتها ربع المهر ، او يرسل نقوداً بهذه القيمة .

بعد ان يتم الجهاز وينقل الى بيت العريس ، يجب عليه ان يجامل احماءه بارسال مقدار من السكر ، والقهوة والتبغ وغيره مما جرت العادة بتقديمه . ثم تكون وليمة العرس

فى بيت العروس . وبعد ان يأخذوا نصيبهم من اللهو والطرب على حساب العريس ، تنتقل تلك الوليمة الى بيت العريس ، باعظم مما كانت عليه قبل . ولا حد لمقدار النفقة التى تصرف هناك على المآكل والمشارب ، وعلى المطربين ، والهدايا .

يدعى العريس ليلة الزفاف الى بيت احد اصدقائه ويمكث هناك الى بعد العشاء . وقد كانت عندهم عادة تقضى بان يقدم صاحب البيت الى العريس خلعة . وبعد صلاة العشاء ينعقد موكب الزفاف، فتتقدم الموكب الشموع والمصابيح ، ثم آلات الطرب ويلتف حول العريس قربائه واصدقائه ومعارفه ، ويوصلونه الى بيت الزفاف . واذا مر الموكب على احد الملاهى « القهوة » . ينثر امامه حب القهوة ، فيقابلهم بالعطايا ، وهكذا الى ان يوصل به الى البيت ، وهناك يحتم نثر النقود ايضاً .

ثم فى الغد يجب تقديم هدية الى العروس يسمونها « الصباحية » ، وهى قطعة من الحليات وهكذا تتوالى سلسلة البذل ، والانفاق ...

وقصارى القول ان احتفال الازدواج يكون على غاية من البذخ والاسراف ، ويعرض الرجال فيه الى تكبد ماهو فوق طاقتهم المالية من النفقات فعلينا ان نؤمل ازالة هذه العقبات ، او تخفيفها على الاقل . والا فان هذا السبب يقضى بتقليل الازدواج ، فيمتنع النسل الذى فيه حياة الامة ، على ان لهذه الصعوبات فوائد غريبة ، بمنع تعدد الزوجات، وتقليل كمية الطلاق . اذ يندر تعدد الزوجات فى طرابلس ، والطلاق قليل جداً . هذا وان يكن لطرابلس بعض خصوصيات تقف امام تعدد الزوجات ، ولكن لاينكر تأثير تلك النفقات الطائلة التى يجب بذلها حين الزواج . اما قلة الطلاق فيجب تأويلها بخضوع النساء الطرابلسيات لازواجهن وخنوعهن لهم من جهة ، ووفرة مقدار المهر المؤجل من جهة اخرى . لان كثر هذا المبلغ لاجرم يردع الرجال عن ايقاع الطلاق بلا سبب، ويكون اكبر مانع له .

*
* *

يتأخر الطرابلسيون فى ختان اطفالهم، ولايكون ذلك الا بين السنة السادسة والعاشرة من عمر الاطفال ، ومن عاداتهم الاحتفال بهذه العادة ايضاً وعوامهم يكون احتفالهم عبارة عن اركاب الاطفال على الجياد المزينة ، والاغنياء يكتفون باقامة الولائم . فتعزف آلات الطرب ، وتجرى الالعاب المختلفة التى من شأنها تسلية الطفل . والعادة تقضى على المدعوين بتقديم الهدايا .

*
* *

اما فى مسائل الوفات ؛ فمن عوائدهم اعلان وفات العلماء ، والمشايخ ، او احد افراد الاسر الاصيلة ، على المنارات بوجه مخصوص ، ولكن تشييع الجنائز عندهم يكون على

اتم السكينة والهدوء ، والخشوع الديني اما اذا كان المتوفى من اتباع الطرائق ، فقد يشيع مشايخ طريقته جنازته بنقر الدفوف ، او يكتفون بترتيل كلمة التوحيد امام الجنازة حتى يصلون بها الى المقبرة .

يوجد فى طرابلس اربع مقابر عمومية ، وخمسة عشر مدفناً خصوصياً للمسلمين: فاول المقابر العمومية هى مقبرة « باب الرمل » الكائنة فى جنوب طرابلس . والثانية « الزعبية » وهى فى الشرق قريبة من القلعة . ثم مقبرة « الشهداء » الكائنة فى محلة الحديد وهى الآن معطلة لايدفن فيها . وان لكل من الطوائف المسيحية مقبرة فى خارج البلدة ، واليهود ايضاً لهم مدفن يختص بهم .

يعتنى فى طرابلس بتزيين القبور ، وزخرفتها بصورة عمومية . ولقد يوجد فى المقابر مواقع تختص ببعض العائلات مشيدة بالرخام على طبقات متعددة ، اخذت الزينة فيها مبلغها ، مسورة بقضبان معدنية .

يهتم الطرابلسيون بقراءة القرآن فى الجوامع من الظهر الى العصر ، ومن المغرب الى العشاء كل يوم اعتباراً من يوم وفات الشخص الى سبعة ايام بعده . ويذهب اقاربه واصدقائه ايضا لزيارة جدثه .

ثم لاتجد نساء طرابلس يركضن وراء الجنازة بالصياح والعويل ، وتخميش الوجوه ، بيد انهن يخرجن الى البرية بعد العصر ، ويسمونها بالعصرية .

٥ — الاحوال الروحية

[١] — **المزاج والامزجة والطباع** — الطرابلسيون ؛ بصحائفهم المشربة بالسمرة ، الضاربة بلونها الى البياض وبعيونهم الشهل المبرقة ، وباجسامهم النحيفة ، وقد ودهم الربعة ؛ يمكن ان يقال انهم باعتبار الامزجة اربعة او خمسة فى المائة دمويون ، تجاه خمسة واربعين من العصبيين وخمسين فيها من العصبيين المتفاوتين .

ان المحيط الريان فى طرابلس اوجد هذا المزاج لاساسى من جهة ، واقليمها المتحول ومناظرها البديعة ، وسخاء الطبيعة مع رخاء العيش فيها من جهة اخرى اوجدوا فى الطباع الروحية والسجايا الاخلاقية خلالاً ملونة ، واوصافاً غير مستقرة .

لا جرم ان السعى لضبط تلك الاوصاف الابية المتموجة ، لاجل الحصول على مفهوم كلى والوصول الى كنه المؤثر الحقيقى ، والاطلاع على اوصافه الفرعية هو صعب ، بل مستحيل لدرجة تقضى بالحكم على ان الحالة الروحية العمومية هناك هى على عدم اطراد محسوس .

ولذلك لايصح ان يوصف الطرابلسيون بالاصرار الجامد ، او العشاء المفرط ، ولا يسوغ دميهم بحب النفع ولا خشونة الطبع ؛ بل هم اناس فخر ولهو ، واخدان اذواق ونشوة .

نعم انهم اناس فخر ولهو ، اكثر من كونهم ارباب حرص وطمع ، او اضلال وافساد . حتى ان هذه الاوصاف الخاصة تظهر على عنوان الاصالة فى الاسر الطرابلسية .

وقصارى القول ان الحالة الروحية فى طرابلس تمثل كتاباً ملوناً ؛ على غاية من الظرافة والتذهيب ؛ وكل صحيفة بل كل سطر من هذا الكتاب النادر الغزير الصحائف ، مملوء بالرموز المتنوعة . ولذلك هو جدير بالدرس والتدقيق .

ان عنوان هذا السفر الروحى ، هى كلمة « الانس والانسانية » الفصحى . تجدون كل من تعاشرون من الطرابلسيين على اختلاف طبقاتهم انيساً متقرباً يتبسم بوجه مسرور ، وتبرق عيناه عن اطمئنان ونشاط . يقابلكم من رقة العواطف والتواضع بما يجعلكم تحترزون منه خشية ايصاله الى التملق والرياء ؛ وتعجبون لما ترون انفسكم دائماً للتشبه بقرينكم عن غير اختيار منها .

يسحركم هذا المخاطب بطلاقة لسانه ، وبلاغة بيانه ثم لا ينفك يعدكم ولو بما يستحيل تحققه ولا يبعد عنه ان يستسلم لكم بجسمه وروحه ليظفر بآمال سرابية تكسبه فخراً وميزة هو على يقين انها فوق لياقته واعلى من استطاعته

اما اذا عن بعد برهة اشكال " الامر " يتحفز بكامل الحلم والسكينة الى الدفاع والاقناع بعين تلك العاطفة الباسمة ، وهاتيك العيون البراقة . فتشعرون وتتذرون بلزوم تخفيف الوطأة عن مخاطبكم هذا المتواضع بصفاء قلب وانسية .

ومع هذا فان لتلك الشخصيات اللينة المطبوعة الانيسة بعض اوضاع غريبة ومعكوسة ، وارواح متصدعة متهورة تجعلكم على غاية من الحيرة والعجب . على انه لايقنطكم هذا المظهر ولا يقلقكم . لان هذا العناد القاسى وقتى واضطرارى . وكونوا على يقين ان مخاطبكم هو ابن الحس واسير الاهواء . فاذا اطلعتم على المهيج الحسى ، المدير ملكوت روحه فى تلك اللحظة واستطعتم نقله الى غير هذا المحرك ، لا يلبث ذلك الهياج ان يخمد وينقطع اثره . ولا يبعد عن هؤلاء المخاطبين المجبولين بالعصبية ان يبقوا صادقين معكم . ولعين الاسباب لا يسوغ لكم ان تستسلموا الى الشكوك والشبهات مفكرين ان هذه الروح الجزلة ستنقلب بعد برهة الى روح مستاءة فهى تابعة لكم قبل كل شئ . فاذا عجزتم عن ربطها بكم فاعلموا ان القصور منكم فقط .

ان الفكرة جيدة كانت او سيئة ، نيرة او محلولكة ، لا يكون لها صدى فى آفاق طرابلس ما لم تدخل اليها من باب الحس ، وتستحوذ منها على الطف برج تستقر فيه .

ثم تكون بعد ذلك اعتقاداً راسخا ، فتجوس خلال الارواح وتمكث هنالك الى ان تزاحمها فكرة اخرى تنزع منها ما استحوذت عليه من عرش الحس ، وتقذف بها من حالق. ولذلك كثيراً ما نرى المتمسكين بتلك القناعات والمعتقدات ، وحتى المتصلبين بخصوصها يعيفونها بعد برهة ويكونون منها احراراً برآء فتتلاشى بسرور مختلفة على تلك الانظار والوجوه الابتسامة المعهودة .

لا ننسى ان الطرابلسيين الذين هم اصدق ، واعشق اسرى للحس ؛ يهشون الى المكارم ويميلون الى المعالي، فيوجدون من المآثر الجليلة والآثار الانسانية ما يكون بالعلو كالشواهق ينطح السحاب .

ان للطرابلسيين الذين لا يغادرون فرصة الا ويبرهنون فيها على انهم ذوو كرم وقرى بعض ذوات طاهري النفوس يطعمون لوجه الله كل يوم مآة من الفقراء والمساكين حبا بالانسانية . ولهم بعض مآثر مدنية واجتماعية كالمصرف الاهلي ، وشركة الوصيف ... الخ مما يدل على ان ثروتهم المادية معززة بالثروة الروحية ايضا .

ولكن يا للاسف ؛ ان اقل تبدل في العواطف يقوض تلك الشواهق فيذرها قاعاً صفصفاً ، ويحدث مكانها مهاو ووديان من الاهمال والنسيان متسعة الارجاء بعيدة الاغوار .

بسبب تلك العصبية الروحية ، والتقلب النفسي المحسوس في طرابلس بصورة واضحة كانت الطباع كالفراش . ترفرف كل آن في ساحة ، ثم تقف ؛ وربما تزج بنفسها وتنساب في ميادين غريبة ، وراء الآفاق الطبيعية المعهودة . توجد في طرابلس مودات ومعارفات محسوسة ، وموالاة وصداقة غريبة . ان بعض الطرابلسيين يأبى الا ان يعيش مشفوعاً بقرين . ويلفت النظر عدم المماثلة في السن بين هؤلاء القرناء الذين يتجولون ويمشون ويقعدون ازواجاً . ويكونون من الالغاز المطلسمة في نظر الغير لشدة ارتباطهم ببعضهم . لا يحتاج الانسان لذكاء حاد وبصيرة نافذة لكشف ان الحدث من هذين الصديقين هو صاحب الكلمة العليا . والسلطة النافذة . لان الانجلاب المفرط المشهود في الرجال هناك يتجاوز حد المجاملة والخلوص .

ان هذه الالفة والرابطة المشهودة بين بعض الاشخاص في طرابلس تدوم على ما يروى مدة طويلة . ويقال ان سبب ذلك هي الروح المتنوعة والنفوس الهادئة المنكبة على المحافظة في بعض الطرابلسيين . فانهم لا يرضون بفراق صديقهم بعد ان يستيقنوا بحبه وخلوصه . ولذلك يريدون ان يكون معهم اينما كانوا وحيثما حلوا . وتمييز هوية الشخصين ودرجة اختصاصهما ببعضهما تتجلى في خواطر الطرابلسيين ، في تلك الصحيفة الحية . وهذه الموالاة المعروفة قد تصل من المتانة والتأصل الى درجة يشاهد فيها بذل الاموال الطائلة .

الا وان ذكرى هذه الزمر في الخارج لا تزال تلقى في قلوب الغرباء ، وحتى في قلوب

الطرابلسيين انفسهم ، آذماً ممضة .

وبالنتيجة نقول ان مريدي الصلاح ، لا يشتهون وجود هكذا صحائف فى كتاب اخلاق الطرابلسيين . وعليه يكون تمنى سعى الطرابلسيين لطى تلك الصحائف وازالتها وبذل الجهد والاستطاعة لامحائها ضرورياً .

[٢] — الحالة الروحية — اذا اردنا ان نطلع على درجة الرقى الفكرى فى طرابلس ونقف على مقدار نصيبها من العلم. يجب علينا ان نمعن النظر فى افراد طبقاتها الاجتماعية.

سبق ان بينا أثناء البحث عن الاحوال الاجتماعية ، ان بعض اولاد منسوبى الطبقة الاولى المعروفين باسم الاغنياء فى طرابلس ، درسوا اما فى مدارس بيروت ، او استانبول ، او غيرها وكان لهم نصيب من العلم على ما امكن . ولكن المتقدمين فى السن من اولاد عين الاغنياء لا نصيب لهم من هذا البتة ، ولا يتطلب هذا الادعاء اقامة البرهان لانه بديهى. انهم وان يكونوا على شئ من المكتسبات التقليدية ، ولكن لا تكون المكتسبات التقليدية من الجهاز الكافى للادمغة فى هذا العصر . اما الذين لهم المام بالعلوم الصرفية والشرعية فلا جرم انهم يشعرون بخطأهم ونقصهم لسبب اكتفائهم بهذه الاجهزة الحياتية اليسيرة ولهذا فان الثروة الفكرية القديمة فى هذه الطبقة لا تستطيع ان تستغل لطرابلس دخلاً توفرت فيه اسباب الكفاية والاستفادة .

اما منسوبو الطبقة الثانية ، فان عددهم كثير . يشمل السواد الاعظم من سكان طرابلس ، وبما ان الاكثرية فى طرفهم فان جميع الشبان الذين اتموا دروسهم فى مدارس مختلفة ، هم اولاد منسوبى هذه الطبقة . من الضرورى ان نعترف بان التعلم يوجب التنور ولكن يلزمنا ان نحكم فى الامر بالنسبة الى درجة ذلك التعلم. واذا شئنا ان نضع جدولاً نحصى فيه عدد الشبيبة الطرابلسية المتعلمة نرى ان عدد الذين تخرجوا فى مدارس اوروبا من مسلمين ونصارى ، هو « ٩٥ » . ومتخرجى المدارس العالية فى قاعدة الملك ، « ٧٠ » ومتخرجى المدارس التالية « ٣٠٠ » شاباً . اما الذين درسوا فى المكاتب الابتدائية فقد آثرنا ان نعتبرهم من الذين يعرفون الكتابة والقرائة فقط ، لا من صنف المتعلمين .

وعليه ان زمرة المتعلمين الذين يبلغ عددهم الى «٤٠٠» كادوا ان يكونوا كلهم من الطبقة الثانية . واذا فكرنا بان ارباب الطبقة الثالثة ليسوا بقادرين على تعليم اولادهم ، يظهر لنا الدليل الكافى على صدق رأينا .

ويمكننا الان ان نمعن فى التدقيق ونطلع على عدد المسلمين والنصارى من هؤلاء المتعلمين ونفرقهم عن بعضهم ونستنبط النسبة فى العلم بين هاتين الطائفتين :

ان الدماء كل من متنورى المسلمين والنصارى واتفاقهم، يمكننا من ايجاد هذا الجدول :

	المسلمون	النصارى	يكون
المتخرجون فى مدارس اوروبا	١١	٤	١٥
« فى المدارس العالية	٥٥	١٥	٧٠
« « « السلطانية	١٠	٥	١٥
« « « الاعدادية	٢٣٠	٧٠	٣٠٠
يكون الجميع	٣٠٦	٩٤	٤٠٠

اذا امعنا فى هذا الجدول، وعلمنا ان مقدار النصارى هو خمس مقدار المسلمين، نجد ان درجة المسيحيين فى العلم كادت ان تكون معادلة للمسلمين، وحتى راجحة فى بعض النقاط . ولذلك فان زعم بعض الطرابلسيين بان عدد المتنورين فى المسلمين اكثر من عدد المسيحيين لا يخلو من المبالغة .والاصح فى ذلك هو الاعتراف بوجود التوازن بين هاتين الطائفتين .

بعد ان ذكرنا المتخرجين فى المدارس الرسمية، نريد ان نبحث نبذة عن المشايخ الذين تخرجوا فى المدارس الدينية ايضاً :

يوجد فى طرابلس خمس عشرة مدرسة رافقت القرون بقدمها فمنها : السقرقية والخاتونية والطواسية، ومدرسة العطار والقرطائية] . وقد كان عدد هذه المدارس التى خصصت لها الاوقاف الوافرة كثيراً جداً . ويروى انه كان فى طرابلس مقدار (٣٦٦) من المدارس، وكان لها اوقاف غنية . فما زالت تلعب بها الايدى حتى لم يبق منها الآن الا خمس عشرة مدرسة مشرفة على الخراب . اما البقية فلا يعثر لها على اثر .

ولو بحث عن هذه الاوقاف وانتزعت من ايدى الغاصبين ثم اسس بتلك المبالغ الجسيمة فى طرابلس بضع مدارس علمية ومدنية منتظمة تنطبق على المصلحة العصرية، واصلحت بها المدارس المحلية، لكان بها لطرابلس من المؤسسات العلمية ما يجعل لهـا الحظ الاوفر من العلم والمعرفة .

ولا ينكر ان طرابلس قد استفادت من هذه المدارس العامرة، وان معظم ذوى الاسوة العلمية فى هذه البلدة له انتماء اليها . وقد سبق ان وجد فيهـا معلمون من فحول العلماء واعاظمها .

فاذ علمنا ان عدد الطلاب التى تنال الاجازات من هذه المدارس خمسة عشر فى كل سنة نعلم ان تلاميذها يتجاوزون المائتين فى عددهم . واكثر هؤلاء يستخدم الآن بوظيفة

القضاء في أكثر انحاء الولايات العثمانية . ويوجد بينهم مقدار خمسة عشر من العلماء المتضلعين في العلوم الشرعية ، ولا جرم ان اطلاعهم على العلوم العربية واسع ايضاً .

ولا يفوتنا ان هذه المدارس وان خدمت لتنوير الاذهان بالقرائة والكتابة خدمة لا تنكر ، غير ان دروسها تحصر في العلوم الشرعية والعربية فقط ، ولا تتعرض للعلوم والفنون الحديثة ، ولهذا فان متخرجيها يميلون بالافكار الطرابلسية الى ما هم يختصون به من العلوم ويهملون الجهات الاخرى ، ومنها كانت هذه النتيجة التي خالفت المصلحة العصريه .

ومع هذا فان هذه النتيجة لا تزال تخفض بتاثير همة الشبان المتخرجين في المدارس الرسمية ، الذين يزداد عددهم على تداول الايام . ثم ان كثرة المناسبات والمعاشرات التي اوجبها قرب طرابلس الى بيروت ، ووجودها على ساحل البحر ، وسهولة الطبع والاخلاق في الطرابلسيين ، الناتجة عن المؤثرات الطبعية المحلية ما زالت تعدل تأثير تلك النتائج ، وتخفف وطئتها .

لا جرم ، تنقبض نفوس الشبان الطرابلسيين لما يرجعون الى بلدتهم واهليهم ، من الجاهلين ، او غير المنورين من مواطنيهم ، على انهم يتعزون بما عند اولئك الزمرة من لين العريكة والتلون الروحي والحياة النشيطة ؛ وبما في طرابلس من البدايع الطبعية والفيض العميم ، ولا يشعرون بلزوم مبارحة اوطانهم لهذا السبب .

نرى من الواجب قبل اتمام هذا البحث ان ندرس تجار الطبقة الاولى والثانية في طرابلس ونستطلع كيف امكنهم النجاح بغير علم ، معرفة ، وننظر الى ما يرمي اليه الطرابلسيون بان هذا النجاح هو دليل على المزية العلمية والنور الفكري ، ونصحح ذلك الاعتقاد والادعاء .

لو سلمنا بنجاح الطرابلسيين في مشاريعهم ، ولكن يجب ان يحمل هذا النجاح على ذكائهم المعلوم واستعدادهم الطبيعي اكثر ما يحمل على علمهم ؛ وعلى تجاربهم العملية ، اكثر من نظرياتهم العلمية . وهم يعملون على ما كان يعمل اسلافهم — دون ادنى تأثير علمي — فنجاحهم بتأييد الموجود وادامته لا يكون نجاحاً يفسح لهم عن طريق الرقي والكمال . ولو انهم اضافوا لهذا الاستعداد الفطري ، مدبراً علمياً لكان نجاحهم اوفى واغنى ، ولاقتطفوا اثمار الرقي ، عوضاً عن احتفاظهم بالموجود .

بعد ان بحثنا عن الحالة الفكرية في طرابلس يجدر بنا ان نطلع على مقدار من يحسن القرائة والكتابة من المسلمين والنصارى فيهم . ونقارن بين هاتين الطائفتين من هذه الوجهة .

ان الربع من رجال المسلمين ، وخمس في المأة من نسائهم — على التخمين — يحسنون

لقرائة والكتابة . وعلى هذا الحساب يكون مقدار الرجال من هذا الصنف (٢٠٠٠ — ٢٥٠٠) ومقدار النساء (٥٠٠) فقط وباقل تفكر نعلم قلة هذا المقدار ولاسيما درجة لانحطاط الفكرى فى النساء ، وضعف الحالة الروحية فيهم . واذا اطلعنا على ان مقدار لمتخرجين فى المدارس الابتدائية لا يزيد عن (٤٠٠ — ٥٠٠) فى السنة ، نحصل على لعلم القطعى بدرجة تعلم الذين يحسنون القرائة والكتابة فى طرابلس .

اما الطائفة المسيحية ، فعلى زعم المتعلمين منهم ، ان تسعين فى المأة من الرجال اى (٢٠٠٠) ، وثمانين فيها من النساء اى (١٥٠٠) يحسنون الكتابة والقرائة . وان ستين فى مائة من هؤلاء النساء متخرجات فى المدارس الاجنبية . لاجرم ان هذا الحساب مبالغ فيه . على اننا لو اخذنا نصف هذا المقدار على علاته ، بشرط مراعاة النسبة فى النفوس رأينا ان الطائفة المسيحية ارجح وارقى من اختها الاسلامية ، وبما ان المسيحيين اميل الى اللغات الاجنبية واعرف بها ، وانهم غير مقيدين فى معيشتهم ببعض القيود الاجتماعية كانوا اعلق بالآثار الحديثة الاجنبية واوفر وسائلاً للتنور بسبب اختلاطهم وعشرتهم . وعليه فان سويتهم الفكرية ارقى درجة من سوية المسلمين .

[٣] — *مناقب الشيخ العمرى* — نرى ان نعزز هذا البحث بالتكلم عن « الشيخ على العمرى » الذى ما زالت شخصيته تشغل الاذهان الطرابلسية منذ السنين الطوال ، ثم تحول هذا الاشغال الى اطمئنان ، ثم الى عقيدة ، ولم يلبث ان كان تنشئة راسخة . ونروى شيئاً من مناقبه التى تتناقلها الالسن والافواه فى طرابلس .

يجب علينا ان نعلم اولاً ، ان تعبير « الشيخ » فى سورية يدل — فى نظر الناس — على من يلبسون الكسوة العلمية . ولذلك لا يشترط العلم لاجل احراز هذا العنوان .

اتفقت الروايات على ان الشيخ العمرى كان امياً حتى آخر نفس من حياته ، ولكنه استطاع جلب قلوب الناس اليه ، واكتسب حبهم واحترامهم .

وان امعانه فى الصلاح والتقوى ، واطمئنان الناس بشئ من قدسيته واعتقادهم ببعض مناقبه وسيره التى يتلقونها من قبيل الكرامة ، جعل له المكانة العظمى والسلطة التامة فى قلوب الناس .

اجمع القوم على ن الشيخ العمرى كان معدن الخير والانسانية . وان شخصيته التى هى تمثال الحدنى كانت محترمة وموقرة عند الكبير والصغير من طبقات الناس والمأمورين وحتى عند جميع الطوائف غير المسلمة ايضاً .

اعتاد الشيخ على عدم الخروج من بيته فاذا صدف وخرج مرة فى السنة لا يلبث ان تخف اليه الزمر من مسلمين ونصارى وغيرهم ، ويشبعون ايديه تقبيلاً :

لم يضق الشيخ ذرعاً بامر حياته بل كانت الاعانات التى يضعها الزائرون تحت سجادته

تكفي لنفقته وتربيته ، وانه كان جواداً على الفقراء ولهذا لم يترك شيئاً يذكر من الوفر بعد وفاته رغماً عما كان له من العطايا البالغة .

توفى الشيخ سنة (١٣١٩) ومشى وراء جنازته جميع الطرابلسيين يودعونها بالدمع الساكب . ودفن فى مقبره الخاص فى التربة القريبة من باب التبانة ويزعم اولاده انه عاش قريباً من مائة سنة .

وقصارى القول ان الشيخ العمرى على ما يروون عنه من حب الخير ، والطلعة الباشة وبحركاته القدسية الخارقة للطبيعة وكراماته ، كان معتمداً عظيماً فى نظر الطرابلسيين . ولا بد لكل من الطرابلسيين اذا حادثتموه ان يطلعكم على كثير من مناقب الشيخ التى لا تنتهى ويقول لكم باطمئنان كامل :

— انى مطمئن على ان « الشيخ العمرى » « ولى » بكراماته . وانا اعتقد بذلك .

لاسيما اذا وجدتم فى ناد يضم بعض افراد ممن يدينون بهذا الاعتقاد . تسمعون كثيراً من هذه المناقب . وتتسلسل الروايات بمآثر الشيخ . فتعلمون بتلك المنقولات التى تجعل الانسان فى حيرة . انكم تشاهدون الاحوال الروحية قائمة على سوقها .

ومنا الصدفة ذات يوم فى مجلس ، حشد ارباب المناقب ، وحفاظ الروايات . فتقاطرت علينا جميع منقولات الشيخ ومآثره . وكان احدهم يقول :

— ركب الشيخ مركبة فى احد الايام ، واتى الى امام دار الحكومة فى طرابلس فرآه شرطيان ، وارادوا ان يأخذوا بيده اجلالاً لقدره ، وينزلوه من المركبة . فاعطاهم يده وقال : اسحبوا ماشئتم ، وابذلوا جهدكم . فألحى الشرطيان على يده جراً بجميع قدرتهم . ولكن لم يقدروا ان يحركوه .

ثم قال الآخر :

— كان الشيخ امياً ؛ ولكن كان اذا شاء اخذ عوداً وغمسه فى فيه فكتب بمداد اسود خطاً كامل المعنى .

ثم ان احد المسيحيين قال :

— نقل لى رفيق هذه الحكاية : كان يساير الشيخ العمرى فجلسوا فى محل لأجل الراحة . وصدف ان قدم لهما قدحان من قهوة . فشرعا يشربان . ثم قدم الشيخ قدحه الى رفيقه قائلاً

— الا تشرب منه : فشرب الرفيق وشعر ان القدح يتضوع منه المسك .

ثم قال الآخر:

— اعلم روايتين عن الشيخ ، ولم اكد انساها . وها انا اتلوها عليكم :

— صدف الشيخ احد معارفه وهو سائر فى الطريق . وسأله الى اين يذهب ، فأجابه

انه دعى هذا المساء الى مأدبة ، فقال له الشيخ اياك ان تتأخر الى بعد الساعة السابعة «غروبية». ثم اخذ الشيخ سبيله وسمع وهو يقول لنفسه « حرق الله لحية من يفتا بالجهد» و«ربما يقتل الله جملاً ليطعم بعوضة» . ثم ان ذلك الرجل رجع الى بيته في الوقت الذى حده الشيخ ولم يلبث نصف ساعة حتى مات . وقد قصد الشيخ في كلامه الآية القرآنية « ولا يغتب بعضكم بعضاً » وانه قصد في الجملة الثانية ايضاح معنى هذه الآية ، واخبر سلفاً ان ذلك الرجل سيموت .

ثم يروى عن الشيخ انه دعى لعيادة مريض وقراءته . وكان المريض مشرفاً على التلف فدخل الشيخ الى البيت وقال للحاضرين « اذا وهبتمونى فرساً ، شفيت عليلكم » فرضوا بالشرط . ولم يلبثوا ان سمعوا فى الاصطبل صوتاً هائلاً ، فاسرعوا اليه واذا باحد الافراس قد انفطرت . ثم شفى المريض .

ثم اجمل احد الحاضرين مناقب الشيخ العمرى وقال :

— ان اهم مناقب الشيخ انه يغمس القدح فى البحيرة فيكون الماء فيه شراباً ، ويأخذ عودا ، او ورقة ثم يبلها بريقه ويمسح بها العين الرمداء فيشفيها ، واعظم من هذا انه يأخذ عوداً فيذبح به شاة ويسلخها ....

ان هذه المناقب التى تؤثر فى طرابلس عن الشيخ العمرى لاتزال تكررها الالسن فى كل يوم.

وقصارى القول ان عقيدة الشيخ العمرى المؤيدة بهذه المناقب وامثالها ، هى على غاية من الاستقرار والتأصل فى النفوس . وانا لا نرى حاجة للتكلم عن هذه الروايات الخارقة او بالاحرى عن تلك الحالات الروحية الملموسة . ولهذا السبب اكتفينا بنقلها وتحريرها على علاتها .

٦ — الاحوال الصحية فى طرابلس

[١] — **الحالة الصحية** — بينا آنفاً ان طرابلس الشام ، هى بلدة لها اقليم معتدل ولطيف ، كباقى البلاد فى سورية . وبما انها محاطة بالرياض الواسعة التى تسقى من ماء النهر تكون الرطوبة فيها على ازدياد دائم . ولهذا كان هواؤها ارطب واثقل من هواء بيروت، ويزعم اطباؤها ان حرارتها فى الصيف لاتزيد عن ٣٠و٣٣ درجة سانتيغراد وفى الشتاء لاتنقص عن سبع درجات ولهذا تكون حرارتها الوسطى ٢٧و٢٨ درجة فى الصيف و١٤و١٥ درجة فى الشتاء .

الا بينا حين البحث عن الخطوط الداخلية فى طرابلس ، ان بيوتها القديمة متصلة ببعضها، وآو وان الطرق بين تلك البيوت ضيقة ، واكثرها مستور بالحنايا المسقوفة ولهذا كانت البيوت والطرق محرومة من الشمس ، ومن جريان الهواء . ومع هذا فان الطرق التى فتحت

حديثاً هي واسعة ، والبيوت الحديثة — كبيوت القبة والتل — آخذة نصيبها من الهواء والشمس .

اما ماء طرابلس فهو كما قدمنا يفرق من جدول « رشعين » وهذا الماء باوصافه الخارجية . اي بصفائه ونظافته وطعمه هو صالح للشرب غير انه مكشوف المجرى اعتباراً من منبعه حتى يدخل البلدة . ويمر على بضع قرى من اعمال لبنان ولهذا اصبح ماؤه معروضاً للكدورة والاوساخ بنسبة ابتعاده عن منبعه . وعليه فان هذا الماء له التأثير العظيم بانتشار مرض القوليرا ، وامثالها من الامراض التي تمكن سرايتها بواسطة الماء . لاسيما وان المجارى في وسط البلدة تمر ماسة بمجارى المياه القذرة وغيرها فتتلوث بما يرشح من هاتيك المجارى وتفسد ، ولهذا يجب على الذين تهمهم صيانة هذه البلدة وحفظها من الامراض القتالة ان يسعوا لاسالة هذا الماء بانابيب من حديد محفوظة من كل مدنث .

ويجب علينا حين البحث عن المسائل الصحية ان نعلم ان كثيراً من الناس في طرابلس لا يقدرون قدر الصحة ، ولا يعلمون من التدابير الصحية شيئاً . هذا وان كان يؤثر عن الطرابلسيين ان داخل بيوتهم نظيف ، ولكن الشكل الخارجي غير منطبق على القواعد الصحية البتة . لاسيما وان السواد الاعظم من الطبقة الثانية ، وعموم افراد الطبقة الثالثة هم من الجهالة العمياء في درجة جعلتهم يغضون عن التدابير الصحية بصورة واضحة . ثم ان اعتياد بعضهم على اكل بعض البقول او الاثمار دون ان يطبخوها ؛ والمستنقعات التي تحصل في الرياض والبساتين ، بسبب الدقي هي من الاسباب الضارة التي لا تزال الصحة العمومية في طرابلس تحت خطرها وتهديدها .

[٢] — *امراض البلدة ، والامراض الطارئة* — ان اكثر ما يرى في طرابلس من الامراض الموقعية هي « الحمى المرزغية » ولا يخلو بيت فيها من تسلط هذه الحمى على افراده بضع مرات في السنة . واكبر داع لتأصل هذا المرض هي المستنقعات التي توجد في البساتين ، ثم عدم انتظام مجارى المياه ، وعدم حفظها وصيانتها . ويقول اطباء البلدة ان هذا المرض يبتدأ في اواخر الصيف، وتشتد سورته في فصل الخريف لدرجة هائلة . ومع ان هذا المرض ليس بقاتل ، ولكن اكثر المروضين به يصابون بفقر الدم وبامراض الكبد والطحال .

اذا شئنا ان نرتب جدولاً لهذا المرض فلا نبالغ ان قلنا ان عدد المصابين به في اليوم يتراوح بين الخمسة عشر والعشرين . ثم اذا علمنا انه يوجد من يصاب بعين المرض مرات متعددة في السنة ، نطلع على ضرورة التذرع بالتدابير والوسائل الفنية التي يمكن بها تخليص حياة هذه البلدة من هذا الداء العمومي .

وباعتبار الكمية يأتي في الدرجة الثانية مرض « ديزانتهري » . ولربما يعثر في طرابلس ايام الصيف على بضعة اشخاص من مصابي هذا الداء في كل يوم . ويشاهد تصاعد هذا المقدار الى ثلاثين او اربعين ايضاً .

وسبب تفشي هذا المرض وتأصله هناك يحمل على عدم صون الماء من جانب ، وانهماك الطرابلسيين باكل الاثمار والبقول بلا طبخ من جانب آخر . وهذا المرض يفتك بهذه البلدة فتكاً ذريعاً . والجداول الرسمية (*) تنطق بان عدد الوفيات من هذا الداء كان سنة (١٣٣٢) مقدار (٢٥٢) شخصاً . فاذا نظرنا الى هذه الكثرة في الوفيات نعلم ان الذين يصابون به هم اكثر من هذا المقدار واعظم . حتى ان عدد الوفيات من هذا المرض كان في الشهور الاربعة الاولى من سنة ١٣٣٢ اي قبل حلول الصيف ، (٢٣) شخصاً . ولهذا يجب التذرع بالتدابير العاجلة لدرأ هذا الخطر الجاثي عن طرابلس .

ثم ان اعم مرض في طرابلس بعد مرض « ديزانتهري » هي الحمى التيفوئدية . وسبب سرايتها وتفشيها هو الماء ايضاً . ومجموع الوفيات السنوية منها تقرب من مقدار وفيات ديزانتهري .

ويعثر في طرابلس على امراض « ذات الرئة » ، و« الروماتزمه » وذلك لانها بلدة رطبة اما مرض « السل » فقد كان فيها كثيراً قبل بضع سنين . ولكن تنقص مقداره في هذه الايام لاعتناء السكان بالامور الصحية لدرجة . وتنبا الجداول الصحية ان الوفيات من سل الرئة كان مقدارها (٢٨) ، سنة ١٣٣٢ اما في الاشهر الاربعة من سنة ١٣٣٣ لم يتوف بهذا الداء الا شخص واحد

ثم ان الامراض الكليوية والقلبية والمعدية كثيرة جداً . ونرى في عين الجداول انه توفي سنة ١٣٣٢ من الامراض القلبية (٥٦) ومن الامراض الكلوية (٤٨) ومن الامراض المعدوية (٧٦) شخصاً . وفي الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ توفي من الامراض (٨) و(٢) و(٤١) شخصاً .

يجب ان لا ننسى حين البحث عن امراض طرابلس ، امراض الجرب ، . الامراض الافرنجية . ان مرض الجرب قد تفشى في الايام الاخيرة بصورة هائلة ، حتى انه ... جميع الطبقات الاجتماعية هناك . ويخمن مقدار المصابين به اليوم يتراوح بين (٣٠٠ ، و ٢٠٠) شخصا .

اما الافرنجي فهو على اضعاف امثال الجرب في مقدار المصابين وان هذا المرض الذي لم

(*) لم نتمكن من الحصول على شيء من الجداول الصحية ، الا على جدول وفيات سنة ١٣٣٢ ، وجدول اربعة شهور من سنة ١٣٣٣ ، فقط

يكن له اثر قبل بضع عشرة سنة اصبح اليوم متفشياً بنسبة عظيمة ، وعلى التخمين الموثوق ان نسبته تجاوز واحداً من ثلاثين بالنظر لمجموع السكان . ويوجد غير هذا من الامراض السمية الاخرى . ولكن لا تبلغ درجتها الى مقدار مرض الافرنجي . ثم يوجد المرض الذي حاولت افهامه حين البحث عن الاحوال الروحية ، وهو يتناول اكثر من نصف السكان . ومما يوجب المسرة ان مقداره لا يزال في نقص متوال .

*
* *

اما الامراض الطارئة التي فتكت بالطرابلسيين بهذه الايام . فهي « الحمى التمشية » و« القوليره » .

توفي من مصابي الحمى التمشية سنة ١٣٣٢ مقدار ثمانية من المائة ، وفي الاشهر الاربعة من سنة ١٣٣٣ لم تجاوز الوفيات اربعة من المائة . ومجموع هؤلاء الوفيات سنة ١٣٣٢ (٥٧) ، وفي هذه السنة (٥٤) شخصا .

اما القوليره فما كانت شديدة الوطئة في هذه السنين . وقد كان يتوقع منها ان تكون اشد مما كانت ، ذلك بسبب سوء الحالة الصحية في طرابلس . سبق ان دخل ذلك المرض هذه البلدة قبل خمسة عشر عاماً . فكان عدد الوفيات يتراوح بين الخمسين والمائة في كل يوم . على ان جميع الوفيات التي كانت سنة ١٣٣٢ من القوليرة لم تجاوز (٦٥) شخصاً . اما المصابون فعددهم اكثر من هذا بعشرين مرة . اما في الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ فلم يحدث اصابات من القوليرة البتة .

ثم يجب علينا قبل اتمام هذا البحث ان نتكلم عن الذين يميتهم سوء التغذي ، او بالاوضح الذين افناهم الجوع . ومقدار هؤلاء بموجب الجدول الرسمي (٢٤٠) شخصاً سنة ١٣٣٢ ثم ازداد المقدار في الاشهر الاربعة من سنة ١٣٣٣ فكان « ٢٨٠ » شخصاً فاذا دام هذا الحال فان طرابلس ستفقد في السنة واحداً من عشرين من سكانها .

واذا اضفنا الى الوفيات التي بحثنا عنها مقدار الوفيات التي تكون بسبب الجدري والامراض التنفسية والدماغية فيكون المجموع سنة ١٣٣٢ مقدار (١٤٥٤) وفي الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ مقدار « ١٥٤٣٠ » من النسمات . ثم اذا علمنا ان معظم الشبان منخرطون اليوم في سلك الجندية ، واطلعنا على ان هذه الوفيات كانت من القسم الذي تدرك خطورة هذا المقدار على حياة البلده ؛ لاسيما في هذا الزمن الذي تندر فيه الولادات . فلا ريب ان طرابلس اضاعت ربع ، او على الاقل خمس سكانها في هذه الثلاث سنين . وجسامة هذا المقدار جديرة بأن تدعونا الى التفكر والامعان .

[٣] — الاسس الصحية — من الضروري ان نحكم على عدم كفاية الاسس الصحية .

بعد ان رأينا جدول الامراض على هذا النمط . اذ لايوجد الآن سوى طبيبين رسميين الواحد فى بلدية البلدة ، والثانى فى بلدية الميناء . والاطباء الخصوصية لم يبق منهم الا خمسة او ستة . وبالنظر الى طرابلس التى كان فيها قبل الحرب ، مع قلة الامراض اكثر من ثلاثين طبيباً . لاجرم ان هذا العدد من الاطباء قليل جداً .

ويجب ايجاد المستشفيات ، ودور التجريد فى هذا البلدة ذلك لأن التوسل بالتدابير الجبرية تلقاء هؤلاء الأهالى الذين لايدركون معنى الصحة ، ضرورى وبديهى . وقد تأسس مستشفى للبلدية فى بناء العذرية ، وشرع فى تجريد مصابى الحمى التيفية ، على ان هذه التدابير الوقتية لاتقوم بهذا الواجب الحياتى .

وان المستشفى البلدى الذى شيد فى العلف بقعة فى طرابلس ، و عدفه خمسين سريراً ، وسمى « مستشفى عزمى بك » هو بالرغم عن ضيقه اثر خصوصى ، لانه يقوم بدفع قسم من هذا الاحتياج الحياتى العظيم . وان تأسيس هكذا آثار فيها الخير العميم لحياة العموم هو من الآمال التى يرام تحققها .

اما « مستشفى يدسار » الخصوصى المبنى فى مكان لطيف من البلدة ، هو بمثابة مستشفى جراحى ، وقد كان يوجد فيه اكثر من ثلاثين مريضاً . اما الآن فوجوده لايزيد عن اثنين او ثلاث .

فاذا اضفنا لهذه المؤسسات الصحية خمس ، او ست صيدليات فى البلدة ، وثلاث فى الميناء . ومأموراً للتطعيم ، وعلمنا ان تلك الأسس مع نقصها محرومة من كل الوسائط الصحية ، الفنية ، نطلع على نسبة احتياجنا الى تنظيم تلك الدائرة واتمامها ، ونعلم ان الانتظار لتحقيق هذه الامانى شديد جدا .

٧ — اللغة والادبيات ، والفنون الجميلة

[١] — اللغة — ان اللغة المستعملة بين الطوائف ، والطبقات المختلفة فى طرابلس ، هى لاجرم اللغة العجمى ، ومع هذا فان بهذه اللغة هنا بعض شذوذ . وهذا الشذوذ ، او تبدل اللهجة لا يظهر تماماً فى مسيحيي طرابلس ولكن المسلمين وخصوصا الطبقة الثالثة منهم . لا تزال تنهج سبيله .

وبما ان طرابلس هى بلدة تميل باوصافها لتمثيل بيروت والشام معاً . كانت لهجتها ايضاً نقسمة بين هذين المركزين السوريين . وغدت لغتها فى متوسط اللغتين ترمى بتضخيم الفاظ الى البيروتية ، وبتخفيفها الى اللغة الشامية . ثم انها تميل تارة لهذه واخرى لتلك وآونة تبتعد عن كلتيهما . فاذا اردنا ان نفصح عن هذه اللغة ، يجب علينا ان نطلع على

الفروق الظاهرة التى تفرق اللهجة الطرابلسية عن البيروتية .

اولاً — ان الطرابلسيين يخففون الالفاظ ويرققونها ، مع ان البيروتيين يفخمون الكلامات وينطقون بها بصوت مفخم .

ثانياً — يقصر الطرابلسيون مد الحروف الصوتية ، والبيروتيون يطيلون مدها .

ثالثاً — ان البيروتيين يفرقون بين كلامهم ويفصلونه بايراد لفظة « نَهْنَه » ويقصدون بها الاستفهام . اما الطرابلسيون فهم يصلون كلماتهم ببعضها ، ولا يستعملون هكذا استفهام .

رابعاً — يلفظ البيروتيون حرف (أ) كالياء ، او يميلون بها الى الكسرة اما الطرابلسيون فيجعلونها كحرف « و » . مثلاً يلفظون كلمة (نار) بصورة « نور » .

خامساً — يبدل الطرابلسيون حرف « القاف » الى همزة .

ورغماً عن هذا الشذوذ الخصوصى ، فاللغة الطرابلسية ليست بلغة غليظة . بل هى لهجة رقيقة ، لطيفة الوقع على السمع .

لا سيما وان فى طرابلس استعداد اضح للادب — كما ذكرنا ؛ وسنذكر — ولهذا ترى الطرابلسيين لا يألون جهداً بالسعى لتقريب لغتهم الى حدود الفصاحة ، ويوجد بينهم اكثر من مائة شخص يتكلمون بالعربية الفصحى . واكثر منسوبى الطبقة المنورة لهم نصيب من هذه القدرة . ولا بد من التسليم بان للمدارس الطرابلسية اليد البيضاء فى ايجاد هذا الميل .

ولا ينكر فى هذا الخصوص تأثير المدارس الرسمية ايضاً . وما من الاطلاع على اللغة التركية فى طرابلس اكثر من غيرها الا بفضل هذه المدارس ثم وان لم يوجد بين خمسة الاف من المسيحيين الا بضعة اشخاص لهم المام باللغة التركية ، غير ان اكثر المسلمين يتقنونها او يتكلمون بها . ويسهل علينا بيان السبب فى ذلك ، لان المسلمين ما زالوا لا يرغبون بوضع ابنائهم فى المدارس المسيحية الخصوصية ، او فى المدارس الاجنبية ، بل انهم يختارون المدارس الرسمية . ولهذا السبب فاننا نرى ما عدا مأذونى المدارس العالية والثانوية ، ماذونى المدارس الابتدائية ايضاً الذين يتجاوزون فى عددهم خمسمائة شخصاً كلهم يتكلم باللغة التركية على قدر الامكان .

اما المسيحيون فانهم يضعون ابنائهم فى كل مدرسة ، ما عدا المدارس الرسمية ولهذا فان اللغة الفرنساوية والانكليزية متفشية بينهم . ويدعى منورو هذه الطائفة ان خمسة وسبعين فى المائة من الرجال الذين يحسنون القرائة ، يتقنون اللغة الفرنساوية ، وخمسة وعشرين بالمائة منهم يحسنون اللغة الانكليزية . اما نساؤهم فمنهن خمس وسبعون فى المائة يعلمن اللغة الانكليزية ، وخمس وعشرون منهن يتكلم بالافرنسية .

. فاذا كان هذا الادعاء خالٍ عن المبالغة يكون الى المسيحيين هده العالمين باللغة الافرنسية «١٥٠٠» وباللغة الانكليزية «٥٠٠» من الرجال ، ومن النساء «١١٢٥» ممن يحسن الانكليزية و«٣٧٥» ممن يتقن الافرنسية . وهذا المقدار يجب ان يلفت نظرنا الى مساعي المؤسسات الفرنساوية والانكليزية بتعميم لغاتهم ، وحلولهم فى الطوائف المسيحية الطرابلسية .

*
* *

[٢] — *الادبيات والفنون الجميلة* — نريد بعد ان وسمنا خريطة اللغة الطرابلسية ، وبينا خطوطها على وجه الاجمال ، ان ننقل الكلام الى ما لديها من الثروت الادبية ونصور خطوطها على صحيفة مجملة .

ان السكان ذوى الذوق السالم ، وعاشقى الجمال من طرابلس التى شحنت بالبدايع الطبيعية ، يظهر فيهم استعداد الادب منذ حداثتهم ، وما زلنا نقول ان لهؤلاء المغرمين بالاذواق البديعة ، ثروة روحية من نكهة تلك الحدائق العاطرة ، ولهم خيوط حريرية من نور قمرهم المنير . وان الالحان الموسيقية التى تسخر الارواح ، والنفثات الشعرية التى تسحر الالباب هى عندهم على اعظم قيمة بديعية . ولهذا فلا بد للطرابلسيين ان تحدو بهم تلك المنح الطبيعية لابداع فسطاط من الادب منسوج بالاصوات والالفاظ . وعليه فان الشعر والموسيقة يعتبران فى طرابلس بتجليهما الساحر الخالب مصدرى وجد ثمين لقلوب المغرمة . ثم ان بقية الفنون الجميلة هى على استعداد لان تكون ذات فيض محسوس لدرجة . ولا نكر ان الفنون الجميلة الاخرى هى كالفدفد الساكن بالنسبة الى ما شيده الطرابلسيون من شواهق الادب ، لدرجة لو اوجدت يد الطبيعة فى ذلك المهمه شيئاً من كثبان البدايع فلا يمكن اعتبارها تمثالاً للصنعة .

وقصارى القول ان الشعر فى طرابلس ، مستحوذ على جميع الديار الروحية . ولاجرم ان الذوق الادبى لم يبلغ رشده لدى الناس ، ولهذا كثيراً ما نراهم يترنمون بالغناء الذى تتغنى به المتبرجات على مسارح الشام وبيروت . بيد ان هذا الخطأ عمومى . وسنذكر اثناء البحث عن مدينة (بيروت) ان الاغانى [*] التى تتردد على السن الناس فى سورية . ولاسيما فى بلاد الساحل ومدائن الداخل ، مرتبة على نسق يناسب شأن الرقاصات اليهودية ، والنصرانية . وهى خلو عن المعنى ، والذوق ، والشعور البديعى ، ، لهذا لا يسوغ اعتبارها معكساً للبدايع السورية ، ولا نموذج ابداع منبعث من روح سورية .

لا نرى لزوماً للاسهاب فى ايضاح تأثير تلك الاهازيج التى تشبه الاهازيج القديمة فى

[*] اننا سنبحث عن ماهية هذه الاغانى فى المجلد الثالث ، المصمم على تاليفه

استانبول ، والتي لاينتفع بها الا اثناء الرقص ، ومخالفتها للاذواق السليمة . على ان هذه القطع تجلب النظر من حيث كونها شعوراً اناميا يشف عن سوية اذواق الناس .

ولو قنعت طرابلس بهذه الاغانى المبرجة التى هى مصدر اذواق ، وطرب لطبقة كثيفة من الناس لما كان لمحيطها نصيب من الشعر ، والصفة الادبية البتة . ولكن لها رجال يهيمون بمحاسن الشعر ، ويعالجون ان يكون لهم انجاح بالتعبير عن شعورهم الذكية الطاهرة ، بالفاظ نزهت عن كل شائبة وشين . ويجب الاعتراف بان الطبقة المنورة فى طرابلس مشغوفة بحب تلك الآثار وعندها لها الاقبال العظيم .

اذا تنقبنا عن ماضى طرابلس فى الادب نرى ان شعراءها ، ومن انتمى الى الشعر فيها كلهم من منسوبى الطبقة العلمية . ولو صرفنا النظر عمن ضاعت اسماؤهم فى جلى الاجيال الغابرة ، وبدأنا من القرن الخامس للهجرة ؛ من « ابن المنير الطرابلسى » حتى نصل الى القرن الثانى عشر وفيه « يوسف افندى الدوق » ثم شعراء القرن الحديث ، « الشيخ عبد الغنى افندى الرافعى » و « الشيخ حسين افندى الجسر » . وحتى شعراء اليوم نراهم جميعاً من رجال العلم :

فاذا علمنا ان هؤلاء الرجال تخرجوا فى المدارس العلمية ، وكان بعضهم يعد من فحول العلماء فى عصره ، نطلع على مايجب ان تختص به آثارهم من الاوصاف المميزة ، بنظرة بسيطة . وها نحن نتصفح كتاب « البدر التمام فى مولد خير الانام » الذى نظمه المرحوم الشيخ حسين افندى الجسر » ونتخذه ذريعة لايضاح المقام . ونكتفى بتحليل موضوعه واظهاره .

ان هذا المؤلف الذى الفه افحل علماء طرابلس ونشره سنة (١٣١٥) » هو كما يدل عليه اسمه يتضمن قصة المولد النبوى بعبارة منظومة ، وله قيمة عالية من حيث الشعر لانه منبعث عن انجلاب ووجد دينى .

مهما كان موضوع الشعر معلوماً وعمومياً ، فان النجاح باتقان الافادة والتعبير هو الذى يكسبه الميزة والحسن . لاسيما وان النجاح فى هكذا مواضيع فكرية يتوقف على ترفيق الموضوع بعواطف حارة وشعور حية . ويمكننا ان نسلم بنجاح « الشيخ حسين افندى الجسر » اذا نظرنا فى مؤلفه من هذه الوجهة : ان فاتحة مقال هذا المصنف ؛ هى :

حمداً لمن بعث النبى رحيما
بالمؤمنين وزاده تكريما
أنشاه من اصل زها تفخيما
وانار فيه الكائنات عموما
صلوا عليه وسلموا تسليما

وهذا التأليف المخمس الذى بدأ بهذه القطعة؛ لا يزال يتسلسل حتى النهاية على هذا النمط من الاسترسال، وسهولة الأداء .

ان هذه المنظومة التى تتألف من مائة وخمسين قطعة لا جرم صدرت عن شعور حى يتدفق بالوجد والهياج .

ثم حكى عن المشهودات التى تجلت أثناء الولادة النبوية وقال :

ورأت كأن جناح طير ابيضا

مسح الفؤاد لها بمسح مرتضى

وقد ابدع الناظم فى هذه القطعة التى جعل مطلعها هذين البيتين ، فبينما كان يترجم عن شعور « آمنه » رضى الله عنها ؛ نفثت الروح الحقيقية فى هاتيك الازمنة الخالية ، واحياها بسلسبيل رحيقها ، وبهيف نسائها . وبملائكتها المنتظرين قدوم النبى وفى ايديهم اكواب الفضة وبطيورها التى تخفق باجنحة من الياقوت والزمرد .

ثم قال بعد الولادة :

اهلاً بشمس الكائنات وبدرها

اهلاً ببهجتها وغرة فجرها

اهلاً بحكمتها ونقطة سرها

اهلاً بختم المرسلين عموما

ما اوضح قناعته الدينية التى بينها وهو يرحب بقدوم النبى،ويعرف انه شمس الكائنات وبدرها ، وحكمتها وسرها .

وقصارى القول ؛ ان « الشيخ حسين افندى الجسر » بتأليفه هذا طرق موضوعاً فكرياً لم يزل يطرقه الشعراء منذ الف ثلاثةعشر قرناً ، فشحنه بالشعور الحى الحار مع انه مستعد لان لايهيج الحس لاعتياد الاذهان عليه . ولهذا نرى الناس فى طرابلس وغيرها مقبلين على هذا المؤلف اقبالاً عظيماً ، ويحبونه محبة شديدة .

وقد اضاف المؤلف الى مصنفه قدوداً اعدها لتنشد أثناء تلاوة المولد . ويوجد بين هذه القطع الصغيرة ،ما هو جدير بالاستحسان : ولاسيما خطابه لآل النبى ،حيث يقول فيه :

اضأتم شموسا بافق الحجاز

وفيكم انارت قلوب العباد

هداكم دعانا لخير المجاز

ففزنا جميعاً ونلنا المراد

اليكم شكونا صروف الزمان

وجور الرزايا وظلم الطغام

وفيكم رجونا بلوغ الامان
ونيل الامانى بدار السلام
فيا آل طه اغيثو الدخيل
ومنوا بوصل شفاء القلوب
بجاه التهامى العظيم الجليل
شفيع البرايا بيوم الكروب

وهذه الابيات تمتاز عن غيرها ، من حيث الوقع والمضمون . والمسحة الشعرية .

ويروى ان للمرحوم مؤلفات لم تطبع ، غير هذه القطع ، وعليه لم نر مساغاً لابداء الراى دون ان نطلع عليها . ولكن لا بد ان تكون مشحونة بالحسيات الدينية كبقية مصنفاته .

ولا ريب ان الوصف الدينى والعلمى له نصيب فى « الشيخ حسين افندى » اكثر من السجية الشعرية .

ونرى هذا الوصف الخاص يتجلى فى اشعار جميع العلماء الطرابلسيين ، ممن يضاهى الشيخ المرحوم ، او يقاربه فى الوصف.

اما شعراء اليوم فاننا نخص بالبحث منهم «عبد الحميد افندى الرافعى » ، وهو اشهرهم واعرفهم :

ولد عبد الحميد افندى فى طرابلس سنة (١٢٧٨) . ووالده « عبد الغنى افندى الرافعى» كان من اشهر علماء الثغر وشعرائه . وينتهى نسبه الى « عمر الفاروق » رضى الله عنه. وكان يتلقى علومه عن الشيخ حسين افندى الجسر منذ حداثته ، وكان الشيخ لا يخلو من الاعجاب بذكائه الحاد لانه كان يحفظ القصيدة المؤلفة من عشرات البيوت بتكرارها مرة او مرتين . ويبرهن عن قوة حافظته وفرط ذكائه . وان السليقة الشعرية التى ورثها عبد الحميد افندى عن ابيه الشاعر كانت تنمو بتأثير البدايع الطرابلسيه من جهة ؛ وتنكشف بما يتلقنه من الارشادات الادبية من والده وشيخه من جهة اخرى .ثم ان اشتغاله بالتحصيل المدرسى مقدار اربع او خمس سنين احدث له علاقة فى العلوم الشرعية و للغوية . ثم سافر الى مصر ودرس العلوم فى الكلية الازهرية مقدار اربع سنين ، ثم قفل الى وطنه . وقد صقل المحيط المصرى سجيته العلمية والشعرية .

وبعد رجوعه الى طرابلس استخدم فى بعض الوظائف العدلية ، ولم يلبث ان سافر الى دار السعادة سنة (١٣١٥) ، فالف كتابه (مدح السيد الرفاعى) وقدمه لى ابى الهدى افندى الذى كان من مقربى السلطان عبد الحميد . وعليه نال القائمقامية ورجع الى سورية . وكانت مأموريته فى قضاء عجلون والناصرة والحصن . ثم احيل على التقاعد .

برهن عبد الحميد افندى عن ذكائه ودرايته فى كل وظيفة تقلدهـا ، ومع ذلك فان كان محكوماً لسجيته الشعرية . وقد بدل اللباس العلمى بعد تقلده القائممقاميـة . ولكنه لم يزل متمسكاً باوصافه العلمية . وهو على غاية من حسن الخلق والتقوى ، وله الميزة الحقيقية بفضله وعلمه ، وهو شاعر قبل كل شئ . ويعرف لدى منتسبي الادب بشاعر الفيحاء . وهو اليوم لا جرم اعظم شاعر عصرى فى سورية . وقد كان فى الدور السابق ينشر اشعاره بواسطة ابى الهدى افندى ، اما بعد الدستور فشرع ينشرها فى مجلات مختلفة . وانه لم يجمع اشعاره المتفرقة ، ويطبعها فى ديوان آخر .

لقد ابدع عبد الحميد افندى كل الابداع . واقتدر على اظهار براعته ورقته الشعرية فى ديوانه الذى اتحف به ابا الهدى افندى ، ومع ذلك فان انفس اشعاره ، هى التى انتشرت فى مجلة الزهور المصرية . ومنها قصيدة « المشيب » التى مطلعهـا :

يا شيب عجلت على لمتى
ظلماً فيابن النور ما اظلمك
بدلت بالكافور مسكى وما
اضواه فى عينى وما اعتمك

ان هذين البيتين الناطقين بتألم الشاعر من معاجلة الشيب له ، فيهما الدلالة الكافية على رقة شعوره ، ونزاهة خياله . ثم قال بعد هذين البيتين :

من يقبل الفاضح من ساتر
فهات ليلاى وخذ مريمك

وهنا ايضاً قد نفخ من روحه فى خياله حتى جعله حياً محسوساً .

ثم قال فى آخر القصيدة :

يا رب ما طال زمان الصبى
كانه طيف سرى وانهمك
وهكذا الايام تطوى بنـا
سبحانك اللهم ما اعظمك
رضيت يا رب بما ترتضى
فـلا تخيب مذنبـاً يممك
وانت ياشيبى خذ بى الى الـ
تقى عسى الرحمن ان يرحمك

وهنا تسلطت القوة الدينية على الشاعر فنقلته الى المنبار الفكرية ، ولكنها لم تدفعه عن عرش شاعريته .

وله قصيدة عنوانها « دعاء الحبيب » نشرتها مجلة الزهور ايضاً ، وهي من قصائده الغزلية ، وقد قال في مطلعها :

سلوها لماذا غير السقم حالها
ترى شغفت حبا والا فما لها

ثم شرع يبث الى محبوبته ، ارق شعوره ، وانزهها . فقال :

وكم غربة قاسيت من اجل حبها
اجوب الفيافي سهلها وجبالها
ولولا الهوى ما هام في الكون واحد
ولا فارقت اسد العرين دحالها

ويمكن ان يقال ان الشاعر توفق في هذه القصيدة الى التعبير عن جميع اضطرباته الغرامية ، بلسان رقيق ومؤنس .

وله قصيدة اخرى نشرها في المجلة عينها وسماها (سجن الهوى) ، ومطلعها :

اصل سقمي من العيون السقيمه
وانحنائي من القدود القويمه

وقصيدته التي عنوانها « الى شاعر الامير » . وقد خاطب بها احمد شوقي اشهر شعراء العصر في مصر . ومطلعها :

حلق فكري في سماء الخيال
وساح في سوح المعاني وجال

وهما من غرر قصائده .

لا بد ان اذكر بضعة ابيات لعبد الحميد افندي قالهم متحمساً كبقية الطرابلسيين في خال بين حاجبين :

الخال

قلت لخال بين حاجبيها
انت الذي تلعب بالسيفين
فقال لا لكنني عنبرة
تمد من دخانها قوسين
اصون بالبخور حسن وجهها
خوفاً عليه من سهام العين

وهذه القطعة هي نموذج للشعر الشرقي بحثها عن اللعب بالسيف ، واستعمال البخور ، ونظرة العين ، من العوائد الشرقية وقصارى القول ان الصفة الخاصة في شعر عبد الحميد

افندى ، هى الرقة والاناقة . ولا حرج على الطرابلسيين مهما افتخروا بهذا الشاعر الفرد. ولهذا فان اشعاره لا تزال تهفوا اليها القلوب فى طرابلس وسائر الأقطار والامصار .

واسرة « الرافعى » التى ينتمى اليها عبد الحميد افندى لم تزل مصدراً للشعراء المجيدين، ولهذه الاسرة شعبة فى مصر، نبغ فيها مصطفى افندى صادق الرافعى ابن عبد الرزاق افندى الرافعى، المولود سنة ١٢٩٨ فى قرية بهيتم من اعمال مصر، هو اليوم من الطبقة الاولى بين شعراء القطر ، وله ديوان اشعار جمعه فى ثلاثة مجلدات . وله تأليف آخر سماه « النظرات » .. (*)

*
* *

علمنا من هذا الاجمال فى ادبيات طرابلس ان محيطها البديع نال على الحظ الاوفى من هذا الفن الجميل . ولها اليوم عدة شعراء من الشبان ، ينتظر الآتى منهم النجاح الكامل . وعليه فان القلب مطمئن من آتى الادبيات فى هذا الثغر ، ولكن فن الموسيقى لم تنجلى عنه الغشاوة الاهمالية هناك ويا للاسف .

هذا وان كان اكثر من نصف الطرابلسيين رجالاً ونساءً يحنون الى اعوادهم ، ويحبون انين اراغنهم « بيانو » واكثرهم يستمد سروره من صوته المطرب . ولكن لا نعثر على دليل يبرهن لنا عن ابداعهم شيئاً فى هذا الفن الجميل . والرقص ايضاً لا يزال مهملاً كالموسيقى ، وهو على حال ابتدائى . اما الفنون الجميلة الاخرى ، فلا اثر لها فى ذلك الثغر ولو ان الطرابلسيين غمسوا مرسمهم « فورشاية رسم » فى الوان محيطهم البديع لتسنى لهم ابداع صحائف لا مثيل لها . اما الفنون الباقية ، كنحت الهياكل والتماثيل ، وفن المعمارى فلا ادرى باى حق نستطيع ان نتحرى عليهم . . انه اولى لنا واسلم ان نسكت على مضض ونكتفى بالموجود ونقنع به .

٨ — النهضة العلمية ، وحياة الطباعة

[١] — النهضة العلمية — اذا اردنا الاطلاع على درجة النهضة العلمية فى طرابلس يجب علينا اولاً ان نلتفت لفحص المؤسسات التى هى مصدر العلوم ، ثم ندقق المؤلفات الموجودة ، اى نضطر للاقبال على تدقيق النتائج المادية والمعنوية .

سبق لنا ان بحثنا عن المؤسسات العلمية التى هى اقوى المؤثرات فى النهضة العلمية . فاذا اجملنا ما فصلنا هناك ، نصل الى اساسين :

(*) شعراء العصر — محمد صبرى .

١) — المدارس العلمية ؛ (٢) — المدارس الرسمية .

ان قيام المدارس العلمية فى طرابلس بنهضة علمية ، هو مما لاينكر . ولكن يجب علينا ان نعتبر ماهية تلك النهضة . من المعلوم ان العلوم التى تدرس فى هذه المدارس هى العلوم الشرعيه واللغوية فقط ، ولهذا تكون ماهية النهضة منحصرة فى تعلم التفسير والحديث والفقه . وعلم الكلام من العلوم الشرعية ؛ واللغة والصرف والنحو ، والبديع والبيان وغيرهم من العلوم اللغوية والادبية .

ثم اذا علمنا ان اكثر المتخرجين فى مدارس طرابلس ممن ايد النهضة العلمية باشتغاله بالتدريس ، وتأليف الكتب ، كان من المتخرجين فى كلية الازهر ، نعلم ان المؤثر الحقيقى فى النهضة الشرعية والادبية . هى المدارس المصرية .

لا مندوحة فى خلدنا ان نؤمن بلا تردد ان هذه النهضة على شكلها المعلوم خلقت الانتباه ، والرقى الفكرى ، بل نجد من الضرورى ان ندقق الزمان ، وننظر الى ماهية العلوم التى كانت البرامج الاساسية لتلك المدارس .

كانت اصول التعليم قبل العصر الحاضر الذى توجهت فيه العلوم والفلسفة الى غايتها الكمالية ، مبنية على النظريات القديمة ، وعليه فان النقائص والخطيئات التى غشيت اصول التدريس فى ذلك الدور ، هى جديرة بالعفو والاغضاء ، اما بعد الآن او بالاحرى فى هذا العصر الحديث ، فلا يسوغ للمدارس ان تحافظ على نقائصها القديمة . لاسيما اذا علمنا ان العلوم الدخيلة و الآلية كانت تلعب الادوار الخطيرة فى المدارس القديمة الراقية ، فبماذا نفسر اليوم عدم تمكين العلوم العصرية من نارة هذه الحجرات التى حنقتها الظلمة ، ام كيف يمكن الانتباه والرقى ، اذا اكتفينا بالعلوم الشرعية ، ودراسة الادبيات على شكلها المدفون فى بطون القرون الخالية ، وأهملنا العلوم المثبتة والتجربية ، واغضينا عن الاصول الحديث وهم من امهات المؤثرات فى حصول اليقظة ، وتطرق منهاج الكمال . . ؟

بهذه الاسباب لا يجوز لنا ان نلوم العلماء الذين سجلت اسماؤهم فى تاريخ العلم الطرابلسى قبل هذا الدور اما منتسبو المدارس فى هذا العصر فلا يعذرون على ابتعادهم عن الرقى العصرى ، ولا يجدر بهم ان يكثروا واقفين على علوم بلغت كمالها فى القرون الماضية ، ويجهدوا انفسهم لتأليف كتب لا يمكنهم ان يبلغوا بها كعب الفطاحل من العلماء الاقدمين ان سعيهم هذا لمردود فى الحافرة . وانهم عليه لملومون

وان يكن وجد بينهم علماء تضلعوا فى علومهم التى اختصوا بها ، ونالوا الشهرة العظمى بتدريسهم العلم فى المدارس ، وبمؤلفاتهم المطبوعة وغير المطبوعة ، مثل « الشيخ درويش التدمرى » و « الشيخ عبدالله الصددى » و « الشيخ عرابى » و « الشيخ محمود النشابه » و « الشيخ عبد الغنى الرافعى » وغيرهم من العلماء الاجلاء . على ان النهضة

العلمية التي قام بها هؤلاء العلماء في طرابلس ، كانت ناقصية النتيجة لانها لم تستهدف الغاية العصرية ، حياتية او علمية ، ولم يمازجها شيء من فلسفة العصر الحديثة . ولهذا فان هذه النهضة لم تكد تحدث شيئاً من الانتباه واليقظة التي تناسب هذا العصر .

نريد قبل ان نتم بحثنا عن المدارس ؛ ان نبحث عمن ادرك هـذه النقائص ، وحاول تلافي الامر ، بمزج الأحكام الدينية ، بالاحكام الفنية والفلسفية .

ما لبث هؤلاء ان نهضوا وشرعوا بالسعي لتحقيق امانيهم ، ولكن عدم اطلاعهم على الفلسفة ، والعلوم العصريـة اوقعهم في اعسر الاشكال. ومع هذا فاننا لا ننكر انهم توفقوا الى تبديل الحركة القديمة — وان لم يستطيعوا توجيهها الى هدفها الحقيقي — واوجدوا في محيطهم استعداد التوجه في الآتي الى هذه الغاية المثبتة .

نخص بالذكر منهم « الشيخ حسين افندي الجسر » الذي بحثنا سابقاً عن منظوماته .

ولد هذا العالم في طرابلس سنة (١٢٦١) هجرية . ومنذ حداثته اخذ يتلقى مبادئ العلوم من «الشيخ عرابي» الذي كان من اشهر العلماء في عصره ، ومن صهره « الشيخ عبد القادر افندي الرافعي » . ثم سافر الى مصر سنة (١٢٨١) واقام هناك الى سنة (١٢٨٥) يتلقى علومه في الكلية الازهرية من « الشيخ الانبابي » ومن « الشيخ عبد القادر افندي الرافعي » مفتي الديار المصرية . وبعد ان اتم الدراسـة قفل الى وطنه في هـذا التاريخ ، وشرع يشتغل بالتدريس في المدرسة « الرجبية » ، وخف اليه كثير من التلاميذ . وكان يدرس العلوم الشرعية ، والآلية ، والدخيلة ، وعلم الكلام . ويلقى مسلك الامام « فخر الدين الرازي » ايضاً .

اسس الرهبان « فرهر » مدرسةً في طرابلس سنـة (١٢٩٧) فرأى الشيخ حسـين افندي ضرورة تأسيس مدرسة اسلامية في هذه البلدة ، ونهض فأسس « المدرسة الوطنية » وكانت تدرس فيها العلوم الشرعية وغيرها ، واللغة الفرنساوية . وقد حصلت هذه المدرسة على الرغبة العمومية لانها كانت تقبل التلاميذ من غير المسلمين ايضاً . حتى انها حصلت على تقدير مدحت باشا الشهير ، واعجابه . ولكن لم يطل امر هذه المدرسة ، بل عطلت سنـة (١٢٩٩) ثم بعد سنة اسست المدرسة السلطانية في بيروت ونصب الشيخ حسين افندي مديراً لها . ولكنه لم يلبث فيها الا مدة وجيزة ، ثم استقال منها ورجع الى طرابلس وعاد الى تدريساته المدرسية . ثم نشر رسالته الدينية المشهورة المسماة بالرسالة الحميدية التي ترجمها اسماعيل حقي افندي المناسترلي الى التركية ، وفسر مضمونها احمد مدحت افندي . ويروى ان هذا الكتاب نقل الى الفرنساوية ، ولغة « اردو » ايضاً .

ان هذا المؤلف اظهر الى الناس علو مقام الشيخ حسين افندي ، واعلى رفعتـه . ثم دعاه السلطان عبد الحميد سنة (١٣٠٩) الى العاصمة ، فذهب اليها والف كتاب التوحيد

الذى سماه « الحصون الحميدية » فى قصر ييلديز . وقد بحث الشيخ فى هذا الكتاب عن الشبهات الدينية ، وتوخى فيه التأليف بينها وبين الاسس الفلسفية والفنية الحديثة . ونقل هذا الكتاب الى التركية بقلم « يابان زاده مصطفى ذهنى باشا » .

اقام الشيخ حسين افندى فى العاصمة مقدار تسعة اشهر ، ثم رجع الى طرابلس ، وعاود الكرة الى العاصمة مراراً عديدة ولكن كان يمضى اكثر ايامه فى طرابلس وكان يشتغل بتدريس العلوم فى جامع (طينال) [*] ، ونور كثيراً من الطلاب بهذه الواسطة . ولم يزل منكباً على هذه المهنة حتى عاجلته المنية سنة (١٣٢٧) هجرية .

والف الشيخ حسين افندى كتاباً سماه « مهذب الدين » بحث فيه عن ازاحة الشبهات الدينية بلسان عامى ، وله فى جريدة (طرابلس) مقالات عديدة ، دينية واجتماعية . وقد جمعت ادارة الجريدة جميع هذه المقالات ودونتها فى كتاب مخصوص ، وسمته « رياض طرابلس » .

ومن مصنفات الشيخ المطبوعة منظومته المولدية المسماة بالبدر التمام فى خير الانام ، التى مر علينا بحثها فى فصل الادبيات . ويروى ان له ديوان اشعار غير مطبوع حشد فيه اكثر من ستة آلاف بيت من الشعر وتأليف آخر فى البديع والبيان اسمه « الجوهر المكنون » وهو لم يطبع بعد .

فاذا امعنا فى مصنفات الشيخ حسين افندى ، بصرف النظر عن قيمتها الادبية التى مر ذكرها فى البحث الخاص ؛ نجدها مبنيةً على فكرة دينية . وعليه فان الافكار ، والاسس الاجتماعية والفلسفية التى وجدت فى تلك المصنفات ، ما هى الا واسطة لاظهار تلك الغاية الاساسية . ولهذا نرى من الضرورى ان نضرب عن ابداء الرأى ، وبيان الفكر عليها :

ولا بد لنا ان نعترف بعلو مدارك الشيخ حسين افندى الذى اطلع على احتياج الناس ، واطلق العنان لقلمه على ما يناسب المقام مع شدة تمسكه بمحافظة القديم . ونحج بان القى بمقالاته فى المحيط ، وعالم الطباعة حركة محسوسةً . ونسلم بمزيته العلمية وفضله .

*
* *

ها نحن ننقل البحث الى المدارس الرسمية او الحديثة ، بعد ان بحثنا عن النهضة العلمية فى المدارس الشرعية او القديمة .

نعلم ان هذه المدارس خلقت لاجل افهام الناس ضروريات المدنية ، وتعليمهم الفنون الحديثة واللغات الغربية ، واخذت على عهدتها اكمال نواقص المدارس القديمة ، واعداد

(*) يعرف عند الطرابلسيين باسم (طيلان)

نهضة علمية ، وتكوين محيط منور يضم الحرية والمدنية . ولهذا فاننا سندوس هنا المدارس الحديثة التى اسست فى طرابلس ، ونسعى لنطلع على درجة انطباقها على هذه الغايات .

ذكرنا سابقاً ان المدارس الحديثة الرسمية او الخصوصية تنقسم الى ابتدائى وتال ، ثم رتبنا جدولاً حررنا فيه عدد الذين تخرجوا فى هذه المدارس . والحقنا بهم المتخرجين فى مدارس بيروت واستانبول واوروبا . ومن هذا نعلم ان قد وجدت فى طرابلس طبقة منورة ، عندها المام بالفنون الحديثة ، ومعرفة بالمدنية واسباب الرقى ، وانها لا تزال تتدرج بالازدياد والتكاثر .

ولكن ما رأينا الى الان احداً من هذه الطبقة التى تقلد اكثرها بوظائف الدولة ، اوجد مصنفاً مادياً يخدم به العلم والعرفان . وهذا يدلنا على ان هذه الحركة العلمية التى كان الواجب فيها ان تستهدف النور المحض ، لم تجد قدرةً للمثابرة على سيرها فى هذا الزمن ، ولهذا السبب لم ينضج لها ثمر . ومع هذا فلا بد ان يأتى يوم ينبغ فيه ذوو الاختصاص من ابناء هذه الطبقة ، وهنالك يكون للعلم ما يشاء من الحظ الاعلى فى مساعيهم وخدماتهم .

لا بد لنا ان نستثنى من اجمالنا هذا رجلين جديرين باحسن الذكر من رجال طرابلس . وهذان الركنان هما من متخرجى المدارس الحديثة ، وهما بمثابة مبشرين للنهضة العلمية فى طرابلس . وهما « نوفل افندى نوفل » و« جرجى افندى يني » .

اما نوفل افندى (*) فقد ولد فى طرابلس سنة (١٨١٢) ميلادية . وهو ينتمى الى اسرة مسيحية عرفت بقدمها . وابوه « نعمة الله » وجده « جرجس نوفل » . وقد اشتهرت هذه الاسرة بخدمتها فى الدولة العثمانية منذ اكثر من ثلاثة قرون .

درس نوفل افندى العلوم الابتدائية فى طرابلس ، وتعلم مبادئ اللغة العربية ، وتلقى عن والده الخط والانشاء . ثم سافر والده الى مصر سنة (١٨٢٠) واخذه معه ، فدخل هناك المدارس الحديثة التى اسسها محمد على باشا . وبعد ان اتم تحصيله انتسب الى قلم التحريرات فى الديوان الخاص الذى كان ابوه مستخدما فيه ومكث هناك مدة .

رجع نوفل افندى الى طرابلس سنة (١٨٢٨) ورغماً عن حداثة سنه استخدم فى مأمورية المحاسبة فى طرابلس واللاذقية مقدار سبع سنين . ولما قدم ابراهيم باشا المصرى — الذى قتل ابا المترجم نعمة الله افندى سنة (١٨٣٠) — الى سورية اراد ان يكفر السيئة التى اقترفها فدعى نوفل افندى اليه واحسن صلته .

تقلب نوفل افندى فى عدة مناصب ادارية ومالية فى انحاء سورية الى تاريخ (١٨٦٣)

(*) مشاهير الشرق — جرجى زيدان ج ٢ ، ص ١٣٦ — ١٣٩ .

ثم جاء الى بيروت ونصب ترجماناً فى القنصلية الالمانية ، ثم فى القنصلية الاميركانية . ثم ادركته المنية سنة (١٨٨٧) ميلادية .

امضى نوفل افندى عشرين سنة من اواخر حياته فى سعى متصل . وكان يشتغل بمطالعة الكتب . وكان له مكتبة فيها مآة من الكتب التركية والعربية . وقد وقف هذه المكتبة الى المكتبة الاميركانية ، وعليه فقد سلمت بعد وفاته الى هذه المكتبة .

كان نوفل افندى يتصفح المصنفات من جهة ، ويحرر المقالات والرسالات والكتب من جهة اخرى . وكان ينشر مقالاته فى مجلة « الجنان » وجريدة لسان الحال .

وكان يترجم فى بعض الاحايين كتباً عن التركية . وقد نقل الى العربية عن التركية « قانون المجالس البلدية » و« اصل الجراكس ومتقدمهم » و« الدستور العثمانى » و« حقوق الدول » .

ولا جرم ان مصنفات نوفل افندى هى البرهان الناطق فى الدلالة على غزارة علمه ، وسعة اطلاعه . اما مصنفاته فهذه اسماؤها :

١ — (زبدة الصحائف فى اصول المعارف) . طبع هذا المصنف فى بيروت سنة (١٨٧٣) . بحث نوفل افندى فى هذا الكتاب الضخم عن تاريخ العلوم القديم والحديث عند الامم المتمدنة . ثم عن تاريخ فلسفة الكلدانيين والفنيقيين والايرانيين والهنديين والصينيين والمصريين واليونانيين وعن فرق الفلاسفة ، وبالنهاية عن فلسفة العرب . ثم نقل البحث الى اصول العلوم وتاريخها ، وبحث عن المنطق واللغة وغيرها . وبعد ان بحث عن اصول العلوم الرياضية والطبيعية والطبية والتاريخية والجغرافية ، انتقل الى العلوم الحديثة وبين الآراء الفلسفية والتاريخية فى علم الطبقات الارضية الكيميا والمعادن والنباتات .

٢ — (زبدة الصحائف فى سياحة المعارف) . وهذا الكتاب يبحث عن استحالات الفلسفة والعلم وتداولهما .

٣ — (سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان) . وهذا المؤلف عبارة عن تاريخ مفصل فى الاديان .

٤ — (صناجة الطرب فى تقدمات العرب) . وهذا الكتاب يشهد لمؤلفه بتضلعه فى الادبيات العربية ، وسعة اطلاعه عن اخلاق القوم وعاداتهم .

بحث فى مقدمة هذا الكتاب عن الاحوال الجغرافية فى جزيرة العرب ، ثم انتقل الى العرب فبحث عن اقسامهم و دياناتهم ومعابدهم واخلاقهم وحكمائهم وفصحائهم ، ثم ذكر اسلحتهم وحروبهم وتكلم عن الادبيات العربية . وذيل هذا الكتاب بفذلكة تاريخية بحث فيها عن الحكومات العربية منذ الخلفاء الراشدين الى العباسيين .

٥ — (الرد على الغضنفرى) . وهو كتاب انتقادى .

وقصارى القول ان نوفل افندى من الذين لهم الموقع الاسمى فى تاريخ العلم السورى لا فى النهضة العلمية الطرابلسية فقط . وعليه فليفتخر الكيان العلمى فى طرابلس بما خلفه هذا المبشر المبجل من الآثار النفيسة .

*
* *

ان المبشر الثانى للنهضة العلمية فى طرابلس هو « جرجى افندى يني » — كما ذكرنا سابقاً :

درس جرجى افندى مبادئ العلوم فى طرابلس، ثم دخل الكلية الاميركانية فى بيروت واتم تحصيله فيها ، ثم انكب على مطالعة الكتب الفلسفية والاجتماعية والتاريخية ، واخذ يدأب لتأليف الكتب . وبعد اعلان الدستور اتفق جرجى افندى مع اخيه « سموئيل افندى يني » واسس مطبعة « الحضارة » . وانشأ مجلةً شهرية سماها « المباحث » . وقد كانت هذه المجلة تضم المقالات التاريخية والاجتماعية ، والادبية والفنية . ودامت هذه المجلة الى اوائل ايام الحرب العامة . ان « لجرجى افندى يني » مؤلفات عديدة نكتفى بان تذكر من مطبوعها « تاريخ سورية » . طبع هذا التاريخ سنة «١٨٨١» فى بيروت . وهو زبدة اتعاب جدية ، ونتيجة تدقيقات عميقة ؛ ويناهز ستمائة صحيفة ، ويتالف من مقدمة بحث عن الاحوال العمومية فى سورية ، ثم من مجمل تاريخ الامم السورية منذ الفينيقيين الى يومنا هذا ، ثم يتبعه اجمال تاريخى عن اشهر البلاد السورية ، وان الخدمة التى تمت فى هذا الكتاب هى جديرة بالذكر .

وقصارى القول ان جرجى افندى الذى اربى سنه اليوم على الخمسين ، يعتبر ممن كان النهضة العلمية فى طرابلس بمؤلفاته وسعة اطلاعه .

[٢] — حياة الطباعة — ان النهضة المدنية التى شوهدت فى طرابلس فى السنين الاخيرة ، كانت سبباً لايجاد الحياء فى الصناعة النشرية .

نعم اذا نظرنا الى ازدياد عدد المطابع والجرائد فى طرابلس على مر الايام ، وتلمذنا ان النشريات الطرابلسية وغيرها تنفق فى ربوع طرابلس ، وتروج نحكم بان للطباعة فى ذلك المحيط ...تة لا حسنة . هذا وان كان اكثر الجرائد الموقوتة التى تنشر فى طرابلس بعيدة عن المزية النشرية التى يمكن التعبير عنها — كما يقول الصحفيون — ، وعاملة بالغاية التجارة التى يجب ان تكون من الدرجة الثانية ؛ مع الاغماض عن القسالة الاساسية فى الصحاف ، ولكن لا يسوغ لنا ان نطالب طالع الطباعة الحديث بهذا الكمال الذى يشترط فيه مرور الايام الطوال . ولا بد من هكذا ادوار ابتدائية يمر عليها هذا الطفل حيثما ، فى اى محل كان . وعليه فان طرابلس معذورة على هذا النقص .

ذا رأى لا يهمل ، على اننا لا نقوى على قطع مرحلة تمتد اثنى عشر ساعة ، من طرابلس الى طرطوس . لا سيما على ظهور الخيل :
لو سلمنا بوصولنا الى الشمال :
– وبعد . . . متى نتجول فى الداخل ؟
م اننا كنا نهمو الى لسلق الجبال ، واجتياز الانهار ، وقطع السهول ، او بتعبيرنا المشتة الى الانغماس في عمان المجهولات .
– فاذاً الى حلبا . . . سفر فى المركبة لا يتجاوز بضع ساعات ، ثم من ورائه الداخل لبحث . . .
هذا الاقتراح الذى لا يخطر لى الآن من هو صاحبه، كان فى نظرنا مناسباً ومقنعاً ، حتى لم نتردد بشأن قبوله البتة .
– المركبة ؛ ثم حلبا ، مركز قضاء عكار :

ركبنا فى الغد على مركبتنا ، والشمس كانت ناهضة فى الافق ، قريبة من الزوال .
كنا نسير على الطريق المحاذى لبقية الخطوط الحديدية المتروكة فى الجهة الشمالية من طرابلس ، ونمر على الجسر الجديد فوق نهر ابو على ، ونرى المنازل الجديدة فى طرف الشارع يبتسم لنا . ثم بعد برهة تركنا طريق القبة على يميننا واخذنا نطوى المراحل الى الشمال . ها نحن نسير بين اشجار الزيتون الخضراء . ودام طريقنا على هذا النمط مقدار نصف ساعة .

وصلنا الى موقع « البداوى » الذى هو من الطف مصايف طرابلس . وكان هذا الموقع عبارة عن بضعة بيوت واكواخ ، ثم يسير من الاشجار . ثم على يسار الطريق جامع صغير ، وصحن مبلط بالحجارة ، وبحيرة ينبع منها ماء كعين الديك ، ياخذ البصر ببريقه . وهذا الموقع الذى ضم مزارا لاحد الاولياء هو على غاية من القدسية فى اعتقاد القوم . واسماكه الكثيرة التى رافقت الاعوام لا تزال مصونة عن التعرض بتسلط ذلك الاعتقاد المتين .

ذكرنا هذه الاسماك بمعتقد الاقوام القديمة . لانهم كانوا يتخذون الاحواض قريباً من مباني آلهتهم ، وان الحوض الذى اعد امام هيكل « عشتروت » كان فيه اسماك لا تعد ولا تحصى [*] .
بعد ان فارقنا موقع البداوى ، تحولت وجهة الطريق من الشمال الى الشمال الغربى .

---

[*] مجلة المشرق نقلا عن الصحيفة ٥٧٢ من المجلد الرابع من (Revue de l'Orient Chrétien) لمؤلفه الاب هنرى لامنس .

وكانت الرياض تتراآى عن يسارنا من بعيد على امتداد الساحل . وعلى يميننا ربى «الترابل» وكنا نسلك طريقاً صعداً ، وما لبث ان هب من جهة الغرب ريح زعزع ، خلق بحراً من العجاج تلتطم امواجه على امتداد الطريق . وكانت الشمس قريبة من الزوال ، وسلط علينا ذلك اليوم التموزي ثلة من ناره شوت اجسادنا ، وكبدتنا اشد العذاب .

مررنا الآن على الحقول المزروعة بالذرة ، وها هو البحر الازرق تتدفق امواجه وراء تلك الحدائق الخضراء .

انتهى منظر الرياض عن يسارنا بعد نصف ساعة ؛ وكنا لا نفتأ نطوى المسافات فى سكة طرابلس — حمص . وكانت على يسارنا كسارة الاحجار فى السكة الحديدية التى تمتد الى حمص كانها انقاض عمرانية ، وطريقنا ايضا كان مفعماً بها . ولهذا كانت مركبتنا تسير بصعوبة .

ثم بعد برهة تركنا مخفر (تعتور) على يميننا ، وابصرنا على يسارنا رأس (عبده) وكان بعيداً . ثم طفقت تتراآى عن يميننا القرى المتقطعة . فمررنا بقرية « دير عمار » القائمة فى جانب جبل الترابل ثم بقرية « البرج » و« برج اليهودى » وغابت عن انظارنا بسرعة .

كانت وجهتنا دائماً الى الشمال . وكنا نقرب من قصبة (مينيه) التى احيط ، بشجر الزيتون وكانت تتراآى لنا كميدان محشو بالخضار ، لا على شكل مركز لناحية .

لا تزال مركبتنا على سير متواصل وانقلب الطريق الصعد الى منحدر سهل ، والمنظر امامنا عبارة عن شئ من جبل ، وبضع حدائق مزروعة وطريق فاسد ، وانقاض السكة الحديدية ثم البحر . . . لم يدم هذا المنظر الا قليلاً ، ثم اجتزنا « نهر المخاضة » على جسر صغير . وها نحن بين البساتين المحيطة بمينيه .

استحال طريقنا بعد ان غادرنا بيوت القصبة الى ادغال خضراء . وكنا نرى بائعي الاثمار من رجال ونساء امام جميع ابواب البساتين التى اقتناها القدم ، مرتكمة امامهم على التراب اكوام الاثمار من ليمون وكمثرى وتفاح وبطيخ وخوخ وغيرها : وكل افراد العائلة يشتغلون بالبيع . ونساء المسلمين هنا يلفتون النظر بازورهم . مع ان نساء القرى فى القسم الجنوبى لا يعبئون بهذه الدثر .

مازلنا نسير على طريق طرابلس — حمص . وعلى يسارنا البحر وسكة الحديد ، وعلى يميننا الربى الصغيرة . غادرنا قرية « المحمرة » وبعد مدة اجتزنا جدول « النهر البارد » على جسر حجرى ، ورأينا عن يميننا خرابة كانت محطة لمركبات الجر الكبيرة « دهليژانس » ، ثم مررنا باراضى خالية ، ووصلنا الى محطة «عبده» الكائنة على الساحل الشرقى من مرفأ صغير . وهى عبارة عن خانين متداعيين ، وكوخ صغير للمحطة .

* *

لبثنا قريباً من ساعة فى هذا الظل الحزين من عبده ، تلك الروضة الخضراء الساحلية؛ ثم عدنا الى السير على الطريق . وبعد قليل تركنا سكة حمص ، ولوينا العنان الى الشمال الشرقى ، وسرنا فى طريق حلبا .

هذه سلسلة من القرى تراءت لنا عن اليمين . وهى تمتد من قرية « تبنين » ، من « وادى الجاموس » متسلسلة الى حلبا .

كانت تلك القرى تظهر متوالية ، وكنا نحيد بسيرنا عن البحر الذى يعشى البصر ، ونركض نحو الداخل .

مررنا مدة بين الحقول ، ثم ابصرنا عن يسارنا من بعيد قرية « القليعات » ، وكانت الجداول الصغيرة التى تنحلب من الجبال تركض عن يميننا لتقطع علينا الطريق ، ثم تراءت على بعد قرى « القبة ، وادى السليم ، كفرمالكه ، ميرلياء تل الحياة » عن يسارنا وانجلت عن يميننا قرية « بيت حداره » و « طنيطره » .

وبينما كنا نمر على اليمين بقرى « ذوق الحصينه ، الحباصه ، الجرد ، المشالحه والحاكور » كانت الفسحة بين الجبال عن يمننا وبين البحر المرئى على بعد تتسع بحقولها المزروعة .

تسود السكينة اليوم على هذه الربوع التى استخدمها الفنيقيون السنين الطوال فى زرع حبوبهم . ومامن شىء يخل بهذا السكون الا ما يمر بنا من المكارية ارباب الجمال والحمير، ثم على البعد فى بعض الحقول المحصودة يوجد بضعة جمال واقفين ترجمهم شمس تموز بشررها المحرق ؛ يستظل بهم قروى ملقى بنفسه على الارض ، او واقف يستريح وعصاه من وراء رقبته على كتفيه . قابض على طرفيها

ثم بعد الزوال بساعتين ، مررنا من « نهر العزقا » وهو يجرى فى واد بين هضبتى « الحاكوره » و « المينارا » .

بعد ان اجتزنا جسر العرقا، انعطف طريقنا الى الغرب وبدأنا نسير فى مرتقى ، ها نحن نتسلق جبل « ميريللا » .

عن يسارنا مرج لا تحيطه مرامى النظر من الاتساع ، يمتد حتى ساحل البحر وعن يميننا قرى « داردللوم ، كرم العصفور ، منياره » تتسلسل وراء بعضها .

ثم بعد ان تراءت قرية « الجديده » اصبحنا فى سهل مستو، نطوى المسافات على يسار المرج . ثم بعد ثلاث ساعات من الزوال قربنا من حلبا الممتدة بهدوءها فى جانب هضبة صغيرة . وهذه القرية الصغيرة المؤلفة من بضعة بيوت كانت تشعرنا لأول نظرة بانها بعيدة عن ان تكون مركزا لقضاء.

—٦—

عكار

١ — موقع قضاء عكار وحدوده

ان هذا القضاء عبارة عن اراض جبلية تمتد من الجهة الشرقية الى الشمال من مركز لواء طرابلس الشام . ويحده من الشمال قضاء صافيتا وحصن الاكراد ، ومن الشرق قضاء حمص ، ومن الجنوب لواء لبنان ثم البحر الابيض من الغرب . وطوله سبع ساعات ونصف من قرية « عدوه » الكائنة على حدود ناحية ضنية الى قرية « خربة الغزال » القريبة من قضاء صافيتا ؛ وعرضه من مرعى جردميرى الى قرية شيخ زناد الكائنة على الساحل يقرب من تسع ساعات .

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ا ـ مساحة قضاء عكار تبلغ «٣٧٦٨٤١» دونماً . منها (٢٨٥١٦٣) دونماً من الحقول و(٩٠٢٨) من مشجرات التوت والزيتون ثم (٢٥٦٢) من الكروم والبساتين . اما الباقي وهو (٣٠٠٨٢) دونما هو مخصوص لرعى الحيوانات .

اما عدد السكان فهو على ما يأتى :

جدول سنة ١٣٣٢

	الذكور	الاناث
المسلمون	٩٧٧٠	١٠٥٣٧
الروم الاورتودوكس	٦٩٦٧	٥٨٥٢
المارونيون	٤١٨٩	٤٠١٩
الكاتوليك	٣٥٦	٣١٣
البروتستانت	١٨٥	١٧٥
يكون	٢١٤٦٧	٢٠٨٩٦

٤٢٣٦٣

كان عدد عموم السكان سنة ١٣٢٣ (٣٠٩١٢) نسمة . فتكون الزيادة فى مدة عشر سنين «١١٤٥١» نسمة ومن العبث ان نحاول الاطلاع على اسباب هذه الزيادة . لان قيود

النفوس فى هذا القضاء الذى تكون أكثر انحائه من جبال عكار لم يعتنى بها كما يجب ، والاحوال الصحية ايضاً لم تعطى حقها من الدوس والتنقيب. ولهذا نرى ان اسهل الطرائق لحل هذا المعمى ، هو حمل هذه الزيادة على سقامة القيود الرسمية . اما الولادات والوفيات فى القضاء فهى على ما يأتى :

كانت الولادات فى هذا القضاء سنة ١٣٢٧ (٢٦٣) ، وسنة ١٣٢٩ (٥٢٥) ، وسنة ١٣٣٠ (١٨٠) . والوفيات (٩٥) و(١٦٤) و(١٥٧) فى السنين الثلاث .ويجب ان لا نعتقد بقيام القرويين المبعثرين فى انحاء جبال عكار ، بوظيفة الاخبار عن حادثات النفوس . ومن المحقق ان هذه الارقام حررت فى سجلات النفوس بحسب الاهواء ورجم الظنون .

٣ — الاحوال العمومية فى القضاء

يمكن تقسيم القضاء الى ثلاثة اقسام حسب طبيعة التكون . فالقسم الاول عبارة عن السهول ، وطوله ست ساعات ونصف وعرضه ثلاث ساعات فقط ، واراضيه عبارة عن الاتربة اللحقية كما هو الحال فى سهول طرابلس وهو على غاية فى الانبات ، ولاسيما الانحاء الريانة منه . ويوجد على الساحل سلسلة من الهضاب تبعد عن بعضها مقدار ساعة ، وتوجد فوق كل واحدة منها آثار لقلاع منهدمة .

اما القسم الثانى فيسمونه « الوسط » ، والثالث « الجرد » وارتفاع الاول عن سطح البحر يتراوح بين (٣٠٠) و (٦٠٠) متراً . اما ارتفاع الجرد فهو يتداور بين (١٠٠٠—١٥٠٠) متراً على التخمين . وهذا القسم الثالث الذى هو اعلى نقاط هذا القضاء لم يزل مستوراً بالاحراج الكثيفة حتى العهد القريب . وشجر الزيتون والتوت لم يزرع الا فى قسم « الوسط » على سفوح الجبال . ولذلك فان قرويو تلك الناحية يشتغلون بالحرير ثم باستحصال الزيت .

ليس لهذا القضاء نواح رسمية ولكن السكان وحتى الحكومة نفسها يعتبرون اطراف (قبطع) التى تضم قرى (برقايل وفنيدق) واطراف « الجومة » التى تحتوى على قرى (منياره ورحبه وبينو) اللاتى يسكنها النصارى ، نوعاً من النواحى . ثم ان سكان هذا القضاء المؤلف من (١٦٨) قرية فيهم المسلمون ، والنصارى وثالثهم النصيريون فالنصيريون يسكنون قرى (مصلى ، عين الزيت ، عين تنتا ، خربة الرمان) وقرية الزاهده فى الساحل . واكثرهم مزارعون فى تلك القرى .

وقرى [قبيات ، عندقيب ، بينو ، قبولا ، برج عيات ، عين يعقوب ، بزبينه ، العيون

بيت ملات ، تل الشطاحة ، الرحبة ، عكار العتيقه ، جبرائيل ، الخريبة ، الكوشه ، البلدة مزرعة البلدة ، الهد ، دير جنين ، كفرحاره ، حيزون ، الفنيدق ، القريبات ، الحرار ، المشمش ، المنجز] فى ناحية الوسط كاد يكون جميع سكانها من النصارى . وصنعة الحرير ارقى من غيرها فى هذه الناحية . وان ثمانية اعشار الواردات التى تحصل من هذه الناحية هى من تلك الصنعة . ويوجد فى قرية قبيات وعندقيب ستة مصانع للحرير . وكادت هذه الصنعة ان تنحصر فى مارونيي عكار .

ومن الصنايع الراقية فى هذا القضاء ، صنعة السجاد ايضاً . وتاريخ دخول هذه الصنعة الى البلاد السورية لا يزال مجهولاً . ومن المحقق انها انتقلت من الاتراك الذين يسكنون بضعة قرى من هذا القضاء الى من فى جوارهم من القرويين . وقد كان السجاد الذى يصنع فى هذه الانحاء مرغوباً كثيراً لدى السوريين . وسبب هذه الرغبة كان عن متانة المواد الابتدائية واستقرار الالوان على بهجتها مدة طويلة .

ثم ان السجاد الخفيف الرخيص الذى اخذت تسوقه اوروبا الى بلادنا اضر بمصالح هذه الصنعة اضراراً عظيماً ، وحكم عليها بالعقامة الدائمة . وكانت هذه الصنعة منحصرة فى اتراك عيدمون ، ولكن ما لبث نصارى عكار ان اقتبسوها وتعممت بينهم . واسست عدة مصانع لهذه الصنعة فى المغراقة والجديده والنهريه والرماح ، وكانت تصنع قطع السجاد من قبل على شكل مربع اى، طولها مساو لعرضها . اما الآن فيجعلون لعرض ذراعاً او ذراعين ، ويجعلون الطول على ما يشأون . والالوان اما قديمة او جديدة . وقد كان الاحمر والازرق من الالوان القديمة ثابتاً لا يتبدل ، ولكنه اهمل اليوم وندر استعماله . واكثر ما يستعملون اليوم اللون الاحمر الخفيف ، من عمل اوروبا وهو يتبدل سريعاً . ولهذا فان استعماله فى هذه الصنعة لمما يوجب الاسف . كان يباع الذراع من السجاد المصنوع بالالوان الثابتة باحد عشر فرانق ، اما الجنس الخفيف فكان يباع ذراعه بستة فرنكات .

اما شجر الزيتون فيوجد فى الوسط ، واكثره فوق السفوح المشرفة على قرية حلبا اما فى الساحل والجرد فلا اثر له . واحسن نوع من الزيت يكون فى قرى (الحاكوره ، برقايل ، الشيخ طابه . ومعظم اشجار الزيتون والتوت مغروس فى الاراضى التى اعدت لزرع الحبوب واكثرها فى حوزة النصارى . واشجار التوت تشغل عشر اراضى القضاء على التقريب . اما زرع الحبوب فهو شايع فى انحاء السواحل ، ويكثر هذا المحصول فى انحاء الوسط والجرد ايضاً .

٤ — معارف القضاء

يوجد بين المسلمين خمسة فى الماة ، وبين النصارى خمسين فى المأة ممن يعرف القرائة والكتابة . وان مدارس البنات فى هذا القضاء ليس لها رواج ، بسبب غلو المسلمين فى التضييق على حرية البنات . ويوجد فى مركز القضاء مدرستان الواحدة للذكور والاخرى للاناث . وعدد الطالبين فى الاولى (١٠٠) وفى الثانية (٥٠ — ٦٠) . على ان ثمانين فى المأة من هؤلاء البنات لسن من المحليات ولا توجد المدارس الرسمية الا فى ست قرى بين (١٦٨) قرية . ولكل من هذه المدارس مقدار (٤٠ — ٧٠) طالباً . وان وظيفة التعليم و لادارة فى هذه المدارس ليست فى ايد قادرة على القيام بها كما هو الحال فى سائر الانحاء . اما المعلم الموجود فى مركز القضاء فهو نبيه ، قادر على ادارة التحصيل الابتدائى ، ولكن يؤثر عنه انه يشتغل بهذه الوظيفة بصورة وقتية . ولا يلبث متى زال مانعه ان يترك المدرسة ويرجع الى مسلكه الاساسى .

اما النصارى الذين لم يسبق لهم وضع اولادهم فى احد المدارس الرسمية لهم فى منيارة مدرسة واحدة للذكور والاناث . وقبل نشوب الحرب كان عندهم بضع مدارس اجنبية ومن الجملة انه كان المرو بين مدارس الذكور والاناث فى قرى « ديردلوم ، منيارة ، جبرائيل ، الرحبة ، بينو ، حاكور » . وكانت الجمعية الفلسطينية الروسية ترسل الى هذه المدارس المعلمين ، وتهيئ للطلاب الكتب والدفاتر والاقلام وباقى لوازم التدريس بلا عوض ولا تكلف الاهالى الا باعداد مبانى المدارس . وقد كان يوجد فى كل واحدة من هذه المدارس خمسة او ستة من المعلمين و(١٥٠ — ٢٠٠) طالبا .

وقد اسس المبشرون الاميركانيون فى منيارة والحاكورة وبينو وجبرائيل وتل عباس مدارس تضم الذكور والاناث معاً . وهى الآن معطلة لانها اسست بدون اذن الحكومة .

ويوجد ما عدا هذه المدارس مدرسة خارجية فى عندقيت للذكور والاناث ، وفى دير منجز مدرسة داخلية ، وفى قرية «بيت» مدرسة خارجية؛ هؤلاء للجزويت . ثم توجد مدرسة ايتالية فى قرية قبيات . فالاورتودوكسيون من السكان يدخلون المدارس الروسية ، والمارونيون يرجحون المدارس الفرنساوية والايتالية . اما الاغنياء فيرسلون اولادهم الى المدارس الاميركانية التى يعتقدون انها ارقى من غيرها من حيث العلم والتربية .

والروسيون لم يتيسر لهم تعميم لغتهم البتة ، ولو لم تكن العلاقة الدينية لما وجدت مدارسهم الحالية عن كل مزية علمية حتى ولا طالبا .

اما اللغة الانكليزية فانها متفشية بين جميع السكان بسبب رغبتهم فى المهاجرة واقبالهم عليها .

٥ — الغلال الزراعية في القضاء

ان أكثر انحاء هذا القضاء جبلية التكوين ، ولكن يوجد قريباً من الساحل سهول جيدة ، تجرى فيها الانهار وهى منبتة خصبة . اما غلال القضاء فهى على ما يأتى :

جنس الغلال	الأراضى المزروعة	مقدار الغلال
	دونم	كيله
القمح	٧٠,٠٠٠	٤٩٠,٠٠٠
الشعير	٤٠,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠
الذرة الصفراء	١٥,٠٠٠	٧٥,٠٠٠
الحمص	١,٠٠٠	٦,٠٠٠
الفول	٤٠٠	٣.٢٠٠
العدس	٦,٠٠٠	١٢,٠٠٠
الجلبان	٨,٠٠٠	١٦,٠٠٠
السمسم	٢٥,٠٠٠	٥٠,٠٠٠
الزيت	٧٠,٠٠٠ شجرة	٣٥٠٠,٠٠٠ اقه
البصل	؟	٤٢٥,٩٥٣ كيلوغرام
الفاصولية	؟	١٦,٤٣٢ «
الكروم	٤١١	١٠٠,٠٠٠ « عنب
		٢,٠٠٠ « عرق

وما عدا هذا ، يعتنى فى كل سنة بتربية ٦٠٠٠ علبة من بذر الحرير ، ويستغل منها ١٨٠٠٠ كيلو من الشرانق .

٦ — الآثار القديمة فى القضاء

توجد اليوم على هضبة امام قرية عكار العتيقة ، انقاض حصن عكار الذى كان يسكنه فرسان سن جان فى ايام الصليبيين . ويروى ان مؤسس هذه القلعة هو رجل يدعى «محرز بن عكار » . وان قد ظلت فى حوزة احفاده الى سنة (٤١٤) هجرية . واستولى عليها فى هذا التاريخ « صالح بن مرداس » حاكم حلب ، ثم بعد عشرة سنين ضمت الى السلطة المصرية فى زمن « الزاهر » من الخلفاء الفاطميين .

وانتقل هذا الحصن سنة ٤٨٧ الى السلجوقيين فى زمن « تاج الدولة توتوش » وبعد

ذلك استولى عليه الافرنج بعد ان غلبوا صاحبه « اتابك طوغتكين ».

لما استولى الصليبيون على طرابلس فى ١٢ تموز سنة ١١٠٩ عاهدوا اتابك على ان يحتفظوا على قسم من سهل البقيعة ، وحصون منيتره وعكار . وان يتركوا مصياد وحصن الوادى وحصن الاكراد الى المسلمين ويتقاضوا منهم لقاء ذلك فى كل سنة مبلغاً معيناً ولكن لم يلبث « طانقرد » [illegible] » امير « قونت » انطاكيه ان اخل بهذا العهد ، وحصر حصن الاكراد وفتحه .

ويغلب فى الظن ان المسلمين استردوا حصن عكار فى زمن نور الدين . على ان هذا الظفر لم يتمادى لان الصليبيين استردوه مرة ثانية سنة ١١٧٠ . ثم ان السلطان بيبرس الذى كان عالماً بمكانة هذا الحصن الحاكم على طريق طرابلس — حمص — بعلبك وقيمته الحربية ، لم يلبث ان هاجمه بعد ان فتح حصن الاكراد واستولى عليه (١٢٧١ م) وبعد ان فتحت طرابلس فى ايام السلطان قلاوون ، نقل والى تلك الانحاء مركزه من حصن الاكراد الى حصن عكار .

وكان هذا الحصن فى زمن العثمانيين فى ايدى آل « بيت سيفا » . ولما سخره فخر الدين امير الدروز ، هدم جامعه وتكيته . ثم انشئت التكية من جديد سنة (١٦١١) . وقد نقلنا عين الكتابة التى كتبها السلطان قلاوون على مدخل جامع عكار العتيقه فى المبحث الخاص [*] .

ويوجد فى قضاء عكار ما عدا هذا الاثر التاريخى ثلاثة خرب تسمى « عروبه » و « مرجحين » و « قانعات » هى من بقية آثار الفنيقيين والرومانيين . وانقاض قصبة « عرقا » القديمة . وهذه القصبة هى على مسافة ساعه من « نهر البارد » القديم ، وعلى الجانب الايمن من طريق طرابلس اليها ؛ مبنية على هضبة تدعى باسمها ، وكانت معروفة فى ايام الصليبيين وحاصر قلعتها ريمون ، ثم سخرها الفرسان المعبديون

بنيت هذه القصبة على بلدة قديمة من بلاد الفنيقيين . ويوجد الآن بعض آثار من هيكل الزهراء الذى شيده الاسكندر الكبير فى هذه القصبة التى كانت تسمى قبل دخول الرومانيين بقصبة « سه زار ليبانى [illegible] » . واسكندر سه وه روس » من الملوك الرومانيين ولد فى عرقا (**) .

---

* راجع ص ١٦٤

(** ولد سنة ٢٠٩ ميلادية . وتسلطن فى الرابعة عشر من عمره وقد اصلح البلاد ، واقبل على حماية العلوم والصنايع ، ثم اشهر الحرب عليه ، اردشير من الاكاسرة الايرانيين ولم يحصل على فائدة منه ، ثم عمد الى اصلاح جنوده وتربيتهم ليتسنى له اخضاع الجرمانيين . ولكن قتله اولئك الجنود بدسائس ماكسيمين ؛ وصار الملك الى رقيبه من بعده (٢٣٥) .

اما حصار القليعات فقد كان يسمى فى القرون المتوسطة « قوليات *Cualith* » ثم سلم « يونس » امير طرابلس هذا الحصار الصغير الى « *Hopital du Mont-Pelerin* » ولم يطل الامر حتى فتحه السلطان بيبرس عنوةً (١٢٦٦) . وقد كانت سهول القليعات التى يوجد فيها هذا الحصار مسماة فى القرون الوسطى بملك الخليفة . وهذه السهول تسقى من ماء نهر عرقا .

ويوجد فى قرية عين يعقوب التى تبعد ثلاث ساعات عن مركز القضاء مقام يعقوب عليه السلام ، وفى قرية عياش التى هى على عين البعد من المركز مقام الخضر عليه السلام . وفى عكار القديمة التى تبعد مسافة خمس ساعات ، ضريح الشيخ جنيد ، ثم على ساعة منها فى اراضى مياره ضريح الشيخ بدر ، وعلى ساعة ونصف منها ضريح الشيخ زعبي .

٧ — موقع حلبا ، ومنظر ضواحيها

ان قصبة حلبا ، مركز قضاء عكار من اعمال لواء طرابلس الشام مبنية فى السفح الغربى من احد الهضاب الصغيرة المتسلسلة من الشمال الى الجنوب . وهذه القصبة التى لم تجاوز بيوتها ، او بالتعبير الاوضح اكوام حجارتها المائتين فى عددها . محاطة بما يماثلها من القرى ، ففى شمالها قرية « الشيخ محمد » مبنية على السفح الغربى من هضبة صغيرة ، ثم فالجنوب على عين الوضع قرية « الشيخ طابه والزويره الجديدة » .

وهذه القرى الكامنة فى احضان تلك السلسلة الصغيرة ، هى مختصر انموذج لصيفيات (لبنان) او بالتعبير الحقيقى ، هى صورة لتلك الربوع خالية عن الاتقان والتهذيب .

على ان لتلك القرى الجبلية منظراً زمردياً ، مملوءً بالانس واللطافة ولو لم تكن تلك الحجارة السوداء مطوقةً باشجار التوت والتين والزيتون ، والخضرة المتنوعة ثم صنائع الصبار بتلك الخضرة الخالدة ، لكانت عبارة عن ركام صخرى وسلسلة احجار مصفوفة .

ما الطف واجمل ما ترون اذا صعدتم من الجانب الشرقى على « ظهر حلبا » وقربتم من قرية « عدبل » ، وطوحتم بنظركم الى تلك الهالة الزمردية التى طوقت حلبا واحاطت بها . هذا مستطيل منتظم يمتد من الشمال الى الجنوب ؛ حشدت فيه الطبيعة صبرةً من الالوان تخساً عن خلقها يد الصنعة والعمران ، وجعلته منهراً للنضارة والحسن .

يحسب هذا المستطيل الاخضر المائل من الشرق الى الغرب ، انه قد اعد ليكون فاصلاً بين تلك الهضاب الصغيرة فى الشرق وبين الفضاء الواسع فى الغرب . وهذا الفضاء الذى امتد فى الجانب الغربى من القصبة على مسافة بضع ساعات ، وانتهى على اذيال الساحل جعل حلبا تحكم على محيط فضفاض ، اما فى الجانب الشمالى فتلوح جبال طرطوس من

وراء ذلك البعد الشاسع مغشاة بالابهام كأنها خطوط من ظل . ثم هناك القرى الرابضة فى اكناف ذلك الفضاء ، والتلال الصناعية تلوح كأنها اشباح ظلية .

لله هاتيك الربوع ما اغناها بالبدايع الفياضة ! وما اجملها من ساحة تتجلى فى عشاياها الطف المحاسن وازهى البدايع ! هنالك تتجرعين من نور فوق هـام البحر المصفر الذى ينساب وراء الافق المرئية ، وتبعث سيالاً من النور الذهبى يغسل « القليمات » فى حضن البحر . ثم « كفزملكه » و « ميرلييا » . فتتمتع حلبا بمشاهـدة ذلك المنظر البهيج ، او اساطير الذهب التى تمثل بالحور الصفر . ويدوم هـذا المسرح المذهب حتى تذوب نتف النور فوق ذلك المرج الاخضر .

ثم الشروق فى حلبا لا يقل لطافة عن الغروب . تتأخر الشمس فى البزوغ بسبب قيام الهضاب الصغيرة فى الشرق ثم تنهض فتهرق ذلك السيال الذهبى وترد لتلك الساحـة فى الشروق ما اغتصبته من نورها ابان الغروب ويتمشى النقص فى الظلال حتى يذوب وتنغمس تلك الميادين الزمردية فى بحر فضى . وقصارى القول ان حلبا اخذت نصيبها من جميع المحاسن المختصة بالسواحل السورية بتلك البقعة الفنيقية .

ويمكن ان يقال ان هذه القصبة — مهما كانت صغيرة — هى فى جمال المنظر ، حيفا او طول كرم ، وحتى انها جديدة ومرجعيون ، وصفد ايضاً . ولهذا لا يسوغ لهـا ان تتألم من فقرها بالعمران . لانها سورية ، نعم سـورية حسنـاء

٨ — الخطوط الداخلية فى حلبا

من العبث ان نسهب فى ايضاح خطوط حلبا الداخلية ، من حيث انها مركز القضاء . لانها — كما بينا سابقا — قرية صغيرة تمكن الاحاطة بها بنظرة واحدة . اذا اغضينا عن المحاسن الطبيعيـة فى مستطيل حلبا الماثل ، نجده عبارة عن ركام من الحجارة ، لا طـلاء ولا كلس .

والبيوت التى رمى بها نحر الصخور المقورة فى الجانب الغربى من التل ، كل منها يتالف من قسم او قسمين . ولا يسوغ ان تسمى هذه الاقسام بغرفة ولا حجرة . وهى مرصوصـة بالحجارة من فوقها وعن ايمانها وشمالها ؛ وارضها من التراب . ويندر فيها الطلاء او الرش بالكلس . فاذا كان فهو البيت المفتخر فى حلبا . والحلباويون يسكنون هذه الاوكان الحجرية مع الآلات الزراعية الحية جنباً لجنب . . . ولولا رحمة الاقليم بهم لصدأت تلك الآلات فى مقبرها ، ويبست تلك الايدى التى تديرها ودبرها .

ويوجد بين ذلك الرديم الحجرى بضعة عمارات قرميدية تشبه البيوت ، ثم دار الحكومة

ودائرة البلدية ودار القائممقام بالمنافذ المصفحة بالبلور ، وليت شعري هل هؤلاء بيوت ؟ ام ماذا اقول ؟ . وعلى كل حال يتحتم علينا ان نسجل على اسم حلبا فقراً مدقعاً من العمران والانتظام . هذا وان كانت الاشجار الخضراء التي تتخلل تلك الركام الحجري توجب تسلية الفؤاد وترينا حلبا بشكل محبوب ، بيد اننا نعترف بوجوب عدم الدخول الى بيوتها وعدم السير في دروبها . وكيف يسوغ للانسان ان يطلق على تلك الانقاب الجبلة او المزلقات الصخرية الضيقة المعوجة ، اسم الطريق . ومن الغرائب ان الحلباويين يغضون ابصارهم عن الاصقاع المعمورة ، ثم تاخذهم غفلة الطفل فيزعمون ان بلدتهم العاجزة فيها اربع شوارع ! يسمون الطريق الممتد من الغرب الى الشرق « طريق الجومة » . وصرحي لهم اذ لم يتكبدوا مشقة الافتكار لانتقاء الاسماء للطرق الممتدة من الشمال الى الشرق ، ثم من الغرب الى الشرق . ولا ادري هل يستطيع شخصان ان يمشيا مرتاحين في هاتيك الشوارع ! ! .

واغرب من هذا انهم قسموا هذه القرية التي لا تتجزى الى خمس محلات و سموها « حارة الذوق » و « حارة الاسلام » و « حارة المسيحية » و « حارة الظهر » و « حارة الوسطانية » . ولا يستكبر على الحلباويين هذا الفكر ، لان كثيراً من المخلوقات تكون لديهم قطرة الماء بحراً خضماً .

هذا ولكي لا ينقصنا من تعريف حلبا شيئ ، يجب ان نذكر بضعة حوانيتها المتداعية وجامعها الوحيد الابتر (لا منارة له) .

ولا ننسى ان ليس في حلبا كنيسة مع ان اكثر سكانها نصارى . وهم يذهبون الى كنيسة قرية « الشيخ محمد » ليقوموا بوجائب العبادة . ويجب ان لا نعجب من هذه القرية التي لا ذنب لها الا كونها مركز للقضاء . لعدم تقربها من مرقاة العمران .

فالى متى يا ترى تحتفظ هذه القرية بمركز القضاء ؟ وهذه هي النقطة التي ما زالت تشغل فكري ، وتقضي بعجبي .

٩ — الاحوال العمومية في حلبا

ان مركز عكار هي قرية حلبا الكائنة بين (٣٤—٣٥) درجة من العرض الشمالي و٣٣،٤٥ من الطول الشرقي . المرتفعة عن سطح البحر بمقدار ثلاثين متراً . ومجموع عدد سكانها من ذكور واناث (١١٧٠) نسمة منهم (٥١٧) من المسلمين و(٥٢٥) من الروم الاورتودوكس و(١٢٨) من المارونيين . وان الطريق الذي فتح من « خان الايده » الكائنة على طريق طرابلس — حمص والبعيدة عن طرابلس بمقدار خمسة عشر كيلومتراً ،

الى قرية حلبا ، كان واصلاً ذلك القضاء بمركز اللواء ، وسبباً لسوق كثير من الشرانق والحبوبات الى الخارج .

توجد دائرة بلدية فى هذا القضاء لهـا ملهى « قهوة » لم يكمل ودائرة مخصصة بهـا ودخلها السنوى عبارة عن (٤٥٠٠) غرشاً .

كان مركز القضاء قبل ثلاثين سنة فى قرية « البرج » . ثم قدم محمد باشا والد على باشا احد متنفذى حلبا قائمقاماً لهذا القضاء ، فنقل المركز الى قريته . مع ان قرية برقايل ، فنيدق ، مينياره ، رحبه ، بينو كلها تفوق على حلبا بعدد السكان .

ومن شهر قرى القضاء بسهولة العيش هى قرية بينو التى سكانها نصارى ، ثم اعظمها بكثرة السكان هى قرية قبيات التى سكانها مارونيون . ونرى الافكار متضاربة بخصوص بقاء المركز فى حلبا او نقله لمحل آخر . ومن رأينا ان حلبا لا تصلح ان تكون مركزاً البتة . ويمكن نقل المأمورين الى قرية الشيخ زناد القائمة على الساحل ، او الى قرية الشيخ جابر الكائنة على حدود صافيتا .

١٠ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الحياة الاجتماعية فى حلبا** — اذا فكرنا بقلة عدد السكان فى حلبـا بحيث لا يتجاوزون الالف الا بقليل ، نعلم عدم امكان وجود الطبقات المختلفة ، المتفاوتة بالاوصاف فى تلك الفئة القليلة . نعم ان الحلباويين هم على وتيرة واحدة من وجهة السجايا الاجتماعية ولا يمكن تفريقهم ، وبيان الرأى فيهم الا باعتبار الدين فقط .

نطقت قيود النفوس بان اقل من نصف الحلباويين مسلمون ، والباقى من المسيحيين . ولكن المسلمين اليوم فى حلبا لا يزيدون فى عددهم عن ربع السكان .

ويوجد بين المقيدين باسم الاسلام عائلتـان من الاسماعيليين يضمون بضع نسمات ، ثم الباقون كلهم من السنيين .

والآن بسبب وجود الشبـان فى الخدمة العسـكرية ، لا يوجد فى حلبا اكثر من عشرين او ثلاثيـن رجلاً من المسلمين . اما النسـاء ، فقد يصيب كل رجل اربع او خمس منهن .

ان حياة المسلمين وعيشهم فى حلبا هو على غاية من الفقر والحاجة ويندر فيهم من يكون دخله السنوى سبعة او ثمانية آلاف غرش . ثم ما بقى منهم اما يشتغلون فى الزراعة بصورة محدودة ، واما يتخذون الحوانيت ويتعاطون البيع والشراء ويحصلون على اقواتهم اليوميـة بكل مشقة وعسر .

... وربما يعالجون صناعة الحرير ويحاولون دفع عدم الحياتي بهذه الواسطة ولكن مداخيلهم يكون محدوداً ايضاً . اما نساء حلبا فقد كان بعضهن لا يشتغلن قبل نحو به الحرير . اما اليوم فقد دخلن الحياة الأجتماعية واصبحن يساون الرجال يداً بيد في الاعمال الزراعية وغيرها .

اما الاسماعيليون في حلبا فهم عبارة عن بضعة افراد ، وهم ينتمون الى شعبة « السويدانية » من الاسماعيليين (*) . ويزعم مسلمو حلبا ان هؤلاء يقومون ببعض المناسك الدينية ، ويشتركون في الصلواة الخمس ، وفي صلاة الاعياد . ويدعون انهم يصومون ايضاً . اما المسيحيون في حلبا فهم عبارة عن الروم الاورتودوكس والطائفة المارونية . وعدد رجال الاروام مائة او مائة وعشرون ، ونساؤهم على ضعف هذا العدد ، والمارونيون هم عشرون او ثلاثون رجلاً ، وثلاثون او اربعون امرأة .

فاذا قارنا بين هاتين الطائفتين المسيحيتين نجد الاروام اغنياء بالنسبة الى المارونيين وحتى بالنسبة الى المسلمين ايضاً . ويعثر بينهم على من تربو وارداته على خمسة عشر الف غرش في السنة . والباقون يعيشون كالمسلمين بحالة يرثى لها . وقسم من المسيحيين يشتغل بالحراثة والزراعة ثم منهم من يشتغل بمهنة المكاراة .

نفهم من هذا ان حياة الحلباويين الاجتماعية من مسلمين ونصارى هي على الغاية من الضنك . وهذا الحال يتضح بصورة ملموسة اذا ابصرنا داخل بيوتهم التي يأوون اليها . وقليل من هذه البيوت — كما قدمنا — مطلي الداخل بالطلاء الكلس ، ثم معظمها اما ملطخ بالطين ، او متروك على حاله بحجارته التي بني فيها . ومن العبث ان نرتاد في حجراتهم الاثاث او سائر اسباب الزينة . بل اثاثهم عبارة عن حصير او سجادة او فراش . وكلهم على هذا النمط ، اما ضنك عيشهم فهو محسوس جداً . وان العائلات اللاتي لم ترزح تحت الديون الباهظة تعد هذا من الموفقية التي من واجبها الشكر عليها . لاسيما اذا كان الموسم غير مساعد في احد السنين فيكون الضنك العيشي على امر النتائج . ولنعترف بان الحلباويين على درجة عظيمة من القناعة ، وبما انهم معتادون على الترمق بخبز الذرة والاكتفاء به ، اقتدروا على ادامة حياتهم بالاقتصاد .

ولباس الحلباويين ايضاً وضيع وبسيط . فاعظم من فيهم يلبس جبة يسمونها « بالطو » ثم سروال ، وصدار . وبعضهم يكتسي الاعبئة ، ويسترون رؤسهم بالعصابات السود « حطه » ويضعون فوقها العقل « بريم » ، وبعضهم يلبس في راسه القبعات الطوال ويسمونها « لبادة » ويسترها بعصابة سوداء ثم يجعل العقال فوقها . ويحتذون النعال « تاسومه » او الامواق

(*) سنبحث عن الاسماعيليين بحثاً منفصلا .

(جزمات) العربية . اما النساء فيمشين حفاة . ولباسهن من البز المطبوع . والنساء المسلمات هناك لا يرين لزوماً للازر والاردية . وقصارى القول ان الحلباويين فى معيشتهم ولباسهم ليسوا الا من القرويين الفقراء .

[٢] — العادات الاجتماعية فى حلبا — ليس للحلباويين من عوائد محسوسة يختصون بها . وحلبا ليست من القيمة التاريخية على شيء ، وهى خلو من المزايا الاجتماعية فمن العبث ان نرتاد فيها الخلال الخاصة من حيث العادات . ومع هذا يمكننا ان نلحظ بعض النقاط ونشير اليها .

فمن عاداتهم فى الزواج ، ان يتكلم اهل الخاطب مع ذوى المخطوبة ، ويحصلون على رضائهم ، ويتفقون على بعض الشرائط الاولية ، ثم يذهب شيوخ القرية ووجوهها الى بيت المخطوبة ويخاطبون اهلها فى هذه المسئلة جهاراً ويتفقون على المهر ايضاً . وحالة الفقر فى هذه القرية لا تمكنهم من الغلو فى المهر . بل ان الالف غرش فى هذا الامر تكون قيمة لاترد وربما يعطون قطعة من الاراضى عوضاً عن المهر .

وتقضى عليهم العادة قبل المباشرة بالعقد بارسال التبغ والتنباك وغيره من المواد التى يجب صرفها فى هكذا نواد . والتقاليد عندهم فى العقد كادت ان تكون عبارة عن شرب الشراب فقط . ثم يدفع القسم المعجل من المهر ، او بالاصح ثلثاه . فيشترى اولياء البنات به للعروس بعض حوائجها . والثلث الاخر من المهر يبقى فى ذمة الزوج . وبعد اجراء النكاح بشهر او شهرين يشرع باعداد لوازم العرس . والاحتفال بالزفاف فى حلبا يكون ذا جلبة عظيمة . تركب العروس على جواد اخذ مبلغه من الزينة على النسق البداوى . ويمشى امام الجواد رجل فى يده قصبة طويلة معقود فى رأسها منشفة كبيرة . و بالتعبير الاوضح ، يرفع ذلك الرجل لواء الزفاف ، وتحيط بالعروس الاقارب والاصدقاء ويزمرون بزمارة من قصب ، او يدقون بالطبول ، ويضربون فى الابواق ويرقصون . ويتسابقون على خيولهم ويلعبون بالسلاح حتى يصلوا بها الى بيت العريس .

تنزل العروس عن جوادها امام بيتها الجديد . ويناولونها قطعة من عجين تلصقها على جبهة الباب ، وتدخل الى البيت .

ثم يؤتى بالعريس على هذه الوتيرة . ولما يدخل البيت تكون العروس قاعدة فيأخذ بيدها ويذهب بها الى حجرة اخرى . وبهذا ينتهى الاحتفال .

* * *

وان للتبريك فى الاعياد عند الحلباويين تقاليد خاصة ايضاً يشترك فيها سكان القرى المتجاورة ، فيركبون الخيل نساءً ورجالاً ويطوفون بالقرى وهم طافحون بالمسرة والنشاط

ويتعاهدون على هذا المنوال . ويكرمون بعضهم بانواع الطعام .

[٣] — **الاحوال الاجتماعية في قضاء عكار** — لا جرم ان الآراء التي ابديناها على مركز قضاء عكار لا تكون مقياساً للقضاء جميعه . ويمكن ان نقول بانّ لا يعثر على قصبة كحلبا ، بعيدة عن تمثيل حال قضائها . ولا يمكن في قضاء كبير مثل عكار يضم اربعين الفا من السكان ومأة وستين قرية ان يخلو من الخلال الاجتماعية الخاصة . وعليه فاننا نجهد الان لايضاح هذه النقاط وتفصيلها :

يرى من السهل لاول وهلة ان يقسم السكان في هذا القضاء من حيث الدين الى مسلمين ونصارى . ونرى هذا التقسيم يكاد يكون طبيعياً لان المسلمين يقطنون في الجهة الشمالية الشرقية من القضاء . والنصارى في الجانب الشرقي، في بقاع « الجرد » وفي الجهة الجنوبية منه . على ان لهذين القسمين الكبيرين اقساماً من الفروع الثانوية يجب تفريقها ويتحتم علينا ذكرها :

مثلاً : ان مسلمي عكار عبارة عن «العكاكرة» . امراء عكار «بك». والعرب البادين م التركمان، والمسلمين من القرويين الاهلين . ويجب علينا في البحث ان نذكر هؤلاء على الانفراد :

(امراء عكار « بك ») — يزعمون انهم جاؤا الى هذه الربوع من انحاء حكاردى قبل مائتين ، او مائتين وخمسين سنة . وانهم من الاكراد ولكنهم اليوم مستعربون . اما عددهم ، فليس عليه اتفاق ، ويخمن ببضعة الاف من رجال ونساء . ويعثر بين هذه الثلة على اسماء اسر مختلفة . وكلهم قائلون بانهم من اسرة « مرعب » ثم تشعبوا وتفخذوا على مرور الايام . ورجال العكاكرة حائزون على عنوان (بك) وهو سمة الاصالة ولهؤلاء الامراء احاديث في الفروسية والشجاعة لا تزال تدور على السنة القوم من كبير وصغير ، وهذه الشهرة التي لا تزال تتكرر على مسامعهم زادتهم غروراً ، وخلقت فيهم ارواحاً متغلبة ، شأن كل من رنحته الشهرة . وبين هؤلاء المتغلبة مقدار خمسة عشر ركناً هم على الدرجة القصوى في السلطة والتحكم . ولهم لباس يتبعون فيه اسلافهم من قبعة طويلة فوقها عصابة مسورة بالعقال ، وجبة ، ثم سروال قصير ، والاحذية الطويلة السوداء في ارجلهم . ويوجد بين هؤلاء المتغلبين من تمكن من الحصول على « الباشوية » في الدور البائد .

وهؤلاء الذين تسلطوا على محيط عكار ، واخذوا نصيبهم من الاشتهار فيه بالتغلب والتحكم . جعلوا مراكز سطوتهم في قرى « برقايل، مجدله ، بينين، ببرى ، حوشيت، عياد » واعظمهم غناً يقطن في « برقايل » . ويوجد بينهم من تقدر امواله المنقولة وغير المنقولة بمائتين او مائتين وخمسين الف ليرة . واقنعهم في المعيشة لا يقل دخله السنوي عن الفين

او ثلاثة آلاف ليرة . ويوجد فى قرى الاسلام من هؤلاء مقدار اربعة متغلبة تقاسموا الحكم هاتيك الانحاء بخطوط معينة لديهم . واخذ كل منهم يجهد لنفسه فى داخل دائرته .

لو سألتم احد القرويين عن تحكم هؤلاء الامراء لا يلبث ان يبثكم آلامه القلبية ويقول :

[لكل من هؤلاء المتغلبين الذين يناهزون الخمسة فى عددهم رجال واعوان مجهزون بالسلاح الكامل . رهينون اشارتهم وامرهم . وقد يتفق بضعة منهم على آخرين فتتكاتف قوتهم وتقوم بينهم الحرب على سوقها . يكتسحون اشجار الزيتون ويقتلون بعضهم ويدسون اعوانهم فيسرقون الاموال ولا يدعون فرصة لاضرار بعضهم الا وينتهزونها ؛ وان كيد هؤلاء الاقارب لا ينحصر ببعضهم ، بل يتجاوزون على من حولهم ويرتكبون انواع الظلم والجور .

يرى احد هؤلاء المتغلبين جواداً يعجبه فيطلبه من صاحبه . فان ابى او تعلل ، لا يلبث ان يأتيه الموت من رجال ذلك المتغلب ، او يقطعون عنه الماء او يخربون امواله واملاكه . ولا ننسى ان الذين يطلعون على هذه الجنايات لا يتجاسرون على اداء الشهادة فى المحاكم اذا مست الحاجة ؛ والا فانهم يذوقون انكر العذاب .

ان الفقراء المزارعين الموجودين تحت رحمة اولئك المتغلبين هم فى حالة يرثى لها . لانهم يجهدون انفسهم سنة كاملة ، ثم لا يكون نصيبهم من ذلك السعى المبرح الا الخسران والحرمان . واذا اردنا ان نطلع على كيفية تطاول هؤلاء المتغلبين على المزارعين وكيف يغتصبون ثمرة مساعيهم ، فلننظر الى هذه الضرائب التى يتقاضونها من هؤلاء المساكين :

اولا — يأخذون ثلث المحصول من حيث انهم اصحاب الارض ، وعلى جرى العادة .

ثانياً — يأخذون عشر مجموع المحصول ، من حصة المزارع فقط .

ثالثاً — يتقاضون منهم مبلغاً معيناً فى السنة باسم « الدخانية » , « ثلث الضرائب » و« اجرة المكن » .

رابعاً — يأخذون باسم (الشكاره) شنبلاً عن كل (جفت) من حصة المزارع .

خامساً — يقرضون المزارعين شيئاً من الحب ، ويحددون عليهم ثمن الشنبل بستمائة غرش ، مثلاً . ثم يتقاضونه عند وجود الحب فيشترون منهم الشنبل بمائتى غرش . وبهذا يكون ربحهم ثلاثة اضعاف الدين .

وقصارى القول اذا اضفنا الى ضرائب هؤلاء المتغلبين حصة من هم اقدر منهم واقوى فى التغلب ، ثم حصة بعض المأمورين الذين نبذوا الوظيفة والوجدان وراء ظهورهم ثم سهم المحصلين . وافراد الدرك (ژاندارمه) تتضح لنا حالة المزارع ، ونطلع على حقيقة امره . ولهذا يجب التسليم بان القرويين فى عكار لا يزالون يرزحون تحت اعباء

هذه القوة الغاشمة »

ما اجدر هذه الصارخة المبكية بحيث يضرب على أيدى اولئك الظالمين وينتصف لهؤلاء المظلومين !

لاسيما اذا فكرنا بنفقة تلك القصور المشيدة ، واولئك الحواشى والاعوان المحشدة ، ثم بتبذير هؤلاء المتغلبين الذين يقدمون الى بيروت وطرابلس لمجرد الاهواء والاذواق ، وباسرافاتهم المفرطة ينكشف لنا الغطاء عن المؤثر الحقيقى الذى يضطرهم لاتباع هذه الخطة فى ديار عكار .

ولا ننسى ان هؤلاء المتغلبين وان كانوا على الدرجة القصوى من البذخ والترف فى منازلهم ، ولكنهم يهملون كثيراً من الاحتياجات الاجتماعية . ومن العبث ان نتحرى فى ترتيب منازلهم نظاماً يرتاح له الذوق ؛ اما حياتهم العائلية فهى محشوة بكل نقص .

ومع هذا فلا يسوغ تطلب غير هذه الاوصاف من تلك الزمرة الطائشة لان الجهل الاسود لا يخلق فى هكذا محيط الا هكذا نتائج .

* * *

ثم يوجد فى هذا القضاء — ما عدا العكاكرة — سكان الخيام من عرب البدو ؛ وهم يقطنون السهول من هذا القضاء وهم عبارة عن خمس قبائل :

١ — « عرب الهيب » . يسكنون قريباً من الجانب الشرقى من تل عباس وعددهم (١٠٠—١٥٠) ، وعدد بيوتهم (١٥—٢٠) .

٢ — (عرب الزريقات) ، يسكنون فى الانحاء الكائنة بين نهرى « العرقا » و « البارد » ولهم (٧٠—٨٠) من البيوت ، ويبلغ عددهم الى (٣٠٠—٤٠٠) نسمة

٣ — « عرب معاقل » ، يسكنون فى جوار « خان العبودية » ولهم « ٨—١٠ » بيوت وعددهم « ٥٠—٦٠ » نسمة .

٤ — « عرب الموالى » ، يسكنون فى انحاء « ديرين » و « سعدين » ولهم بضعة بيوت وعددهم « ٣٠—٤٠ » نسمة .

٥ — قبائل « نعيم الخير » و « الحديديين » و « الكعبين » ، يسكنون بين « الخريبة » و « نهر الكبير » ولهم « ٧٠—٨٠ » بيتاً وعددهم « ٣٠٠—٤٠٠ » نسمة .

ولا نحسب ان لهؤلاء الاعراب فرقاً فى الاوصاف والخلائق عن غيرهم من العرب البائدة . لان ارواحهم المتشردة لا تزال مشربة بحب الخيام ولا ننسى ان هؤلاء كثيرا ما يتعرضون لاخلال الراحة العامة فى الانحاء التى يقطنونها .

* * *

اما تركمان عكار فهم يسكنون — كما قدمنا فى البحث الخاص — فى قرى[الكواشره

وعيدمون والجديده والدوسه] وعددهم يناهز « ٦٠٠ نسمة »

وبما اننا سنبحث عن نسق حياة هؤلاء التركمان ، واحوالهم الاجتماعية اثناء التكلم عن تجوالنا في « جبال عكار » فلا نرى لزوماً لتكرار البحث هنا .

*
* *

ثم ان بقية المسلمين في عكار — ما عدا الذين بحثنا عنهم — يكونون طبقة القرويين. وهؤلاء لا يزالون تعساء رغماً عن استعداد اراضيهم ، وابلاغهم بالكد والكدح ، وذلك بتاثير الاسباب التي تقدم البحث عنها . ويشتغل ثلثا هذه الطبقة الكثيفة بالزراعة ، وسدسهم بالحرير ، اما السدس الآخر فهم لا مهنة ولا عمل ، يعيشون بالنقود التي ترسل اليهم من اميركا .

***

اما النصارى الذين هم اكثر سكان القضاء عدداً ؛ هم في الحياة الاجتماعية ارقى واسعد من القرويين المسلمين . فقراهم اكثر اعماراً ، ومنازلهم اوفر انتظاماً ، وانظم ترتيباً واوفر اثاثاً . واغنى قرى النصارى قرية « منيارا » ؛ اما اعظمها عمراناً وارجحها مدنيةً هي قرية « بهتو » . وافقر العائلات المسيحية في هذه القرية لها بيت مفروش بصورة منتظمة على قدر ما يمكنها .

ويعثر في « منياره » و « القبيات » على بضعة اشخاص يتذرعون بمصاهرة بعض الاجنبيين ويتكئون على قدرتهم ، ويسعون لجلب المغانم بمختلف الوسائط . على ان سلطة هؤلاء لا تذكر في جانب سلطة غيرهم ممن ذكرنا .

ثم ان للمهاجرة على نفوس هؤلاء المسيحيين سلطةً عجيبةً ، ونتيجة اقبالهم عليها جعلت اكثر من خمس سكان هذا القضاء في الديار الاميركية . ويقولون ان نصف المسيحيين في هذا القضاء كان يعيش بما يصل اليه من النقود الاميركية . ولذلك سقط ذوو هذه الطبقة الى حضيض الذل والفاقة منذ اشهار الحرب ولاسيما منذ انقطاع العلائق بين الدولة ، وحكومة اميركا .

اما افراد النصف الآخر من المسيحيين فهم ارباب مشاغل ومهن . ويشتغل ثلثاهم بصناعة الحرير ، والثلث الآخر بالزراعة . ولقد تطلعنا الابحاث التي قدمناها ، عن سبب اقبال النصارى على الزراعة واهتمامهم بها . ولهذا لا نرى لزوماً لتكرار هذا البحث .

ولنذكر قبل اتمام هذا البحث ان الثروة النقدية في هذا القضاء تقدر بمليونين ، والاموال غير المنقولة بمليون من الليرات . بيد ان هذه الثروة ليست عميمة النفع لانها منحصرة في اشخاص معدودة ، ولهذا السبب لا تكاد تنتج بسعادة اجتماعية البتة .

[٤] — **الارقام الاجتماعية** — لاجرم اننا لا ندعي صدق هذه الارقام التي سنثبتها في هذا البحث . ولا بأنها حائزة على الشروط التي يمكن اتخاذها ركناً للقياس. بل رجحنا درج ما حصلنا عليه منها على علاته لانه لا يخلو من فائدة .

[القتل والجنح] — احيل على الهيئة الاتهامية سنة (٣٣٢) اوراق (١٤) من المظنون عليهم بالقتل في هذا القضاء . منهم (١١) من الذكور و(٣) من الاناث اما الجنح ؛ فقد حكم على (٩٠) شخصاً في هذه السنة بجرائم مختلفة . منهم (٢٦) حكم عليهم بالسرقة و(٢١) بالضرب والجرح . ومن هؤلاء التسعين (٤٢) شخصاً من الزراع و(٢٢) من اصحاب الاملاك و(٨) من العمال و(١٧) من العطل الذين لا عمل لهم . و(٦) من هذا العدد أناث و(٨٤) ذكور . ثم ان (٦٠) من الذكور عزاب ، والباقون من المتأهلين. ومن التسعين (١٧) شخصاً ممن يحسنون القراءة والكتابة . اما سنهم؛ فمنهم (٨) فقط بين الخمسين والسبعين والباقون بين العشرين والاربعين ومنهم (٣) سنهم اقل من العشرين .

(مقدار الكسب) — يزعم انه يوجد في حلبا (٣٥) شخصاً يربو دخلهم السنوي عن (١٠٠٠) غرش وبينهم اربعة يربو دخلهم على (٥٠٠٠) غرشاً .

اما في القضاء ؛ فان خمس النفوس دخلهم اقل من (١٠٠٠) ، ثم ان (٨٠) في المائة منهم يزيد دخلهم عن هذا المبلغ .

(الصنوف الاجتماعية) — يزعم ان (١٣٧٩٠) شخصاً من مجموع سكان القضاء يشتغلون بالزراعة ، ومقابلاً لهذا يوجد «١٣» شخصاً يتعاطون التجارة و« ١٨٥٧ » شخصاً يعيشون عطلاً بلا عمل ولا مهنة ولم ينبغ من عكار الى الان الا خمسة اطباء . وعدد اصحاب الاملاك هناك «٦٨٧٦» على التخمين. وهذا المقدار يقرب من خمس مجموع السكان وقد تجند من قضاء عكار في هذه الحرب «٧١٥١» شخصاً . ويروى انه يوجد فيها «٢٠٠» من الرهبان.

١١ — الاحوال الروحية

يجب ان نتلقى سكان حلبا من حيث الاحوال الروحية كالطفل . لان هؤلاء الناس محرومون من السجايا النفسية التي يشعر بها لدرجة تجعل الحكم على تبرأهم من السجايا ضرورياً . ولا نحتاج للاسهاب في اقامة البراهين على ان هؤلاء المساكين المحرومين من كل نور ومدنية ، عبارة عن اجسام عضوية فقط . حتى ولا لزوم للامعان في حياتهم الاجتماعية وتدقيقها وتحليلها ، وحسبنا نظرة واحدة في تلك الوجوه والانظار لنطلع على بساطة ارواحهم وخلوها من كل معنى . وعليه ما لنا الا ان نعتبرهم اجساماً ناشفة براء

من كل علم وتجربة .

ولا جرم ان رأينا هذا يشمل جميع الطوائف الموجودة فى حلبا . وان ادرى هل الذين يحسنون القرائة والكتابة فى حلبا من مسلمين ونصارى يبلغون الى عشرة من مأة؟ وهذه القروية الشرقية البحتة يندر العثور عليها فى مراكز الاقضية . ولو صرفنا النظر عن مراكز الاقضية الممتازة فى القسم الجنوبى من ولاية بيروت كصيدا وحيفا ، ونظرنا الى جنين وامثالها نجد لها شخصية تناسبها . ولكن ليس كحلبا موقع مبرأ عن الشخصية. هذا ولنعترف ان تلك الثلة البشرية الهادئة ، المطيعة الخاضعة هى مستعدة للسوق والادارة اكثر من غيرها. فلو كان لها قليل من الهمة لا ثمرت بالنتائج الحسنة . وعليه فالتذرع بالوسائل التى تنفخ فى هؤلاء الاجسام العضوية قوى نفسية ضرورى ومحتم .

*
* *

اما الحالة الروحية فى قضاء عكار فليست على هذه الدرجة من الصفوة والفراغ . لان لكل من امراء عكار والتركمان والعرب البادين، ثم القرويين المسلمين . والطائفة المسيحية اوصافاً روحية متخالفة .

ان معظم الامراء « بك » العكاريين ، اكسبتهم الشرائط الاجتماعية ارواحاً عصبية خشنة . وانهم بنسبة سرعة انفعالهم وشدة تأثرهم ، تشرأب ارواحهم الى الاصالة القصصية. فالحصول على السلطة النافذة ، وامتطاء الجياد الصافنات ، واقتناء الاتباع المسلحين ، ثم امتلاك الاراضى واستعباد القرويين ، والتمكن من الحصول على جميع الامال ، ثم الاحراز على لقب « بك » او « باشا » ، هى من امانيهم العالية ؛ وهى حالتهم الروحية الحقة .

لو تصفحتم جميع صفحات حياتهم لوجدتم هذه الآمال مسيطرة عليهم ، فالذى يفتح ابوابهم للشارد والوارد ، ويوحد على موائدهم تلك الانواع المحيرة ، والذى يسلطهم على القروى والذى يغضبهم ويهيجهم ، والذى املاء منازلهم بالنفائس المختلفة ، هى تلك الاوصاف وهاتيك السوائق .

ويجب ان نعترف بان اصعاد هؤلاء على سلم الترقى سهل . وهذه السهولة ناشئة عن خضوعهم لحسياتهم . فكلمة « بك » او « باشا » ممزوجة بشئ من التواضع ، تنزل بشخصية هؤلاء الطبقة من الخشونة والعصبية الى اللين والانسية . وما عاش هؤلا القوم مربوطين بتلك الشنشنة الهرمة الا لانهم لم يجدوا النور الذى يحتاجون اليه . هذا وان يكن حصل فى الايام الاخيرة لدى اركان هذه الطبقة يقظة واضحة ، وكان منها ان جملت فيهم بضعة اشخاص تخرجوا فى المدارس العالية ومثلهم فى المدارس التالية ، بيد ان هذا المقدار لا يكفى ،بل يجب الافتكار بالاسراع فى تنوير هذه الفئة التى لا يزيد مقدار من يحسنون القرائة والكتابة فيها عن نصفها . فاذا تنورت هذه الطبقة مع ما هى عليه من

الغنى فلا جرم انها تنجح ، ويكون لها فى محيط عكار الغنى بشرائطه الطبعية انفع الاعمال.

*
* *

ان الروح الطائشة المنكبة على محافظة القديم فى التركمان والعرب الرحالة ، هى معروفة عند كل احد . ولذلك اننا نصرف النظر عنهم ، ونتكلم عن القرويين المسلمين وعن السكان المسيحيين فى عكار .

ان القرويين بسبب ما ينالهم من الظلم والتضييق الشديد ، ثم بتاثير الانحرام من وسائل التمدن والرقى ، كانوا فى الاوصاف الروحية اشبه الناس بالحلباويين . ومع هذا يجب علينا ان نفرق سكان السهول الساحلية عن سكان الجبال وانحاء « الجرد » . لان سكان القسم الاول مفطورون على الاطاعة والمسالمة ، اما سكان القسم الثانى فهم معروفون بخشونة الطبع وشدة الاصرار والعناد . وقد خرج منهم فى الايام الاخيرة شرذمة من اللصوص فى انحاء « الجومه وخربة الرمان وقيطع » ، ارهبوا سكان القرى الساحلية المسالمة . ولهذا فان اهالى « حلبا ومينارا والجديده والشيخ طابة » معروفون بالجبانة عند العكاريين .

اما السكان المسيحيون فى عكار ؛ فقد اضلتهم تلقينات الرهبان الذين هم اكثر من مائتين فى هذا القضاء ، وهم بالرغم عن تأخرهم بالرقى الفكرى ، ارقى من المسلمين من حيث العمل والحياة الاجتماعية . وان يكن فكر الهجرة الفت نظرهم عن وطنهم الى الخارج ، ولكن النقود التى ترسل من اميركا لا تزال تحدث العمران والانتظام فى القرى المسيحية ، لاسيما فى قرية « قبيات وبهنو » فانهما يزدادان عمراناً وانتظاماً على الدوام .

ولنسلم ان لو عالجنا تحويل تلك المساعى التى تصرف فى اميركا وارجاعها الى سورية ، وحصرها فيها فلا جرم ان بلادنا تستفيد استفادة اساسية لا قشرية .

ويزعم ان «٣٥—٤٠» فى المائة من نصارى عكار يحسنون القراءة والكتابة . وتصعد هذه النسبة فى قرية بهنو الى (٧٠) فى المائة . ويوجد بين جميع المسيحيين هناك مقدار (١٠٠) شخص من دارسى العلوم التالية .

اما الذين يعودون من اميركا فلا يبعد ان استصحبوا معهم بعض الخصائل الحسنة التى اكسبتهم اياها التقاليد ، ولكنهم يأتون متحملة اعناقهم احمال البطالة والكسل . ولاسيما ان المبالغ التى كانوا يرسلونها من اميركا تكون لهم ذريعة لتأمين معاشهم مع العطلة . وهذا السبب خلق فى محيط عكار طبقةً من كسالى الناس . ولا ريب في ان هؤلاء كانوا اشد الناس ضرراً وبلاءً من هذه الحرب العامة .

١٢ — الاحوال الصحية

نريد قبل التكلم عن الاحوال الصحية فى قضاء عكار ، ان نبحث نبذة عن الحالة الصحية فى (حلبا) . ان هذه القصبة مشهورة بعذوبة الماء ولطافة الهواء . فماؤها صاف من اصله، وهو يجرى فى انابيب الحديد من منبع « عين الجرن » التى تبعد عن حلبا مقدار ربع ساعة الى حوض فى داخل القصبة . ولهذا لا يكون سبيل لترشح الماء وتحلبه. وتوجد فى الناحية الجنوبية قريباً من القرية « عين المعلول » ثم فى الشمال « عين الوادى » . ويوجد فى اكثر البيوت الآبار المصونة . وعليه لا يكون للحلباويين هم بخصوص الماء ، لانهم يجدون الماء النظيف اينما طلبوه .

ولكن يا للاسف ان بيوت حلبا ، بالرغم عن طيب مائها وجيادة هوائها ، ليست على شئ من الخير الصحى . والخطأ الذى لا يعفى ، هو عدم وجود المحلات الضرورية فى تلك البيوت .

اما القضاء فقد يفرق من حيث الحالة الصحية الى قسمين :

الاولى يشمل الاراضى الساحلية . والثانى يضم انحاء الجرد . والاراضى فى الساحل تكون مستوية . غنية بالمياه الجارية ، وتسقى منها تلك الاراضى ولهذا السبب تتكون المستنقعات ، وتجعل ذلك الانحاء مرزغة .

اما اطراف « الجرد » اى انحاء الجبال فهى يابسة الهواء . وان جبال عكار التى لا ريب فى انها الطف جبال سورية ، لم توجد فيها الدروب ولم تنتظم فيها القرى . ولذلك فلا يستفاد الآن من هذا المصطاف البديع.

ثم ان البيوت فى تلك القرى كلها على نسق بيوت حلبا بعيدة عن الخير الصحى.

اما الامراض المحلية فى حلبا وفى الانحاء الاخرى من القضاء ، هى « الحمى المرزغية وذات الرئة ، وذات الجنب » وامثالها .

ففى سنة (٣٣٢) اصابت الحمى المرزغية (٧٠—٨٠) شخصاً . وبه يكون هذا المرض تسلط على عشر السكان . اما الامراض الاخرى فى حلبا فقد اصيب بكل منها اربعة . او خمسة اشخاص . وفى عموم القضاء يصاب كل سنة مقدار (٥٠٠٠—٦٠٠٠) شخص بالحمى المرزغية ، وهذا المرض يكون على الاكثر فى القرى الساحلية . وايضاً يصاب « بالتهاب القصبات» مقدار (٤٠ — ٥٠) وبذات الرئة (٢٠) وبذات الجنب (٥ —١٠) اشخاص. وعموم المصابين بمرض السل عبارة عن عشرة اشخاص فى جميع القضاء .

لا اثر للمرض الافرنجى هنا ، ولكن اصيب بالاخف منه مقدار (١٠٠)

من الاشخاص .

اما الامراض الطارئة،فقد اصيب فى حلبا سنة (٣٣٢) (٧—٨) اشخاص بالقولـيرة، ومات خمسة منهم. واصيب بالحمى التمشية (١٠—١٢) شخصاً توفى منهم خمسة . ولم يدخلها مرض الجدرى فى هذه السنة .

وفى القضاء كانت الحمى التمشية والجدرى متفشية فى قرية «فنيدق» وقد اصيب بالاولى «٦٠» شخصاً مات منهم «٤٠» وبالثانية «٤٠» مات منهم (١٠) اشخاص .

وفى جميع القضاء اصيب بالحمى التمشية سنة (٣٣٢) ، « ٥٠٠—٦٠٠ » شخصاً مات منهم « ١٠٠—١٢٠ » واصيب بالقوليرة (٣٥) مات منهم (٢٥) وبالجدرى (٣٠٠) مات منهم «٥٠» شخصاً . وعلى هذا الحساب يكون مجموع عدد الوفيات بهذه الامراض قريباً من مآتى نسمة .

وفى الثلث الاول من سنة « ٣٣٣ » لم يظهر مرض الجدرى البتة بسبب التلقيح الذى شمل اكثر من « ٢٠٠٠٠ » من الاشخاص . ولم يوجد اثر للحمى التمشيـة ولا للقوليرة لعدم ورود الافراد المأذونة من القطعات العسكرية

*
* *

ان المؤسسات الصحية فى قضاء عكار ناقصة جداً . وطبيب البلدية المكفل بالمشارفـة على امور الصحة فى القضاء من جانب ، ومعالجة المرضى من جهـة اخرى — مهما كان جلداً متحملاً — لا يقتدر على الاحاطة بهذا الامر العظيم والقيام به . ويقول انه امضى فى السنة الماضية اكثر من الف ساعة على ظهر الجواد حتى استطـاع تفقد القضـاء غربه وشرقه . ثم ان فقدان الوسائط الصحية ، والشرائط الحياتية تشعرنا بلزوم الاهتمام اكثر من هذا بحياة تلك القرى المظلومة .

ولا صيدلية فى جميع القضاء الا صيدلية البلدية الموجودة فى حلبا . وعليه اذا اوجب الامر لحضور طبيب ، او لزم شئ من العلاج يضطر المريض لان يتربص الايام العديدة .

وقد كان يوجد قبل الحرب اطبـاء خصوصية فى قرى (به نو) و « قبيات » .وصيدلية فى حلبا والقبيات؛ ثم جراح ايطالى فى القبيات ايضاً . والآن فقد اقفلت تلك الصيدليات واجلى الاطباء . وفى هذه السنة نقل مأمور التلقيح الى محل آخر .

١٣ — اللغة والادبيات

ان اللغة العامة فى قضـاء عكار هى العربيـة العجمى . وان الذين يحسنون القراءة والكتابة قليلون جداً ، وان علمهم بها ناقص . ولهذا السبب يندر هنـاك وجود من

يعلمون العربية الفصحى . اما اللغاة الاخرى ، فان التركية شايعة بين التركمان ، ولكن لا يوجد فى حلبا ولا فى بقية اقسام القضاء واحد من الف ممن يعلمون هذه اللغة . بيد ان من تخرج فى مدرسة العشائر التى كانت فى الدور البائد من الامراء السكاريين يعلمون قليلاً منها

اما اللغاة الاجنبية فقد يوجد فى القضاء ممن يعرف اللغة الفرانساوية « ٢٠ » وممن يعرف الانكليزية « ٣٠—٤٠ » شخصاً ، ويوجد بين الذين عادوا من اميركا « ١٠٠٠ » شخص يعرفون اللغة الاسبانيولية .

فاذاً ؛ ان اعم لغة فى قضاء عكار واروجها هى العربية العجمى . وان تسلط هذه اللغة على الطبايع بلغ لدرجة انسى الامراء العكاريين اللغة الكردية ، ودخل اللغة التركمانية فاشغل موقع اكثر الكلمات التركية ، وكاد ينسخ اللغة التركمانية بتاتاً ويشغل مكانها .

ان اللهجة فى هذه العربية العجمى هناك لا تختلف عن اللهجة الطرابلسية . ويوجد فى هذه اللغة اناشيد كثيرة ، منها ما يتغنى به اثناء الرقص « الدبكة » من نوع الميجانه ، او العتابه [*] ، ثم الهميم ، وهو ضرب من الحداء [١] . وادبيات الناس فى عكار عبارة عن هذه الاناشيد والاغانى :

ونرى ان ليس فى هذه الاناشيد ما يشف عن حياة عكار . ويبحث عن تلك المناظر الطبيعية . ولكن ترديد عبارات الحب فيها يجعلها حرية بالذكر . وها نحن نأتى ببضع قطع من هذه الاناشيد :

— اغنية —

هلا بالورد يا يمى هلابا
تعذبنى وما طيق العذابا
ورميت سلام ما ردوا على
يا شوف الزين من تله لتله
هويت اثنين واحد ما حصللى ...

واذا فكرنا بالتلال الموجودة فى السهل الكائن على الجانب الغربى من حلبا التى اقيمت لاجل المحافظة على بعض الآثار نعلم ان هذه لاغنية ليست بعيدة عن الحالة الروحية العكارية .

---

[*] راجع « ولاية بيروت — القسم الجنوبى » ، مبحث ادبيات الجديدة ص ٤ ، ٣٣٤

(١) همست المرأة فى راس الصبى ؛ نومته بصوت ترققه له . م

ثم يوجد فى عكار غير هذه الاغانى من الاهازيج التى يسمونها الميجانه ؛ والعتابه. وها نحن نأتى لكل واحدة بمثال :

— الميجانه —

يا ميجانه ، يا ميجانا ، يا ميجانه
ضحكت بجار الدار لفيو احبابنا
يا ميجانه ، يا ميجانه ، يا ميجانه
ما بوس خدك ما تبوس يدنا
يا ميجانه ، يا ميجانه ، يا ميجانه
من بعد حق شولفتى بتحرما...

وهذا النوع من الاهازيج يردد على نقرات « يا ميجانه ... الخ » .

اما العتابه :

— عتابه —

يا هل تجذع دلولك خذ معناى
سلام لا ريمة الثيت معناى
وحق اليت يا عابد معاناى
غبت عن فراقهم والنوم طاب...

ثم يوجد ما عدا هذه العتابات ، ما يتغنون به اثناء الرقص « الدبكة » من الاغانى الترديدية ويتغنى بها مع التصفيق .

اغنية « الدبكة »

بين السمره والبيضه فى قصه بدها ديوان
واللى بياخد النشميه بضل مقضى كيفيه
لقمتو بتضل هنيه لو كان تلتينه زيوان
واللى بياخود السمره عينو بتضل لبرا
والقعده معها مره لو عملت اكل الحكام ..

فما اوضحها من شكاية تتأفف من محيط عكار الذى يندر فى اهليه الجمال !

— اغنية اخرى —

مانى يا حبيب مانى
تولف والحق خلانى
مانى مدور طمايغ
وعقلى من راسى ضايع

وشوى تحمل يابايع

خوخ وعنب ورماني ...

ان هذه الاغاني وغيرها من الاهازيج العكارية ناقصة من حيث المعنى؛ بيد ان لهاوزناً ينطبق على الرقص ، وقافية كاملة ، وهذه المزية فيها اوجبت كثرة استعمالها اثناء الرقص.

— الحداء —

هي وهي وهلليه
وشال الله يا رفاعيه
حطيتو بالمرجوحه
خفت عليه من الشوحه
والله عليك صلوحه
وهزى للبيو حتى ينام
هي وهي وهلليتو
شيخ احمد يبريتو
يا ربي يكبر ويصير
انا بربي وليداتو ...

ينطق هذا الحداء بالحالة الروحية في عكار من وجوه عديدة . لان طريقة « الرفاعية » آخذة مبلغها من التفشي في تلك الانحاء ، ولها في كل من قرى « حيزوق وفنيدق وقرنه» تكية خاصة . ومن جهة اخرى ان العكاريين يعتقدون بكرامات بعض المشايخ ، وها هم يبحثون لاولادهم في هذا الحداء عن شيخ مدفون في سهل عكار ، ويستمدون من روحانيته التي يتصورونها .

*
* *

نرى قبل ان نتم البحث عن ادبيات عكار ، ان نتكلم على طريق الاستطراد في ما كتب بشان « ضروب الامثال » هناك . كتب « انطون جبيل » مجموعة تتضمن الامثال المتداولة في سورية ، في نسخة حزيران سنة (١٩٠٦) من مجلة المشرق الشهرية التي يصدرها « الآباء اليسوعيون » في بيروت . ثم ذيلها « سليمان غانم اليسوعي » بمقالة طويلة تكلم فيها عن الامثال المتداولة في عكار .

ذكر في هذه المقالة مآة من الامثال التي تناسب الشهور والمواسم والايام والحادثات الطبيعية ، ونسبها الى قضاء عكار . مع ان اكثرها معروف في الانحاء الاخرى ، ومستعمل. نذكر منها :

« النار فاكهة الشتاء — القرش الابيض ليوم الاسود — الولد ان ما بكى ما بترضعه

الله » . وهذه الامثال موجودة فى كل محل ، وحتى فى كل لسان ، مثلاً يقول بالتركى : « مانقال كنارى ، قيش كونتك لاله زاريدر . — آتى آقچه قارا كونك ايچوندر — اغلامايان چوجغه مه ويرمزلر » :

وهذه الامثال هى عين العربية لا تختلف عنها شيئاً . ولا جرم ان الصاقها بالعكاريين وحصرها فيهم خطأ . يمكن ان تكون هذه الامثال معروفة لدى العكاريين ، ولكن لا يمكن ان تكون من مخلوقاتهم . ثم ان عدم ادخال هكذا امثال شايعة فى جميع الانحاء السورية ، ولاسيما فى مجموعة رشحت نفسها لجمع تلك الامثال هو من النقص الفاحش ، ومن الضرورى على القراء ان لا تعزب عن انظارهم هكذا نقاط مهمة .

—٧—

فى جبال عكار

١ — من حلبا الى كواشره

علينا الآن ان نعين اول مرحلة لسفرنا من حلبا الى الانحاء الداخليـة ... ولا شك ، ان هذا جدير بالاهتمام . لان حالة حلبا التى لا تبعد عن اقصى العمران جعلتنا فى ريب من المراكز الاخرى التى سنمر بها . كنا نقول :

— اذا كانت الاقضية الاخرى ، هكذا ...

ما كنا نريد ان تتم هـذه الجملة . وكنا نرجح ان نرتاح لكل شئ ، لاننـا نعلم ان التطير فى اول خطوة نحو الشمال ، يقضى على ارواحنا بعذاب دائم .

ولو ان لنا من الزمن متسعاً لكنا نتجول برهةً فى قرى عكار ، ولو تجرعنـا الحرمان المادى والمعنوى فيها . لاسيما وقد قيل لنا ان لها مواقع تقصد وكان المرغبون يقولون:

— ان انحاء الجرد ، هى الطف الاصقاع فى سورية من حيث المنظر ، فتلك الشواهق وهاتيك المشجرات ، وذلك الماء السلسل ، ثم النسيم العليل . كلها لا مثيل لها فاولى لكم ان تقصدوها . اما الذين يؤثرون المحاسن الصناعية على البدايع الطبيعية ، كانوا يدعوننـا لان نسلك سبيل (عكار العتيقة) ، ونرى قرى (ببنو) و« القبيات ».

كنا من الارتياح فى درجة نتمنى ان لو يسعدنا الوقت فنصل الى جميع تلك الاصقـاع . ومع هذا فاننا آثرنا ان نتجول برهةً فى جبال عكار ، ونمر على قريتى « كواشره وعيدمون » اللتين يقطنهما التركمان وتجوالنا هذا رغماً عن قصره سيمتد اربع سـاعات او خمس على

ظهور الجياد ، ثم اذا لم نضطر لمكث بين التركمان ، فسير بضع ساعات اخرى فنصل الى « تاكليخ » مركز قضاء حصن الأكراد .

كنا نرى هذه السفرة التى تشغل يوماً كاملاً ، فى اولى مرحلة اجمعنا عليها ، مؤنسة ونافعة .

*
* *

كانت الشمس تبعث بنورها الفضى من اعالى ذرى حلبا ، على تلك السهول الواسعة ؛ وجيادنا التى لم تستحوذ عليها الا بشق الانفس ، قائمة تجلد على الوقوف ولا تكاد .. امتطينا ظهور تلك العظام المصفوفة ، واخذنا نزلق على الصخور الصلداء ، ومررنا من جانب البساتين ، ثم بالبيادر فى الناحية الشمالية من حلبا .

ذكرتنا تلك الجياد الجياع ، وهذه المزلقات الصخرية ، وذلك العدم المطلق بالادوار الآدمية ؛ وكنا منقبضى النفوس لما توقعناه من العسر والمشقة التى لا بد لنا من تكبدها .

مزقت يد الصبح خيوط الظلمة عن تلك الربى المتسلسلة ورأينا على هام ربوة « الشيخ محمد » كنيسة كأن بنيانها يبعث بابتسامات ملؤها التهكم والاستهزاء !

كنا نسير متوجهين نحو الشمال ، فى طريق محاذ لحلبا وربها . وبعد قليل غادرنا الطريق الموصل الى قرية « الحريبه » على يميننا ، ثم اجتزنا جدولاً صغيراً من فروع (نهر الحريبة) وهبطنا فى واد عميق . فتراءت قبالتنا من بعيد قرية « تل عباش » ثم اجتزنا نهر الحريبة وانهينا الوادى . هنالك قامت امامنا الجبال ، وكنا نريد ان نتسلق تلك الشوامخ ، ونسير الى حيث تطلع الشمس . وكانت عن يميننا بعد الوادى الجبال المتتابعة ، التى قامت امامنا والتفت حوالينا . اما وراءنا فكانت السهول والحقول السمراء التى يحسبها الانسان بحراً .

ثم بعد برهة تراءت عن يميننا من بعيد قرية « قته » . وكنا نجتاز ذروة صغيرة ، فرأينا امامنا قرية « حوشب » ، وعن يميننا من بعيد قرية « الريحانية » ، وعن شمالنا « قريتى » « سعدين » و « ديرين » . وما لبثنا مدة الا وانقلب طريقنا الى منحدر ، وقام فى جانبنا واديان ، ثم عنت لنا ذروة ارفع من الاولى فتسلقنا فيها . وهناك اشمخر امامنا عن اليمين « ظهر القضيب » من جبال لبنان بدراء المجللة بالثلوج ، فصغرت نفوسنا لدينا تجاه عظمة هذا الطود الشامخ . والآن تراءت حوالينا القرى التى لا تحصى .

كنا نودع عن يميننا قرية الريحانية التى كنت وراء الوادى ، وتشيعنا عن شمالنا قرية « الغزالية » التى ظهرت من وراء الوادى ايضاً . وهكذا توالى الصعود ، والهبوط ، والطرد المنتظر .

ثم انجلى لنا غرب يسارنا سهل المرج الذى يبدأ من الساحل ، ويتخلل بين سلسلة الربى ويفصل جبال لبنان عن جبال النصيرية .

الآن طريقنا، نقب في نحر تلك الصخور، وصدر هاتيك الجبال محفور بمعوله الاعوام، وواطئ الاقدام. وكنا نطوى تلك المسافة ونحن على ارتفاع عظيم عن سطح البحر. ولو لم يكن ذلك الهواء الطلق، فى اعالى تلك الذرى القرعاء، لما كان يطاق شعاع الشمس المتلهب فى ذلك اليوم التموزى.

نمر باصقاع لا حياة فيها، وكيف يمكن الزرع على صفائح الصخر. ومع ذلك فقد تفقد خلال الصخور، زرع بالذرة الصفراء، وهذه اوراقها العريضة الخضراء تسلق بذلك اللهيب التموزى. اما نحن فلا ندرى، هل كنا معذبين، ام غير ذلك؟ بيد ان الذباب ذلك البلاء الطنان الذى لا يدفع؛ ما كانت مناديلنا ولا ايدينا حتى ولا عصينا كافية لرد تسلطه، و لوقوف امام تياره. كنا نسير ونرى تلك الطيور التى دفعتها حاجة الارتزاق من انحاء لا نعلمها تتطاير حولنا. ونسمع اصواتها المفردة التى تترشح من ارواحها الساكنة. يا للسرور، ما اصفاها من رفاق. وان ادرى هل جاؤا فى هذا اليوم التموزى ليكونوا لنا رموزاً طبيعية؟

وبينما كنا نرى عن شمالنا قرية «شربيل» وراء الوادى، دخلنا قرية «تلال». عن غير علم، ولو لم نصلها على هذه الصورة الفجائية لكنا نتعب فكرتنا كثير بانتظارها. وكيف يمكن للانسان ان يخلص من الافتكار بين هذه التلال؟ ها نحن لم نزل على ظهور الخيل منذ اربع ساعات، وما كدنا نصل الى وجهتنا المقصودة. وتوالى علينا النسق من صعود، وذروة ثم هبوط، ثم تتعاقب تلك التلال ولا تنتهى، ونحن لانزال فى الطريق.

سرنا اكثر من ساعة تارة نصعد بخيولنا، واخرى نهبط والصخور اليابسة المذبة ما زالت تتوالى وتتعاقب. وعلى هذا النسق كانت القرى المطردة تذوب بين ذلك الضياء الاسمر المغبر، على اتم السكون.

وصلت الشمس الى نقطة الزوال، وترائت عن يمننا قرية «الدوسه» التركمانية وهذه كانت لنا نشوى ثمنة. وهنالك عطفنا عن الشرق الى الشمال وتركنا الوعر، واخذنا نمشى فى الحقول المحصودة. وسرنا تحت ظلال شجر الخرنوب الاسمر الذى رأيناه ملجاءً لكل روح وحياة. ثم لم نلبث ان رأينا انفسنا فى قرية سوداء محلولكة. وهذه هى «كواشره» قريه لتركمان.

٢ - ديار التركمن

كان دخولنا الى كواشره (*) فى هاجرة ذلك النهار التموزى المخنق، حدثاً غريباً

(*) يحتمل ان يكون هذا التعبير مأخوذاً من كلمة كوجر التركية الى معناها الانسان الراحل. وجمعت غلطا بجمع التكسير العربى.

وغير منتظر. ورأينا بضع غادات اسندن اكواعهن الى ركبهن؛ وجعلن وجوههن بين راحاتهن، قاعدات في ساحة البيادر المرتفعة، قريباً من اكوام سنابل القمح الذهبية يتربصن ان يرين بقراتهن يأتين على آخر ساق، وآخر حبة من الحشيش الذي يلتهمنه. ويتشوفن لان يحصلن على ارتشاف الماء العذب، من الجرار السوداء المحمولة بايدي الفتيان الذين لاحت اشباحهم من خلال القرية التي كانت تنفث الدخان من بيوت سوداء كانها كدس من الفحم الحجري.

ورأينا تحت ظل السنديانة الهرمة التي رافقت الدهور، وهي مركوزة كانها علامة للدلالة على تلك القرية السوداء؛ المطلة بتاجها المرتفع على تلك القرى الداجية، وعلى هاتيك الذرى المثلجة؛ حصيرةً كبيرة لا يرى لها لون كانها انتزعت من لهيب النار. متربع عليها شرطي التبغ «قولجي الرژي» مطمورة سحنته بالشعر لطول عهده بالحلاقة، وفي جانبه مأمور الضرائب «الويركو» السمين الذي انغمس في الوساخة، وفارسان من افراد الدرك الذين يتعقبون الفارين من الجندية. وهؤلاء من الزوار الدائمة في هذه القرية. ثم يقربهم بضعة شيوخ تركمانية، منحازين عنهم، قاعدين مقعد العبودية بثيابهم البالية وسحائفهم التي شوتها الشمس، واوداجهم الزرقاء، لو رأيتهم حسبتهم قديداً؛ ثم بضع عجائز ايضاً؛ يتربصون ما يتوقع ان يأتيهم من البلاء على ايدي هؤلاء الزائرين. مخلدين في تلك الهجيرة التموزية لا يحيرون كلاماً، كانهم حمامة مستنفرة لبدت في عشها.

تقربنا بجيادنا من ظل الشجرة، ولمحنا على تلك الصحائف السفع من الشيوخ خطوط الاضطراب تتوتر وتتسع، كانها دوائر في ماء ساكن رمي بحجر.

وكنا نرى غادات التركمان جافلات، ضربن بخمرهن على وجوههن، وتهيأن للهزيمة نحو القرية، والفتيان نكصوا على اعقابهم بجرارهم السوداء، واخذوا يسابقون الريح بالجري الى حيث اتوا.

ان دخولنا بغتة وامامنا دليل من فرسان الدرك، الى «كواشره» في هذا اليوم المحرق ارهب جميع اهل القرية، وارعب زوارهم ايضاً. وقد شعرنا بهذا الاستياء، ورأينا من الواجب ان نطمن قلوبهم. فافهمناهم اننا لم نأت لنتقاضى ضرائبهم، ولا لنقبض على فاريهم ولا لنأخذ منهم جعلاً، ولا جملاً ولا هدية ولا تبغاً ولا شيئاً؛ بل ان لنا وظيفة لا تريبهم ولا تؤذيهم. وما كادوا يعلمون بهذا الا وردت ارواحهم اليهم، وتبدل اصفرار وجوههم باحمرار، وابرقت تلك العيون بالبشرى بعد ما كادت تنطفي من الرعب.

ها هم يركضون شيوخاً وفتياناً، بكل ارتياح ومسرة؛ فهذا يأتي بسجادة وذاك بفراش، والغادات اقبلن يكرمننا بالوسائد والنمارق. ولم يخل الاحداث علينا بجرارهم السوداء.

كان لنا ظل هذه السنديانة الضافي روضةً وقيماً ؛ بعد تكبد الاتعاب بضع ساعات ، والانشواء بتلك الشمس المسعرة . ونصبت امامنا عجوز نشيطة علمنا منها انها ارملة الدهقان (المختار) الذي اغتالته المنية منذ سنة ، واخذت تتكلم بلغة تقرب من العربية تارة ، ومن التركية اخرى ، وتمعن في اعيننا لتقرأ ما تكنه صدورنا ، وتنظر الى افواهنا لتلتقط كلامنا فتفهم دخيلة الامر ، ثم تتقرب الينا فكنا نعجب من شأنها . ونقول :

— ما اذكى هذه المرأة ، وما انفذها ! ..

ولاسيما لما رأيناها تتقلد ادارة جميع القرية شعرنا نحوها بافتتان واعجاب زائد . ثم ازداد ميلنا اليها لرقة عواطفها ، وحسن اهتمامها بنا .

هدأ روع الغادات التركمانيــة . ثم عدن الى المثابرة على العمل واخذن يدرن وراء بقراتهن ، ويدرسن سنابل القمح الذهبي .

وهذه القرية ايضاً تلوح عن بعد بمنظر حجارتها السوداء كانها انقاض حريق تأوي اليها الغربان . وانها لتحتاج الى اقامة البراهين الناصعة لتبرهن على كونها موطناً لهؤلاء السقاة الناشطين ، ولتلك الغادات الآنسات ؛ ثم لهذه العجوز الذكية .

ومع هذا فان لهذه البقعة منظراً نضيراً . لان ذروة « الكواشرة » تطل على انحاء متناهية في البعد من الشمال والشرق والجنوب ، فترى الوديان الخضراء ، والجبال السمراء وتلك القرى التي لا تحصى .

كان لنا هذا الموقع العالي كمنبر سام نلتقط من فوقه الهامات الشعر ، وبدايع الخيال . وكنا نرى امامنا (العامرية) و « عين الزيت » من قرى العكاريين و « الدوسه » ، وعلى البعد « عيدمون » ثم على بعد شاحط « حالات » من قرى التركمان ، كل هــذه القرى كانت تلوح على البعد كانها اشباح ظلية تخط تخوم آفاق تلك الانحاء . وبعـد ان رشفنـا بانظارنا ما شئنا ان نرشف من رحيق هذه البدايع الطبيعية . التفتنا الى من حولنا ، وقلنا :

— ما اجمل منظر قريتكم !!

كان هذا الاستحسان ، وسيلة لاندفاق سيل من الكلام دهقت فيه صدور الحاضرين فهذا الشيخ الشاخص ببصره الينا ، وذلك الفتى القائم امامنا ينتظر امراً يخف الى انفاذه وذاك الحدث التركماني المبتسم ، كلهم يريدون ان يتكلموا :

— ان قريتنا جميلة . . . ، ولكن لا ماء فيها .

وبعد هذه المقدمة الوجيزة اندفعت الالسن تفصح لنا عن عطش القرية ، وقلة مائهـا . نعم لا يوجد في هذه القرية لا بئر ولا منبع . وتوجد خارجها عين تتحلب بماء قليـل لا يكاد يملئ الجرة الا ببضع ساعات . وتوجد قرى الامراء العكاريين التي اخذت نصيبها من الري ، قريبة من هذه القرية واهلوها يضنون ولو بقطرة من مائهـم على هؤلاء

المساكين التي احرق الظمأ قلوبهم . ولهذا السبب كان من الطبيعي لهذه القرية التركمانية البائسة ان تغرق في الحداد على هذا الاحتراق الفاحش .

ولا زلنا نعجب من هؤلاء الناس الذين اهمل امرهم كيف يستطيعون ان يحيوا في هذه القرية السوداء التي تتأجج من العطش . وسألنا منهم :

— منذ كم سنة وانتم في هذه الديار ؟

لا جرم ان سؤالنا هذا حرك عليهم اشجانهم واحزانهم . فكانوا يجاوبون وفكرتهم مشغولة . وكنا نصغي بصماخ ارواحنا ، الى تلك الاحاديث السوداء من هاتيك الارواح الكئيبة . ونريد ان نتحفهم بما يسلي افئدتهم :

— جاء اسلافنا مع عائلاتهم الى هذه الديار ، من انحاء جولان التابعة للقنيطره من اعمال الشام . وذلك قبل قرن ، او قرن ونصف . ونحن لا علم لنا بصدق هذه الرواية بيد ان العائلة التي تسمى « بيت الصوفي » في حمص هي من اقاربنا . فاولئك يعلمون من اين اتينا .

ثم اخذوا بعد هذه المقدمة الوجيزة ، يترجمون عن افكارهم بهكذا عبارات متقطعة دون ان يحتاجوا الى سؤال :

— نحن نعيش اليوم في هذه القرية التي ترونها ، وهي عبارة عن ستين بيتا وعددنا « ١٥٠—١٦٠ » نسمة . وقد كنا قبلاً اكثر من ذلك فذهب منا خمسون شاباً للقيام بالخدمة العسكرية . « والتركماني لا يهرب من الجندية » ولهذا لا تجدون عندنا هارب . وها نحن نسعى لزرع حقولنا التي تستوعب مقدار عشرين شنبلاً ، وننتظر عودة شباننا الينا . سألناهم بعد هذا الافصاح الوجيز :

— هل انتم مستريحون في قريتكم ؟

لعل سؤالنا هذا دعاهم للافتكار . لانهم سكتوا برهة . ونحن كنا نفتكر بهم هل هم مستريحون يا ترى ؟ هل هؤلاء الفقراء المساكين يرون انفسهم مستريحة بين هذه الحجارة السوداء لا يسيغون قطرة من ماء ، هل هم سعداء ؟ وكنا ننتظر جوابهم على مثل جمر الغضا .

ما لبثت ارملة الدهقان « المختار » ان فتحت عينيها كأنها هبت من سبات وقالت

— ما كنا نرى وجه الراحة من قبل ، اي قبل بضع سنين . وكان الامراء العكاريون يستخدموننا كما تشاء اهواؤهم . وكنا نضطر لاخفاء بناتنا منهم . ثم بادت تلك الايام . « واليوم يوم سلطاننا » . فلا يستطيع العكاريون ان يمسونا بسؤ . فالآن نحن مستريحون .

ان هذا الاعتراف الذي انبعث عن روح تركمان الكواشرة ، المعصومة الغافلة ذكرنا ببيتين للشاعر المرحوم توفيق فكرت :

«ايتان خلوق ! ازلی بر شقادر ، آلدانمق... »

ای : اعتقد یا خلوق ، ان الانخداع شقاء ازلی .

ثم هؤلاء من شعره ايضاً :

بوكون حياتی مسلسل بر احتياج سياه
بوكون سعادتی غافل بر اشتيــاق تباه
بوكون تنفسی یورغون قدید بر سوروآه
اولان بو جمعيت... »

ای : [هذه الجمعية التى حياتها عبارة عن سلسلة من الاحتياج الاسود ، وسعادتها فى الحنين الى الفناء بغفلة وانفاسها عبارة عن ثلة من الحسرات المنهوكة ...]

اليست هــذه من تلك الجمعيات التى دأب ذلك الشــاعر للافصاح عن حرمانهــا بعجز بيانه ؟

ها قد اتضح لنا ان لهؤلاء القرويين البعيدين عن كل نور ومدنية ، حاجات لا تعد . فهل تنصف الاقدار يا ترى فتسعد هؤلاء التعساء المحكومين بالتناقص على كر الايام ، فى هذه القرية المقفرة ؟

من العبث ، نعم من العبث ان نرتاد الراحة والسكون عند اولئك الاجسام العضويــة الذين هم اوهى وايبس من القديد .

كنا ننظر بتألم الى سحنتهم التى لا نعلم كم مرة سفعتها الشمس ، ثم الى قريتهم التى كانت كقطعة من الليل البهيم ، ونمعن فى الافتكار .

لم يطل الامر حتى اقبل علينا شيخ فى زناره دواة من نحاس ، معمم بعمامة منقوشة ؛ وهو امام القرية . ثم اسند ظهره الى جذع الشجرة الهرمة ووضع يمينه على صدغه وصاح بصوت راجف من فوق هذه المنارة التى تطل على الاصقاع البعيدة «الله اكبر» . وكــان التركمان حوله يصغون الى هذا الاذان المحمدى بخشوع وخضوع عميــق ، وبعضاً يقولون «الله يموتنا على دين الاسلام ... » . ويدأبون ان ينسوا بهذه النقرات هجيرة هــذا اليوم التموزى ، والحياة ، وحتى كل شئ .

وبها قد غسلت الارواح بكوثر السعادة الذى افاضته على القلوب صلاة الظهر فى جماعة وجيزة تحت تلك الشجرة الوردية .

كان النسيم يتروح من بعيد فيفتح علينا من روحه شبة ملؤها الانس ، وكان كملاك قدسى يلمس وجوهنا بريش من حرير . وكنا حينئذ نتجاذب اطراف الحديث مع هؤلاء القوم الذين صرنا اصدقاء لارواحهم الطاهرة الخالصة . وهم قد استأنسوا بنا ايضا . وبالغوا

من الاستيناس بنا لدرجة ، لم يروا بأساً باطلاعنا على عاداتهم فى الزواج ، بل كانوا يقصون علينا قصصهم بلهجة تركمانية ممزوجة بالعربية ويقولون :

— يطلب المختار البنت ، ثم يوكلون من يقرر على المهر ، فيبين المهر ويدفعون الـنقود وبعد القبض يعقد العقد . ويحضر فى هذا العقد جميع نسوة القرية ، ثم تذبح الذبيحة ويهيء الطعام ويجرى العرس . ويوقدون فى العرس مصباحاً ، ثم يزينون العروس ويرقصون ويهلهلون ثم يكون الزفاف .

ان هذا التعريف الموجز لاعراس التركمان كانت قيمته من حيث تعبيرهم عن افكارهم ومقاصدهم ، واطلاعنا على لهجتهم الحالية ولغتهم اكبر من ايضاحه كيفية العرس . ثم اردنا ان نستطلع على اغانيهم بهذه الفرصة . فسالناهم :

— هل تتغنون بالاغانى التركية فى اعراسكم ؟

فتبسموا باستغراب وقالوا .

— كيف يكون الغناء التركى فى ديار عربيـة ؟ اننا نتغنى بالغنـاء العربى على عزف الزمور .

ثم قالوا :

اذا تغنى احد امامنا فاننا نفهم :

ثم ابتسموا ، وتجلت عين الابتسامة على صحيفة الغادات اللاتى كن فى فجوة منا . ولم نرد ان نحرجهم اكثر من ذلك . وقد كاد يمر الميعاد الذى ضربناه : وآنست تلك المرأة الذكية اننا نحتفز لنستأذنهم بالفراق فقالت :

— عى ر.الكم ، الى اين تذهبون الآن ، انى اخاف ان تلفحكم الشمس فى الطريق .

ولما ثبتنا على قرارنا نهض الجميع قائمين وكان بعضهم يطير الى اعداد الخيـل ، والبعض قائم يرمقنا بنظراته الحزينة . ثم رمقنا هؤلاء المساكين الذين اضاعوا لغتهم بنظرة رحيمة وداعية ، وسرنا واخلينا الجو الى شرطى التبغ ، ومأمور التحصيل السمـين ، ثم الى افراد الدرك الذين ما زالوا ينظرون الينا نظر الاستكناه ولم يتيسر لهم ادراك المعنى منا .

٣ — من كراشره الى تلكلخ

لما غادرنا مجارة الكواشرة البرتكانية ، كان بيننا وبين الغروب مقدار اربع ساعات . ولا نتمكن فى هذه المدة من ان نمر على قرية (عيدمون) التركمانية ، ثم نذهب الى تلكلخ . ولهـذا رأينا ان ندير مباشرة الى تلكلخ ، ومسحنا بيدنا سطراً آخر من جدول سياحتنـا الذى اجمعنا على العمل به .

ها نحن نطوى المسافات في تلك الصخور الصلداء ، ونتبع الشيخ التركماني الذي ارتاح ليكون دليلنا في الطريق ، واختار لنفسه هذه المشقة .

وبعد مدة لاح لنا عن بعد « دير المنجز » وهو عبارة عن بيتين مستورين بالقرميد . وعلى ما فهمنا ان هذا البناء لم يهيء ليكون معبداً حقيقياً ، بل هو ملجأ اسس ليأوى اليه الذين يتحرون على الآثار القديمة. ثم ترائت على جانب هذا الدير قرية « الدبابية الشرقية » وورائها قرية « حذير » وعن شمالنا على البعد قرية « الدبابية الغربية » ثم امامنا من بعيد قرية « حالات » وقصبة تلكلخ هي وراء تلك الهضبة . فاذا هبطنا في هذا الوادي وتساقنا الجبل ، نصل الى وجهتنا المقصودة . ولكن ما اشكل هذا ، اخطره علينا ؟

انحدرنا في سفح تفنف [١] ودخلنا قرية « الدبابية الغربية » ، وكان امامنا منحدر آخر ، ثم الاجتياز من النهر الكبير الذى سماه الاقدمون *Eleutherus* . وهاقد استطعنا احتياز النهر الكبير . ولكن تجرعنا من المشقة والالم ما لا يخطر على بال . وكنا نطوى الطريق منهوكي القوى ، ونفكر في الكتاب الاجانب الذين انتخبوا للتجوال اسهل واجمل وآنس المواقع السورية وحرروا مؤلفاتهم . وكنا نقول :

— هل مروا بهذه الوعثاء الصخرية يا ترى ؟

ونتحرى هديةً تليق بهم لتتحفهم بها . ولا اكتم انني لا يخطر لي مكان اعظم واجل من هذا الوادي . بالرغم من منعته وصعوبته . ماء رقراق يتسلسل من تلك الشواهق التي شمخت الى السحاب ، ويسيل فوق تلك الصخور المرمرية البيضاء وضفاف النهر مزدانة بالاشجار المزهرة ، التي املئت طيات النسيم نكهة عطرة انتشرت في جميع تلك الانحاء .

كنا نخوض بجيادنا في الماء ورفقاؤنا منغمسين فيه الى صدورهم ، يعالجون ان يصلوا الى الضفة الاخرى . ثم لم نلبث ان دخلنا في غابة كانها من غابات الهند مرعبة ، ومررنا بين تلك الاشجار المزهرة الكثيفة وغصونها لا تزال تخمش وجوهنا . وهنا انتهت حدود قضاء عكار .

ثم بعد برهة قليلة وصلنا الى قرية مهجورة تسمى « عيون » من اعمال قضاء (حصن الاكراد) وكانت مداخنها منهدمةً وسطوحها متدنيةً وهي بالتعبير الاوضح كومة من احجار مظلمة . وفيها شيخ قروي وبنات وكانوا هم سكان هذه القرية فسألناهم عن شأنهم ، فخطت نحونا غادة سمراء تشبه الارجوان بلباسها الاحمر ، وقالت بصوت اغن :

— ماتت بعض رجالنا ، ودخل بعضهم الجندية ، والنساء تركن هذه القرية ، والآن لم

---

[١] صقع الجبل الذي كانه حائط مبني مستو :

يبق فيها الا نحن .
ثم وضعت المنديل على وجهها واجهشت فى البكاء . وقد علمنا ان هذه القرية النصرانية كانت من اغنى القرى قبل الحرب . ثم اقبلنا نسير الى الجهة التى اومت اليها باصبعها التى لمعت فى ضياء الشمس واطلعتنا على انها مرطبة بالدمع . وتسلمقنا صعدة اخرى ، ولم يتيسر لنا ان نرى انتهاء هذا الطريق ولم تزل الهضاب تتوالى بعناد مفرط . وبالنهاية تراءت لنا بضع اشجار كبيرة على ذروة الجبل ، وبهذا نالت انظارنا بشرى السعادة بالوصول الى اقصى العمران . وبعد مدة لاحت لنا قرية محلولكة (حالار) فى الناحية الغربية من الاشجار ، وهذه الانحاء ايضا كانت تساثر الاصقاع تتركب من الاحجار البركانية السوداء .
قطعنا هذه القرية بقليل ، ورأينا امامنا وادياً فاعترتنا الحيرة والدهشة . لاننا مضطرون لان نقطع هذا الوادى ، ثم نستطيع الوصول الى « تلكلخ » . ولكن لم يكن ظننا مصيباً ، فقد قطعنا الوادى . والهضبة ايضا ولم نر لهذه العقبة اثراً . وبعد منحدر يسير وصلنا الى قرية (مخيبه) وهى قرية سوداء مبعثرة . وهنالك حل العشى ، واخذت الشمس فى الغروب .
هذه اسراب الغنم ترجع لمرابضها ، وتهمم باصواتها لتنيم تلك السهول المقفرة ، والجبال الرهيبة .
ثم بعد واد ، ومسافة يسيرة ، من الصخر ، وصلنا الى سهل مستو ، فيه ركام الحجارة السوداء ، بينها بضعة بيوت قرميديه . وهذه كانت تلكلخ التى مازلنا منذ الصباح ونحن نزجى مطينا اليها .

— ٨ —

حصن الاكراد

١ — موقع القضاء وحدوده و عوارضه الطبيعية

ان هذا القضاء كائن فى الشمال الشرقى من قضاء مركز طرابلس الشام ويحده من الشمال والشرق قضاء حمص ، ومن الجنوب قضاء عكار ، ومن الغرب قضاء صافيتا .
وان الانحاء الشرقية والشمالية والجنوبية من هذا القضاء عبارة عن اصقاع جبلية ، وليس فيه سهل الا قسم « البقيعة » المشهور .
وان اعلى نقطة فى هذا القضاء هو جبل (الصبح) الذى يبلغ ارتفاعه (٥٥٠) متراً .



حصن الاكراد

ونبع الناصرية ، ونبع فريشلو ، ونبع عين فراش » هي جداول تمر على الارض المنبتة فتسقيها ثم تصب على النهر الكبير . ولم ير هذا القضاء ثلجاً منذ سنة (١٣٢٩) ، وتصعد الحرارة فيه ايام الصيف الى (٣٢) درجة . والحرارة الوسطى في موسم الشتاء هي (٦—٨) درجات .

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ان مساحة هذا القضاء تخمن بمقدار (٥١٣) كيلومتراً مربعاً . اما عدد سكانه فكان سنة (١٣٣٢) ، (٢٩٧٠١) نسمة منها (١٦٤٢٣) من المسلمين و (١٢١٧٦) من الروم الاورتودوكس و(٧٨٠) من المارونيين و(١٧٨) من البروتستانت ثم(١٤٤)من الكاثوليك. ومجموع الولادات في هذا القضاء سنة (١٣٢٧و٢٩و٣٢) كان (٥٩٣) نسمة وعدد الوفيات (٣٠٢) من النسمات.

٣ — احوال القضاء العمومية

يتألف هذا القضاء من (١٧٦) قرية منقسمة بصورة غير رسمية الى نواح « الشعرا ووادي النصارى وجبل الحلو والوعر » . واشهر القصبات والقرى في هذا القضاء من حيث كثرة النفوس هي « تلكلخ » في ناحية الشعرا و« مرمريته » في وادي النصارى و« شين » في جبل الحلو « والحديده » في ناحية الوعر . ويوجد في كل من هذه القرى بالحساب المتوسط (٥٠٠) نسمة . بيد ان سكان قرية « شين » التي يقطنها النصيريون يبلغ عددهم(١٥٠٠ — ٢٠٠٠) نسمة . وتوجد في كل من « تلكلخ وقلعة الحصن وحالات ومشتى حمود واشين وزارا ومشتى حسن » مدرسة ابتدائية . والمدرسة الابتدائية و[illegible] القضاء التي تتألف من ستة صفوف ، موجودة في منزل ما فيه الا حجرة واحدة ورغماً عن هذا فان لها ستة من المعلمين اثنان من هؤلاء متخرجون في دار المعلمين ولكن الحال عينه انهم لا يرجحون من حيث الاقتدار والسعي والاهتمام على رفقائهم المحرومين من كل همة ونشاط وتوجد مدرسة للاناث فيها زهاء من ثلاثين طالبة . ويروى ان [illegible] الوحيدة وهي مسلمة تحسن اللغة الانكليزية لا باس باقتدارها العلمي . لا رغبة [illegible] كافة المدارس القروية . وللنصارى مدرسة ابتدائية في قرية مرمريتة يوجد فيها [illegible]٥٠) تلميذاً . وقد اسس الروسيون قبل اشتعال الحرب مدرسة في قرية « [illegible] » اما الآن فهي معطلة كامثالها من المدارس الاجنبية .

٤ — الاحوال الزراعية في القضاء

ان ثلثي الاراضي الصالحة للزرع هي في ايدي اسرة « الدندشلي » ، ثم ما بقي فهو في ايدي النصارى والنصيريين . ومجموع الغلال السنوية في هذا القضاء هو على ما يأتي :

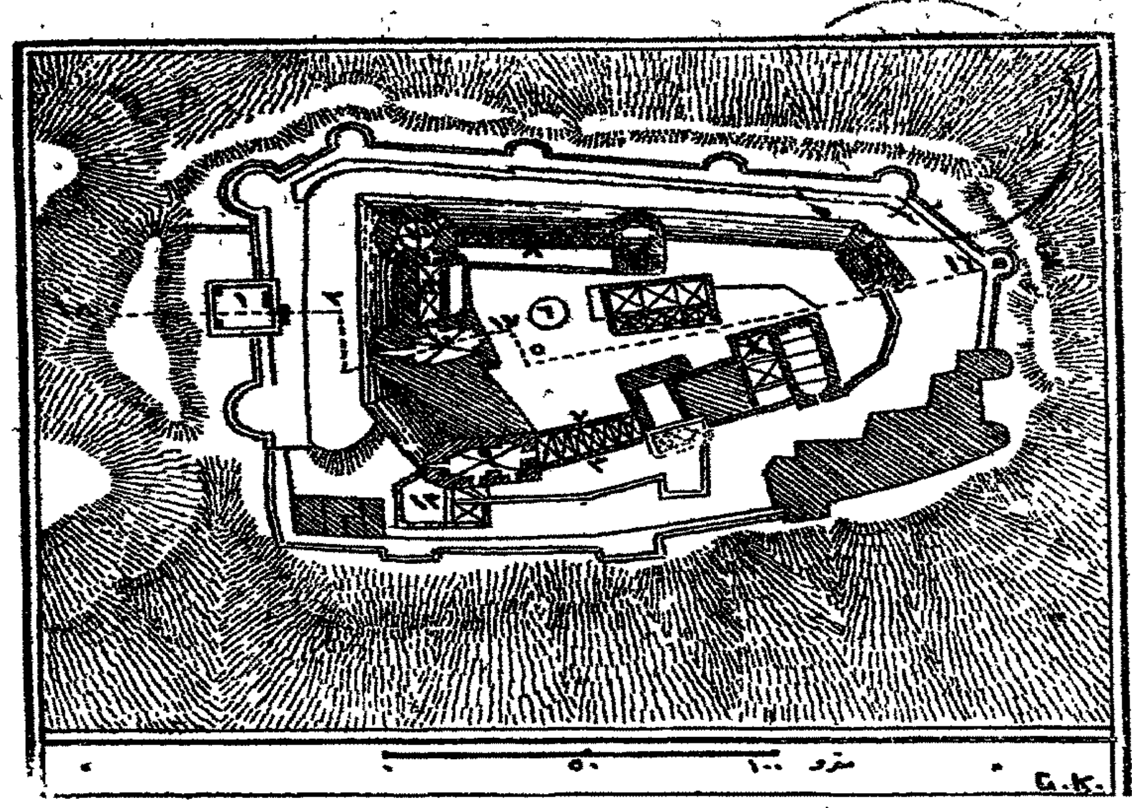
جنس الغلال	الاراضي المزروعة	مقدار الغلال
القمح	٧٠،٠٠٠	٩٤٠،٠٠٠
الشعير	٢٠،٠٠٠	١٤٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٤٠،٠٠٠	١٢٠،٠٠٠
الذرة الصفراء	٢٥،٠٠٠	١٢٥،٠٠٠
الحمص	١٠٠٠	٦٠٠٠
الفول	٥٠٠	٤،٠٠٠
السمسم	١٠٠٠	٢،٠٠٠
العدس	٧٠٠٠	١٤٠٠٠٠
الجلبان	١٤،٠٠٠	٣٠،٠٠٠
اشجار الزيتون	٤٠،٠٠٠ عدد	٢٠٠،٠٠٠ كيلو غرام
الكروم	١٢٣٨٠	٢٠٠٠،٠٠٠ عنب
		٨٨،٠٠٠ عرق
الشرانق		١٨٠٠٠٠

اما تجارة القضاء فهي تنحصر بالحبوب ، والحرير والزيتون ، ثم بنسيج السجاد في قرية (زارا) . وينعقد سوق سنوي في قلعة الحصن في (٢٠) نيسان ، وفي جانب دير الخضر في (١٥ ايلول) ويقصدها القرويون فيشترون حوائجهم او يتبادلون . وان السكة الحديدية من طرابلس الشام الى حمص تقطع هذا القضاء الى امتداده . وسيكون للسكان من هذا الخط اعظم النفع .

٥ — الآثار القديمة في القضاء

ان قلعة حصن الاكراد التي تبعد مسافة ساعتين من قصبة تلكلخ ، الكائنة في جانب سهل « البقيعة » ، كانت تعرف عند الصليبيين باسم (*Krak de Chevaliers*) (*) .

(*) ظهر لدى البحث الحديث ان قلعة حصن الاكراد كانت موجودة في القرون الاولى وكان اسمها (شبتون) او (ستته) ويروى ان قد بني هذا الحصن في ايام السلالة الثامنة عشر من الفراعنة واصلحه رعمسيس الثاني وسماه « مارياموس » وبقي هذا الاسم الى بعد وفاة الاسكندر الكبير . وعليه لا يكون عمل الصليبيين في هذه القلعة الا عبارة عن تبديل شكلها فقط .



خريطة قلعة حصن الاكراد

برج مربع، ٢ الخندق ؛ ٣ المدخل؛ ٤ الدهليز المسقوف ، والكنيسة ، والبهو الكبير ؛ ٥ الصحن الفوقانى ؛ ٦ الساحة ؛ ٧ المشتملات ؛ ٨ الدهليز ذو النافذات ؛ ٩ ؛ ١٠ ؛ ١١ ؛ البرج ؛ ١٢ غرفة معدة للدفاع ؛ ١٣ بناء مقرض ؛ ١٤ برج ؛ ١٥ برج بشكل مستطيل غير منتظم ؛ ١٦ برج صغير ؛ ١٧ باب كان يدخل منه الحفر

وقد جاء فى كتاب برق الشام لمؤلفه ابن شداد المؤرخ العربى . ان والى حمص « شبل الدوله نصر ابن مرداس » ارسل سنة (٤٢٤) هجرية فرقة من الأكراد لاجل القيام بالدفاع عن هذه القلعة ولذلك اضيف اسمها لاولئك المدافعين . وكانت تعرف قبل هذه الحادثة باسم قلعة الصفح . وفى سنة (١١٠٢) حاصرها قونت سن جيل ، واكتفى بحصارها ولكن بعد ثمانى سنين هجم عليها طانقرهد حاكم انطاكية بشدة وتوفق لتسخيرها . وفى سنة ١٢٤٥ اقطعها ريمون حاكم طرابلس الى فرسان هوسپيتاليه . ثم حوصرت فى ايام نور الدين حاكم حلب ، وصلاح الدين الايوبى بطل حطين ولكن لم يتيسر لهما فتحها . ولم تذكر هذه القلعة فى نص المعاهدة التى عقدت بين الملك الكامل وفردريق الامبراطور الثانى .

وفى العصر الثالث عشر للميلاد توجهت انظار مسلمى حما الى هذا الحصن ولكن لم يتيسر فتحه الا للسلطان بيبرس فى ٨ نيسان سنة (١٢٧١) وذلك بمعونة الملك المنصور صاحب حما وسيف الدين امير صهيون ونجم الدين رئيس الاسماعيليين . وقد اذن لفرسان هذا الحصن ان يخرجوا منه سالمين ، بشرط انجلائهم عن سورية وعودتهم الى بلادهم .

وهذه القلعة احتفظت الا قليلاً بهيئتها التى كانت عليها فى زمن الصليبيين وحصن مسور بخندق يمكن املاؤه بالماء اذا اوجب الامر ، ومحاط بسورين ايضاً . فالسور الاول اعلى من الثانى وفيه بروج متعددة . ويدخل الى القلعة من باب مطل على الغرب وا لكتابة التى نقشها الملك الظاهر مكتوبة بعينها فى الصحيفة « ١٦٦ » من هذا الكتاب . والدهليز الذى يبدأ من الباب الخارجى ينقسم الى قسمين ، فالقسم الاول يوصل الى بروج السور الاول ، والثانى الى الاستحكام الصغير . وهذا الدهليز الذى بنى بدون قبة ينعطف عند انتهاء السور الاول الى غير وجهته . ويتصل بدهليز آخر . ومنه يمر على السور الثانى ويدخل الى القسم العلوى من الحصن ، والدهليز الذى وضع عليه رقم (٤) على يمين الرسم هو المدخل الذى يصل الى الكنيسة ، وطول هذا المعبد ٢١ وعرضه ٤،٤٠ متراً .

وفى الطرف الآخر من ساحة الحصن الكبيرة تجاه الكنيسة ، يوجد بهو لطيف يحتمل ان يكون من آثار العصر الثالث عشر ، وطوله (٢٥) متراً وعرضه (٧) مترات والحنايا التى بنيت على الطراز القوتى مركوزة على تيجان العواميد المزينة بالاوراق النباتية وبالصور المخيلة . ويوجد على جانب الرواق امام مدخل البهو شعر باللغة اللاتينية من القرن الثالث عشر ايضاً ، ثم فى الجهة الشمالية منه توجد نقاض كان منازها يستعمل كالاصطبل . ويبتدأ من هناك سلم يصعد الى السطح الاعلى وتحت هذا السلم كان مخزناً ، اما البروج الموجودة فى منتهى الجنوب من الحصن ، هى من امتن اقسام الحصار وهذه البروج مقسومة لعدة طبقات وخصص منها لوضع الذخائر والمهمات ، واسكان

العساكر طبقات مختلفة .

ثم يوجد بين البرج الاول والثانى بنيان ، يفهم من نسق انشائه انه كان معدا لوضع الآلات الحربية الجسيمة . اما البنيان ذو الزوايا الخمس الذى اشير اليه برقم (١٢) فمن المحقق انه بنى بعد الحصن ، والحق به .

٦ — موقع تلكلخ ومنظرها وخطوطها الداخلية

ان قصبة (تل — كلخ) ، مركز قضاء حصن الاكراد التابع للواء طرابلس الشام هى — كما يفهم من مدلولها اللفظى — مبنية فى ساحة مستوية قفراء فى السفح الشمالى من هضبة جرداء خالية من الشجر . وتوجد فى هذه الهضبة جنوباً من القصبة قرية « برج الدنادسة » ، وراء عين الهضبة توجد قرية « عين الحرامية » . ويوجد فى الجانب الشرقى من هذه القصبة ، الطريق الذى يبدأ من طرابلس ويمتد الى حمص ، ثم وراءه قرية (مجدحلى) وعلى غلوة منها قرية (قنوته) فى جانب المنبع المسمى بعين الجرد وفى الجهة الشمالية بعد قليل من السهل ، يوجد واد يفيض فى الشتاء ، وفى جانبه هضبة صغيرة تدعى « تل الشمالى » ، ثم فى الجهة الغربية منها توجد فسحة مستوية وبعدها « عين المضاربة » وعلى غلوة منها مجرى الوادى الذى يفيض فى الشتاء . وعليه فان القصبة عبارة عن سطح مستو محاط من جهاتها بهضاب متقاربة و متباعدة .

ولهذا السبب كانت انحاء القصبة من حيث المنظر كصحيفة ترابية كبيرة ملونة بلون بنى قاتم ، نثر فى انحائها مقدار مائة من البيوت جاءت عفواً على شكل ركام من صغير الحجر الاسود ، اما داخل القصبة فهو كخربة محروقة او كساحة اعدت لمرض الفحم الحجرى وقصارى القول ان الاسود والاغبر من الالوان لها فى تلكلخ امتزاج ينقبض له الفؤاد ، ويدع الفكر يغرق فى ظلمات من الخواطر .

هى صبرة ركام ، او رداء حالك ، او ليل دجوجى ، او سحابة سوداء ، او حشرة كبيرة سوداء قائمة على مائة رجل .

و لو لم يكن فيها بضع منازل بالقرميد الاحمر ، والجامع الابيض لاشبهت هذه القصبة الجرداء المحرومة من الالوان . اشياء كثيرة منغمسة فى هذا اللون الحدادى .

على ان الهضبة الكائنة فى الجانب الجنوبى من القصبة هى بمثابة شاطئ لبحر هذه

---

(١) تلكلخ — تقرأ بفتح التاء وسكون اللام ، ثم بفتح الكاف واللام وسكون الخاء . فالتل معناه الهضبة وكلمة (الكلخ) معناها العربانة . فيكون معنى التركيب « الهضبة الجرداء » ويروى ان الكلخ ضرب من الشجر كان مغروساً فى تلك الهضبة . واليه اضيف الاسم والاقوى صدق التعليل الاول .

الظلمات فعلى من رام ان يتملص بفكره ونظره من تلك الظلمة الداخلية ان يقصد هاتيك الربوة . ولابد لمن يرتقى الى هام تلك الذروة ويشاهد بدايع الطبيعة المحيطة ، ان ينشى سواد وجه تلكلخ الممسوخة ، ويعتاض عن ذلك الليل البهيم ، بانوار صبح بهيج .

ثم ان منظر هذه الربوة الذى لاينكسر على ابعاده خط البصر ، هو جدير ان يرى . واول خط فى هذه الساحة البديعة تخطه قرية « باروحه » بمنازلها البيضاء التى تبتسم بوجه الناظر ، ثم يتبعها فضاء اسمر ، وبعده هضبة « القلعة » ثم فوقها « قلعة الحصن » الشهيرة ، تلوح كالظل القاتم . ثم فى الجانب الايمن تتراآى منازل قرية « مجته » عن بعد ، ثم تشاهد بعيداً عنها شواهق جبال لبنان مستورةً بالثلج الابيض ومن جهة اليسار سفوح الربى المتسلسلة السمراء ، او القاتمة ، ثم فى عين الجهة قلعة « برج زاره » البيضاء وبعدها قرية « الحجر الابيض » ووراءها فوق الجبال العالية « برج صافيتا » يلوح بعظمة ، وسموه وبهذه المناظر الجاذبة ، وبما تبعثه على القلب من التسلية يمكن ستر اقفار تلكلخ ، واخفاء سحنتها البقعاء القاتمة التى تنقبض من منظرها النفوس .

ان هذه القصبة — رغماً عن صغر حجمها — لم تنظم بعد فترون اكواماً من حجارة سود ، ثم بضعة منازل قيرميدية ، فى جانبها الشرقى بضع خيام من شعر لعرب البدو مجللة بحصائر سود ، وبضع كومات من الحجارة سميت حوانيت وهى من عدم الانتظام فى درجة يظنها الانسان كانت فى قبضة ثم حذف بها على هذا السهل وبقى كل منها فى محل سقوطه . فاختلطت الطرق والساحات والبساتين ، والابنية وصارت ساحتها كراس الزنجى مجمعا للاخلاط . وتحتاج فى تنسيقها وتنظيمها الى آله قوى متين ، او الى مشط من حديد فى قبضة هكذا قوة .

٧ — الاحوال العمومية فى تلكلخ

كان مركز القضاء من قبل فى « قلعة الحصن » الكائنة على ٤٥ و ٣٤ درجة من العرض الشمالى وفى ٥٦و٣٣ درجة من الطول الشرقى والبعيدة عن طرابلس بمسافة (١٢) ساعة . ثم نقلت الحكومة هذا المركز قبل بضع سنين الى تلكلخ الكائنة على الخط الحديدى من طرابلس الى حمص .

وعدد سكان هذه القرية ذكوراً واناثاً (٩٤٩) نسمة ، وكلهم مسلمون ولا تختلف فى المنظر عن بقية القرى . وقد اسست فيها اليوم دائرة للبلدية وكان دخلها سنة (٣٣٢) ، (٤٧٩٤١) غرشاً وخرجها (٤٦٢٠٣) وبما ان دخل بلدية قصبة جنين (١٦٤٥٨) ، ودخل قصبة الجديدة ، مركز قضاء مرسيون (٣٤٨٥) غرشاً ، فتكون ميزانية تلكلخ بمقدارها هذا جديرة بالنظر .

اما قصبة الحصن فان عدد سكانها يربو على ستة آلاف ، وهى كائنة فى جانب القلعة المسماة باسمها . وكانت فى القرون الوسطى على جانب عظيم من الخطورة . وهى محاطة بسور متين له بابان ببروج الواحد فى الجهة الشرقية . والثانى فى الجهة الغربية ، ولهذه القصبة جامعان . بنى اعظمهما الملك الناصر . ويوجد فى القلعة جدث الامير صارم الدين الكفروري الذى كان اول وال فى هذه القلعة بعد مافتحها المسلمون . ثم قريب منه جدث الامير نور الدين ، والامير بهاء الدين من اصحاب السلطان بيبرس .

٨ — الاحوال الاجتماعية

[١]— الحيات الاجتماعية فى تلكلخ — لاقيمة اجتماعية ولا مزية تاريخية لهذه القصبة الا انها قرية صغيرة فيها مأة مسكن ؛قائمة على سكة طرابلس — حمص الحديدية . ولهذا لاسبيل لها ان تمثل قضاء « حصن الاكراد » وتكون مركزاً له .

لاسيما وان مائتين من سكان هذه القصبة التى لايتجاوز عدد سكانها (٣٠٠) نسمةهم من اسرة « الدندشلى » بالتعبير التركمانى ، او « الدنادشة » بالتعبير العربى الذى خلقته الاستحالة الثانية فى هذا الاسم ، ثم من الزنج ، واما مابقى منهم فهم من البدويين ، او النصيريين الذين هم من حواشى الدنادشة واتباعهم . فاذا اطلعنا على هذه الحقيقة نعلم ان تلكلخ لاتكون معكساً تاماً لاجتماعيات القضاء البتة .

وسيمر بنا اثناء البحث عن الاحوال الاجتماعية فى القضاء انه يوجد افراد من هذه الاسرة فى انحاء القضاء ، ولكن بما ان البقعة التى قطنها هؤلاء القوم منذ القدم ، او بالتعبير الاوضح ، مركزهم الطبيعى المسمى « برج الدنادشة » كائن على ربوة فى الجهة الجنوبية من تلكلخ ، يكون البحث عن احوالهم فى هذا الفصل ضرورياً .

يزعم الدنادشة (*) ان جدهم هاجر من اليمن قبل ثلاثة قرون ، ولبث مدة فى حوران ثم جاء الى هذا المكان المسمى « برج الدنادشة » وان بعضهم يوغل فى امر نسبهم ويدعى انهم من اخلاف الحميريين . والقول الحق ، هو انه كان لهؤلاء المهاجرين رئيس يسمى « الشيخ اسماعيل » وكان يزين سرج جواده بهداب (**) فسماه جيرانه التركمان «دندشلى» وسموا ذويه باسم «دندشليلر» اضافة لصفته ثم عرب الجمع فكان «دنادشة» وهو اسمهم منذ قرون.

وبعد ان اتوا لهذا المكان ، رجع احد اخوة الرئيس « الشيخ اسماعيل » مع قسم من العشيرة الى انحاء حوران واقام فيها . واخلافهم اليوم تدعى هناك باسم « الفحيليين »

(*) راجع « الرحلة الشامية » تأليف محمد على باشا شقيق عباس حلمى باشا خديوى مصر
(**) دندش، دناتش : هدابة، هداب

اما الدنادشة المقيمون اليوم فى تلكلخ ، فيقرب عددهم من مائتين وكلهم مسلمون وسنيون . وجميعهم يشتغلون بالزراعة فى هذا القضاء . ودخلهم السنوى عظيم جداً . ويوجد بينهم من يبلغ دخله السنوى الى « ٥٠٠٠ » ليرة ، واقلهم غناء لا يقل دخله عن « ٢٠٠ » ليرة فى السنة . ولهذا يمكننا ان نعتبر قصبة تلكلخ بمثابة مستعمرة لتلك الاسرة الغنية . وتنحصر هناك السلطة والقدرة وكل شئ فى تلك القوة المنفردة . ثم ما بقى من السكان وهم ثلاثون او اربعون نسمة ينتمون الى الاسرة « الزعبية » وسنتكلم عن هذه الاسرة فى المبحث الخاص .

اما البدو من سكان هذه القصبة فهم بالمعنى الكامل خدام للدنادشة ، ولهذا لا يمكن ان تكون لهم قيمة اجتماعية . والنصيريون ايضاً مثلهم . ولا نرى حاجة للافصاح عن عبودية هؤلاء المتحركين بارادة اولئك الاغوات [*] المسيطرين ولا مقام لاولئك البدويين الرحالة ، ولا للنصريين الفقراء فى تلكلخ اذا لم يرض عنهم اسيادهم . ولهذا فالحياة فى تلكلخ هى حياة الدنادشة فقط . وسنتكلم عن هذه النقطة اثناء البحث عن الاحوال الاجتماعية فى القضاء .

[٢] — *الحياة الاجتماعية فى حصن الاكراد* — يمكننا ان نقسم سكان هذا القضاء الذين يبلغ عددهم الى (٣٠٠٠٠) نسمة . الى طائفتين كبيرتين ، الطائفة الاسلامية والطائفة المسيحية .

ان عدد المسلمين فى هذا القضاء — ان صدقت القيود الرسمية — يشمل ثلثى مجموع السكان ، ومن الخطاء الظن بهذا الجمع الذى يبلغ بعدده زهاء (٢٠،٠٠٠) نسمة ، انه متجانس . لان من هؤلاء (٢٠٠٠—٣٠٠٠) سنيون ، والباقون كلهم نصيريون . ثم يفترق السنيون الى « دنادشة » و « زعبية » و « تركمان » . وعشيرة « الدنادشة » التى بحثنا آنفاً عن منشائها واصلها تضم قريباً من (١٥٠٠) نسمة من ذكور واناث . وهم منتشرون فى الانحاء الشرقية والجنوبية والغربية من هذا القضاء ، واكثرهم فى الجهة الجنوبية . واهم القرى التى يسكنونها هى « تلكلخ » و « مجته حسن » و « مجته حمود » وكلهم يشتغلون بالزراعة ويزعم القرويون « ان هؤلاء متصفون بالسلطة والتغلب ولا يزالون يغصبون اموال القرويين واملاكهم ويشددون الظلم عليهم . وربما يضربونهم ويهينونهم ، ويسخرونهم باشغالهم قسراً وبلا اجرة » .

ولهذا لا يعثر على فقير بين افراد هذه الاسرة . وليس بينهم من ينقص دخله السنوى عن مائة ليرة الامائة شخص . ثم (٥٠٠) منهم لا يقل دخلهم عن (٥٠٠) ليرة ، وخمسون

---

[*] جرت العادة باضافه لفظ « آغا » الى اسماء الدنادشة . ويطلق على بعضهم (بك) ايضاً

منهم لا يقل دخلهم عن (١٠٠٠) ليرة وواحد منهم فقط له مقدار (٥٠٠٠) ليرة من الدخل فى كل سنة

ومن الواجب ان نعترف لهؤلاء الاغوات بسخائهم وكرمهم كما يروى عنهم ، ولهذا السبب لا تزيد ثروة القضاء عن خمسين الف ليرة بالرغم عن كثرة الاغنياء فيه . فاذا فكرنا بماهية هذا المبلغ نحكم ضرورة بان ليس عند الدنادشة امساك ولا بخل .

وهكذا فان لهؤلاء الاغوات منازل فخمة ، فيها اثاث ثمين . ثم ان انشغافهم باظهار آثار النعم والثراء بمعيشتهم ولباسهم اكسبهم فى الخارج شكلاً زاهيا . وسنرى فى الابحاث الآتية ان انهماك هؤلاء بحب الخيل واقتناء عتاقها وكرائمها ، حدى بهم الى الفروسية . ولهذا فانهم بركبهم الجياد الكريمة وتتوجهم بالعقل والعصائب الحريرية واكتسائهم بالحرير وتقلدهم بالسيوف وحملهم بنادقهم على اكتافهم وتجولهم فى انحاء حصن الاكراد يرهقون سكان القرى طغياناً وعسراً . لا حرم يكونون كمتغلبي قضاء عكار فى الاوصاف الاجتماعية . وهم مثلهم فى السلطة والتغلب ايضاً .

*
* *

والقسم الآخر من السنيين يعرف باسم « الزعبية » ويزعم افراد هذه الطبقة الذين يبلغ عددهم الى المائتين ، انهم من اخلاف « عبد القادر الكيلانى » من السادات الزعبية واكثرهم يسكن فى « قلعة الحصن » ، ولا فرق بينهم وبين الدنادشة من حيث اضطهادهم القرويين وظلمهم . على ان هذه الفئة تتسم بصفة عامية ايضاً ، ولا مساغ للحكم على راحة هؤلاء بحياتهم الاجتماعية رغماً عن ثرائهم المعتدل . لان اكثرهم عنده ثلاث واربع زوجات وليس لهم نصيب من النور الفكرى النافع ، وعليه يجب ان لانعبأ بهذا الادعاء.

*
* *

ثم القسم الثالث من السنيين هم « التركمان » ، وهؤلاء يسكنون فى قرى « زاره ، حكيه ، حصرجية » . ومجموع عددهم (٤٠٠ — ٥٠٠) نسمة . ويزعمون انهم توطنوا هذه الديار منذ زمن السلطان سليم الاول . ولكن ليس لديهم برهان يؤيد هذا الادعاء . وهؤلاء يشتغلون بنسج السجاد كما هو الحال فى تركمان عكار ، ويعالجون تأمين معيشتهم بهذه الصناعة ومع هذا فانهم فقراء مدقعون ، محرومون من كل شئ . حتى ان القسم الذى يشتغل بالزراعة منهم لم ينج من تسلط الاغوات ومداخلاتهم .

*
* *

اما غير السنيين من المسلمين ، فهم النصيريون الذين يتجاوز عددهم (١٥٠٠٠) نسمة وهم يشتغلون بالزراعة اما بصفة مزارعين فى قرى الدنادشة والزعبية ، واما فى بضعة قرى خلصت لهم فى انحاء « جبل الحلو » . وهؤلاء الذين يسكنون الاصقاع الشمالية الشرقية

والجنوبية والغربية من هذا القضاء كلهم على غاية من الفقر . هذا وان كان بين النصيريين في قضاء صافيتا وغيرها — كما سنذكر بعد — اناس اغنياء اقوياء ذوو سلطة وكلمة ، ولكن بما ان قضاء حصن الاكراد هو مبدأ الربوع النصيرية ، وفيه من ذوي السلطة والمتغلبين من لا يقوى النصيريون على مقاومته ، لم يكن لهم مجال للقوة فيه واصبحوا تحت سيطرة تلك السلطة التي زجت بهم في الفقر المدقع . ومن هذه الطبقة التي تسكن في اوكار كانها صبراً من الاحجار هي في دركة منحطة جداً .

*
* *

اما النصارى في حصن الاكراد فيسكنون القرى الكائنة في انحاء « وادي النصارى » وعددهم يقرب من (١٠,٠٠٠) نسمة وهم يشتغلون بالزراعة ايضاً . وهم من حيث المعيشة ارقى من النصيريين بدرجة او درجتين ، ومع ذلك فان شرائط الرخاء والراحة في العيش ليست متوفرة لديهم .

*
* *

فاذا اردنا اجمال ما فصلنا الآن ، نقول ان قضاء حصن الاكراد منحصر في ايدي بضعة طبقات من الاعيان يستفيدون منه . ولذلك فلا يجب ان نعجب من عدم وجود غيرهم من الطبقات الاجتماعية .

[٣] — **العادات الاجتماعية** — للمسلمين في حصن الاكراد بعض عادات اجتماعية مشهورة تلفت النظر . واهمها التقاليد في الزواج . وفي طالب الزواج هناك اولاً تقديم عربون يسمونه « العلامة » . وتكون هذه العلامة خاتماً او دراهماً . ويرسل معها بعض مواد كالقهوة وغيرها .

ومقدار المهر المعجل والمؤجل في هذا القضاء كادا ان يكونا على تساو . ويتراوح المعجل بين (٣٠٠٠) و(١٠,٠٠٠) وكذلك المؤجل يتراوح بين (٥٠٠٠) و(١٠,٠٠٠) من القروش .

وربما تتلى قصة المولد الشريف يوم عقد النكاح . وبعضاً يحتفلون به سبعة ايام ويسمونه « الفرح » . ويكون على هذا النسق :

يؤتى بنطربين من النور الى بيت الخاطب . ويضربون بالطبول وينفخون في الابواق ويهيئون الجمال المزينة بازهى الزينة ويركب عليها البدويون ، ويمتطي السكان ظهور الجياد ثم يمشي الموكب بين ضرب الطبول والزمور ، وينهض راكبو الجمال فيرقصون وبايديهم

المناديل او السيوف ، ويغنون (*) ويملؤن الانحاء جلبة وضجيجاً . ويسمون هذه الاغاني « ملالاه » .

وهذا الموكب لايفتأ يجول في تلك الانحاء سبعة ايام . وبهذا يذوع خبر النكاح ويطلع عليه كل الناس . وبعضاً تكون هذه الاحتفالات بعد العقد ، او قبل اجراء الزفاف بسبعة ايام . وبهذا الشكل تكون ليلة الزفاف هي خاتمة ذلك الاحتفال وينتحون بهذه الاحتفالات الى خارج القصبة ويوقدون النار ويطلقون السلاح ويتغالون بالمظاهرات . ويسمون هذه الالعاب « مرسحا » .

ويحتفلون بولادة الذكور ، ويطلقون السلاح ويفرحون . اما ولادة الاناث فلا يهتمون لها . ويروى ان الدنادشة يحرمن بناتهم من الارث ، ولكن يجزلون لهن الجهاز عوضاً عن هذا .

وهاتين العائلتين في حصن الاكراد « الدنادشة والزعبية » لا يزوجون بناتهم الا لاقاربهم . وحتى ان الدنادشة لا يتزوجون من الخارج البتة . اما الزعبية فلم يبلغ بها التصلب الى هذه الدرجة .

ومن عادات حصن الاكراد تلاوة الموالد حينما يختم اولادهم القرآن وتوزيع السكر في تلك الحفلة .

والاحتفال بالختان عند السنيين يكون على هذا النمط ايضاً . واعتادوا على اجرائه قبل اكمال الاطفال السنة الثالثة من عمرهم . ولا يرغبون خرق هذه العادة . ويقيمون « المراسح » احتفاء بتلك العادة .

لا يستعمل نساء البدو ، ولا نساء النصيريين الآزر . اما الدنادشة والزعبية فهم من الانفة والعصبية على درجة ، لا يذكرون اسماء نسائهم حتى ولا على احجار القبور .

تشيع هنا جنائز الزعبيين باحتفال عظيم . وبما انهم ينتمون الى الطريقة القادرية تنشر امام جنائزهم اعلام تلك الطريقة ، ويمشي امامها المشايخ القادرية بطبولهم الصغيرة ودفوفهم وصنوجهم وترتيلاتهم الى ان يصلوا بها الى مقرها الابدي .

اما الدنادشة فانهم يؤثرون تشييع الجنائز بالسكينة والهدوء .

ومع هذا فان السنيين يضربون الخيام على اجداث الميتين ويقرؤن فيها القرآن ثلاثة ايام . وفي كل يوم من هذه الثلاثة يزورون القبر صباحاً ومساء . ويعتني سكان حصن الاكراد بالمقامات والمزارات اعتناء خاصاً . ولهذا فان مقام ابي هريرة في قرية ساعود والبحتري الشاعر في حارة التركمان ، والسقا في قرية قلعة السقا ، هم من الاماكن التي

(*) راجع في هذه الاغاني مبحث ادبيات القضاء .

يزورها السنيون . ثم ان مقام الشيخ مرجه فى قرية ام الدوالى يعتبر مزاراً عند النصيريين .

***

وقبل ان نتم هذا البحث نرى ان نذكر على قبيل الاستطراد السوق الذى يقام كل سنة فى يوم النوروز عند «دير الخضر» الكائن فى انحاء وادى النصارى . ويقصد هذا السوق كثير من تجار حمص وحما واللاذقية وجم غفير من الناس لاجل البيع والشراء . حتى ان الدير يربح من الحوانيت التى اعدها هناك الى التجار مقدار خمسين الف غرش . ويزعمون ان ارباب الدير قصدوا بتأسيس هذا السوق امراً دينياً اكثر من التجارة والربح . ونحن نكتفى هنا بالاشارة لهذه الرواية فقط .

[٤] — الارقام الاجتماعية — هذه بعض الارقام البكماء التى حصلنا عليها فى مركز حصن الاكراد :

— دخل الى سجن تلكلخ فى السنين الخمس الاخيرة (١٤٠) شخصاً . وعليه يكون عدد المحبوسين فى كل سنة (٢٨) شخصاً .

— لم نحصل على الجداول العدلية للسنين السابقة . اما فى الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ حدث ثلاث جرائم من القتل ، وحكم على (٣٥) شخصاً بالجنح والقباحات . وكلهم من الزراع .

— ويزعم ان قد حدث فى السنين الخمس الاخيرة فى جميع القضاء (١٥) ازدواجاً . وبهذا يصيب كل سنة ثلاثة . وان خطاء هذا الجدول بارز . ولو صرفنا النظر عن النصارى والنصيريين ، فى القضاء لوجدنا الازدواج بين السنيين اكثر من هذا العدد بكثير .

ثم يروى ان الطلاق هنا قليل جداً . ويقال انه لم يحدث بين السنيين فى هذه السنين الخمسة الا طلاق واحد . وهذا الرقم يدلنا على ان الدنادشة لم يعتادوا الطلاق .

— يوجد فى كل قرية من قرى السنيين جامع . والقرى التى يسكنها النصيريون فهى خلو من الجوامع . اما القرى النصرانية فيوجد فى كل واحدة منها كنيسة وراهب .

٩ — الاحوال الروحية والسوية الفكرية

يجب علينا فى تعيين الاحوال الروحية والسوية الفكرية فى هذا القضاء ان ندقق الطبقات الاجتماعية فيه على الانفراد . وقد تبين مما فصلنا الى الآن ان اقدم طبقة فى هذا القضاء هى اسرة «الدنادشة» .

ان هذه الطبقة هى صاحبة هذه الاصقاع بالحول والطول ، وحاكمتها . ولهذا كان افرادها على غاية من العصبية ، والقوة الغضبية ، وحب الفروسية . وجمعوا فى انفسهم

اخشن طباع البدو واوضاعهم . ولهذا كانوا لا يعرفون السماح ، ولا يصفحون عن زلة لاسيما من فقهم تجاه القرويين ، فهو موقف المتغلب الذى لا تخونه سلطته وقدرته . وهم يتمرنون منذ حداثتهم على ركوب الخيل واستعمال السلاح ، واجراء السباق . ومعاناة الصيد . وسبر القوة وامثالها من وسائل الفروسية . ولهذا خلقت فيهم تلك الحياة سجية تشبه سجية حكام القرون الوسطى « دره بكى » ملؤها الانفة والاباء ، والنخوة والفروسية ، فالجسارة المشهودة فى هذه الفئة اساسها من هذه التربية ، ولهم شغف عظيم باقتناء عتاق الخيل ، ولاسيما انهما كهم باقتناء الجنس « الصقلاوى » يتجاوز الحد المعروف . وهذا ايضاً ناشىء عن انطباعات تلك التلقينات وتأثيرها فيهم بكر الادوار .

وارتباط هذه الاسرة بالدين جدير بالذكر ايضاً . وهم بحياتهم الاجتماعية اهل قرى وكرم ويبرهنون فى كل اعمالهم عن نجابة وطيب ارومة .

وهذا الاجمال يدلنا على ان لهذه الاسرة اوصافاً وخصالاً ثمينة رغماً عما اوجدت فيهم افاعيل حياتهم من القسوة وجفاء الطبع وانى اريد ان افصل هذه النقطة المهمة مستنداً على مؤلف جدير بالاهتمام فى هذا الباب. وهذا المؤلف هو كتاب الفه محمد على باشا المصرى احد اركان الاسرة الخديوية سنة (١٩١١) بعد ان تجول فى انحاء سورية وضمنه مشهوداته فى تلك الاصقاع . وسماه « الرحلة الشامية » .

يحتوى هذا الكتاب فى صحائفه (١٨١—١٨٨) معلومات عن الدنادشة تشخص لنا احوالهم الروحية ، وتلمسنا حياتهم الاجتماعية . وها نحن نقتبس هذه النقاط التى لها عظيم الارتباط بموضوعنا . حكى محمد على باشا فى تلك الصحائف من كتابه عن صورة مفارقته حمص ، ووصوله الى تلكلخ ، وعما رتبه الدنادشة لاكرامه من السباق وغيره فقال :

[وما برحنا نواصل السير فى ذلك الطريق حتى وصلنا الى سرادق جميل كان قد اعده لاجلنا بالخصوص حضرة المفضال (محمود بك) احد زعماء مشايخ الدنادشة وكانت مسافة سيرنا منذ خرجنا من حمص حتى وصلنا الى هذه النقطة لا تبلغ اكثر من نصف الساعة فى الطريق

وهناك كان ينتظرنا حضرة البك المذكور مع لفيف من اسرته الكريمة بينما كان نحو مائة وخمسين فارساً مصطفين على خيلهم امام تلك الخيمة بغاية النظام وقد كان بين فرسانهم فتاتان من بنات العرب متقلتين بالحلى على لبوسهما العربى اللطيف وفى احدى يدى كل واحدة منهما سيف وفى الاخرى منديل ثم هما تدنسا تغنيان بين هؤلاء الفرسان لاجل تشجيعهم وتهييج عاطفة الفروسية فيهم وقد نزلنا من العربات ودخلنا ذلك الصيوان وبعد ان اخذنا منه مجالسنا قدمت لنا القهوة ثم الشراب ، ولم نلبث بعد ان شربناها الا

مسافة عشر دقائق ثم قمنا فمررنا امام اولئك الفرسان الذين كان يركب اغلبهم افراساً تتبعها اولادها المهارة ، واذ ذاك اخذ العرب الخيالة يتبارون فى اللعب ويتغالبون على الخيل وفى ايديهم بنادقهم على نحو ما يُرى فى الملاعب والميادين مما يسمى فى عرف العامة بالبرجاس وقد خفت حينئذٍ ان ينفلت رصاصهم على غير عمد فيصيب احداً لان بنادقهم كانت من الطراز الحديث وهى من النوع الذى لابد لاطلاق عبوته الهوائية من وجود الظروف الرصاص فيها اولاً ، ولذلك طلبت اليهم ان يكفوا عن الضرب فى ذلك اللعب وفى تلك الاثناء كانت البنتان تدوران حول الخيالة من هنا ومن هناك وتترنمان باناشيد الحرب ونغمات الطعن والضرب فكانتا تنبهان بذلك الغنا المؤثر عواطف الفوارس وتحركان فيهم غريزة الحمية والشجاعة حتى اخذت الحماسة من نفوسهم مأخذا عظيماً وما زالوا كذلك حتى ركبنا العربات وركب حضرة محمود بك فرساً وسار بجانب عربتنا وتبعه جميع الخيالة من خلفنا وامامنا وعلى جانبينا ايضاً ، وهم بين ان يعدوا سراعاً ويعودوا بطاءً ويتنوعوا فى الاشيهم الحماسية جرياً ووقوفاً ودفاعاً وهجوماً الى غير ذلك مما لا يدرك وصفه الا بالرؤية والمعاينة وقد كنت حين ذاك اعجب بشجاعة اولئك القوم ومهارتهم فوق ما كنت اعجب ، واعجب ايضاً من ابناء الافراس الصغار التى كان عمرها فى الغالب لا يزيد عن اسبوعين ومع ذلك كنت اشاهدها تتبع امهاتها فى تلك المسافات البعيدة على هذا السير الحثيث وتتحمل مشقة السفر والجرى ، وقد اخذتنى بها من اجل ذلك رأفة شديدة فطلبت من اولئك الراكضين ان يخففوا السير ويتئدوا لكيلا يشقوا على تلك المهرات الساكين وهى فى ذلك السن الصغير ، ثم ما فتئوا يركضون عن طول المسير ويلعبون باعظم مهارة واكبر حذق ، وكان فيهم فارس كبير السن يلبس ملابس دمشقية قديمة يسمى عثمان آغا وهو ممتاز عن اخوانه بحب الظهور عليهم فى الفروسية وخفة الحركة ، وحقيقةً كان هذا الفارس العجيب يبدى امامنا من ضروب المهارة فى الغدو والرواح والصعود والهبوط على الصخور الجبلية ما كنا نعجب منه غاية العجب ؛ وكذلك كان له حذق غريب فى عبور النهر وهو فوق حصانه الذى كان يعدو تارةً فى الارض واخرى فى الماء اسرع من الطير واخف من الهواء حتى استغربنا اى استغراب من جسارة هذا الفارس وجراءته المدهشة على ركوب الخيل بتلك الكيفية التى كانت فوق التصور وما زلنا كذلك حتى دخل بنا الطريق فى مضايق بين جبلين فكنا بين ان نصعد مسافة الى فوق ، ونهبط اخرى الى تحت ، وكان لا يزال على جانب عربتنا حضرة « محمود بك » وهو ممتلئ رجولية وشهامة لاسيما وانه طويل القامة عظيم الشارب كبير الاهداب تتجلى فيه الفروسية باخص اوصافها واجلى معانيها وهو مع ذلك مهيب وقور ،

حادثة فى الطريق

وقد حدث فى اثناء السير ان فرساً من افراس الركب لا ادرى لمن كان ضرب فرس ذلك البك فى ذراعه الايمن فجرحه جرحاً بليغاً، ما زال يشخب دما حتى صبغ ساق ذلك الفرس المجروح بالدم فاحمر بعد ان كان ازرق اللون وقد خفت على هذا الفرس المصاب ان يهلك تحت راكبه لان الجرح كان خطراً حيث كان النزيف مسترسلاً بقوة ومن ثم طلبت الى محمود بك ان ينزل عنه اشفاقاً عليه ورحمة به . اما هو فما كان ليهمه اصلاً ان يموت الفرس اويعيش ما دام فى صحبتنا وضمن رفاقنا حتى قال حفظه الله ما معناه انى لاجعل فداءك نفسى وما فرسى باعز على منها ، ثم تاخرعنا نحو دقيقة وقد كنا حسبنا انه نزل عن الفرس ولكنه مالبث ان جاء الى جانبنا كما كان ورأينا ان ليس على فرسه اثرالجرح، ولا ذلك الدم الذى رأيناه وقت الحادثة وكان ينزف نزيفاً ففهمنا انه كان فى تلك المسافة الصغيرة يعالج الفرس، ولكن لست ادرى بماذا عالجها واى دواء يصل مفعوله من السرعة الى هذا الحد وقد عرفت ان بعض الفرسان المهاجين كانوا من ابناء البكاوات الدنادشة وهم احداث تتراوح اعمارهم بين السابعة والعاشرة ومع ذلك فانهم كانوا يحسنون الركبة مثل ما يحسنها اباؤهم وكبارهم كما كانوا يتقنون اللعب ويتفننون فيه كانهم مارسوه من زمان كبير ولا بدع ان يكونوا كذلك اذ قد تربوا على الشجاعة منذ نشأتهم واعتادوا على الفروسية وركوب الخيل بكثرة التدرب والتمرين . ثم دخلنا فى ميدان فسيح وكان لم يمض على سيرنا اكثر من ثلاثة ارباع الساعة وهناك كان ينتظرنا عدد كبير من الخيالة ومعهم البكوات الباقون من عشائر الدنادشة فاجتمع الفريقان وصاروا ركباً واحداً ونحن لا نفتا نتابع السير حتى وصلنا الى تل كلخ وهو واقع فى الحدود الفاصلة بين ولايتى بيروت ودمشق وفى آخر حدود الدنادشة واذ ذاك كنا قد دخلنا فى وقت الظهر وحان ميعاد الغداء فذهبنا الى بيت الزعيم « محمد بك محمد » وهو زعيم مشايخ عربان الدنادشة ونزلنا عليه ضيوفاً بعد ان طلب الينا ذلك بالحاح الكرماء وكان ينتظرنا هناك بعض مستخدمى الحكومة وقد قدم الينا الطعام على مائدة كبيرة تسع عشرين نفساً وكانت على النمط الاوروبى وفيها الوان عديدة واصناف كثيرة متنوعة فاكلنا متلذذين من حسن الطعام واجادته اما الركب الذى كان معنا وقد عرفت كثرتهم فقد كانوا ياكلون جميعاً موزعين على عدة موائد وطعامهم كان قاصراً على الارز واللحم ولم يكن ذلك ليدهشنى لانى لا استغرب ان يجتمع على موائد هؤلاء العرب عدد كبير كالذى رأيناه او اكثر وانا اعلم ان العرب قوم جبلوا على الكرم وطبعوا على البذل والسخاء وانما الذى كنت اعجب منه عجباً شديداً هو تجهيز مائدة على الطراز الغربى الصرف وان القوم عرب شرقيون من سكان

الجبال ثم بعد ان تهيأنا للسير شكرنا لحضرة محمد بك محمد تلك العناية العظمى، واثنينا كذلك على عشائره الكرام لما بذلوه من الهمة والمعروف وقد اجتذبني الى هؤلاء العرب جمال هندامهم وحسن بزتهم وكان بودى ان لو تطول عشرتى بينهم لاتمتع كثيراً برؤية منظرهم الجميل لولا ان الوقت قصير محدود .]

ولا جرم ان هذه السطور التى نقلناها عن محمد على باشا تفصح عن الاحوال الروحية فى الدنادشة . ولذلك لا نرى لزوماً لزيادة شئ عليها.

اما الزعبيون ؛ فهم ايضاً معروفون بالشجاعة والفروسية ، والانهماك بحب الخيل ، والسيطرة على القرويين ولكنهم ليسوا من العصبية فى درجة الدنادشة ، بل هم حليمون وطباعهم هادئة . ومع هذا فقد تكون لهم هبة عصبية ، ولكنها لا تدوم وليست بعصبية المنتقم . وهم متمسكون بالدين وحتى متعصبون اكثر من الدنادشة . ويروى ان لبعضهم ميلاً للتصوف ايضاً .

اما تركمان حصن الاكراد ، فهم على غاية من الحلم والسكينة . ولقد يبلغ بهم هذا الهدؤ الى درجة الفتور . ولهذا لا يعثر لديهم على الحركة والنشاط البتة .

اما النصيريون ، فهم مطيعون وهادؤن بالنسبة لابناء جلدتهم فى الاقضية الاخرى، بيد ان منهم عشرة فى المائة ممن الف الشقاوة ، وامضى حياته عليها . وهم يقطعون الطريق ، ويتعاطون اللصوصية ، وربما يؤلفون العصابات فتقتحم القرى وتنهبها . هذا وان يكن اليوم لا اثر لهذه الاحوال عندهم ، فلا يجب ان ننسى ان للروح النصيرية شنشنة فى هكذا امور تكمن وتظهر ، وتغيب وتحضر .

والنصارى هم على نقيض من هؤلاء فانهم متمسكون بالراحة والسكون . ولكنهم بلغ ارتباطهم بالدين الى درجة التعصب .

*
* *

اما السوية الفكرية فى القضاء ؛ فمن العبث ان نرتاد فيه العلم والعرفان والذين يحسنون القرائة والكتابة فيه قليلون باعتبار الكمية . وليسوا على شئ بالكيفية ايضاً . وهم فى الرجال من الدنادشة (٦٠) فى المائة . وتحصيلهم ضعيف جداً ، وليس بينهم الا (٢٠) ممن اتموا التحصيل الثانى .

اما الزعبيون فمقدار الذين يحسنون القرائة والكتابة فيهم يقرب من (٥٠) فى المائة . وليس لديهم الا ثمانية ممن تخرجوا فى المدارس التالية .

ومقدار هؤلاء فى التركمان لا يزيد عن اثنين فى المائة . ولهذا لا يوجد فيهم الا بضعة اشخاص يعرفون القرائة والكتابة ، وليس فيهم احد ممن تخرج فى احدى المدارس .

والنصيريون مثلهم ايضاً. ولا يوجد بين عددهم الكثيف الذي يجاوز (١٥٠٠٠) نسمة أكثر من مائة شخص يعلمون القرائة والكتابة على غايه من البساطة. ولهذا لا تتجاوز نسبتهم خمسة فى المائة.

وعدد هؤلاء عند المسيحيين أكثر، ونسبتهم فى الرجال تصعد الى الستين والسبعين فى المائة. اما درجة هذا التحصيل فهى بدائية بسيطة.

وعلى هذا الحساب المخمن، يكون من سكان هذا القضاء عشرة فى المائة ممن يحسنون القرائة والكتابة بدرجة بسيطة. ولا شك ان هذه النسبة تفصح عن السوية الفكرية فى هذا القضاء بصورة واضحة.

١٠ — الاحوال الصحية

يجب علينا قبل الافاضة فى البحث عن الحالة الصحية فى قضاء حصن الاكراد ان نطلع على هوائه ومائه، ونسق بنائه. وبما ان القضاء ينقسم الى «جرد» اى وعث، والى «سهل» يمكن تدقيقه من حيث الهواء باعتبار هذين القسمين ايضاً. فالحرارة تبلغ فى الانحاء السهلية اوان الصيف الى اربعين درجة، وتقرب من الصفر ايام الشتاء، وربما ينزل الثلج فى تلك الربوع فيكسيها بلونه الناصع. ومع هذا فان هواء انحاء الجرد ارجح من هواء السهل ولاسيما ماء الجرد فانه عذب شهى.

وان انحط موقع من الماء فى هذا القضاء هى تلكلخ. فلا توجد فيها الينابيع، او المياه الجارية، بل هم يرجعون باحتياجهم فى ذلك الى بضعة آبار موجودة هناك، ويمتاحون الماء من هذه الآبار بدلاء وسخة، ولذلك يكون الماء كدراً. ويمكننا ان نقول ان كل قرية فى هذا القضاء اياً كانت هى ابعد وانعم من تلكلخ من حيث الماء اذ لا بد ان يوجد فيها منبع، او جدول يقوم باحتياج سكانها. هذا وان كان بعض القرى يتكبد المشقة والتعب فى جلبه. ولكن عذوبة الماء ونظافته تنسيهم تلك الاتعاب.

اما ابنية القضاء، فان اكثر القرى تشبه فى مساكنها قرية تلكلخ فى بيوتها التى لا تصلح للسكن، ولكن يعثر فى بيوت علية القوم على شئ من الرقى والانتظام. وعلى كل حال، ان السواد الاعظم من سكان هذا القضاء الذى يربو عددهم على ثلاثين الفاً، هم فى غاية من ضيق اليد، وضنك العيش البتى بسبب حرمانهم من الثروة جزلة كانت او نزوراً. وان حال سكان هذا القضاء فى السنة الثانية، ولاسيما الثالثة من هذه الحرب، اصبح من الفقر والحرمان فى درجة لا درجة فوقها، ولهذا نرى من الواجب ان نمعن النظر فى ما

اطلعنا عليه طبيب الموقع من المعلومات ونشرح الحالة الصحية فى هذا القضاء .

تجرع سكان هذا القضاء سنة ١٣٣٢ امر العذاب بسبب حرمانهم من المواد الغذائية. ففقدان الخبز واللحم والسكر وما اشبههم من الاغذية جعل الاجسام خشية لا تستطيع مغالبة الامراض ، ثم ان فقد الملح، تلك المادة الحياتية اوقعهم فى اشد الارتباك الحياتى . واضطر اغلب العائلات الى طبخ الطعام بلا ملح . وقصارى القول ان هؤلاء السكان الذين حرموا من اهم وسائل الحياة اضطروا الى الاقبال على تناول النبات الذى لم تألفه اجسامهم من قبل ، وما كان ليقوم بهم، فتدرجت اجسامهم بالانحطاط ، وعرقها الجوع حتى صاروا اقفاصاً من عظام ، او اشباحاً جبلت من فحم . ثم اقتحمتهم الحميات كالتمشية وغيرها فجعلتهم حصيداً ؛ واعانها عليهم جهلهم وجوعهم فاستفحلت فيهم وكثر تفشيها فاصيب بها سنة « ١٣٣٢ » ، « ٢٥٠٠ » نسمة هلك منها « ١٥٠٠ » .

ثم ان مرض فقر الدم ، والتورم البدنى العمومى ، والاستسقاء ، والانحلال التدريجى وامثالها من الامراض الطاحنة لم تأل فتكاً بأولئك المساكين ايضاً .

وقد ظهر هناك ابان الصيف مرض اشبه باعراضه بـ « القوليرة » ، ولكن ما كان هذا الاعبارة عن هيضة نشأت من اقبال الذين تخلصوا من الامراض الشتوية ، وابتلوا بالهزال لسبب عدم التغذى، على اكل الاثمار ليتلافوا انقصهم من الفحم « قاربون » فوقعوا في سوء الهضم ثم انقلب فيهم الى اسهال . وقد نتج عنه بعض وفيات . ولكنها تستند فى الحقيقة على الانحلال الطبعى .

اما فى صيف سنة ١٣٣٣ فقد توقف سير هاتيك الامراض ولا بأس ان نبحث عن اسباب هذا التوقف . يمكن ان يحمل هذا الحال على زيادة المحصول فى هذه السنة عن متعداد السنة السابقة ثم على انفراج الازدحام بسبب ما كان من الوفيات ثم على خروج الاهلى ابان الصيف من تلك الحجرات القذرة التى كانوا يسكنونها فى الشتاء، الى البرية حيث الهواء النقى الطلق ، وعلى الوقاية التى تحدثها الحمى التمشية فى الذين نشطوا بعد ان اصيبوا بها . ولكن اهم هذه الاسباب، هى ما احدثته الادارة العسكرية من دور التجريد والنقاهة ، ولا سيما عدم ترخيص الافراد المريضة وارسالهم الى اهلهم ، ولهذا لم يحدث فى الاشهر الاخيرة [*] من الحمى التمشية الا (١٥) مصاباً . والامراض الاخرى ايضاً هبطت عن نسبتها الاولى ، ثم انقطع اثر الحميات الاخرى التى كانت تفتك بالسكان اثناء وجود الحمى التمشية ، اما مرض الجدرى فقد كان متفشياً فى قرية « عيون » وظهر فى

---

[*] ٧ تموز سنة ١٣٣٣

قرية (مرمريتا) واستؤصلت شافته في كلتي القريتين ، واعتني بالعمليات التلقيحية في باقي انحاء القضاء .

اما مرض « ديزانتهرى » فلم يصب به في الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ الا خمسة اشخاص والامراض المحلية الاخرى مثل الحمى المرزغية وغيرها لم يصب بها الا الطفيف ، ويعثر على اقل من القليل من اصابات السل وذات الرئة وذات الجنب .

*
* *

ان ادارة الصحة في هذا القضاء ناقصة باسسها كما هو الحال في باقي الانحاء ، ولا يوجد اليوم الا طبيب واحد يحمل اعباء جميع القضاء . وزيادة عن هذا فانه ملزم بتفقد شؤن ناحية حذور الواقعة على تخوم القضاء والتابعة بالادارة الى طرابلس الشام . ثم ان وظيفة التلقيح انيطت به ايضاً لعدم وجود مأمور لهذه الوظيفة . فاذا فكرنا بان انتقال الطبيب من قرية الى قرية اخرى يقتضي صرف زمن غير يسير ، نعلم استحالة تجوله في جميع القضاء ، وهذا يطلعنا على مقدار الاستفادة المحدودة التي ينالها القضاء من هذا الطبيب . ثم اذا اضفنا فقدان الوسائط الصحية الى هذه الوظائف الكثيفة يتضح لنا ما عسى ان تكون الفائدة من هذه الادارة . وليس من صيدلية في القضاء كله . ومما يستلزم الشكر ان للطبيب صيدلية خصوصيه في قرية « مجتايه » التي تبعد مسافة ساعتين من تدكلخ ، وهي لا جرم تخدم لتأمين او بالاجدر لتخذير شيء من الاحتياج الصحي . وهذه هي الحالة الصحية في قضاء الحصن .

١١ — اللغة والادبيات

ان اللغة العامة في قضأ الحصن — حتى لدى التركمان ايضاً — العربية العجمى . هذا ولا ينكر وجود بعض من يتقنون العربية الفصحى ولكن عددهم قليل جداً بالنسبة الى الاقضية الاخرى . وهكذا الامر في من يعلمون شيأ من اللغاة الاجنبية . اما في الادبيات فقد يوجد من يميل الى المؤلفات العربية ، ولكن المؤثر الحقيقي الذى يدير الاذواق الادبية فيهم هو الشعور العامى . وهنا ايضاً تتداول « الميجانيات » التي كادت ان تكون من الاغاني العمومية في جميع القرى السورية . ولكننا نخص بالذكر منها ماينطبق على مرامى الحصنين فقط .

تكلمنا حين البحث عن الاحوال الاجتماعيه ، عن مواكب الاعراس وقلنا انهم يزينون الجمال في تلك المواكب ويركب عليها اناس ينشدون الاناشيد ، ويتغنون بالاهازيج وهذه

الاهازيج تسمى عندهم « ملالاة » .

وليست هذه الاهازيج من القصائد الطويلة ، بل اكثرها عبارة عن فقر مقطعة تنتهي بجلبة عمومية مبهمة ترسمها الاصوات بشكل «لو ، لو ، لوش » . واكثرها يرتجل على ما يناسب المقام — بزعمهم — وها نحن نأتي ببضعة قطعات منها على سبيل التمثيل :

— ملالاة —

دزوا لابو محمد خيول جيبوا
زرقا حمامه ، مصنعه بالريش لاجل الشهامه

اخرى

حبيبي شوشح الرمح والدبوس بيدو

ايضاً

حبيبي واقف على البير والبير ناشف
ابو قضيمة الحمرا والمنديل شاطف

ايضاً

يا حويدري على الشام دوع نقلك
كتر الحنه وطياب الروايح

ثم يشرع بعد اتمام القطعة بترديدها بهياج عمومي وتضج الاصوات بصدى «لو ، لو ، لو ، لوش » . ثم لديهم اناشيد اخر يسمونها « الهجانة » . وينشدونها في مواكب الاعراس ايضاً وها نحن نذكر شيئاً منها :

« هجانه »

حطيت عيني بعينو يا رب يا معبود
لاصبر على حكم الله بركه الزمان يعود

اخرى

وني لارقى رأس التله وان البقاعه قبالي
وهنيه مربط الزرقا وهنيه منام الغالي

وقصارى القول ان هذه الاغاني والاناشيد والاهازيج جديرة بالاهتمام لانها تشف عن حياة القوم الاجتماعية ، وحالتهم الروحية ، بالرغم عن نقصها وخللها .

— ٩ —

بين تلكلخ وبرمانه

١ — يومنا الاخير فى تلكلخ

كان يومنا الاخير فى تلكلخ يوماً ثقيلاً عصيباً؛ وما اشد وطئة ذلك الاضطرار الذى قضى علينا بافناء يوم آخر من عمرنا فى هذه القرية الداجية المقفرة، وذلك لعدم تهيء وسائط النقل ، لاسيما اذا لم توجد فى كتاب المحيط آيات بينة يرغبها الذوق . . . . ولا جرم ان هذا اليوم الكامل كان مستعداً لان يرمى كاهل حياتنا بثقل لا تستطيع ايجاده الايام ، ولا الشهور ، حتى ولا الاعوام . ونور الشمس الذى ما زال يزلق على ذلك التراب القاتم حتى وصل الى تلك البيوت المحلولكة كان مغبر المنظر كانه مستاء من سقوطه على هذه البقعة المظلمة ، فغشى بدخانه الكثيف ابصارنا التى كانت تحاول ان تتسلى باشرافها على ما حولنا .

— يوم طويل . . . ، بماذا نتلهى فيه يا ترى ؟

ما اعسر جواب هذا السؤال الذى وجهناه الى انفسنا . وقد كنا مزمعين على التلهى بقراءة شئ من الروايات ، لكي لا تلبث عطلاً ولكن اناخ هواء هذه القرية بكلكله على ادمغتنا فجعلها لا تبغي حراكاً ، وعليه لم نستطع امضاء هذا العزم . فتمددنا على سرير سفرنا ونمنا ثم انتبهنا ، ثم نمنا ، ثم استيقظنا . . . والوقت على ما هو ، كأن الارض لا تدور ، والفلك عطل حركته .

نصبنا انظارنا الى حجرتنا التى خنقها الغبار واخذنا نمعن فيها ، وكانت تحمل آثاراً تشف عن سالف زاهر ، ثم اخنى عليها الحظ ، وزلت بها القدم فاجهز عليها الدهر بتخريبه وتلاشت ؛ وها هى تودع بقية تلك الحياة . هذا سقفها المزخرف بالنقوش الذهبية انهال على الارض ، وبرزت من ورائه اقفاص السطح . تلك العظام النخرة ؛ وتلك الجدران نفضت ملاءتها ، وظهرت عليها الانقاب كانها قروح الفناء .

وهذ المرآة المنصوبة قبالتنا نقضت من اطرافها وها هى كسارتها لا تزال على الارض وقد غشيها من الغبار ما جعل وجهها صحيفة ترابية . اما المقاعد فقد مزقت وجوهها ، وارجل الكراسى المذهبة ، ثم اطراف المائدة الرخامية وشباك تلك النوافذ الفخمة وبللورها كلها كانت هشيماً محطمةً .

لم يبق فى هذه الحجرة وصف يدل على ما كان لها من الزخرف ، وما عهد فيها من الضيافات . وهى الآن بجراذينها المتراكضة وحشراتها السوداء ثم بما يكنه سقفها من الهنوات الصائتة مأوى لكل ماصات وصوى . ونحن لم يجلبنا الى هذه الحجرة ، او ذلك الوكن الا صيته السالف .

ان هذا المنزل الضخم الذى شيده وفرشه محمد بك محمد [*] لم يكن مسكناً بل كان مربضاً للابطال ، او قصراً يشار اليه ببنان العز والشرف بين تلك الركام الحجرية فى تلكلخ .

ولكن لا نعلم كيف جرى ، حتى اصبح متروكاً وصار على هرمه فندقاً ممتازاً لتلكلخ التى لا تزل تفاخر بشهرته الماضية . وها هو اليوم لنا بتمامه .

فتحنا الباب الآخر ، وخرجنا الى الصفة ، واخذنا نتجول فى باقى غرف هذا القصر بين نسيج العناكب . ويمكن ان نلخص ما رأينا فيه ببضع كلمات : سقوف مدلاة ، وجدران حرباء ، وكثير من الاثاث البال ، وخزانات مخرقة فارغة ، ثم التراب والغبار الوافر ... والعناكب واحواتها من الحشرات ... كنا نتجول فى داخل هذا القصر الرهيب ونفكر بما كان له من ادوار السعادة والعز وتلك العظمة والسلطة ، ونأسف لذكرى هاتيك الادوار الاقبالية .

ولكن لم يكن الوقت ليمضى ... ونرى ان ليس من الامكان املاء هذا الفضاء المعظم الذى كان طوله اربع وعشرون ساعة ... هلا نخوض فى تراب القرية القائم تحت ما تلفظه الشمس من الشعاع المحرق ، وننغمس فى دخان تلكلخ الاسود ... كنا نروح ونغدو على غير جدوى فى تلك الطرق التى كانها لم تدمثها الخطى ...

وكان لنا هذا التجول القسرى امراً طبيعياً . وما زلنا عليه حتى بعدنا عن الظهر بضع ساعات ... ونحن على هذا الاطراد الممل ؛ النوم واليقظة والمعاودة الى تصفح الغرف والتجول فى انحاء القصبة ، ثم الملل الدائم ... وهكذا امضينا يومنا الاخير فى تلكلخ .

وعند المساء لقينا ذلك المامور الاصيل ، الذى هو تمثال الرقة والنزاهة ، ولعله اطلع على انقباضنا فاخذ يؤانسنا بدعابته اللطيفة برهة ثم قال :

— هل لكم ان نخرج الى النزهة ؟

واخذ يحدث لنا عن منتزهات تلكلخ ، وكان يشير بيده الى الشرق ويقول :

— هنالك ؛ على بعد ساعة ونصف يوجد منتزه « وادى خالد » وهو لطيف جداً بمائه وخضرته .

---

[*] راجع مبحث الاحوال الروحية ، ص (٣١٤) .

ثم قال :

— او اذا شئتم نذهب الى «عين الدلبة» التى تبعد منا مسافة نصف الساعة .

رضينا بهذا الاقتراح الاخير، وسرنا نقطع التل الجنوبى ، ونركض الى حضن تلك الارض الخضراء الظليلة . وهنالك تيسر لنا ان نشرب شيئاً من الماء البارد فى ذلك المساء التموزى ، ونريح فكرنا الذى كاد يضنيه الملل . لاسيما وقد متعنا النظر ونحن قافلون بغروب مذهب، حبتنا به تلك التلعة المشرقة على فضاء فسيح . وكانت تلك المسافات التى سنقطعها فى الغد ؛ مموهةً بشعاع اصفر ، يمتد الى (برج صافيتا) الذى كان يلوح عن بعد فى الجانب الغربى . وكنا نقول :

— ان هذه الاصقاع جميلة من بعيد ؛ اما من قريب ...

لم نر لزوماً لاتمام الجملة . لاننا كنا هابطين على البيوت السوداء فى تلكلخ وكانت ارواحنا تشمئز من رؤية داخل هذه القصبة التى لا يبعد ان يكون منظرها جميلاً على البعد .

وصلنا الى قصرنا المعهود ، وكان الظلام مخيماً ، ففتحنا الباب بطرقة شديدة ودخلنا . واخذت الحشرات تتراكض امامنا كما نعهد . وبعد مدة كانت ابصارنا تمتص الشعاع الضئيل ، من قنديل الزيت الموضوع على مائدة الرخام المكسرة ، والسنتنا تتلوا المراثى المحزنة على افلاس تلكلخ من الحياة . ولا ندرى ما تكبدت ارواحنا من الضجر المؤلم ، حتى حصلت على غفوة مزعجة ممزقة . وما لبثنا ان نهضنا ونجوم السماء لا تزال تبرق فى مراكزها ، واخذنا نتهيأ للسفر وقلوبنا تخفق ارتياحاً لمبارحة هذا القصر الرهيب وتلك القصبة الموحشة .

٢ — نحو انحاء صافيتا

لا نحتاج لترتيب جدول سفرى حين الانفكاك من تلكلخ . اذ ربما يضطرنا هذا التنظيم الى تجرع عذاب يوم آخر . وكنا صباحاً يتقدمنا فارس الدرك ومررنا بدار الحكومة الكائنة فى الشمال الغربى التى تبعد خمس دقائق من تلكلخ ، وما كنا ندرى الى اين نذهب وكنا نستدل من اتجاهنا الى الشمال الغربى اننا نقصد انحاء صافيتا .

ولم نستطع ان نرجع الى وعينا الا بعد ان تقدمنا فى المسير فى نقب وعث ، على ظهور تلك الجياد التى يدل مشيها على عجزها وهزالها . وتسنى لنا ان نسعد بغياب تلكلخ عن انظارنا ؛ وشرعنا نعلم بالتدريج :

— الى اين نذهب ، ومن اين طريقنا ، وكم المسافة التى يجب علينا قطعها ؟

يجب علينا قطع مسافة (٤٠) كيلومتراً حتى نصل الى (برقاله) مركز قضاء صافيتا ، اما طريقنا فكان متجهاً نحو انحاء « حذور » . وحسبنا الآن هذا المقدار من المعلومات .

غادرنا عن يميننا قرية « باروحه » ووصلنا بمدة وجيزة الى وادى « الحجر الابيض » وكانت على يسارنا قرية « الحجر الابيض » . ثم بعد ان اتبعنا الوادى الذى يتطاول الى الغرب » انعطف طريقنا الى الشمال الغربى . وكنا نمر على طريق حفت به اشجار الدفلى بازهارها الحمراء . وبعد برهة وصلنا الى واد آخر ، وادى « عين التينة » . ولديه جدول صغير . ثم شرعنا نتسلق هضبة « عين التينة » . ولاحت عن يسارنا قرية « چوبوق » ثم قامت وراءها جبال عكار ، وجبال الضنية التى سورت الانحاء الجنوبية . وها قد وصلنا الى قرية (عين التينه) الكائنة على هام الربوة. وكانت عن يميننا جبال « زاره » و « برج زارة » . ثم مررنا بقرية « زاره » وهى عبارة عن ساحة صغيرة للبيادر ، وبضع شجرات ، وا كوام من الحجارة السوداء ، والقرويين بثيابهم البالية . وكانت حقولها مزروعة بالذرة الصفراء . وبعد ان قطعنا مشجرة من التين صغيرة . دخلنا فى ساحة معطرة . وكنا نسير بين سلسلة الازهار العطرة من تلك الاشجار الصغيرة التى يسميها القرويون « شراحب » ولها زهر ازرق لطيف النشر يشبه قنو الذرة بشكله. ثم صرنا الى سهل عال ؛ وكنا نسير نحو الشمال وتراءت لنا فى الغرب قلعة صافيتا القديمة ، وبرج صافيتا ثم عن اليمين فى الشرق قلعة « زاره » وامامها قرى « الحصرجية ومرمريتا وعين الراهب ودوار العفص » وجبالها . ووراء الحصرجية فوق ذروة الجبل قرية « شويهد ».وكل هؤلاء كانوا من اعمال حصن الاكراد . وكان لهم منظر فسيح جداً ، وبعد مدة تراءت لنا قرية « نعره » وفى الجانب الغربى « صافيتا » ولاحت لنا عن بعد زرقة البحر كانها سراب اسمر فبرقت ابصارنا لمنظره وقد كنا محرومين من رؤيته منذ مدة طويلة . وبعد ان قطعنا واد طويل كانه مضيق اشرفنا على البحر وانشرحت صدورنا لمنظره اللطيف . ثم هبت نسمة بليلة من جهة البحر وجمعت من وجه الحقول المزروعة كل نشر طيب ، ونفحتنا به فانعشت ارواحنا واهدتنا حياة نشيطة فى تلك الهجيرة التموزية . وها قد انجلت امامنا الحقول الخضراء . وهذه الفسحة التى غردت اطيارها لم تكن مستوية ولكنها ليست متعبة بدرجة يشتكى منها .

ثم بعد برهة تراآى لنا قصر من قصور الدنادشة فى (نعره) وكان منظر هذ القصر من بعيد يشبه منظر الحصن ، او برج الحصن . على اننا ما كدنا نقرب من هذه القرية الا ورأينا ذلك البرج شيئاً مجللاً بالحصائر . ودخلنا فى قرية نعرة ، ومررنا من غربها بواديها ثم اتينا « عين نعره » واجتزناها .

كنا نقطع المسافات بسيرنا ولكن المناظر المحيطة ولاسيما البعيدة كانت كانها ثابتة .

واطردت حوالينا مناظر الحقول المزروعة . وبعد برهة لاحت عن يميننا قرية (شلوح) ، ومررنا من داخل قرية « تل الحوش » وتراءت لنا عن بعد قرية (طليبى) فوق ربوة فى الغرب .

والآن انعطف بنا الطريق من الشمال الغربى الى الغرب . وكنا نمر بين القرى النصيرية . وها نحن نرى البنات النصيرية تثابر على عملها فى الحقول . وبعد ان قطعنا وادى « تل الحوش » الذى امتد مقدار بضع دقائق . اخذنا نتبع الضفة اليسرى من جدول « تل الخليفة » ، ثم اجتزنا النهر بخيلنا الى حقول واسعة خضراء تسقى من ماء هذا الجدول وشرعنا نسير فيها .

وما لبثنا ان رأينا فى الجانب الغربى ربوةً ، وفى ناحية الجنوب الغربى منها برجاً . وهذه كانت قرية (برج العرب) التابعة الى قضاء حصن الأكراد .

*
* *

لبثنا برهة نستريح فى هذه القرية وكانت الشمس زاولت نقطة الزوال منذ مدة وكنا على وشك اتمام الانحاء الغربية من قضاء حصن الأكراد وقد تراءت لنا فى الشمال قرية « متراس » من اعمال ناحية حذور ، ثم قصبة « كفرون » مركز تلك الناحية الكائنة وراء جبل صغير ، اما فى الجنوب فكانت ترى جبال « ضنية » من بعيد بشواهقها البيضاء التى كأنها صبر من قطن . وهنالك كنا داخلين فى الانحاء الجنوبية من ناحية (حذور) .

٣ — تركمان ناحية حذور

[١] — ناحية حذور — يحد هذه الناحية قضاء حصن الأكراد من الشرق والغرب والجنوب ؛ وقضا صافيتا من الغرب والشمال ، وهى عبارة عن قطعة ارض طويلة ممدودة من الشمال الى الجنوب وهى مربوطة مباشرة بلواء طرابلس الشام وعدد سكانها يناهز خمسة الاف نسمة . ونصف هؤلاء السكان على التقريب من التركمان السنيين ومن النصيريين ، والنصف الآخر من الروم الاورتودوكس والمارونيين .

وتتألف هذه الناحية من ثلاثين قرية ومركز الناحية هى الآن قصبة « كفرون » . وهذه القصبة عبارة عن ثلاثمائة مسكن وعدد سكانها (١٢٠٠) نسمة من المارونيين والروم الاورتودوكس . وهى اعظم قرية فى الناحية . اما باقى القرى فمنها ما يتألف من بضعة بيوت ومنها ما يربو عدد منازلها على الستين والسبعين . وعليه تتراوح نفوس تلك القرى بين (١٥) و(٣٥٠) نسمة . ومن هذه القرى ما يسكنها الروميون فقط مثل قرى « نبع المركز الزعفرانة ، خربة الجب . تين النبيل » ومنها ما يسكنها المارونيون مثل قرى « وادى

المجاوى ، تقبو ، حايه ، قلعة النمر ، مجيدل ، عين عفان » وبعض هذه القرى مسكون بالنصيريين فقط مثل « الدوير والجديده ودير كيش » .

اما باقي القرى ما عدا قرى (بساتين ، بيت رسلان (*) متراس ، عين دابش) السلاق يسكنها التركمان . فهى مقطونة بالسكان المختلفة بصورة مختلطة.

اما الحيات العمومية والاجتماعية فى النصيريين والروم والمارونيين فهى على عين الحالة فى الاقوام المجاورة لها ولذلك لا نرى لزوماً لتكرار البحث وعليه ننقل الكلام الى تركمان حذور :

[٢] — *تركمان حذور* — ان التركمان فى حذور يشغلون فى هذه الناحية اربع قرى فقط — كما ذكرنا سابقاً — وهى قرية بساتين وفيها (١٠٠) نسمة ثم قرية بيت رسلان وفيها (٢٥٠) وقرية متراس وفيها (٢٥٠) وقرية (عين دابش) وفيها (٣٠٠) نسمة من التركمان. وعليه يكون مجموع تركمان حذور عبارة عن (٩٠٠) نسمة تزعم هؤلاء التركمان انهم جاؤا الى هذه البقعة منذ اربعماية سنة من انحاء اضنه ويزعم بعضهم ان زمان مجيئهم كان اقدم من هذا التاريخ وانهم من عشيرة قايي خان . ولكن ليس لديهم من برهان تاريخى يؤيد الادعى الاول ولا الثانى .

ان تركمان حذور هم من قبيلة واحدة ولكنهم الآن عشيرتان . الاولى عشيرة « المتراس وعين دابش » ورئيسهم امير المتراس . والثانية عشيرة البساتين وبيت رسلان ، وهؤلاء رئيسهم حاكم تركمان البساتين .

وقد كانت ناحية حذور جميعها تابعة لهاتين العشيرتين من قبل . ولهذا كانت بعض القرى مربوطة بمتراس ، والاخرى ببساتين . ويروى ان ق. كان مركزهم العمومى فى «خربة حذور » . وانهم كانوا يسكنون حذور الشرقية اى الجرد فى الصيف ، وحذور الغربية فى الشتاء .

يتراوح عدد اعضاء اسرة الرئيس فى متراس بين (٢٠—٣٠) نسمة اما اسرة الرئيس الذى فى بساتين فانها قليلة الاعضاء . وليس لاحدهما اسم عائلهءى ما عدا اسمهما الذاتى .

وكان لهؤلاء الرؤساء سيطرة وساطة قوية فى تلك الانحاء قبل تشكيل ادارة الناحية. ثم سقطت درجة تلك السلطة والقدرة بعد تشكيلها ، ولكن غنائهم . وثرائهم لم تزل على ما هو . وان لرئيس متراس دخلاً سنوياً يناهز الف ايرة . ورئيس بساتين ايضاً له مبلغ وافر من الدخل السنوى .

(*) يوجد فى هذه القرية مقدار من الروم الاورتودوكس ايضاً .

وهؤلاء الرؤساء يكادون ان يكونوا بلا نصيب من التحصيل وحياتهم الاجتماعية ليست على ما يرغب . ومنازلهم عبارة عن طابقين مستورة سطوحها بالقرميد ، وهي صغيرة الحجم. اما اذا قسنا حياتهم بحياة غيرهم من التركمان الذين يسكنون بين تلك الردم الحجرية لا ترم تظهر علائم الرياسة عليهم . ولباسهم عبارة عن رداء « قنباز » طويل عليه جبة « سا كو » طويلة. اما عوامهم فلا فرق بين لباسهم ولباس بقية القرويين . ثم ان عيشة التركمان هي انظف واحسن من عيشة النصيريين ، ولكن ليست احسن من عيشة النصارى . واكثرهم يشتغل بالزراعة ، وبعضهم ينسج السجاد كغيرهم من التركمان وهم ابطال شجعان ، وبهذه المتانة تسنى لهم ان يخلصوا من تسلط النصيريين عليهم . وقبل اعلان النفير العام ، كان بعضهم يتسلط على من في جوارهم من القرى ، ولذلك ترون تلك القرى ، والقرويين يرهبون جانبهم .

ان جميع التركمان من السنيين ، وهم متمسكون بدينهم الى درجة التعصب . ونساؤهم يسترن رؤسهن بقناع ابيض ، ولا يظهرن شعرهن .

اما لغتهم فقد امتزجت بالعربية العجمي ، وكان لها شكل غريب . وهم متبعون محيطهم في اذواقهم ومعيشتهم . وعليه فان اوصاف المحيط تترا آى فيهم اكثر من خصائصهم النسلية . ثم انهم مشوا مع المحيط ايضاً بعاداتهم وبحياتهم العمومية .

٤ — نحو برمانه

بعد ان فارقنا ديار حذور ببرهة وجيزة اجتزنا (نهر العروس) ودخلنا حدود قضاء « صافيتا » . ثم هبطنا في منحدر وصعدنا في مرتقى ، ثم هبطنا في منحدر آخر ووصلنا الى وادي « عين الجرد » وبعد مرتقى طفيف تسلقنا في الربوة الى قرية « عين الجرد » ، ثم بعد « وادي سرايا » المزروع بالذرة ترائت عن يسارنا قرية « احمد ونوس » .

ولم يلبث طريقنا ان انقلب الى وعث محض ، وبعد ان غادرنا عن يسارنا قرية « ام الحوش » وصلنا الى وادي « ساسينه » . ثم اجتزنا مشجرة الزيتون وتركنا قرية « ساسينا » على يميننا ، ولاحت لنا قرية « بيادر » على رأس الهضبة . وقلعة « صافيتا » لم تزل امامنا على بعد.

كنا نتقدم منذ مدة في الوادي ، قاصدين « نهر الابرش » حتى وصلنا اليه . وهذه الفسحة كانت خضراء على امتداد النهر . وبعد ان مررنا بين اشجار الزيتون والتين والتوت ، شرعنا ثانياً في تسلق الهضاب والربى ، وكانت فسحة النظر تتسع امامنا كلما ازددنا صعودا في تلك المرتفعات . ثم بعد ان اجتزنا ذروةً عاليةً ، انجلت قلعة صافيتا امامنا بصورة واضحة . وما لبثنا ان شاهدنا الهضبتين اللتين بنيت على سفحيهما قصبة صافيتا

مرتكمة بيوتها فوق بعضها ومسورة ببرج صافيتا (*)

وكان هاتان الهضبتان يظهران عن بعد على هيئة سنامين . وقد تحرى لهما رفيق على مثل مناسب وشبههما بسلحفتين رابضتين على هاتين السنامين . وكنا كلما قربنا من هذه القصبة نراها اشبه بصفد من البلاد السورية . وحتى ان اسم « صفد » منحوت من «صافءت» (**)

ويحتمل ان تكون كلمة صفد وصافيتا لفظين عبرانيين معناها البلدة المحصنة وعلى كل حال فان قصبة صافيتا لها منظر فسيح كقصبة صفد . ولاسيما ناحيتها الشرقية فانها تطل على فضاء فسيح ، وتشرف على الساحة التى ما زلنا منذ ثمانى ساعات نداًب لقطعها برباها ووديانها وقراها وسهولها . ثم ترمى من جهة الغرب الى البحر ، وتطل من الشمال الغربى على انحاء دره كيش ، ومن الجنوب على اصقاع عكار .

ان الجانب الشرقى من صافيتا محاط بقوس ، والانحاء المنحطة التى تكون فى منتصف القوس هى مغروسة باشجار الزيتون

كنا نتقرب من البرج الكائن فى مركز صافيتا ، ونمر بين اشجار الزيتون فى داخل القصبة ، ونصعد فى هضاب ترابية . ثم دخلنا لنستريح فى بناء قريب من القلعة يطل على جميع الانحاء . واخذنا ههنا نمتع النظر فى تلك المناظر اللطيفة الفسيحة مدة وافرة . ونجهد لننس وعثاء السفر .

*
* *

خرجنا من مدخل برج صافيتا الواسع ، واخذنا نسير بين اشجار الزيتون وكنا نشعر بما حل بنا من التعب المبرح . وان هذه السفرة التى ما زلنا منذ الصباح ونحن فيها كانت تودى بقوانا كلما تمادى زمنها حتى كادت تكون غير محمولة ، وها نحن نهبط فى منحدر اضطررنا فيه لان نستسلم الى جيادنا التى فقدت قواها . وكانت تتراآى عن يميننا على البعد قرية « كرم مغازى » و « وبيت طبون » . وكنا نهبط فى تلك المهواة المتجهة الى الشمال ، والتفتنا الى ورائنا ، فادهشنا ذلك السبيل فاغضينا عنه واخذنا نتابع السير ، وقد ظهرت قريباً منا قرية « الخويخة » ثم عن يسارنا قرية « بيت الموعه » و« جروياد » .

وبعد ان اجتزنا عدة ربى اخذنا نتجه نحو قصبة « برمانه *Barumana* » التى لاحت لنا عن بعد فوق ذروة الربوة . ثم سرنا برهة فى واد ووصلنا الى فسحة سهلة . وكانت هذه الفسحة محاطة بهضاب بعيدة على شكل قوس . وهنالك تتابعت على انظارنا من الغرب قرى [رويسة المندرة ، بيت الوعى ، جرويه ، بجمعاش ، بيت حمود زهيره » وعن اليمين

(*) الذى سماه الصليبيون Castel Blanc

(**) (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) ص ٣٠٣

[كفرريخه ، الصومعة ، الجديدة] وغيرها من القرى .

ثم انقلب سبيلنا الى واد واسع طويل ، يسمى « عين المشمسه » . وكان هـذا الوادى يمتد بمنعطفاته حتى يصل الى قصبة « برمانه » . والآن حل المشى ، وترطب الهواء . وكان هذا الوادى على غاية من بداعة المنظر بما على حفافـه من اشجار الزيتون ، و سنديان ، وبازهاء ، وكلائه واشواكه ، وبخضرة ذرته ، وبجميع خضرته . وها قد خيم عليه ظل العشى واقتم لونه ، بيد ان الربى عن يميننا لم تزل مذهبة بنور الشمس.

هذه هضبة « ظهر الشويهد » امامنا ، وكنا نتسلق فيها ونرى عن يميننا من بعيد فوق ربوة اخرى مزار « النبي زاهر » الذى يجله النصيريون . وها نحن نجتاز ربى جبال النصيرية المتسلسلة . وقد تهيئت الشمس لتجمع نورها الذهبي من آفاقنا المرئية . وهذا واد آخر قائم امامنا وورائه هضبة ، ثم فوق هذه الهضبة قصبة « برمانه » كامنة بين ظل الخضرة تتشرب سمرة العشى على هدو تحت لمعان كواكب المساء . ثم انحدرنا فى وادى « عين التفاحة » وبعد ان سرنا مدةً بين اشجار الزيتون والتوت ، اخذنا نتسلق الجانب الآخر ، ثم اجتزنا قرية « القصيبة » وهنالك وصلنا الى قصبة « برمانه » بعد ما افلت الشمس .

— ١٠ —

صافيتا

١ — موقعها وحدودها

ان قضاء صافيتا الكائن فى الجـانب الشمالى من مركز قضاء طرابلس الشام يحـاط شمالاً بلواء اللاذقيـة ، وشرقاً بقضاء حصـن الاكراد ، وجنوباً بقضاء عكار ، وغرباً بالبحر الابيض.

٢ — مساحته وعدد سكانه واحواله الادارية

تقرب مساحـة القضاء من « ٦٦٧٢٠٨ » دونمات ، منهـا « ٤٠٤٧٠٨ » من الاراضى الاميرية و(٢٦٠٠٠٠) من الاراضى المملوكة ، و(٢٥٠٠) من الاراضى المتروكة . امـا احراجها فيبلغ اتساعها مقدار (٥٠٠٠) دونم . اما عدد سكان القضاء فكان فى سنة ١٣٣٢ على ما يأتى :

	ذكور	اناث
المسلمون	١٣٥٩١	١٩١٥٦
الروم الاورتودوكس	٢١٨١	٢٤٢١
« الكاثوليك	٧٦	٢٦
المارونيون	٩٢	١٤٣
پروتستانت	٦٣	١٦٤
يكون	١٦٠٠٣	٢١٩١٠
	٣٧٩١٣	

ان جميع المسلمين فى قضاء صافيتا ينتمون الى مذهب النصيرية. وكان مقدار الوفيات فى هذا القضاء سنة ١٣٢٩ و ١٣٣٠ و ١٣٣١ ، [١٤٤ و ٨٧ و ١٦٦] نسمة ؛ اما الولادات فكان مقدارها فى عين السنين (٢٠٦ و ١٠٢ و ٢٢٢) نسمة . وقد تفشت فى السنين الاخيرة فكرة المهاجرة الى اميركا بين سكان هذا القضاء ، ويدعى بوثوق انه اضاع من سكانه ما يناهز (١٠—١٥) الفاً الى الآن . وان نصف هؤلاء المهاجرين هم من النصيريين والنصف الآخر من المسيحيين . فالنصيريون يقصدون اميركا الجنوبية والمسيحيون يذهبون الى القسم الشمالى منها ، ويرسلون فى كل سنة مقدار (١٥٠،٠٠٠) ليرة الى عائلاتهم . وان فكرة المهاجرة لم تسر الى النساء بعد .

لم يشرع بتشكيل النواحى بعد فى هذا القضاء ، اما عدد القرى فيه فيبلغ الى ٥٣٦ قرية ولكن لا ننسى ان اكثرها خرباً تضم بضعة بيوت لاقيمة لها . نرى ان من النواجب الذى لا بد منه تشكيل النواحى فى هذا القضاء الواسع ، والذى عرف سكانه بخشونة الطبع وصعوبة المراس ، ونجد ان القسم الجنوبى والشمالى والغربى ، والشمال الشرقى فيه كلهم كائن فى حالة ناحية طبيعية . ويمكن اتخاذ قرى ام الحوش ومجدلون والبستان ودوير وسلان مراكزاً لهاتيك النواحى . ثم ان ربط ناحية حذور بمركز قضاء طرابلس لا خير فيه . فاذا قسمت هذه الناحية بين قضائى حصن الاكراد وصافيتا لا جرم يكون انفع لسكانها وانسب .

لا اثر للعمران فى هذا القضاء ، و [illegible] ان نبحث عن العمران فى هذا القضاء محروم من نور العلم و [illegible] و [illegible] القضاء ، ولو فتح طريق من موقف « [illegible] » الكائن فى سكة طرابلس — حمص [illegible] الى [illegible] مركز القضاء ، ثم طريق آخر من طرطوس الى قرية « مشتى الحلو » الكائنة فى اقصى الشرق ، بشرط ان يمر بمركز القضاء ايضاً لا جرم يكون وسيلة لحياة هذا القضاء الاقتصادية

اما معارف القضاء ؛ فلا يعثر فيه على مؤسسة علمية ترتاح لها النفس . ولا يوجد بين الذكور من سكان هذا القضاء الا اثنان فى المأة ممن يقرأون ويكتبون، ولكن يشق الانفس ولم يباشر بتعليم الاناث الا قبل سنتين ، وقد فتحت لهن مدرسة فى مركز القضاء عبارة عن صف واحد وبوشر فيها بالتدريس — بحول الله — . وعدد الطلاب فى مدرسة الذكور مقدار (٤٥) ، وفى مدرسة الاناث (٢٥) . وتوجد مدرسة ابتدائية فى قرية طابيى ، واخرى فى قرية الصفصافة والمعلم فى الاولى لا باس به ، ولكن معلم الثانية يؤثر عنه انه غير اهل لها ، وليس بنشيط .

٣ — الاحوال العمومية فى القضاء

ان هذا القضاء يشغل القسم الجنوبي من جبال النصيرية ، ويتألف من اراض مملؤة بالعوارض . ونهر الابرش يقطع هذا القضاء على امتداده ويصب فى بحر الابيض ،ويوجد غير هذا الجدول هناك نهر العروس ونهر قيس وهما دائمان فى الجريان ،ثم جدول ابو يابس وابو ذكرى والغمقه وهم يفيضون ويغيضون .

ونهر العروس ينبع من قرب حصن الاكراد ويصب فى النهر الكبير . وينبع جدول الابرش ، من قرية كفرون التابعة الى ناحية حذور . اما جدول قيس فينبع من قرية بريخية التابعة الى قضاء صافيتا وهذا الجدول يصب فى البحر فى المحل المدعو بحصان البحر من اعمال قضاء المرقب .

ان اقليم هذا القضاء معتدل ، ومطرد بوجه عمومى . وهواؤه فى المواقع المرتفعة نقى ، اما فى السهول المحاذية الى ساحل البحر فهو مرزغى بسبب كثرة المستنقعات ويمتد فيه موسم الربيع من نصف شباط الى نصف مايس ، ويدوم صيفه الى اواخر تشرين الاول وحينئذ يبرد الطقس وتبتدأ الامطار ، والامطار التى تسوقها الارياح الجنوبية والجنوبية الغربية لا تدوم اكثر من يوم . اما التى تسوقها ارياح الشمال اوالشرق تدوم بضعة ايام . وتهب فى كانون الاول العواصف ، وتكثر فيه الانواء ، وينزل الثلج فيه على المواقع المرتفعة .واعظم درجة حرارته فى شهر تموز (٢٨) درجة واصغرها فى شهرى كوانين (— ٤) درجات . اما حرارته على الحساب الوسطى فهى لا تربو على (٢١) درجة . والارياح التى تهب منذ ابتداء نيسان الى اواخر تشرين الاول تكون غربية على الاكثر . والارياح الباردة التى تهب من الشرق تبتدأ من اواخر تشرين الاول وتدوم الى اواخر مارت .

٤ — الفصول الزراعية

تزرع فى هذا القضاء المحصولات الصيفيـة من (٢٠) ايلول الى (٢٠) كانون الاول والشتوية من (١٠) شباط الى (٢٠) نيسان . وموسم الحصاد يكون من ابتداء مايس الى اواخر حزيران ، ثم من (٢٠) اغستوس الى منتصف ايلول . ويعقد القرويون فى كل سنة سوقاً فى دير مار الياس يدوم من (١٠) تموز الى (٢٠) منه . ويتعاطون فيه البيـع والشراء ، ويحصلون منه على حاجياتهم .

ان محصولات القضاء بالدرجة الوسطى هى على ما يأتى :

جنس الغلال	مقدار الاراضى المزروعة	مقدار الغلال
	دونم	كيله
القمح	١٠٠،٠٠٠	٧٠٠،٠٠٠
الشعير	٥٠،٠٠٠	٣٥٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠
الحمص	٥٠٠	٣،٠٠٠
الفول	٥٠٠	٤،٠٠٠
السمسم	١،٠٠٠	٢،٠٠٠
العدس	٥٠٠	١،٥٠٠
الجلبان	١،٥٠٠	٣،٥٠٠
مشجرات التوت .	٦٧،٠٠٠	
اشجار الزيتون	٥٠،٠٠٠ عدد	٢٥٠،٠٠٠ اوقه
علب بذر الحرير	٥،٠٠٠ عدد	١٥،٠٠٠ كيلو شرانق

ويوجد فى قرية مشتى مصنع حرير يخص حبيب بك فرعون احد اغنياء بيروت .

٥ — الآثار القديمة

يوجد فى قضاء صافيتا قلعة « برج صافيتا » وفى الجهة الشرقية (حصن سليمان) من آثار الرومانيين . و(خرب آمريت) الكائنة قبالة جزيرة ارواد ، وقد تكلمنا عنها اثناء البحث عن ناحية طرطوس . ويوجد فيه ايضاً ثلاثة بروج قديمة ، وهم « برج النخلة ، وبرج الميعاد ، وبرج العرب ».

فنهم « برج صافيتا » كان يسمى فى زمن الفرسان المعبديين باسم Castel-Blanc .

وهو مبنى على فرع من فروع جبال النصيرية . ولم يعرف بانيه بعد . ويذكر المؤرخ ابو الفدا ان نور الدين فتح هذا الحصن مع قلعة اريمه Chevrnell الكائنة بين خرب امريت وطرابلس الشام وذلك سنة ١١٦٧ ميلادية . ولكن لم يلبث النصارى ان استردوه ، واقطعوه الى الفرسان المعبديين . ولم تدخل هذه القلعة فى ايدى المسلمين الا فى زمن الملك الظاهر بيبرس .

واليوم فقد بنيت المنازل حول هذه القلعة وحتى فى داخل سورها . وهذه الربوة يبلغ ارتفاعها من الشمال والجنوب الى (٣٢٠) متراً . اما فى الجهة الشرقية والغربية فهى تتصل بجبال النصيرية بهضبات صغيرة قليلة الارتفاع .

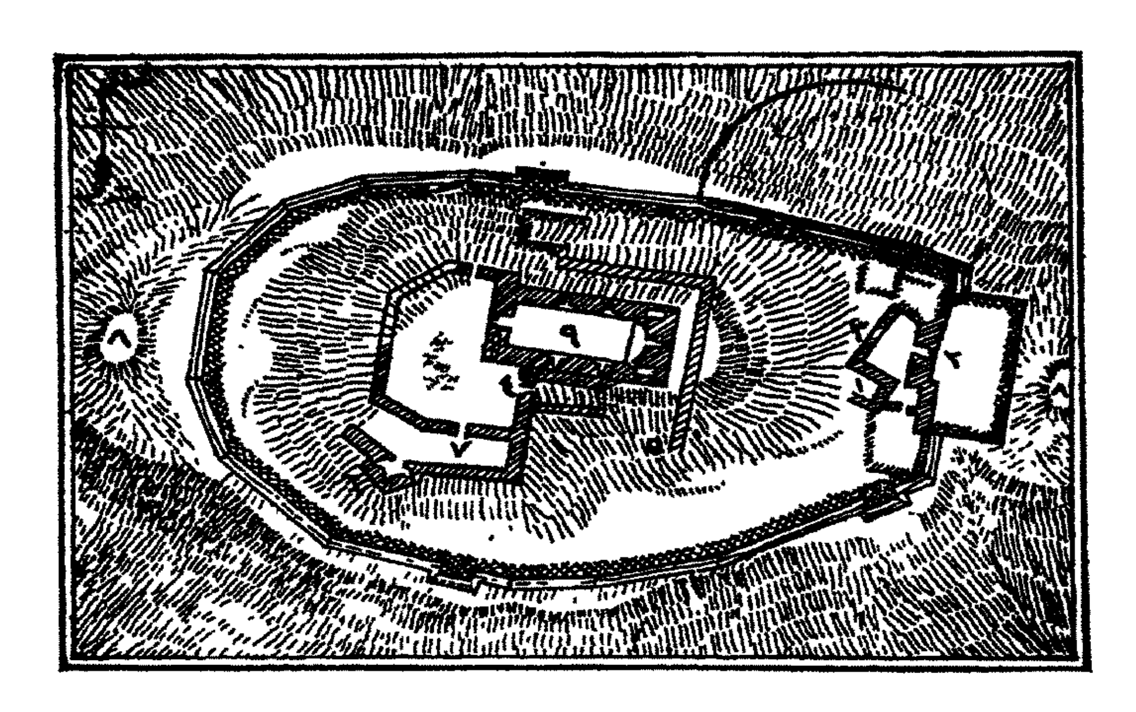
ويحيط بهذه القلعة سوران ؛ الاول بشكل ذى كثير الاضلاع غير منتظم ، وهو مجهز بعدة بروج . وتوجد فى اقصى الشرق والغرب من هذا البناء ربوتان اشرنا اليهما برقم (٨) فى خريطتنا .

ومن المظنون ان قد بنيت عليهما البروج الصغيرة ، وترى امام الباب المشار اليه برقم (٢) خربة تعرف عند الاهلين بقصر بنت الملك ، وطراز بنائها يماثل بناء قلعة طرطوس مماثلة تامة . ويحتمل ان يكون هذا البناء اضيف الى الحصن من بعد . لانه لو كان من اصل الحصن لما بنى البرج المشار اليه برقم (١) لاجل الدفاع عن الباب المرقم برقم (٢) . وكان موجوداً بين السورين مخازن مقبوة ، واسطبلات وبما ان النصبة اليوم مبنية ههنا يعسر الآن التحرى على هذه الآثار وتحقيقها .

اما الباب فى السور الثانى المرقم برقم (٣) هو بمثابة مدخل عمومى الى داخل الصحن والقسم الجنوبى من هذا السور ، ثم برجه الذى اشير اليه برقم (٦) لا يزال قائماً على حاله الاصلى . والاحرى بالتدقيق فى هذا الحصن هى كنيسته المشار اليها فى الخريطة برقم (٩) والتى كانت بمثابة برج له ايضاً . وهى مبنية فوق بئر محفور فى الصخر ، وتنسب الى « سن نيشه‌ل » من الاعزة وهى اليوم معبد الروم الاورتودوكس وهى بشكل متوازى الاضلاع وطولها (٣١) متراً ، وعرضها (١٨) ومحفور على بابها رسم الصليب كما هو الحال فى قلعة طرطوس . وهذه القلعة باقسامها وحالتها الداخلية تشبه قلعة حصن الاكراد او حصن مرقب .

اما طول المعبد الذى يتألف منه هذا البناء هو (٢٥) متراً وعرضه (١٠٫٥٥) وتوجد غرفتان فى جانبى محرابه يدخلهما النور من نوافذ صغيرة وضيقة . اما منافذ البناء فيظهر من نمط انشائها انها اعدت لتصلح للمدافعة ايضا اذا اوجب الامر . وعلو سقفه يبلغ ٧٫٣٠ متراً .

يصعد من سلم بنى داخل جدار الحصن الجنوبى ، الى الطابق الثانى ؛ وطول هذا



الخطوط الداخلية فى حصن صافيتا

١ برج ، ٢ الباب الاول ، ٣ الباب الثانى ، ٤ مدخل السور الثانى ، ٥
مسلم ، ٦ برج ، ٧ انقاض الابنية ، ٨ الهضاب ، ٩ برج القلعة والكنيسة

القسم الذي هو عبارة عن ردهة فسيحة (٢٦٠) متراً وعرضه (١٦٠) . ثم يصعد من السلم القائم في الزاوية الجنوبية الشرقية الى اعلى القلعة . ويمكن للراصد اذا وقف في في هذه النقطة ان يتعاطى الاشارات مع قلعة حصن الاكراد واريغة او مع برج زارا ، او برج العرب الكائنات بمسافة ساعتين عن برج صافيتا .

ثم توجد في هذا القضاء خرب حصن سليمان على ربوة مستورة بالاشجار في جانب جبل النبي صالح الذي يبلغ ارتفاعه (١١٤٠) متراً . وطول هذا الاثر التاريخي الذي سماه الاقدمون (بائوتوسه Baetocece) (١٤٤) متراً وعرضه (٩٠) متراً وهو بشكل مستطيل . ويزعم موسيودي M. Dey الذي فحص الآثار القديمة السورية فحصاً دقيقاً ان هذا من احسن الاسوار المقدسة الموجودة في بلادنا . وهو يشبه بشكله الحاضر الى رسم الحرم الشريف الموجود في بلدة القدس . وهذا السور مبني بحجارة طول كل واحدة منها (٦—٩) امتار وعرضها (٢—٣) وثخنها متر واحد . ومحفورة صورة اسد في كل زاوية من الزوايا الموجودة في الجهة الشمالية . والزاوية الكائنة في الشمال الغربي مزينة بشجرة من السرو محفورة في حجر كبير . ولهذا السور اربعة ابواب ، وتوجد فوق الباب الكبير المطل على الناحية الشمالية كتابات مسهبة باللاتينية والرومية . وفي الكتابة اللاتينية التي يظن انها كتبت سنة (٢٥٣—٢٥٩) ميلادية مذكورة اسماء بعض اقياصرة الرومانيين كسهزار وبوبليوس ليسينيوس ووالدريوس . اما الكتابات المحفورة فوق المدخل العام ، او فوق الابواب القديمة فهي مزينة بصورة عقاب يكتنفه صورتان مخيلتان Genius وتوجد بين مخالب هذا العقاب عصاً ملتفة عليها حية ، وهي اشارة لعطارد آلهة التجارة . تشعر معنى الصلح . ويجب ان لايكون تاريخ هذه الكتابات قبل القرن الاول للميلاد بمدة وافرة . وفي منتصف المستطيل المحاط بالسور يوجد معبد ناقص ، مبني على الطراز الايوني ، ومذبح ايضاً ملاصق للجهة الشمالية . والآن لم يبق من البناء الاول الا الجدران ، وبضعة اعمدة

ثم يوجد في الشمال الغربي من السور بعض بنايات قديمة تسمى بالدير . ويمكن ان تكون هذه البنايات بمثابة مدرسة للرؤساء الروحيين الذين كانوا يقدسون معبود بائوتوسه س . وهي تتألف من معبد صغير ، ومن بقية بنيان واسع .

٦ — حالة برمانه ومناظر ضواحيها

ان قصبة (برمانه Brummena) التي هي مركز قضاء صافيتا مبنية في الجانب الغربي ، من ربوة (تليجه) التي يبلغ ارتفاعها مقدار (٨٥٠) متراً ، قريبا من رأس تلك الربوة . وهي مستورة بشجر الزنزلخت والتوت والزيتون والجوز ، ولذلك فان لها منظر

ناصر . وبيوت هذه القصبة التي تربو بعددها على (٢٥٠) بيتاً مبنية بحجر الكلس الابيض وسطوحها مطلية بالتراب الابيض ايضاً ، وهي منتثرة بهذا اللون الناصع في انحاء تلك الربوة بالطف ما يكون من نضرة المنظر . وقرية « بيت تلبيجه » الكائنة في الجهة الشرقية من الربوة قريباً من القصبة هي غير منظورة لانها كائنة في سفح الربوة ، وبما ان جميع الجهات في تلك القصبة ما عدا الناحية الشرقية مشرفة على فضاء فسيح ، يكون منظرها واسعاً جداً .

ثم ان الجهات الثلاث لقصبة برمانه واسعة ومملوءة بانواع الالوان . ولهذا هي غنية بالمنظر الطبعي . ويوجد في الناحية الغربية الشمالية منها « وادي الفزرة » ، ثم وراءه هضبة « دره كيش » الصغيرة ، وفوق ذروتها الخضراء قرية « دره كيش Dechich » وهي عبارة عن بضعة عشرة بيتاً . وهذه القرية تعتبر من الاقسام الملحقة بقصبة برمانه ولهذا يكون وادي الفزرة مفرقاً هذه القصبة التي قامت على رأس هضبتين الى قسمين .

ومنظر هذه القصبة من الناحية الجنوبية لطيف ايضاً . وهي تطل على (برج صافيتا) الملتحف بالالوان الزاهية ، ثم على قرية (صافيتا) وعلى الربى القائمة في تلك الفسحة مثل ربوة (عين الجيش) القريبة ، ومن ورائها ربوة « فتاح الصار » وتشاهد على رأسيهما قرية « الشويهدات » وقرية « فتاح النصار » ، ثم من وراء هاتيك الربى الخضراء تلوح جبال لبنان كالظل البعيد .

والجانب الغربي من برمانه لطيف ايضاً . وتشاهد من هناك بعد الوادي القريب منها ربوة « الولي زاهر » التي يبلغ ارتفاعها مقدار الف متر كانها صبرة من خضار ، ويرى فوق ذروتها مرقد « الولي زاهر » الذي يجله النصيريون . ثم يلوح من ورائها البحر ويرسم بزرقته على صفحات الافق خطوطاً ظلية . ثم توجد قرية « النخلة » عن يمين ربوة الولي زاهر في الجانب الغرب الشمالي من برمانا ، و« قاعة النخلة » وكثير من القرى .

وفي الجهة الشرقية الجنوبية منها توجد قرى « بيت شباط ، وفسقين وجباب وبيت المرج » يتسلسلن الى اقصى المسافات ، ثم واد يتغلغل في البعد بين هاتيك القرى وهذا يطلعنا على ما للقصبة من المنظر اللطيف الفسيح .

٧ — خطوط برمانه الداخلية

ان جميع البيوت في برمانه قائمة على ذروة « تلبيجة » الخضراء ، كانها اكواخ بيضاء مبنية في رياض . ولا يعثر في هذه القصبة على بيت قرميدية . وجميع سطوحها مرصوصة بالحجارة ومن فوقها التراب . ولهذا كانت القصبة عبارة عن لونين ، الاخضر من الاشجار

والابيض من البيوت . وبامتزاج هذين اللونين ، سائد في هذه القصبة لدرجة لا يرى فيها بيت الا ويخلط بالرياض .

ومع هذا فلا نظن ان تلك البيوت حصلت على شيء من الصنعة والترتيب ، بل هي عبارة عن ركام حجرية يشغل كل واحد منها ساحة لا تجاوز بضعة عشر متراً مربعاً لاسيما البيوت التي تكون مجتمعة ومتصلة ببعضها مثنى وثلاث ، فهي انموذج للسقامة والعقامة التي تجلت في منازل هذه القصبة . ومن العبث ان نتحرى خطة منظمة في وضع هذه القصبة لان بيوتها جائت كالمحذوفة حذفاً فوق تلك الهضبة . ويوجد في مركز هذه القصبة ميدان صغير محاط ببضعة بنايات كدار الحكومة والجامع والمدرسة وهي تلفت النظر باتساعها النسبي . وهذه الابنية مطلية الداخل ، مع ان اكثر بيوت القصبة لا طلاء على جدرانها . ولا نرى لزوماً للاسهاب في تعريف سقامة تلك البيوت التي اكثرها خال عن المنافذ واذ فكرنا بالجذوع التي سقف بها ، وبجدرانها التي لا تتجاوز مترين او ثلاثة امتار ثم بارضها المفروشة بالتراب وساحاتها المستورة بالسرقين نعلم نسبة سقامة الداخل في هذه القصبة التي كادت ان تكون جنة بشكلها الخارجي .

ولا ندري كيف يمكن اطلاق اسم مساكن على تلك الاكواخ الوسخة التي لا تصلح لان تكون مأوى للدجاج . ويوجد في متوسط القصبة بضعة اكواخ لا تتسع ابوابها عن متر واحد ويزعمون انها حوانيت .

وقصارى القول ان داخل برمانه في حالة يرثى لها . على انه يجب ان تكون لها ميزة عن بقية القرى لانها مركز القضاء ، وان اكبر قصبة في هذا القضاء هي « برج صافيتا » ولكن اكثر بيوتها لا تفرق شيئاً عن تلك الاكوام الحجرية الموجودة في برمانه ثم اذا فكرنا في القرى الاخرى التي لا يزيد عدد بيوتها عن عشرة او عشرين تتضح لنا حالة هذه الثلة البشرية التي تقطن هذا القضاء بعيشها ومساكنها .

وطرق هذه القصبة تنطبق على حالة ابنيتها . وهي عبارة عن خطوط تنساب بين البساتين على غاية من الضيق ، او انقاب معوجة حفرت في قلب الصخور . وقد يكون منها ما هو متوازي الحفاف واكثرها لا شكل ولا استقامة .

واذا اردنا ان نطلع على هذه القصبة من الداخل فلا نحتاج الا لنسلك احد هذه الطرق ونرمي بنظرنا الى داخل هاتيك المساكن ، وهذه النظرة البسيطة تكشف لنا الغطاء عن قيمة الحياة التي يعيشها البرمانيون وحقيقتها .

ورغماً عن خلو هذه القصبة من الانتظام العمراني ، لم تبخل عليها الطبيعة بشيء من النضارة واللطافة . ثم يوجد داخل القصبة منبعان كانهما يبعثان مذاب الالماس لا ماء ، لاسيما هواؤها فهو لا يقل جيادة ولطافة عن مائها الذي كانه مادة الحياة . وقصارى القول لولا

ان لبرمانة تلك المزايا الطبيعية لكانت كسائر اخواتها لا تستحق ان يذكر اسمها فى خريطة الولاية . ولكن ماذا على سكانها لو عرفوا طريق التنعم من هذه النعم الطبيعية ،ولم يتركوا اوطانهم على هذه الدرجة من الانحطاط والخراب ، وتخلصوا من هذه الحالة التى تحمر لها الوجوه . . . نعم ماذا عليهم ؟

٨ — الاحوال العمومية فى برمانة

ان مركز قضاء صافيتا هو قرية برمانه الكائنة فى ٣٤،٤٨ درجة من العرض الشمالى و٣٣،٤٧ من الطول الشرقى ، والبعيدة عن طرابلس الشام مسافة (١٢) ساعة .وعدد سكان هذه القرية التى ترتفع عن البحر مقدار (٣٨٠) متراً (١٥٩٦) نسمة ذكوراً واناثاً. وكانت الولادات فيها سنة ٣٣٢ (١١) نسمة والوفيات (١٠٥) من النسمات . وتوجد فيها دائرة للبلدية دخلها (٤٥١٠) غروش فى السنة وخرجها يقرب من هذا المقدار .

ثم ان قصبة « برج صافيتا » تمتاز فى هذا القضاء عن سائر القرى المحرومة من الرقى والعمران، بمبانيها التى يمكن اعتبارها منتظمة بالنسبة لهاتيك الانحاء ، وبحسن بزة اهليها ونظافتهم . وعدد سكانها يقرب من (٢٥٠٠) نسمة ذكورا واناثاً . وهذه الميزة فى تلك القصبة حدت ببعضهم لان يروا لزوم نقل مركز الحكومة اليها . ويقول مخالفوهم اذا كان المركز فى دوه كيش التى هى اقرب الى قرى النصيرية يكون انسب لاظهار سطوة الحكومة وسيطرتها . وتأمين الراحة العامة والامنية لا يسوغ انفكاك الحكومة من تلك القرية الصغيرة .

٩ — الاحوال الاجتماعية

[١] — *الحياة الاجتماعية فى قضاء صافيتا* — بينا سابقاً ان قصبة برمانا التى هى مركز القضاء تحتوى على اكثر من الف وخمسماية نسمة من السكان وفيهم الطبقات الاجتماعية والعشائر المختلفة ، ولكن بما ان هذه القصبة جزؤ من كلية القضاء لا يمكن ان تكون لها اوصاف تشذ عن اوصاف كلها ، فافرادها بالبحث فى الاحوال الاجتماعية لا جرم يوجب التذور . ولهذا فاننا نصرف النظر عن تدقيقها لوحدها ونتمل الكلام الى البحث عن احوال القضاء كله :

يمكننا ان نقسم السكان الموجودة فى هذا القضاء الذى تكاثفت فيه الجبال ، الى زمرتين اجتماعيتين . النصيريين ، والنصارى . اما السنيون ، والدروز واليهود ، فلا يعثر فيه على احد منهم .

ان النصيريين فى هذا القضاء يشغلون بضع مآة من القرى ، والسواد الاعظم فيه يتكون منهم — كما يتضح من جدول السكان وهم ينقسمون الى عشائر متعددة نرى من الواجب ان نبين اسماءها . وهذه العشائر لا تعيش تحت الخيام فى حالة البداوة ، وعليه يكون هذا الانقسام بمثابة تفريق العائلات الى صنوف ، او زمر . وهذه التقسيمات هى على ما يأتى :

اسماء العشائر	عدد النسمات
الحدادون	١٠،٠٠٠
الخياطون	١٠،٠٠٠
المتاورة	٣،٠٠٠
النواصره	٣،٠٠٠
الرسالنة	٢،٠٠٠
الشمسيون	٣،٠٠٠
يكون	٣١،٠٠٠

يتضح لنا من هذا الجدول ان النصيريين الذين بلغ عددهم (٣١،٠٠٠) من النسمات ينقسمون الى ستة اقسام. وعشيرتا الحدادين والخياطين يشغلان ثلث هذا العدد وهما يزعمان انهما اتيا هذه الديار من انحاء حلب . اما العشائر الاخرى فهم يزعمون بانهم هاجروا الى هذه البلاد من قضاء العمرانية التابع للواء « حما » . ولكن لم نعثر على وثائق تاريخية تؤيد مدعا هاتين الزمرتين ، او على الاقل مدعى احداهما .

وهذه العشائر المختلفة وان تكن على تخالف محسوس فيما بينهما من حيث المذهب — كما بينا فى القسم العمومى من كتابنا — ولكنهم يتحدون من حيث المعيشة والزى والحياة الاجتماعية ايضاً . وليس هناك شيء تفترق به عشائر النصيريين عن بعضها لا فى الزى ولا فى غيرها من الشارات المميزة .

يلبس الرجال من النصيريين سروالاً وكساء ، وفى رؤوسهم العصائب (حطة) والعقل ، او يلبسون رداءً وفوقه جبة قصيرة او طويلة . ولباس الرؤساء لا يختلف عن لباس غيرهم . ولكن يكون قماش ارديتهم من الحرير وربما لبسوا فى رؤسهم الطرابيش ثم ان مشايخهم يكتسون اللبس العامى المتعارف عند السنيين . على ان عمامتهم تكون قصيرة ، وكروية ، ومحدودبة اما نساء النصيريين فهن يلبسن رداء ضافياً كسائر نساء القرى المسلمات ، ولا يشعرن باحتياج الى الملاحف ولكن نساء المشايخ منهن لا يتجولن الا متأزرات بالمآزر . وتكون ارديتهن قصيرة مشرطة الجانبين ، يظهر من تحتها السروال .

ثم يلبسن فى رؤوسهن الطرابيش الحمر العضية ، ويمنطن به هداية كبيرة لاتقل عن نصف متر فى الطول ، اما سوداء او زرقاء . ويفرقنها الى ثلاث ذوآبات الاولى تسبل على الكتف الايمن ، والاخرى على الايسر والثالثة ترسل على الظهر فتكون بمثابة الضفيرة . ويضع بعضهن قناعاً فوق الطرابيش ، فأذا رأين اجنبياً — غير نصيرى — فيسارعن لاهدال ذلك القناع على وجوههن ، ويسترنها عنه . حتى انهن يلمتن وجوههن ان لم يمكنهن سترها بقناع .

ينقسم النصيريون من حيث الحياة الاجتماعية الى ثلاثة اقسام : ١ — صنف الرؤساء ، ٢ — صنف المشايخ ، — ٣ صنف العوام .

ان صنف الرؤساء بينهم هو الارجح اعتباراً وميزة . و لكل عشيرة منهم بيت انحصرت فيه الرياسة وانتقلت لافراده بالارث كابراً عن كابر ولا تزال تتسلسل . ولهؤلاء الرؤساء سلطة عظيمة ، وسيطرة قوية . ولكل من الرؤساء اقارب من اسرته كلهم مربوطون به . وعليه تكون رياسته على اسرته وعلى عشيرته معاً . ورياسة عشيرتى الحدادين والخياطين اللتين هما اعظم عشائر النصيريين منحصرة فى بيتين . فالاولى رياستها فى « بنى حامد » ورياسة الثانية فى « بنى جابر » . والاسرة الاولى لها مقدار مأة من الاعضاء ، والثانية لايقل عدد افرادها عن (١٥٠) نسمة . فاذا امعنا فى هذه السلطة لاجرم يتضح لنا معنى الرياسة التى تشمل الآلاف من العشيرة والمآة من افراد العائلة . ان مجموع افراد الاسر التى احرزت الرياسة على عشائر النصيريين يقرب من ثلاثمائة فرد . وان الاملاك الموجودة فى ايدى هؤلاء الافراد تشغل نصف القضاء . هذا وان لم يؤثر الغنى والثراء عن هؤلاء الرؤساء . ولكن دخلهم السنوى وافر جداً .

فرؤساء الحدادين والخياطين منهم يتراوح دخلهم بين (١٠٠٠) و (١٥٠٠) ليرة فى السنة ، ودخل كل من رؤساء المتاورة والنواصرة والرسالنة والشمسيين لا يقل عن (٧٠٠—٨٠٠) ليرة ومع هذا فان هؤلاء الرؤساء[*] مطبوعون على السخاء والكرم . واغاثة الفقراء والمساكين ولذلك ترون منازلهم مفتحة الابواب لكل ذى حاجة ، واعتادوا على بذل الاموال والعطايا على قدر ماتصل ايديهم اليه واصبحت هذه العادة سجية مستقرة فيهم . وهذا هو السبب الوحيد لعدم تراكم الثروة النقدية لديهم .

قلنا ان لرؤساء النصيريين سلطة عظيمة ، وسيطرة قوية . وهذه السلطة جعلتهم مرجعاً للخلق فى جميع الشؤون . وهم يولجون بحل النزاع و الخلاف الذى يحدث بين اناسهم

---

[*] ان رؤساء الحدادين والخياطين تطلق عليهم صفة (افندى) اما رؤساء العشائر الاخر فهم (اغوات)

— بحسب العرف والعادات — وهذه القدرة جعلتهم على درجة عظيمة من المكانة، وهم مع ذلك ينهجون سبيل المجاملة، ويتوسلون بما يربحون به قلوب افراد عشيرتهم ولايألون جهداً باكرام الناس واعزازهم، وبهذا تسنى لهم توسيع دائرة السلطة حتى كانت لهم هذه المكانة . وهذا يدلنا على مالهؤلاء الرؤساء من التضلع فى ادارة الناس، وامتلاك مقاليدهم. ولا يبعد عنهم ايضاً التقرب الى مأمورى الحكومة، والحلول بهم ليتمكنوا من تثبيت سلطتهم بموآزرة القدرة العمومية .

*
* *

ثم يأتى صنف المشايخ بعد الرؤساء .وهؤلاء ايضاً لهم سلطة مكينة ولكن من حيث الدين فقط . ومن المعلوم ان دين النصيريين مبنى على الباطنية والتكتم، ويحتوى على اسرار وغوامض توجب وجود المرشد والدليل، ولا يكون هذا الهادى الا من الطبقة التى استطاعت ادراك تلك الاسرار ولهذا كان من الضرورى على الناس فى صافيتا — كما فى غيرها — ان يرجعوا للمشايخ ويهتدوا بهديهم . وان الرؤساء لايفتأون يجزلون العطايا لهؤلاء المشايخ لأجل ارضائهم، والناس ايضاً يدفعون لهم الضرائب التى يسمونها « الزكاة » لعين المقصد ولهذا فان هذه الطائفة بين النصيريين لاتزال فى عيشة راضية وعيش رغد .

ونرى ان هذه الطائفة الدينية متفقة مع القدرة الادارية يتبادلان المودة والحسنى . ثم هناك طبقة اخرى لم تخلق الا لتعمل لتزييد قدرة هاتين الطبقتين، وتأمين رفاهيتهما، ورخاء عيشهما . وهذه الطبقة رغماً عن كونها اليد العاملة والقدرة التى تدير جميع شؤن الاستحصال لا تزال مطمورة فى القرى لا اسم ولا ذكر . وهؤلاء هم القرويون الذين يدأبون ويتعبون ويكدحون؛ ولا ينالهم من ثمرة مساعيهم شئ .

*
* *

وهذا الصنف، صنف العامة؛ هو الصنف الذى يجدر ان يلتفت اليه، وهو صنف الاكثرية ايضاً . وهؤلاء الذين تفيض عليهم الصناديد الدنيوية لطفاً وانعاماً، هم اشقى الناس واتعسهم . فاذا فكرنا بان نصف القضاء فى ايدى ثلاثماية شخص من الرؤساء، والنصف الآخر منقسم بين ثلاثين الفاً من هؤلاء المساكين يتضح لنا مقدار ما هو مغصوب من حقوق هؤلاء الذين يراهم الرؤساء جديرين بالاحسان والانعام .

يمكننا ان نقسم هذه الطبقة الانانية الى بضعة اقسام من حيث منابع عيشهم ورزقهم. فنهم من يرتزق بالاشتغال بالزراعة، ومنهم من يشتغل بالحرير، والقسم الثالث الذى يشرأب دائماً الى اميركا منبع رزقه ومورد حياته. لانه اعتاد ان يعيش بما تفيضه عليه الايدى العاملة هناك . وان ثلثى السكان النصيريين فى صافيتا يشتغلون بالزراعة . فنهم من تكون الاراضى

التي يشتغل فيها له ، ومنهم من ليس له منها شئ بل يشتغل مزارعاً عند الغير وبالاخص عند الرؤساء .

اما الثلث الآخر فان نصفه يشتغل بتربية دود القز واستحصال الحرير والصنف الثاني يعيش بالنفقات التي ترسل اليه من اميركا . فاذا علمنا ان النقود التي تدخل الى صافيتا من اميركا تبلغ الى (٢٥٠) الف ليرة في السنة يحصل لدينا فكر اجمالي بعدد المهاجرين الذين تأتي هذه النقود من عندهم . وهذه المبالغ قد احدثت تبدلاً في قرى النصارى محسوساً وكانت واسطة عمران ، ولكن النصيريين لم يستفيدوا منها بشئ بل هم ينفقونها على ذواقهم ومشتهياتهم .

ويمكننا ان نقول ان نساء النصيريين في صافيتا داخلات في الحياة الاجتماعية . لان اكثرهن يشتغلن بالزراعة . ومن البديهي ان النساء لا قيمة لهن عند النصيريين ، ولا قدر (*)

وقصارى القول ان قرى النصيريين بعيدة عن كل سعادة ورقي . وان منازلهم وادمغتهم مقفرة فارغة . وسنعلم اثناء البحث عن الاحوال الروحية ان رجالهم لا يفتأون يركضون وراء عقيدة حقيقتها الخيال ، وانهم يتخبطون في العمه المطلق والعمى الاسود . وعليه فالحالة الاجتماعية في هذه الطائفة التي نافت على ثلاثين الفاً بعددها ، ساقطة مادة ومعنى سقوطاً هائلاً يفوق التصور .

*
* *

اما السكان المسيحيون الذين يبلغون بعددهم الى (٥٠٠٠ — ٦٠٠٠) نسمة فهم يعيشون مختلطين بالنصيريين في (١٧) قرية . ولهم ثلاث قرى خالصة لهم لا يشاركهم فيها النصيريون .

وخمس هؤلاء يشتغل باستحصال الشرانق ، وبيع الاقمشة او بصنعة الحدادة ، او الحياكة والبناء ، وخمس آخر منهم يشتغل بالفلاحة والزراعة ، اما الباقون فهم يعيشون بالنقود التي ترسل اليهم من اميركا .

والمسيحيون — كدأبهم في سائر الانحاء — يفوقون بحسن المعيشة جميع من يجاورهم من الطوائف . ولهذا انهم في هذا القضاء ارفع وارقى من النصيريين من حيث الحياة والعائلات . ويوجد لديهم شئ من الثروة النقدية ايضاً . فاذا علمنا ان هناك (١٠—١٥) من الاسر اللاتي تملك كل واحدة منها مقدار عشرة آلاف ليرة نعلم ان مجموع الثروة النقدية لدى المسيحيين في صافيتا يبلغ مقدار (١٠٠—١٥٠) الف ليرة .

---

* راجع المبحث العمومي عن النصيريين ص ١١٦

ان هؤلاء المسيحيين عبارة عن الاروام والمارونيين والبروتستانتيين ولكن الاروام اكثر عدداً ، وارجح فى حياتهم ومعيشتهم من غيرهم. وانظف واميز طائفة بينهم هي الطائفة البروتستانتية . اما المارونيون فهم على غاية من القذارة والوساخة . *

وليس للطبقة الغنية فى المسيحيين تلك السلطة المعنوية والسيطرة التى عليها اغنياء النصيريين . وموقعهم لا يكبر عن ما اكسبتهم اياه ثروتهم من الاعتبار والوجاهة .

ويلفت النظر عدم رواج استعمال المسكرات بين النصارى من رجال ونسا لدرجة نراهم فى هذا الخصوص دون النصيريين بدرجات . ولا جرم ان لكل قرية من قراهم كنيسة وراهب ، وكلهم مربوطون برابطة قوية فى تلك المؤسسات واولئك الاشخاص الروحانية .

[٢] — **العادات الاجتماعية** — ان للنصيريين فى هذا القضاء بعض عادات اجتماعية نرى من الواجب ان نذكرها بصورة مجملة :

(عادة القسم) — لا يعبأ النصيريون بايمانهم التى يحلفونها امام القاضى ، او فى الخارج واضعى ايديهم على المصحف الشريف ، ولكن لا يعثر على واحد منهم يحلف كاذباً امام مزار « الشيخ منصور » الذى يجلونه .

ايمانهم غريبة جداً . لانهم يحلفون « بحق الخضر » اذا ارادوا تأييد كلامهم . ويوجد فى الاثناء مقام « الخضر » فى قرية « تل الخضر » ولهم ايام مخصوصة يزورونه فيها .

(الوراثة) — لا ينتقل ارث من مات بلا ولد من النصيريين ، الى زوجته . وهذا يدلنا على درجة مكانة المرأة وموقعها فى نظر القوم . ولدى وجود هكذا حال يفوض رئيس العشيرة تلك الاموال والاملاك الى من يشاء . ولا يعطى للزوجة منه شيء .

(الالواح) — اعتاد النصيريون على تعليق بعض الالواح فى داخل بيوتهم التى تطلى بالكلس الابيض . ويكتب على تلك الالواح عبارات نذكر منها :

(سبوح قدوس رب الملائكة والروح) ، او :

نحن بالله عزنا   لا بمال وولد
كل من رام ذلنا   خصمه الله الصمد

او :

لى خمسة اطفى بها   حر الوباء الحاطمة
المصطفى والمرتضى   وابناها والفاطمة

(الاعياد) — سبق ان بحثنا فى القسم العمومى من كتابنا عن اعياد النصيريين بحثاً ضافياً ، منقولاً عن كتاب الباكورة . ولهذا فاننا نصرف النظر الآن عن اعادته .

ونذكر انهم يعقدون الاجتماعات الخفيـة فى تلك الاعياد ، ويروى انهم اعتادوا على عقد هكذا اجتماع قبل حلول عيد المسلمين بيوم . ويزعم البعض ان النصريين يصومون قبل المسلمين بيوم ايضاً .

(اسماء النصيريين) — لا يستعمل النصيريون اسماء « ابى بكر ، عمر ، عثمان » البتة . واكثر ما يستعملون من الاسماء ، اسماء (سليمان ، سليم ، على)

(القرآن الشريف) — يدعى بوثوق انه يوجد فى كل بيت من بيوت النصيريين مصحف . وانهم لا ينقطعون عن تلاوته .

(القبلة عند النصيريين) — يدعى الذين طال مكثهم بين النصيريين فى صافيتا ، انهم يولون وجوههم فى عباداتهم شطر المشرق .

(المسكرات) — يستعمل النصيريون جميع المشروبات الكحولية ، ولا سيما النبيذ . ولكنهم لا يتظاهرون بشربهم امام غير ابناء مذهبهم .

(كبار المشايخ) — يتخذ النصيريون قبور اعاظم مشايخهم مزاراً ويلصقون بها صفة قدسية . ولهذا كان لهم فى هذا القضاء مزارات لا يحصى لها عدد . اشهرها : [الولى زاهر والنبي متى والنبي صالح ، ومقام الخضر ، ومقام الشيخ عبد الوهاب المصرى] .

(جنائز النصيريين) — يروى عنهم انهم لا يبكون اذا مات عندهم ميت بل يكررون كلمة [الحمد لله ، الحمد لله] ثم يغسلون الميت ويلبسونه افخر ثيابه ، ثم يدرجونه بالكفن ويضعونه فى التابوت ، ويسيرون به بالتكبير والتهليل . وقد توجد النساء فى جنائز الاعاظم منهم . وقبورهم على نسق قبور السنيين . وليس من عاداتهم تلقين الميت ، ويكتفون بزيارة القبر فى بعض الاحيان .

(اصولهم فى الزواج) — لا يتستر النصيريون ، رجالهم تعرف بناتهم ولهذا لا لزوم عندهم لارسال من يرى المخطوبة ، فاذا حصل الوفاق بين الطرفين يدفع الخاطب الى المخطوبة مهراً يتراوح مقداره بين (٥ — ١٠٠) ليرة ، ويرسل لها هدية كخاتم او غيره مما يناسب احواله وبعد مرور سنة يعقد النكاح ، ويحتفلون به . فيجتمع النساء فى محل ويفرحن . ويظهر الرجال سرورهم برمى السلاح . وتقام الولائم . ثم يشرعون بالاحتفال بالزفاف ويسيرون بالعروس الى منزل العريس . وقد كانت عندهم عادة تقضى على المدعوين بتقديم الهدايا . وعلى المهدى لهم بالمقابلة ، اما الآن فهى متروكة .

هذا يدلنا على ان ليس فى اعراس النصيريين شئ يجلب النظر . ويزعمون انه يعطى الى العروس قبل دخولها بيت الزوج قدح من زجاج فتضرب به جهة الباب فتكسره .

(الزوجات عند النصيريين) — لم يؤثر عن النصيريين استفراش الجوار ولكن يوجد بينهم من يتزوج بعدة زوجات كما هو الحال عند السنيين . والاغنياء من هؤلاء يضعون كل زوجة

من ازواجهم فى منزل مستقل .

(الختان عند النصيريين) - يختن النصيريون اطفالهم بين السنة الحادية والعاشرة من عمرهم وقد كانوا يحتفلون بالختان كغيرهم احتفالاً عظيماً . على ان هذه العادات لا تزال تتدرج بالانطفاء ، والاندراس .

(مشائخ النصيريين)— يزعم بعضهم ان اشائخ النصيريين حق الدخول الى اى بيت ارادوه . ويباح لهم كل شئ . ولكن لم نظفر بدليل يؤيد هذا الزعم المجرد .

*
* *

بما اننا بحثنا فى القسم العمومى من كتابنا عن عادات النصيريين القديمة المنبعثة عن اسس دينهم ، اثرنا هنا الاكتفاء بذكر بعض العادات المحلية فقط .

[٣] — الارقام الاجتماعية — ها نحن نذكر بعض الارقام التى حصلنا عليها فى قضاء صافيتا :

(مهاجرو النصيريين) -- يخمن عدد المهاجرين الذين هاجروا من هذا القضاء الى اميركا بعشرة آلاف او خمسة عشر الفاً من النسمات .

(المؤسسات ، والرؤساء الروحيون) — يوجد فى مركز القضاء جامع ومفتى وامام وفى جميع القرى جامعان او ثلاث وفى كل واحد امام . اما المسيحيون فلهم (١٧) قرية فى كل واحدة منها توجد كنيسة ولكل كنيسة راهبان او ثلاثة .

(المساكين فى مركز القضاء) — ان عدد المساكين الذين قام باطعامهم بضع عائلات فى المركز يتراوح بين (٥٠٠—٨٠٠) شخصاً . ويوجد هناك مقدار « ٦٠ » من ايتام الاطفال الذين لا كافل لهم .

(حالة السكان) — ان عدد المتأهلين فى هذا القضاء يخمن بمقدار « ٦٣٢٥ » من الذكور ، و « ٦٩٢٥ » من الاناث . وبهذا يكون ثلث السكان من المتأهلين ثم يقابل هذا المقدار « ٨٩٣٤ » ذكوراً ، و « ١٣٠٨٨ » اناثاً من العزاب ؛ ثم يوجد « ٤٣٤ » من الارامل و « ١٠٥٥ » من الايامى . و « ٣٤٨ » من المطلقات . وعلى هذا الحساب يكون مجموع هؤلاء ثلثى جميع السكان .

ويوجد فى القضاء من البكم والصم والعمى (١٣٢) من الذكور ، و (٨٢) من الاناث و(٨) من المجانين الذكور و(٢) من الاناث .

وعدد المأمورين من الصافيتيين عبارة عن «٩٠» شخصاً .

(الصنوف الاجتماعية) — يوجد فى هذا القضاء على التخمين « ٥٥٧٧ » شخصاً من الزراع و « ١٢٥ » من ارباب المهن و « ٢٥٠ » من التجار و « ١٠٠ » من العمال و «٢»

من ٦١ طبا٭ و «٣٠» من معلمي البنيان . و «٣» من المعلمين وطبيب للاسنان . وعلى هذا يكون عدد ارباب الحرف «٦٠٠٠» ، ثم ان عدد اصحاب الاملاك «٩٠٠٠» شخصاً

(مقدار الكسب) — يتراوح بين «١٠٠» و «٢٠٠» شخصاً عدد الذين كسبهم اقل من الف غرش فى السنة . وعدد الذين يربحون اقل من خمسة آلاف يتراوح بين «٣٠—٤٠» شخصاً . ثم الباقون فدخلهم السنوى يزيد على هذا المقدار .

(افراد العائلة) يوجد فى هذا القضاء «٢١٦» من العائلات التى يبلغ عدد افرادها الى «٧» . «٩٢٢» منها لا تتجاوز افرادها الثلاثة . وهذا يدلنا على ان اكثرية القضاء تتألف من العائلات الصغار .

(مقدار النكاح والطلاق) — يزعم ان قد حدث «٢٢٣» نكاحاً فى ظرف خمس سنين ، اى من سنة «٣٢٣» الى سنة «٣٢٨» . فمنهم «٢٠٨» مسلمين و «١٠» للاروام و «٥» للمارونيين ، واكثر المتأهلين كان سنهم بين «١٥—٢٥» . ولم يقع من الطلاق الا «٣» فى السنة .

اما فى السنين الخمس الاخيرة فكان عدد الزوج «٦١» سنة «١٣٢٩» و «١١» سنة «١٣٣١» و «٦» سنة «١٣٣٢» ولم يحدث فى سنة «١٣٣١» منه شئ . اما الطلاق فلم يزدد عن واحد فى السنة .

« دور الحبس » — يوجد فى هذا القضاء سجن واحد لا يستوعب اكثر من «٣٠» شخصاً .

(القاتلون) — حدث فى القضاء (٤) جرائم من القتل سنة (١٣٣١) و(٩) منه سنة (١٣٣٢) وكلهم من الزراع .

(الجنح) — حدث فى القضاء (١٠٥) جرائم من الجنح سنة (١٣٣١) و٥٣ منها سنة (١٣٣٢) واكثرها على التدريج الضرب والجرح ثم السرقة . اذ حدث سنة (١٣٣١) ٣٥ جرماً من نوع الضرب والجرح و٢٣ من السرقة وفى سنة (١٣٣٢) حدث ١٢ جرماً من الضرب والجرح و١٥ من السرقة . وعلى هذا الحساب يصيب كل ستة ايام فى السنة جرم واحد .

١٠ — الحالة الروحية والسوية الفكرية

اننا سنشرح الخلال الروحية التى كونتها المعتقدات الدينية فى النصيريين اثناء البحث عن ادبياتهم . وعليه نكتفى هنا بالاشارة الى بعض الاوصاف الخاصة التى يتصف بها نصيريو قضاء صافيتا .

سكان النصيريين في هذا القضاء ليسوا من الخشونة على درجة غيرهم من النصيريين في الاقضية الاخرى . بل هم يتوخون في مناحياتهم الاجتماعية طريقة اللين والسكينة . ولهذا السبب لا يمكن العثور في هذا القضاء على من سلك سبيل الشقاوة او اللصوصية . ولقد برهنت الجداول الرسمية على ان الأشقياء الذين خرجوا في السنين الاخيرة لم يكونوا من اهالي صافيتا ، حتى ان الاشقياء الذين كانوا وافرى العدد في هذا القضاء قبل السنين الاخيرة لم يكونوا ايضاً من سكان القضاء .

ويجب ان لا نحسب هذا اللين في هؤلاء السكان من السجايا الروحية الثابتة . بل لا ريب في ان تحت تلك الرياش الطاووسية شخصية تتدفق فساداً وغشاً . وكم لهذه الشخصيات الحليمة من فورة ، وكثيراً ما تنقلب العشائر المتحابة اعداء ألداء لبعضها . فكل فرد من هذه العشائر يحمل بين جنبيه روحاً غايتها الاحتفاظ بمنافع عشيرته بالوسائط المطلقة مشروعة كانت او لم تكن . ولهذا السبب لن توجد بين النصيريين انفسهم محبة صادقة ، او اخوة حقيقية ، ناهيك عن المودة بينهم وبين النصارى . وان المودة والحسنى التي يتظاهرون بها هي جعلية ووقتية . وان آثار تلك الارواح المتقلبة ، والوانها لا تستقر ولو برهة قليلة . بل هي على تحول دائم ، ومع هذا فان هذه المنافرات ، وعدم التحاب لا يسوقهم الى الانتقام الاعمى ، ويندر ان ينقلب الى خصام تسفك فيه الدماء .

وقصارى القول ان طبيعة اللين والسكينة في هؤلاء القوم ممزوجة بغريزة الافتراس التي لا تزال على صورة دائمة كالبركان وهم لا يتوخون بهذه المفاسد ، والمفتريات مصلحة العشيرة بصورة دائمة . ولا جرم انهم من الانانية بدرجة تميزهم من بني جلدتهم ، وتربما يرجحونهم فيها ، فمن الخطأ ان نحسبهم عاملين مطلقاً لمصلحة العشيرة ، ونعتبر حركاتهم وسكناتهم كائنة لتأمين هذه الغاية . اذ لا يبعد عن احدهم اذا فاته النفع الذاتي ان يضرب بنصيريته عرض الحائط . ويفتدي مصلحته بعشيرته وذويه وحتى بوالدته وابيه ولهذا تجدونهم قاعدين لبعضهم في المرصاد ، مستعدين في مكمنهم لكل ما يحتمل حدوثه كانهم من الجنود المحاربة . هذا وان كانوا لا يتسارعون بلا سبب لاهراق الدماء على غير جدوى ، ولكنهم اذا حرموا من انس آمالهم لا يوقفهم شيء عن ان يرتكبوا اليوم ما كانوا يتحاشونه بالامس . وبهذا يسوغ لنا ان نعتبر كل واحد منهم هيكلاً للسلم المسلح .

*
* *

ان السائق الذي يدير هذه الفئة التي تريد ان تشرب دماء بعضها باللين والسكينة ، لاجرم هو حب النفع والانانية . ثم اذا فكرنا بما هم عليه من البعد عن العلم والمدنية يتضح لنا سبب تأصل هذه الحالة الروحية في طباعهم واستقرارهم عليها . وان رجوعهم لتأمين

صالحهم الذاتي بطريقة سلمية؛ او خفية نشأ عن احتكاكهم وامتزاجهم بالناس، والا فلا نجد لهذه الطبيعة الساكنة اثراً في اخوتهم الذين انقطعوا عن الناس وكنوا في طي تلك الجبال الموحشة . واولئك هم اشد بعداً من هؤلاء عن الانس والجن .

يبلغ عدد الذين يعلمون الكتابة والقراءة بدرجة بسيطة من النصيريين الى (٩٥) في المائة . ويصعد هذا المقدار في المسيحيين الى «٥٥» في المائة . وهذه النسبة لا يتيسر له العثور عليها في الاقضية الاخرى . فيجب ان لا نعجب من خشونة طباعهم . لان الخشونة ضرب من البعد عن المدنية، او نوع من الجهل.

١١ — الاحوال الصحية

يمكننا ان نقسم قضاء صافيتا الى قسمين ، الاول سيف البحر ، والثاني الانحاء الجبلية الوعرة التي يسمونها « الجرد » . هذا وان يكن هواء القضاء جيداً لطيفاً ومعتدلاً بصورة عمومية ولكن القرى الموجودة في القسم الثاني ارجح من غيرها مناخاً وهواء بسبب ارتفاعها ، وتنحيها عن المستنقعات الموجودة في الاصقاع الساحلية .

اما ماء هذا القضاء ، فنه المنبع الموجود في برمانه مركز القضاء الذي ينبع من ربوة « تليجه » ، وهو ماء سلسال ، على غاية من الطافة ، والصفاء ، ويزيده ميزة ورجحاناً كونه كلسياً ينفع المصابين بالامراض الكليوية . ويعثر في سائر انحاء القضاء ولاسيما في ناحية الجرد على هكذا مياه نقية صافية .

وتوجد في اكثر القرى آبار تقوم بسد العوز . ولكن سكان الاصقاع الساحلية لا يزالون في ضيق شديد لندرة الماء في انحائهم . وبعض سكان القرى هناك يضطرون الى جلبه في الجرار على كواهلهم فيتكبدون تلك المشقة ، ثم لا يكون الماء نقياً ، بل يتدنس اثناء النقل . ولهذا فان مسئلة الماء اصبحت عندهم من المسائل الخطيرة ، لاسيما وقد تكون واسطة لتسرب الامراض اليهم وانتشارها بينهم .

اما بيوت هذا القضاء فانها لا تنطبق على القواعد الصحية كما ذكرنا عنها اثناء البحث عن المركز . واكثرها مرتكمة حوله اكوام الزبل . فاذا علمنا ان حيوانات الزراعة تبيت في داخل تلك البيوت ، وفكرنا بعدم اعتناء القرويين بالنظافة نعلم ان هذه المساكن ، وتلك المعيشة هي قبر غير محسوس معد لتلك الاجسام التي لا يزال الاضمحلال يدب بها ويستدرجها الى ان يصل بها الى الفناء .

ولو لم تكن تلك الجيادة في الهواء ، وهاتيك النظافة والنقاوة في الماء لزجت تلك المعيشة السيئة بالصحة العامة في مهاوي الردى . واننا لم نقصد بهذه العبارة مدح الحالة

الصحية ولا الاغضاء عن ذكر ما ينتابها من الامراض . لان الحمى المرزغية والامراض العينية وغيرها من الامراض العمومية لا تنفك تهدد صحة هذا القضاء بخطرها.

ان الانهار الجارية فى هذا القضاء وعلى الاخص نهر الابرش يجرى قريباً من الساحل فى مجرى غير منتظم فتتسرب منه المياه الى خارجه حيث تكون احواضاً صغيرة تستقر فيها جراثيم المرض ، وهذه المستنقعات اوجبت استفحال الحمى المرزغية واستقرارها فى ذلك القضاء بصورة شاملة . هذا وان كان يعثر على هذا المرض فى الانحاء الجبلية بنسبة ما هى عليه فى الساحل ، مع انها خالية من المستنقعات ولكن لم يكن هذا الا عن كثرة اختلاط السكان ببعضهم ، ثم من الاستعداد الذى اوجدته فيهم السنون الطويلة . ولهذا فان امواج الحمى المرزغية التى تتدفق من الساحل الى الداخل لا تزال تكتسح السكان وتلتهم حياتهم . ويروى الاطباء هناك ان قد يصاب بهذا المرض مآة من الناس فى كل سنة .

ثم ان مرض العيون هناك لا يزال على وطئة شديدة ، والرطوبة من جهة ، وعدم النظافة من جهة اخرى جعلا لهذا الداء مجالاً واسعاً فى الانتشار والتفشى . فيصاب به كل سنة أكثر من الف ، وخمسة فى المائة منهم لا بد ان ينقلب معهم الى العمى .

ثم يوجد فى القضاء غير هذه الامراض داء (سل الرئة) . ويوجد فى القرى الكائنة فى الشرق الجنوبى من القضاء ، ولاسيما فى (برج صافتا) كثير من الاشخاص المصابين بالسل :

ويروى وجود كثير ممن اصيبوا بمرض الكبد المزمن واحتقان الطحال . ويقول طبيب القضاء ان عشرة فى المائة ممن ينشط من مرض الحمى المرزغية يصابون فى هذه الامراض . ويروى ان الامراض السمية قليلة جداً فى هذا القضاء . ويقول طبيب القضاء انه لم يعثر الا على شخص واحد من المصابين بمرض الافرنجى و(١٠—١٥) ممن اصيب بمرض حرقة البول .

*
* *

دخلت امراض الحمى النمشية والقوليرة الى هذا القضاء سنة ١٣٣٢ ولكنها لم تحدث اضراراً مهمة . ثم يروى ان قد حدث منها بضع حادثات فى الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ ولكنها كانت محدودة ايضاً . ولهذا فان مجموع عدد الذين اصيبوا بهذه الامراض لا يتجاوز العشرات .

*
* *

ثم ان الادارة الصحية فى هذا القضاء ناقصة الترتيب . لان طبيب واحد لجميع القضاء لا يستطيع ان ينهض باعباء الامور الصحية ، لاسيما اذا كان محروماً من كافة

الوسائل والوسائط . وتراه يتألم قبل كل شيء من عدم وجود العقاقير الطبية بدرجة كافية .

ثم لا توجد صيدلية في جميع انحاء القضاء . ولولا ما يجلبه الطبيب من بعض العقاقير بصورة خصوصية ، لكان امر القضاء موكولاً الى القضاء . ومما يجدر بالذكر ويستلزم الشكر وجود قابلة متفننة في هذا القضاء تقيض على نسائه الشفاء . ويجب على هؤلاء السكان ان يعرفوا فضل هذه السعادة التي رمتهم بها الصدفه . ولكن لا ادرى هل يسلم بهذه الحقيقة اولئك النصيريون الذين غايتهم التخلص من هذه الحياة التي يعتبرونها كرداً وسخ ، والتعالى الى الانخراط بسلك العالم انور ، عالم الكواكب (*) .

— ١١ —

الادبيات النصيرية

١ — الحالة الروحية فى النصيريين

بحث رفيق — فى القسم العمومى — عن معتقد ومذهب النصيريين القاطنين السلسلة الجبلية الواسعة المسماة باسمهم والكائنة فى الناحية الشمالية من سورية ، والممتدة الى داخل آطنه . ولا جرم ان ذلك البحث الضافى كشف الغطاء عن الخطوط التاريخية لهذه الفئة التى هى من غلاة الشيعة ، وبين خصائصها القومية ، واسسها الدينية ، ونشئتها المذهبية . ثم انى تكلمت عن احوالهم الاجتماعية ، واوصاف حياتهم العمومية حين البحث عن قضاء صافيتا . ولهذا فقد حصل لدينا فكر اجمالى فى خصائص هذه الفئه ، وفى افاعيل محيطها المتنوعة .

على اننا نرى قبل الافاضة فى البحث عن ادبياتهم ، ان نقبل على تحليل حالتهم الروحية وتشريحها ، مستندين على « الدين » الذى كان لهم بمثابة السجية الروحية الموروثة بتسلسل الانسال ، ثم على « المحيط » الذى هو عبارة عن مجموع الافاعيل الطبيعية والاجتماعية .

ان تأثير العرق والاقليم ، والوسط جعل النصيريين (فئة خيالية) لا تستتر على لون ولهذا فان حالتهم الروحية عبارة عن كونهم خياليين محضاً .

واذا ارجعنا النظر الى ديانتهم نراها (مخلوقة الجبل) بحجرها وبحرها . وما كاد

---

[*] راجع اول سورة فى كتاب « الباكورة — لسليمان الاذنى »

يتأنسل دين هؤلاء القوم الذين انتزعوا لهم من شخصية علي بن ابي طالب الهاً ملفقاً ، الا ودخلوا في معتقدهم الى فضاء فسيح من الخيال ، وزعموا ان تلك الشخصية المجهدة اوقفت دور الشمس ، وكلمت الموتى كالمسيح .

وقال « نصير النميري » ، مؤسس هذه الديانة في كتاب له : « ان المسيح او جبرائيل سماه بالقاري والصادق والجمل والبقر والروح ... الخ » ، وسعى لان يؤلف بين هذه الاضداد المادية والمعنوية باغرب ما يكون من الافكار الخيالية . ثم ان « حسين بن حمدان الخصيبي » احد صناديد هذه الطائفة خلق لنفسه مسيحاً انقذه من سجن بغداد ، واخذ يتبجح بهذين البيتين :

قال لي في المنام اب شفيق . انت يا ابن الخصيب حر عتيق ،
انت بالحجب آل احمد ماعشـ ـت طليق بحبهم مرزوق

لا جرم ان النصيريين لا يعتقدون بوفاة علي . وعليه اخذوا يرتادون لهذا الآله الابدي عرشاً خالداً ، ورفعوا بابصارهم الى السماء فارتهم ليال سورية قمراً جليلاً كأنه منصة من نور تحف به الكواكب الدرية ، فاتخذوه عرشاً ، بل سكناً لآلههم — كما فعل قدامى الكلدانيين والآثوريين — . ويزعمون ان الغشاوة السوداء في القمر هي ، هو قائلين :

— ها هو ، وما تلك الغشاوة الداجية الا هو . متوج بالنور وفي قبضته الصارم المعهود ، ذو الفقار ....

ومع هذا فان هؤلاء الذين شربوا من رحيق المجوسية المعجوز ، عين ذلك الكاس المتدفق بالخيال ، لم ينسوا بعد القمر هاتيك الجنود النورية المنتثرة في فضاء السماء ، تلك الثوابت والسيارات ، ثم سلكة النور ، ولاسيما المجرة .

وقد برهن النصيريون ابناء السماء على انهم مسورين بنطاق الخيال ، منذ تأسيسهم « نظرية الهبوط » المعهودة .

كانوا — على زعمهم — يبسرون علياً وهم كواكب لامعة بل انوار ساطعة ؛ وحوله محمد وسلمان يرمقانه بنظراتهما النورانية .

هكذا ما زال النصيريون يمدون خطواتهم وراء طير خيالهم الطائش حتى عثروا على اقانيم النصرانية « الاب والابن وروح القدس » الثلاثة . فثلوها بالمعنى والحجاب والباب ، واوجدوا سراً للنصيرية يتألف من « ع ، م ، س » .

يزعمون انهم ظلوا سبعين قرناً وهم كواكب نورانية ، ثم كان ذلك الخطأ الخيالي ، وكرت بعده الادوار ، وعقبت ببضع تجليات . ثم ان ذلك المعبود الذي يتراآى على هيئة شيخ ذي لحية بيضاء ، او شاب راكب على اسد ، او طفل ؛ اهوى بهم من السماء الى

الارض والاولاد وانفسهم اجساماً بشرية ليبلو اعمالهم . ولن يدوم هذا الافتراق ، بل لا يلبث آلهتهم ان يحتجبوا عليهم بالمعنى والحجاب والباب ، ويعيدهم شموساً ساطعة كما كانوا من قبل .

وهذا النسق الغريب في التخيل يدلنا على ما طبعت عليه اهواؤهم من الافراط . وهم يزعمون على عقيدة الكثيرة : ان لا قيمة لحياة الدنيا . ولا تكون السعادة الا بالايمان بهذا التثليث . وبهذه يكون التخلق بآداب هذا الاعتقاد والاكتفاء به ، ثم الانقطاع عن جميع اسباب الدنيا ، وعن العلم والجهد والاقدام امراً طبيعياً . فاذا اتبع هذا الصراط السوى — بزعمهم — واحتفظ بذلك المعتقد فلا بد للانسان ان يدخل فى زمرة تلك الشموس النيرة . ولا جرم ان هذا الدين هو الذى يسعد ابناء البشر ، وهو الحقيقة الناصعة . فالذين لا يؤمنون به لا بد لارواحهم ان تمسخ وتنقلب الى بهيمية سافلة . وقصارى القول لا يستكبر على النصيريين الذين يتبعون عنقاء الخيال ، اهمالهم امر الحياة ، وانصرافهم عن الجد والسعى ، ثم بغضهم لجميع الناس واستحقارهم اياهم ؛ لانهم يباهون بهذه المعتقدات التى يدعوهم اليها دينهم ويفاخرون بها .

ثم انهم يزعمون ان لا احد غيرهم يفهم سر الوجود وحقيقة الكون. فما اضل هؤلاء الطائشين الذين ختم العمه على قلوبهم فجاؤا بما خلقه خيالهم وجعلوه حقيقة ، بل عقيدة !

ثم انهم يموهون هذا الاعتقاد المخلوق ، بنقوش وزخرف مكذوب ويقولون : خلق سلمان الفارسى الايتام الخمسة . فقداد يتعهد الرعود والصواعق والزلازل ؛ وابو الدر سولج بالنجوم والكواكب ؛ وعبد الله بن رواحه ملزم بادارة العواصف والرياح ؛ وعثمان مأمور بتفقد الحرارة والاجسام ؛ ثم على قنبر التصرف بالارواح . وبعقيدتهم هذه التى تذكرنا بآلهة اليونان ، يبرهنون على انهم اصدق الأخلاف لأولئك الاسلاف الخياليين ، ثم لابد من ان يعجب الانسان لادخارهم هذا المعتقد ، واحتفاظهم به حتى فى القرن العشرين المتمدن . ولا جرم انهم لم يتمكنوا من هذا النجاح الا بتلك الارواح السكاتمة. لانه لايسوغ فى دينهم افشاء السر حتى ولا لنسائهم . ويعتقدون ان معنى الجهاد الذى جائت به الديانة المحمدية هو عبارة عن هذا .

وهكذا فان دينهم طمس المعانى الظاهرة بغواش خيالية ، ثم يرجعون فيها الى التأويل على حسب الاهواء . فيقولون ان حقيقة الحج هى معرفة بعض اشخاص معلومة ويقلبون الاركان المادية كالبيت والسقف والارض والقباب والباب والحلقة الى اشخاص معنوية كمحمد وابى طالب وفاطمة والحسن والحسين وجعفر الصادق .

وعندهم للاعداد رموز خاصة ، وعليه فلكل من الاعداد الموجودة بين الخمسة والاثنى

عشر مدلول جسماني ،

وقصارى القول ان النصيريين انقلبوا الى حالة روحية غريبة بضغط تلك العقائد التي ولدها الخيال المجرد عن كل عقل وادراك . وتملصوا من العظمية واللحمية الى شخصية مؤلفة من الوهم والخيال . ولهذا لامندوحة لهؤلاء الذين اصبحت اسمهم الدينية ومعتقداتهم في الكون ، وآراؤهم في الحياة ، ونسق عيشهم ، واعيادهم ، وحالتهم لدى الاغيار وماهية محيطهم ، كلها مسربلة بالخيال ، من ان تكون حالتهم الروحية مشربة به ايضاً :-

وهذه الحالة الروحية ، هي التي جعلتهم سماويين كالمجوس ، ومن معتقدي التناسخ كالدروز ، وربطتهم بالتثليث كالنصارى وهي التي حببتهم بأدوار القمر المنير ، وبعلوية السماء العالية ، وبحمرة شروق الشمس ، وصفرة غروبها ، ثم باطافة النسيم ورقته .

ولنعلم ان خيال النصيريين هذا الذي لايزال يخدعهم بسعادة العروج الى السماء وعالم المجرة ، والوصول الى انوار الشمس الساطعة ، والتمتع برؤية الآله الواحد . ابعدهم عن ان يكونوا امة تستطيع ان تعيش في هذا العصر .

وليعلم بنو هذه الفئة الخيالية التي ترى الحياة لباساً مدنساً ، وتظن ان لاقيمة لهذا الكيان العضوي ، وتعتقد ان سائر الاديان والطرائق الحيابية لباس ، والنصيرية جسم ، وتنهى لان تتحكم على كل دين وشخص ، وتقدس في دينها الكذب والرياء ، والنفاق؛ نعم ليعلم ابناؤها انهم ان لم يهجروا هذا الغلو في الحالة الروحية ، فلن يكون لهم نصيب من السعادة الحقيقية في هذا المعترك الحياتي الذي يتطلب سواعد من حديد وادمغة تدك بعزمها الاطواد .

فليرتادوا النور في النجوم ، ولينظروا ما شاؤا الى انوار القمر ، ولكن لا بد لهم ان يهووا في مهاو من الذل والخسران بعيدة عن معنى الانسانية ، بسبب تلك الحالة الروحية التي تقوض الوجائب المدنية وتهدم اسس الحب الاجتماعي المتبادل .

ولن يعرجوا الى عليين السماوات ما زالوا بعيدين عن التعقل والاذعان والعلم والمدنية بل انهم ليسقطون في دركات الاضمحلال او يطوح بهم القضاء الى الفناء الخالد . اذ لا حياة في هذا المعترك العصري الا للقوي الشديد ، والعاجز الضعيف محكوم بالموت المحتم وليسمع النصيريون هذه الحقيقة المرة من هذا البيت لعلي (و . ع):

يعيش قوم ويموت قوم
والدهر قاض ما عليه لوم

فما اجدر هؤلاء الخياليين بان يفتكروا بان لا لوم على الدهر باماتة قوم واحياء آخرين وينتبهوا بهذه الصيحة من سباتهم الجامد !!.

٢ — الملكة الادبية فى النصيريين

ان النصيريين الذين لا يزالون دينهم وعرقهم ، يسقيهم من رقيق الخيال كأساً دهاقاً في هذا الوسط السوري الذي يتدفق بالبدايع والمحاسن يعترف لهم باستحواذهم على عناصر الشعر والصنعة الادبية كما يجب ان لا ينكر تجردهم من جهاز الجدال الحيوى .

يولد النصيريون مفطورين على حب الخيال بسبب موروثاتهم العرقية ، ثم يقبل المحيط الخارجى فيكشف عن تلك الملكة الفطرية وينشأها نشئاً نامياً وناجحاً .

هذا وان لم يطلع احداث النصيريين على ديانة آبائهم الخيالية ما لم يبلغوا اشدهم ، ولكن المحيط الخارجى وشرائط الحياة هناك تاخذ تلك الخاصة الموروثة بالهوينا وتتدرج بها الى غاية كمالها .

لا حظ للاحداث النصيريين قبل اتمامهم السنة الثامنة عشر من عمرهم ، الا التمتع ببدايع المحيط الطبيعية والاكتفاء بها . فيشعرون بوجد عميق حينما يبصرون على هامات جبالهم الشامخة ، ذلك الشروق السورى الزاهر ، والغروب العسجدى الساحر ، فتارة يرون ملكة النور كعين فضية ، وآونة كنافذة ذهبية تمج النور الساطع .

وما الطف مناظر هاتيك الآفاق السورية ، لا جرم انهم ينغمسون فى وجد خيالى تجاه تلك الالوان والبدايع حينما يمتعون النظر بتلك القرى الكثيرة التى وفاها نصيبها من الوان المحاسن الفجر المندم ، او الشفق الذهبي الارجوانى الذى يقوم كل يوم على رؤس تلك الربى الزمردية . ثم لما ينسحب نور النهار مودعاً تلك الاصقاع المرئية ، وترسم فى فضاء السماء تلك النقوش الباهرة بالوان عندمية ، وصهبية ، او ارجوانية ، ثم تنقلب الى سمرة ، واحلولاك ، فتلمع الكواكب الدرية . هنالك يكون اولئك الاحداث الخياليون من بنى سورية منتظرين انفجار عين السماء ، وافاضتها النور الدافق من وراء تلك الربى القائمة امامهم كالظل القاتم . ولا يلبثون قليلاً الا وينجلى لهم ملك الضياء ، ذلك الطائر الميمون ويحلق فى الفضاء ، ويخترق موكب الكواكب ، ويرسل من نوره الفضى ما يغمر السماء والارض والجبال والقرى . وهنالك تخفق قلوب اولئك الاحداث احتراماً لهذا المخلوق السماوى ، ويتراكضون الى رؤس الهضاب ويمدون ايديهم لتصل اليه ، او يثبون لعلهم يصيدون ذلك الطائر الآلهى .

يا للسعادة . . . ما الطف هذا القمر وما ابهجه . . . ولله شروقه كل مساء من حفاف تلك القبة الزرقاء ، باشكال مختلفة . . . يكون هلالاً فى بضع ليال ، ثم نصف دائرة ، ثم بدراً تاماً ، وهكذا لما يراه احداث النصيريين فى ليال سورية المذهبة على هذا التقلب

المحسوس ، فلا يملكون انفسهم من الانشغاف به اكثر من كل كوكب سماوى . لاسيما اذا كان بدراً كاملاً ، فانهم يرون فى صحيفته حاجبين وفماً ، ثم باقى الخطوط الوجهية ، فيحسبونه وجهاً نورانياً يطل على هذه الدنيا من سمو مقامه .

ثم انهم يبصرون المجرة التى تشغل تلك القبة المكوكبة ، فيفكرون الى اين يذهب هذا الطريق النورانى . ويرون انفسهم تصغر تحت عظمة تلك السماء الرفيعة ، ديار النور والضياء . ويغشاهم من سحرها وجد ينسيهم انفسهم .

ثم تأتيهم المواسم الاربع تباعاً ، وتهدى الى آفاقهم افخر الهدايا والطفها . يشاهدون سماء زرقاء مرصعة بفتات من سحاب كالعهن المنفوش ، ثم يلوح لهم البحر المبهم عن بعد كانه صحيفة سمراء ، ثم مناظر تلك الربى الزبرجدية ، ويسمعون تغريد الطيور الساجعة ؛ ثم ينقلب الحال الى سكون سائد ، ويرون حينئذٍ نوراً فياضاً يزج على المحيط بسبات عميق . . . . ثم ينتهى الصيف الذى كان يغرق تلك الاصقاع بطوفان ذهبى . ويبدأ الشتاء فيرون الربى مجللة بالثلج الابيض ، ثم تهاجمهم العواصف الصرصرية ، وتتكاثف عليهم الامطار الدائمة ، وتتلبد آفاقهم بالغمام القاتم ، فتحملهم عصبية روحية تجعلهم ينتظرون ملاك الربيع على مثل جمر الغضا .

وقصارى القول ان فتيان النصيريين يشبون وهم بين تلك المؤثرات الطبيعية التى تفيض عليهم بالبدايع والمحاسن ، وبهذا تكون احدى ملكاتهم الذهنية نامية متفيضة فتنكشف بهذا الوسط الصالح . اما ملكاتهم الاخرى فانها تبقى معطلة عقيمة ، مضحاة فى سبيل اختها النابغة . ولهذا فان الدور الاول من حياة النصيريين يبعث الروح فى طبعهم الخيالى الذى فطروا عليه . ويميت فيهم سائر الملكات الذهنية ويبيدها .

لا حاجة الى اعمال الذهن للاطلاع على ان احداث النصيريين الجاهلين لا يعرفون شيئاً غير التراب اليابس ، ومهنة الزراعة على النسق القديم ، وانهم لا علاقة لهم لعام . ولذلك كانوا غير قادرين على المحاكمة الذهنية ، وظلت قواهم العقلية محرومة من كل فيض ونمو .

ثم ان الحياة عندهم التى لا نصيب لها من القصبات المنتظمة ، ولا من الطرق الواسعة ولا من النظافة ، والشرائط الصحية فى المعيشة ، ولا من المدارس والمصانع ، ولا من المؤسسات العمرانية والعرفانية ولا من كل ما تتطلبه المدنية والرقى ، جعلتهم محرومين من العلم العملى الذى يستند على النظر والتقليد .

وهكذا فان النصيريين الذين يشبون بادمغة بعيدة عن كل فكر ، مجردة عن كل عزم وارادة ، لا يكون لهم نصيب من الشعور البشرى والاجتماعى ، ولا حظ من الميل الى المعالى والكمال . لانهم يرون آباءهم وكبراءهم لا يحبون بعضهم ، ويشاهدون تباعد النصيريين عن

ذويهم ولاسيما يطلعون على عدواتهم وبغضهم لمن لم يكن نصيرياً .

ولهذا لا امكان لان يتجلى فيهم الشعور البشري ، او ترقى لديهم الاحساسات الاجتماعية ولا يشعرون بمعنى الوطن ولا قدسية العلم ، حتى يوجد عندهم ميل لاعلاء شانهما . ولهذا فان هذه المعالي التي لم يعثر عليها فكرهم لا تدخل لهم قلباً .

ساقتهم الطبيعة لان يتحروا الوسائل لاملاء ما اوجدته المحرومية في انفسهم من الفراغ فهبت لامدادهم طبيعة المحيط ، واندفقت على فراغهم المطلق واملئته بفجرها وشفقها ، وشمسها وقمرها ، وارضها وسمائها ونجومها وطيورها ، وسهولها ونجودها ، وغيرها من العناصر البديعية .

لاسيما « الحقيقة المكتومة » او « السر الخفي » الذي لا يزالون يسمعون صنداه من آبائهم ، كان لهم وكناً يأوي اليه خيالهم ، ذلك الطير الحر النوراني وهدفاً مرتفعاً يعرج اليه .

ثم بعد ذلك الانتظار المديد لا يلبث كبراؤهم ان يجتمعوا ويكشفوا لهم الغطاء عن سر (ع ، م ، س) . ويشرعوا بتلقيحهم بكثير من الخيالات الغامضة ، ويومئذ تقبل تلك الادمغة التي جعلها المحيط والعرق الموروث مهيأة لتلقي كل خيال ، وتعتنق هذا الدين الخيالي المجرد عن كل خصيصة حسية و عقلية ، والموافق لما قام في اذهانها من الافتتان بالخيال . وكلما عالجوا الاطلاع على نقاطه الغامضة باعمال الذهن ، يزج بهم في الاضلال ويبعدهم عن كل حقيقة وعلم .

هنالك يعلمون ان للحياة وللطبيعة التي تحيطهم معان باطنة . وهنالك تكون السماء والقمر ، والشفق ، والشمس ، وكل ما كانوا يشعرون به من العناصر البديعية الخيالية في نظرهم اركاناً لمؤسسة خيالية اعظم من الاولى واعلى . ثم يشرعون بارتياد الموادوالكلمات او الاشارات للتعبير عن تلك المقاصد الخيالية التي يعجزون عن ابرازها . فيكون البدر والهلال والسماء والخمر في نظرهم اشكالاً ظاهرية ، ثم المذاهب والاديان التي تحيطهم حجباً خارجية . وهنالك يستحوذ ذلك الخيال الذي نشط من عقال العقل ، وبعد عن المحاكمة المنطقية على ارواحهم بعد ان يستفز الادمغة بهياج اعمى . ويومئذ تشعر تلك الارواح التي شغفت باظهار هياجها المرافق لذلك الخيال الفيض بانها مجبورة على ان تستر المعاني المقصودة باشكال ظاهرية ، فتمالح افهام تقلبات (علي) ، آلههم الاساسي على وجه القمر ؛ وتضع للقباب السبع اسماء سعد ، وزينب وغيرها ، ثم تسمي محمداً وسلمان ومقداد الذين هم اركان الديانة باسم البطريرك والراهب وغيرها . وهكذا يملؤن الآثار التي ابدعوها بالرموز والمبهمات العديدة .

وقصارى القول يمكننا ان نجمل ما فصلنا الى الآن ونقول : ان للنصيريين حالة ادبية

خيالية مجزومة من الحس والعقل بتأثير تلك الاسباب والافاعيل ثم الهم ادبيات رمزية *Symbolique* مشحونة بالرموز الملونة .

٣ — تاريخ ادبيات النصيريين

اذا فكرنا ان للنصيريين الذين ملكوا على اهم عناصر الادب ، ماض يربو على عشرة قرون . نعلم ان لهذه الامة القديمة ثروةً عظيمة من الادب ، وتاريخاً ممتازاً فيه . على ان افراط هذه الامة وانهماكها باخفاء اسرارها الدينية اوجب بقاء احكام مذهبها وحقيقته تحت غشاء المجهولية حقباً طوالاً ، وهكذا كان الحال فى آثارها واشعارها فان ما تثابر عليه من التعصب فى التقيد لاخفاء آثارها الشعرية والادبية اوجب مجهولية تلك الآثار ، وابعد تاريخ ادبياتهم عن البحث والتدقيق . هذا وان يكن لا لزوم لتدقيق جذور واسس اللغة العربية — لانها معلومة — التى ابدع بها النصيريون اشعارهم ؛ ولكن كان من الضرورى تدقيق الادوار الادبية التي مر عليها هؤلاء القوم منذ تأسست هيئتهم باسم النصيرية الى الآن ، وشرح ما تحتويه آثارهم الادبية من السجايا والخصائص الخاصة . اذ لا بد لهؤلاء الذين نشأوا فى اصقاع تختص باوصاف متنوعة من سورية التى كانت مسرحاً لمتنوع الحادثات السياسية والاجتماعية ، ان يرسموا تطورهم وتقلبهم فى اشعارهم التى يبدعونها . ولكن من اصعب ما يكون نيل ولو بعض ما يطلعنا على اوصافهم الروحية وسجاياهم الادبيه التى يجب ان يكونها فيهم تأثير العرق والاقليم، والمحيط ، الحصول على بعض اشعار تناسب المقام نستشهد بها على تأييد الآراء التى نستبطها ، ناهيك عن التحفز للاستحواذ على الوسائل التى تمكننا من ايجاد تاريخ مفصل لادبيات هؤلاء القوم .

حتى ان المستشرق المعروف (قله مان هوآر *Clément Huart*) يقول [*] بعد ان تألم من تعصب النصيريين المفرط بخصوص كتم دينهم ، وآثارهم : لم يعرف شيء عن الديانة النصيرية الا بعد ان نشر سليمان افندى الاذنى كتابه المشهور المسمى بالباكورة واشعارهم ايضاً لم يطلع عليها احد الا بعد تلك القطع التى ضمها الكتاب المذكور . ..

فاذا علمت ان الاشعار التى تنتمى الى النصيريين ، هى عبارة عن ما حواه كتاب الباكورة وست عشرة منظومة سنبحث عنها ، واربع قصائد استنسخها « قله مان هوآر » من الكتابات النصيرية الموجودة في مكتبة باريز ، ونشرها فى مجموعة (ژورنال آزياتيك) .

(*) راجع مقالة [illegible] التى عنوانها ([illegible]) فى نسخة ايلول سنة ١٨٧٩ من مجموعة ([illegible]).

ينكشف لك الغطاء عن سبب عدم تمكننا من تعميق البحث فى تاريخ ادبيات النصيريين وتحرى ادوارهم وآثارهم الادبية .

وانا لم نظفر من شعرهم وشعرائهم الا بما كتب فى التآليف المذكورة من القصائد واسماء اصحابها فقط ، ثم بالرغم عن ما توسلنا به من الوسائط الممكنة للحصول على هذه الامنية اثناء تجوالنا فى ديارهم ، لم نحصل ايضاً على ما يستحق الذكر ولهذا فاننا مضطرون لنستعيض عن البحث فى تاريخ ادبياتهم بتدقيق بعض اشعارهم الدينية ، ونقارن بينها و بين ما ذكرناه من المؤثرات ونكتفى بايضاح ما بينهما من العلائق والروابط . وقبل ان نختم هذا البحث رأينا ان ندرج بعض الآثار الخطية (*manuscrit*) النصيرية التى يمكن ان تكون دليلاً لمن اراد تعميق هذه الابحاث فى الآتى . هذا وان يكن بعض هذه المؤلفات مطبوعاً — كما بين رفيق — ولكن اكثرهم مجهول لا يعلم اين يوجد الآن .

كتب (*Joseph Catafago*) فى عدد تشرين الثانى وكانون الاول سنة ١٨٧٦ من مجموعة (*Journal Asiatique*) مقالة عدد فيها الآثار الخطية النصيرية على الوجه الآتى:

١ — كتاب الهفت الكبير للامام جعفر الصادق .
٢ — كتاب المراتب والدراج .
٣ — كتاب الطاعة من كلام صاحب الساعة .
٤ — كتاب حجة العارف .
٥ — كتاب الدلايل فى معرفة الرسايل لابن قاسم الطابرانى .
٦ — كتاب التجويد للشيخ حاتم الطوبانى الجديلى .
٧ — كتاب التوحيد للشيخ محمد بن سنان الزاهرى .
٨ — كتاب الاسوس .
٩ — كتاب الحقائق لابن شعبه الحرانى .
١٠ — كتاب الاكوار والادوار النورانية .
١١ — كتاب الطالقات .
١٢ — كتاب البحث والدلالة فى مشاكل العلم والرسالة .
١٣ — كتاب الجدول النورانى .
١٤ — كتاب الحجب والانوار للشيخ محمد بن سنان .
١٥ — كتاب التكليف للشيخ محمد بن سنان .
١٦ — كتاب الصراط .
١٧ — كتاب المصرية .

١٨ — كتاب الايضاح .

١٩ — كتاب مجموع الاعياد لميمون بن قاسم الطبرانى

٢٠ — كتاب المجموع .

٢١ — كتاب اليونان « لاهل الشمال » .

٢٢ — كتاب الحاوى فى واجبات التلاميذ .

٢٣ — كتاب الباطن .

٢٤ — كتاب التأييد للشيخ محمد الكلازى .

٢٥ — « ديوان سيدنا ومولانا الخصيبي .

٢٦ — ديوان الشيخ على الصويرى .

٢٧ — ديوان الشيخ خليل النملى .

٢٨ — ديوان الشيخ ابراهيم الطوسى .

٢٩ — عينية الشيخ ابراهيم الطوسى .

٣٠ — ديوان الشيخ يوسف ابو ترخان « الشمالى » .

٣١ — ديوان الشيخ محمد بن كلازو .

٣٢ — ديوان الشيخ حسن بن مكزون السنجارى .

٣٣ — ديوان الشيخ صارم .

٣٤ — ديوان الشيخ يوسف الخطيب .

٣٥ — ديوان الشيخ ابراهيم شيخ العيدية .

٣٦ — رسالة باطن الصلاة .

٣٧ — رسالة الزردباشية .

٣٨ — رسالة الجوهرية .

٣٩ — رسالة المرشد .

٤٠ — رسالة الجنانية .

واذا امعنا النظر فى هذه المؤلفات نجد اكثرها يبحث عن الديانة النصيرية ، ويتكلم عن مناسكها المتبعة . والمؤلفات من نمرة (٢٥) الى (٣٦) هى عبارة عن دواوين اشعار و [حسين بن حمدان الخصيبي وعلى الصويرى ، خليل النميلى ، ابراهيم الطوسى ، يوسف ابو ترخان ، محمد بن كلازو . حسين بن مكزون السنجارى ، صارم ، يوسف الخطيب ابراهيم] ثم [على بن صارم ، الشيخ حسن الاجرود] الذين سنذكرهم فى المبحث الخاص ، كلهم من شعراء النصيريين .

وما لنا علم بحياة اكثر هؤلاء الشعراء . ولكننا نعرف منهم حسين الخصيبي الذى سبق لنا

التكلم عن شخصيته . ويعرف عن حسن بن مكزون انه كان اميراً جلياً وجد قبل هذا التاريخ بسبعة قرون . ويزعم النصيريون ان لهم شعراء غير هؤلاء مثل « محمد بن شعبي الحرانى والمعز بن صالح ، ومحمد بن حسن التلافرى » . ثم بعد هذه المقدمة المجملة ننقل الكلام الى اشعار هؤلاء الشعراء التى هى دينية بحتة .

٤ — اشعار النصيريين الدينية

١ — **الاناشيد الثلاث** — ان لحسين بن حمدان الخصيبى أكبر مؤسسى الديانة النصيرية ، ثلاث اناشيد درجت فى كتاب الباكورة يسميها النصيريون « ترنيمه » وهذه الترنيمات تتلى اثناء تقاليد الدخول فى الديانة النصيرية ، وفى الاعياد المعروفة ، وتقرأ على سبيل التفاخر والمباهاة من قبل شخص واحد ثم يشترك بترتيلها الآخرون.. وهذه هى :

— الترنيمة الاولى —

يا ظاهراً لم تغب عنا وباطناً لم تزل فردا
صفاتك الخالقات حسبي وبابك السلسلى حمدا
اجب لداعيك واعف عنا وارحم ما مضى قبلاً وبعدا
محمد الله بالحق حمداً واختم صلاتى بالعين فردا

— الترنيمة الثانية —

منك بدى ظاهر الصفات وكل خير منك يأتى
يا احد لم يحط منه لا بصفات ولا بذات
وجهك لى قبلة اصلى اليه من سائر الجهات
يا كل كلى وانت كلى ياعلياً وفيك اختم صلاتى

— الترنيمة الثالثة —

كلما نابنى من الدهر خطب صحت يا جعفر اله الانام
انت ربى وخالقى ومليكى وانت ذو الكبريا ولى النعام
وانت فوق السما على العرش تعلو وانت فى الارض حاضر على الكلام
وانت اسماؤك الحسين وموسى وعلياً وانت محى العظام

ان هذه الابيات تشف عن اعتقاد النصيريين بصورة واضحة . ولهذا لا نرى حاجة لزيادة شئ عليها . ويجب ان يكون لهذا الشاعر قصائد كثيرة من هذا النوع ولكن لم نظفر بشئ منها . والقصيدة التى مطلعها :

الادبيات النصيرية

· حكم ساقهـا اليكم اخيكم
عبد عبدٍ لثاني عشر بدوّر

هي له .

[٢] — قصيدة الهبوط — بينا سابقاً اعتقاد النصيريين في كيفية تكوين الكون وقلنا انهم يزعمون ان قد كانوا كواكب في السماء ثم هبطوا الى الارض . وهذه العقيدة الاساسية كانت محوراً يدور عليه كثير من اشعارهم . وقصيدة (الشيخ محمد بن كلازو) من شعراء النصيريين هي من هذا النوع . وهي تتركب من خمسة وعشرين بيتاً . ومطلعها :

ذكرت زماناً كان لي قبل هبطتي
ففاضت عبرتي وزادت حسرتي..

ثم بعد ان افصح هذا الشاعر عن ما عنده من الحسرات على لحادثة الهبوط ، تقتل الكلام الى ذكرى ذلك الزمن الزاهر فقال :

فكنا بدار العز في اوج العلى
نسير مع الاملاك في كل روضة

وبعد ان تكلم عن تلك الذكرى الناضرة ، اخذ يفصل عقيدته الاساسية ويقص قصصها فقـال :

الى ان اراد الله يتم حكمه   فقال ساهبطكم الى دار الدنية
واظهر ذاتي في حجاب لجنسكم   واريكم حجبي كسراب البقيعة
ويحسبه الظمآن ماءً اذا اتى   اليه فلم يوجد شيء حقيقـة
فمن قد عرفني حين اظهر بينكم   حجاباً ويفردني عن البشرية
فذاك آمنه من الخوف والعنا   واخلصه من كل هول وشدة
ويرجع الى مأمنه ايدي مسارعاً   واسكنه في ظل روضات جنتي
رددنا على الرحمن ما قاله لنا   هبطنا لدار الذل من بعد رفعـة

ثم ينتقل الشاعر بعد هذه الابيات الى ذكر القمر الذي يتجلى « علي » فيـه بصورة رمزية ويقول :

سألتك يا هبق بذات اظهرتها
لتوجدها لجنس بين البريـة

ويقصد من كلة (هبق) مدلولات حروفها . فالهـاء مدلولها « الهلال » والباء « البدر » والقاف « القمر » . وما سبب ذكره للايتام الخمس برمز « نحاآت » ، واشـارته الى القمر بكلمة « رمق » اي بعكس الكلمة الا الاحتفاظ بالسر المكتوم الذي يحرص على كتمه .

[٣] — عرائس الديوان — ان للنصيريين اشعاراً دينية يكتبونها فى آخر دواوينهم ويسمونها « عرائس الديوان » . وموضوع هذه الاشعار القباب السبع التى يزعمون ان آلههم « على بن ابى طالب » تجلى فيها فى ازمنة مختلفة . ويكنون عن كل واحد باحد هذه الاسماء النسائية :

(١) سعدى (٢) مى (٣) رباب (٤) زينب (٥) عليا (٦) لبنى (٧) ليلى . ويكون عنوان شعرهم مقروناً باحد هذه الاسماء، ثم لا بد ان يتكرر ذكر الاسم فى الشعر ايضاً

ونرى ان اشعارهم هذه ارجح من غيرها وافصح . ومع هذا فان اشعار النصيريين — كما قال مؤلف الباكورة — لا وزن ولا اعراب ، كما هو الحال فى سودهم وادعيتهم .

ويوجد فى كتاب الباكورة اثنى عشر قصيدة من نوع هذا الشعر ، تسع منها للكلازيين وخمس للشماليين . وقد اثبتها « قله مان هوآر » فى مقالة له نشرها فى مجلة « ژورنال آسياتيك » ثم اضاف اليها اربع قصائد اخرى استنبطها من الكتابات النصيرية الموجودة فى مكتبة باريز . وها نحن نذكر على وجه الاجمال اللاتى كتبت فى « الباكورة » ثم ننقل الكلام الى الاربع الاخرى :

١ . اشعار الكلازيين الدينية

ان اول شعر من التسعة التى ذكرت فى كتاب الباكورة هو للشيخ ابراهيم الطوسى يتغزل فيه بزينب . وها نحن نذكر هذه القصيدة برمتها لتكون نموذجاً نطلع به على نسق هذه الاشعار :

— شعر للشيخ ابراهيم الطوسى يمدح به الست زينب —

اسقيانى احبتى واطربانى	فى هوى زينب [*] زين المعانى
اسقيانى من الصبوح رحيقاً	عتقت فى دنانها الا جوانى
هام وجدى بحبها يا نديمى	حرت فى وصفها وكل لسانى
بنت بكر لها من العمر عشر	واربع فاق نورها النيران
شعرها اسجف الضيا فحجبنا	تحت اكليل تاجها الكسروانى
حاجباها جبينها نور زاه	طرفها غنجه سحر (**) دهانى
وجهها كالهلال يشرق نوراً	خالها عنبر على الوجنتان

[*] يرى « قله مان هوآر » زيادة (و) بعد كلمة زينب لاجل استقامة الوزن .
[**] ويقول بلزوم الحاق (ف) فى اول كلمة سحر . لاجل عين الغرض .

واذا ما تبسمت فاح عطر ويدا بارق الوميض اليماني
صدرها ناعم كلمس حرير فيه رمان احمر شهرباني
فطلبت الوصال منها فقالت ما لنا رغبة بمن كان زاني
قلت حاشا متيم فى هواك مغرم ان يكون نسل الزواني
نسبتى احمدية من حسين جنبلانى جندب نمرواني . .

وهذه القصيدة تكشف عن خيال بهيج واسع . ويقول مؤلف الباكورة ان المراد من « اربع عشر » هو الليلة الرابعة عشر من الشهر ، ويفسر كلمة « الرحيق » بالاطلاع على (المعرفة) .

* * *

اما القصيدة الثانية من الباكورة فهى لحسن بن مكزون السنجارى وتتألف من عشرة ابيات. وهى تشبب فى « سعدى » . وهذا مطلعها :

لباتنا هواك وما لينا سوى اسم به عنه كنينا

* * *

والقصيدة الثالثة للشيخ صارم فى مدح القمر ، مطلعها :

انحرف يا نون يا حاجب المقرون تنظرك بعيون من فوق عليون

ولعل المقصود من النون هنا . هو القمر ، او الهلال لتقاربهما فى الشكل . ثم مدلول « ع » فى هذه القصيدة التى تتألف من سبعة عشر بيتاً ، هو على بن ابى طالب . وفيها عدة حروف اخر لكل واحد منها مدلول باطنى .

* * *

والقصيدة الرابعة هى للشيخ محمد بن كلازو يمدح فيها القمر ايضاً ، وهى تتألف من عشرة بيوت . ومطلعها :

قد شفانى ابريق عذباً (*) لماكا يا غزال بوادى الاراكا

وقد اعتنى صاحب الباكورة بتفسير هذا البيت اعتناءً خاصاً . وقال ان معنى الغزال بالنظر « للظاهر الباطن » هو « القمر » ، ومعنى الوادى « السماء » ومعنى « الاراك » « الكواكب » ؛ اما بالنظر « للباطن الخفى » فالمقصد من الوادى هى « هالة القمر » ومن الغزال « الغشاوة التى ترى فى منتصف القمر » ، ثم الاراك كناية عن الكواكب والندامى .

* * *

وكل اشعار الكلازيين على هذا النسق . ثم ان القصيدة الخامسة هى لهذا الشاعر ايضا

---

[*] استبعد (قله مان هوآر) معنى هذا الكلمة وقال انه حولها الى كلمة « ما » .

يمدح فيها (الخمر) او «القمر» . وقد ضمنها رموزاً كثيرة . فقوله «خمر مزاجها زنجبيل» يقصد به الهلال الممزوج بدائرة سمراء . والمقصد من الكؤوس «دورة القمر» .

وبما ان الاشعار الدينية النصيرية كلها على نسق واحد فى المعنى والتبليغ اضربنا عن ذكر قصيدة الشيخ محمد كلازو التى تتألف من عشرة بيوت فى مدح القمر، وقصيدة الشيخ خليل التميلى المأخوذة من ديوانه المسمى «ديوان التضويع» وهى عبارة عن ثلاث وعشرين بيتاً . وثمانى ابيات له يتشبب فيها بـ «زينب» . وقصيدة الشيخ يوسف الخطيب فى مدح القمر المؤلفة من اثنى عشر بيتاً ، ولهذا فاننا نحيل من شاء التوسع فى هذه الابحاث الى مطالعة الكتب التى ذكرنا اسمائها .

٢ . اشعار الشماليين الدينية

ذكر فى كتاب الباكورة ثلاث قصائد من عرائس لديوان للشماليين . فاولها قصيدة الشيخ يوسف ابو ترخان مدح فيها السماء وهى عبارة عن احد عشر بيتاً . والثانية هى لهذا الشاعر ايضاً سماها بالمعراج وهى عبارة عن ستة عشر بيتاً . والثالثة هى للشيخ ابراهم شيخ العيدية من نسل الشيخ يوسف ابو ترخان ، وهى عبارة عن اثنى عشر بيتاً .

فالثانية من هؤلاء الثلاث تلفت النظر لما طبع عليه خيالهم من المبالغة والاغراق . اما الاولى والثانية ، فهما يشفان عن التشبه بالنصرانية اعتقاداً واصطلاحاً . فانظروا الشاعر ماذا يقول فى القصيدة الثانية المسماة بالمعراج :

سريت مجداً فى طلب السرور لنفسى بالتنزه والحبور
الى ان طفت لاسبع الاراضى وجلت سهولها ثم الوعور
رأيت من العجائب ليس تحصى وقد عاينت المسبع البحور
وقد شاهدت قافاً فى عيانى مع البحر المحيط به الزخور
ظفرت بدره منه وانى بلغت بها الظلال وكل نور
وسد اسكندر فى رأى عينى لقد شاهدته ياذا الخبير
ويأجوج ومأجوج جميعاً رأيت طويلهم ثم القصير
وشمس الافق مغربها فانى بلغت اليه فى جدى وسيرى
بعين حامية تغرب وتخفى بماء اسود صعب خطير
ويونس بحره ايضاً عيان ونون حوته ياذا الخبير
وايضاً قد رأيت الخضر جهراً وهو انزع ليس له نظير ... الخ

وهذا الشاعر بهذا الخيال المطلق يبرهن عن روح نصيريه كاملة . وقد تسنى له فى تجواله

الخيالي ان يرى الاراضي السبع ، و البحار السبع ، وكل ما هنالك من الغرائب ، وسد الاسكندر ، ويأجوج ومأجوج ومغرب الشمس .. . الى آخر ما شاهد من الاضداد المتنوعة».

والشيخ ابراهيم هذا كاد ان يكون نصرانياً بفكرته ، وبيانه . ومن اشعاره فى هذا الباب قوله :

تنادى راهب الرهبا ن هات الخمر واسقيني

وقوله :

ندين بدين مريمة ونبغى سر آمين
نطيع الروح ايسوع ونحبو بالشعانين

فما اغرب بيان هذا الشاعر بخلطه العقائد النصيرية بالرموز النصرانية . فاذا اردنا ان نطلع على درجة هذه الغرابة ، علينا ان نقرأ السطور المفسرة لهذه الرموز فى كتاب الباكورة .

يقول صاحب الباكورة :

« يقصد النصيريون « على بن ابى طالب » بكلمة « بطرك » ، و« محمداً » بكلمة « راهب الرهبان » او « مطران » ، ويرمزون عن سلمان الفارسى بكلمة « خورى » ويسمون مقداداً باسم « قسيس » او « شماس » . ثم يكنون عن الكواكب والمراتب السبع بكلمتى « رهبان » و« هيفات » ويقصدون من كلمة « صيوان » الفضاء وجمع الكواكب . اما « الملاعين » فهى « الطائفة الاسلامية » .

وهذه الاشعار تدلنا على ان خيال النصيريين المتشرد يحتاج الى ضابطة عقلية .

٣ · الاشعار التى رواها قلهمان هوآر

يجب علينا قبل اتمام هذا البحث ، ان نذكر القصائد الاربع التى نقلها قلهمان هوآر عن الكتابات النصيرية الموجودة فى مكتبة باريز .

فالاولى للشيخ على بن صارم وهي عبارة عن ثلاثين بيتاً . ومطلعها :

سألتك يا الهى بالنبيا
باحمد اسمك النور الجليا
بفاطر فطرة الرحمن حقا
وبالحائين والاسم الخفيا... الخ

يستمد هذا الشاعر من (على بن ابى طالب) آله النصيريين ، ومن (محمد) نوره الجلى ثم من فاطر « فاطمة » ومن الحائين اى « الحسن والحسين » ثم من الاسم الخفى

اى (محسن سر الحـفى). ثم يتسلسل هـذا الاستمداد الى ان يأتى على اسماء جميع اعزة النصيريين.

والقصيدة الثانيـة هى لهـذا الشاعر ايضاً. وتتالف من اثنين وعشرين بيتـا، وكادت ان تكون عـين هذه القصيدة. ومطلعهـا هذا يدلك على انها شكل مكـرر للقصيدة الاولى:

سألتـك يا الاهى يا عليا
باحمد اسمك (الميم) الرضيا

اما القصيدة الثالثة فمطلعها:

بدر اضا متجليـاً لماحا
بالنور كالمشكاة والمصبـاحا

وهى للشيخ محمد الكلازى وتتالف من خمسة عشر بيتاً

والقصيدة الرابعة للشيخ حسن الاجرود، تتالف من مائة واربعة مصاريع. وهى غرامية مجونية. وهذا مطلعها:

قـم الى الراح بانشراح فوق بسـط من زهور
فى فصول نيسان
واجعل جلوسك من صباحك واستقبـل الديجـور
اياك تكن نعسان
وان كان جليسـك سيدالملاح تحضـا بذاك النور
وتذهب الاحزان... الخ

وهذه الادوار وان لم تخل من الرموز والكنايات هى اطرب اشعار النصيريين وارقها. وهذه هى الآثار التى وصلت ايدينا اليها من ادبيات النصيريين. ولا بد للزمان ان يكشف الخفاء عن مكتوماتها.

—١٢—

من برمانه الى طرطوس

كانت شمس تموز كالنار المحرقة لا تقوى النفوس على تحملها. وهذه حقيقة ما فتـئت تؤيدها تجاريبنا فى الاسفار التى امضيناها الى الآن.

وان ادرى ما كنا صانعين؟ اذ ما زالت تتعاقب هذه التجاريب الجهنمية، وترهقنـا

اشق العذاب ، ثم لم نستطع التقلص من ذلك التنور التموزى . وما كدنا نزمع على مبارحة نسيم برمانه البليل ، فى الغد الا ولمع فى خاطرنا هذا الانشواء ، فكنا نقول بعناد نضيرنى :

— من المحتم ان نعمل على التخلص من سعير هذه الشمس المحرقة باى واسطة كانت .

ولما عقدنا الراى على انتقاء الطريق المريح بثبات متين او بالاصح بعناد جامد لا زلنا نعجب من ميل طباعنا اليه . حتى وطنا انفسنا للسرى غير هيابين ظلام الليل الحالك . وبلغ برفيقى التحبيذ على هذا الاقتراح لدرجة اصبح فيها يقول :

— كم يكون السرى لطيفاً فى الليل الرطيب ؛ والانسياب فى طيات الظل ، بحالة الظل ؟

ومع هذا ، فقد تضاعف ابتهاجنا لما قيل لنا ان وجهتنا قريبة لا تتطلب هكذا مفاداة ولا جرم ان قطع هذه المسافة فى زمن مضيء ، بليل النسيم هو انفع لنا واولى . واننا سنهب غداً قبل بزوغ الشمس بساعتين حينما يكون كل شيء تأهب لتشييع السبات ، ونركب الطريق . وهكذا لا نزال نسير فى ظل الغدوة حتى نصل الى (طرطوس) قبل الزوال بمدة ، لا انكر انى لا اعلم ليلة عالجت فيها اصطياد النوم بفكر مستريح ، وبال مطمئن كهذه الليلة .

*
* *

لما فتحنا اعيننا بعد ما سمعنا صرير الباب . كنا نرى الكواكب تتقد فى كبد سماء هذه الديار النصيرية التى حشيت بالاسرار الغامضة . وكان حينئذ لا اثر للنور وراء ربوة « تليجه » التى كانت قائمة امامنا كانها ظل مجسد وكان الهدوء مخيماً على القصبة ، والسكون سائداً فيها . ولا من ممزق لتلك السكينة الصامتة الا ماء القصبة بخريره . وكنا نغادر برمانه على متون الجياد ، ونسيم الصبح ينفحنا بهبة عليلة كانها ايد من حرير ، وكنا مستيقنين بان لنا فى هذ اليوم سعادة هنية .

لم يزل الظلام مخيماً ، فاخذنا نهبط فى منحدر من عقبة صخرية ، وكانت ظلال اشجار الزيتون حوالينا كانها تتراكض من امام نظرنا وتنتشر فى السهول حتى تملء ذلك الفضاء . اخذنا نخوض فى تلك الظلال ، ومرت علينا قرية « القصيبة » كالطيف . ولم نزل حتى وصلنا الى وادى « ابو ذكرا » المشرف على الناحية العربية ونظرنا الى خلفنا . فرأينا ربوة تليجه كانها بناية من ظل تتساقط وراءها نجوم السماء وتتغيب عن الانظار ، وكنا نشعر بدبيب النور فى ذلك الديجور ، ونرى انكشاف السواد بالبياض رويداً رويداً ، ها نحن نتبع الضفة اليسرى من وادى ابو ذكره . وحصباته البيضاء اخذت تشع بلمعة كابية ، وتحاول ان تطلعنا على وجودها . ثم طليت السماء بنور يخاله الانسان من محلول ما غاب عن النظر من الكواكب

ان مذاهبها . كل هذا كان يبشرنا بموكب ملكة النور وقرب بزوغها .

لم تمض برهة الا وشرع النور يمد بطلائه على هامات الربى التي كانت قائمة حوالينا ، وانجلت غشاوة الدهشة . واخذت الالوان تنقلب من تلك السمرة الكابية الى خضرة وحمرة وصفرة . وانجلت لاعيننا الاشجار والازهار والرمال . لاسيما لما اجتزنا الى الضفة اليسرى من الوادي ، كانت آثار السيل الشتوي تشاهد على ضفافه بوضوح .

هذه امواج النور تندفق من اعالي الربى الخضراء التي قامت عن ايماننا وشمائلنا على امتداد الوادي . وها هو نسيم الصبح التموزي يهب بنعومته المنعشة فيملئ قلوبنا نشاطاً ورغبة . وبعد ان مرت عن يميننا ربوة (المحتضية) وعن شمالنا ربوتا « عين عرفته وبيت الناصرة » ولاحت لنا قرية « بيت الناصرة » ، هنالك تمكنت الشمس من الوصول بشعاعها الذهبي الى طريقنا في داخل الوادي .

وبعد برهة كنا على الضفة اليمنى من الوادي ، وبعد ان سرنا بين ظل الاشجار مدة وقطعنا مقام « الشيخ محمد جروف » من مزارات النصيريين ، وبعده ربوة « وادي الغورا » ، وعن اليسار ربوتي « الصناع والصلوح » وعن اليمين ربوة « الباطورة » ، ثم عن اليسار هضبة « قلعة الشمال » . وصلنا الى ربوة « حمين » عن اليمين وربوة « المشرفة » عن الشمال .

والآن نرى على يسار طريقنا الحقول المزروعة بالذرة الصفراء او البيضاء . والبنات النصيريات النشيطات واقفات في وسط تلك الحقول باحدى ايديهن عصية . في الاخرى لوح من تنك يقرعنه لتنفير الطيور عن تلك الحقول . وكن تحفن الاسماع بتلك الطرقات المطردة ويتراكضن يمنة ويسرة ، ويقفزن ويثبن ويجعلن بنشاطهن المنظر متموجاً . وها نحن انعطفنا عن وجهتنا واخذنا نتسلق في جبال « المشرفة » التي كانت على شمالنا .

وما كدنا نصل الى قمة الجبل حتى تراآى لنا واد آخر ووراءه هضبة « رويسة حماد » وقريتها . وما زلنا آخذين في تسلق الذروة في انقاب حلزونية حتى وطأنا هامة ، ورأينا هناك سنديانة كبيرة يتجاوز قطرها بضعة امتار ، وتحتها مقبرة صغيرة . فلبثنا هناك برهة نتصفح الآفاق من الجوانب الاربع ، وكانت جميع تلك الاصقاع مطرزة بالنور المسجدي من ذلك الغدوة التموزية .

فارقنا تلك الشجرة المعمرة وانحدر معنا الطريق ، وكنا نرى قبالتنا الهضاب صبراً صبراً ، وحينما وصلنا الى وادي (بسوري) تعالت عن يميننا ربوة « بيت الزينة » وعن شمالنا ربوة « بسوري » . اما الوادي الذي كنا نسير فيه فكان متناه في اللطف والحسن . لاسيما الضفة اليسرى فانها كانت مملوءة بشجر الآس ، التي اشبعت نسيم ذلك المحل نكهة عطرة . وبعد ان شممنا من ذلك العبير المسكر ما شئنا ان نشم ، وصلنا بسيرنا الى « غدير بسوري » . وكان هذا الموقع في منتصف الطريق بين برمانه وطرطوس .

وبعد ان غادرنا الغدير اخذنا نصعد ونهبط ونغور ونجد على امتداد الطريق. ولكن كان اكثر سبيلنا مظللاً بالاشجار وساحة نظرنا مملوءة بالخضرة المناظرة .

يا للسعادة ، ما المطف هذا الطريق ؛ وما اجمل تلك الاكمات البيضاء المدورة التي تتوجت بها اشجار الآس الزمردية ، وما احلى المسير على هامات الربى حيث يتعالى الانسان ويطأ رؤس الشواهق بأخمصيه.

كانت مناظر هذه الاصقاع فسيحة لطيفة .وكانت عن يمينها جبال «طيشور» و «الحويطات» وقريتاها ، ثم جبال « مرزحين ودرميه » تلوح عن بعد . وعن شمالها ربوتا « بيت الحاج » و « ظهر البازدية » وقريتاهما ثم على غلوة منهما ربوة « كرم بيرام ». وقبالتنا على بعد تلوح جبال « الكاشفاني » .

سرنا نحو ساعة على هذا النمط ووصلنا الى وادى « الغمقة » . وكان يحمل آثار السيل الذى طرته فى الشتاء . ثم بعد برهة اخذنا نتساق فى مرتقى نفنف ، وكانت جبال « ظهر النقيب » عن يميننا وجبال « الكاشفانى » عن شمالنا .

ولما وصلنا الى الجانب الغربي حيث يجب الهبوط الى وادى « ظهر النقيب » لمحنا البحر عن بعد وظهرت امامنا الهضاب والقرى . فكان عن يميننا جبل « القصيبات » وقرية « الحيش » وعن شمالنا قرى « المظاهرية ، حارة هرجيش ، الشماليات »، وورائنا قرية « بيت اسماعيل » و « الجديدة » وامامنا فى البعد قرية « بيت عليان » و « بيت كمون » كانهما فى حضن البحر . وذنت كلها مشاهدة بشكل واضح .

ثم بعد برهة ترائت لنا جزيرة « ارواد » كانها صدفة ترصعت بها زرقة البحر وبشرتنا بقربنا من طرطوس . وكانت منا على مسافة ساعة . وكنا كلما قربنا من البحر نرى قرى جديدة ، او تتضح لنا التى كنا نلمحها. ثم بعد ان مررنا بسهل واجتزنا بضع قرارات وكانت الشمس بعيدة عن الزوال فاخذنا نقرب من طرطوس التى كان منظرها متناه فى اللطافة ببيوتها البيضاء الناصعة ، وها نحن ندخل القصبة من بين الواح الصبار المحيطة بها .

— ١٣ —

طرطوس

١ — موقع طرطوس ومنظرها وخطوطها الداخلية

ان قصبة (طرطوس [illegible]) مركز ناحية طرطوس التابعة الى لواء طرابلس

الشام مبنية على الساحل الشرقى من البحر . ويوجد شمالها سهل واسع ثم (نهر الحصين) ومن ورائه الحقول الفسيحة . وشرقها البساتين التى تمتد مسافة نصف الساعة واشجار التين والليمون ثم الحقول الفسيحة ومشجرات الزيتون ، اما جنوبها فهو عبارة عن السهول ومن ورائها مصب نهر (الغمقة) .

اذا نظرنا الى طول هذه القصبة من الشمال الى الجنوب وهو يربو عن الف متر ، ثم الى عرضها من الغرب الى الشرق الذى لا يتجاوز ثلاثمائة متراً ؛ وعلمنا انها محاطة بالبساتين ، يحصل لدينا فكر اجمالى بهيئة هذه القصبة التى كانت على شكل المستطيل .

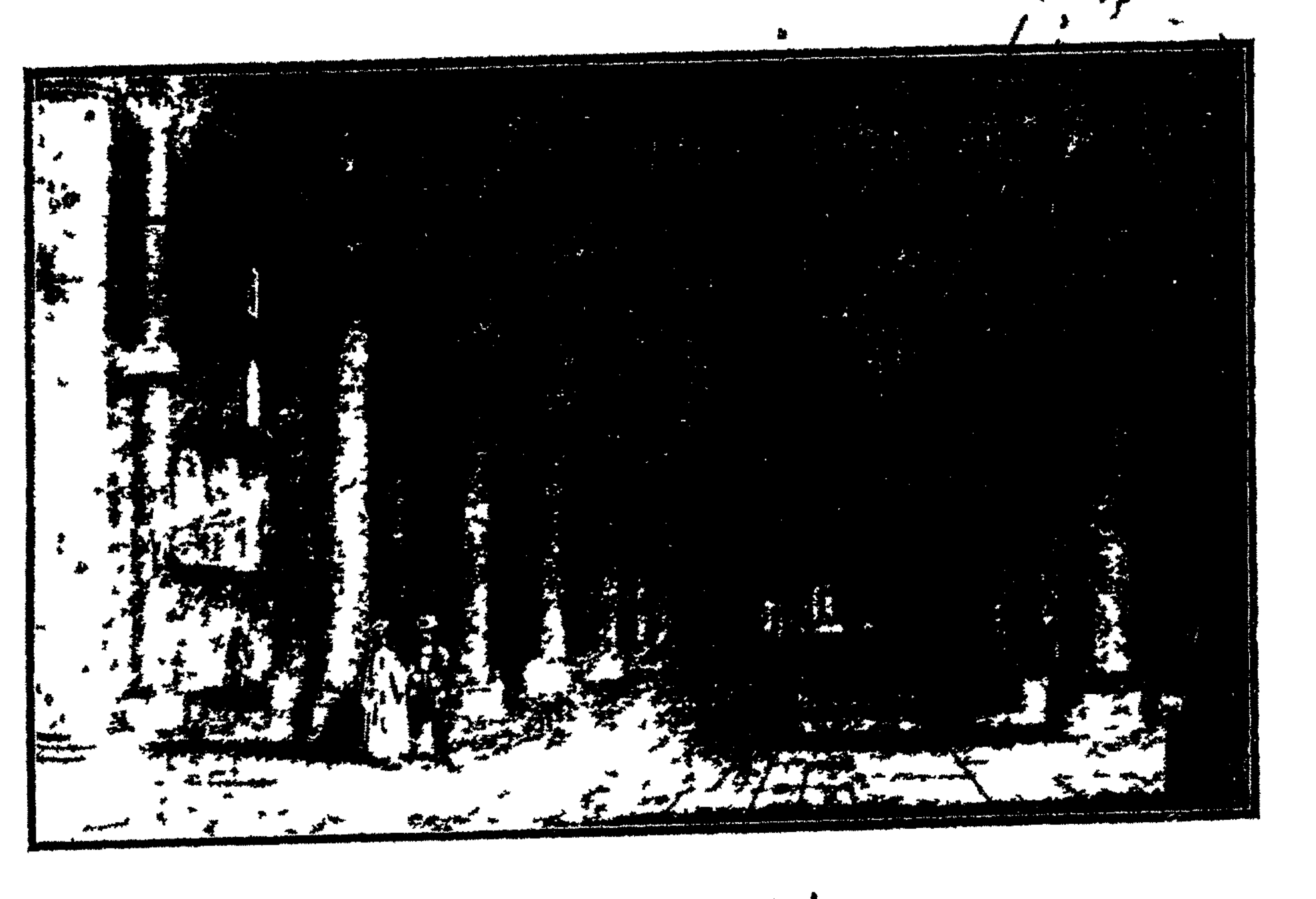
ان لهذه القصبة منظراً فسيحاً ؛ تطل من الشمال على جبال (مرقب) التى تلوح عن بعد ومن الشرق على جبال صافيتا وقرى الشيخ سعد والخريبات ومن الشمال الشرقى على قرية (الدوير) ومن الجنوب على قرية (ظهر بيت عليان) ومن الجنوب الغربى عن بعد بضعة كيلومترات على جزيرة « ارواد *Aradus* » ثم من الغرب على بحر خضم يتغلغل فى البعد وراء الآفاق . ولا جرم انها قصبة لا تنقبض فيها النفوس .

ان هذه القصبة المسورة بسورين متداعيين ، السور الشرقى ، والغربى تتألف من اربعمائة ، او خمسمائة بيتاً ، وتنقسم الى اربع محلات . وتسمى الناحية الوسطى منها باسم « الساحة » و « الخندق » . والناحية الجنوبية باسم « الخراب » او « النصارى » ويسمى القسم الشمالى باسم « البرانية » . واحدث هذه المحلات واصغرها ؛ هى محلة « البرانية » .

والابنية الجديدة فى طرطوس تشبه ابنية الشام فى محلة المهاجرين . واكثر هذه البيوت عبارة عن طابقين تحتوى على غرفتين او ثلاث ، وكلها مبنية بالحجارة . اما البيوت القديمة فانها تشبه البيوت القديمة فى بيروت وصيدا وكلها مستورة بالسطوح المطلية . ويسمون هذه السطوح « عدسة » ، ولا اثر يستحق الذكر فى هذه القصبة غير جامعيها ومسجدين ، وعمارة مهمة من آثار الصليبيين ، وكنيسة ، او كنيستين للروم الاورثودوكس وبناء على وجودها فى موقع تجارى وجد فيها اكثر من ثلاثمائة حانوتا . ويوجد فى داخل القصبة طريقان ؛ الواحد يمتد من الشمال الى الجنوب ، والثانى يبدأ من شرقى السور الغربى ، ويتصل بالآخر فى الناحية الجنوبية .

ثم يوجد فى خارج القصبة طريق يمتد الى طرابلس ، وآخر الى اللاذقية ، وفى الجنوب الشرقى منها طريق الخريبات ، وفى الشمال الشرقى طريق صافيتا ايضاً .

اما ماء القصبة ، فانها فى ضيق عظيم بسببه . لان جميع الآبار التى فيها ، يكون ماؤها مالحاً بسبب قربها من البحر . هذا وان وجد فيها بضعة صهاريج فانها محدودة . ويوجد فيها من الآبار العامة ، بئر الخراب ، وبئر الساحة ، ثم بضعة آبار بين البساتين يمتاح منها



معبد فى طرطوس من عهد الصليبيين

الماء بمحركات بخارية . [*]

٢ — الاحوال الاجتماعية

[١] — الحالة الاجتماعية في طرطوس — توجد في هذه القصبة التي يناهز عدد سكانها (٥٠٠٠) نسمة طائفتان كبيرتان يفترقان عن بعضهما في الدين ، وهما الطائفة الاسلامية والطائفة المسيحية . وعدد الاسلام هنا يناهز ثلاثة ارباع المجموع وكلهم من السنيين . ولا يوجد هنا نصيرى ولا اسماعيلي ولا يهودى .

ونستطيع ان نقسم الطائفة الاسلامية الى ثلاث طبقات من حيث الثروة وتوجد في الطبقة الاولى اربع عائلات . بعضها من صيدا وبعضها من بيروت ومرقب . وعدد افرادها يناهز مأتى نسمة . ويروى ان اغناهم يملك على ثروة تناهز (١٠٠) الف ليرة . وان ربع الناحية ملك لهم . ومجموع اراضيهم يبلغ (١٠) آلاف دونم . وهم يشتغلون بالزراعة والتجارة معاً . ودخلهم السنوى يقرب من (٤٠٠٠) ليرة . وليس لهذه العائلة الوجيهة سيطرة على المزارعين ، ولا تتغلب عليهم . لان تمسكهم المفرط بالاقتصاد وحنكة الزراع الساحليين ودربتهم لم تدع لهم امكاناً للتغلب والسيطرة . اما العائلات الثلاث الاخرى ، ليسوا في الغنى على درجة العائلة الاولى ولكن دخل اقلهم غناً لا ينقص عن الف ليرة في السنة . وهؤلاء ايضاً يشتغلون تارة بالزراعة واخرى بالتجارة .

وافراد هذه العائلات ليسوا من التحصيل العلمى على شئ ..

اما الطبقة الثانية فهى الطبقة الوسطى . وهم متوسطون في الاقتدار . ولا يزيد عددهم عن بضعة افراد . وليس لهم ذلك النسب الذى رافق القرون كارباب الطبقة الاولى . ولم يحصلوا على ثروتهم هذه الا بتعاطى التجارة ، وارباء النقود . ولهم من الدخل السنوى على الدرجة المتوسطة ما يتراوح بين (٤٠٠) و (٧٠٠) ليرة اما الطبقة الثالثة فاربابها العامة والزراع وهم مفطورون على الحلم والسكينة ، ويبالغون في الكد والكدح . ويشتغلون اما بالبيع والشراء البسيط ، او يكونون مزارعين عند اصحاب الاملاك ، واقلهم دخلاً يحصل على الفين او ثلاثة آلاف غرشاً في السنة . ويوجد بينهم مقدار مائة شخص يربو دخلهم السنوى عن مائة ليرة . اما تحصيل افراد هذه الطبقة فهو ابتدائى بسيط . ولا يوجد في هذه القصبة احد متخرج في المدارس العالية ، حتى ولا في التالية . ثم عدد الذين يوجدون في المدارس الابتدائية لا يزيد عن ثلاثمائة . ولهذا فان عدد من يعرف القرائة والكتابة لا يزيد عن عشرة في المائة.

---

[*] تكلمنا عن الاحوال العمومية في طرطوس اثناء البحث عن مركز قضاء طرابلس الشام ص١٩٧

ثم لا نجد وظيفة اجتماعية لنساء طرطوس البتة .

*
* *

اما نصارى طرطوس ، فيمكن ان نفرقهم مثل المسلمين الى ثلاث طبقات . ويوجد بينهم بضعة اشخاص من الاغنياء ، حصلوا على ثروتهم باقراض الدراهم الى الذين يزمعون السفر الى اميركا والآن لكل واحد منهم ثروة تناهز خمسة آلاف ليرة . ومع هذا فقد يروى ان دخلهم قبل الحرب كان يفيض عن بضع آلاف ليرة . ودرجة هؤلاء باعتبار التحصيل ناقصة ايضاً .

اما باقي النصارى فانهم يحصلون على معيشتهم بتعاطي البيع والشراء وانذكر هنا ان التجارة فى طرطوس هى فى ايدى المسلمين . ولا يوجد بين النصارى منهم الا مقدار عشرة اشخاص فقط ، يبلغ دخلهم السنوى الى مائة ليرة .

والمسيحيون هنا ليسوا اعلى من المسلمين بكثير من حيث العلم والتحصيل . ولا يزيد عدد من يعرف القراءة والكتابة بينهم عن خمسة عشر فى المائة . ونساؤهم محرومات من التحصيل البتة . ولا جرم ان حياة عائلاتهم انظم وارجح من حياة عائلات المسلمين .

ويجب علينا قبل انهاء هذا البحث ان نشير الى عدد الذين هاجروا الى اميركا . هاجر من هذه القصبة الى اميركا مقدار (٣٠٠) شخصا . ثلثهم من النصارى وخمسون من النصيريين ، اما الباقون فهم من المسلمين السنيين . وقد كان هؤلاء المهاجرون يرسلون الى الناحية (٤٠٠٠) ليرة فى كل سنة .

[٢] — الاحوال الاجتماعية فى الناحية — اذا صرفنا النظر عن سكان قصبة طرطوس نجد ان عدد سكان الناحية عبارة عن (٣٠٠٠) نسمة . ثلثاهم من المسلمين والثلث من النصارى . فالمسلمون فى هذه الناحية كلهم من النصيريين . وهؤلاء النصيريون ينقسمون على التساوى الى اربع عشائر : ١— الحدادون ، ٢— الخياطون ، ٣— المتاورة ، ٤— الجردية .

وليس لهؤلاء العشائر ترتيب فى هذه الناحية ولذلك ليس لهم من رؤساء . ومع هذا يوجد فى كل عشيرة شيخ او شيخان . هذا وان كان لهؤلاء المشايخ سلطة دينية واجتماعية على النصيريين ولكن ليس لهم ملك ولا مال .

وهؤلاء النصيريون ليسوا منهمكين باقتناء الاسلحة النارية . ولذلك لم تكن فيهم تلك الطباع الموجودة فى سكان الجبال .

ان النصيريين فى طرطوس يشتغلون بالزراعة اما على عهدتهم ، واما مزارعين عند غيرهم اما قدرتهم المالية فهى على درجة بسيطة بصورة لا يتجاوز دخل اغناهم ماة ليرة فى

السنة . وهذه الدرجة في الغنى توجد في كل قرية من القرى . ومن العبث ان نرتاد علما او نظافة لدى هؤلاء النصيريين. وارواحهم مشربة بالرياء والكذب . ومع هذا فقد يروى عنهم أنهم اجواد بالنظر لمن حولهم من النصارى .

اما نصارى الناحية ؛ فهم من المارونيين . ويقطنون قرية « الخريبات » وهم يشتغلون بالزراعة ، وخاصة بالزيتون واستحصال الزيت . ويروى انهم لا يهتمون بما كلهم ومشاربهم ، او بالاوضح انهم يصلون من التقتير الى درجة يرون فيها كل شيء كثيراً عليهم وانهم يدفنون نقودهم في الارض حتى لا تصل ايديهم اليها .

وهؤلاء ايضاً لا نصيب لهم من العلم والتحصيل ، وحياتهم الاجتماعية ليست بشيء ولا تفرق عن حياة مجاوريهم شيئاً .

— ١٤ —

من لواء الى آخر

بين طرطوس وبانياس

اقمنا في طرطوس مدة، وكنا نخال اننا نعيش في احدى المحلات المهملة من بيروت . لان هذه القصبة كانت تشبه محلات الاسلام في بيروت . وتظهر هذه المشابهة بصورة محسوسة في منازلهم ، وحوانيتهم ، وجميع حياتهم الاجتماعية ، وفي لهجتهم ايضاً . ومع هذا فلا ننكر اننا كنا قريبين من ان نحب هذه القصبة . اذ كنا نراها متناهية في اللطافة ببيوتها البيضاء وبحرها ، وبصفائح صبارها ، ثم بجميع اشجارها . ولاسيما انها كانت بالنظر لما شاهدناه في الانحاء الداخلية من القصبات والقرى ، بقعة معمورة لها حظ وافر من الحياة والمدنية . ولهذا كنا نراها لطيفة لدرجة حملنا هذا الارتياح والاستحسان على ان نغضى عن جميع نقائصها .

ولو كان الوقت متسعاً لآثرنا ان نلبث في هذه القصبة بضعة ايام ، لنزيل ما الم بنا من وعثاء السفر ، ونريح اذهاننا واجسامنا في حضن ذلك البحر الخضم ، ومع هذا فقد كنا نتعزى بان طريقنا سيتبع الساحل ونقنع بهذا التسلية ونؤثر الاسراع الى الاصقاع الشمالية.

عزمنا على مغادرة طرطوس في صباح الغد . وقد قيض لنا الحظ نسمة بليلة هبت من وراء ابعاد البحر الابيض ، وزارت مرقدنا في تلك الليلة التموزية واخذت تنفحنا بانفاس مؤنسة كمروحة لطيفة حتى انبلج الصباح .

هببنا من النوم صباح ذلك اليوم . وكان القمر كصحيفة فضية رصع به الجانب الغربي من الافق و كنا نعالج الاسراع لمباشرة السفر كما اعتدنا فى اسفارنا الى الآن . ثم ركبنا متون الجياد ، اخذنا نسير نحو الجانب الشمالى من القصبة . وكانت قصبة (طورطوزا Tortosa) القديمة على اهدأ ما يكون من السكون فى هذا الصباح تحت انوار القمر الضئيلة.

غادرنا المدينة و خذنا نسير فى طريق محاط بالصبار ، وكنا نشعر بانجلاء قتمة السماء ، ونرى خيوط النور تسرى من المشرق الاقصى الى تلك الظلال فتكشط عنها الايام . وكان السكون سائداً . والبحر ايضاً كان غارقاً فى سباته عن شمالنا . وليس من صائت الا وقع حوافر خيلنا على ذلك الطريق الترابى السهل . ولم يلبث هذا الوقع ان انقطع بدخولنا ارضاً رملية . فساد السكون المطلق لما كان عليه .

فارقنا طرطوس منذ ساعة ولم نزل سائرين فى ارض سهلة .ثم بعد ان اجتزنا واد سيلى برهة وصلنا الى موقع (قارنه Carne) القديم المسمى الان « قرنين » . وهذه قرية (دوير الشيخ سعد) تلوح عن يميننا تحت ضياء الصبح المبهم كانها طيف ظلى .

ثم بعد ربع الساعة وصلنا الى (نهر الحصين) . وهنا انتهت حدود لواء طرابلس الشام وشرعنا ندخل فى حدود لواء اللاذقية . وبعد ان اجتزنا النهر تحول طريقنا الى مقصبة . وكنا حينئذٍ نشاهد اول خيوط الضياء من الشمس التى اخذت تطل من الافق الشرقى ، وآخر شعاع النور من القمر الذى كاد يغمس وراء الافق الغربى . ولم نزل نتغلغل فى طى تلك المقصبة ، وبنات آوى التى اجفلها طلوع الشمس ، واوحشها قدومنا آخذة تفر من امامنا ، الى وراء مرامى البصر ، وكنا نسمع عواءها بتلك الاصوات الرفيعة من مكامنها الخافية .

ويروى ان لهذه المقصبة احاديث لا تسر ، يقولون ان لصوص هذه الانحاء تكمن فى هذه الغابة ، وتباغت ابناء السبيل وتسلبهم اموالهم . اما نحن فلم نعرض الى هذا المزاح البارد .

وبعد مدة بدأت جبال « عين التينه » تشاهد عن يميننا .ثم اجتزنا منبع «عين التينه ومن هنالك انقلب يسارنا الى مستنقعات ومقصبات .

وبعد ان غادرنا قرية « متن بيت عرنوق » عن يميننا مررنا بـ «خربة ناصيف » ثم وصلنا الى اراضى « يحميرة » ثم الى قريتها . وكنا نسير ، على يميننا الحقول من ورائها الهضاب الصغيرة ، وعلى يسارنا البحر البعيد . وربما مررنا فى طريقنا بالحقول المزروعة بالذرة .

مرت ثلاث ساعات منذ مغادرتنا طرطوس ، وكنا نقرب من « نهر المارقية » . وبعد ان اجتزنا هذا النهر وصلنا الى هضاب « ضهور الصفر » وقرية « البزاق » عن اليمين وقرية

«الخوابي» عن الشمال.

وبعد هذا اطرد منظر الطريق فمررنا بشجرتين كبيرتين من (الجميز Sycamore).

وهنالك لاحت لنا قلعة «مرقب» عن بعد. وكانت فوق ذروة عالية، ثم لاح جبل اخضر في حضن البحر وهذه «بانياس» ايضاً.

كنا نسير نحو القلعة. وبعد ساعة او ساعتين مررنا بقلعة سوداء مملوكية تسمى «برج الصبي» ثم اجتزنا نهر «البوس B» وعطفنا عن الصخور السوداء القائمة على الساحل، واجتزنا «نهر بانياس» بعد مغادرتنا طرطوس بسبع ساعات ودخلنا قصبة بانياس الكائنة على ساحل البحر في سفح ذروة «مرقب». حينما كانت شمس الهجيرة تسلق هاتيك الانحاء بشعاع كذاب الرصاص.

—١٥—

لواء اللاذقية

١ — موقع اللواء وحدوده

ان لواء اللاذقية كائن في الشمال الاقصى من الولاية على (٣٣،٢٥—٣٤) درجة من الطول الشرقي و(٣٥،٥٠—٣٥) درجة من العرض الشمالي. محدود من الشمال بناحية الاوردو من اعمال حلب ومن الشرق بلواء حماه ومن الجنوب بلواء طرابلس الشام ثم من الغرب بالبحر الابيض: ومساحته تناهز (٥٨١٠) من مربع الكيلومتر.

٢ — الاحوال الطبيعية في اللواء

[١] — **الجبال والانهار** — توجد جبال كثيرة في هذا اللواء غير التلال الصغيرة. وان جبل الاكراد من الجبال التي تفرق اللواء عن ولاية حلب في الشمال، وعن لواء حما في الشرق ينقسم في الشمال الى قسمين الغربي والشرقي. فالشعبة التي تمتد الى الشرق تتصل بسلسلة دريوس وعمارة. ثم ان جبال العمارة والكلبية والشعرة والنواصرة و لبودى والقراحلة وقدموس ليست الا مرتفعات لجبال النصيرية تمتد من اقصى شمال اللواء الى الجنوب. وان اسمى هذه الجبال هو جبل شعرة الذى يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر (١٥٠٠) متراً.

اما الانهار فى هذا اللواء فكلها تصب فى البحر الابيض، بسبب امتداد اجبال التصيرية من الشمال الى الجنوب . واكثر هذه المياه ضيقة المجارى ، والاراضى التى تجرى فيها منحطة عن سطح البحر . ولذلك كان نفعها محدوداً . واشهرها :

انهار [الصنوبر والمضيق والروس ، وعرب الملك او نهر السن والمرقية ووادى قنديل وكثيش والكبير ونبع العشرة] .

٢ — الاقليم — ان لواء اللاذقية الذى يجب ان يعتبر بالنظر لموقعه الجغرافى من البلاد المعتدلة الحارة ينقسم باعتبار الاقليم الى ثلاثة اقسام :

فالقسم الاول ، هو الاقليم الغربى ، وفيه تهب الرياح البحرية ، فتعدل طبيعة المحيط وتجعل لكل من المواسم الاربعة امكاناً لاجراء حكمه بانتظام . ومعدل الحرارة فيه (١٧ — ١٨) درجة ، وربما تبلغ فيه الحرارة ايام الصيف الى (٣٥) درجة ولكن تتراوح على الاكثر بين (٣٠) و (٣١) درجة . اما فى الشتاء فتكون حرارته (٧ — ٨) درجات فوق الصفر . ويندر ان تهبط الى (٢) تحت الصفر ابان هبوب الارياح الشرقية والشمالية .

والقسم الثانى ، هو الاقليم المتوسط . وهو كناية عن التلال والوديان التى لا يزيد ارتفاعها عن (٣٠٠ — ٤٠٠) متراً . وهذا الاقليم شديد فى حره وبرده .

والقسم الثالث ؛ الاقليم الشرقى وهو عبارة عن الجبال والتلال التى يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين (٦٠٠) و (٢٠٠٠) متراً . وتهبط الحرارة هنا الى (٥ — ٧) درجات تحت الصفر . ويكثر الانجماد فى هذه الاصقاع ولهذا يمكن اعتبارها من البلاد الباردة .

اما من حيث الزراعة فالاقليم الغربى والمتوسط يصلحان لغرس اشجار الليمون والتين والكروم ، ولزرع الحبوب المتنوعة ، والنباتات الصناعيه والزيتية . والاقليم الشرقى يصلح للاشجار غير ذات الثمر .

[٣] — الامطار — علمنا بالبحث ان مقدار الامطار يبلغ الى (٦٠٠ — ٧٠٠) ميليمتر فى السنة ، وبما ان القسم الغربى من اللواء مركب من الاحجار والصخور الرملية والكلسية ، وان الرياح التى تهب من الغرب تكون راطبة على الاكثر ، فارتفاع الامطار مقدار (٣٥٠ — ٤٠٠) ميليمتراً يكون كاف لرى تلك الاصقاع . ولا يسوغ ان يحمل الجدب الذى يكون فى بعض السنين على قلة الماء والرى . بل الاصح حمله على سقامة الطريقة المتبعة فى الزراعة ، وعدم انطباقها على قواعد الفن . فاذا استعملت الآلات الحديثة . وتهيئ لماء المطر ان ينفذ الى كبد التراب ، لا جرم يقل احتمال الغلاء وتؤمن سورة الجدب . حتى ان كثرة الامطار تضر بتلك الاصقاع لان معظم سهولها منخفضة

وترابها عبارة عن الصلصال المحض .

[٤] — طبيعة التراب — أن طبقة التراب في هذا اللواء مختلطة لان اراضي تلك الانحاء بركانية، وهي من الاراضي الزلزالية ايضاً ويمكن ان يعثر في بقعة صغيرة على الاتربة التي تنتمي الى ادوار مختلفة ، ويجب ان تعلم ان الاراضي ذات الاتربة الكثيفة كالصلصالية ، او الصلصالية الصوانية ، او الصلصالية الكلسية ، هي اكثر في هذا اللواء من الاراضي الرملية الخفيفة .

اما صخور التلال المرتفعة فانها عبارة عن فلدسبات ، وقووارس ولهذا تكون كثافة التراب في السهول الرسوبية عبارة عن ثمانين درجة في المأة . ويكثر فيه عدد التلال التي تصلح لزرع الحبوب المتنوعة ولغرس الزيتون والليمون واللوزمن الاشجار المثمرة .ولاسيما التبغ والتنباك فانهما ينبتان حتى في رؤس الجبال العالية . والاتربة الملونة ذات حمض الحديد التي تصلح لانماء التبغ توجد في جميع انحاء اللواء . ثم ان التراب الرسوبي المنبت الذي يكون على طرفي الانهار ، يشغل كمية وافرة في اراضي اللاذقية ويصلح لزرع كل نوع من الزرع .

٣ — سكان اللواء

نطقت القيود الرسمية لسنة (١٣٣١) بان مجموع سكان اللواء عبارة عن «١٤٧٦٩٨» من النسمات ذكوراً واناثاً . منهم «١١٩٦٣» من النصارى والباقون من المسلمين والنصيريين. اما النصارى فنهم «٨٥» في المأة من الروم الاورتودوكس والباقون من المارونيين والبروتستانت والارمن واللاتينيين . وبما ان مساحة اللواء عبارة عن «٥٨١٠» من مربع الكيلومتر ، يكون نصيب كل واحد منه « ٢٥،٢٥ » نسمة .

وهذه تقسيمات اللواء الادارية :

الاقضية	النواحي	عدد القرى	عدد السكان
مركز قضاء اللاذقية	باير وبسيط	١٨١	٥١٢٥٩
قضاء جبله	•	٣٠٦	٢٨٦٥١
قضاء صهيون	•	٤٣٤	٣٢٩٧٢
قضاء مرقب	قدموس وخوابي	٥٦٩	٣٤٨١٦
يكون		١٤٩٠	١٤٧٦٩٨

٤ — الامور الزراعية فى اللواء

[١] — الاحوال العمومية — جاء فى التقرير الذى حرره معلم فن الزراعة فى اللواء ان مساحة لواء اللاذقية تقرب من ثلاثة ملايين ونصف من الدونمات.

اما القيود الرسمية فانها كانت اعتبارية ، ثم ان اكثر القرى لم تدخل اراضيها فى تلك القيود. ولهذا نرى مجموع الاراضى بالنظر للقيود الرسمية عبارة عن (١،٤٤٧،٧٠٠) من الدونمات. وتنقسم على الاقسام الاتية :

فى مركز قضاء اللاذقية	٣٧٤٨٣٤	دونم
فى قضاء جبلة	٢٥٣١٢١	«
فى « صهيون	٣٩٦٠٩٢	«
فى « مرقب	٣٨٦٩٥٣	«
المراعى	٣٦٧٠٠	«
يكون	١٤٤٧٧٠٠	

وتنقسم هذه الاراضى من حيث الزراعة الى الاقسام الآتية :

الاحراج	٢٧٠٠٠٠
انواع الاشجار المثمرة	١٢٠٠٠٠
أشجار الزيتون المطعمة	١٥٠٠٠٠
بساتين الخضرة	٤٠٠٠
الكروم	١١٠٠٠
ما خص لانواع الزرع	٨٩٢٧٠٠
يكون	١٤٤٧٧٠٠

يزرع فى هذا اللواء من الحبوب القمح والشعير والشوفان والذرة البيضاء والجلبان والشوفان الاسود. ومن البقول؛ الحمص والفول والعدس، ثم يزرع التبغ والتنباك فى جميع انحاء اللواء.

ومن عاداتهم فى الزرع ، ان يخصصوا ثلث الاراضى المعدة لزرع الحبوب الى القمح، وبما انهم يبدلون المزارعين فى كل سنة ، لا بد للمزارع الجديد أن ينتخب اصلح الاراضى ويترك الاخرى. وبسبب انحصار استفادته فى سنة واحدة لا يهتم بتسميد الاراضى البتة وبهذا تفقد تلك الحقول قدرتها الطبيعية فى الانبات ، ثم ان السكة التى تستعمل فى الحراثة عقيمة جداً وغير صالحة. وقبل بضع سنين جمع الاهلون مقداراً من النقد بتشويق ابراهيم

فندى مأمور الزراعة ، وجلبوا بواسطة الولاية الجليلة عدة محاريث مختلفة الانواع بسكك
تعددة واستحضروا من إزمير ومرسين سككاً حديدية وشرعوا يستفيدون من استعمالها.
لكن ما لبثت هاتيك المساعى ان وقفت بسبب الظروف الحالية .

لا يهتم فى هذا اللواء لاحياء الاراضى المواتية واحضار الحقول الزراعية . وهناك كثير
ن الاراضى التى لا تحتاج الا للتفجير فقط ويمكن ان تزرع فيها الاشجار على اختلاف
واعها . ولكن الاهال جعلها ميتة متروكة . ولهذا السبب اضطر اولئك السكان الى
ستعمال السرقين بدلاً من المحروقات الشجرية .

[٢] — الفصول الزراعية — تنقسم الاراضى التى يزرعها المرابعون على عدة
سام :

اذا كانت الاراضى مقدار ١٥٠—٢٠٠ دونم وخصص لحراثتها فدانان تسمى « الصمد »
اذا كانت مقدار (٨٠—١٠٠) دونم وخصص لحراثتها فدان واحد تسمى « الجوز » . ثم
ا كان مقدارها (٢٠—٥٠) دونماً ولو حرثت بفدان واحد تسمى « شكارة » . وبما ان
دد الاراضى معروف، ومقدار البذر الذى يزرع فيها معلوم ايضاً ، يمكننا ان نستنبط مقدار
غلال استناداً على هذه المعلومات على وجه تقريبى .

وهذا مقدار الغلال السنوى على التخمين :

جناس الغلال	على حساب الكيل	
القمح	١،٠٠٠،٠٠٠	— ١،٥٠٠،٠٠٠
الشعير	٥٠٠،٠٠٠	— ٦٠٠،٠٠٠
الشوفان	٢٠٠،٠٠٠	— ٣٠٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠٠،٠٠٠	— ٤٠٠،٠٠٠
الجلبان	٥٠،٠٠٠	— ٦٠،٠٠٠
	على حساب الاقة	
الحمص	٧٠٠،٠٠٠	— ٨٠٠،٠٠٠
الفول	٨٠٠،٠٠٠	— ١٠٠٠،٠٠٠
العدس	٨٠،٠٠٠	— ١٠٠،٠٠٠
البطاطه	٧٠،٠٠٠	— ٩٠،٠٠٠
الفاصولية	٥٠،٠٠٠	— ٧٠،٠٠٠

النباتات الصناعية والزيتية

الزيت	٦٤٠٠٠٠٠
السمسم	٥٠٠،٠٠٠
القطن	٤٠،٠٠٠
التبغ والتنباك	٢٠٠٠،٠٠٠

الاشجار المثمرة

التين اليابس	١٠٠٠٠،٠٠٠
التفاح	١٠٠،٠٠٠
الجوز	٦٠،٠٠٠
المشمش	٥٠،٠٠٠
اللوز	١٠،٠٠٠
الكمثرى	٤٠,٠٠٠
	عدد
الليمون	٥٠٠,٠٠٠
البرتقال	١٥٠,٠٠٠
الاترنج	٨٠٠,٠٠٠
متنوع	١٥٠,٠٠٠

هذا مقدار الحاصلات . ويصرف قسم منها في الداخل . ويساق القسم الآخر الى الخارج او الى الولايات والالوية العثمانية .

وهذا مقدار الصادرات التي صدرت من اللواء سنة ١٣٢٩ :

جنس المحصول	اقه
البيض	٨،٢٢٨،٤٣٤ عدد
محة البيض	١٥،٠٦٠
زلال البيض	١،٧١٠
كيس الزيتون	٥١،١٤٤
زيت الزيتون	٤٤،٠٠٨
التين اليابس	٦٢٣،١٧٣
الحمص	٥٦٩،٩٠٨
الذرة	٥٢،٢٢٤

العدس	١٠٢٧٢
السمسم	٥٢٩٠٤
الفول	١٠٢٠٠٠

وزيادة على هذه المقادير فقد بيع فى الداخل «٥٠» الف كيلة من القمح و «٩٠» الف اقة من الذرة . واصدر من التبغ والتنباك الذى بلغ مقداره زهاء ميليونى اقة قسم عظيم الى اوروبا ، ثم الى سائر البلاد العثمانية ، بوساطة شركة التبغ ، وشركة ايمبريال . [*]

وان معظم الدخل الزراعى فى هذا اللواء يكون من التبغ والتنباك . واهم انواع التبغ الذى يستحصل هنا هو الجنس الاهلى الذى يسمونه « شك البنت » و « المهلوبى » . ثم ذو الريحة الذى جلب بذره من صامسون ، وتكون كيفية استحصاله كاستحصال التبغ الغلوصى . ثم يستحصلون من تبغ « شك البنت » نوعاً يسميه الاهلون « ابو ريحه » يرغبه الانكليزيون . وكيفية استحصاله تكون على هذه الطريقة :

تسلك اوراق التبغ فى الاسلاك ، ثم يعلقونها فى سقوف البيوت ، الى ان يدخل موسم الشتاء . وهنالك يحرقون فى تلك البيوت حشيش « رندكين » ويبخرون اوراق التبغ بدخانه مدة . ثم يجمعونه ويكدسونه فى الاكياس . وبما ان هذه العمليات اتبخيرية تكون فى داخل بيوت السكنى لا تخلو من الاضرار بصحة الاهلين . ولهذا لا يسوغ ابقاء هذا الاصول على هذه الكيفية . ومن المحتم على الحكومة ، بل على شركة الدخان التى تربح اضعاف ما تؤديه الى الحكومة من المقادير ان تلتفت الى هذا الامر وتؤسس لاستحصال «ابو ريحه» معامل خصوصية تراعى فيها القواعد والتدابير الفنية ، وتصون ثروة البلاد وحياة العباد من هذا الضرر الملموس .

ويمكن ان يكون التبغ الذى يستحصل فى اللاذقية احسن من تبغ ازمير ، وغيرها من البلاد العثمانية ، ولكنه اليوم لا يؤمن للقرويين دخلاً يستحق الذكر . لانهم محرومون من كافه الوسائط والتدابير الفنية التى يرجع اليها فى زرع هذا النبات واستحصاله . وهم يجهلون كيفية اعمال اللفائف ايضاً . ثم ان اهمال شركة الدخان من جانب ، وتحاملها على القرويين من جانب آخر جعل استحصال هذه المادة مشكلاً صعباً .

[*] نقلنا هذه الارقام من تقرير مأمور الزراعة عيناً ولو لم يمزج هذا المأمور الذى زعم ان هذا الجدول قريب من الحقيقة ، حساب الكيلة بالاقة ، لتمكن من اعطاء فكر صريح على مقادير غلال القضاء الزراعية . ثم ان هذه الارقام لا تخلو من الغرابة ايضاً كما هو الحال فى سائر الارقام التى درجت فى الصحائف الاخرى من كتابنا .

وقد وسعت الحكومة نظام هذه الشركة بمناسبة استقراضها منها ميليوناً ونصف من الليرات وذلك بعد انتهاء الحرب الطرابلسية . واصدرت قانوناً موقتاً فى ٨ نيسان سنة ٣٣٠ منعت فيه زرع جميع انواع التبغ فى لواء اللاذقية واستثنت منه نوع « ابو ريحه » فقط وقضت على القرويين باستحصال الرخصة قبل الزرع من شعبة الشركة فى اللاذقية . واعتبرت الشركة مختارة باعطاء الرخصة وعدم اعطائها . على انها تضطر لان تعلم صاحب الطلب عن سبب الرد ، وان لم تجده فعليها اعلام مختار قريته بالكيفية . ولا جرم ان الواجب فى هذا الامر الاقبال على استثمار هذه الاراضى الصالحة لزرع التبغ ، والتذرع بالتدابير الفنية التى تزيد استعدادها والا فان الحجر والتحديد يضر بمصلحة البلاد الاقتصادية ثم ان القدرة التى منحها هذا النظام الى الشركة بخصوص التخمين لا تنطبق على منفعة البلاد وهى تحتاج الى التخفيض . وقد جاء فى المادة «١٢» من هذا النظام ما معناه :

تتألف لجنة التخمين من مخمن تختاره شركة الانحصار ، وآخر تختاره ادارة الواردات المخصوصة فى دائرة الديون العمومية ، ومن آخر ايضاً يختاره مجلس ادارة القضاء ليكون مخمناً فى جميع ذلك القضاء . ويجب ان تعطى الى المخمن الذى اختارته ادارة الديون العمومية ثم الى الذى اختاره مجلس الادارة اجرة لا تزيد عن عشرين غرشاً فى كل يوم . ومجلس الادارة هو المولج بتقدير هذه الاجرة وتعيين مقدارها .

والزراع هم المكلفون بتأدية هذه الاجرة . ويسوغ لادارة الشركة ان تدفع هذه الاجرة بشرط التعويض . وعليه فان الشركة تنظر الى مجموع الخرج بعد اتمام التحرير ، وتوزعه على الزراع بنسبة مقدار اراضيهم . ثم تتقاضى من كل منهم حصته حين بيع المحصول . وهذا يدلنا على ان الشركة تدفع الاجرة ثم تتقاضاها من الزراع .

ونصت الفقرة الثالثة من هذه المادة على وجوب تحليف المخمنين قبل الشروع بالوظيفة امام مجلس الادارة بان يتوخوا الحياد فى التخمين ، ولا ينقادوا الى سلطة او تأثير الا ما اوجبته عليهم الوظيفة ، ولا يتقصدوا اضرار الشركة ولا الزراع .

ثم على الذين لا يرضون بتخمين هذه الهيئة ان يبينوا اعتراضهم لادارة الشركة فى ظرف خمسة ايام اعتباراً من تاريخ تسليم اوراق التخمين الى مختار القرية . ويطلبوا منها تعيين هيئة ثانية . وما من فائدة لهذا القيد الذى يشف عن مساعدة الزراع . لان القروى المحروم من وسائط النقل ، والمجرد عن كل علم ومعرفة لا يطلع على طريقة هذه الاستفادة ولو ابلغ المهل الى عشرين يوماً — لاسيما سكان الجبال — .

ثم ان الفقرة الثانية من المادة (٢٦) جديرة بالنظر ايضاً . وقد جاء فيها ما معناه :

يسوغ للجنة التحقيق بعد وزن التبغ الذى يقدمه الزراع ، ان تحرى مسكنه وسائر اماكنه وما يجاوره من المحلات لتعلم هل يوجد هناك تبغ مكتوم ام لا ؟

وبهذا النص النظامي كان لمستخدمي الشركة حق الدخول على المساكن الخصوصية ايضاً .

واذا نقص مقدار ما يسلمه الزراع من التبغ الى اللجنة الخاصة عن مقدار التخمين ، يجبر الزارع على ان يدفع عن كل كيلوغرام ليرة جزاءً نقدياً .

ثم ان الزيتون هو من اهم الغلال الزراعية في هذا اللواء ، وله ثلاثة انواع «الخضيري الدرملالي ، الخريصوني» . ويوجد منه في قضاء المركز (٤٦٨٧٨) شجرة وفي جبله (٣٠٠٠) وفي صهيون (٦٠٠٠) وفي مرقب (٦٥٠٠٠) شجرة . ويقول مأمور الزراعة انه يوجد (٢٠٠٠٠٠) شجرة غرست او طعمت حديثاً . ويزعم ان مقدار الزيت الذي يعصر من هذه الاشجار في كل سنة يبلغ الى (٦٤٠٠٠٠) اقة .

ولو اختاروا قليلاً من الكلفة وقضبوا تلك الاشجار في كل سنة ، ثم تفقدوها بالسماد لكانت اغلالها اوفر واكثر من الآن باضعاف مضاعفة .

٥ — الاحراج والمعادن

تقرب مساحة الاحراج في لواء اللاذقية من (١٧٩٠٠٠) من الدونمات . ويتراوح محيط الاشجار التي توجد في انحاء الساحل بين (٣٠) سانتيمتراً ومتراً واحداً . اما طولها فيكون (٣—٤) مترات . وتعمل منها خشاب صغيرة للابنية ، الواح لاجل القوارب الصغيرة . وتوجد في الانحاء المرتفعة اشجار الصنوبر الاحمر والابيض ، وخشبها يصلح للاستعمال في الابنية ايضاً . واهم ما هنالك من الاحراج ، هي الاحراج الموجودة في انحاء باير وبوجاق . وتبلغ مساحتها الى (٣٢٨ كيلومتراً مربعاً . ٠تسعون في المائة من اشجار هذه الاحراج يتراوح محيطها بين (٣٠) و(٦٠) سانتيمتراً ، ٠طولها لايزيد عن (٤—٥) امتار . ويندر وجود الاشجار الجسيمة فيها . ويدعى بوتوق ان مقدار تلك الاشجار الحديثة يبلغ الى (٣٠٠٠٠٠) بشرط ادخال ما تبعثر في الانحاء المختلفة منها . يقطع منها ما يقوم بحاجة تلك الانحاء ٠القرى المريبة ، من اخشاب وغيرها ، ثم تعمل منها الالواح المسماة «ميريوم» وتساق الى الخارج ، وقد كان نقطع منها قبل الحرب مقدار (١٥) الف قنطار من الحطب وتساق الى بلدة بيروت .

ويوجد في منتصف هؤلاء الاحراج على حدود اسكندرون قطعة ارض تسمى «توز» تقرب مساحتها من (١٠٠٠) هكتار وهي مطوقة باحراج الصنوبر .

والاشجار الموجودة هناك هي من شجر البقس الاسود والاحمر . ويمكن ان يعمل من هذه الاحراج مقدار (٣٠٠) الف ٠٠محمة في كل سنة دون ان يمس تلك الاحراج ضرر

يذكر . ولكن بعد هذه الانحاء عن اسكلة البسيط بمسافة سبع ساعات جعل هذه الاستفادة متعذرة .

ويوجد فى جبال اللاذقية معدن الحديد ، والفضة المخلوطة بالرصاص والنحاس . والخشب المتفحم ، وعروق من معدن النيكل . وقد كان فى انحاء باير وبوجاق منجم لمعدن القروم يستخرج منه (٢٫٥٠٠) طون فى كل سنة ولكن لا اثر له اليوم .

—١٦—

مرقب

١ — موقع القضاء وحدوده

ان هذا القضاء كائن فى الجنوب الاقصى من لواء اللاذقية ويحده من الشمال قضاء جبله ومن الشرق لواء حما ومن الجنوب لواء طرابلس ومن الغرب البحر الابيض . ويمتد من شاطئ البحر الى جبال النصيرية وارضه تتدرج بالارتفاع اعتباراً من الساحل وهى ذات عوارض .

٢ — مساحة القضاء وسكانه واحواله الادارية

تقرب مساحة هذا القضاء من (٧٣٠.٢٥٠) دونم . منها (١٨٥٠٠٠) من الاراضى المزروعة ولا يسقى منها الا (٧٥٠) دونماً . ومنها مقدار (١٧٥٠٠) تحتاج الى عمليات لاجل السقى والارواء و(٢٥٠٠٠٠) من الاراضى الصالحة للزرع و(٢٧٧٠٠٠) دونم من الاراضى التى لا تصلح له . ومقدار الاراضى التى تركت بلا زرع يناهز (٥٢٧٠٠٠) دونم ، ونصفها يصلح لزرع كل صناف المزروعات ولكن قلة السكان من جهة والقناعة التى يتمسك بها الموجودون من جهة اخرى نتجت بعدم الاستفادة من تلك الاراضى الواسعة .

ان عدد السكان فى هذا القضاء هو على الوجه الآتى :

جدول سنة ١٣٣٣

	الذكور	الاناث
المسلمون	٢٦٠٣	٢٥٠٥

النصيريون	١٠٦٠٣	١٣٨٨٤
الروم الاورتودوكس	١٩٣٠	١٨٩٧
المارونيون	٧٥٥	٦٣٩
يكون	١٥٨٩١	١٨٩٢٥
	٣٤٨١٦	

وكانت وفيات القضاء سنة (١٣٢٨) « ٣١ » وسنة (١٣٣٠) « ١٤٥ » وسنة (١٣٣٢) « ١١٥٦ » نسمة . اما الولادات فكانت فى عين هذه السنين (١ و٣٧٠ و٤٩٠) وهذه الارقام العجيبه ترينا ان دفاتر النفوس اعدت سنة (١٣٢٨) لتشغل باسم هذا المولود الفرد ، وتصونه من الضياع ! !

وان مركز القضاء هى قصبة « بانياس » الكائنة على شاطئ البحر بين الدرجة (٣٥،١٢) من العرض الشمالى والدرجة (٣٣،٣٩) من الطول الشرقى . وكان مركز القضاء قبل ثلاثين سنة فى قلعة مرقب التى يبلغ ارتفاعها « ٣٠٠ » متراً . وهذه القرية كائنة فى الجنوب الشرقى على بعد ثلاثة ارباع الساعة من بانياس .

واسترابون ، من قدامى المؤرخين يستعمل اسم « بالانه *Balanea* » حين البحث عن بانياس . وفيها اليوم انقاض حصار قديم من آثار الفنيقيين . ويوجد بحث ضاف عن هذا الاثر التاريخى فى مجلد سنة « ١٨٧٩ » من مجلة « *Revue Archéologique* » .

وقد كان المسلمون يسمون هذه القصبة قبل حروب الصليبين باسم بولونياس ثم سماها الصليبيون ابان حربهم *Valonie* ، وبقيت مربوطة بايالة انطاكية برهة ، واستولى عليها المسلمون بعد تسخير قلعة مرقب . وكان نهر بانياس فى زمن الصليبين حداً فاصلاً بين ايالة طرابلس وايالة انطاكية . والآن لا يعثر فى بانياس على شىء من الآثار النصرانية .

وتوجد بضع دعائم على يمين نهر بانياس قريباً من شاطىء البحر ، وعلى يساره بضعة اجداث قديمة . وتوجد خارج القصبة على بعد خمس دقائق منها ينابيع مياه رائقة لذيذة ، ثم انقاض الحصار الفنيقى الذى مر ذكره موجودة فوقها على تلعة صخرية . ولهذا الحصار سور طوله « ٦٠٠ » متراً وعرضه « ٥–٨ » امتار . وله مداخل معدة للدفاع . وبنيت هذه القصبة فى اواخر القرن الخالى . ولهذا نجد بعض الانتظام فى طرقها ومبانيها . اما عدد سكانها فكان فى سنة ١٣٣٢ على الوجه الآتى :

	الذكور	الاناث
المسلمون	٣٨٨	٣٨٩
الروم	٢٢	١٦
المارونيون	٢٠	١٢
	٤٣٠	٤١٧
	٨٤٧	

ومع هذا العدد من السكان الذى لايبلغ الالف، نرى ميزانية البلدية جديرة بالذكر لان دخلها السنوى عبارة عن (٢٠،١٠٧) غروش، وخرجها يناهز هذا المقدار .

٣ — الاحوال الطبيعية فى القضاء

ان السهول فى هذا القضاء عبارة عن اراض تمتد من الجنوب الى الشمال محاذية لساحل البحر ، وتشغل خمس مساحته العمومية ، ومعظم الفائدة الزراعية التى يحصل عليها القرويون تكون من هذه الاراضى . اما القسم الآخر منه فانه عبارة عن وعور جبلية ، ولكن توجد خلالها اراضى صالحة للزراعة ايضاً . وان ارفع نقطة من هذه الوعور التى كانت من قبل مجللة بالاحراج الكثيفة ، واصبحت اليوم جرداء ، هى ربوة النبى يونس التى يبلغ ارتفاعها «٧٠٠» متراً . وجميع هذه الاراضى الجبلية تتألف من الصخور الكلسية . ويوجد مقدار كثير من الاحجار البركانية فى انحاء زمرين وسوده والخربية .

وتجرى فى هذا القضاء انهار «السن» وحريصوف وجوبر وبانياس ، ومارقيه والحصين» ونهر لسن منها ماؤه وافر جداً رغماً عن قصر مجراه الذى لا يمتد نصف ساعة مع ما فيه من الاعوجاج والمعاطف . وهو يفصل قضاء المرقب عن قضاء جبله . وينبع من جبل «قرقيس» فى قضاء جبله . ونهرى حريصون وجوبر ينبعان من جبل شمر الواقع على حدود مرقب والعمرانية وبعد ان يقطع الاول مسافة ثمانى ساعات والثانى زهاء ست ساعات يصبان على بحر الابيض . اما منبع نهر بانياس فهو قريب من القصبة وماؤه عذب لذيذ ونهر مارقيه ينبع من ربوة النبى يونس ثم يصب فيه جدول تعنيته وجدول وادى العيون وبعد امتزاجهما به يصب فى البحر . وطوله يناهز عشر ساعات . ونهر الحصين الذى يفصل ناحية طرطوس عن قضاء المرقب يتألف من فرعين منبع الواحد من وادى العيون ، والثانى من بيت وسلان من اعمال قضاء صافيتا . ثم يوجد غير هذا الانهار بعض جداول تفيض فى الصيف ، مثل جدول الجام ، والجوذية . فالاول كائن فى الجهة الشمالية من بانياس والثانى فى الجهة الجنوبية منها .

٤ - احوال القضاء العمومية

لم يتفش اصول المزارع فى هذا القضاء الذى هو فى الدرجة الوسطى من القوة الانباتية ولهذا فان ثلاثة ارباعه فى ايدى المرابعين ، وربعه فقط فى ايدى ذوى السلطة . ولا يعثر فى هذا القضاء على ذوى السلطة من ارباب الزراعة كما هو الحال فى الاقضية الاخرى . ولا يوجد بين الاغنياء المعروفين هنا احد يربو وارده السنوى عن ثلاثين الف غرش لسبب ضيق الاراضى من جهة وعدم استعدادها للانبات بدرجة كافية من جهة احرى . واكثرهم يدفع اراضيه الى المرابعين . ويكون نصيبه من الغلال بعد طرح العشر الميرى ثلث الموجود . هذا فى الساحل ، اما فى الاراضى الجبلية فيأخذ الربع فقط .

ويكاد لا يوجد للاحراج اثر فى هذا القضاء .وتوجد قريباً من قرية القينية والمرمدة مشجرتان من الصنوبر لا تزيد مساحة كل واحدة منهما عن ثلاثين دونماً . اما اشجار الزيتون فيوجد معظمها فى الساحل وفى انحاء خوابى . ولا يعثر فى ناحية قدموس الصالحة لغرس الكروم على شئ منها . ومجموع حاصل الزيت فى هذا القضاء يناهز (١٥٠٠) قنطاراً .

والسمن الذى يستحصل فى ناحية قدموس له شهرة رنانة بين المحليين اما اشجار التوت التى تزدان بها الاصقاع الجبلية فهى كافية لتربية عشرة آلاف علبة من البذر . ولهذا ترون جميع القرويين يشتغلون بهذه الصنعة فى ابانها ويبيعون ما يحصلون عليه من الحرير الى المصنعين الذين اسهما المسلمون فى بانياس . ويصنع نصارى قرية البساتين من هذه الحرائر الوطنية الجوارب ، وينسجون منها بعض الاقمشة .

وهذا القضاء لا يشذ عن بقية الاقضية بخصوص الانحرام من نعمة العلم والعرفان . ويروى ان عدد الذين يعرفون القرائة والكتابة لا يتجاوز الا اثنين فى المائة . ولم يوجد قبل الحرب فى هذا القضاء شئ من المؤسسات العلمية الاجنبيه . وقد اعدت التخصيصات لتأسيس مدرستين رسميتين للذكور والاناث فى قصبة بانياس ، وثمانى مدارس ابتدائية فى ملحقاتها . ولكن لم تؤسس الا مدرستى بانياس واثنتين فى كل من ناحيتى قدموس وخوابى ومدرسة اخرى فى احدى القرى . وتوجد مدرسة مارونية فى قرية البساتين من مضافات المركز ، وبناء مدرسة كبيرة فى قرية سوره قريب من الكنيسة .

ثم ان الآثار النافعة فى هذا القضاء مهملة ايضاً . والطريق الموجود بين حما وبانياس التى هى الفرضة الوحيدة لوادى العاصى الذى يبلغ طوله (٨٥) كيلومتراً ، لم يمهد الا قسم منه سنة (١٣٠٩) والقسم الذى يبتدأ من حدود الولاية حتى يبلغ مركز قضاء العمرانية

على طول عشرة كيلومترات من هذا الطريق لا يصلح لسير المركبات . فلو تم هذا القسم وأسس فى بانياس مرفأ صغير ، لا جرم يكون هذا الطريق اقصر من طريق طرابلس وعليه لا بد أن تتجه مناقلات حما لهذه الوجهة .

ويمكن سير المركبة مع شئ من المشقة والتعب على الطريق الطبيعية الحالية من العقبات الكائنة بين طرطوس وجبله . ولكن يتعذر المسير من هناك الى الجنوب . فانشاء طريق معبد من بانياس الى صفيتا يمر على قرية خوابى . لا جرم يؤمن فوائد جمة .

٥ — الغلول الزراعية فى القضاء

ان الغلال الزراعية فى قضاء مرقب هى على ما يأتى :

جنس الغلال	كيلة
القمح	١،٢٠٠،٠٠٠
الشعير	٤٢٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	١٨٠،٠٠٠
الذرة الصفراء	٢،٥٠٠
الحمص	١٦٢،٠٠٠
الفول	٤٠،٠٠٠
العدس	١،٥٠٠
الجلبان	١١،٣٠٠

ويستحصل هنا غير هذه الغلال من التبغ (٢٠٠٠٠٠) اقة ومن الزيت (١،٥٠٠،٠٠٠) اقة فى كل سنة .

٦ — الآثار القديمة فى القضاء

توجد فى هذا القضاء قلعة مرقب التى هى من اهم القلاع لسورية ، ثم انقاض قلعة الخوابى والكهف وقدموس والجرد وعليقه .

فقلعة مرقب او باتعبير الافرنجى *Margat* كانت من اعظم القلاع التى استحوذ عليها فرسان هوسبيتاليه فى ايام الصليبين . ويزعم بعض المؤرخين انها شيدت فى زمن البيزانطيين ، او المسلمين ولكن لم يتضح الى الآن صدق هذا الادعاء ، ولم يؤيد ببرهان

قاطع . ويقول موسيو « رمب » ان الصيليبين سخروها عنوة سنة «١١٤٠» ميلادية ؟ وظلت فى ادارة اسرة (Mansoer) الى سنة «١١٨٦» . وفى هذا التاريخ اقطعت الى فرسان هوسبيتاليه بأمر حاكمها « برتران دومارغات » ورضاء حاكم انطاكية « بوهه موند » . ثم تسنى لصلاح الدين الايوبى بعد محاربة حطين . اصرار جنوده من جواز هذه القلعة رغماً عن دفاع الاسطول الذى ارسله كيليوم الثانى ملك سجليا لاجل امداد نصارى هذه الاصقاع . ثم سخر المسلمون حصن الاكراد سنة (١٢٧٠) وكان فرسان هوسبيتاليه قد وهنوا وضعفوا فعقدوا عهداً مع المسلمين رضوا فيه برد بعضها فى حوذتهم من الاراضى وقبلوا بتقسيم الضرائب التى يتقاضونها فى مرقب وما يجاورها من القرى بينهم وبين الغالبين . ثم لم يلبث السلطان قلاون ان استخلصها من ايديهم واضطر مدافعيها لمبارحتها والالتحاق بابناء دينهم فى عكا .

وهذا القلعة التى تحكم على السواحل السورية الشمالية كانت معدودة من امتن الحصون الحائزة على اصلح الشروط للدفاع مدة وافرة . وان اضلاع الهضبة التى قامت فوقها هذه القلعة هى عمودية من الجانب الشمالى والجنوبى . اما الجانب الشرقى فهو على شكل زاوية مطلة على واد عميق يفصلها عن جبال النصيرية . وهى متصلة بجبال الشرق بطريق ضيق يشاهد فى الجهة الجنوبية وبهذا كانت كشبه جزيرة . وهذا الحصن المتين الذى شيد فى انسب بقعة محاط بسورين ، وبملجأ « Reduit » يرى فى الجنوب الاقصى منه . وقد جهز السور الاول بعدة بروج . اما الثانى فلا اثر له اليوم . فالذى يدخل من الباب المشار اليه برقم (١) ، والمجهز ببرج اسطوانى يرى امامه دهليزاً واسعاً . والقناطر الموجودة على يمين هذا الدهليز ويساره توصل الى السور الثانى . وهذا السور مجهز ببروج عديدة . ثم ان الصخور المنحوتة فى الجهة الشمالية تشكل مستو تقوم مقام الجدار مسافة طويلة . وتنفصل هذه القلعة عن جبال النصيرية فى الشرق بوادى صناعى عميق . وشيد اهم برج للسور الاول فى النقطة التى اشرنا اليها برقم (٣) فى رسمنا . وهو حاكم على الطريق الضيق الموصل الى الحصن . ولما فتح السلطان قلاون القلعة تفقد هذا البرج وشيده وحفر عليه كتابته . اما الجامع الموجود فى يسار الصحن فقد كان كنيسة .

والبناء الموجود فى الجهة الجنوبية من المعبد (رقم ٩) يتالف من طابقين . ويدخل اليه النور من نوافذ بيضية الشكل ، ولكلى الطابقين باب يصله ببرج القلعة الكبير المشار اليه برقم (١١) الذى يبلغ طول قطره (٢٩) متراً . ثم اذا نظرنا الى النوافذ التى اعدت للدفاع نطلع على ما تجلى فى نسق بنائها من المهارة لاجل صون المدافعين من بنادق الاعداء .

٧ - موقع بانياس ومنظر ضواحيها

ان قصبة بانياس التي لم تكن مركزاً لقضاء مرقب الا منذ (٣٢)سنة هي حديثة لطيفة . وقد سماها قدامى الجغرافيين كاسترابون (بالانيا *Balania*) وسماها العرب (بولونياس *Boulounias*) وعرفت عند الأفرنج باسم « والأنيا *Valenia* » او والهني — *Valanie* » . وما كان في الحسبان ان تظهر تلك القصبة القديمة و هذا المظهر الجديد .

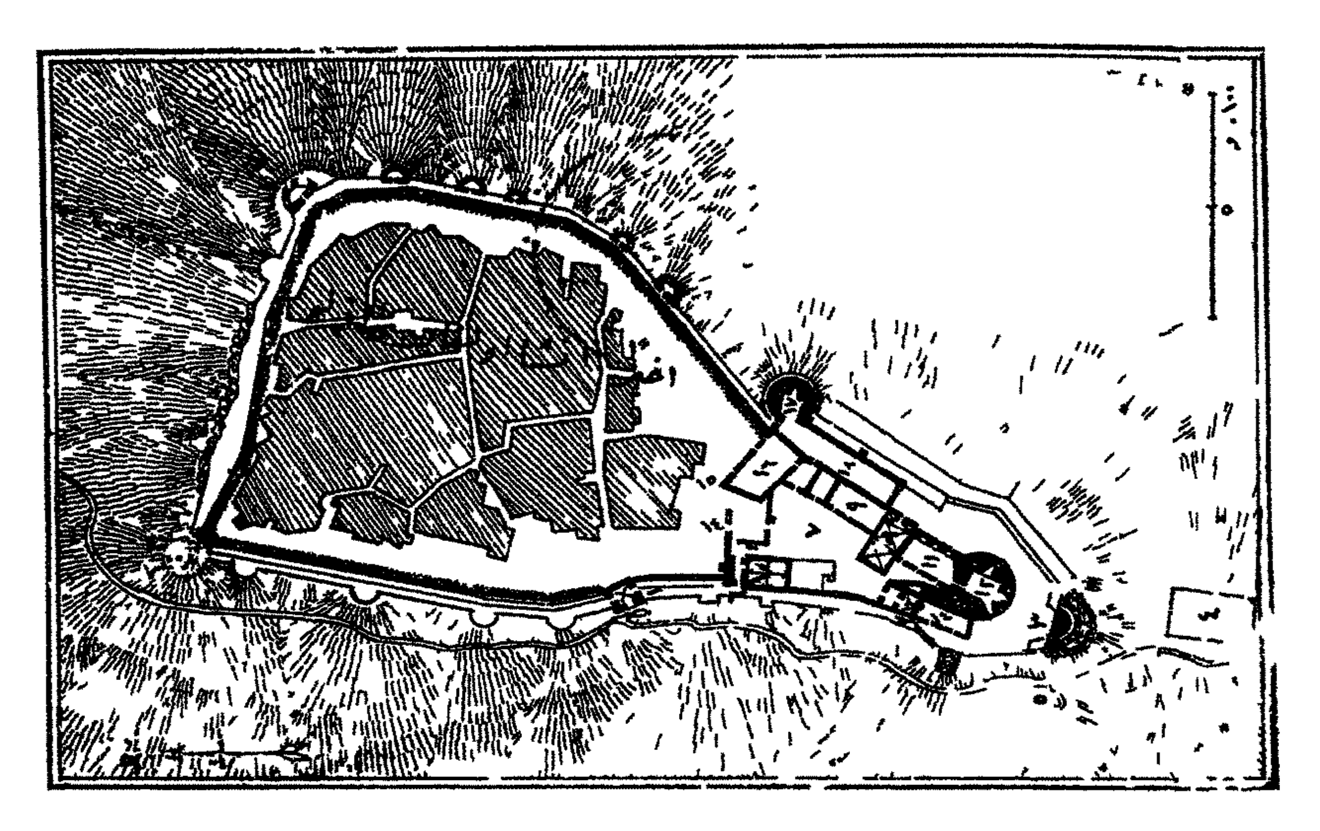
وان لهذه القصبة المطوقة من الشمال والجنوب بالرياض الناضرة ، والمرصعة في الداخل باشجار الجميز والحور ، شكلاً باسماً ، لا يغادر نظراً الا ويجذبه ولا قلباً الا ويشغفه .

نعم ان بانياس ، تلك البلدة اللطيفة التي تنكسر على اذيالها من الجانب الغربي امواج البحر الأبيض ، يحيطها من الشمال « نهر الجمم » مع قليل من البحر ، ومن الشرق ربوة بانياس ومن الجنوب جدول بانياس . ولهذا كانت لها الحظ الاوفى من جميع المحاسن التي تحدثها العوارض الطبيعية .

ثم من الضروري ان نضيف لهذه المحاسن الداخلية ما ازدانت به ضواحيها من البدايع . ففي شمالها جبل « الصرامطة » وقرية « عرب الملك » التي تحاذي ساحل البحر ورياضها الناضرة ، وقصبة (جبله) و(اللاذقية) التي تلوح على بعد كانها ظل ثبت على اقاصي ذلك القوس البحري . و(جبل الاقرع) الذي قام في منتهى الافق كانه صبرة من العهن ؛ وفي شرقيها قرية « ذلو ، برمايه ، الخربة . المشيرفة » اللاتي كمنت وراء جبل بانياس ، ثم قلعة مرقب القديمة التي تربعت فوق هام ربوتها الخضراء كانها اكليل عمراني ، وعلى غلوة منها (جبل العنازي) ، كل هذه العناصر البديعة جعلت لقصبة بانياس منظراً فسيحاً زاهياً .

لاسيما قلعة (مرقب) الكائنة في اعلى نقطة من بانياس ومنظرها الذي يتدفق بامواج الألوان في كل آن ، الجدير بان تعلقه القلوب ، ولا الطف وانضر من منظر القصبة اذا اشرفت عليها من جانب القلعة ورأيتها بشكلها المثلث المنصوب على شاطئ البحر باشجاره الخضراء كانه يتبسم بمحيا فتان .

ولا اجمل من الاطلال على ضواحي بانياس من فوق تلك القلعة الشاهقة ؛ فترى من الجنوب جبال عكار ولبنان حتى رأس الشقعة . ومن الشرق جبال قدموس ومن الشمال جبال الكلبية والنواصرة وساحل جبلة واللاذقية وجبل الاقرع ثم ظل جزيرة قبرص . ومن الغرب بحراً لا حد له ، ومن الجنوب الغربي جزيرة (ارواد) . ولا بد للذهن ان يمتلىء اعجاباً وحيرة تجاه هذا المنظر النضير الفسيح .



الخطوط الداخلية في قلعة مرقب

١ الباب وبرج مربع ؛ ٢ برج ؛ ٣ زاوية خارجية حدباء ؛ ٤ مخزن الماء ، ٥ معقل مقوض ؛
٦ مدخل الملجأ ، ٧ صحن الحصار ؛ ٨ المسجد (كان كنيسة) ؛ ٩ انقاض ابنية منهدمة ؛
١٠ البهو الكبير ؛ ١١ بناء ؛ ١٢ برج كبير ؛ ١٣ ابنية متنوعة ذوات مخازن ؛ ١٤ الباب
المنهدم للسور الثانى ، ١٥ الخندق ، ١٦ بهو ذو قبة ؛ ١٧ برج يتصل بالخندق بباب سرى
١٨ الدهليز الطويل .

٨ — الخطوط الداخلية في بانياس

ان هذه القصبة منتظمة ومرتبة الداخل كما هي لطيفة وظريفة الضواحي . وهي عبارة عن مأتي بيت ومائة حانوت ، وبما ان انحائها الشمالية والشرقية والجنوبية ، ثم قسم من داخلها مستور بالرياض الناضرة كانت كانها حديقة عظيمة انبثت في انحائها منازل بيضاء. وعرض هذه الحديقة اعتباراً من ساحل البحر الى منبع جدول بانياس كيلومترو ونصف ، وطولها لا يزيد عن كيلومترين . ولهذا يتمكن الناظر من الاحاطة بها اذا وقف في احد المرتفعات . وان لهذه القصبة نسقاً مرتباً ومنتظماً ، يدلنا على ان سيكون لها آت خطير. فاذا فكرنا بالشارع الذي يقطع البلدة من مبدأها الى منتهاها محاذياً لساحل البحر ، اطلعنا على الشوارع الاخرى التي معظمها يقطع هذا الطريق قطعاً عمودياً ، نعلم ان هذه القصبة منقسمة الى مربعات منتظمة . واكثر طرقها كالغابات الخضراء ولا الطف من التجول تحت ظل تلك الاشجار ومشاهدة جدة هذه القصبة . ولها نسق في البناء يرمي الى النسق البيروتي تارة ، والى الطراز الطرابلسي اخرى ، هو من الانتظام في درجة لا يمكن العثور عليه في اكثر قصباتنا . وهي كادت ان تكون مبنية في ساحة مستوية ، لولا ان المنازل الموجوده قريباً من منبع جدول بانياس كانت مرتفعة ، وبهذا كانت تلك البقعة ارجح وامتن محلات القصبة . وهي كائنة في الجهة الشرقية وتسمى (حارة القلعة) . ثم توجد في الجهة الغربية المحلة المسماة « حارة الجامع » وفي الشمال « حارة الشمالية » التي سكانها المسيحيون ، ثم في جوار دار الحكومة توجد « حارة السرايه » . وهذه المحلات مختلطة ببعضها . والابنية في بانياس ليست بعظيمة . وهي صغيرة ظريفة ولها تناسب محسوس . ولا توجد في هذه القصبة مؤسسات تامت النظر . حتى ان بناء الجامع ودار الحكومة الكائنين على الساحل لا فرق بينهما وبين بقية المنازل . ثم لا كنيسة ، ولا فندق ، ولا مؤسسة فيها وبهذا تكون عبارة عن قرية مرتبة منتظمة ولكنها قرية نظيفة . والنظافة فيها تلفت النظر في كل شيء . ففيها بضعة جواد مصونة من الاوساخ التي يعثر عليها في غيرها من القصبات ويجب حمل هذه النظافة على جدة القصبة وعلى كون سكانها حديثي العهد فيها ، لان معظمهم من الخارج . ثم على وفرة مائها ايضاً .

يوجد في شمالها منبع الزريقات ، وفي شرقيها « عين البوة » و « عين الفلاحين » اللتان يتكون النهر منهما . وهذه المناهل العذبة كانت مصدر حياة لهذه القصبة بمائها النقي الصاف وهي التي خلقت في تلك القصبة خضرتها النضرة ، وجمالها الزاهر . ويوجد في كل بيت منها بئر عذب الماء . فاذا فكرنا بهذا الغنى الحياتي تنكشف لنا اسباب النظافة . ثم ان القصبة

كائنة على الساحل وهى على طريق اللاذقية وطرابلس، وفرضة لانحاء قدموس وحما وعليه فتناسباتها وامتزاجها مع الناس الذى لم يزل يزداد بتوالى الايام كان اكبر سبب لرقيها .

واذا اردنا ان نجمل ما فصلنا الى الآن ،نقول ان بانياس مسيرة لطيفة . فموقع الزريقات بينا بيعه المتعددة ورأس النبع ايضاً ، ثم موقع الشيخ هلال والرياض والحدائق فى داخلها ، وشاطئ البحر وضفاف النهر ومصب الانهار كلها تحف هذه القصبة بالبدايع الزاهية . وقصارى القول انها بمائها السلسال، وبمنازلها الحديثة البيضاء وبحرها الازرق واشجارها الخضراء ، اجمل واظرف بليدة قامت على شاطئ البحر الابيض ، مرشحة لكل تعال ورقى فى المستقبل .

٩ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الحالة الاجتماعية فى بانياس** — يجب علينا ان نعتبر بانياس قصبةً اسلاميةً لان النصارى فيها لا يتجاوزون بعددهم عشر المسلمين . ولكن من العبث ان نرتاد الطبقات الاجتماعية بين مسلمى بانياس . ولهذا يمكننا ان نفرقهم الى قسمين ، يوجد فى الاول من تسنى لهم الحصول على سهولة العيش . وفى الثانى من يرمقون عيشهم ترميقاً .

ولنعلم ان ليس لبانياس تلك الثروة الطائلة وليس لاغنيائها ذلك التغلب والسلطة . لان وجوه هذه القصبة لا يتجاوزون بعددهم بضع عائلات . ثم ليس لكل عائلة منهم اكثر من الفين او ثلاثة آلاف دونم من الاراضى ، واملاكهم محدودة ايضاً . ولا يربو دخل هؤلاء على خمسمائة ليرة فى السنة . وافراد هذه الاسر الذين يحصلون على هذا الدخل السنوى بواسطة الزراعة والتجارة ، كلهم ميالون للسكون والهدو . ثم انهم لعلى حياد تام تجاه بعضهم . ولا يألون جهداً بالمثابرة على اعمالهم . ولهذا فلا اثر هنا لما يوجد فى الاقضية الاخرى من تنازع السلطة ، والجدال على اشغال الوافع ولا المباراة فى التفوق . لان ارباب هذه الطبقة لا يملكون على اراضى واسعة . ولا نجد عندهم ذلك العدد الوافر من المزارعين ، ولهذا لا امكان لتوسع السلطة ووجود التغلب فيهم .

ولن يكون سكان هذه القصبة خصوماً واعداء لبعضهم لان اكثرهم غرباء من جالية اللاذقية وجبلة ومرقب . ولا جرم انهم برآء من التأثيرات الارثية التى تشحن القلوب بالعدوان ، وتغرس فيها البغضاء . ثم ان فكرة التجارة ، وكثرة المناسبات والاختلاط جعلهم فى حالة اجتماعية تتصف بالانس والمجاملة . واكثرهم يشتغل بعدد البساتين ، او بغيرها من الاعمال البسيطة . ولذلك ترى البساطة بارزة فى نسق معيشتهم . ولا تمكن الحياة فى هذه القصبة الا بالكد والكدح . ولهذا لا يسوغ ان نصف قومها بالكسل

والبطالة . ولكنهم لا يوصفون بالعزم والاقدام ورباطة الجاش في المشاريع الاقتصادية لسبب افراطهم بالقناعة وسكون طباعهم اكثر من اللازم . حتى ان نصف رجالهم يحسنون الكتابة والقراءة، ولكن قناعتهم اضطرتهم للاكتفاء بمعلومات ابتدائية بسيطة .

[٢] — *الاحوال الاجتماعية في قضاء مرقب* — ينقسم سكان هذا القضاء الذين يربو عددهم على (٣٥٠٠٠) نسمة من حيث الدين الى (مسلمين) و (مسيحيين). ثم ينقسم المسلمون الذين يبلغ عددهم (٣٠٠٠٠) نسمة الى سنيين واسماعيليين ونصيريين ، والمسيحيون الذين يناهزون في عددهم (٥٠٠٠) نسمة ينقسمون الى روم اورتودوكس ، ومارونيين وهؤلاء يسكنون في الجهة الجنوبية من بانياس في عشرين قرية تتسلسل محاذية للساحل وتبعد منه مسافة ساعة او ساعتين . ومنهم (٣٥٠٠) نسمة من الروم الاورتودوكس والباقون من المارونيين . وللاروام (١٥) قرية خالصة لهم، وللمارونيين ثلاث فقط . ويسكن بعض المارونيين في قرية بساتين الاسلامية ايضاً .

اما عدد السنيين من المسلمين فهو يناهز (٦٠٠٠) نسمة . ويسكن السنيون في بانياس مركز القضاء وفي تسع قرى قريبة منها . ثم في قلعة خوالي ، وقرية (زمرين). ويوجد في خوابي بعض الاسماعيليين ايضاً .

اما الاسماعيليون في هذا القضاء فعددهم «٣٦٩٨» نسمة على رواية القيود الرسمية وفرع «الحجاويين» منهم يسكن من الانحاء الجنوبية في ناحية خوابي ، واسقاع «نهر الحصين» ، في تلك الساحة التي تبعد مسافة ساعة عن البحر .

اما «السويدانيون» الفرع الآخر للاسماعيليين فهم يسكنون في مركز ناحية قدموس الكائنة في الجهة الشرقية وفي القرى الموجودة في الجنوب منها [*].

وما بقي من سكان القضاء — غير الذين بحثنا عنهم — كلهم نصيريون . ويبلغ عددهم (٢٠،٠٠٠) نسمة . وبهذا تناهز هذه الطائفة بعددها ثلثي سكان القضاء . وان ثلثي النصيريين اي (١٤٠٠٠) نسمة منهم ينتمون الى عشيرة (الحدادين) و (الخياطين) . والثلث الاخر هو من عشيرة (المتاورة) و (الجردية) و (البشاورة) .

وبما ان معظم انحاء هذا القضاء عبارة عن وعور جبلية ، كان امر الزراعة فيه مشكلاً وصعباً . وهذا الاشكال الموجود في تأمين العيش اوجب على السكان الابلاغ في الكد والجهد . وانهم ولاسيما النصيريين منهم محرومون من هذه السجية ، ولهذا كانت حياتهم الاجتماعية منحطة وسافلة . ثم انتابهم الحرب الحاضرة بويلها وصبت عليهم من حرمانها ما

(*) خصصنا الفصل الآتي للابحاث المحلية في الاسماعيليين . ولهذا لا نرى لزوماً لاعادة البحث .

جعلهم فى اسوأ الحالات وافجعها .

وان الفقراء من النصيريين يحصلون على اقواتهم بالاشتغال بالفلاحة او الاحتطاب، او رعى المواشى وحلبها او جمع الحشيشة التى يسمونها «محوده» او بالمكاراة . وذوو الايسار منهم يشتغلون باستثمار ما فى حوذتهم من الزيتون، او بزرع التبغ او تربية دود القز . ومنهم قسم يعيش بما يصل اليهم من النقود التى يتفقدهم بها اقاربهم المهاجرون الى اميركا . ولهذا السبب لا يعثر فى القضاء على ارباب الغنى والثروة ، وفقرهم مكن هذه الازمة من نواصيهم فوطئتهم اى وطئة .

وان النصيريين المحرومين من نعمة الافتكار بالآتى ، والاستعداد له — كما بينا سابقاً — والمجردين من النزوع الى الكمال ، لا تزال رابطتهم بالحياة ضعيفة ولهذا فقد باتت هيئتهم بالفشل وكانوا جمعية ممزقة .

ويمكن تفريق سكان القرى عن بعضهم من وجهة الدين لان كلاً منهم يسكن فى قرى خالصة له . ويجب الاعتراف بان ارقى القرى بالحياة الاجتماعية فى هذا القضاء هى قرى الاسماعيليين . ثم تاتى من بعدهم قرى النصارى . وبعدهم قرى السنيين .

اما قرى النصيريين فهى فى اسوأ الحالات باوساخها المادية والمعنوية ، وبحرمانها من كل شئ وفقرها المدقع . ويكفى لمن اراد ان يطلع على حياة هؤلاء القوم الاجتماعية ان يزور احدى قراهم . فان حالها يفصح عن ويلها الاسود وينطق بانحطاطها الاليم .

نعم ان الشظف تلبد فى ربوع النصيريين حتى كاد يلمس باليد . فكل منهم يرزح تحت اعباء الحرمان البحت . واقوت قراهم وانطفى سراج حياتها . وهذه الاطفال ممددة امام تلك الاكواخ السوداء المتداعية قريباً من الاثافى الحجرية التى عقد عليها الدخان السخام لا يبغون حراكاً . وها بعض الرجال منهم مخلدون الى الارض كسالى عطلاً ، خائرى القوى ، انهكهم الجوع ، وكشف غطاءهم العرى . فالاجسام ضئيلة ، والزنود والسوق كالعصى الرفيعة المحروقة ، والبطون منتفخة ، والالحاظ وقفت عن حركتها ، وجف ماء الوجوه ، وتبددت الشعور . عليهم اطمار من الخرق البالية لا تستر ركبهم . واياكم ان تتحفزوا للدخول على بيوت هؤلاء القوم الذين لا يعلم هل هم احياء ، ام كانوا من جماد . ولن تستطيعوا دخول تلك الاوكان التى تقابلكم عفونتها برائحة كريهة . وهذه الاكواخ السوداء التى كانها اكداس من سخام مستورة بسقوف قائمة ملاة . وداخلها سجن مظلم لا ينفذ النور اليه . وتوجد فى جانب مدخلها فرجة تمج على الداخل دخاناً تمتزج رائحته مع العفونة فتزيد فى كراهيتها . ولا بد ان تروا فيها شاة او بقرة او غيرها من الحيوانات ثم قدرة سوداء ، ولباداً ممزقاً ولحافاً ملطخاً بالاوساخ ، والتراب المتعفن ... هذا مجمل ما يتضمنه داخل تلك الاوكان .

وهذا السقوط والتسفل الحيوى شمل كل احوال هؤلاء القوم ، حتى ارواحهم ولهذا كان كل نصيرى تمثالاً للكذب والاكاذيب الحقيقة ، فلا يجاوبكم اذا سألتم ، ولا يصدق اذا جاوب . وهو عدو لكل فكر ، وعنده العناد الاصم . اما نساؤهم تلك البائسات فانهن على غاية من الذلة والمهانة . ولا قيمة لهن . لأن المرأة فى نظر النصيرى بقرة تستثمر على قدر الاستطاعة . ولا يبعد ان تكون البقرة ارجح لديه منها .

وقصارى القول ، يجب التسليم بسوء الحالة الاجتماعية فى النصيريين الذين يمضون حياتهم فى رؤس الجبال كسالى منقطعين عن العمل ، ومنحازين عن المدنية . وقد بلغت وطأة الجهل فيهم الى درجة لا تكاد تجد امرأة بينهم تعرف القراءة والكتابة ، اما فى الرجال فلا يزيد هذا العدد عن عشرة فى المأة . ولهذا فان سكان هذا القضاء اشد حاجة من غيرهم الى العلم والمدنية .

*
* *

نرى قبل اتمام هذا البحث ان نذكر بعض الارقام الاجتماعية التى حصلنا عليها فى هذا القضاء .

نطقت قيود المحكمة الشرعية بان عدد المتأهلين فى السنين الخمس الاخيرة «٩٧» شخصاً . ولا جرم ان هذا العدد يختص بالسنين فقط . فمنهم «٣٢» تأهلوا سنة «٣٣٠» و «٤٤» سنة «٣٣١» و «١٧» سنة «٣٣٢» و «١» سنة «٣٣٣» و «٣» سنة «٣٣٤» هجرية . وعدد الذين يتراوح سنهم بين «١٥ و ٢٠» من هؤلاء «١٥» و «٦٤» ممن هم فى سن «٢٠—٢٥» و «١٩» ممن سنهم اكثر من «٢٥» سنة . وكان اكثر الزواج يتداور بين شهرى محرم وربيع .

اما الطلاق ؛ فقد حدث منه فى هذه السنين الخمس عشرة ويصيب كل سنة اثنان منه بين السنين .

وحدث سنة «٣٣٢» فى هذا القضاء جرم واحد من القتل و «٦٩» جرماً من الجنح والقباحات . و «٢٨» من هذه الجرائم عبارة عن الضرب والجرح . و «٩» من نوع السرقة والباقون من مختلف الانواع .

ثم ان عدد الذين يشتغلون فى القضاء بالتجارة «٢٥٧» على التقريب . وعدد الذين يتعاطون الزراعة «٤٢٥٣» ، وارباب الحرف «٥٤» شخصاً . ويوجد «٥٧٢٠» شخصاً يشتغلون تارة بالزراعة ، وتارة يظلون بلا شغل . ويروى وجود «٦» اشخاص من طبيب ومعلم وغيرهم من ارباب الصنايع الحرة . ولا نرى حاجة للاشارة على عدم صحة هذه الارقام التى خلقها التخمين الكيفى .

١٠ — الاحوال الصحية

ان البيوت فى قصبة بانياس وان كانت منطبقة على القواعد الصحية غير ان وجود الينابيع المتعددة فى ضواحى القصبة جعلها راطبة من حيث الموقع والهواء . هـذا وان كان للماء الخدمة الحسنة فى تأمين نظافة القصبة ولكن بما انه يسيل مكشوف المجرى معرضا للتدنس والتلوث . كان بمثابة الناقل للامراض . ثم ما تحدثه تلك المياه حين سقى البساتين من القرادت ، والمستنقعات التى تتراكم على ضفاف نهر (حريصون) لم تزل سبباً قوياً لسراية الامراض وتفشيها .ولهذا فان الحمى المرزغية هناك بمثابة مرض اهلى . ولا بد ان يصاب بها نصف السكان فى كل سنة . ثم توجد هنالك امراض التيفوئيد والديزانتهرى وقد اصيب فى السنة الماضية (٤٠٠) شخصاً بالاولى و «٥٠» شخصاً بالثانية . ويقول طبيب القضاء انه قد توفى من هؤلاء زهاء النصف . ويصاب فى السنة « ١٠ — ١٥ » شخصاً بالامراض العينية ايضاً ولا أثر لغير هذه الامراض البتة .

وفى سنة « ٣٣٢ » دخل مرض القوليرة فى قصبة بانياس وفتك فتكاً ذريعاً . حتى انه توفى « ٣٠ » شخصاً من « ٥٠ » مصاباً .

اما القضاء ، ففى انحاء الساحل منه لا تنقطع اصابات الحمى المرزغية ولاسيما فى « زلو ودير البشر وحريصون وقاموع وبعمرائيل ومرقب وبستان النجار » من القرى الساحلية ولا جرم ان نصف السكان فى هذه القرى يصاب بهذا المرض فى كل سنة . اما فى سائر القرى من القضا فيندر وجود هذا المرض .

وفى السنة الماضية اشتدت وطئة الحمى التمشية فى هـذا القضاء . ويروى ان عدد الذين اصيبوا بها ناهز «١٠٠٠» نسمة وقد توفى منهم قريب من النصف . واصيب بالقوليرة مقدار «١٠٠» شخص توفى بعضهم .

*
* *

فاذا قارنا بين سكان القضاء من حيث الحالة الصحية ، نجد الاسماعيليين احسنهم وانعمهم . ويزعم طبيب القضاء ان السبب فى ذلك هو اعتناء الاسماعيليين بالنظافة من جهة وطيب انحائهم وقراهم التى يقطنونها من جهة اخرى . واحط طائفة فى هذا القضاء من الوجهة الصحية هم النصيريون . لان موقعهـم الصحى سافل جداً . ولاسيما فان حالتهم فى السنين الاخيرة ازدادت ويلاً وتعسة . ولا يوجد فى القضاء من مأمورى الصحة الا الطبيب ومأمور التلقيح . ولا توجد قابلة فى كل القضاء . ولهـذا فان النساء يضعن حملهن وفقاً للقانون الطبيعى .

—١٧—

البحث المحلي عن الأسماعيليين

١ — اسماعيليو بيروت

ان الاسماعيليين الذين يقطنون قضاء مرقب من عمال بيروت يختصون بناحيتين من هذا القضاء ، قدموس وخوابي . ومجموع سكان الناحيتين بالنظر للقيود الرسمية يبلغ «٣٦٩٨» نسمة . منهم «٢٥٠٠» فى قدموس والباقون فى خوابى .

فالذين يقطنون قدموس يشغلون مركز الناحية واثنى عشر قريةً من اعمالها . واهمها قرى [الشعرة ، لصوراته ، كاف الحمام ، عقرزيتى ، قدموس ، زريقه ، قلعة العليقة ، حماسة العبلية] .

اما الذين يسكنون فى انحاء خوابى يشغلون (١٧) قرية . وهى [عورو ، بطاحية ، عقرزيتى ، خوابى ، برى كيه ، بيت ديبه ، جماشية ، راس تركمن ، خربة الفرس ، بيت سلهب ، مازوغا ، بيت قاسم ، بحوه ، بيت الاسمر ، برمانة رعد ، البلوعة ، التمامات ، العليه] . وبعض هذه القرى يتالف من بضعة بيوت وبعض من (٣٠—٤٠) بيتاً .

*
* *

كما ذكرنا ان الاسماعيليين المقيمين فى ناحيتى قدموس وخوابى ، هم قديمو العهد بتوطن هذه الاصقاع . نعم ذكرنا فى القسم العمومى حين البحث عن الاسماعيليين انهم قديمو العهد فى سكنى البلاد السورية [*] لاسيما وقد علمنا انهم تمزقوا ايدى سبا بعد انقراض حكومة الاسماعيلية الشرقية وتشتتوا فى الشرق الى بلاد الهند ، وفى الغرب الى بلاد سورية . فيحتمل ان يكون هؤلاء من مهاجرى الاسماعيليين فى ذلك الزمن . ويجب ان نسلم بوجودهم فى هذه الاصقاع منذ تاسس مذهبهم لانه تاسس فى قصبة السليمية . ولكن لا بد ان يكون عددهم يومئذٍ اكثر واوفر من عددهم اليوم . لاسيما اذ فكرنا بانهم اجهدوا صلاح الدين الايوبى مدة طويلة ، وعلى رواية حاربوا معه الصليبيين ، نعلم انهم كانوا اوفر عددا واعظم شاناً منهم اليوم .

(*) راجع صحيفة (٨٠—٨٤) .

ولا يفوتنا ان الاسماعيليين اليوم يعيشون وهم على ما يبعث العجب من السكينة والهدوء . ونحتاج اليوم الى الادلة القوية ، والبراهين الناصعة التاريخية حتى نبرهن على انهم من احفاد اولئك الفتاكين والفوضويين السفاحين ومع هذا فان لهم اليوم موانع تحيل بينهم وبين التشبه بالاسلاف . ولا بأس ان نجملها هنا اتماماً للفائدة :

اولاً — ان الاسماعيليين اليوم ليسوا بطائفة عظيمة ، وما عدا هذا فانهم محاطون بالاقوام الذين هم اشد منهم قوة واوفر عدداً .

ثانياً — انهم محرومون اليوم من الرؤساء الحريصين .

ثالثاً — ليس لديهم وسط مناسب تنفق فيه اسس الاسماعيلية المعلومة، وتروج ، وليست هم بامادة لجدهم الضايع .

رابعاً — ما زالت ترجمهم القرون بضربات الجمة شديدة حتى القت في قلوبهم رعباً تاريخياً يتسلسل فيهم مع النسل .

ولهذه الاسباب لا ترى الاسماعيليين اليوم يشدون على الملوك ، ولا يتطاولون على السكان ، ثم لا يحفزون لاحياء الاديان . بل انهم يكتفون بالاحتفاظ بما يقوم باذهانهم من سراب ذلك المعتقد الذي كانه حلم قديم ويتلهون بما يوحيه الى قلوبهم من التسلي الكاذب .

٢ — اسس الاسماعيليين الحالية

ان الاسماعيليين الذين يقطنون الاصقاع التي مر ذكرها ينقسمون الى فرقتين كبيرتين :

فالحجاويون منهم يسكنون انحاء خوابي والسويدانيون يقيمون في ناحية قدموس . واننا مرجئ التكلم عن الفروق بينهما من حيث الدين الى البحث الآتي :

بيد ان لا علم لنا بتاريخ تأسس هاتين الفرقتين ، ولا بالغاية والمقاصد التي اوجبت تكونهما ولاسيما غلو الاسماعيليين وافراطهم بملازمة الكتمان في عقائدهم الدينية ، كان اكبر مانع لاتضاح هذه النقاط وانكشافها ، وقد كان يمكننا ان ننظر لاسم (الحجاوي) و (السويداني) ونؤول المسئلة بمدلوله نختاره مناسباً لهذين الاسمين ، من شخص او محل ، ونحل المسئلة بقرائن الالفاظ البحتة ، ولكن لا تكون لهكذا تفسير قيمة علمية ما لم يؤيد ببراهين ناصعة .

وليس لدينا الآن عن هاتين الفرقتين اللتين افترقتا بسبب تخالفهما في المعتقد ، الا حقيقة وجودها الراهنة فقط .

ونرى ونبه عن هؤلاء الاسماعيليين المقيمين في هذه الاقطار انهم كانوا قبل خمسين سنة محرومين من الامام . ولهذا اخذوا يتحرون لانفسهم اماماً ، وبعد ان شاوروا سلسلة سنة (١٢٨٣) بخبر شخص ثاني ببلدة حيدر آباد من اعمال الهند يدعى « علي » تتوفر عنده الاهلية الكاملة ، حائز على الشروط والاوصاف التي تخوله ان يكون اماماً ، ومقتداة لهم ، وعليه سارعوا لاعداد وفد ، وارسلوه الى البلدة المذكورة ليدرس احوال هذا الشخص ، ويسبر هويته . ولكن لم ير الوفد المذكور في « علي » تلك الكفاءة ، فرفض امامته . ثم علم بان شخصاً يدعى (محمد الحسن الحسيني) ادعى الامامة في سوساق . فرأى الوفد ان يقصد تلك البلدة وينظر في امر هذا الرجل ايضاً ، ويسبر حقيقته . فذهب اليها . وبعد ان استقصى احواله ، واطلع على كنهه الفاه حائزاً على الشروط المطلوبة فبايعه بالامامة وقفل راجعاً الى بلاده . واطلع ابناء دينه على الامر فأيدوا رأيه واخذوا منذ ذلك الزمن يرسلون زكاتهم الى « محمد الحسين » . ودام الامر على هذه الكيفية حتى سنة « ١٢٨٨ » هجرية حيث توفي محمد الحسين وخلفه من بعده ابنه « علي شاه » . وقد آمن بعض هؤلاء الاسماعيليين بامامة هذا الخليفة ايضاً . وظل « علي شاه » اماماً حتى سنة (١٣٠٨) ، وفيها توفي وخلفه على الامامة ابنه « محمد شاه » . وهذا ايضاً بايعه الاسماعيليون واعترفوا بامامته .

ولا يفوتنا ان الذين آمنوا بامامة هؤلاء الائمة هم « الحاجويون » فقط ، اما السويدانيون فانهم يرفضونهم محتجين بانهم لا كفاءة فيهم . ولهذا قام التناقش والجدال بين هاتين الطائفتين على ساق وقدم . حتى افضى الامر لاتفاقهم على الاشتراك بتشكيل هيئة من كلي الحزبين وتسييرها الى الهند لاجل استطلاع دخيلة الرجل ، واستكناه حقيقته ، وقصدوا بهذا التدبير قطع المشاحنات وتأمين وحدة الامة ، وصونها من الشقاق . ثم سارت تلك الهيئة سنة « ١٣٢٢ » الى الهند وقامت بواجبها ورجعت ، فكان نتيجة ذلك ان قبل بعض السويدانيين بامامة (محمد علي شاه) وبعضهم ظل مصراً على رأيه الاول .

وقد فوض « محمد علي شاه » الى « الشيخ احمد محمد » من اعضاء الهيئة ، رتبة يسمونها « مكة » وعززه بشخصين يدعى احدهما « كامريا » والثاني « ياهي » . ويروى ان « مكة » هو الداعي و « كامريا » هو « وزير الميمنة » او « قابض المال » و « ياهي » هو وزير الميسرة .

ويروى ان قد شد عضد « الشيخ احمد » باخيه اسماعيل الذي سمي « سيف الدعوة » وقام الاخوان يدأبان لنشر الدين الاسماعيلي . واخذا يشيدان المعابد ويعلمان الناس كيفية عبادة صورة « فوطوغراف » محمد علي شاه التي احضرها الشيخ احمد معه من الهند . وشرعا يجمعان الاموال الطائلة باسم « الزكاة والنجوة » .

ولا علم لنا بماهية الوظائف التي اختص بها كل واحد من هؤلاء الاشخاص الذين اتخذوا قصبة «السليمية» — مهد دياناتهم — مركزاً لهم . ولا يبعد ان يكون رؤساؤهم من «الدعاة» . واننا سنتكلم عن هذه النقطة حين البحث عن حالتهم الدينية .

وقصارى القول ان هؤلاء الاشخاص ما زالوا يتجولون في تلك الانحاء متظاهرين بالمشيخة يجمعون الاموال والاعانات بمختلف الوسائل الى سنة (٣١٦) . ويومئذ ازمعوا على ايصال تلك المبالغ التي حصلت لهم الى «محمد علي شاه» .

وعليه نهض الشيخ احمد محمد واخوه الشيخ اسماعيل وثلاثة اشخاص من حاشيتهم وحضروا الى طرابلس الشام ليذهبوا منها الى الهند . ولم تلبث الحكومة ان اطلعت على دخيلة امرهم . فقبضت عليهم وساقتهم الى سجن الشام . وقد مات الاخوان في السجن وظل رفقاؤهم الى اعلان الدستور حيث اطلق سراحهم . وكان بينهم الاخ الثالث للشيخ احمد . واسمه «الشيخ نصر» فذهب الى الهند وحصل على المشيخة ثم رجع وأخذ يسعى لجمع النقود كما فعل اخواه من قبل حتى حصل له مبلغ وافر . واراد ان يذهب الى الهند لايصال المال الى محمد على شاه ، ولكن اطلعت الحكومة على الامر ، فصادرت قسماً من ذلك المال واعدته ليصرف على تأسيس مدرسة زراعية في اللاذقية .

وقد توفي الشيخ نصر في العام الماضي ، ولم يخلفه للآن احد ويروى ان ابن اخيه هو وكيله اليوم . والان يوجد بين اسماعيلي بيروت ثلاثة مشايخ ، اثنان منهم في قرية «خربة الفرس» وواحد في «عقرزيتي» . ويوجد في كل قرية «وكيل الشيخ» ايضاً . وهذا يدلنا على ان لهم اليوم نظام ديني يسود في جميع انحائهم .

٣ — شكل الاسماعيلية اليوم

[١] — استحالة الاسماعيلية — نرى من الضروري قبل الافاضة بذكر ما حملنا عليه من المعلومات عن الديانة الاسماعيلية ان نلخص ما طرأ عليها من التحول في هذه المدة التي اربت على عشرة قرون .

وقد اطلعتنا المعلومات التي ذكرناها في القسم العمومي على ان هذه الديانة لم تحتفظ بخصائصها واوصافها المميزة التي كانت عليها ابان انتشارها . بل لم تلبث مدة وجيزة حتى طرأ عليها التبدل والتغير . وهذا الدين الذي تزيا بزي الباطنية والقرامطة والحشيشية والبابكية وغيرها من الاشكال المختلفة ، وتطور باطوار شتى لم يمكث بضعة قرون الا ووصل الى شكل لا يمكن ان يشف عن حقيقته الاصلية .

كانت هذه الفئة فرقة من الشيعة تفترق عن «الامامية» بالقول في امامة «اسماعيل بن

جعفر » فقط . ولهذا لم تكن فى اعتقادهم بالرب ولا بالرسول نقطة توجب الاشتباه والظنة.
ولم يكن « على بن ابى طالب » رضى الله عنه لديهم الا خليفة واماماً. وهكذا كانت الخلافة
فى اخلافه من بعده .

ولكن لم يلبث الذين ارادوا اتخاذ هذه الفرقة آلةً لتنفيذ مآربهم السياسية ، وتطمين
مقاصدهم الدينية ان حوروا الديانة وقلبوا سحنتها . فدسوا اولاً مسئلة الائمة المستورة
والظاهرة . ثم اتبعوها بدرجة الانبياء وجاؤا بالناطقين والاسس واشغلوا بها وبعددها
الاذهان . وهكذا كان — كما فصلنا من قبل — محمد بن اسماعيل نبياً ناطقاً . ثم انتقوا
من الانبياء ستةً اقروهم على النبوة ، وحذفوا الآخرين الذين لا ريب فى نبوتهم
الى خارج العقيدة واسقطوهم من النبوة الى الامامة اى جعلوهم عبارة عن معاونين
للانبياء .

ولم تلبث هذه الديانة ان صارت مكمناً للاسرار والغوامض واستولت فكرة « النبى
الناطق » و« المهدى » على الافكار . وقام اناس يزعمون انهم من سلالة على ، وادعوا انهم
ائمة فى الظاهر ولكنهم فى الباطن « النبى الناطق » السابع او « المهدى » المنتظر . وهكذا لم
يألوا جهداً بتأييد سلطتهم بتلك الصفات المعنوية وبها تسنى لهم ان يقودوا اولئك الناس
الغافلين ضالين ويجعلوهم تحت امرتهم وتصرفهم .

وعمدوا الى القرآن ، والآيات الفرقانية ففسروها على اهوائهم ، وموهوا النصوص
الصريحة بالالوان الباطنية ومسخوا الشريعة المحمدية حتى بعدت عن اصلها او اضاعته بتاتاً
ثم توالى التقلب وتتابع التحول حتى غدى مذهب الاسماعيلية عبارة عن طريقة وضعت
للتملص من التكاليف الشرعية . وهنالك وضعت اسس الاشتراك فى الاموال ، ورفعت
المحرمات ، وابيحت الاعراض فكانت النساء متاعاً مشتركاً .

ولم يمض على هذا المذهب قرنان الا ودخل طوراً عجيباً بتأثير المذاهب والعقائد
الاخرى وبعض ذووه ، ولاسيما الائمة منهم ، فلم يكتفوا بالامامة ، ولا الخلافة وحتى ولا
بالنبوة بل جعلوا انفسهم آلهة ، وزعموا ان الاله تجسد فيهم . وزعموا ان سلسلة هذا
التجسد مرت بعلى بن ابى طالب فكان آلهاً ، وانتقلت بعده لبنيه وذويه حتى وصلت
اليهم واستقرت فيهم ، وادعوا ان هذا التجسد كان قبل (على) يتسلسل على هذا النمط ايضاً
وبعد ان وصلوا الى هذه الوقاحة لم يبق لهم رادع عن ان يدعوا بان القدرة التى وضعت
الشرايع وارسلت الرسل والانبياء ، ولم تزل تدبر الاكوان وتديرها هى عبارة عن
شخصهم المقدس .

وقصارى القول ان هذه الديانة بدأت من امامة اسماعيل بن جعفر ، وشرعت تتقلب
وتتحول حتى استقرت على عقيدة التجسد وكانت كلما آنست وسطاً صالحاً لنموها تشب

وتجد من ضالي الناس اناساً يأتون حولها ويعبدونها ولهذا يجب ان لا نعجب من اعتقاد اولئك الاسماعيليين الموجودين في قضاء مرقب لغاية اليوم متمسكين بهذه العقيدة حسكما تمسك بها غيرهم في حماه ، وبلاد العجم ، والهند . لان الجهل الاعمى الذي اجرى باسلافهم الى تلك العقيدة الوثنية ، لا بد ان يجر هذه الطائفة المحرومة من كل علم ونور الى عين تلك الالوهية ايضاً .

*
* *

اراناالبحث والتنقيب الذي عالجناه هذه المرة في ديار الاسماعيليين ، براهين وادلة تدل على وجود عقيدتهم المذكورة التي اوجدتها استيحاءاتهم الاخيرة . يقول ارباب الرأي في هذه المسئلة بوجود الفروق بين «السويدانيين» و «الحجاويين» من اقسام الاسماعيليين. ولديهم ان الحجاويين يعتقدون بضرورة وجود رئيس ديني يدعى «قطب الوقت» ، اما الآن فلا يوجد هكذا شخص تتوفر فيه شروط هذه الرتبة ، ولهذا فانهم ينتظرون حتى يقيض لهم الزمن هكذا شخصاً .

ولكن لدى الحقيقة ان الحجاويين — كما بينا آنفاً — يعتقدون بالوهية «محمد علي شاه» المقيم في بومباي . وهذا الشخص الذي يعتبرونه اماماً في الظاهر ما هو في الحقيقة الا شكل تجلت فيه الالوهية. ويزعمون ان الالوهية التي تجسدت في «علي» لم تزل تتسلسل من نسل الى آخر حتى وصلت الى «محمد علي شاه» او بتعبيرهم «آغا خان» . ويفسر الحجاويين دعواهم على هذا الوجه قائلين :

— ليس من المعقول ، الاعتقاد بإله لا يراه النظر . اذ لا بد للاله ان يظهر لاجل تلقين الشرايع . ويتجسد في صورة شخص . فآغا خان المنسوب لعلي (ر . ع) هو شكل تجسد فيه الالوهية .

هذا وان تكن هاتان الفرقتان لا تختلفان في العقيدة الاساسية . ولكنهما يفترقان في تعيين كيفية التجسد . ولدينا براهين قاطعة تثبت اعتقاد الحجاويين بان «آغا خان» آله . وها نحن نذكر بعضاً منها :

اولاً — وضعهم اثناء التعبد صورة «آغا خان» على مائدة ، وتوجههم شطرها وركوعهم وسجودهم لها .

ثانياً — تسميتهم آغا خان حين قراءة الادعية [*] بالحق وروح الوجود ، والحي المعبود .

(*) سندرج هذا الدعاء بنصه في الفصل الاتي .

ثالثاً — كتابتهم على علمهم الذى اظهروه مدةً قليلةً بعد اعلان الدستور عبارة « لا اله الا السلطان محمد على شاه ».

وهذه الادلة تظهر لنا شكل العقيدة الاساسية التى يعتقد بها اسماعيليو اليوم . واننا لا نعلم حقيقة الشريعة التى يمشى عليها « محمد على شاه » . ولكن يروى ان رتبة « مكه » هى عين النبوة . و« المكيون » مرسلون من قبل محمد على شاه ليصدعوا بالادعية التى رتبها . وقصارى القول ان هذه الروايات تعرفنا بان الاسماعيليين اليوم من خالص الوثنيين . والمبحث الآتى يبرهن على صدق هذا الادعاء بوضوح كامل .

[٢] — *عبادة الاسماعيليين وادعيتهم* — رغماً عن قيام بعض الاسماعيليين ببعض العبادات الاسلامية بالظاهر . فانهم فى الحقيقة يعبدون « محمد على شاه » الذى يعتقدون بربوبيته . لان القدرة على الاثابة والعقوبة منحصرة فى الشاه . ولهذا يخصونه بعبادتهم ويطيعون اوامره لينالوا الجنة التى ينزعون اليها .

ان للاسماعيليين صلاتين فى كل يوم . الاولى وقت الفجر والثانية وقت العشاء . وتمتد كل واحدة منهما ساعتين . ويؤدون هذه الصلواة فى محل يسمونه « المعبد » . وهو عبارة عن غرفة صغيرة لها بابان متقابلان ، مبيض داخلها بالكلس . معلقة صورة « محمد على شاه » فى انسب موقع فيها . ولا يوجد فيها شئ من الزينة . مفروشة بحصيرتين موضوعة فى منتصفها مائدة من الخشب ارتفاعها (٣٠—٤٠) سانتيمتراً وطولها متران وعرضها نصف متر . ولكل قرية من قراهم هكذا معبد .

يدخل الاسماعيليون هذه المعابد ابان العبادة ، ويؤلفون حلقة حول المائدة . وتوجد النساء فى آخر الحلقة . ولا بد من وجود الشيخ او وكيل الشيخ فى تلك الصلاة .

وقبل الشروع بالصلاة يأتون بصورة (محمد شاه) من محلها باتم التعظيم والاحترام ويضعونها على المائدة . ويصرخ الشيخ « السلطان محمد على شاه » . ثم يشرعون فى العبادة ويسجدون . وبعد السجود يقول الشيخ « على الله » فيجاوبه الحاضرون بصوت واحد « صحيح الله » . وهكذا يتمون الدعاء ويؤدون الصلاة . ويكون ركوعهم او سجودهم اثناء الصلاة عبارة عن انغاض رؤسهم تجاه الصورة . ويتلون كلمات [كار ، كرم ، رك ، شرم] اثناء الصلاة ويشيرون بايديهم الى رؤسهم ويمين صدورهم ويسارها على وجه التصليب . وبعد انتهاء الصلاة يضعون نقوداً فى انقاب المائدة .

والادعية التى تجب على الاسماعيليين تلاوتها اثناء الصلاة يتقبلها « المكيون » من محمد على شاه . وبعض هذه الادعية محررة فى لغة « اوردو » . وتوجد فيها جمل عربية

وفارسية ايضاً .

وقد آثرنا ان ندرج صورة هذا الدعاء الذى لم نحصل عليه الا بشق الانفس بعينها رغماً عما جاء فيها من الاغلاط الاستنساخية، [*]

كيفية صلاة الاسماعيلية

[بعنوان مولاهم الهندى) ، [شيخ احمد محمد] ، [قابض مال شيخ نصر] ، [وزير الميسرة]

الله مريا   مكه دعا برو   كامريا دعا برو   پاهى دعا برو

جمله جوى دعا برو سلامة مولانا

سلطان محمد شاه على [ويسجدون وعند القيام من السجود يقول الشيخ] على الله [يجيبوه الجماعة] صحيح الله مولانا سلطان محمد شاه حاضر امام حق، نام پير شاه [عدد ١٠٠] شاه جى قبول كرى مولانا سلطان محمد شاه على [ويسجدون وعند الرفع يقولون كما مر والبسملة والحمد لله ولا اله الا الله] رحيم قسيم كريم خداوند حضرت بزرك باق پرور دغار ديسلم ديس مان حاويسى بجهم ديسى خندراق سرى مولانا سلطان محمد شاه على [وسجدون ويتكلمون الالفاظ كما سبق] حق يا شاه حضرت ءاد ابيافت وسرى منى قورب اكرى سن وسرى فريش رام ترسس بو دشيت سام بسلام ملكان اسلام حاران سامان ساقان عدنان معدنزار مضر الياس مدركه خذيمه كنانه نضر مالك فهرلوى قيبرك مرى قلاب مك قصى عبد مناف هاشم عبد المطاب ابوطالب وبى سرى حق مولانا مرتضى على حق مولانا شاه حسين حق مولانا شاه زين العابدين حق مولانا شاه محمد الباقر حق مولانا شاه جعفر الصادق حق مولانا شاه اسماعيل حق مولانا شاه محمد اسماعيل حق مولانا شاه وفى احمد حق مولانا شاه تقى محمد حق مولانا شاه رضى الدين عبدالله حق مولانا شاه محمد المهتدى حق مولانا شاه قايم حق مولانا شاه منصور حق مولانا شاه معز حق مولانا شاه عزيز حق مولانا شاه حاكم حق مولانا شاه ظاهر حق مولانا شاه مستنصر بالله حق مولانا شاه نزار حق مولانا شاه هادى حق مولانا شاه مهتدى حق مولانا شاه قاهر حق مولانا شاه علا ذكريا سلام حق مولانا شاه جلال الدين حسن حق مولانا شاه علاء الدين محمد حق مولانا شاه ركن الدين حيشا حق مولانا شاه شمس

(*) وضعت الاقسام التى تخص العادات بين قوسين وكتبت بحروف رفيعة . والذين استنسخوا هذا الدعاء وضعوا ايضاحهم باللغة العربية . ونحن احتفظنا بالاصل .

الدين محمد حق مولانا شاه قاسم شاه حق مولانا شاه السلام شاه حق مولانا شاه سلام شاه حق مولانا شاه مستنصر بالله حق مولانا شاه عبد السلام حق مولانا شاه غريب ميرزا حق مولانا شاه ابو النور على حق مولانا شاه مراد ميرزا حق مولانا شاه ذو الفقار حق مولانا شاه نور الدين على حق مولانا شاه خليل الله على حق مولانا شاه نزار على حق مولانا شاه سيد على حق مولانا شاه حسن على حق مولانا شاه قاسم على حق مولانا شاه خليل الله على حق مولانا شاه حسن على حق مولانا شاه على شاه حق مولانا سلطان محمد شاه صاحب الامر والزمان روح الوجود وحى معبود [والسجدة] اللهم يا مولانا انت السلام ومنك السلام واليك يرجع السلام وعليك الف سلام حينا ربنا بسلام وادخلنا دار السلام تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام بفضلكم ورحمتكم يا مولانا [عدد — ٥] بلطفك وكرمك يامولانا [عدد — ٥] لا حول ولا قوة الا بالله يا مولانا [عدد — ٥] ذود ذود فرياط يدمى يا مولانا اللهم ياسيدى منك مددى وعليك معتمدى اياك نعبد واياك نستعين يا ابا الغوث اغثنى ياعلى ادركنى بلطفك الخفى توابى رحمتى مرحق سبحو محمد مربى على محمد يك خدا حق شناس دفع بلا لا اله الا الله محمد رسول الله مولانا امير المؤمنين على صحيح الله حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير غفرانك ربنا واليك المصير دعا پنج يا جيجه ونيتى شاه جى درغامه قبول كرى مولانا سلطان محمد شاه [ويضعوا اياديهم اليمين على الارض ثم يرفعوهم الى التصليب ويقولوا] كار كرم رك شرم [وثم يضعون ايديهم بايدى بعضهم ويقولوا لبعضهم] شاه ديدار [ويسجدون ثم يرفعون ويقولوا] مولانا سلطان محمد شاه حاضر امام حق نام پيرشاه [عدد حب المسبحة] يا شاه فصل دهيك درغايك عمر دارك ايشى كداريك پنج باهيك ديدار حوقيب كريم چيريكى چوطنى موبكى موكدى مولانا سلطان محمد شاه على على الله [سجده وحالة السجود] بر وكيل جملا معمور قدرخيش خشندر خبده مرده بنده سرتمه غنا غار ياشاه تونخيش بخشى هار مشكل واحسان مولانا سلطان محمد شاه على [ويرفعون من السجود البسمله] لا اله الا الله الحى القيوم الملك الحق المبين لا اله الا الله الملك الحق اليقين مالك يوم الدين العلى العظيم لا اله الا الله الحليم الكريم لا اله الا الله محمد رسول الله مولانا امير المؤمنين صحيح الله حقاً حقاً [يجاوبوه] صدوا صدقاً استغفر الله العظيم وبحمده لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين لا فتى الا على لا سيف الا ذو الفقار نادى مولانا على مظهر العجائب تجده عوناً لنا فى النوائب كل هم وغم سينجلى بولايتك ياعلى يا على [وينفخوا على اكتافهم وصدورهم] على الله صحيح الله [وبالصبح تسبيح] نجيتنا فى حضرة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم حضرة مولانا مرتضى على حضرة فاطمة الزهراء حضرة امام حسن حضرة امام حسين يا مولانا سلطان محمد شاه

علی [سجده] علی الله پیرجی پیرنجی پیر اول نبی بر محمد المصطفی صلی الله علیه وسلم پیر امام حسن پیر شـاه قاسم پیر جعفر شـاه پیر زین العابدین پیر امیر احمـد پیر سدکور نور پیر نور الدین پیر محمد المنصور پیر غالب الدین پیر عبد المجید پیر مستنصر بالله پیر احمد هادی پیر هاشم شاه پیر محمد شاه پیر محمود شله پیر محب الدین پیر خالق الدین پیر عبد المؤمنین پیر اسلام الدین پیر صالح الدین پیر صلاح الدین پیر شمس الدین پیر نصیرالدین پیر شهاب الدین پیر حیدر الدین پیر حسن کبیر الدین پیر تاج الدین پیر بندیادی مردی جوامردی پیر حیدر علی پیر علاء الدین پیر بابا آغا هاشم شاه پیر محمد زمان پیر آغا عزیز پیر آغا مهرب بیغ پیر آغا علی اکبر بیغ پیر آغا علی اصغر بیغ پیر امرزا شاه علی پیر مولانا سلطان محمد شاه علی صاحب الامر حاضر جوق یارب بحق اونده قولهقول سن بتول بخشی مراه بفاطمة تحتت الرسول «سی» غزه شهیده اولیا انبیا سنته صوصو حسین بك لك توبی هزار پیر پیغمبر یا مولانا سلطـان محمد شاه علی [سجده] بجستنباغ قی وباغ قنا دشمادن خابجتنباغ حق نام پیرشاه [عدد المسبحة وسجده] دعا نیت خیر لاهی خیر عاقبت خیر همتان خیر یا علی حو خیر اول خیر آخر خیر باطن خیر ظاهر خیر حقیقةً خیر کریم یا مولای علی وسمی شر ظالمك شهدکی شر شیطان شهدکی کریم یا مولای یا علی کریم خیـر ویاتی خیرجی شاهجی دوغام قبول کری مولانا سلطان محمد شاه علی الله میریا علی محمدکت جلهجی مشکل احسان کری صاحب ستجوکان قولقبول کری صاحبراجیه درکا بید درشاه دیدار نصیب کری صاحب شهیده یارکورجی اولادجی کلام میهر سکسه وجی صاحب اون بانجی مین بهنداو مین پرکتهوجی وصاحب قرزینیه وزلابی قرخیجنو اکار سادکری صاحبجاخ صاحب کت جلهجی وانمرا دون حاصل کری صاحب سکوسو ری کری خیـر بیداکری الله میریا علی محمدکت جلهجی ونیتی قبول کری مشکل احسـان مولانا سلطان محمـد شاه علی آلاهی آمین شاه غریب منده بفضلكم مولانا سلطان محمد شاه حق نام پیر شاه [تسبیح بعد قلب المسبحة السجده] فرمان حقکـم یا مولانا یا علی [عدد — ١٣ صلواة] اللهم صلی علی محمد وآل محمد [عدد —١٣ ویسجدوا] دعا نیت خیر آلاهی خیر عاقبت خیر همتا خیر یا علی صو خیر اول خیر آخر خیر باطن خیر ظاهر کریم یا مولای علی کریم خیر ویاتی خیرجی [سجده وحالة السجود یقولوا] شاهجی درغامه قبول کری مولانا السلطـان محمد شاه العـلی [ثم یقول الشیخ] علی الله [یقولون الجماعة] صحیـح الله . بسم الله الرحمن الرحیم مدد علی شفاعت رسول اطاعت خدا حضرة قبول بر سدکورتور نیفریاد برشی شوتی نیفریاد بر آغا علی اکبر بیـع نیفریاد بر علی اصغر نیفریاد بر مزار محمد الباقر بیـع نیفریاد وبرسی کال معطی سلامة نیفریاد بر مولانا شاه حسن علی نیفریاد بر مولانا شـاه علی شاه نیفریاد بر مولانا شاه حسن علی نیفریاد بر مولانا شاه خلیل الله علی نیفرباد بر

مولانا شاه حسن على نيفرياد بر مولانا سلطان محمد شاه على نيفرياد اين ايى كلى باق لا اله الا الله محمد رسول الله مولانا امير المؤمنين على صحيح الله حى حيـذه قايم [على كتف اليمين وعلى الشمال] شاهجى ودغامـه قبول كرى مولانا سلطان محمد شـاه على له سجودنا وهو معبودنا . انتهى .

*
* *

لم نستطع تحليل هذه الادعية التى يقرؤها الاسماعيليون فى صلواتهم والتى تنطق بكيفيه عبادتهم ولكن يتضح من تدقيقها انها تشف بمضمونها عن اسس الاسماعيليـة ، ولهذا نرى ان نشير الى هذه النقاط .

اولاً — ان « محمد على شاه » الذى يسميه الاسماعيليون «الله ميريا» هو آله فى نظرهم لانهم يسجدون كلما ذكر اسمه ، ويسمونه (صاحب الامر والزمان ، روح الوجود ، وحى معبود) .

ثانياً — ان الوهية محمد على شاه انتقلت اليه من اجداده من « على » ، ومن شيت قبله . و نحن نجد عدة سلاسل من الانساب بعـد ذكر السلسلة الاولى . ونرى فيهـا اسم « محمد المصطفى » ايضاً . ولكن السلسلة الاولى ، وما بعدها كلها تنتهى باسم محمد على شاه ثم يسجد له . وهذا يدلنا على رجحان محمد على شاه فى نظرهم على جميع من ذكر فى السلسلة . ولا بد ان يكون هذا الترجيح ناشئاً من اعتبار محمد على شاه « آلهاً مجسداً » يشغل الزمان الحالى .

ثالثاً — اذا نظرنا فى السلسلة النسبية التى تثبت ان محمد على شاه من نسل « على » ، وعلمنا شدة اهتمامهم بهذه النقطة نطلع على اهم الشروط التى يجب ارتيادهـا فى هكذا معبود هو امام فى الظاهر و« آله » فى الحقيقـة . وهذا يدلنا على ان الاختلاف بين الحجاويين والسويدانيين لم يكن فى اصل العقيدة ، بل هو فى موضع تجلى الامامـة ، او بالاوضح فى شخص « محمد على شاه » .

رابعاً — يتضح من هذا ان مذهب الاسماعيليين انقلب عن حقيقته بما طرأ عليه من التحول والتقلب . واصبح بـين شكله اليوم ، وحقيقته بالامس بون عظيم . وغدت قيمـة اسماعيل بن جعفر ، ومحمـد بن اسماعيل عبارةً عن كونهم اجداداً لمحمد على شـاه ، وممراً تخطت عليه الالوهية الى هذا المقصود بالذات .

خامساً — لم نعثر فى هذا الدعاء على السلسلة التى مر ذكرها فى القسم العمومى كالنبى النـاطق والاساس وغيرها . وهذا يدلنا على تحول العقيدة اليوم ، وعلى سقوط « الاسس والائمة » عن قيمتهم الماضية .

سادساً — ان اتجاه جميع الادعية الى صورة محمد على شاه ، وتلاوتهم كلمات « كار ، كرم ،

ولد، شرمه، واخذهم بالتصلب تجاه الصورة عينها يفصح عن امتزاج هذه التقاليد بالعقيدة المسيحية. ويرينا فيها اوصافاً تدل على «الوثنية».

وقصارى القول ان هذه الوثيقة تفصح عن ما يتمسك به الاسماعيليون اليوم من الاعتقاد المزيج، ولو تسنى لهذه الوثيقة من يطلع على لغتها، ودرست بإمعان لا جرم تحصل على الادلة الكافية التي تطلعنا على حقيقة هذه الديانة اليوم. ولا ريب في ان الزمن سيمزق هذا الغموض عن تلك الفئة المتكتمة ويظهر اسرارها المظلمة ويفضحها.

[٣] — الظاهرات الدينية — يتضح من الاجمال الذي بيناه في كيفية عادة الاسماعيليين ودعيتهم ان هذه الفرقة تفترق بهذه العبادة عن السنيين، وعن غير المتغالين من الشيعيين. وتفترق عنهما ايضاً بالعبادات الاخرى كالصوم والحج.

ويروى عنهم انهم لا يصومون في رمضان، ولا يعبأون بغيره من الصيام الذي قضت به الشرائع الاخرى. ولا يعثر بينهم على شخص حج البيت الحرام، ويؤثر عنهم انهم يعتبرون زيارة «محمد على شاه» الموجود في بومباي، تنوب مكان «الحج» ويعتقدون الثواب الجزيل في تلك الزيارة.

ثم ان كلمة الشهادة عندهم ليست على حقيقتها، بل هي محرفة. ويروى عنهم انهم يقولون (لا اله محمد رسول الله). وهذه تشف عن مقاصدهم بصورة ظاهرة.

وهم يهتمون اهتماماً عظيماً بقراءة القرآن العظيم، وتعليمه. ولا بد من وجود المصحف في منازل اكثرهم. ومع هذا فقد يؤثر عنهم انهم يهتمون بمعاني القرآن الباطنية ولا يعبأون بمدلوله الظاهري اما الزكاة؛ فانهم يتوسعون في تفسير هذه الآية القرآنية (واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى) ويعتقدون بوجوب الزكاة في جميع اموالهم، وحتى في المآكل، ويرون تفريق الخمس من جميع نفقاتهم فرضاً محتماً من اهم من جميع الفرائض. ولذلك لا يتراخون في امره وارساله الى «الشاه» ويؤثر عنهم انهم يفرقون خمس التركة بعد الوفاة، وخمس المهر، ويوصلونه الى «الشاه» ايضاً. ويوجد لديهم مجالس تتألف من وكلاء المشايخ، يرجعون اليهما في حل الاختلاف في الزكاة، ولا يألون جهداً بالاسراع في ايصال المبالغ الى «الشاه»

ولا يفترق الاسماعيليون عن السنيين في امر الزواج. وتجري عندهم قاعدة تعدد الزوجات. وتقاليدهم في النكاح تدلنا على عدم تباينه لما نعهد. ولكنهم لم يعتادوا الطلاق بل يكتفون بالهجر فقط.

وتجري لديهم عادة الختان، ويتمسكون بالعادة الاسلامية بتجهيز الميت وتكفينه ولا يعبأون بتوجيهه في حدثه الى القبلة. ولا يرون لزوماً للتلقين ايضاً.

ولهم شذوذ فى الوراثة . لانهم لا يشركون النساء والبنات فى الميراث . فاذا لم يكن للميت وراث من الرجال تصير التركة الى « الرب » اى الى الشاه . واذا مات احد ولم يوص بخمس امواله الى « الشاه » يكون الشيخ قادراً على توقيف قسم من امواله منقولة كانت او غير منقولة . ولهذا يوجد لديهم كثير من هكذا اموال موقوفة يناهز دخلها السنوى (٥٠٠) ليرة .

اما اعياد النصيريين فهى الاعياد المعروفة عند المسلمين . وعيد الاضحى عندهم اعظم شاناً من غيره . وكان لهم اعياد اقتبسوها من الفرس ، واخرى من المانويين كالنوروز . وكان من عاداتهم ايقاد النار فى هذا العيد . وايضاً كان لهم اعياد اخرى ورثوها عن الاقوام القديمة . وهى معروفة عند النصارى . منها « عيد الميلاد *Noël* » و« يوم الغطاس *Fête de l'Epiphanie* » و« يوم خميس العهد *Jeudi de Cène* » وكانوا يحتفلون فى ايام هذه الاعياد كل سنة . ولكن لم نعثر على برهان يدلنا على تمسك الاسماعيليين اليوم بهذه الاعياد وتقديسها .

[٤] — **الطعن فى الاسماعيليين وقذفهم** — كنا ذكرنا ان بعض الفرق الاسماعيلية كانت تلقن مبدأ الاباحة فى النساء ، وتصل الى درجة تحليل جميع المحرمات والمنكرات [*]. فكان من المحتم علينا ان نعلم هل اخلافهم اليوم متمسكون بتلك الضلالة القديمة ام لا ؟ ولهذا عمدنا الى القرى التى فى جوارهم وسالنا من اهلها وتقبنا عن هذه النقطة تنقيباً دقيقاً . ولكن لم نعثر على دليل ، او امارة تدل على ارتكابهم تلك الرذائل الاخلاقية ولا على برهان يؤيد ما جاء فى بحث « الاسماعيلية » فى كتاب دائرة المعارف عن شؤن ليلة « عيد البقيشة » وعن عبادتهم لما لا يذكر من اعضاء مولودة تلك الليلة الضلالية . ولهذا فقد تركنا هذا البحث ، واضربنا عن تفصيل ما جاء فيه من القول .

٤ — الاحوال الاجتماعية فى الاسماعيليين

من العبث ان نرتاد من حيث الحياة الاجتماعية اوصافاً وسجايا خاصة فى الاسماعيليين القاطنين الانحاء الشرقية والجنوبية من قضاء مرقب ، ويستحيل تفريقهم عن السنيين والمارونيين والاورتودوكس ، وحتى عن النصيريين الساكنين فى هاتيك الانحاء . لانه اذا اضربنا عن شذوذهم فى الدين لا نراهم من حيث الحياة الا عبارة عن قرويين خالصين

(*) راجع صحيفة ١٠٢

وجميع سكان هذه الانحاء على وتيرة واحدة فى المعيشة،ونسق اللباس ،وكلهم منغمس فى جهالة عمياء .

هذا وان تكن القرى التى يسكنها الاسماعيليون طيبة المناخ ،واكواخها نظيفة ولكنها لا تشذ عن الحياة الابتدائيـة بشيء. ولباسهم لا يفرق عن لباس غيرهم ، وهم يلبسون سراويل وقمصان من البز وفوقها الصدار . وفى رؤسهم العمائم ، او العصائب (حطـة) والعقل . ويوجد بينهم من يلبس الاردية الطويلة . ونساؤهم يلبسن السراويل الضيقـة الطويلة وفوقها الاردية الضافية المذيلة بالحزم . ويعصبن رؤسهن بعصابـة ، ويضعن القنع فوقها . ولهذا لا ترى لهن فرقاً عن بقية القرويات وهكذ فى وسائل العيش لا نجد فيهم فرقاً عن سائر القرويين . لانهم اما يشتغلون بزرع الحبوب او التبغ ، او بغرس اشجـار الزيتون او بتربية دود القز .

وقصارى القول انهم لا يمتازون عن غيرهم الا بصحائفهم الدموية ، واجسامهم القوية وطلعتهم الجميلة . واذا فكرنا بان قد بلغ فيهم العمى العامى والضلال الحياتى الى درجـة اهوى بهم فى غيابة الوثنية ، يحصل لدينا فكر اجمالى بما يجب ان يكون لهم من الموقع فى الحياة الاجتماعية .

ثم وان كان بعض الاسماعيليين منفصلاً بعقيدته عن بعضهم ، ويتظاهر بالقيـام ببعض الفرائض السنية ، ولكن لا نحتاج الى تعميق الفكر لاجل الاطلاع على الاتحـاد الروحى الذى غرست فى نسلهم تلك الشنشنة الغابرة .

وهؤلاء الذين لا يزالون يخوضون فى واد خاص بهم من الافكار والميول وانحـازوا بكتمانهم الاسود عن جميع من فى جوارهم من طبقات البشر ، لا تراهم يحبون احـداً ، ولا يرقبون الاً ولا ذمة . ولهذا فلا يرون من مجاوريهم الا عدم الاهتمام وعدم الرعاية .

وان هذه الطبقة الاجتماعية ، بل هذه الشرزمة البشرية الغريبة ، التى انغمس كبيرها وصغيرها فى قروية ساذجة داجية تتألف من ثلة من الاجسام ، وطبقة من العضلات بصورة يكون من العبث ان نرتاد فيهـا الزمر والاقسام ، والفروق والشذوذ مع ما هى فيـه من الوحدة الوصفية والجسمية .

هذا وان وجد فى الحجاويـين المشايخ ووكلاء المشايخ ، ومثلهم فى السويدانيـين من الاغنياء الذين لا يتجاوزون فى عددهم (١٠—١٥) شخصاً ممن لا يثبطهم شئ عن المثابرة على استثمار اولئك الناس المحرومين من كل هدى ونور ، على ما تقتضيه اهواؤهم . ولكنهم ليسوا الا جزؤ قاتم ظهر فى ذلك الكل الدجوجى .

ولهذا يتحتم على هؤلاء المساكين ان يعلموا درجة انحطاطهم ، وحاجتهم الى العلم والنور بما فى ايديهم من تلك السكك القديمة الغليظة . وبما فى ادمغتهم من العقائد السقيمة الصدئة

ليتسنى لهم ان يكونوا تماثيل انسانية وادمغة مفكرة منارة بشموس المدنية تسعى وراء وسائل الحياة التى لا تزال تامعة في الآفاق المنفسحة . والا فليعلموا ان الطبيعة تنفذ عدلها بالظلم ، وتطوح بهم الى المهاوى التى يهوى فيها كل من لا يملك حق الحياة .

— امانك اللهم ، ما افظع ذلك السقوط . . . وما ادهشه ! ماذا عليهم لو فكروا ، . . .

نعم ماذا عليهم ؟ . . .

—١٨—

من بانياس الى جبله

ان ايامنا الغر فى « بانياس » التى كانها صيفية فى حضن البحر الازرق كانت زمن استراحة وسكون فى تاريخ سفرنا . ولشدة ما تكبدناه من انواع الحرمان منذ شروعنا فى السفر ، الفينا هذه القصبة النشيطة الظريفة ، متناهية فى اللطافة بمائها النقى وخضرتها الناضرة .

لاسيما وقد لقينا فيها من حسن الوفادة والقبول ما زحزح عنا الهموم واجتذبنا لحب هذه القصبة التى كشطت عن نفوسنا وعثاء السفر .

ولا جرم انها قصبة لطيفة شائقة . ولاسيما الليلة الاخيرة التى مرت علينا فيها فقد خلدت فى خاطرتنا اعذب الذكرى . وشهدنا فيها صحيفة غراء من صحائف الشرق الحية .

كنا فى ليلة من الصيف ثقيلة مسعرة ، ولا اثر فيها لما اعتاد ان يبعثه البحر الذى تغلغل فى الابعاد المجهولة من النفحة لعليلة . ولا محرك لذلك السكون السائد . ولم ادر الى اى الآفاق ارسل القمر نوره فى هذه الليلة . وليس فوقنا الا السماء الرفيعة تبرق فى كبدها الكواكب النيرة . ولا من صوت يمزق ذلك السكون الهادئ الرهيب الا خرير ينابيع بانياس التى غدت تأز بصوت خنقه البعد .

وما كاد يقال لنا :

— هل لكم ، الى ان نذهب هذا المساء الى الينابيع ؟

الا وقلنا :

— نعم الرأى ، فلعلنا ننشق شمة من هواء ، او نرطب ارواحنا بما هنالك من نسيم الينابيع البليل .

ها نحن نمشى الهوينا فى طرق بانياس وامامنا المصابيح . وقامت على ايماننا وشمائلنا البساتين باشجارها ، ولم يزل خرير الماء ينطبع على صماخنا ، تمتزج به حزمة من اصوات

الصراصر الزفيمة .

كنا نطيء ذلك النور الضئيل ونمشي مستصحبين وجهاء بانياس وقحمة الليل تكمّ من بصرنا ، والهواء او بالاصح عدم الهواء لا يزال يتثاقل على ارواحنا .

وما لبثنا ان وصلنا الى الينبوع . ورأينا هناك اكثر رجال بانياس جالسين على الحصائر المفروشة على ضفتي الماء . وامام كل واحد منهم نارجيلة يقرقر بها ، ويجهد لان يزيح عنه وطئه تلك الليلة المسعرة . ولا يفتأون يدلون بايديهم الى الماء ويغترفون منه ويشربون .

. . . كنا قافلين بعد ان جرعنا شيئاً من الرطوبة تحت انوار تلك الكواكب اللامعة ، وفكرنا مشغول بهؤلاء القوم الذين قنعوا بما افاضته عليهم الطبيعة ، وكدنا نغبطهم على سعادتهم بقبول ما تيسر من الحياة .

كنا نتسرب بين نسيج الشجر في ظل نور المصابيح ، واندفع من كبد الروضة صوت مطرب . واخذ يرتل كلمة :

— يا ليل ، يا ليل . . . .

وكان هذا الصوت الجهوري يمد فوق هدؤ الليل امواجاً ملؤها الانس والطرب . هذه ايامنا في بانياس قد انتهت . وها نحن نستسلم الى سلطان النوم ولا يزال ذلك الصوت الرنان يمزق بامواجه حجب الظلام ، ويتحف صماخنا بنغمة تهيء لنا طيب الرقاد .

*
* *

استيقظنا صباح الغد ، بعد ما خضبت الشمس تيجان الاشجار ، ومرآت البحر بضيائها الذهبي . وما كنا مسرعين في الرحلة . لان جبلة التي قامت على اقصى ذلك القوس البحري ، ولاحت كانها ظل اخضر . لم تكن شاسعة في البعد . ولاسيما المسافة التي يجب قطعها ما كانت عسرة .

تريثنا مدة ثم امتطينا الجياد وغادرنا منازل بانياس البيضاء البسامة . وكان سفرنا هذا بمثابة تجول صبحي .

وكان عن يسارنا بحر رائق ، هادىء ، وعن يميننا افق شاحط وطريقنا من رمل نقي وبلغ سرورنا بهذه الغدوة اللطيفة الى درجة جعلتنا نتمنى امتداد السير مدةً طويلة . وسرنا نماشي الساحل ، فتارة ندوس بسنابك الخيل رؤس الامواج ، واخرى نعطف الى الداخل ونمعن في الارقال متقربين من قرية « عرب الملك » التي قامت امامنا كروضة خضراء

وبعد ساعة وصلنا الى نهر « الجوبر » . وكان الوقت يرمض السحاب ، ثم سرنا ساعة اخرى . وها نحن ندخل قرية (عرب الملك) بينما كانت بانياس تلوح ورائنا كانها ظل ممزوج بالبياض والخضار .

ووصلنا بعد هذه القصبة التي تبتسم برياضها الغناء ، الى نهر سماه المؤرخ استرابون

« باداس » *Badas* ويسمى الآن « نهر السن » او « نهر الملك » . وبعد ان فارقنا هذا النهر بساعة وصلنا الى هضبة تسمى « تل السوكاس » . ولم يزل طريقنا محتفظاً بنسقه ، وربما كنا نمر من بين الحقول المزروعة عن يميننا وشمالنا

وبعد ثلاث ساعات ونصف من مغادرتنا بانياس ، عرضت امام انظارنا قصبة « جبله » وما لبثنا ان قطعنا جدول « عين البرغل » الا وانجلت امامنا بوضوح كامل . وبعد مرتقى قصير قطعناه بمدة وجيزة دخلنا جبلة وفى انظارنا لمعة واضحة تشف عن ارتياحنا لهذه السفرة اللطيفة وسرورنا بها .

— ١٩ —

جبله

١ — موقع القضاء وحدوده

ان هذا القضاء الكائن فى الناحية الجنوبية من مركز اللواء ، شمال قضاء مرقب ، يحده من الشرق قضاء صهيون ومن الغرب البحر الأبيض .

٢ — المساحة والسكان والاحوال الادارية

ان مساحة هذا القضاء بالنظر الى القيود الرسمية هى (٩٢٠٬٠٠٠) دونم منها (٢٦٠٠٠٠) دونم من الاراضى الصالحة للزراعة . و (١٥٠٠٠) دونم من الاراضى الموات . و (١٥٠٠٠) دونم ايضاً من الاحراج ومقدار الاراضى الاميرية يبلغ (٢٤٥،٠٠٠) دونم . والمضبوط من الاراضى الموقوفة يناهز (١٤٤٬٠٠٠) دونم منها (٦٠٠) مربوطة بالاجارتين .

اما عدد سكان جبله الذين اشتهروا فى جميع انحاء الولاية بخشونة الطبع . هو على ما يأتى :

المسلمون	٥٠٩٧
النصيريون	٢٣٤٥٣
الاروام	١٠١
يكون	٢٨٦٥١

وعدد لدات هذا القضاء كان (٤) سنة ١٣٢٨ و (١٩٩) سنة ١٣٣٠ و (١٠١) سنة

١٣٣٢ . اما الوفيات فكانت فى هذه السنين الثلاث (٢٩٤٠ و١٩٨ و٢٨٥) نسمة . وكان بين هذه الولادات (٦٣٨) وبين الوفيات (٣٢٣) نسمة من المسلمين ولهذا تكون تلك القيود الرسمية منحصرة فى الطائفة الاسلامية التى تحتل بخشونة سكان هذا القضاء . اما لعدد الولادات والوفيات فى النصيريين الذين هم فى معزل عن سيطرة الحكومة وقدرتها والذين يشكلون (٨٥) فى المائة بين عموم السكان ، لا جرم هو اعظم بكثير مما ضبطته القيود الرسمية وترى فى كل قضاء من اقضية الولاية زيادة فى السكان فى السنين العشر لا يقل مقدارها السنوى عن بضع آلاف من النسمات رغماً عن الاهمال ، وما هنالك من عدم الاعتناء بالشروط الصحية والاجتماعية. ولكن الامر فى قضاء جبله على عكس ذلك لان عدد سكانه سنة (١٣٢٦) كان كما حرر فى تقويم الولاية (٣٠١٩٨) نسمة ، ثم انقلب هذا العدد سنة (١٣٣٢) الى (٢٨٦٥١) نسمة . وهذا من الالغاز التى لا يستطيع حلها الرياضيون . لاسيما وان المهاجرة التى تفشت فى انحاء بانياس وطرطوس لم يكن لهذا القضاء منها نصيب يذكر .

ولا يوجد اثر للناحيات فى هذا القضاء . ولا جرم ان اهمال امر النصيريين الذين لا يفتأون يجاهرون السلطة العامة بالعصيان ويأبون اداء الضرائب وايفاء الجندية . لاينطبق على حكمة الحكومة البتة .

واول ما يتحتم علينا هو تأمين الامن ، وتقرير الانتظام فى تلك الاصقاع الجبلية التى تركت محرومةً من الآثار النافعة ، والمعاهد العلمية والعمرانية منذ قرون متعددة . وهذا السبب الذى جعل الاحوال العمومية فى هذا القضاء بعيدة عن كل صلاح وسكينة . وان النجاح فى ما يجب التذرع به من الوسائل لتزييد الغلال الزراعية ، وتحسين نوعها يتوقف على تأمين الامن وتقرير الانتظام .

فكم من الاراضى الصالحة للزرع فى هذا القضاء لا تزال بوراً بسبب جور اولئك الاشقياء الجبليين وطغيانهم . وترى اكثر الاغنياء فى جبلة يضطرون الى بذل العطايا الوفرة الى متغلبة النصيريين ، ويلوذون بظل قدرتهم العمياء ليتسنى لهم الحصول على مزروعاتهم ، او لكى لا يصيبهم كيد اولئك الظالمين . فهل يليق بنا اهمال هذا الامر الوبيل ، الذى يذكرنا بالاجيال المتوسطة .

وترى الآراء متضاربةً بخصوص الوسائل التى يجب التذرع بها لحل هذه المعضلة الاجتماعية . فمنهم من يقول ان هؤلاء الجبليين الذين وافقت مناعة جبالهم خشونة طباعهم فاوغلوا فى البغى والطغيان ، واصبحوا بعيدين عن قبول الانتظام والضبط يجب تبديلهم بقوم مفطورين على الهدو والسكينة . ثم يقول اناس ممن لهم رابطة بهذه الاحوال ، بوجوب تشكيل ناحيات فى بنى على والقراحلة والكلبية والسمت القبلى ، ليتسنى بها للحكومة ان تنفذ بسطوتها الى اعماق هذه الجبال وتضرب على ايدى اولئك الطغاة . ولدينا ان هذه

الوسائل الا ترضى الذين يرتادون سلامة الوطن وسعادته، ويطلبون تواليه وترقيه الزراعى والاقتصادى، ولا يوصلنا الى هذه الغاية السعيدة صرف بضع مئات من القروش فى كل شهر ، وتأسيس النواحى فى تلك الشعوب الجبلية التى ملئت بالشقاوة .

وقبل بضع سنين بوشر بتشكيل ناحية فى جهة الكلبية ، فثار الجبليون هنالك وابوا على الحكومة هذا العمل فاضطرت الى صرف النظر عنه بعد ما اعدت المدير وارسلته . وان الوسيلة الوحيدة لتخليص هؤلاء الجبليين من هذا المرض الاجتماعى ، هو تمهيد الطرق وتأسيس المدارس . فالطرق توصل القروى الى انحاء الساحل فيحتك بسكانه الهادئين ، ويشاهد ما لديهم من الانتظام الحياتى ، ويتمكن من بيع غلاله بقيمة عالية ويرى الارباح العظيمة فيشرع بتقدير قيمة الحياة . ثم اذا تذرعت الحكومة بالوسائل التى تردع افراد الدرك « ژاندارمه » عما اعتادوا على ارتكابه من الظلم والجور . فلا يلبث الجبليون برهة وجيزة الا و يتركون سلاحهم ، ويسلكون طريق الهداية والصواب . ثم ان تأسيس مدارس داخلية فى انحاء بنى على والكلبية والقرداحة . بشرط ان تكون كافة لوازم التدريس متوفرة فيها لا جرم تأتى بفائدة عظيمة . وهكذا فعلت حكومة الروس فى تمدين القبائل الوحشية الساكنة فى الانحاء الشرقية من بلادها فانها قابلتهم بالمدارس قبل كل شئ . و قتطفت ثمرة مهمة . ويبعد عن القروى الذى يقدر منافعه ، ويعلم انه يستفيد من رقى بلاده ان يخل بانتظامها او يعبث بامنيتها وسكونها . فتأسيس المدارس فى الاصقاع التى سبلت عليها ظلمات الجهل ، هو بمثابة انارتها بمصابيح الارشاد والهداية .

ومركز القضاء هو فى قصبة جبله الواقعة على ساحل البحر فى الجنوب الشرقى من اللاذقية على بعد (٢٠) كيلومتراً ، والكائنة على (٣٥،٢١) درجة من العرض الشمالى و(٣٣،٣٧) درجة من الطول الشرقى . وهى مبنية فى مرتفع يصل البحر بسهل منبت طوله ست ساعات وعرضه ساعة ونصف . وهى طيبة الماء وجيدة الهواء .

وهذه القصبة التى قامت على انقاض بلدة (كيلا) الفنيقية و سميت لدى القدماء « غابالوم *Gabalum* » . اسسها جوستينيانوس قيصر البيزانطيين مع كثير غيرها من البلاد السورية . وفتحها « عبادة بن صامت » [*] الذى وجه ابو عبيدة بن الجراح « رضى الله عنه » بفتحها سنة (١٧) هجرية .

(*) هو ابو الوليد عبادة بن صامت الخزرجى من اعيان الصحابة ، ومن حفاظ القرآن فى عصر السعادة حضر الشام بعد ان فتحت فى عهد الفاروق ، ومعه معاذ بن جبل وابو الدرداء ليعلموا القرآن للناس . وذهب الى انحاء حمص ، ثم رجع الى فلسطين . وقد اغضبه معاوية فرجع الى المدينة ، ولكن ما لبث عمر رضى الله عنه ان رده الى الشام وارسل كتابا الى معاوية قائلاً (ليس لك من سلطان على عبادة بن صامت) ثم توفى سنة (٣٤) هجرية فى الرملة او فى القدس .

ثم استردها الاروام سنة (٣٥٧ هـ — ٩٦٩ م) . ولم يلبث ان تخلصها منهم (ابن ضليعة التنوخي) قاضي جبلة سنة (٦٨٣) . وعاود الصليبيون عليها الكرة سنة (١٠٩٩) ميلادية فدخلتها جنودهم في قيادة « بوهه موند » حاكم تارانت ، و « ره يموند الرابع » حاكم طولوز وكانت يومئذ تسمى « Zibel » . ولما فتحها صلاح الدين الايوبي سنة (١١٨٩ م) كانت في ادارة فرسان هوسپتياليه . ويوجد في الجانب الشمالي منها مسرح للتمثيل من آثار الرومانيين لا تزال له بقية ، وقد حوله الصليبيون الى قلعة حصينة . ولا اثر اليوم لبروج الملمة . وقد سورها الصليبيون بسور يشبه سور طرطوس مبني بحجارة كبيرة ولكن قضى عليه مرور الايام بالخراب . والمرفأ الصغير الذي اوجده الرومانيون وبنوا في مدخله برجاً لحمايته هو اليوم مردوم بالرمل اكثر من نصفه . ويوجد في هذه القصبة مزار السلطان ابراهيم بن ادهم وجامعه . وقد جاء في قاموس الاعلام عنه [انه كان من اولياء القرن الثالث الهجري ، وهو ابن احد الملوك في (بلخ) ، وبينما كان ذات يوم يركض وراء الصيد سمع هاتفاً من ورائه يقول [ألهذا خلقت ؟ ...] ، وعلى رواية اخرى انه رأى رؤيا اشعرته بالزهد وترك الدنيا ، فغادر قصور ابيه وهام على وجهه وراض نفسه بالعبادة في الجبال والكهوف مدة ثم قصد مكة ولبث فيها برهة يصحب الائمة والاولياء ثم قفل الى الشام وبقي هناك الى آخر عمره حتى توفاه الموت سنة « ٢٦١ » هجرية . وقد تضاربت الروايات بشأنه ، حتى عسر انتقاء صحيحها . وقد اكتفينا بهذا المقدار منها . ولا ريب في انه كان من الصالحين الذين ضرب المثل بزهدهم] .

٣ — الاحوال الطبيعية في القضاء

ان اراضي هذا القضاء تتألف من بعض جبال النصيرية ، ومن السهول الممتدة على طول الساحل . وهي خصبة منبتة . وثلاثة اخماس هذه الاراضي عبارة عن الوعور الجبلية وخمساه عبارة عن السهول البحتة . وارتفاع جبال النصيرية التي تمتد من الشمال الى الجنوب يتراوح بين « ٥٠٠ و٦٠٠ » متراً واعلى نقطة فيها تبلغ (١٠٠٠) متر في جبال النصيرة . وربما يبلغ ثخن طبقة الثلج الذي يسقط على النقاط المرتفعة فيه الى « ٢٠ » سانتيمتراً . ويوجد في القضاء « نهر السن » المعروف بوفرة مياهه والذي يفصل القضاء عن قضاء مرقب . ويوجد في الناحية الجنوبية من مركز القضاء جدول « برغل » و « جوبر » ، وفي الجهة الشمالية جدول « الرميلي » و « العثمانية » . ولا اثر هنا للمستنقعات التي توجد في انحاء طرطوس وترهق سكانها الضرر العميم .

٤ — الاموال العمومية في القضاء

ان سهل جبلة الذى هو من اخصب البقاع فى لواء اللاذقية تبلغ مساحته مع سفوح الجبال « ٢٥٠٠٠٠ » دونم ، ورغماً عن اتساعه بهذه الدرجة ، ووجود المياه التى تقدم بارووائه لا يزرع الا خمساه فقط . وسبب ذلك هو سقامة الاصول فى التملك ، لان جميع هذه الاراضى الخصبة تملكها اسرة واحدة . ويستحيل على هذه الاسرة رغماً عن غنائها ان تستطيع اعمار جميع هذه الاراضى ، ولاسيما بتلك الآلات الزراعية السقيمة التى تستعمل الآن . ومن المحتم ان تحكم على عقامة الزراعة ، وعدم الاستفادة من تلك الاراضى الخصبة ما دام اصحاب الاملاك عبارة عن افراد معدودة ، لا يدركون منافع الاصول الفنية فى الزراعة .

ويحصل فى هذا القضاء من الحبوب القمح والشعير والذرة ، ولاسيما التبغ والتنباك . وزرع فى السنة السالفة مقدار (٥٠٠) دونماً من التبغ و(٣٠٠٠) من التنباك . وكان محصول الاول (١٥٠٠) والثانى (٨٠٠) قنطاراً . وقد بيع فى السنة الماضية كل قنطار من التنباك بثلاثة الاف غرشاً دراهم نقدية بعد ما كان يتراوح ثمنه فى السنين السالفة بين (٨٠٠ و١٢٠٠) غرشا . وقد بيع سنة ١٣٣٣ كل قنطار من التبغ بثلاثة آلاف غرشاً دراهم نقدية . وينقسم التبغ الذى يزرع فى هذا القضاء الى نوعين (حسن كيف) و(مشروب). اما نوع (حسن كيف) فانه يكون شديد الحدة . وكان قبل الحرب يساق برمته الى مصر ويباع قنطاره بالفى غرش وقنطار المشروب بثلاثة آلاف اما اليوم فان ادارة الدخان « الرژى » تبتاع جميع المحصول ، وتعمل منه السجاير فى معمل حلب والشام.

وتجارة التبغ كادت ان تنحصر فى النصيريين الذين يقوون على شرطة التبغ (قوبلجى) . ويكثر الاتجار بالتنباك بين المسلمين المقيمين فى جبلة . ويزرع التبغ فى انحاء الجبال لانه لا يحتاج الى السقى كالتنباك .

ويدعى بوثوق ان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة يناهز النصف فى سكان مركز القضاء ، اما فى القرى فلا يتجاوز اثنين فى المائة . والمدارس الموجودة فى هذا القضاء لا تقوم بالحاجة فى تعميم المعارف والعلوم الابتدائية بين هؤلاء القوم الجاهلين. وعليه فمدرستا الذكور ومدرسة الاناث الموجودة فى مركز القضاء ، ثم المدرستان الموجودتان فى القرى لن تكون كافية لتعليم سكان القضاء الذين اناخ عليهم الجهل منذ قرون عديدة . واساسنا اليوم فى المعارف ايضاً لا تكفى لسد العوز ، وتخليص هؤلاء القوم الجاهلين من مخالب الجهل الفاتك .

٥ — المحصولات الزراعية فى القضاء

ان الغلال الزراعية على الحد المتوسط فى قضاء جبله هى على الوجه الآتى :

جنس الغلال	كيلة
القمح	٩٦٠،٠٠٠
الشعير	٢٨٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٩٠،٠٠٠
الذرة الصفراء	٥،٠٠٠
الحمص	٦٠،٠٠٠
السمسم	٢٠،٠٠٠
العدس	١٠،٠٠٠
الجلبان	١٠،٠٠٠

٦ — منظر جبله وضواحيها وخطوطها الداخلية

ان قصبة جبله التى تمتد من الشمال الى الجنوب على ساحل البحر الابيض محاطة من الشمال بانقاض قلعة قديمة وحقول مستوية ، ومقبرة ثم الجامع الذى يسمونه « السيد ابراهيم ادهم » ومن ورائه بساتين الفواكه ، ثم منبع « ابراهيم ادهم » ؛ ومن جهة الشرق بحقول سهلة تمتد مسافة ساعتين ، ومن الجنوب بالبساتين ايضاً ، وبمقبرة ثم من ورائها السهول التى تمتد الى بانياس ، ومن الغرب بالبساتين والبحر .

وهذه القصبة التى يبلغ طولها من الشمال الى الجنوب كيلومتراً ، وعرضها من الغرب الى الشرق نصف كيلومتر قائمة فى منتصف ارض فسيحة ولهذا كانت جهاتها الاربع مفسوحاً عنها . فهى تطل من جهة الشرق على جبال النصيرية ومن الشمال على جبال « صهيون » وذروة « جبل الاقرع » ، ومن الجنوب على قلعة « مرقب » وجبال ضنيــة ، ومن الغرب الشمالى على قصبة اللاذقية .

وهى ببيوتها التى تناهز الالف منقسمة الى محلتين مهمتــين . « المحلة القبليــة » او « محلة الجامع » فى الجنوب ؛ و « محلة الشمالية » و « الصايدة » فى الشمال .

ويوجد فى هذه القصبة جامعان جامع « السيد ابراهيم » و « المنصورى » . والثانى منهما قائم فى منتصف القصبة يفصل المحلتين عن بعضهما . ثم يوجد فيها من المساجد : مسجد « القنطارى » و « بنى على اديب » و « الغزالى » و « الاكراد » .

ثم اذا اضفنا لهذه البنايات ، دائرة الحكومة الكائنة فى الجهة الشمالية وبضعة منازل لوجوه هذه القصبة ، يتضح لنا مجمل عمرانها وسم بنائها . وهذه المبانى كلها على النسق القديم ، الا بضعة منازل منها بنيت على الطراز الحديث ، بسطوح قرميدية . وجميع هذه الابنية مشيدة بالحجارة وسطوحها مطليه بالمدسة ، وهى عبارة عن مزيج من الكلس والرمل والحصباء تطلى به تلك السطوح ثم ترص . ولهذا ظهرت تلك القصبة بمنظر ابيض .

ويوجد فيها مقدار مائة دكان . ومعظمها فى المحلة الشمالية . ولكن هذه الاوكان التجارية هى على شكل ساذج بسيط .

اما طرقها الخارجية فيوجد فى شمالها طريق اللاذقية الذى يبدأ من امام دار الحكومة ويتجه الى الشمال . وطريق بانياس الذى يتجه الى الجنوب ثم طريق حما الذى يتجه الى الشرق . وتوجد داخل القصبة طرق عديدة ولكنها ضيقة ، وغير متنظمة ، وهى مسرب لجميع المياه الوسخة وتتكم فيها كوم الاوساخ ، وتربض فى اكنافها الحيوانات والمواشى . ولهذا لا يسوغ لنا ان نسميها طرقاً . وان هذه الطرق التى جعلت جبلة مركزاً للعفونة والاوساخ هى لا جرم من اكبر المشينات لهذه القصبة . مع ان لها رياضاً ناضرة تحيط بها من الشمال والجنوب والغرب . وعددها يناهز العشرين . وكلها نظيفة لطيفة .

اما ماء القصبة فانه ينقسم الى قسمين ، الاول الماء الجارى . ومنه « نبع الفوار » و «نبع البركه » و « نبع الجباب » ، وهذه الينابيع تنبع من شرقى القصبة بعشر دقايق . وتتحد قريباً منها وتمر من البساتين الشمالية ، ويمر فرع منها بجامع السلطان ابراهيم ، وبحمام القصبة ثم يصب فى البحر .

ويوجد فى الجهة الجنوبية من القصبة « نبع القاموع » و « عين ام عيسى » . وهذان يمران على بعض البساتين ويصبان فى البحر ايضاً . ويوجد فى الجانب الشمالى على بعد يسير منها « ماء الخرخار » و « ماء النفعه » وهما يمران بالبساتين ايضاً ثم يعطفان على نهر « الرميلى » الواقع فى شمال القصبة بمسافة ربع الساعة ويصبان فيه . وبهذا تكون جميع المياه الجارية فى جبلة خارجة عن البلدة . ولا يستفاد منها الا باسقاء البساتين وتدوير الطواحين

اما القسم الثانى من مياهها فهى غير الجارية . وكل المياه التى يستعملها سكان القصبة هى من هذا النوع . فيوجد فى كل بيت بئر يتراوح عمقه بين (١٠—١٢) متراً . ومياه هذه الآبار عذبة صالحة للشرب والاستعمال . ولهذا فان هذه القصبة سعيدة بتلك النعمة الحيوية .

*
**

ونقول قبل اتمام هذا البحث ، ان لهذه القصبة التى سماها الاقدمون *Gabala* ، من المقاصف الطبيعية ما يكون تمثالاً للطافة لو تسنى له قليل من سعى . فرأس البساتين فى

الشرق وبيد الإنزر » و « صالح » في الجنوب . و « الميدان » على ساحل البحر كلها من المحلات التي تكون ضرة في جبين هذه القصبة لو ان لها يداً عاملة .

٧ — الاحوال الاجتماعية

[١] — الاحوال الاجتماعية في جبلة — ان جميع سكان هذه القصبة من المسلمين وعددهم يناهز (٥٠٠٠) نسمة . ويمكن تقسيمهم من حيث الحياة الاجتماعية الى ثلاث طبقات :

فالطبقة الاولى تتألف من اسرتين يبلغ عدد افرادها الى « ٢٠٠ » نسمة . ويروى انهما حلبيون . ويوجد بين هاتين العائلتين اللتين تشتغلان بالتجارة والزراعة . بعض افراد لهم من الثروة ما يقدر بخمسين الف ليرة . ولاسيما الاسرة الاولى ، فان املاكها تمتد على طول الساحل من قرية « حماميم » الكائنة في الجهة الشمالية على بعد ساعة من جبلة الى قرية (حريصون) الكائنة على بعد ساعة من بانياس . وعلى هذا تكون الاراضي التي تملكها هذه الاسرة عبارة عن « ٧٠ » في المأة من عموم اراضي القضاء الصالحة للزرع . ويروى ان هذه الاسرة لم تكن غنية الى هذه الدرجة من قبل . ولكنها حصلت عليه منذ تولت اوقاف السلطان ابراهيم . على اننا لم نعثر على البراهين التي تؤيد صحة هذه الدعوى اما الاسرة الثانية ، فمنها اناس تناهز ثروتهم (١٠،٠٠٠) ليرة . والاراضي التي في عهدتها تشغل (١٠—١٥) في المأة من مجموع اراضي القضاء الصالحة للزرع .

وكل من افراد هاتين العائلتين يرتدي الرداء العلمي . واكثرهم درسوا العلوم الابتدائية في المدارس الاهلية ، وبعضهم متخرج في مدرسة الازهر . ولهذا فان جميع رجالهم يعرفون القراءة والكتابة . اما نساؤهم فلا حظ لهن منها . ولهذه الطبقة تمسك شديد في الدين ، وعيشتهم بسيطة . ويعرفون بالزهد والتقوى والعفة والجنوح الى السلم . ولهذا السبب لا يظلمون المزارعين والقرويين رغماً عما في ايديهم من الاراضي الفسيحة ، ولا يؤثر عنهم ايقاع الفساد ، وارتكاب التزوير في القضاء . وهذا الدين والسلم في هؤلاء الذين شذوا عن سائر المتمولين في الاقضية الاخرى لا يبعد ان يكون سبباً عن خشونة طباع القرويين هنا . لان جميع سكان هذه الديار من النصيريين الذين عادوا على الاعتصام بالجبال ، ولا جرم انهم لا يخضعون لسلطة هذه الفئة الحليمة العالمة . ولهذا نرى ارباب اليسار هنا مهضومي الحقوق في اكثر الاحيان . وهؤلاء المتمولون الذين لا يهمهم الا الاستحواذ على الاراضي الواسعة لا يريدون ان يفتكروا هل عندهم قوة تمكنهم من ادارة تلك الاراضي

ام لا ؟ وهم لا يستطيعون زرع جميع هذه الاراضي ، ولا يقتدرون على اتقان القسم الذي يزرعونه منها . ولهذا لا تزال تبور الاراضي من جهة ، وتفوتهم الاستفادة الكاملة من جهة اخرى . فتسرق نصف غلالهم قبل ان يعلموا مقدارها ، ثم تذهبها الشركاء على بيادرها ، ويأخذون منها لاجرة الدراسة ورعي الماشية ، واجر الحراثة وغيرها من وسائل النهب حتى لا يكاد يحصل رب الملك الا على اليسير منها . وهؤلاء يجتنبون اغضاب النصيريين ، ويخشون ان يثيروا اطماعهم لدرجة يرون فيها الاكتفاء بما يحصل لهم نعمة ضافية ، لانهم مستيقنون بان لو حركوا غضب النصيريين لآل امر ملكهم الى الزوال او الى الاغتصاب والخراب وقصارى القول ان الاراضي التي تملكها هذه الطبقة ما هي الا مأكلة لعشيرة بني علي من قبيلة « الحدادين » النصيرية .

ولبعض منسوبي هذه الطبقة في جبله منازل فخمة تناهت في العظمة تقدر قيمتها بعشرات الالوف من الليرات . منقسمة الى قسمين يختص احدها بالنساء ، والثاني بالرجال . ولهذا لا تزال ابوابها مفتحة للضيوف والزائرين . لاسيما في الليل فانها تكون اندية تجتمع فيها اغنياء القصبة ووجوهها .

اما الطبقة الثانية فهي عبارة عن المتوسطين ويبلغ عددهم الى (٢٥٠ — ٣٠٠) نسمة فيهم خمسون من الرجال . وهم يشتغلون بزرع التبغ والتنباك و لتاجرة بهما ، وبعضهم يشتغل بالاخذ والاعطاء في حوانيت خاصة . ومقدار الاراضي التي يزرعها افراد هذه الطبقة لا تجاوز عشر الاراضي المزروعة في القضاء . وثلاثون او اربعون في المائة من هؤلاء يعلمون القراءة والكتابة بدرجة بسيطة . اما نساؤهم فلا حظ لهن منها . وهؤلاء ايضاً لهم النصيب الاوفى من القناعة والجنوح الى السلم كارباب الطبقة الاولى . ولكنهم اشد امساكاً وايبس يداً منهم . ودأبهم الحلول في افراد الطبقة الاولى والحصول بهذه الواسطة على الميزة وسمو الموقع .

اما الطبقة الثالثة ، فهي السواد الاعظم في هذه القصبة . وعدد افرادها يقرب من (٤٥٠٠) نسمة . وهؤلاء يحصلون على عيشهم بكد يمينهم . واكثرهم يشتغل بالزراعة والحراثة . وهم من الجهل والذلة والكسل والفاقة في درجة لا تخفى على كل من رآهم لانها مرسومة على صحائفهم ونواصيهم بصورة واضحة . وهذه الفئة التي جعلت داخل البلدة منغمساً بالوساخة والقذارة هي في الدركة السفلى من سوء العيش والحياة . ولا يعثر بينهم على خمسة في المائة ممن يعرف القراءة والكتابة . وقصارى القول ان الحياة الاجتماعية في هذه القصبة هي على اسوأ ما يكون من الحال من حيث المجموع . ولا تناسب بين هؤلاء القوم لانهم اما مفرطون في الغناء ، او مدقعون في الفقر . ولكنهم يتساوون بالتألم من الحياة والتظاهر بعدم الرضاء بها .

[٣] ـــ الاحوال الاجتماعية فى قضاء جبلة ـــ بما ان جميع سكان هذا القضاء هم من النصيريين ، يمكننا ان نعتبره بقعة نصيرية . فاذا اضربنا عن القيود الرسمية وقدرنا عددهم على وجه تقريبي نجده يبلغ (٣٥٠٠٠) نسمة . ويظهر لنا صدق هذا التقدير اذا فكرنا بعدد النصيريين الذين لم تدخل اسماؤهم فى القيود الرسمية ، واطلعنا على حسابهم باعتبار انقسام عشائرهم .

يمكننا ان نقسم النصيريين القاطنين فى قضاء جبله من حيث العشائر الى ثمانية اقسام . وها نحن نذكر كل واحد منهم مع بيان عدد نسماته :

« نصيريو جبله »

عشيرة بنى على « من الحدادين »	—	٤,٠٠٠
« القراحلة « الشراقة والغرابة »	—	٨,٠٠٠
« بيت نميلى	—	١,٠٠٠
« بيت ساطر	—	٥٠٠
« الكلبية « فى الساحل وجبال الكلبية »	—	٨,٠٠٠
« النواصره	—	٤,٠٠٠
« حلة مرمينو	—	١,٠٠٠
« الخياطين	—	٧,٠٠٠
يكون		٣٣,٥٠٠

وهذه العشائر تعيش مختلطة ايام السلم وتفترق ابان اختصامها . وسكان الساحل منهم فيهم يسير من اللين والانسية . اما سكان الجبال فهم غليظو الطباع اشداء متمردون . واقربهم الى الغضب والحدة ، واطيشهم واسرعهم الى الخصام والجدال هى عشيرة « النواصرة » . وهذه العشيرة ترهب جميع عشائر القضاء ما عدا سكان المركز . وتروى عن افراد هذه العشيرة الروايات الفجيعة ، التى تبرهن على الوحشة والهمجية . حتى انهم يدسون من حادهم فى التراب او يقتلونه او يحرقونه بالنار ولا يستكبرون ذلك ، بل يعدونه من الاعمال البسيطة . وهم لا يزالون متمردين لا يؤدون الضرائب ، ولا يشاؤن الدخول تحت قيد اجتماعى . اما افراد العشائر الاخرى ، فهم ليسوا فى هذه الدرجة من الشدة والعنف . ولم يعتادوا على غزو بعضهم كما يفعل البدو ولكنهم ينقسمون الى قسمين توجد فى الاول عشيرة الحدادين والخياطين ، وفى الثانى عشائر « الكلبية والنواصرة وحلة مرمينو و القراحلة

والشراقبة ، ولا تنقطع بينهم دعاوى الدماء والمطالبة بالثارات ، ولهذا السبب تقوم بينهم غارات شعواء ويوجد في كل عشيرة منهم الوفر من الافراد المسلحين بالبنادق الحديثة ، (كالمارتين والماوزر) . وربما تحدث بينهم مصادمات دموية . ثم ان الحدادين والخياطين منهم تنتسبان في الدين الى « الفرقة الحيدرية » ، اما الباقون فهم من « الكلازيين » وهذا الافتراق المذهبي يسبب احتدام الاختلاف والخصومة بينهم . ولا ننسى ان اكبر سبب لهذا الشقاق والخصام بين عشائر هذه الطائفة ، هي الحالة الاجتماعية .

ان هذه الطائفة — كما ذكرنا اثناء البحث عن احوال صافيتا — منقادة الى اهواء مقدميها ومشايخها . وان لهؤلاء المقدمين والمشايخ في جبلة السلطة والسيطرة العظيمة على ابناء الطائفة برمتهم . ولهذا نرى من الضروري ان نذكر نبذة من احوال هؤلاء الصناديد النصيرية :

من المعلوم ان « المقدم » عند النصيريين ، هو اكبر مسيطر اداري و « الشيخ » هو الرئيس الديني الذي تناهت لديه القدرة . ولهذا يكون القيام بتأمين عيش هؤلاء المقدمين والمشايخ ، والسعي لرفاهيتهم من اقدس وظائف النصيريين .

ولكل عشيرة في جبلة مقدم او مقدمان وشيخ . فعشيرة بني علي لها مقدمان احدهما في الساحل والثاني في انحاء الجبل ولها شيخ واحد . وعشيرة بيت تميلي لهما شيخ فقط والقراحلة الغرابة لها مقدم وشيخ ، وللقراحلة الشراقة ثلاثة مقدمين وشيخ ولبيت حاطر مقدم واحد ، ولعشيرة الكلبية ثمانية مقدمين وللنواصرة ستة وللخياطين اثنان ، وشيخ . وعليه يكون عدد المقدمين المهمين في جبله (٢٥) وعدد المشايخ عشرة .

يتظاهر المقدمون ببساطة الحال وهدوء البال . ولكنهم في نظر النصيريين . ارهب وادهش من الموت الزؤام . حتى ان اسماءهم عليها مسحة من الخشونة تنذر بالارهاب والدهشة : مثل غازي وصقر . الخ . .

وهؤلاء المقدمون يعرفون القراءة والكتابة بدرجة بسيطة . وعلم المشايخ ايضاً بسيط ، ولا مزية لهم الا كونهم مطلعين على حقائق الديانة النصيرية ومتضلعين فيها .

واهم وظائف هؤلاء المقدمين هي ادارة المناسبات بين الحكومة والعشيرة . ومحافظة حقوق العشيرة ، وتعيين مرقعها تجاه الحكومة ، وحل الخلاف الذي يحدث بين الحكومة وبينها ، او بين افراد العشيرة . وبهذا يكون المقدمون كالعمدة او كالسفراء ، وبعضاً كالامراء . ثم اذا حدث اختلاف بين العشائر المختلفة ، يجتمع مقدمو تلك العشائر في مجلس . ويتذاكرون في المسئلة ويجمعون على حسمها . والرأي الذي يرضى به المقدمون يكون واجب الاتباع .

اما نصب المقدمين فيكون بانتخاب العشيرة ، وتدوم صنعتهم ما دامت حياتهم . ثم

جرت العادة بينهم انتقال هذه الرئاسة من الاب الى الابن . ولهذا اصبح هذا المنصب شبيهاً بمنصب متغلبي القرون الوسطى . وقصارى القول ان هؤلاء الرؤساء المسيطرين ، تمكنوا من الاستبداد بالسلطة والحكم بين النصيريين ، ومع هذا فانهم يحترمون المشايخ غاية الاحترام . وان احترام المقدمين للمشايخ وتوقير المشايخ للمتقدمين ومظاهرتهم لبعضهم تكون متقابلة ، وما هي الا تواطؤ هؤلاء المتغلبين على العبث بحقوق النصيريين ، واتفاقهم على غصبها من اربابها .

والمشايخ ايضاً ينصبون بانتخاب العشيرة . ولكن لا يشعر لهم بوطئة وسلطتهم لا تلفت النظر ، او بالاصح ان الاهالي لا يدركونها .

وقصارى القول ان هؤلاء الذين هم اوعز الناس واعظمهم في نظر النصيريين يكونون اعلى طبقة اجتماعية بينهم بحياتهم وعيشتهم ، وبوقعهم الاجتماعي ، حتى اذا حدث بين العشائر قتل او نهب او سرقة ، لا يلبث مجلس المقدمين ان يلتئم . وربما يستفتون في المسئلة من المشايخ . وكثيراً ما يحكمون في القتل بدية مقدارها (١٨) الف غرش . وتقاس المسائل الاخرى عليها . ولهذا كانت سلطة هؤلاء المقدمين بين النصيريين عظيمة جداً .

ولهؤلاء المقدمين الذين استبدوا بالسلطة العظمى والسيطرة القوية رواتب تقل وتكثر بنسبة غناء العشيرة وعدمه . وللمشايخ تخصيصات يتقاضونها باسم الزكاة وامثالها . وتتراوح رواتب المقدمين بين (١٥٠) و (٢٠٠) ليرة في السنة ، وتخصيصات المشايخ تبلغ في السنة (١٠٠ — ١٥٠) ليرة .

ليس على المقدمين ان يشتغلوا بالزراعة ولا غيرها . بل ان جميع حاجاتهم محملة على كاهل النصيريين ، وليس عليهم الا جر ذيول الاردية الحريرية ، والتجول يمنة وشمالاً . ثم انهم اذا حضروا الى القصبة لا بد ان يؤمهم فارسان بالسلاح الكامل ، ويمشي وراءهم فارسان من اتباعهم كحاجبين ، كاملي العدة غلاظ شداد . ولا بد ان تكون البنادق الممتازة في قبضتهم ، وكنائن الرصاص مشدودة على مناطقهم .

وان لهم من السلطة ما يخولهم ان يضربوا افراد العشيرة ويهددوهم . او يحجروا عليهم ، وهذا يدلنا على درجة سيطرتهم بصورة واضحة .

وجميع النصيريين يسكنون في البيوت والمنازل ، ولكن منازل المقدمين منهم تكون حصينة ذلك لان حياة العشائر لا تخلو من الهجوم والدفع والحرب والضرب . وهي مطوقة من جوانبها الاربعة ببنايات حصينة كانها قلاع او حصون . وربما يضطر المقدمون الى الدفاع عن انفسهم في تلك الحصون . ولهذا تراهم مستعدين لكل ما يحتمل حدوثه من هكذا حادثات . حتى كانت منازلهم هذه مستودعا للاسلحة والذخائر يحيط بها المحافظون كانها قلعة منطيرة .

وسبب تغلب هؤلاء المقدمين ، وغلوهم في السيطرة ، هو ما نعلمه من الكتمان الذي يتمسكون به في دينهم ، ثم انغماس الاهلين في ظلمات الجهالة الكثيفة .

نعم يستفيد المقدمون من جهالة هؤلاء القوم . وهم يرسلون اولادهم الى اللاذقية فيعلمونهم القراءة والكتابة . وهذا التعليم لا يتجاوز الحد اللازم بل لا بد من تلقيحهم بالتعاليم النصيرية متى بلغوا السن المعين .

وهؤلاء يشبون على تقليد آبائهم فيتمرنون وهم صغار على اضطهاد افراد العشيرة ، واجراء الظلم حتى يجعلون رعيتهم كبقرة الحالب . لانهم يعتقدون بان لهم المنة الكبرى على حياة هذه الافراد ، فيكون من حقوقهم الصريحة ان يسلكوا بهم ما تشاء اهواؤهم من طرق الحياة . ولهذا نرى اربعين الفاً من النصيريين كانوا كالآلة العمياء الباطشة تتصرف بهم ايدي خمسين رجلاً من هؤلاء المقدمين .

فاذا كان النصيريون محرومين من ان يعيشوا عيشة آدمية ، فلا جرم ان السبب الوحيد الذي اسقطهم في هذا الهوان هو حكم المقدمين والمشايخ فيهم . ويروى انه يوجد بين هذه الطائفة (١٠٠٠٠) نسمة ممن لا يزيد دخلهم السنوي على الف غرش و (٢٠٠٠٠) نسمة ممن لا يزيد دخلهم عن خمسة آلاف غرش . وهذا الحساب التخميني يدلنا على درجة الفاقة والحرمان التي تلبست بهذه الفئة .

وهذه المعيشة الضنك هي التي حدت بهؤلاء المعسرين الى ارتكاب الشقاوة ، وقطع الطريق . ويروى ان بعض هؤلاء جعلوا ديدنهم هذه المهنة ، حتى كان النهب والسلب من اسباب معيشتهم الحياتية . وهم يشنون الغارة على سكان القصبة او قطان السواحل ، وينهبون كل ما تصل ايديهم اليه . ولا يتوقفون عن البطش والفتك اذا لقوا ممانعة من اصحاب الاموال . ثم يعتصمون بالجبال .

ولهم في النهب والسلب خطة واحدة لا يبدلونها . فيرسلون امامهم الجواسيس بزي القرويين ليكشفوا لهم الاخبار . وهؤلاء الجواسيس يهدون المغيرين الذين لا يقل عددهم عن مائتي مقاتل كلهم شاكي السلاح الى الطريق المناسب ، ولا يلبثون ان يطرقوا الحي ليلاً ويبيتوه ثم ينهبون ويحرقون ويدمرون ما يرونه هناك . ولا يذرون شيئاً من حب وحيوان وغيره في تلك البقعة . وهذه الشقاوة المستمرة كانت سبباً عدم امكان الاستفادة من الاراضي المنبتة الكائنة على سيف البحر في هذا القضاء ، لاسيما البلدة الاسلامية المقيمة في جبلة المحاطة بهكذا اشقياء من جميع اطرافها ، هي لا جرم في حالة خطيرة ، جديرة بالاهتمام .

حتى لقد يضطر اغنياء جبلة الى الدخول تحت جناح المقدمين ليأمنوا على اموالهم وحياتهم ، ولا بد لهم من اعطاء جزية او خراج لهؤلاء الطغاة حتى يمكنهم الحصول على

حاجتهم والاستفادة منها . وبهذا تسلم لهم اموالهم وارواحهم .
ويقال ان اكبر محرك ومشوق على تلك السرقات والغارات هم المتمحنون انفسهم . وان لهم السهم الاوفى من تلك الغنائم ولهذا لا ينقطعون عن تحريك الاشقياء وايقاد نار الفساد .

***

وقصارى القول ان الحياة الاجتماعية فى جبله ، منغمسة فى فوضوية بحتة . ولن تجد فيها ذرة من سعادة ولا أثر انسانياً . وفيها ارهب المهاوى التى تزلق فيها البشرية واوحشها. وجدير بهذه الحالة الاجتماعية السمية التى لا تنفك تخنق المعالى المدنية فى كل آن ، ان تبيد . ويجب ان تبدل بحالة حسنة توفيها نصيبها من النور والمدنية .

٨ — الاحوال الصحية

ها نحن نجمل ما سمعناه من طبيب القضاء عن الاحوال الصحية فى جبله وملحقاتها :

[١] — **معلومات عمومية** — ان المنازل فى جبلة متصلة ببعضها وغير منطبقة على القواعد الصحية ، كما ان طرقها وسخة وقذرة . وتوجد فى هذه القصبة منازل لا ترى وجه الشمس . واكثر الاهلين يسكنون فى حجرة كبيرة لا يسوغ ان يطلق عليها اسم البيت . وارجح ناحية من تلك البيوت خصصت للحيوانات . وعليه نجد ويا للأسف ان الحيوان فى جبلة ارجح من الانسان . واعتاد سكان تلك الحجرات على قذف اوساخهم على عرض الدروب . ولهذا فان جبله بمنازلها ودروبها كانت مركزاً لانواع الجراثيم المرضية .وهذه الجراثيم تندفع مع الرياح فتنتشر فى جميع الانحاء وتكون سبباً لظهور الامراض .
هذا وان تكن جبلة جيدة الهواء ، خالية من الرطوبة ، نقية الاكناف من المستنقعات ولكن قذارة السكان جعلتها بقعة لا تسكن . ولاسيما آبارها فهى غير بعيدة عن المراحيض ولهذا كانت عرضة لتحلب الاوساخ ، ورشح الاقذار . فاذا حل فى ساحتها مرض سار لا يلبث ان ينتشر بسرعة برقية ، ويعم جميع اناسها ويفتك بهم فتكاً ذريعاً .
اما القضاء ؛ وان كان منعماً بالمحاسن والنعم الطبيعية كما هو الحال فى المركز ، ولكن تساهل خلقه واهمالهم جعل فيه من الاوساخ ضعف ، بل اضعاف ما يوجد فى المركز . ولهذا يمكننا ان نسمى هذا القضاء « دار الوساخة » لان معظم بيوت القرى عبارة عن اكواخ منفصلة من الداخل بالواح الخشب المركبة على عمد من خشب . فالقسم الاعلى من هذين القسمين يكون منزلاً لافراد العائلات . والقسم الاسفل يجعلونه للحيوانات . وعليه

لا نبالغ اذا قلنا ان القرويين في هذا القضاء يعيشون على ظهور الجهالة . وبناءً على جمود التعاسة في الحالة الاجتماعية، ما كانت تدهمهم الحمى التيفية في السنين الاخيرة، الا واتت عليهم كما تأت النار على يابس الحطب . وقضت على كثير من القرى بالافناء وانقراض السكان ..

وجميع هذه الرزايا ، وتلك البلايا التي مني بها سكان هذا القضاء لم تزل بعيدة عن ايقاظهم ، وهم لا يزالون غير مؤمنين بتأثير الطبابة . ولهذا اذا وجد في اكواخهم مصاب بمرض الحمى التيفية تجدونهم يسدون المنافذ ، ويوسدون الابواب ، ثم يوقدون النار في باحة الكوخ ويقصدون بذلك شفاء المريض . ولا يدرون انهم يستعجلون له الموت .

وها نحن نذكر هاتين القصتين برهاناً على سخافة هؤلاء السكان وافصاحاً عن حقيقة الحالة الصحية بينهم :

— ذهبت ذات يوم الى جبال النصيرية لافحص جنازة . وبناءً على بعد الطريق اضطررت لان اباة عندهم . وطلبت من صاحب البيت ان يأتيني بفراش ولحاف . فما لبث ان جائني بقطعة من بساط ، ولحاف ملطخ بالاوساخ فما كان مني الا ان طلبت منه ان يبدله بانظف . فقال لي :

— كن على يقين انني جاملتك بقصارى الاكرام باتحافي اياك بهذا اللحاف . لانه لم يستعمله احد بعد . بيد انني كنت درجت به والدتي العزيزة لما توفيت ، واوصلتها الى منزلها ، فكن مطمئن البال بشأنه !!

وهذه القصة تفصح لكم عن فكر هذا ، وغيره من القرويين في امر الصحة . وفي يوم آخر ذهبت الى عيادة مريض كان على وشك الموت . فما دخلت البيت الا ووجدت عنده شيخاً يتمتم وفي يده اعواد يضمها ويحزمها ثم يضعها عند رأسه . ورأيت شيخاً آخر واقفاً هناك . وما كاد يراني حتى جاء الي وقال :

— ورويدك برهة ؛ ليتم الشيخ قرائته ثم تفحصه !

فقلت :

— لا يسوغ الانتظار ، اني ارى حالته تنذر بالخطر .

فكأنه غضب من مقالي ، فاخذ بيدي الى ناحية منهم وقال :

— هل يستطيع الطبيب رد القضاء ؟ وما كان طلبنا اياك الا لكي لا يقال « لم يأتوا بطبيب » !!

وبما ان هذا الاجمال يفصح عن درجة الفكرة الصحية في قضاء جبله لا نرى حاجةً لزيادة شيء عليه .

ج : ٢/ ٥٤

[٢] — الامراض المحلية والطارئة — بعد ان اطلعتكم على الحالة الصحية العمومية في القضاء، اريد ان اطلعكم على الامراض المحلية، والطارئة التي عثر عليها في هذه السنين الاخيرة :

ان اكثر ما يوجد في المركز والقضاء من الامراض المحلية، هو مرض الالتهاب الصديدي. ويصاب به في كل سنة مقدار (١٥٠—٢٠٠) في المركز و(٣٠٠—٤٠٠) في القضاء. ثم تاتي بعد هذا امراض الحمى المرزغية والديزانتهري. ويصاب بهذه الامراض في كل سنة مقدار (١٠٠) في المركز و(٢٠٠—٢٥٠) في الملحقات. ومرض سل الرئة وذات الجنب ايضاً يصاب بها نصف هذا المقدار. ولا ارى لزوماً لذكر بعض الامراض الجلدية والسمية التي تندر في هذا القضاء.

اما الامراض الطارئة؛ فمنها الحمى التمشية التي دخلت القضاء في السنة الماضية وافحشت بالفتك بسكانه. ولا يمكنني ان اطلعكم على مقدار اضرارها بعدد معين. ولكن لا جرم يقرب عدد من اصيب بها من (١٥٠) في المركز و(١٥٠٠) في انحاء القضاء. وقد توفي منهم عشرون في المائة.

*
* *

ثم اذا اعلمتكم انه لا يوجد في هذا القضاء الا طبيب واحد بلا صيدلية، لا بد ان تطلعوا على حرمان هذا القضاء من الوسائل الصحية، كما هو الحال في غيره من الاقضية.

— ٢٠ —

جبال النصيرية

اشغل فكرنا كثيراً انتقاء الطريق الذي يجب سلوكه اعتباراً من جبله. وكان من الممكن ان نتبع الساحل ونسير حيث نصل الى اللاذقية بمدة اربع ساعات. غير اننا نحرم من مشاهدة جبال النصيرية التي القت في ادمغتنا تاثيراً عميقاً. ولهذا كنا نرى الانصراف عن طريق الساحل والاقبال على التجول في الداخل ادفق وانسب، وكنا نريد ان نحظى بالمسرة التي يولدها الاستسلام الى متاعب الطريق واقتحام ما هنالك من العقبات مهما كلفنا الامر. ولهذا رأينا من الضروري ان نستهدف بسفرنا قصبة «بابنا *Babanna*» مركز قضاء صهيون. وهذا الطريق من الطرق التي لم يرغبها لنا كل من كان له المام بالحالة الاجتماعية في

تلك الاصقاع . لان المسافة تمتد اكثر من تسع ساعات . والطريق صعب وعر مملوء بالعقبات لا يكاد الانسان يقوى على السير فيه . لاسيما وان للنصيريين هناك قصصاً رهيبة . ولهذا كان جديراً بالاجتناب .

ولرغماً عما هناك من المحاذير والاتعاب فقد كنا في رغبة عظيمة ، وميل لا يرد . وكنا نقول :

— لا بد من اقتحام هذه المهالك ، واختراق تلك الجبال الراسيات .

وما كدنا نمتطي متون الجياد ، ونفارق جبله حتى شعرنا بارتياح عظيم تحت تأثير ذلك العزم المتين .

سلكنا طريق اللاذقية مدة وبعد ان اجتزنا « نهر الرميلة » انعطف بنا الطريق نحو الشمال الشرقي . ولاحت لانظارنا جبال النصيرية عن بعد تحت امواج هذا الضياء الصبحي وقد زادها ابهام البعد رهبة اكثر مما نعهد . وكان على يميننا « جبل البودى » وفي جانبه قرية (الشراشير) و « بحضرمه التحته » و « بنجاره » و « طغرامو » و « ديراوتان » و « بيت حجيره » و « بشكوح » و « عين الشقاق » . تلوح كانها نقاط من ظل وهي مختلطة بعضها في المنظر . وكانت على يميننا سلسلة من الجبال تكلل الطرف ، وعلى شمالنا سهل فسيح ينتهي على شاطئ البحر الذي كان يلوح بزرقته من بعيد . ونحن لا نزال نعتسف طريقاً سهلاً في منتصف الحقول الجرداء . وبعد ساعة اجتزنا وادي (مـكينا) وجدوله ، وغادرنا قرية (دقار) على شمالنا ووصلنا الى قرية « حماميم » . وقد كان لوصولنا اليها في مثل هذا الوقت وقع عظيم على نفوس اهليها . فكنا نراهم يتراؤن على السطوح وامام البيوت وفي ايديهم البنادق ثم ينسحبون . ودام فيهم هذا الارتباك الى ان انجلى لهم خبرنا وعلموا باننا من ابناء السبيل . فاطمئنت قلوبهم . وقد علمنا ان احد الذين اجتمعوا حولنا (مقدم) فرأينـا من الضروري ان نتربص هنيهـة ريثما نزوره . ولم يلبثوا ان تهافتوا يدعوننا الى منازلهم ، واخذوا يقبضون على ازمة خيلنا وفي ايديهـم البنادق « مراتين » ويدعوننا لننزل . ولم نجد في منزل المقدم المؤلف من طابقين وقسمين نظافة تذكر . وليس للنظافة حظ من شخصياتهم ايضاً . صعدنا الى الطابق الاعلى من المنزل ومكثنا فيه برهـة وكنا نرى من هذا المحل جبلة كانها ظل اخضر . والبحر يلوح عن بعد كانه اطلسة زرقاء ثم القرى قريباً من الساحل كانها خيال . ورأينا نساء النصيريين يشتغلن في حقول التبغ والتنباك ، ويلقون في تلك الساحة الخضراء تموجات لطيفة بملابسهن الملون . وبما اننا لم نرد ان نمكث كثيراً في هذه القرية كانت عشرتنا معهم عامية ومجملة . وقد اسهب لنـا المقدم في البحث عن جهالة النصيريين وتألم منها ولا جرم انه كان محقاً في رأيه ، وكانت ترجمته هذه تشف عن حرارة وصدق تأثر . وكنا حينئذٍ نسمع اولاد المقدم يقرؤن امام شيخهم

في القسم الثاني من البناء .

ما لبثنا ان انتهزنا الفرصة ، وسألناهم عن الاسباب التي تدعوهم لان يظلوا مسلحين مجهزين في كل آن فتأوه الجميع وقالوا :

— لو تعلمون ، كم نحن غير مطمئنين على حياتنا ، وكل يوم نحن عرضة لغارة او قتال او احراق . وحياتنا كلها مرت بهكذا مناضلات وخصام ولا تزال تمر .

وكنا نكتفي بسماع هذه الشكاية من المقدم وطائفته . لاننا نعلم علم اليقين انهم هم الذين جعلوا حياتهم على هذه الوتيرة .

حمدنا سورتهم ، واخذنا نتاهب لنركب ، فقبضوا على ازمة الخيل واخذوا يقربونها لنا ، وفي ايديهم الاخرى اسلحتهم وبنادقهم .

وبعد ان غادرنا حماهم ببرهة يسيرة وصلنا الى غياض « بستان الباشا » وكانت على يميننا قرية « بطره » وهي عبارة عن خربة . ويروى ان هذه البقعة كانت حومة لمعمعة دموية منذ عهد قريب . حتى ان « نهر الروس » الكائن قريباً منها خضب بالدم في تلك الوقعة .

وبعد ان غادرنا البطرة بنصف ساعة وصلنا الى قرية سلورين . وكانت تتراآى من ورائها قرية « ابن عيسى » وقرية « كلاخو » ووراءهما جبال « الكلبية » . وكنا لا نزال ننهب الطريق ، وبعد ساعة رأينا على يميننا قرية « عين العروس » على ضفة جدول صغير ، وعلى يسارنا قرية « قابو » قريباً من ساحل البحر . وهنا انتهت اراضي جبله .

وبعد ان اجتزنا وادي نهر العروس قام امامنا سهل فسيح . وكان طريقنا بين الحقول المزروعة بالتبغ والتنباك . وبعضاً كنا نمر من الاراضي المحصورة ، او من جانب البيادر . ولا نزال نتقدم في السير .

وبعد برهة غادرنا عن يسارنا قرية « خربة ابو خسرو » القريبة ، وقريتي (غللينه) و(المتروكية) البعيدتين . وكنا نرى عن يميننا قرية (قلوريا) وقرية (حرف الرضوة) على البعد .

وبعد نصف ساعة اجتزنا نهر « القويقه » وقريته ، وتسلقنا في مرتقى خفيف وهنالك تراءت لنا جبال « المهالبة » وفوقها « مقام الاربعين » . ثم اجتزنا وادي « قياص » وبينما كنا نسير بين قريتي « عليله » و« بريكه » لاحت امامنا قرية « الشيخ ريح » على قمة الهضبة وراء الوادي الذي كان امامنا . ثم وصلنا الى « قين » وبعدها الى « الشيخ ريح » . وهذه القرية كانت مرتفعة ولهذا كان منظرها جميلاً جداً . لاسيما منظر البحر من جنوبها ، وغياض « بستان الباشا » كانت تستقبل الانظار بما يحيى القلوب من الخضرة المغسولة بعذاب السماء الباهر . وفي شمالها تلوح سلسلة الجبال باغوارها ونجودها .

وبعد منحدر ترابي مستو ، وصلنا الى واد نضير . وكانت على شمالنا قرية « قطرية » .

وكنا نرى امتداد هذا الوادي الى الغرب الجنوبي نحو البحر.

وبعد نصف الساعة ترائت لنا قبة بيضاء فوق ربوة صغيرة ، وهي مقام «الشيخ حسين البترون» . وهنالك انتهى الوادى .

وهنا شرعنا نتسلق فى مرتقى، وكانت الذرى الصغيرة القرعاء تتوالى عن يميننا . ولاحت قرية «الجديدة» فى حفاف احدى تلك الذرى . وكنا نشاهد بنات آوى تتراكض امامنا يمنة ويساراً ، ونسمع من حوالينا صفيراً مريباً .

وبعد ان اجتزنا الهضبة قام امامنا سهل فسيح لاحت فى اقصى آفاقه ربى كثيرة من من كبيرة وصغيرة . وبعد برهة ترائت عن يسارنا قرية «قطوية» ومن يميننا قرية «بتزار» وورائها البحر الهادئ .

وكنا نرى فى هذه الساحة زرع الذرة قائماً على سوق اعلى من قامة الانسان ، او هى جلدها حر الهجيرة فغدت تميل مع الهواء يمنة وشمالاً . وكنا نرى الاعقاب فى سفوح الربى الجرداء كأنها خطوط بيضاء . ونشاهد البواشق تحوم فوقها وتخفق .

وما انضر الوادى الذى كنا نسير فيه ! فخضرة الذرة والتبغ والتنباك كانت من عناصر جمال هذه الاصقاع التى كستها منظراً بديعاً . لاسيما وكنا نمتع النظر بالوان بديعة ما بين شوك ازرق ، وحصيد اصفر ، واعواد سمراء .

وما لبثنا ان وصلنا الى ساحة مسورة بالهضاب . وكنا محصورين بين سورين جبليين . وهنالك انقطع هبوب الريح . وكانت الشمس تمج سعيراً محرقاً ، يشوى الارواح فى اجسادها ، اما المحيط فقد غلى مرجله فكنا نخوض منه هواء كالمهل يشوى الوجوه .

اخذنا فى الاسراع ليتسنى لنا ان نتملص من هذا العذاب الجهنمي وبعد برهة اخذنا نتبع الضفة اليمنى من نهر يدعى «نهر الصنوبر» عند منبعه ، ويسمى «نهر القش» بعد غلوة منه .

وكانت الشمس منحرفة عن نقطة الزوال الى الغرب منذ مدة وانقطع تسلطها على ام دماغنا ولكنها ما زالت ترجم اقفائنا ، وكواهلنا بمثل مذاب الرصاص . وبعد مدة اوصلنا هذا النهر المسمى «الديف» الى طاحونة خضراء . فلبثنا هنالك مدة ، ثم اخذنا فى التسلق الى قرية «ترجانو» ووصلنا اليها . وفيها نهر «ترجانو» .

وبعد ان غادرنا هذه القرية الخضراء الظريفة اخذنا ننحدر فى منحدر وعر ، ثم تسلقنا فى مرتقى وعث ورأينا عن يسارنا قرية «ميليو» ثم بعد هبوط وصعود تركنا على يميننا قرية «المحاره وعناقيه» ، اخذنا نصعد فى جبل «بستار» . وهناك كان المنظر بهيجاً . ولما عطفنا الى وراء الذروة لاحت لنا فى انحاء الجنوب الغربي سفوح اللاذقية ، وفى الشمال الغربي ربى صهيون .

ثم بعد هبوط وصعود آخر ظهرت لنا بين ربوتين صغيرتين سفوح « بابنا » مركز قضاء صهيون ، وهنالك انشرحت صدورنا كاننا صرنا اسعد الناس . لأن هذا الطريق كان اتعب واصعب مما سمعنا عنه بكثير .

وها نحن نشاهد على اقاصي الافق قرى « الدفين زنقوفى ، الشرقاق ، البكاس ، المشارقة ، شثبنه » كانها موكولة لترسم حدود ذلك الافق .

وها نحن دخلنا في وادي صهيون . وها هو نهرها . وكنا نتبع الضفة اليمنى من هذا النهر . وبعد برهة تسنقنا مرتقى واخذ بعده الوادى بالاتساع ، وشرعت تلك القرى التى عددناها تتراآى بوضوح .

وبعد ان اجتزنا عن يميننا قرى « خربة خيشون ، والدوير والرصيف ، وحارة الديغة والعرموطه » باكثر من ساعة وصلنا الى ينبوع قائم بين اشجار الحور . ثم اخذنا نتسلق فى الجبل ، وكلما اوغلنا فى الصعود تزداد امامنا الدوالى ، واشجار التين ، والآس ، وتكسب المحيط منظرا نضيراً .

وبعد ان اجتزنا وادى صهيون ، اخذنا نتسلق مرتقى آخر . وكنا من بابنا على مسافة بضع دقايق . ومع هذا كنا نتقرب من هذه القصبة وهى تذوب من امام انظارنا ، وتتراآى مكانها هضبة عالية مستورة بالاشجار .

ثم اخذنا نسير فى سكة قديمة وشرعنا نتسلق الهضبة فى طريق حلزونى يتدرج بالارتفاع الى ان صرنا فوقها واجتزنا الذروة . فانجلب امامنا قصبة (بابنا) منغمسة فى ضياء العشى المسجدى ببيوتها البيضاء التى تطل على الغرب بين تلك الغياض الخضراء . وهنالك اخذ مزيج الاغوار والانجاد والوديان والربى التى ارتسمت فى ادمغتنا ، ينحل ويذوب حتى باد وانطفى فكانه لم يكن .

— ٢١ —

صهيون

١ — موقع القضاء وحدوده

ان هذا القضاء الكائن فى الشمال الشرقى من قضاء مركز اللاذقية ، محاط من الشمال والشرق بقضاء جسر الشغور من اعمال حلب ومن الجنوب بقضاء جبله .

٢ — مساحة القضاء وسكانه وامواله الادارية

تخمن مساحة هذا القضاء بمقدار (٩٦٠٠٠٠) دونم جديد ، منها (١٠٠٠٠٠) من الاراضي الاميرية و (٥٠٠٠٠٠) من الاراضي الموقوفة و (٥٠٠٠٠٠) من الاراضي المتروكة ثم (٥٠٠٠٠٠) من الاراضي المملوكة . ومساحة الاراضي الموات تبلغ (٧١٠٠٠٠) دونم . اما عدد سكان القضاء فهو كما يلي :

جدول سنة ١٣٣٢

المسلمون	١٦١٠٦
النصيريون	١٤٧٥٠
النصارى	٢١١٦
يكون	٣٢٩٧٢

وقد كان مقدار السكان سنة (١٣٢٣) ، « ٢٨٨٥٤ » نسمة . وبهذا تكون الزيادة أكثر من (٤٠٠٠) نسمة في هذه السنين العشر . ونطقت القيود الرسمية بان مقدار اللدات كان سنة « ١٣٢٨ » و « ١٣٣٠ » و « ١٣٣٢ » : (٥) و « ٣٦٨ » و « ٣٢٢ » نسمة ، والوفيات (٤٤) و (١١١) و (٣٠٥) نسمة .

ان مركز القضاء هي قرية « بابنا » المبنية على هضبة يبلغ ارتفاعها « ٤٠٠ » متراً والكائنة في الدرجة ٣٥،٣٤ من العرض الشمالي و (٣٣،٣٩) من الطول الشرقي . وعدد سكانها (٢١١٧) نسمة كما ثبت في القيود الحديثة .

ويوجد في محلة بابنا من هذه القرية جامع بني على نفقة القائممقام نشأت بك ، وفي محلة « جنكيل » منها جامع كبير ومسجدان صغيران . ولا أثر فيها للابنية والمؤسسات التي هي من ضروريات الناس كالحمام والطاحون والسبيل وغيرهم . بيد انه توجد فيها دائرة بلدية لها من الدخل « ٣٧٢٠ » غرشاً في السنة . ولا اثر على هذه القرية المحرومة حتى من خان يضم غرفة واحدة يأوي اليها من ابتلي بدخولها الا كونها مركزاً للقضاء . ولا بد لمن يتجول في الانحاء الشمالية من الولاية ان يعجب ويأسف لمرآى مراكز الاقضية بفقرها واوساخها واكواخها التي لا يسوغ ان تعتبر من المساكن . فهل كان القائممقامون الذين ما انفكوا يديرون هذه الاصقاع منذ اكثر من ستين سنة، وربما اشغلوا المقامات الرفيعة معتقدين ان واجبهم التحامل على الاهالي وجمع الضرائب والاعشار فقط ؟ .

وليس لهذا القضاء الذى يبلغ باتساعه اضعاف قضا جبله ، ناحيات رسمية ولكنه منقسم بصورة طبيعية الى ناحيات: صهيون، وجبل الاكراد وجريوس وبيت الشلف والمهالبة .

٣ — الاحوال الطبيعية فى القضاء

ان هذا القضاء يشغل الانحاء الشمالية من جبال النصيرية — ولهذا كانت جميع بقاعه وعرة وعثة . والجبال الممتدة فيه من الشمال الى الجنوب كلها جرداء لا احراج ولا مرعى فيها على عكس غيرها من جبال الاقضية الاخرى . ويخمن طولها اعتباراً من حدود جسر الشعور الى تخوم قضاء جبله بسبعين كيلومتراً وعرضها (٢٥-٤٠) . ومنشأ هذا الفرع الشمالى من جبال سورية هو جبل الاقرع *Cassius* (١٧٦٩ م) وهو عبارة عن استطالة جبال طوروس وذروته على شكل الاهرام . وكان من مقدسات الفنيقيين . ويبلغ ارتفاع اعلى نقطة فى هذا القضاء الى (١٠٠٠) متر .

ثم ان المياه الجارية فى هذا القضاء عبارة عن (نهر الكبير) وجدول (مرقية) .فالنهر الكبير ينبع من جبل الاقرع الكائن فى شمال صهيون ويشق القضاء من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ويدخل قضاء مركز اللاذقية فيسقى اراضيه المنبتة ، ثم يصب فى البحر جنوباً من مركز اللواء . ويجب ان يفرق هذا الجدول عن النهر الكبير الذى يفصل جبال النصيرية عن جبال عكار والذى سماه الاقدمون *Eleftheri* وطوله « ١٠٠ » كيلومتر وعرضه « ٨—١٥ » متراً . ثم يوجد جدول « كفريه » الذى ينبع من جانب القرية المسماة باسمه ، وطوله خمسة كيلومترات وعرضه «٣—٧» امتار .

٤— الاحوال العمومية فى القضاء

مما يوجب الشكر و الثناء ! عدم حرمان الصهيونيين المنغمسين فى ظلمات الجهالة من المدارس الابتدائية . ونرى ان المحاسبة الخصوصية وضعت فى ميزانيتها نفقة لتأسيس عشر مدارس فى هذا القضاء ، ولكن لا توجد فيه الآن الا مدرسة للذكور واخرى للاناث فى مركز القضاء ، ومدرستان فى قريتى « سلمى » و« حفه » الاسلاميتين ويروى ان عدد التلاميذ فى مدرستى بابنا « ٧٥ » من الذكور و « ٢٥ » من الاناث ولكن لا ننسى ان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة فى احداث « بابنا » لا يتجاوز « ١٥ » فى المأة مع ان المدرسة اسست فيها منذ اثنى عشرة سنة .

اما هذا العدد في الاناث فلا يبلغ الى واحد من مائة . ويقال عن معلم مدرسة (سلمى) انه ساقط الاخلاق والتربية ، اما معلم (حفه) فقد اكل سبعين حجة وهو يخبط في الجهالة ، وورد الى ارزل العمر . وان ادرى هل يسوغ لنا ان ندعى بوجود التحصيل الابتدائي عندنا ، ونحن على هذه الحالة . ثم من العبث ان نرتاد المسالك والدروب في هذا القضاء .

اما اراضي صهيون التي اكثرها كلسية ، فهي تستثمر اما بالمناصفة واما بغيرها من صنوف المزارعة . ففي المناصفة يدفع صاحب الملك الى المزارع الارض والبزر ، واحد نصف الغلة ، اما في النوع الآخر فان رب الملك يدفع الارض والبذر والآلات والحيوانات والمزارع يتعهد العمل ، ويأخذ ثلث الغلة . ويوجد في هذا القضاء مقدار (٥٠٠٠) شجرة من الزيتون ، و كروم يبلغ اتساعها (٢٠٠٠) دونم ويستغل منها في كل سنة (٢٥٠،٠٠٠) اقة من الزيت و (٢٠،٠٠٠) كيلو من العنب .

وصناعة الحرير في هذا القضاء متعممة بين المسلمين اكثر من النصيريين والنصارى ، خلافاً للاقضية الاخرى . ويخمن محصول الشرانق في السنة بمقدار (٤٥٠٠) كيلو . وزراعة التبغ والتنباك هي من اهم مشاغل القرويين في هذه الانحاء . وكانت حاصلات سنة ١٣٠٢ : عبارة عن (٧٦٧٧٨٨) كيلو من تبغ (شك البنت) ، (٥٣٠،٠٠٠) كيلو من « بو رنجه » و « ٢٥٥٧١ » كيلو من التنباك . وكان القضاء يربح قبل الحرب « ١٠،٠٠٠ » ليرة كل سنة من هذه المزروعات . والآن نرى الاهالي في ضيق شديد لسبب انقطاع التجارة البحرية ووقوفها .

وهذه غلال القضاء بالحساب المتوسط :

جنس الغلال	كيله
القمح	١،٢٠٠،٠٠٠
الشعير	٣٥٠.٠٠٠
الذرة البيضاء	١٥٠،٠٠٠
الحمص	٦،٠٠٠
الفول	٤،٠٠٠
العدس	٨٠٠٠

٥ — الآثار القديمة في القضاء

سمي هذا القضاء باسم حصنه الذي لعب دوراً خطيراً في الاجيال المتوسطة . وان قلعة صهيون التي هي اقدم انموذج للحصون التي بناها الافرنج في قطعة سورية وقلعة حصن

الا كراد ايضاً هما من اوضح الآثار التى تورينا نسق المؤسسات العسكرية الصليبية فى الشرق .

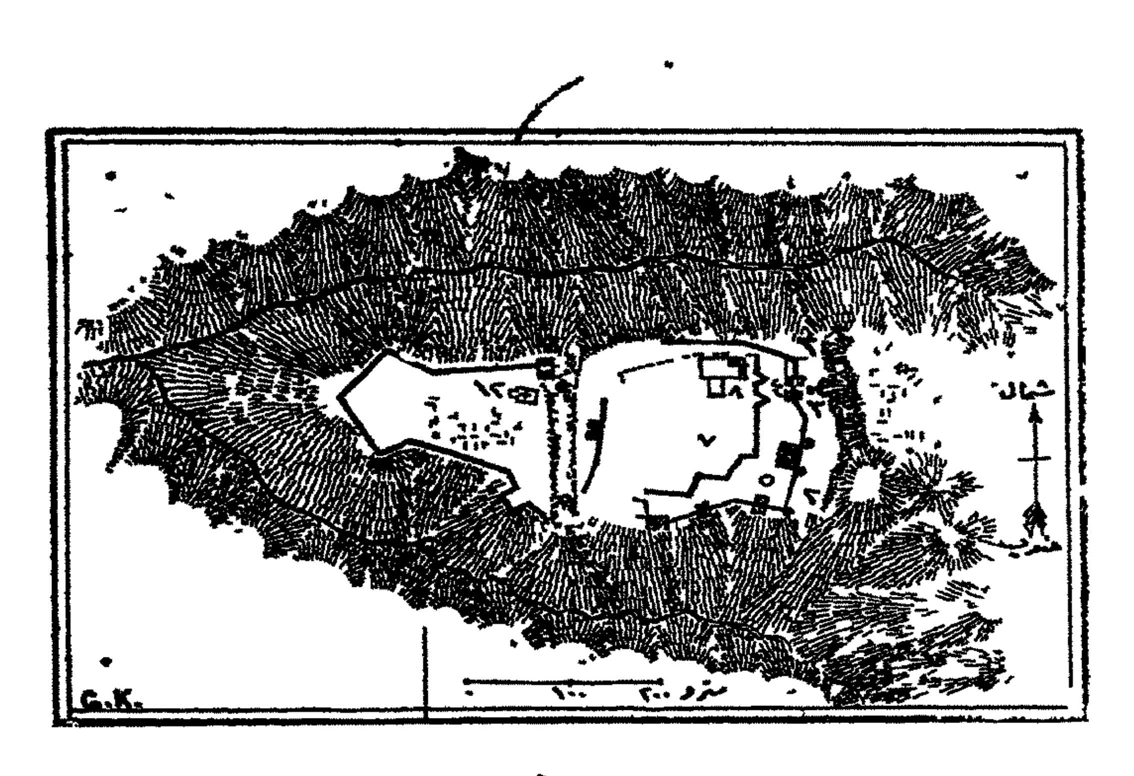
وهذه القلعة التى كان يسميها الصليبيون (*Saone*) كانت من اهم اعمال ايالة انطاكية ابان حرب الصليبين . واسرة صاون (*Saone*) التى حكمت هذه القلعة مدة طويلة تشغل فصلاً مهماً فى كتاب الانساب الاوروبية . حتى لقد يعثر على كثير من اسماء افراد هذه السلالة فى المنشورات الملوكية الصادرة فى القرن الثانى عشر . وبعد ان مزق صلاح الدين الايوبى فى سهول حطين ، اهم جيش للنصارى ، واقبل على فتح الاصقاع الشمالية من سورية . فتح هذه القرية واعادها الى الحكم الاسلامى «١١٨٧م» واسس هناك ثلاث ايالات اسلامية . وهى : صهيون وقاميه « *Apamée* » وكفرطاب وانطاكية ، وبالات نوس « *Balatnous* » واللاذقية .

بنيت هذه القلعة فوق هضبة من جبال داريوس ، وانفصلت عما يجاورها من العوارض بخندقين من طرفيها . والانقاض الموجودة فى الجنب الشرقى المشار اليها برقم «١» كانت كقرية مسورة من اربع جهاتها بسور متين . والحصن المنفصل عن هذه المبانى القديمة بخندق عميق مبنى فى اعلى نقطة من الهضبة . ومسور من الجهة الغربية بحائط وطيء ، وهنا توجد جميع مشتملات القلعة اما الخندق الذى حفر فى الصخر فانه من اعجب الآثار التى اسسها الافرنج فى بلاد سورية .

اما الجسر الذى يصل قصبة صهيون بالقلعة فهو اليوم من الآثار التى يقصدها السواح وهو قائم على دعامة تشبه مسلات الفراعنة (...) وتوجد فى اعمق انحاء هذا الخندق الذى يبلغ عرضه « ١٨ » متراً آثار ابنية محفورة فى الصخور ايضاً . وكانت هذه المبانى عبارة عن اصطبلات .

ولا يوجد من هذه القلعة الآن الا برجها وبضع صوامع مبنية بالحجارة الكبيرة . فالبرج الذى اشير اليه برقم « ٥ » هو مربع الشكل وطوله « ٣٦ » متراً وكل طابق فيه كان كانه بهو . ويصعد من الطابق الاول الى الثانى على سلم قائم فى الجدار الشمالى كما هو الحال فى برج صافيتا . والجدار الشرقى المطل على الخندق والجبهة الجنوبية ايضاً مجهزان بالبروج . والبروج الجنوبية التى بنيت على شكل مربع يبلغ طول كل واحد منها نحواً من « ٢٠ » متراً والموقع الذى اشير اليه فى الرسم برقم « ٣ » فيه انقاض قرية اسلامية بنيت بعد تسخير الحصن . وجامع هذه القرية وحمامها المزدان بالنقوش العربية الطريفة لا يزالان مصونين من الخراب ثم يوجد فى الجانب الشمالى منها مستودع ماء محفور بالصخر ينزل اليه بسلم . وهو لا يزال موجوداً برمته .

ويزعم موسيو « ره‌ى *Rey* » الذى امعن فى تدقيق الآثار الصليبية فى سورية ، ان



الخطوط الدفاعية في قلعة صهيون

١ قرية خربة ، ٢ خندق محفور في الصخر ، ٣ شمار بشكل زاوية ، ٤ برج صغير وباب قديم ، ٥ برج القلعة ، ٦ برج مربع وباب قديم ، ٧ انقاض بناء ، ٨ الصهريج ، ٩ الخندق ، ١٠ السور ومشتملاته ، ١١ البرج ، ١٢ الكنيسة .

قلعة صهيون مبنية على انقاض ابنية من آثار البيزانطيين وجدران الكنيسة الصغيرة التى تشاهد بين الانقاض الموجودة فى الغرب الاقصى من الهضبة ، والمشار اليها برقم « ١٢ » والبرج المشار اليه برقم « ١١ » لا تزال قائمة تلفت انظار السواح والزائرين .

٦ — موقع بابنا ، ومنظر ضواحيها وخطوطها الداخلية

ان قصبة بابنا ، مركز قضاء صهيون التابع للواء اللاذقية مبنية على السفح الغربى من جبل (جنكل) المرتفع عن البحر بمقدار (٤٠٠) متر ، وعلى الجانب الشمالى من جبل (الكتف) الملاصق له .

وبما ان ملتقى هذين الجبلين الذى هيئ للقصبة موقعاً مناسباً بميله الخفيف من الشرق الى الغرب ، محشو بانواع الاشجار الكثيفة ، اصبحت « بابنا » كمنبر بديع صيغ من زبرجد قائم على سنام الهضبة يطل على القضاء الغربى .

نعم ان الجهة الغربية من قصبة بابنا التى كانها لسان ممدود مع ميل قليل مقطوعة بوادى « شرفه » ثم على نصف ساعة منه القرية المسماة بعين الاسم وبعده قضاء لا تطوله خيوط البصر يمتد الى حيث تتكسر امواج البحر . ولهذا كان منظره ناضراً جداً . لاسيما وطرف تلك القرى ، وهاتيك الذرى الذى يلوح عن بعد ، ثم المعاطف التى غشيت بسراب الابهام اوجدت هناك مشهد محاسن تناهى فى اللطف والجمال . فترون عن قرب قريتى (براشيبو وزوبار) وعلى غلوة منها فى شمال الغربى انحاء البهلواية ، وبعيداً منها انحاء « بوجاق » و « باير » كانها موكولة لتعلم الناس الشعر .

ثم ان الجهة الشمالية من هذه القصبة لا تقل لطافة عن الجانب الغربى ، بل لها مشارفة على مناظر تناهت بالمحاسن ايضاً اذ تطل اولاً على قرية « الارض الحمراء » ثم على قرى « سنابروت ، التله ، الرويسة الشيخ قلعة ، عمام ، زوببك ، دغمشليه » وامثالها التى انتشرت في تلك الانحاء يمنة وشمالاً ، ثم من ورائهن (جبل الاقرع) الذى يلوح على بعد كانه قبة من اديم السماء .

لاسيما اذا تسلقنا ذرى جبل « الجنكل » و « الكتف » الذين كانا متكئاً للقصبة من جهة الشرق والجنوب ، ونظرنا الى ذلك المنظر الفسيح الذى يتغلغل وراء الآفاق المرئية ، ثم الى القصبة نفسها التى كانها صحيفة من الماس احيطت بسوار من الميناء المنقوشة فان ذلك انضر وازهى . ويرى من ذروة جبل « الجنكل » واد وسيع وبعده قرية « دريوس » ، ثم انحاء « جبل الاكراد » ثم الافق الذى يقصر البصر عن تعيين حدوده ، وتشاهد من جبل « الكتف » الهضاب والربى والوديان والغياض والرياض ، ثم القرى الكائنة بين

جبله" وبابنا .

تصادي القول ان هذه القصبة هي من اجمل قصباتنا بحسن المنظر وتنوعه ونضرته . وهي في كتاب سورية من الصحائف الممتازة الغراء ، التي تجب قراءتها بالشوق والسرور .

***

اما الخطوط الداخلية في القصبة ؛ فمن العبث ان تحرى الاقسام والفروع فيها وهي لا تتجاوز بعددها «٢٦٠٠» بيتاً . ومن السهل ان نحيطها برمتها بنظرة واحدة .

وقد كانت حتى العهد القريب منقسمة الى ثلاثة اقسام صغار . ففي الغرب « بابنا بيت سالم » وفي الشمال « بابنا بيت حسون » وفي الشرق « بابنا بيت شريقي » . ثم اضيفت اليها الاقسام الموجودة في جبل (جنكل) وهي: « الجنكل الاول » و« الجنكل الثاني » و« الجنكل الثالث » . ولهذا اصبحت مؤلفة من ست محلات طبيعية .

وجميع بيوت هذه المحلات لا تختلف عن بعضها بشيء . هذا وان تكن جميعها مبنية بحجر ابيض يسمونه « حجر النحيت» ولذلك كان خارجها جميلا بذلك اللون الناصع . ولكن هذه البيوت التي كادت ان تكون كلها عبارة عن طابق واحد ، قبيحة الداخل لان سقوفها قائمة على اخشاب من الحور مصفوفة حيث جائت لصوق فوقها الواح من الخشب ايضاً او حصائر طلي من فوقها بالوحل ، وهي وطيئة لدرجة يحسبها الانسان انها ستسقط على رأسه . ويضطرون دائما لرصها بتكاسس من الحجر .

ثم ان جدرانها مطلية بالوحل المخلوط بالتبن ، ونوافذها تغلق بمصراع واحد وانهم يطينونه في الشتاء ، ويفرحون عنه في الصيف .

ويوجد في هذه القصبة بضعة منازل بناؤها لا بأس به ، واقسامها الداخلية تكاد تكون شيئاً ، ولكن بيوتها سافلة .

ويوجد فيها محلات لايواء الحيوانات ايضا . وهذا يدلنا بوضوح على درجة فقر هذه القصبة من الابنية الصالحة للسكنى ثم ان الحوانيت الموجودة في هذه القصبة التي لا تزيد عن عشرين هي على عين الدرجة من عدم الانتظام والترتيب .

ثم لا يوجد فيها من الابنية المهمة الا جامعا ودار الحكومة ، ثم بناء المدرسة . فالجامعان والمدرسة هم من آثار همام لا تنسى صهيون احسانه الكريم . « نعم ان « جامع نشأت بك » هو من الآثار الخيرية المرضية .

ثم ان هذه القصبة محرومة من الطرق المنتظمة ايضاً . وليس فيها الا طريق واحد يقطع القصبة من الشرق الى الغرب بميل قليل ، ويسمونه « طريق السرايه » . اما الطرق الاخرى فهي عبارة عن مداخل ضيقة معوجة كثرت فيها المنعطفات .

ويوجد فى خارجها طريق « اللاذقية » الذى يمتد الى الجنوب الغربى ، ثم فى جنوبيها طريق « جبلة » ، وفى شماليها طريق (جسر الشغور) . وجميع هذه الطرق لم تخرج عن الحالة الطبيعية .

* * *

ويوجد فى بابنا ثلاثة ينابيع . الواحد فى محلة « بابنا بيت حسون » . ويسمى « عين عثمان » . ويستعمل ماؤه للشرب . والثانى فى جوار دار الحكومة ويسمونه « عين عويجان » وماؤه غير صالح للشرب . والثالث « عين سلامة » وهى فى « الجكل الثانى » وماؤها يمتاز عن جميع تلك المياه . وهم يملؤن الماء بجرار كبيرة واسعة الافواه . ويوجد فى القصبة مقدار ثلاثين بئراً ايضاً . ولا جرم ان هذه الينابيع لا تقوم بسد العوز . لاسيما ابان الصيف اذ ينقص مقدار المياه فهنالك يدخل الناس فى ضيق شديد .

٧ — الاحوال الاجتماعية

[١] — الحالة الاجتماعية فى بابنا — ان سكان هذه القصبة الذين يتجاوزون بعددهم (٢٠٠٠) نسمة ، كلهم من المسلمين السنيين ، وهم ينقسمون من حيث الحياة الاجتماعية الى طبقتين . ولهذا نرى من الواجب ان ندرس حالهم بالنظر الى هاتين الطبقتين . ثم توجد فى هذه القصبة طبقة من الاغنياء وارباب اليسار تتألف من بضعة اشخاص ، وطبقة من عامة الناس المستضعفين الذين يودعون حياتهم تحت سيطرة اولئك المسيطرين . وهم السواد الاعظم . والفرق بين هاتين الطبقتين يكاد يلمس لوضوحه .

والطبقة الاولى تتألف من خمس عائلات تبلغ نحو بضع مآة افرادها وكلهم يشتغلون بالزرعة ذلك لانحرام المركز والقضاء معاً من الحياة التجارية . ويوجد بين رؤسائهم من له مقدار عشرة آلاف دونم من الاراضى ، فى الاصقاع الساحلية ، او فى لواء اللاذقية ويخمن دخلهم السنوى بثلاثمائة ليرة . ولكل واحد من هؤلاء الرؤساء بيت للضيوف يسمونه « اوده » . وهو مهيء لقبول الزوار والضيوف فى جميع الاوقات . وهذه الحالة تضطرهم الى ان يرتادوا دخلاً غير الذى لهم ، ليتمكنوا من القيام بتلك النفقات الطائلة التى الزموا انفسهم بها . وهذا هو السبب الذى يدفعهم الى التطاول على المزارعين والتسلط على جميع السكان . ويروى ان معظم الافراد هناك اما من الفارين من الجندية ، او من مرتكبي الجرائم ، او من المحكومين بها ، الذين تضطرهم حالتهم هذه الى التكتم والتباعد عن اعين الناس . وهذه كانت فرصة عظيمة لرؤساء تلك العائلات يستفيدون منها ويسعون لادامتها وبقائها . ويظهرون لهؤلاء المحترزين بانهم يريدون ان يرفعوا عنهم حيف المأمورين

ويفهموتهم ضرورة الفاداة لاجل تأمين هذه الغاية المطلوبة ؛ ويجلبون منهم بما يشاء اطماعهم من النقد والمنافع . فاذا شذ عنهم شخص ، وعصى امرهم ، فلا يألون جهداً بالقبض عليه وتسليمه الى الحكومة ليذوق نكال جريرته . ويجزونه على شذوذه وعصيانه .

وقصارى القول ان هؤلاء الرؤساء الجائرين المتظاهرين بالدفاع عن الخلق ، والذين لا يدعون فرصة لاضرارهم الا ويستهزونها ، ما هم الا بلاء صب على هذا القضاء ، وعلى اهليه المساكين .

ويروى عنهم من التلاعب فى مسائل الاعشار والضرائب وابتزاز اموال الناس واضرارهم ما يجعل الانسان فى عجب وحيرة من خضوع الناس واستسلامهم لهم الى هذه الدرجة. ويوجد فى نابلس بعض رؤساء ايضاً ليسوا فى هذه الدرجة من السلطة ودخلهم لا يزيد عن مائة ليرة فى السنة . ولا يبلغ تغلبهم الى درجة الاولين ولكنهم لا تسنح لهم فرصة يستطيعون فيها الاستفادة من اتعاب الناس الا ويستهزونها . وابناء هذه الطبقة لهم ميل عظيم الى وظائف الحكومة . ذلك لتكون لهم عوناً على احراز امانيهم المذكورة .

وان هذه الطائفة التى تكتسى اردية حمراً من نسيج يسمونه « الديمه » وفوقها الجبب الطويلة وتتعمم بعمامات منقوشة ، لا حظ لها من العلم والعرفان رغماً عن طموحها الى الوظائف الرسمية حتى ولا تميل نفوسهم اليه .

وطباعهم المتواضعة التى تخضع لكل امر ، هى من الهدوء والسكينة فى درجة ، لا يمكن معها تصديق ما يروى عنهم من انواع الاعمال التى بحثنا عنها ، الا باكراه النفس واجبارها. واذا سلمنا بصدق هاتيك الروايات نعلم ان لكل من هؤلاء الرؤساء كثيراً من الاتباع المسلحين .

ويقال ان عدد اتباع كل واحد منهم يناهز المائة ، وبهذا يكون مجموع خولهم فى القضاء يناهز الف شخص . ولهؤلاء الاتباع مفاداة عجيبة بالدفاع عن اسيادهم ، او بالاسراع لتحقيق امانيهم ومقاصدهم .

وقصارى القول ان افراد هذه الطبقة الاولى الذين يروى عنهم انهم لا يهملون شيئاً من فرائض دينهم ، وانهم يصلون بعيشهم من القناعة والتصبر الى درجة حرمان النفس مما انعم الله عليهم ، لو عاملوا ابناء جلدتهم باللين والانسانية ، وقدروا هذه التربة المنبتة التى نشأوا عليها حق قدرها فلا جرم انهم يرسمون حول مجدهم هالة غراء من العز والشرف ، ويشحنون قلوب الناس باحترامهم وتبجيلهم .

*
* *

اما الطبقة الاجتماعية الثانية ؛ فهى عبارة عن السواد الاعظم من سكان (نابلس) . فاذا صرفنا النظر عن اتباع الطبقة الاولى من الاهالى ، نرى الباقين فقراء قانعين منهمكين ،

لا تزال حياتهم فى الدرجة البدائية .

وكلهم يشتغلون بالزراعة ، وثلثهم من اصحاب الاراضى ، والثلثان يشتغلون بالاجرة عند ارباب الاراضى فى اراضيهم ، او فى بساتين الاثمار ، وبهذا يتسنى لهم تأمين العيش .

ومن العبث ان ترتاد عند هؤلاء المساكين ، عادةً او مدنية او حياةً لانهم ليسوا الا آلة وواسطة للغير يستفيد منهم ويستثمر مساعيهم . حتى ان اصحاب الاراضى بينهم عاجزون عن اجراء ولو حساب بسيط ، والباقون منغمسون فى بحر من الجهالة .

فهل نقيض الزمن لهؤلاء الفقراء المساكين الذين لايزيد دخل ايسرهم حالاً عن بضعة آلاف غرش فى السنة ، الخلاص من الاطماع التى جعلتهم آلة لاجتناء الثمر ، ويسعدهم بتوجيههم الى الهدف التى تأمر به المدنية الحقيقية ، وتتطلبه سعداء بنى البشر او يقربهم اليه ، ولا جرم ان هذا لمن الآمال التى يجب ان نركض وراءها ونهتم بتحقيقها .

[٢] — الحالة الاجتماعية فى صهيون — تجاوز سكان هذا القضاء بعددها (٣٢٠٠٠) نسمة ، وثلثهم من المسلمين السنيين . اما الثلثان فمنهم (١٥٠٠) من المسيحيين وهم من الروم الاورتودوكس . والباقون من النصيريين . فاذا اخذنا بالاكثرية نضطر الى ان نعتبر القضاء من الديار النصيرية . وقد كان يوجد فى قرية (آرامو) وقرية (غنيمه) نحو (٦٠٠) نسمة من لارمن ولكنهم نقلوا الى محل آخر ، والروم الاورتودوكس الذين مر ذكرهم موجودون بين اكثرية عظيمة من المسلمين والنصيريين ، جعلتهم لا يحس لهم بموجودية اجتماعية تستحق الذكر . ولهذا فان بحثنا عن حياة هذا القضاء الاجتماعية ينحصر فى هاتين الساقتين فقط المسلمين والنصيريين .

ان المسلمين السنيين الساكنين فى قصبة بابنا يعرفون باسم (عشيرة صهيون) . ولهم فروع فى بعض انحاء القضاء . فتوجد فى كل من قرى (بوكاس ، حفه ، شرقاق) اسرة مدنية يشبه رؤساؤها ، رؤساء المركز وهم لهم نموذج صغير بالسلطة والسيطرة . وتتألف كل واحدة من هذه العائلات من خمسين نسمة ولكل منها مائة شخص من الاتباع المساكين .

وهؤلاء لا يختلفون شيئاً عن رؤساء المركز بحالتهم وحياتهم وكسوتهم وسلطتهم . ولهذا لا نرى حاجة او الاسهاب فى البحث عنهم . واتباعهم من المرويين لا يزالون يرزحون تحت سيطرتهم الباهظة .

ويوجد من السنيين فى هذا القضاء « عشيرة جبل الاكراد » التى تقطن الناحية المسماة بهذا الاسم . وهذه العشيرة السنية التى اتحدت مع عشيرة صهيون لا تكاد تختلف عن الاخرى بشئ . ولهذه العشيرة رئيس وأربعة رؤساء لا يألون جهداً بالتشبه بجيرانهم ، ولا يدخرون

وسعاً فى منع السعادة والرفاه عن اتباعهم من القرويين .

وهاتان العشيرتان السنيتان؛ عشيرة صهيون وعشيرة جبل الاكراد هما العنصر الاسلامى السنى فى هذا القضاء .

وتقابلهم فى القضاء الطائفة النصيرية . وهى عبارة عن عشائر « العمامرة » و« المهالبة » و« بيت شلف » .

فعشيرة العمامرة تسكن الانحاء الجبلية من القضاء . وعدد افرادها يتراوح بين (٥٠٠٠ و٦٠٠٠) نسمة. ويوجد بينهم (٢٠٠٠) من الرجال المسلحين ببنادق « ماوزر » . واقوى من فيهم الرئيس وثلاث عائلات من وجهاء العشيرة .

اما عدد افراد المهالبة فهو (٢٠٠٠—٣٠٠٠) نسمة . فنهم (١٠٠٠) من المسلحين وفيهم شخص واحد يحكم على جميع العشيرة .

ثم ان عشيرة « دريوس » هى مثل المهالبة بكثرة الرجال ولكن قوتها المسلحة لا تزيد عن (٥٠٠) شخصاً .

واقوى العشائر القاطنة فى قضا صهيون هى عشيرة « بيت شلف » ويبلغ عدد افرادها قريباً من (١٠،٠٠٠—١٢،٠٠٠) نسمة . منهم (٣٠٠٠) من المسلحين وعدد حكامها ومتغلبيها لا يتجاوز بضعة انفار .

وقصارى القول ان النصيريين فى هذا القضاء منقسمين ايضاً الى عشائر مختلفة ،ولكل منها اتباع مسلحين، ولهذا يجب فى البحث ان ننظر اولاً الى مناسبات الطائفتين الاسلامية والنصيرية ، وثانياً الى مناسبات العشائر بين بعضها ، وندرس حالتهم الاجتماعية .

يزعمون انه لا يوجد اختلاف بين العشيرتين السنيتين ، لانهم لا يريدون ان يتفرقوا ويفشلوا تجاه قوة النصيريين العظيمة ولهذا فانهم لا يزالون على اتفاق واتحاد دائم . ولا بد ان يحدث بين العشائر الاسلامية بعض الجرائم كالقتل ، وخطف الاناث . ولكنهم يحسمون هذه المسائل بين العشيرة ولا يدعونها لتكون سبباً للاختلاف والشقاق وهؤلاء العشائر لا يعيشون تحت الخيام كعشائر البدو . بل كلهم متوطنون فى منازل ثابتة . هذا وان تكن تلك الاوكان التى يسمونها « بيوتاً » هى احط وادنى من خيام البدو . ولكن استقرارها منعهم من الفوضوية العمومية ، واضطرهم الى حل كثير الاختلافات التى تحدث بينهم .

وللسنين تجاه النصيريين حالة روحية جديرة بالذكر ، ولا يصح الاعتقاد بان السنيين يحبون النصيريين . لانهم على يقين من بطلان مذهب هذه الطائفة ، ولذلك فهم يعتقدون ببعدهم عنهم اكثر من النصارى وغيرهم ممن يخالفونهم فى المعتقد ؛ عليه فان السنيين لا يزوجون بناتهم الى النصيريين البتة ، ولكنهم ينكحون النصيرات ويقال انه توجد فى

بيوت متعلق السنيين بمكانات كثيرة منهن ثم لا توجد اشارة فى الديانة النصيرية تدل على ان ابنائها يحبون من سواهم البتة. ولهذا فلا تكون قلوبهم أبر بالسنيين، من قلوب السنيين بهم.

ورغماً عن بعد هاتين الطائفتين عن بعضهما روحاً وديناً تراهما على مجاملة ظاهرة، ووفاق دائم. ولا ترى لاحدى الطائفتين فى قضاء صهيون تجاوزاً على الاخرى. ولا جرم ان هذا السكون وعدم التحرش مبنى على توازن القوى والسلطة بين الفريقين. ونجاح السنيين فى تأمين هذه الموازنة بالرغم عن قلة عددهم تجاه كثافة عدد النصيريين جعلهم يعتقدون فى انفسهم العزة، ويحملون مكانتهم على علو كعبهم فى الجسارة والبسالة التى ارهبت رقبائهم، وجعلتهم يخشون جانبهم.

ولكن النصيريين لا يسلمون بهذا التأويل، وينكرون فى الموازنة الموجودة نشأتها عن جسارة السنيين وبسالتهم، ويحملونها على الاختلاف والشقاق الموجود بين عشائرهم فقط.

ولا جرم ان تأويل النصيريين اقرب للحقيقة وامس بالصواب. لان اوصافهم الاجتماعية الخاصة، ودعاوى الثارات والانتقام بينهم جعلتهم فى شقاق وخصام دائم. ولهذا السبب ينقسمون الى قسمين فالقسم الاول يضم قسماً من عشيرة العمامرة، وجميع عشيرة المهالبة، وقسماً من عشيرة بيت الشلف. اما القسم الآخر فيتألف من بقية العمامرة، ومن عشيرة دريوس، ومن بقية عشيرة بيت الشلف. وهذان القسمان لا يزالان فى المرصاد لبعضهما، ولا يدعان فرصة لاضرار بعضهما الا ويهبان لانتهازها، كانهما جيشان متخاصمان. ولا ادرى ماذا تبتغى هاتان الفئتان من سفك دماء بعضهما كالوحوش الضارية؟

وهذا الخلل هو الذى مكن العشائر السنية من الاحتفاظ بكيانها. ومع هذا فقد يروى ان النصيريين يعترفون بكفاية القوة المسلحة التى يستند عليها السنيون.

وقصارى القول ان هذا التوازن والتماثل بالقوى جعل هاتين الطائفتين مرتدعتين عن التسلط على بعضهما فى قضاء صهيون، غير ان من النصيريين اناساً يبلغ عددهم قريباً من الف شخص كلهم مسلحون، يمضون حياتهم بالشقاوة وقطع السبيل.

وينقسمون الى عصابات ربما جاوزت بعددها مائة شخص، وديدنهم شن الغارات على القرى القريبة، وخاصة على القرى الساحلية، وعلى الانحاء التابعة للاذقية فيعيثون فيها فساداً ويحرقون وينهبون، ويقتلون اذا لقوا منعاً او مقاومة، ويرتكبون كل سيئة.

وقصارى اقول ان هؤلاء القوم الذين ينهبون اعمارهم بحالة يسود لها وجه البشرية ولا تليق حتى بالاقوام الابتدائية، يتدهورون فى افجع ما يصاب به ابناء البشر من المهاوى الفظيعة، ويسوقون معهم هذا الوطن العزيز الذى لم يعرفوا قيمته، وهذه البلاد الناضرة

التي اربت على بالجنان بلطافتها وحسنها الى تلك الهوات المائجة، فيملكون ويهلكون معهم،
وقد آن زمان الصيحة بهؤلاء الغافلين ، وحان الان زجرهم عن اقتحام هاتيك الفظائع.
واننا نعلم ان الاعتراف بهذه الحقيقة المرة هو من اكبر وجائبنا .

[٣] — تمز — وبعد ان ذكرنا الاوصاف الاجتماعية الاساسية في هذا القضاء ومركزه نرى من اللازم ان تتم البحث باضافة بعض الشؤن الفرعية ايضاً .

اولاً ، لا يوجد فرق في نسق العيش بين السنيين والنصيريين البتة . لأن جميعهم يعيشون في تلك الاوكان المتداعية والذين يتمكنون منهم من فرش لبد في تلك الارض المتعفنة من هاتيك البيوت التي هي عبارة عن صبرة من وحل لا جرم تكون كل السعادة لهم واكثرهم يربطون دوابهم في هذه البيوت وينامون معها جنباً لجنب. وقد استأصلت فيهم هذه العادة حتى لا يكاد يشذ عنها احد منهم .

ومع هذا فان خلودهم في هذه العيشة الذميمة ، ورضاهم بها لا جرم يستند على ما هم فيه من الجهالة العمياء. لانهم لا يوجد بينهم من يعرف القراءة والكتابة الا بعض اشخاص في مركز القضاء لا يتجاوز عددهم (٣٠) نسمة. وهكذا الحال في السنيين ايضا .

اما نسقهم في الامور المذهبية فان للسنيين اماما في مركز القضاء فقط ، وقراهم محرومة من الرؤساء الدينية . والنصيريون عندهم في كل قرية شيخ ويتفق المشايخ مع الرؤساء ويتصرفون بهؤلاء المساكين كيف شائت اهواؤهم .

والسنيون يراجعون قاضي المركز في مسائل النكاح وغيرها من المسائل الدينيـة . وقد نطقت القيود الرسمية في محكمة القضاء الشرعيه ان عدد الذين تزوجوا سنـة (٣٢٥) كان (٩٣) وسنـة (٣٢٦) ١١٦ وسنة (٣٢٧) ١٢٥ وسنة (٣٢٨) ٣٧ وسنة (٣٢٩) ٥١ وسنـة (٣٣٠) ٢٣ وسنة (٣٣٢) ٤ اشخاص فقط . ويقال ان قاعدة تعدد الزوجات ليست متعممة بين السنيين .

ولم نظفر بالقـاعدة الحقيقية التي يتبعهـا النصيـريون في هذا الامر . عـلى انه من العبث ان نبحث عن هكذا امر بين هذه الطائفة التي ليس للنساء عندها من قيمـة اجتماعية .

وان النساء في قضاء صهيون عرضة لكل اضطهاد وظلم وهؤلاء البائسات اللاتي لا ينقطعن عن العمل ، لا يزلن حفاة ، ولا يكون حظهن من الثياب الا اطمار بالية ، وانهن لجديرات بالرحمة لسقوطهن في هذه الديار التي خيمت عليها الخشونة والغلظة . ولا جرم يحق لهـن ان يصرخن بالشكاية من هذه الويلات ، ولكن هيهات لتلك الاصوات الضئيلة ان تستطيع

ع رنينها بين تلك الجلبة القاصفة .

نعم ان قعقعة السلاح بين اولئك المتمردين الذين لا يبالون بارتكاب اشنع الجنايات ، لا تزال تخنق بضوضائها اصوات تظلم الدماء . فهلا يعلم اولئك الغلاظ ان هذه الذنوب الصادمة التى تجنيها ايديهم على تلك العصابة البائسة الضعيفة ، هى من أعظم الجنايات الاجتماعية فى نظر الانسانية المتمدنة . ولكن بعيد عن هؤلاء الذين لا يعرفون الا البنادق ان يعلموا نعم انهم لا يعقلون .

ثم ان الدماء فى هذا القضاء هينة رخيصة . وقد قيدت جداول الاحصاء سنه (١٣٣٢) فى هذا القضاء تسعة جنايات من نوع القتل اشترك فيها (١٠٢) من الاشخاص . وجرائم الضرب والجرح لا يحصى لها عدد . وضبطت القيود منها « ٨١ » حادثة فقط . وما يدرينا لعل هؤلاء من الاشخاص الذين تمردوا على الرؤساء الصهيونيين وخالفوا اهواءهم . ونرى الكثير يصادق على اصابة هذا الرأى .

*
* *

ولا نعجب من اسماعهم الغليظة التى لا يطربها الا صوت البنادق . اذا رأيناها لا تهتم بالالحان الرقيقة الموسيقية او غيرها من الهامات الفنون الجميلة . ولا اثر هنا للشعر ، ولا للموسيقة ولا لغيرها . وتوجد عندهم ثلة من زعانف الناس يسمون بالنور يتجولون فى تلك الاصقاع ، ويتحفون القضاء حين زيارتهم بقرع الطبول ، ولولة الزمور ويثب هؤلاء الاسقاط كالقردة يمنة وشمالاً ، وهم من الوساخة فى درجة تخجل منها الانسانية ، ويغيرون على الشامة بنتانة كريهة . وعلى الادمغة بعماء تعمل فيها عمل الرصاص فيحسبهم الصهيونيون اولئك المساكين ، انهم يرقصون والبلاء الاسود فى تسمية تلك السفاسف غناء وتراهم يحركون اشداقهم ، فيتطاير منها فتات اللعاب ويقولون :

امان امان فنجانه
فنجانه هالطويله
يصلحله شرب الاركيله
عملت علينا حيله
تمسك لنا البغاله

وليت شعرى هل يشعر الصهيونيون بالطرب حينما تنزل هذه السفاسف على ادمغتهم كجلد السياط . اذ من المستحيل ان تشف انظارهم او سحنتهم عن هكذا شعور . على ان عدم شعورهم وتحسسهم بتلك الطبول والزمور امر ظاهر لا يعمى عن رؤيته الا من كان منهم ، او من اضرابهم .

٨ – الاحوال الصحية

من العبث ان نتحرى في هذا القضاء حالاً في الصحة غير التي نعهد في الاقضية الاخرى . واذا علمنا ان الحالة الصحية في المركز والملحقات هي على غاية في الانحطاط رغماً عما افاضت عليها الطبيعة من الاستعداد الحيوي الكامل نضطر الى ان نحمل القصور عليهم لانه عبارة عن اهمال بشري وعجز .

واذا اردنا ان نبرهن على صحة دعوانا ، نذكر المستنقعات التي اشغلت مساحة مائة دونم في الجهة الغربية ، وخمسماية دونم على ضفاف العاصي في الجهة الشرقية . وهذه الينابيع المرضية لا تنفك تخلق امراض الحمى المرزغية وتشبع بها القضاء قتلاً وفتكاً. ولا ادري كيف يسوغ اهمال هذا الامر وعدم التعرض لدفع هذه السموم القاتلة في هذا الزمن ؟ وتوجد في القضاء غير هذه الحمى الامراض العينية والسل ، والدوزانطاريا ...الخ وليس لها من سبب الا حياة السكان العمومية ، فمتى يا ترى يتخلص هؤلاء البائسون من هذه الحياة المخالفة للقواعد الصحية ، ومتى يدركون معنى الصحة وقيمتها ؟

علمنا بالبحث ان للصهيونيين نسقاً عجيباً في المداواة . فاذا ارادوا تسكين وجع الاضراس يعمدون الى الحائط فيدقون فيه مسماراً ثم يضربونه بسيف صارم فيقطعونه ، فانقطاع المسمار يقطع الوجع عن الضرس !!

ولهذا يجب ان لا نعجب من ابتلاء هؤلاء المساكين بالامراض في هكذا قضاء بل اولى لنا ان نعجب من احتفاظهم بالحياة ومع هذا فانهم يركضون الى العدم والهلاك بخطوات سريعة . وهذه الامراض لا تزال تفتك بهم ، بل تصليهم بنارها ، كما يصلون بعضهم بنار بنادقهم .

وقد اطلعنا بحساب تخميني على ان مقدار الوفيات في هذه السنة تجاوز (١٣) في المائة او بالاوضح ان مقدارها كان سنة (١٣٣٢) (٤٠٠٠—٥٠٠٠) نسمة . واسبابه اولاً مرض الحمى الفشية التي اكتسحت جميع الانحاء ثم الحرمان والجوع . والذي نعلمه علم اليقين — مهما اختلفت الاسباب هو تناقص هؤلاء القوم من جرائد النفوس وانعدامهم .

هذا وان كان لا بد لتلك الامراض الطارئة من هكذا فتك عاجل، غير ان للدات في القضاء لا تتجاوز ثلاث في المائة ، وربعهم يودع الحياة في ابان الطفولية ثم اذا اضفنا اليها مصائب الامراض المحلية لا جرم تتجلى لنا دهشة هذا المقدار ونطلع على ...

ولهذا يجب في الاستحالة التي ننتظ حدوثها في هذا القضاء المحروم من جميع الوسائط

الاجتماعية والمدنية، ان تستهدفهم الصحة العامة قبل كل شئ، لان اهم اركان المدنية هي الحياة. وعليه يجب ان يكون دستورنا في هذا الامر « لا مدنية بلا صحة وحياة ».

—٢٢—

بين بابنا واللاذقية

ما كنا نرى لزوماً لتعيين خطة السفر، لان الطريق بين بابنا واللاذقية معلوم و ضح. وهذا الطريق الاخير الذي سيوصلنا من بابنا الى الساحل بظرف بضع ساعات سمعنا عنه من احاديث الثناء والوصف باللطافة ما جعلنا نستعجل بانتظار اوقات السعادة التي نفارق فيها بابنا نبتهج برسم آخر خط في صحيفة هذا السفر.

ولو لم نضطر لتشييع هذه الليلة ونحن ايقاظ بين الحشرات التي تتراكض حولنا على تراب ارض الغرفة الخالية التي اوينا اليها في مدرسة بابنا، لكنا حاولنا ان ننير هذه الظلمة الكثيفة التي غشيت ابصارنا بنور الامل الذي انبعث عن ابتهاجنا بهذا السفر الميمون، ولعلنا كنا نعتاض عن هذا الديجور بشئ من الرقاد.

غير ان هذه الصحيفة الاخيرة من كتاب سفرنا كانت محشوة بسطور مملة مزعجة. وكنا ندافع هذه الظلمة وننتظر انبلاج الصبح وآذاننا مصغية الى دبيب الحشرات المتراكضة حولنا في احشاء هذا الليل الرهيب. وانظارنا معطوفة الى الكواكب اللامعة في قبة السماء الساكنة.

وما زلنا على هذا الانتظار الممل حتى كبت فحمة الليل وقام على اطلسة السماء من وراء جبال جنكل لون رمادي. فكانت لنا هذه الصحيفة البيضاء برات نجاة. ولم نلبث بعد هذه البشرى الهندسية الا وامتطينا متون الجياد. واخذنا نخوض في تلك الظلمة التي لم تزل سابلة سدولها.

غادرنا قصبة بابنا وسنحت لنا نكهة عطرة انبعثت من اشجار الآس وامتزجت بارواح ذلك النسيم العليل في هذا الصباح الصيفي فأحيت ميت الآمال واسكرت الارواح.

وهذه جميع انحائنا تغط في رقدة الصبح، في طي ذلك الهدو السائد. ولا تلبث ان تطل عليها مالكة النور من فوق شواهق جبال جنكل، وتسلط امواج ضيائها لتبعث جميع النيام من مرقدها.

انحدرنا في منحدر سهل وبعد برهة تركنا قرية « الشريفة » ولاحت عن يسارنا ربى « شيخ البيادر وعين التينة والمزارعة ودباش والعميمرة ». ترسم على نحوه الافق خطوطاً

مبهمة ثم بعد مدة تراءت عن يميننا جبال « بر ايشتو » و « زوبار » كأنها تلال صغيرة قامت بيننا وبينها الوديان . وما كان انضر منظر تلك الوديان والخضرة .

ثم كان على يسارنا مجرى « نهر الشقيفات » كأنه طريق ممدد بالبلاط الابيض، وعلى يميننا وادي « بابا » . وها نحن نغادر طريق جبله الذي يمتد الى الجنوب وننعطف نحو الغرب ، ونرى خيال البحر يلوح عن بعد كأنه صحيفة سمراء .

وبعد نصف ساعة تركنا عن يميننا قرية « الرقيق » في كبد الوادي ، وعن شمالنا قرية « خوالله » وهي عبارة عن بضعة بيوت . وكان سبيلنا لا يزال يتدرج بالانحدار . وعلمنا من التلال والسهول التي قامت امامنا اننا سنسير في طريق سهل حتى نصل اللاذقية ، وهذه البشرى بعثت في نفوسنا نشاطاً وتسلية .

هذه الشمس بزغت من وراء جبال جنكل واخذت انوارها تتدفق على هذا القضاء حتى غمست كل شيء بذلك الطلاء الذهبي . واكتسب سبيلنا منظراً نضيراً .

وسرنا ردحاً من الزمن ونحن محصورون بين اشجار الحور وشيء من الخضرة ، وكانت الحقول المحصودة حوالينا كأنها مبتسمة مستبشرة وهذا المحل هو المنبع الذي يسمونه « عين التريبنة » ثم غادرنا هذا المنبع على يسارنا ، ولم نزل نسير في المنحدر . ثم انعطف الوادي الذي كنا نتبعه من الغرب الى الجنوب ، وتراءت لنا في الجنوب قرية « ايرطه ليه » .

وكنا نسير في الساحة السفلى من الوادي ونحتفظ باتجاهنا الى الغرب . وها قد شرعنا نصعد في مرتقى صغير واجتزنا « نهر الرقيق » الذي يجري في اعماق الوادي . وقد وصلنا هذا المرتقى الى ذروة « الحميدية » وقريتها . وها قد غادرنا قرية الحميدية على يميننا واخذنا في القدم وكنا على بعد ساعة من بابنا ولاحت لنا عن شمالنا قرية « خربة خيشون » وقرية « المشهر » وهما في طريق جبله .

ثم بعد اغوار وانجاد مررنا من جانب قرية « قدر » الكائنة وراء واد صغير على هضبة بعيدة . ثم تركنا قرية « الزفت » على يميننا وقرية « سمندل » على يسارنا . وهذه كانت مستترة وراء الهضبة .

وقطعنا المرعى المسمى « مرج الزفت » وكان على يميننا جدول « ساقية القدره » الذي ينبع من انحاء « قدره » .

وبعد قليل لاحت على يميننا قرية « برديخه » ، وعلى غلوة منها فوق الربوة قرية « بهلولية » و « رشية » ووراءهما عن بعد ذروة « جبل الاقرع » العالية .

وهنالك شرعنا نرى الحقول المزروعة بالذرة البيضاء والصفراء . وبعد ان تركنا قرية « المختارية » على يميننا وقرية « القباروصية » على يسارنا انقلب طريقنا الى سهل بحت . وبعد ان اجتزنا « نهر المختارية » بقليل وصلنا الى « النهر الكبير » الكائن في منتصف الطريق

بين بابنا واللاذقية .

امضينا قريباً من ثلاث ساعات منذ غادرنا بابنا . وها نحن نخوض في الماء بخيلنا بين خرخرته وزبده وقلوبنا تطفح سعادة لما كنا نراه حولنا من المناظر البديعة .

وها قد لاحت لنا في اليمين عن بعد قرية « عين اللبن » وقرية «الجندارية » وفي اليسار قرى [العنصه ، ست فيرس ، شربة حودو] ومن ورائها قريتا « وردو ورويسة الحرش» وجميعها كانت تتسلسل على الضفة اليسرى من النهر الكبير وهي على الملف ما يكون من نضرة المنظر بخضرتها اللطيفة . وما كان اجمل هذا الوادي في هذا الصباح لصيفي . وثابرنا على تعقيب الساحل الايمن من هذا النهر الممتد الى الجنوب الغربي . والآن وصلنا الى طريق « اللاذقية — جسر الشغور » المعبد وسنسير فيه حتى اللاذقية .

ثم غادرنا عن يسارنا قريتي « رودو » و « ساقية العنصه » واخذت القرى التي مر ذكرها تتوالى على انظارنا حتى لاحت على يميننا قرية « قايو » . ومنذ تراءت قرية «الشيخ محمود » شرعنا نلمح سفوح اللاذقية عن بعد » واخذ منظر البحر ينفسح امامنا حتى سد علينا الآفاق .

وبعد مضي ست ساعات منذ ركوبنا من بابنا وصلنا الى قرب جامع «الشيخ المغربي » في اللاذقية . وبعد قليل اخذنا ندخل الابواب القديمة في هذا المركز الذي ظهر لاعيننا بمنظر رهيب . وكنا نسير على ارصفة البلدة وبودنا ان لو طالت هذه السفرة التي ما كنا نحسبها الا جولة للتنزه الصبحي . وكنا بهذه الفروسية نريد ان نمثل فرسان القرون المتوسطة الذين يتجولون في خارج ابواب القلاع القديمة .

— ٢٣ —

قضاء مركز اللاذقية

١ — موقع القضاء وحدوده

ان قضاء المركز الكائن في الشمال الغربي من لواء اللاذقية محدود من الشمال بولاية حلب ، ومن الشرق بقضاء صهيون ومن الجنوب بقضاء جبله ، ومن الغرب بالبحر الابيض.

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ا . مساحة هذا القضاء تخمن بمقدار (٣٧٤٨٣٤) دونم ، بما عدا القسم المزروع منه (٢١٣٩٠٠) دونم .

اما عدد سكانه بالنظر الى القيود الرسمية في سنة (١٣٣٢) هو كما يلي :

اسماء النواحي	الارمن ذكور	الارمن اناث	المارونيون ذكور	المارونيون اناث	اللاتين ذكور	اللاتين اناث	البروتستانت ذكور	البروتستانت اناث	الاروام ذكور	الاروام اناث	المسلمون ذكور	المسلمون اناث	الاجمال ذكور	الاجمال اناث	يكون
قصبة اللاذقية	٩٧	٨٦	٢١٧	١٤٥	١١	٩	٤١	٤١	١٦٥٩	١٥٢٤	٨١٩٦	٨٣٥٨	١٠٢٢٢	١٠١٦٥	٢٠٣٨٧
ناحية قرى الخزينة									١٤٨	١٤٩	٧٤٥١	٧٦١٧	٧٥٩٩	٧٧٦٦	١٥٣٦٥
ناحية البهلولية									٤١	٥٨	٢٢٢٣	٢١٢٩	٢٢٦٤	٢١٨٧	٤٤٥١
ناحية البسيط	١٦٤	١٣٥									٢٩٦٠	٢٧٢٤	٣١٢٤	٢٨٥٧	٥٩٨٠
ناحيه باير											٢٤٩٣	٢٥٨٣	٢٤٩٣	٢٥٨٣	٥٠٧٦
يكون	٢٦١	٢٢١	٢١٧	١٤٥	١١	٩	٤١	٤١	١٨٤٨	١٧٣١	٢٣٣٢٣	٢٣٤١١	٢٥٧٠١	٢٥٥٥٨	٥١٢٥٩

وبهذا يكون مجموع السكان «٥١٢٥٩» نسمة منها «٤٥٢٥» من النصارى و«٢٠٧٩٦» من النصيريين و «٢٥٩٣٨» من السنيين . وكان مقدار الولادات سنة «١٣٢٨» و «١٣٣٢» (١٩٣) و (٧٢٨) نسمة . ومقدار الوفيات في هاتين السنتين «٢٩٧» و «١٣٩٣» نسمة . اما الاتراك الموجودين في هذا القضاء الذين بحثنا عنهم في القسم العمومي . فعددهم بحسب القيود الرسمية كما يلي :

في ناحية قرى الخزينة	١٧٦٦
» » البسيط	٢٧٩١
» » باير	٣٠٢٧
يكون	٧٥٨٤

٣ — امور المعارف في القضاء

ما من امة هبت لمناضلة الاستبداد الذي يودي بحياة البلاد ومنافعها ، ويجعل آتي الامم مدفوناً في طي ظلمات رهيبة ،ويصل الى درجة تأبى الطباع لابية تحملها ؛ وشطت لتقويض دعائمه ، ونقصته من اطرافه ثم اقامت مكانه حكم الجمهور ؛ الا وتضطر بعد ان تتكلل مساعي ثورتها بالنجاح الى الاقبال على تنسيق الامور الادارية والاجتماعية ولا سيما امور المعارف . وان الحكم الاناسي العصري الذي نص عليه فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماؤه ، ودان به الثوار الفرنساويون ، لا يسلم ويبقى الا بالمعارف وبالاطلاع على العلوم الاجتماعية والسياسة التي تنقش في ادمغة الامم آيات هذه الحياة الادارية . ولهذا نرى الدولة الفرنسا ية لم تهمل امر المدارس حتى في سنة (١٧٩٢) حينما كانت منغمسة في الحروب الدموية التي انذرت حياتها السياسية بالخطر في داخل البلاد وخارجها ، بل نهض رؤساء الثورة وخطباؤها ، وبحثوا على منابر الخطابة في المجالس الملية عن المدارس التي تهيئ حكومة الجمهور آت بهيج وتجعل اسسها متينة لا تتزلزل . لم يخطأ المؤلفون الذين يشبهون الدستور بسيف ذي حدين . لانه يحمي حقوق الامة من تعرض المستبدين ، ويرمي كاهل الوطنيين باثقل الوظائف . وان الحرية التي تتقيد بحقوق الغير يختلف تأثيرها باختلاف المحيط فهي اما تهيئ للوطنيين آت مطمئن زاهر ، او تجرهم الى مهاو الدمار فاذا كان القوم آخذين نصيبهم من التربية الفكرية والعلوم الاجتماعية فان الوظائف والحقوق بينهم تكون معينة ؛ ولهذا تكون الحرية فيهم كالدليل المرشد تأخذ بيدهم جراً الى السعادة والسلامة . ويتسنى لهكذا امة ان تستحوذ على الظفر في الجدال الحيوي بسهولة . فتتكشف العلوم والفنون ،

وترقى التجارة والصناعة والزراعة بسرعة البرق ، ولا تجد احداً منهم يعتدي على الآخر، وغضب كل منهم لما يخالف القانون ، ويعترض هكذا اعمال ويهب لاسقاطها . وهكذا فان الادارة الدستورية تقضي على الحكومة والامة معاً بالتقيد ببعض القيود النافعة . فيسعى افراد الامة وهم احرار ضمن الدائرة التي ترسمها القوانين ، ويتوسلون بالوسائل الفنية لترقية زراعة البلاد وتجارتها ويجعلون لانفسهم وامتهم آتٍ بهيجاً .

وهذه النتائج الصالحة التي اكتسبتها البلاد الراقية لا يسوغ حملها على تأثير المدارس العالية . فكم في بلاد الغرب من الاغنياء واصحاب الاراضي ، وارباب المعامل الذين انخرطوا في الاعمال العملية قانعين بما لديهم من التحصيل الابتدائي فقط . بيد ان المدارس الابتدائية التي اغنت الطبقة الامامية عن التحصيل التالي والعالي في البلاد الراقية ، هي مدارس جدية بمعلميها العالمين المحنكين وبابنيتها الرصينة الصحية ، وبما فيها من آلات الدراسة الحديثة . ولا بد ان يدرك الذين يتخرجون فيها جميع الحقوق والوظائف التي قضت عليهم بها حياتهم المدنية والاجتماعية . وتجدهم يهتمون لكل ما من شأنه تأمين سعادة امتهم وسلامة اوطانهم ويقبلون على الوسائل التي ترشدهم الى اصلاح اعمالهم ورقيها فيقرؤن الجرائد والرسائل والمجلات ويطلعون على تلك التدابير ، ثم لا يألون جهداً بارتياد الاخصاء وجلبهم والاستفادة من ملكاتهم العلمية والفنية .

منذ اكثر من عشر سنين ونحن في ادارة دستورية . فلماذا يا ترى لم تقيض لنا تلك السعادة المنشودة ، ولم تحي فينا هاتيك الآمال المذهبة . وها نحن نعيش عيشة القرون الوسطى مع ان العالم يطوي المراحل الشاسعة بسرعة البرق في اخلاقياته ، واجتماعياته ومدنيته الحقيقية ، وهذه امس في العالم السياسي ، بلغاريا وصربية يظهران من العزم والانتباه ، ما جعلهما يسبقاننا بشوط بعيد ، وها نحن نتسكع وراءهما ، وهما اطفال السياسة بل اطفالنا .

لا جرم ان سبب هذا الحرمان ، بل خالق هذا الشقاء هو عدم وجود المدارس الابتدائية . وما كان انتصار الامة الالمانية على الدولة الفرنساوية سنة (١٨٧٠) ولا ظفر اليابانيين في اصقاع مانجوريا سنة (١٩٠٥) ، وحتى ولا غلبة البلغاريين في لوله بورغاز سنة (١٩١٣) الا بالمدارس الابتدائية التي تعلم اطفال الامة حقيقة الوطنية . اما نحن معشر العثمانيين فلم نهتم بمعارفنا طريقة معقولة تناسب الزمان والمكان . وترى جداول المعارف لا تزال تبحث عن المدارس التي اسست في جميع انحاء الولاية ، اذ تقرر تأسيسها ولا جرم ليس فيها من مؤسسة يجدر ان تسمى مدرسة . لا سيما لواء اللاذقية الذي قام في اقصى الشمال من الولاية ، ولم يزل يتخبط في حال اليم من ظلمات الجهل ، فهو مهمل بالكلية وترى مفتش المعارف في اللواء يبحث عن اسباب هذا الحال في تقريره الذي عرضه على

مقام الولاية ، فقال :

[لم تتمكن فى هذه السنة (١٣٣٢) من تطبيق قانون التدريسات الابتدائية . اذ يجب بموجب هذا القانون ان تؤسس المدارس الابتدائيـة فى كل قرية . ثم يصار الى قاعدة التحصيل الاجبارى . بيد انه لم يمكن اعداد المعلمين القادرين ، الحائزين على الشروط والاهلية للمدارس التى كفلت نفقاتها ميزانية الولاية . وهذا السبب قضى بتعطيل اكثرها ، ولو عمدنا لتحصيل النفقات من الاهالى لاجل تأسيس هاتيك المدارس ، ثم لم نتمكن من ايجادها بسبب فقدان المعلمين ، لا جرم لا يتحقق النفع الذى يتوخاه القانون ، ولربما يحدث هذا الحال فى اذهان الناس تأثيراً معكوساً . ولهذا اضربنا عن النفقات التى تقوم بها تلك المدارس . ولم نطرحها على الاهالى كما امر القانون .

اما الاجبار على التحصيل ؛ فلم يمكن تطبيقه ايضاً . وذلك بسبب ما اصاب الاهالى فى السنة الماضية من ضنك المعيشة وضيق اليد ، ثم ان الآباء والاولياء الذين تحق عليهم المسؤلية اما هم فى الخدمة العسكرية ، واما هم فى الدرجة القصوى من الفقر والحاجة . ولهذا لا يمكن تطبيق الجزاء الذى رسمه القانون . حتى اننا نرى كثيراً من الطلاب قصرت ايديهم عن الحصول على الكتب والدفاتر وغيرها من آلات الدراسة ، بسبب ترفع الاسعار . ولا جرم ان اطفال المجاهدين ، والشهداء والفقراء الذين اعتادوا على شراء عشرين لوحاً من الورق بعشر بارات يعجزون عن شراء لوح واحد منه بعين الثمن] .

ان تألم لواء اللاذقية كائن بسبب فقدان الابنية ، وعدم وجود المعلمين المقتدرين على التدريس . ويجب على الذين يتألمون لافقار هذا اللواء من المعاهد العامية ان يعلموا ان هذا المرض يشمل جميع انحاء بلادنا . وما من احد فينا الا ويسلم باحتياجنا الى الدواء الحاسم العاجل .

٤ — الاحوال الزراعية فى القضاء

ان الغلال السنوية فى قضاء مركز اللاذقية ، هى كما يلى :

اسماء الغلال	مقدار الاراضى المزروعة دونم	مقدار الغلال كيلة
القمح	١٠٠،٠٠٠	٨٠٠،٠٠٠
الشعير	٤٠،٠٠٠	٢٨٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠
الحمص	١٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠

الفول	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠
السمسم	٣٠٠٠٠	٦٠٠٠٠
العدس	١٠٠٠٠	٣٠٧٠٠
الجلبان	٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠

ثم يستغل على الحساب المتوسط فى كل سنة مقدار (٥٠٠٠٠٠) كيلو من التبغ فى اراضى تبلغ مساحتها (١٥٠٠٠) دونم .

حصلنا على المعلومات الآتية من مديرية الزراعة بشأن زرع التبغ الذى هو من اهم غلال هذا اللواء :

[ان زرع التبغ فى لواء اللاذقية لم يزل معروفاً منذ قرن ونصف ، وقد تبين لنا بالتحقيق ان هذه المادة جلبت من زروع الروم ايلى .

والتبغ الذى يستحصلونه اليوم لاجل الشرب ، له اوراق لينة كبيرة وطويلة حمراء تضرب بلونها الى الصفرة ، ورائحته لطيفة ويسمونه « شك البنت » . هذا وان وجد بعض انواع من هذا التبغ ولكن لدى الحقيقة كله جنس واحد [*] ولا يختلف الا بعظم الاوراق وصغرها نظراً لاختلاف الانحاء التى يزرع فيها من سهل ووعر .

وكان جميع هذا المحصول يرسل الى اسواق مصر وقد حدث سنة (١٢٣٤) انواء عظيمة فى البحر لم تمكن ارباب السفائن من اجراء السفر ، فبقى محصول التبغ فى ايدى اصحابه وبما انه لا يوجد عندهم مستودعات معدة لهذا الخصوص اضطر اذ ذاك القرويون الى تعليقه بسقوف بيوتهم . ثم وافاهم الشتاء فشرعوا يوقدون النار فى تلك البيوت على جرى العادة . فاصاب الدخان قسماً من التبغ وبخره واعتقد القرويون انه فسد .

ولما استحوذوا على المحصول الجديد فى السنة الآتية ارسلوه الى مصر وادخلوا بينه عن غفلة منهم بضعة اكياس من التبغ المبخر . ولما رآه المصريون ظنوه نوعاً جديداً وسموه « بو ريحه » بسبب ما فيه من الرائحة الخاصة التى نشئت عن تبخيره . ولم يلبثوا ان ادعزوا الى تجار اللاذقية باشتراء كمية وافرة منه فى الموسم الآتى وبهذا كان لزراع التبغ الدخل الوافر من هذا النوع الذى ظنوه فاسداً .

ان هذا النوع من التبغ يوضع فى بيوت بنيت خاصة لاجله . وهى مستطيلة الشكل ولا يوجد فيها من المنافذ الا باب فى جهتها الغربية على طول متر وعرض (٨٠) سانتيمتراً ، مركوزة فى داخلها من الارض الى السقف اعمدة رفيعة تبعد عن بعضها مسافة نصف المتر .

[*] يجب ان ستثنى التبغ الذى جلبته مديرية الزراعة من ازمير وصامسون قبل سنتين لاجل التحربة وهو ذو رائحة لطيفة . وكاد يتحتم نجاح هذه التحربة .

وهذه الاعمدة تنقسم الى اربعة اقسام اعتباراً من علو متر عن الارض، ثم تتصل هذه الاقسام بعوارض . وبهذا يكون داخل البيت عبارة عن اربع شبكات فوق بعضها . وهم ينشرون التبغ على تلك الشبكات ويخزونه .

كيفية التبخير وزمانه — يزهر التبغ اما فى اواخر تموز او بداية اغستوس فيعمدون الى تلك الازهار ويقطعونها بساقها ومعها الاوراق التى تحتها ، ثم يقطعون من اسفل النبات ورقتين ايضاً ، ويضمون الجميع بخيط ثم يربطون الخيط عصاً رفيعة لكى لا يتدلى ويعلقونها فى الشبكة العليا من البيت ، ثم لا تلبث تلك النباتة التى قطعت ازهارها بضعة عشر يوماً الا وتزهر مرة ثانية فيقطعونها على الكيفية الاولى ويعلقون الاوراق ايضاً . ثم بعد اسبوع من العملية الثانية يعمدون الى ما بقى ويقطعونه من اسفله بالسكين ، ويفرقون اوراقه الى قسمين او ثلاثة متساوية ويعلقونه ايضاً .

وفى اول تشرين الاول يأتون من الاحراج بحشيش متوسط باليبوسة ويحرقونه فى المواقد المعدة فى تلك البيوت ويشرعون بالتبخير ببطئ . ثم يثابرون على هذا العمل فى كل يوم . ويأتون بحطب متوسط فى اليبوسة بشرط ان لا يكون من شجر الصنوبر ، ويرغب فيه ان يكون من الفصيلة البلوطية ويحرقونه فى المواقد ، ويوصدون الابواب بصورة محكمة .

ويعرض التبغ الى دخان النار . وهكذا يدوم هذا التبخير مدة (٥ — ٦) اشهر . ويجب فى التبخير ان لا يكون اثناء الطقس اليابس . لانه يسود ورق التبغ ويجعل له رائحة كريهة .

ولهذا يجب الانقطاع عن التبخير ابان هبوب الرياح اليابسة كالريح الشرقية والشمالية والشمالية الغربية . ثم يجب ان لا يكون الحطب يابساً لكى لا يذهب اللهيب بين الاوراق ، ولا يكون سبباً لحدوث الحريق واحسن الازمان للتبخير هو الذى تهب فيه الرياح الغربية الرطبة وخصوصاً ايام المطر . وعلى هذا الحال تكون ايام التبخير عبارة عن « ٩٠ — ١٠٠ » يوم .

وقد ثبت بالتجارب العديدة ان حاصل كل دونم يتراوح بين (٧٠) و(١٠٠) اقة من التبغ اليابس فى كل سنة . وينفق على كل دونم فى السنة مبلغ (١٠٠) غرش لاجل الحرث والغرس و(٥٠) غرشاً لاجل التبخير . ويتراوح ثمن الاقة بين (٤) و(١٢) غرشاً . وبه يكون الدخل الخالص فى السنة (٣٥٠ — ٤٠٠) غرش من كل دونم .

اما نفقة انشاء البناء فهى يسيرة ، اذ يمكن قيام كل بيت من تلك البيوت التى تمكن محافظتها مدة (٤٠) سنة بشرط تفقده اصلاحاً فى كل سنة بنفقة لا تزيد عن (١٠٠٠ —

١٥٠٠) قرش . ويصدر ، اللواء ، في كل سنة نحواً من مليون اقة من هذا المحصول ؛ وبه يكون الدخل السنوي (٤٠—٥٠) الف ليرة] .

— ٢٠٤ —

اللاذقية

١ — موقع اللاذقية ومنظر ضواحيها

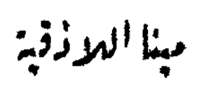
ان اللاذقية التي تقابل الانظار مبتسمةً بسمائها المضيئة وبحرها الاطلس ، ورياضها الخضراء ، ومنارتها البيضاء ؛ تلك البلدة الطيبة التي كادت ان تكون في حضن الامواج الزرقاء التي تكللت بزبد فضي على الساحل الشرقي من بحر الابيض . والتي اخذت مبلغها من فيض محاسن هذا المحيط المتاز ، لا تفتأ تجود على قلب الادب والشعر بدم فياض ، وعلى ألباب الادباء والشعراء رحيقا من الابداع والذوق ساحراً .

اذا نظرنا الى الجدة والنضرة في ذلك المنظر البهيج في تلك البقعة المباركة التي تبعث بارجى الآمال الى كل روح منقبضة ، وتفيض بابهى الانوار على كل قلب اشجاه اليأس ، وخيم عليه ظلام الحزن . لا جرم نحتاج الى تكذيب الخيال واكراه النفس على ان نؤمن بان هذه القصبة هي بلدة « رامیتا — Ramitha » الفنيقية القديمة .

يا للعجب ما اصدق هؤلاء الفنيقيين بالذوق والانتخاب ؟ وما اضل الذين يحسبونهم اناس بيع وشراء فقط ؛ وما ابعد هذا البهتان عن تلك الامة القديمة التي حطت رحالها ووطنت بلدانها ، وطرحت غياضها في اجمل سواحل الكون تجاه ابدع ما يكون من الالوان الغربية ! ! الا يرون ان الحقايق الطبيعية في هذه الديار الفاخرة ، هي اصدق انباء من زخارف الصنعة واباطيلها ، الا يعلمون ان هذه المنظومة البديعة لذلك الساحل الذي لا مثيل له هي بنت دهاء تسجد لبلاغتها القصائد البليغة ، الا يسمعون في هذا الاقليم المطرب سجع الطيور وتغريدها ، وقصف الامواج التي هي اطرب من كل نغمة ساحرة . لا جرم انهم لا يعلمون ولا يسمعون .

فبلدة (رامیتا) القديمة بنت ذلك الدهاء الباهر ، هي جديرة بالتكريم والتعظيم . وهذا السبب حدى بالملك [سلوقوس نيقاطور — Seleucus Nicator] الى تجديد هذه البلدة اللطيفة وتسميتها [لاوديسه — Laodicé] باسم والدته .

ولكن يا للاسف ما تمتعت هذه البلدة قط بحسن الحظ في طيات القرون الخالية . بل



مينا اللاذقية

ما زالت تطبق عليها الزلازل ، ولم انفكت المحاصرات تشبعها هدماً وتخريباً ، حتى قوضت عمرانها . ولولا هاتيك الكوارث لكانت هذه البلدة السامية ابدع مما هي عليه الآن .

ومع هذا فان اللاذقية اليوم لا تزال تشف عن ابداع الفنيقيين وتنقلب كل يوم في استحالة نورانية ، وتظهر في طور جديد ولباس قشيب .

كانت اللاذقية من قبل منحصرة في ساحة مستوية بعيدة عن الساحل ما اليوم فانها القصور المشيدة التي كانت بلطافتها كالازهار في روضة البحر . وهي لا تزال تتسرب الى الشمال على امتداد الساحل ، وتكسب القصبة بهاءً وجمالاً .

وقد كانت من قبل في شكل دائرة ، ونراها اليوم تشبه قطعاً ناقصاً ، وتميل لان تكون مستطيلة .

فالجانب الشرقي من هذا المستطيل محاط باراض مرتفعة ، ثم بقلعة الزيتون ، والجنوبي بحدبات « الطابيات » و « دوغردورده » . والجهة الشمالية محدودة بحدبة « فاروس » . ولهذا تكون القصبة محاطة من انحائها الثلاث بمرتفعات ، اما ناحية البحر بها فهي منخفضة وبه كان شكلها العمومي على ميل خفيف .

فاذا نظر الى القصبة من فوق احدى تلك المرتفعات تنكشف خطوطها الداخلية ، وضواحيها ايضاً بشكل واضح . ولاسيما اذا نظر اليها من جامع « المغربي » الكائن في الجهة الشرقية الذي هو اعلى محلات القصبة فيرى الناظر ابدع المناظر و نضرها . لان داخل القصبة الذي خطت فيه الشوارع المتجهة الى البحر مربعات متوازية مزدانة بالرياض هو على غاية من الجمال ببياض منازله الناصعة ، وقدود مناراته الظريفة. وخارجها ايضاً لا يقل عنه لطافة وجمالاً . فتوجد في الناحية الشمالية منها اشجار الزيتون والتين والاثمار ، ثم الرياض من بعدها ساحة تمتد مسافة ساعتين مملوءة بالرمل الاحمر النقي . ثم من ورائها فضاء واسع انتشر في ساحاته ، وعلى رؤس هضابه كثير من القرى مثل « برج القصب » و « دمسرخو » و « المغريت » و « القلوف » و « سنجوان » و « اسقوبين » . ثم وراء ذلك اراضي ناحيتي باير وبوجاق ، ثم « جبل الاقرع » بشاهقته التي غشاها الثلج . ونوجد في شرقيها وراء القلعة الحقول الواسعة من ورائها الغياض القائمة على امتداد ضفاف « النهر الكبير » . وبعدها جبال النصيرية . اما في الجهة الجنوبية فتوجد سلسلة من القصبات النضيرة على ساحل بحر الابيض الذي يسبق شعاع البصر الى ما بعد الآفاق .فتترآى عليه قرى [التركية والصنوبر والبصة] وتتبعها قصبات [جبله وبانياس وقلعة مرقب] . وترسم الخطوط النهائية من ذلك الافق بظلها المبهم .

اما غربيها فهو عبارة عن بحر واسع لا حد له .

، وقصارى القول يحق لهذه القصبة الفينيقية الاصيلة، ان تفتخر مهما استطاعت لانها مشحونة الضواحى بابدع ما يكون من المناظر الزاهية .

فلتنم الروح الذكية الفينيقية ، ربة الآفاق السورية ، قريرة العين ومطمئنة الفؤاد فى هذه السواحل البهيجة . لان هذه الامة النجيبة اختارت لنفسها ابخر الديار موطناً فى حياتها واقدس الاصقاع مرقداً بعد مماتها . ولا جرم ان الفينيقيين لمغبوطون فى محياهم ومماتهم ، و مشكوورون .

٢ — الخطوط الداخلية فى اللاذقية

ان قصبة اللاذقية التى تشغل ساحة واسعة بطول كيلومترين ومثله من العرض ،وتتألف من [٦٠٠٠ — ٧٠٠٠] مسكن ، تنقسم من حيث نسق البناء الى قسمين واضحين .

وقد كان النسق الشامى نموذجها الوحيد فى البناء منذ العهد القديم ولهذا نرى اليوم اكثر مساكنهما دمشقية النسق . وهى عبارة عن صحن مبلط ، محاط بالغرف وجميع سطوحها مطلية .

غير انهم شرعوا الآن بتقليد البيروتيين واخذوا يبنون جميع محلاتهم الحديثة على هذا النسق . ولا تزيد هذه المساكن الآن بعددها عن مئة ولكن لا بد للقصبة ان تستقر على هذا الطراز بتداول الازمان .

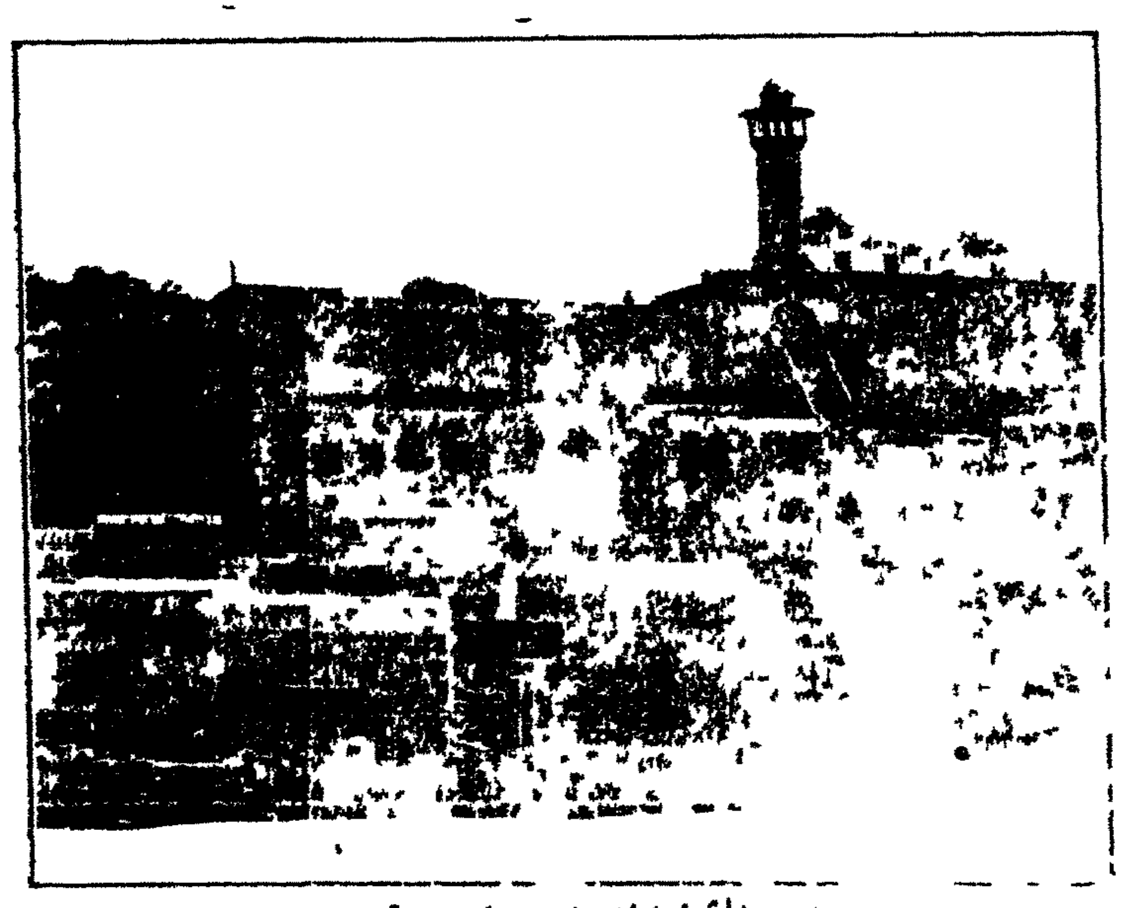
ويمكن تفريق الابنية الحديثة فى اللاذقية لاول نظرة . لان المساكن القديمة كلها مبنية بالحجر الاسمر الذى يسمونه «النارى» . اما الابنية الحديثة فانها تبنى بحجر ابيض يسمونه « الحجر الرملى » ، وتستر سطوحها بالقرميد الاحمر .

فمحلة (الكاملية) الكائنة على ساحل البحر فى الشمال الغربى من القصبة تتألف من هكذا مساكن، اما محلات [الشيخ ضاهر والعوينة] فى الشمال و « القلعة والصباغين» فى الشرق و « الشحاتين » فى الشرق الجنوبى و « الصليبة » فى الجنوب يتألف معظمها من المساكن المبنية على النسق القديم .

واكبر هذه المحلات التى عددنا اسمائها ، هى محلة « الشيخ ضاهر » اما ارقاها واجملها هى لا جرم محلة « الكاملية » ثم تأتى بعدها محلة « الصلبة » .

ونرى المسلمين والنصارى فى اللاذقية يسكنون متخالطين فى محلة [الشيخ ضاهر والقلعة والصليبة والكاملية] اما المحلات الاخرى فيسكنها المسلمون وحدهم .

ويوجد فيها اكثر من (٤٠٠) حانوت يختص قسم منها ببيع الخضرة والفاكهة . وهو المحل المسمى « سوق البازار » الكائن فى محلة الشيخ ضاهر . والقسم الآخر يقطنه باعة الاقمشة» وهو فى محلتى الصباغين و القلعة . ويعثر بين المحلات على بعض حوانيت ايضاً .



جامع الشيخ المغربي في اللاذقية

وكان يوجد فيها قبل الحرب بضعة مراقص اما الآن فقد تابت مكانها ملاهي الحفلات . وإن هذه الملاهي وجميع الحوانيت في اللاذقية في حالة كسيفة وسخة .

وفيها من المؤسسات العمومية دار الحكومة الظريفة وبناء النادي ثم التكنة . وهذه موجودة في محلة القلعة ، اما الاخريتان فهما في محلة الكاملية .

ويوجد هنا للمسلمين جوامع كبيرة خطيرة . واهم هذه الجوامع واكبرها هو جامع « المغربي » . ثم الجامع « الجديد » في محلة القلعة وجامع « الكبير المصوري » في الصباغين و« ارسلان باشا » في الشحاتين وجامع « الصليبة » في الصليبة وجامع « صوقان » في محلة العوينة وجامع « الشيخ ضاهر » في هذه المحلة وجامع « الاسكلة » في محلة الاسكلة وجامع « الشواف » قريب من دار الحكومة وجامع « الصغير » بين الصباغين والشيخ ضاهر . ويوجد فيها اثنى عشر مسجداً ايضاً .

وللنصارى فيها كنائس كثيرة . فللروم الاورتودوكس واحدة في محلة القلعة واخرى في الكاملية واثنتان في الشيخ ضاهر وللمارونيين واحدة في الصباغين وللارمن واحدة في القلعة والمجموع ست . ثم ان للاروام فيها اسقفية في محلة القلعة .

وتوجد غير هذه من الابنية الضخمة تكية المولويين في محلة القلعة ومدرسة للاروام ، ومدارس « فرهر » ومدارس الشركات الاميركية والايطالية .

* * *

وقصارى القول ان اللاذقية لا تبعد ان تلفت النظر بسعتها وابنيتها ، ولكن اتصال بعض الابنية المتداعية ببعضها ووساختها بسبب الاهمال وعدم الاهتمام جعل منظر هذا القسم من القصبة مستكرهاً تنفر منه الطباع وتمجه الاذواق .

نعم ان التحول في تلك الطرق الضيقة المستكرهة التي طبقت عليها الحنايا في القسم القديم من هذه القصبة لهو من العذاب الذي لا يطاق . ومع هذا فلا يسوغ لنا الطعن في هذه البلدة بسبب شوائبها القديمة . لان فيها من الشوارع المنتظمة ما يجعلها ارجح في الرقي من البلاد السورية الاخرى . وها نحن نذكر اسماء هذه الشوارع :

١ — الشارع الذي يبدأ من ساحل البحر ويمتد مشرقاً الى القلعة والى مقام الشيخ المغربي .

٢ — الطريق الذي يمتد من الجنوب الى الشمال ويصل الى الشيخ ضاهر .

٣ — الطريق الذي يبدأ من ساحل البحر ، ويمتد الى الشرق ويصل الى محلة الشحاتين ويسمى « شارع الحكومة » .

٤ — الطريق الذي يبدأ من الشمال ويمتد في الجنوب الى محلة الصليبة .

٥ — الطريق الذي يبدأ من البحر وينتهي في « سوق البازار » .

٦ — الطريق الذي يبدأ من البحر ويصل الى الصلبية من الجانب الغربي .
٧ — الطريق الذي ينعطف من وراء دار الحكومة الى الجنوب ويمر بين البساتين .
وجميع هذه الطرق التي عددناها لا اسم لها . وكلها معبدة منتظمة . مزدان طرفاها بالاشجار ، واكثر التي تبدأ من ساحل البحر تكون محاذية لبعضها . ولهذا فان اللاذقية بهذه الشوارع المنتظمة حرية بان تنسينا سقامة الطرق القديمة فيها . ومع ذلك فان تملصها من تلك الطرق الوسخة المتكرهة لهو من الاماني التي يجب ان يسعى لها .

*
* *

ان المياه المستعملة في اللاذقية تكاد ان تكون جميعها من الآبار . وهذه المياه عذبة ونقية في الاصل . ولكنها عرضة لترشح وتحلب ما لا يخلو من الاوساخ ، ثم انها تتدنس بالامتياح لعدم نظافة الدلاء . ولهذا السبب ربما تكون واسطة لتفشي الامراض في البلدة وانتشارها .

ولا يخلو بيت في اللاذقية من بئر ولكن الحصول على الماء يتوقف على اتعاب باهظة وعليه لا تكون هذه البلدة سعيدة من هذا الوجه . ويوجد فيها صهاريج تملأ من ماء المطر وليس فيها من منبع لا في داخل البلدة ولا في خارجها .

ويوجد في الناحية الجنوبية في محلة الصليبة منبع راكد ينبع في داخل كهف يسمونه « ماء سندلكس » وماؤه نقي وعذب ولكنه قليل المقدار ، ولهذا لا يقوم بالحاجة .

وهذه الحاجة الشديدة حدت باللاذقيين الى التحفز لجلب الماء من موقع « توتيه » التابعة لناحية البهلولية الكائنة في الشمال الشرقي من النهر الكبير . ولكن يحتاج هذا المشروع الى نفقة تناهز (١٠—١٥) الف ليرة . وهذا المبلغ العظيم قضى على المشروع بالبقاء في التصور . على انه من الواجب المحتم على اللاذقيين الذين اشتهروا بغزارة الثروة ومضاء العزم ان لا يتوانوا في حل هذه المسئلة الحيوية .

*
* *

وقبل ان تتم هذا البحث في بيان الخطوط الداخلية في اللاذقية ، نرى من الواجب ان نتكلم على مقاصف هذه البلدة ومحلات التنزه فيها .

ان هواء هذه القصبة لطيف ومناظرها جميلة ، ولهذا نرى كل بقعة فيها كادت ان تكون منتزهاً . على ان هناك بعض محلات معينة يقصدها اللاذقيون لاجل النزهة ويعدونها من مقاصف البلدة . فمنها جنينة البلدية على ساحل البحر وهي حديثة العهد .

وهذه الروضة الآن محتاجة للاصلاح والترتيب ولكن حسن موقعها جعلها مهيأة لتكون من الطف الرياض .

ويقصدها اللاذقيون عشية كل يوم ولاسيما يومي الجمعة والأحد. ويجولون في الشارع الممتد الى الشمال على طول الساحل. وربما يجولون في الشوارع الحديثة ليتمتعوا بمحاسن ما حولها. ثم ان موقع «الطابيات» في هذه البلدة له منظر بهيج لأنه عبارة عن هضبة عالية. ومشجرات الزيتون في انحاء القلعة لا بأس بها. ورياض «الصليبية» و«عين سندلكس» او السهول الرملية الكائنة تحت القلعة كلها من المتنزهات التي يقصدها اللاذقيون.

***

ثم توجد في اللاذقية حنايا الظفر القديمة ودعائمه، وهي من انفس الآثار التي يجب ان ترى. وسنتكلم عنها حين البحث عن تاريخها وآثارها القديمة.

٣ — الاحوال العمومية

[١] — قصبة اللاذقية — ان هذه القصبة التي هي مركز ادارة اللواء الكائنة في الدرجة (٣٥،٣١) من العرض الشمالي وفي الدرجة (٣٣،٣٩) من الطول الشرقي والمبنية على هضبة ترتفع عن سطح البحر مقدار عشرين متراً، جميلة المنظر. والسهول الموجودة في شرقيها وجنوبيها منبتة خصبة تسقى من النهر الكبير الذي يقطعها على امتدادها. وهذه القصبة تبعد من بانياس وجبله مسافة ثلاثين كيلومتراً.

[٢] — عدد السكان — كان عدد سكان هذه القصبة سنة (١٣٣٢) ٢٠،٣٨٧ نسمة من الذكور والاناث. ومفرداتها كما يلي:

	الذكور	الاناث
المسلمون	٨١٩٦	٨٣٥٨
الاورتودوكس	١٦٥٩	١٥٢٤
اللاتين	١٢	٩
المارونيون	٢١٧	١٤٥
البروتستانت	٤١	٤٣
الارمن	٩٧	٨٦
يكون	١٠٢٢٢	١٠١٦٥
	٢٠٣٨٧	

وفي سنة (١٣٢٨) و(١٣٣٢) كان عدد اللدات في هذه القصبة ١٩٣ و٧٢٨ نسمة ، وعدد الوفيات ٢٩٧ و١٣٩٣ . وفكرة الهجرة الى اميركا متفشية بين المسيحيين الذين يبلغون بعددهم (٣٨٣٣) نسمة .

واليوم يوجد قريب من ربعهم هناك . وبعض انصيريين والارمن المتوطنين في قريتي « كسب » و« غنيمية » سرت اليهم هذه الروح واخذوا يقلدون انصار الهجرة الى البر الجديد . واكثر هؤلاء المهاجرين الذين يختارون الانحاء الجنوبية من اميركا يتوطنون هناك ولا يرجع منهم الا ثلاثة في المائة . وهذا النوع من مهاجري المسلمين لا يتجاوز ثلاثة في المائة . ويقولون ان الاغنياء من هؤلاء الذين اقاموا في تلك لبلاد الاجنبية يرسلون الى عائلاتهم (٥٠٠) ليرة في السنة ، اما الفقراء فيرسلون مقدار (٦٠—٧٠) ليرة . وعليه كان هذا اللواء قبل الحرب يتقاضى من ابنائه مقدار (٢٥٩) الف ليرة في كل سنة .

[٣] — **مجمل تاريخ اللاذقية** — سمى الفنيقيون هذه القصبة (راميتا *Ramitha*) او (راماتنا *Ramantha*) ولعل هذا الاسم مشتق من اسم (بعل رام *Baal Ram*) الذي كان له معبد في جبل الاقرع . ثم جاء (سلوكوس نيقاتور *Seleucus Nicator*) الذي جعل نفسه ملكا في سورية بعد وفاة الاسكندر الكبير . فجددها مع بضعة بلاد غيرها وسماها « لاوذيسه *Laodicée* » اضافة لاسم والدته « ٢٩٠ ق . م » .

ولما زادت بسطة الحكومة الرومانية كانت سلالة سلفقوس اخذة بالانحلال ولم تلبث ان انقرضت وبادت . ثم وقع الخلاف بين هؤلاء الحكام الحديثين في اوائل الفتح وتجرعت البلاد بسببه بحراناً دموياً . وحينما كان الاختلاف قائماً بين العوام والخواص في الرومانيين نصبت فرقة الاعيان « قاسيوس » وعينت فرقة العوام « دولابللا *Dol'-bella* » والى على سورية ، وحضر كلاهما الى محل ولايتهما . ولما نشبت الحرب بين هذين لرئيسين كان السكان منحازين الى فرقة العوام . وعليه عمد قاسيوس وسخر اللاذقية عنوة وكبدها اضرارا عظيمة . واكتسح جميع كرومها التي كانت لها الشهرة الرنانة بنفاسة عنبها .

وبعد ان قتل « ژول سهزار » اقسمت بلاد الرومانيين بين انطونيوس راوقتاپوس ، وكان انطونيوس لم ينس جميل اللاذقيين بمقاومة قاسيوس حصه ولهذا ارتأى ان يجزيهم على حسن عملهم فأقل بلادهم من جميع المكوس والضرائب . ولما ثار « پسهنيوس نژر *Pescennius Niger* » احد القواد الرومانيين وطلب تاج القيصرية لنفسه ، قصد اللاذقية وهدمها . ثم لم يلبث رقيبه « سهودر *Sevère* » ان استحوذ على الحاكمية في روما والتفت الى اللاذقيين الذين كانوا منحازين اليه فنحهم بالامتيازات ، وشيد في القصبة كثيراً من المباني الضخمة اللطيفة ، وسماها « سبتيما سهوري » . اضافة الى اسمه

(١٩٣—٢١١) .
وقد ارسل عمر ابن الخطاب (ر.ع) جيشاً فى قيادة يزيد سنة (٦٣٧) وفتحها فى زمن هراقليوس من قياصرة البيزانطيين .

وفى ايام الصليبيين سخر هذه القصبة (بوهموند) امير تارات وبوهموند حاكم بوهموند وطولوز (١١٠٩) ثم الحقت بايالة انطاكية بسبب صغر شأنها فى ذلك الزمن .

ثم فتحها السلطان صلاح الدين الايوبى سنة (١١٨٨) مع كثير من البلاد فى سورية الشمالية واقطعها الى اخيه الملك المظفر تقى الدين عمر . وقد عمر هذا الامير قلعتها واصلح شأنها . ولكن اعاد عليها الصليبيون الكرة بعد مدة وملكوها مرة اخرى . وبقيت فى ادارتهم الى سنة « ١٢٨٦ » حيث انتزعها السلطان قلاون منهم ، وبقيت منذ ذلك التاريخ الى الآن فى ايدى المسلمين . وقد منيت هذه القصبة بزلازل شديدة سنة ١١٥٧ و١١٧٧ و١٢٨٧ هدمت اهم مبانيها .

وبالرغم عن تلك المصائب التى تجرعتها فى الغابر ، وانطماس كتاباتها التاريخية فان هذا القصبة لم تزل محتفظة بموقعها الخطير فى الآثار القديمة . فيعثر فى الناحية الشمالية والشرقية منها على كهوف منحوتة فى الصخر ، وعلى اجداث مزينة بالنقوش المتنوعة . وهناك مغارة قديمة تسمى « مارتوقله » لا تزال نصارى هذه الانحاء تدخلها للتبرك فى مولد « مريم » عليها السلام . وكان هذا النوع من المغارات التى اعدت لدفن الاموات ، وعد اجتماع للنصارى فى اوائل انتشار دينهم .

ثم يوجد فى الجانب الجنوبى من القصبة جدار لا يبعد ان يكون من بقية سورها اما الجامع الموجود فى الجنوب الشرقى منها فهو مبنى فى موقع الحصار المجهز بحنية الظفر ، الذى بنى فى ايام « سبتيم سەوەر *Septime Sévère* » وكان عرض كل جدار من جدرانه الاربع (١٣،٥) متر . وكان له باب ضخم . اما الزوايا فانها مبنية على النسق القورنتى ومزينة بالاروقة الظريفة ، والقبة التى هى عبارة عن نصف كرة قائمة على مضلع مثمن يرى فى داخلها كثير من صور الآلات الحربية مرسومة بنقش نافر . ويعرف هذا المحل عند الاهلين بالكنيسة المعلقة . وتوجد فى جانب حنية الظفر اربع دعائم . يحتمل ان تكون بقية من انقاض معبد بنى هناك .

٤ — بلدية اللاذقية — ان الذين لا يعرفون ماهية الانحاء الشمالية فى سوريه يظنون ان اصقاع اللاذقية محرومة من المعارف والزراعة والطرق هى فى حالة ابتدائية خالية من معاهد العمران . ونحن ايضاً لما فارقنا طرابلس مستهدفين الانحاء الشمالية ، ورأينا تلك القرى الخربة التى لا نصيب لها حتى ولا من العمران الابتدائى كنا على عين

الرأي ، ودخلنا اللاذقية ونحن نتوقع ان نرى قرية على ذلك النسق غير انها كثيرة السكان ولكن لمرحى لمحلتها الجديدة فانها ما لبثت ان اضطرتنا لتبديل هذا الظن . ومع هذا فلا نحسب ان لمدنيتها همة في اعمار القصبة .

وان الاقوام ، بل الامم التي تكون مثلنا لا نصيب لها من الرقي العصري لا تجد بداً من ان تتبع في حياتها الاجتماعية كبرائها وآمريها . فيكونون لها بمثابة الوصي الذي كلت عنده السيطرة .

ولهذا لا ترون وال ولا متصرفاً ، بل حتى ولا قائمقاماً يتبع خطة يتوخاها في ادارة المحل الذي ولي امره ، الا وترون آثار تلك الخطة منطبعة في ذلك المحل . وان ما نقومه من الاصلاح والاعمار يكون في اكثر الاحيان من آثار ميول وآراء شخصية محضة اكثر من كونه ناشئاً عن خطة منتظمة قرر عليها وثوبر على تطبيقها . ولهذا لا يسوغ لنا ان نعجب لعدم شمول ما نراه من الآثار في بعض انحاء الولاية . وهذه اللاذقية هي اكبر دليل نستشهد به على صدق دعوانا .

وجد في اللاذقية قبل بضع عشرة سنة متصرف نزيه الطبع ، بعيد الهمة ، محب للانتظام ، اسمه « شكري باشا » فلم ترق في عينه حالة هذه القصبة لانها كانت عبارة عن بيوت متلاصقة ، محصورة في ساحة ضيقة ، وطرقها التي هي عبارة عن مضايق ، او انقاب كانت كلها مسقوفة ، حتى لا تكاد تنفذ الشمس اليها مملوءة بالعفونة والاوساخ بدرجة لا يمكن تحملها .

ومن جهة اخرى كان مأمورو الحكومة يسكنون فيها في اوكان متداعية ضيقة لا يصل اليها الهواء . ولا تنطبق على حيثية الحكومة وشرفها . ولهذا فان هذه الحالة التي تمثل حياة الاجيال المتوسطة ، لم ترق في عين هذا الهمام ، فعمد الى الساحة الفارغة الكائنة بين القصبة والبحر ، وخط فيها طرق المحلة الحديثة ، وازمع على تشييد دار للحكومة في تلك الساحة لا يرى لها مثل في بقية البلدان من حيث انطباقها على القواعد الصحية ونظافتها وحسنها . ولاجل الحصول على نفقة هذه البناية طرح على كل رزمة من تبغ « ابو ريحه » الذي يصدر الى البلاد الاجنبية ثلاثة غروش ، وطرح مكساً يسيراً على بقية الاموال الصادرة ، والواردة ، فتوفر له مبلغ كاف من هذا المكس التي خف الى ادائها الاهلون بارتياح عظيم . فصرف منها (٣٣٠٠) ليرة وشيد دار الحكومة الحالية على احسن ما يكون . ثم عدمس طريق اللاذقية — جسر الشغور مقدار (١٧) كيلومتراً ، وفتح طريقاً آخر بين اللاذقية وقرية « سرخو » التي تعتبر كمصطاف للاذقيين . وجميع هذه النفقات كانت من هاتيك المكوس .

وعوضاً عن ان يلتهم هذه المبالغ التي تقاضاها من افراد الامة كما كان شأن معاصريه ،

لم يكتف بصرفها فى غايته الاعمارية بل عززها بانفاق مبلغ طائل من ثروته ايضاً. ولا جرم ان الاوطان مديونة بالشكر لهكذا مصلحين نادري الوجود، لا يدخرون وسعاً فى طريق اعمارها!

- وبلدية اللاذقية التى لا تفرق شيئاً عن بقية البلديات بعدم ادراك ماهية وظيفتها، كان لها من الدخل سنة (١٣٣٢) مقدار «٢١٢٦٧٨» قرشاً ومثله من الخرج.

ولم تكن حتى العهد القريب لهذه القصبة البديعة فى منظرها حديقة عمومية. وعليه عمدت ادارة البلدية قبل سنتين وسعت لازالة هذا النقص واسست فى احسن موقع من الساحل حديقة منتظمة انفقت عليها مقدار «١٥٥٠٠٠» غرش.

وهذه البلدية التى حاولت ان تثبت لها وجوداً باقامة هذا الاثر الذى من شانه تنمية الاذواق البديعة فى الخلق. فهى اما عاجزة عن تنظيف الاوساخ المرتكمة فى طرق القصبة الضيقة المتعفنة، او متكاسلة فى ايفاء الوظيفة. مع انها قادرة بما لديها من الدخل ان تقوم بالاعمال المهمة التى تنفع السكان وتنطبق على مصلحتهم.

[٥] — **المعارف** — لا تزال معارف هذه القصبة تتقلب فى ادوار مهمة منذ اربعين او خمسين سنة. وبينما كنا محرومين من معاهد العلم والمعارف، نهضت جمعية «بره سبيته رين» الاميركية سنة (١٨٥٩) وارسلت الى اللاذقية وفداً فى رياسة المبشرين «ميستر دودس *Dodds*» و«ميستر بيتى *Beattie*» لاجل تعميم البروتستانتية بين النصيريين والارمن. وهذه الهيئة التى ما فترت همتها منذ ذلك الزمن الى الآن، تمكنت من تأسيس اربعين مدرسة فى قصبة اللاذقية، وبذلت كل ما يمكن بذله فى طريق غايتها الدينية حتى تسنى لها تنصير ثلة من فقراء النصيريين، وقسم مهم من سكان قريتى «بجمره وجندره». وقد شعر «ضيا باشا» الذى كان متصرفاً فى اللاذقية قبل عشرين سنة بوجوب التذرع بالتدابير التى تقف امام هذا التيار البروتستانتى الذى لا ينطبق على الحرية الدينية المؤيدة بجميع القوانين الاساسية. فعمد الى عشر قرى من قرى النصيريين واسس فى كل واحدة منها جامعاً ومدرسة، وبعث اليها الواعظين والمرشدين. اما الآن فنرى تلك المعاهد التى نشأت عن اندفاع ملى جدير بالاجلال والتكريم مهملة تداعى اكثرها واندثر.

وميزانية هذه السنة قضت بوجود (١٧) مدرسة ابتدائية فى جميع الملحقات، غير ان فقدان المعلمين اوجب الاكتفاء بتأسيس «١١» مدرسة كلها تدار بالوكالة. ولا نجد لدى الاهالى رغبة فى هذه المدارس. فاذا علمنا ان مجموع الطلاب فى جميع هذه المعاهد الاميرية لا يزيد عن (٢٥٠ نسمة)، لا جرم نطلع على درجة تأثيرها فى ذلك المحيط.

اما المدارس الاجنبية فكان لها قبل الحرب موقع خاص. وكانت فى هذه القصبة

مدارس للذكور والاناث تخص اللاتينيين ، والروس والاميركان والفرنسيين . وقد عطلت بعد اشهار هذه الحرب ولم يبق منها الا مدارس الاميركان . ويروى ان قد كانت لنصارى هذه الاصقاع رغبة عظيمة فى تلك المدارس . اما المسلمون فكان مقدارهم فى مدارس « الفرير » خمسة فى المائة ، وفى مدارس الاميركان اثنان فى المائة . ويدعى بعضهم ان مدارس الفرير كانت راجحة على جميع تلك المؤسسات الاجنبية بجدية دراستها . اما المدارس الاميركية فيوجد فيها مقدار (٤٠—٥٠) طالب وطالبة من قسم الداخلى المجانى و (١٠٠—١٢٠) من الطلاب الخارجية . ودرجة التحصيل فيها بسيطة للغاية . ولا يشتغل معلموها الا بدس الروح النصرانية البروتستانية . وبهذا يزيدون هذه الربوع المقفرة من العلم عمهاً وضلالة .

[٦] — الاحوال الاقتصادية فى اللاذقية — اذا اردنا ان ندرس الاحوال الاقتصادية فى احد البلاد يجب علينا اولاً ان نطلع على مصادر حياة اقوامها ومقدار ما عندهم من القدرة الدماغية والعضلية . ويعتقد « راتزه ل *Ratzel* » العالم الالمانى بان البشرية وهممها هى من الحادثات الجغرافية . ويقول ان تلك الهمم لا تقوم الا بالآثار التى يشعر بها كالطرق ومجارى المياه ، والبلدان والزراعة والصناعة . ويرى ان لا بد من آثار فى التراب تدل على وجود ابناء البشر عليه .

ولهذا لا بد للاحوال الاقتصادية فى جميع البلاد ان تكون لها رابطة قوية و الموقع الطبيعى والجغرافى فيها ، ولا جرم ان اهم الاسباب التى صعدت بانكلترا الى مقامها الباذخ فى التجارة ، هى ثروة بلادها الطبيعية ، وموقعها الجغرافى . وهكذا الحال فى الالمانيين الذين حركوا بعلو موقفهم الاقتصادى حسد الاقوام الساكسونية ، فان مناجم معادنهم ، واحراج بلادهم ، وانهارها لها الحظ الاوفى فى تلك المكانة الاقتصادية .

غير انه لا يسوغ ان نعطف اسباب الرقى الاقتصادى فى بلدة ، او اسكلة ما على الموقع الطبيعى فقط . ولهذا لا يصح ان نسند الرقى التجارى فى انكلتره الى حالة نهر التايمس ، او الى بحيرات اسقوجيا ، او الى سواحل بلاد الغال فقط . لان اسباب رقى انكلتره الاوروبية لا تنحصر فى اوروبا ، بل هى شايعة فى جميع اقطار الكون ، وهكذا لا يكفينا فى ايضاح غناء المانيا ان نطلع على حالة سوحل پومه رانيا ، وعلى كثافة احراج باويرا وعليه فان الاستناد على الاسباب الموضعية فى ايضاح الحالة الاقتصادية لاحد البلاد يكون خطأً محضاً .

ثم يجب ان لا نسرع فى الحكم . ونقول ان الاستعداد الطبيعى فى المحل الفلانى كذا ، فيكون رقيه الاقتصادى كذا . وعلينا ان لا ننسى ان الاستعداد الطبيعى يختلف باختلاف

الاحوال السياسية والاخلاقية والاجتماعية في الاقوام التي تشكل تلك الانحاء .

وامتزاج القوى الطبيعية بالمساعي البشرية هو الذي يخلق قوة البلاد وثروتها . وبانضمام سخاء الاولى وكرمها الى ذكاء الثانية وهمتها ، وسمويتها العلمية والفنية ، يتسنى للامم ان ترقى الى ذرى العظمة والسلطان . وهذا يطلعنا على ان لا يمكن لكل امة ان تستفيد بدرجة واحدة من الثروة والاستعداد الطبيعي . فمنها من تستطيع تزيد هذا الاستعداد ، وتحظى بمنافع عظيمة كالسيونيست في فلسطين ، ومنها من يتوسط في الاستثمار ، ثم منها من لا يعلم قيمة تلك الثروة والاستعداد فيعيش عيشة سافلة . وهذه تختلف باختلاف الاوصاف الاخلاقية والسجايا التربيوية في الاقوام والامم والحكومات . وهكذا فان لحسن المعاشرة والاتحاد السياسي في تلك الاقوام التي وصفت بالصبغة السياسية تأثيراً عظيماً في رقيها وانحطاطها .

لا تأثير لشكل الادارة في الحكومات من حيث الوجهة الاقتصادية مشروطة كانت او جمهورية او مطلقة . بل الامر الذي تدور حوله الشؤن الاقتصادية ، هو الامن والانتظام والتحابب والاتحاد والعدل و الانصاف في الداخل ، وجسارة تلك الامة وشجاعتها تجاه الخارج .

ويمكننا اجمال هذه الملاحظة العمومية وتطبيقها على بلادنا ، وحتى على لواء اللاذقية منها .

ان لواء اللاذقية الذي يشغل الاصقاع الشمالية من الساحل السوري ، هو من المواقع التي يجب ان لا تهمل من حيث التجارة والاقتصاد . ثم ان خصب تربته وكفاية مياهه الجارية لاسقاء حقوله ، ووجود السواحل المجهزة بالمرافئ الطبيعية فيه كلها تدل على كمال استعداده الطبيعي .

غير ان السكان التي تقطنه هي في اشد الحاجة للتربية الفكرية والاقتصادية . وهؤلاء السكان الذين جملتهم الجهالة يعتقدون بخرافات ترفضها افكار الصبيان ، خصوصاً النصيريون منهم لن يستطيعوا استثمار تلك الاتربة المنبتة والاستفادة من ذلك الموقع البحري الذي لا مثال له . وقد اخبرنا المؤرخون ان اسياف البحر اعتباراً من شمال اللاذقية الى اقصى الجنوب كانت في القرون الاولى تدر بخير عميم . اما الآن فان ثلثي اراضي جبله ، ومعظم سهول اللاذقية وصهيون وبانياس محرومة من الزراعة . ويحمل البعض اسباب هذه العطلة على طغيان النصيريين وجورهم . نعم ان الانحاء التي تكون محرومة من الامن والانتظام لا يمكن ان ترقى فيها الزراعة ولا الصناعة ، ولا تنتظم فيها الاحوال الاقتصادية .

ولا استفادة لهذا اللواء اليوم الا من التبغ والبيض وقليل من الحبوب رغماً عما فيه من الارض المخصبة . وهذه الثروة التي تحيكها تلك الايدي الجاهلة الخرقاء لا يمكن ان ترقى ما لم يكن لها وصي مدني يهمه خيرها ونفعها . والا فانها تبقى على ما كانت عليه من

قبل اربعين سنة » وهذه الاحتكار تصبح ملتاً عن صدق "دعوانا » .

الدخان الذي صدرت مينا اللاذقية

			طلون
سنة ١٣٢٥	باخرة		٣٤٨٦٠
	شرعة		٦٤٦١
سنة ١٣٢٠	باخرة		٧٣٨٨٤
	شرعة		٦١٥٢
سنة ١٣٢٨	باخرة		١٣٥١٦٣
	شرعة		١١٧١١
سنة ١٣٣٠	باخرة		١٨٨٠٩٤
	شرعة		٧٦٥٣

ثم اذا لم يحور نظام (ادارة الدخان) — رژى — الذي مر ذكره اثناء البحث العام، وخفض من غلواء هذه الشركة المتغلبة ، لا يمكن اصلاح زراعة التبغ ورقيها البتة .

ومن اعظم المؤثرات التي تؤخر اقتصاديات هذا اللواء وتضر بصالحه ، عدم وجود الطرق المعبدة فيه ، وفقدان المرافئ المحفوظة التي تسهل اصدار حاصلاته . ومن السذاجة ان تعتقد برقى تلك الاصقاع وفلاحها ما دام سكان جبال النصيرية لا يعرفون صديقاً لارواحهم الا السلاح ، وما لم يعدلوا عن فكرتهم التي تقول بلزوم افناء الحياة في اشد المذاب بين تلك الصخور الصلداء التي لم ينفذ اليها نور العلم ولا مرشد المدنية منذ قرون كثيرة . فاذا مهدنا لهم الطرق وشيدنا المرافئ ، ثم اذا عمدنا الى افكارهم التي عشعش فيها الجهل فانرناها بالعلم ، فهنالك ترقى الزراعة والصناعة ويتسع نطاق الاقتصاد وتتوفر للبلاد كل سعادة .

[٧] — مرفأ اللاذقية — يوجد في اللاذقية مرفأ طبيعي صغير مسور بسد ناقص لصد الامواج طوله ثمانون متراً وعرضه ثلاث مترات يبدأ من خربة القلعة التي بنيت عليها منارة المرفأ ويمتد الى الشمال الشرقي حيث يتصل بالساحل. ويستوعب مقدار [٤٠ — ٥٠] شرعة يتراوح حجمها بين (١ — ٨٠) طناً . ومعظم ما يستوعب اربع باخرات يتراوح حجم الواحدة منها بين (١٠٠ — ١٣٠) طناً . ولكن لم يسبق ان دخله غير الاشراع ذلك لان

مدخله ضيق للغاية ، ولا يتجاوز عمقه (٣—٤) باعات . وهو مردوم بالاحجار التي تساقطت من القاضي القلعة بمرور الايام .

وعليه يمكن للاشراع الصغيرة ان تدخل من هذا المدخل وتصل الى منتصف المرفأ ولكن لا يتيسر للضخمة منها ولا للباخرات دخوله ، وعليه لا بد لهذه السفائن من الارساء في الجهة الشمالية بمسافة نصف ميل عن مدخل المرفأ .

وتمر بهذه الاسكلة في السنة على الحساب المتوسط (٦٠) باخرة يبلغ مجموع حجمها (١١٥٠٠٠) طن و(٢٠٠٠) شرعة مجموع حجمها «٢٢٠٠٠» طن وبناء لعدم وفرة الوسائط النقلية البحرية وسهولة شروطها يصادف دائماً لاستعمال هذه الواسطة بالتقاق .

ويجب لاجل توسيع التجارة البحرية في هذه البلدة اولاً كرى المرفأ وتنظيفه من الرمال والوحول التي كادت تملئه ، وتعميقه بمقدار خمسة باعات على الاقل ، واخراج الاحجار الموجودة تحت البحر في ناحيتي المدخل . ثم ان ارتفاع السد ليس بكاف . ولا تزال الامواج تقتحم اعلاه عند حدوث الانواء ولهذا السبب تداعى اكثر اطرافه . وعليه يجب اتمام ارتفاعه واصلاح ما يوجد فيه من الخلل .

وبنى هذا السد سنة ١٣٢٦ ولكن لم يتم . ثم لم تطرح امامه من ناحية البحر حوائل من الاحجار الصناعية لكسر سورة الانواء وما زالت تنطحه الامواج حتى تصدع وتخرق من اكثر انحائه . وهو الآن متصدع في وسطه من محلين ، وقاعدته متداعية ايضاً . ولا جرم ان تمادي هذه المؤثرات لا بد ان يزيد في تداعيه .

اما عمق الماء في داخل المرفا فهو مختلف . ففي المدخل يتراوح بين (٣،٥—٤) باعات وفي منتصف المرفأ يتراوح بين (٣،٥—٣،٥) باعات . اما عمقه في القسم الداخلي فيتراوح بين (١،٥—٢) من الباعات ، ومقدار الماء في موقع الاسكلة لا يتجاوز اربعة اقدام . وبما ان المرفا غير واسع . فلا يمكن ان تدخله بعد اصلاحه الا السفائن التجارية التي لا تزيد حجمها عن (١٢٠٠) اما السفائن التي يكون حجمها اكثر من هذا فلا بد من ان تتكبد المشاكل .

٤ — الاحوال الاجتماعية في اللاذقية

[١] — الحياة العمومية والاجتماعية — اذا نظرنا الى الجداول الرسمية يجب ان نعتبر سكان اللاذقية نحواً من عشرين الف من النسمات . اما اذا اطلعنا على ما يدعيه بعض اللاذقيين الذين لهم المام بحقيقة الامر يجب ان نصعد بهذا المقدار الى (٢٥٠٠٠) نسمة . واربعة اخماس هذا المجموع تتألف من المسلمين السنيين والخمس الآخر من الروم الارثوذوكس

والمارونية، والإرمن والبروتستانت واللاتين المسيحيين .

فينقسم مسلمو اللاذقية من حيث الحياة العمومية الاجتماعية الى ثلاثة اقسام : الاغنياء والطبقة الوسطى ، والعوام .

ان منسوبي الطبقة الاولى اصحاب الاملاك والاراضي والذين لديهم الثروة الضخمة هم عبارة عن سبع اسر . ويوجد بين افراد هذه الاسر اشخاص لهم من الثروة النقدية ما يتراوح بين عشرة الاف وخمسين الف ليرة ، ومن الدخل السنوي ما يتراوح بين (١٠٠٠—٤٠٠٠) ليرة .

ويوجد بين اصحاب الاراضي من يشتغل بالزراعة فقط ؛ ومن يتعاطى التجارة . فالذين يشتغلون بالزراعة يولجون باعمالها شركائهم من القرويين . اما التجارة في اللاذقية فهي عبارة عن تجارة التبغ والبيض .

وتخمن الاموال المنقولة وغير المنقولة التي تملكها هذه الاسر السبع بمقدار نصف مليون من الليرات . وعدد افراد هذه الاسر يبلغ نحواً من (٥٠٠—٦٠٠) نسمة رجالاً ونساءً . والبعض بين هؤلاء الاسر المسلمة يعيش عيشة منتظمة راضية . فمنازلهم المنسقة على طراز مدني . ونسق عيشهم يدلنا على انهم لم يهملوا امر الانتفاع من ثروتهم بل اتخذوها ذريعة لرفاهيتهم وتحسين عيشهم . وجميع منسوبي هذه الطبقة في اللاذقية يتوخون في لباسهم الطراز الحديث .

غير اننا نجد جميع افراد هذه الطبقة الذين يظهرون بمظهر الترقي والتمدن، هم في متربة من البضاعة العلمية . ويوجد بينهم اسرة واحدة لافرادها نصيب من التحصيل التالي، اما الآخرون فانهم محرومون من هذا الجهاز الحيوي. وهذا الانحرام حال بينهم وبين الاستفادة التامة من ثروتهم الوافرة . وجعلهم عاجزين عن خدمة بلادهم واعلاء شانها . لاسيما وان هذا الحال حدى بهم الى الانهماك في اللذات والاذواق .

ومع هذا فان لهم في الحياة الاجتماعية سيراً حسناً . لان المزارعين في اراضي هذه الطبقة كلهم من النصيريين ، واملاكهم جميعها محاطة باراضي جبله وصهيون التي اشتهر اربابها بالخشونة والقسوة في الحياة الاجتماعية .

ولهذا لم يجدوا سبيلاً يمكنهم من التسلط والاستبداد . وعليه كان ارباب هذه الطبقة على غاية من الانس والانسانية ، وهم اهل قرى ايضا غير ان في حالتهم الروحية ميلاً للانهماك في الاذواق والملذات .

وقصارى القول ان افراد هذه الطائفة لم يؤثر عنهم انهم ذوو شر وفساد ، او سيطرة ينتفعون بها باضرار غيرهم ، كما انهم ليسوا بارباب لطف وعناية بالناس ينفعونهم بوفرهم الطائل . فيجب ان نتلقاهم فئة تتألف من اناس هادئ الطباع ، معتدلي السير يحبون

الإحتفاظ بالموجود .

***

اما الطبقة الاجتماعية الثانية في المسلمين فهي عبارة عن اوساط الناس . وعدد عائلات هذه الطبقة يربو على «٥٠» وعدد افرادها يتجاوز «١٠٠٠» نسمة .

فاذا علمنا ان ثروة كل عائلة من هذه العائلات تتراوح بين «٢٠٠٠٠» و«٦٠٠٠٠» ليرة ، ودخلها السنوى يتراوح بين «٢٠٠٠» و«٥٠٠٠» ليرة يتضح لنا ان مجموع قيمة اموالهم المنقولة وغير المنقولة لا يقل عن «٢٠٠٠—٣٠٠٠» الف ليرة .

وهذه الطبقة ايضاً تشتغل بالزراعة والتجارة . ولا تختلف معيشة هؤلاء عن معيشة ارباب الطبقة الاولى الا انها انقص منها بدرجة ، ولا يمكن العثور بينهما على فرق ملموس من حيث الموقع الاجتماعى . فاذا اغضينا عن كمية الثروة نستطيع ان نعتبر هاتين الطبقتين طبقةً واحدة . بيد ان ارباب الكسوة العلمية ، والذين اشتهروا بدراسة العلوم الشرعية كلهم من افراد هذه الطبقة . ومع كان لهذه الطبقة اناس ارفع سوية من اناس الطبقة الاولى . وربما يعثر لديها على هكذا اوصاف من حيث المسعى ايضاً .

وبما انهم ليسوا على درجة من الرفاهية ورخاء العيش يضاهون بها الطبقة الاولى نراهم اشد اقتصاداً فى الحياة الاجتماعية ، واهدأ طباعاً فى الحالة الروحية . ثم اذا نظرنا فيهم نظرةً عامةً نجدهم من حيث التحصيل اشبه بسكان القرى ، كما هو الحال فى الطبقة الاولى .

***

اما الطبقة الاجتماعية الثالثة فهى عبارة عن السواد الاعظم من الخلق . وهى تتألف من الذين يشتغلون بالنوتية او بيع الخضرة ، او من زراع البساتين ، او العمال وغيرهم من الصنوف الاجتماعية .

يكتسى ارباب هذه الطبقة الاردية والسراويل ، ويلبسون فى رؤسهم طرابيش . وعيشتهم منغمسة فى الفقر . واكثرهم يسكن فى محلة « الشحاتين » و« الصباغين » . ومع هذا لا يقل دخل احدهم عن (٢٠٠٠—٣٠٠٠) غرش فى السنة . اما الحياة فى اللاذقية فهى رخيصة هينة ، فيتسنى لافقر عائلة ان تعيش بدخلها عيشةً لا بأس بها . ويسهل على كل احد فى هذه البلدة ان يجد لنفسه عملاً . ولهذا يندر فيها وجود من يسقط فى درك الذلة والمهانة .

غير ان تحصيل افراد هذه الطبقة ناقص ، وعدد الذين يحسنون القراءة والكتابة فيها قليل .

وعدد الذين يحسنون القراءة والكتابة بين جميع مسلمي هذه البلدة يناهز عشرين من المائة في الرجال وخمساً منها في النساء. ثم يوجد بينهم ستة او سبعة اشخاص من متخرجي المدارس العالية، وقريب من مائة من دارسي العلوم الشرعية. اما الباقون فتحصيلهم يسير جداً. وهذا يدلنا على انحطاط السوية الفكرية في اللاذقية.

* * *

اما نصارى اللاذقية؛ فان اربعة اخماسهم من الروم الارثوذكس، والخمس الآخر من بقية الطوائف. ومعظم الثروة يوجد في ايدي الاروام. ولهذا فان موقع بقية الطوائف المسيحية بالنسبة الى الاروام، موقع حرمان بحت.

والحياة الاجتماعية في هؤلاء الاروام تماثل حياة الطبقات الاجتماعية الاسلامية. ويوجد في طبقتهم الاولى اسرتان هما ارجح وارقى من نظرائهما المسلمين سواءً في الثروة او في نسق العيش. وثروة كل واحدة من هاتين الاسرتين اللتين حصرتا تجارة «ابو ريحه» في ايديهما تتراوح بين (٦٠—٧٠) الف ليرة، ودخلهما السنوي لا يقل عن (٦—٧) آلاف ليرة.

ثم ان حسن الترتيب والنظام في منزل هاتين الاسرتين والمدنية التي تتجلى في نسق عيشهما وحياتهما بارزة ملموسة. ولديهما شابان تخرجا في مدارس الغرب، ولهما مؤلف بالفرنساوية يبحث عن الصناعة والزراعة في سورية جدير بان يكسبهما ثناءً وتقديراً.

ويوجد في الطبقة الوسطى بين المسيحيين بضع عائلات افرادها من ارباب الاملاك، اما افراد الباقيات فيشتغلون ببعض المهن والصنايع. ونرى الطائفة المسيحية اسبق وارقى من جارتها المسلمة من حيث المزية العلمية والسوية الفكرية. فاذا قسنا هاتين الطائفتين ببعضهما مع مراعاة عدد افرادها. نجد عدد الذين يحسنون القراءة والكتابة من رجال المسيحيين اكثر من المسلمين. اما نساؤهم فانهن ارقى بكثير من النساء المسلمات. لا نقصد بهذا الرأي ان المسيحيين هناك هم على غاية من الرقي. ولكن لا بد ان نعترف بانهم ارقى من المسلمين من حيث المعرفة بالقراءة والكتابة.

وان النصارى هنا لهم رابطة قوية بالدين ولربما كانوا متصلبين اكثر من المسلمين. وعليه تكون الطائفتان على عين الشاكلة من هذه الوجهة

* * *

وقبل ان نتم بحث الحياة الاجتماعية في اللاذقية نرى ان نستطرد ونبحث نبذة عن الحالة الاجتماعية في قضاء مركز اللاذقية.

اذا صرفنا النظر عن سكان قصبة المركز نجد ان عدد سكان هذا القضاء يربو على

(٣٠٠٠٠) نسمة ؛ ونصف هؤلاء من النصيريين ، وثلاثة ارباع النصف الآخر من التركمان والسنيين ، والربع الآخر من مختلف الطوائف المسيحية .

فالنصيريون الذين يسكنون فى قضاء المركز ، يشتغلون بالحراثة والزراعة ، ومنهم بضع عشرة من العائلات التى تملك اراضى تتراوح قيمتها بين (١٠٠٠)و (٢٤٠٠) ليرة . ودخلهم السنوى يتراوح بين (٢٠٠) و (٥٠٠) ليرة .

وهؤلاء النصيريون يشبهون سكان السواحل، او قطان الاسياف من بحى جلدتهم. ولهذا لا نجد فيهم تلك السجايا والخلال الموجودة فى قطان الجبال من اخوانهم.

وبما ان اكثرهم مزارعون فى اراضى اغنياء اللاذقية ، تكون السكينة وهدو الطباع امراً طبيعياً لهم . لاسيما وان ظلم النصيريين الصهيونيين اياهم ، وتعديهم على حقوقهم ، جعلهم اقرب قلوباً ، واميل نفوساً الى اللاذقيين .

ومن العبث ان نرتاد الرفاهية فى عيش هؤلاء النصيريين ، او الصلاح فى حالتهم الفكرية. لانهم ثلة من فقراء الناس ومساكينهم .

ثم ان النصارى فى قضاء اللاذقية ليسوا على شئ من الاوصاف الخاصة . اما السنيون الذين هم ثلاثة اثمان السكان ؛ فمنهم مقدار (٥٠٠) نسمة من العرب يسكنون فى قرى « البساتين والريحان وقيناص » . والباقون يسكنون انحاء « الحزينة وباير و وجاق » وبما اننا سنتكلم عن التركمان الذين يسكنون تلك الانحاء فى مبحث خاص، لا نرى لزوماً الآن لتكرار البحث .

[٢] — **العادات الاجتماعية** — نريد هنا ان نبحث عن بعض العادات التى لها اوصاف خاصة عند اللاذقيين . ونبدأ منها بالزواج .

ان مسئلة المهر عند المسلمين هى من اهم مسائل الزواج . ولهذا يطول الشرح فيها حتى تحسم . وعندهم ميل شديد للتغالى فى المهر . وربما يبلغون به الى (٤٠٠) ليرة وبعد حسم هذه المعضلة يهون الامر ، فاما ينتج اتفاقهم بما يسمونه (الخطبة) وهى عبارة عن ترسيم وتسمية ، او بمباشرة عقد النكاح . ومن عاداتهم اجراء العقد او الخطبة فى بيت العروس ، ثم لا يتغالون فى الاحتفال به بل تكون تقاليدهم عبارة عن قراءة المولد الشريف فقط ، وهذا اما تكون فى ليلة الاثنين او الجمعة . وتقضى عليهم العادة بعد الخطبة بارسال هدية الى المخطوبة من خاتم او قرط . وباعداد ليلة العرس تقرب فاذا اكتفى فى بادئ الامر بالخطبة ، يكون عقد النكاح يوم العرس و قبله بيومين ، ويعقد نهاراً .

ويجب على الخاطب ارسال الصابون والقهوة والحناء ، والصلصال المصيب ، الى بيت

المخطوبة قبل الزفاف بأسبوع ، ويسمون هذه الهدية « ميدم » اى مائدة ...

ثم تحتفل عائلة العروس بترتيب دعوة الحمام للنساء ، فيرسلون الى كل من يريدون حضورها فى الحفلة قطعة من الصابون تقوم مقام الدعوة . وتكون هذه الحفلة قبل العرس بيومين او ثلاثة ايام .

وهنالك يرسل الجهاز من بيت العروس الى منزل العريس . وكان من عوائدهم ارساله بضرب الطبول والزمور ، اما اليوم فقد هجروا تلك العادة .

وفى ليلة الزفاف يدعى العريس الى بيت احد اصدقائه . وتهيء له آلات الطرب هناك او يقرؤن المولد الشريف . وبعد ان يلبث العريس هناك حتى منتصف الليل . ينعقد موكب الزفاف فتتقدم المصابيح ، وآلات الطرب امام الجمع ويلتف حول العريس اقاربه واصدقائه ويوصلونه الى البيت ، وهناك توجد حفلة النساء . فيتلقين العريس بالاهازيج ويصرخن « لو ، لو ، لو » . وتقضى عادتهم على العريس وابيه واخوته ان يقدموا للعروس هدية صباح ليلة الزفاف .

وربما تتسلسل ليال السرور بعد ليلة الزفاف وتدوم فيها الافراح ، ويجب على الزوج ان يدعو الى بيته حماه وذويه وجميع اقارب العروس فى يوم مخصوص ، وتسمى هذه الدعوة عندهم « ردة الرجل » . وبعد العرس بشهر يجب على اب العروس ان يدعو صهره وجميع ذويه . ويسمون هذه الدعوة « بوسة اليد » . ولا بد من تقديم الهدايا فى جميع تلك الدعوات . والمهر المؤجل عندهم يكون بمقدار ثلثى المهر المعجل . او ثلثه او ربعه .

ويندر فى اللاذقية وجود تعدد الزوجات . وهو منحصر فى بضعة اشخاص . ويؤثر عنهم انهم اقاموا لكل زوجة منزلاً على حدة .

ويرغبون ان تكون اولادهم ذكوراً ، ويحتفلون بختانهم ، وختمهم القرآن احتفالاً عظيماً .

وتحمل الاموات فى اللاذقية بتابوت مكشوف ، ويكتفون بسترها بغاشية . ويروى عنهم انهم يتحاشون من استعمال التابوت المستور لئلا يشبهون النصارى الذين يدفنون امواتهم فى هكذا توابيت .

ولا تمشى النساء وراء الجنائز . بل تشيع من قبل الرجال باتم الهدو والسكينة . ومن عوائدهم زيارة قبور الصالحين مثل « الشيخ محمد المغربى » و « الشيخ صالح الطويل » و « الامام البطرنى » و « الامير موسى » و « ابى الدرداء » و « الشيخ سعيد » . وكثيراً ما يبيتون مرضاهم فى تربة (الامام البطرنى) و « ابى الدرداء » . ويعتقدون انهم يبرأون من مرضهم بهذه الوسيلة . ثم عندهم مزار يسمونه (قاضى الحاجات) . تقصده النساء ،

وفى يد كل واحدة منهن حصية تحسب الحدث بهـ ثم تتمنى من صاحبه قضاء حاجتها بصوت عال .

*
* *

ويخرج المسلمون ايام الربيع قبل شروق الشمس الى محلات النزهة نساءً ورجالاً ، ويأخذون معهم الحليب والقهوة ويخرج النساء دون الرجال فى الايام الثلاثة من ابتداء نيسان الرومى وتسمى هذه النزهة فى عرفهم « شم النسيم » . وهكذا يخرجن فى آخر اربعاء من شهر صفر .

ثم تخرج النساء المسلمات الى خارج البلدة لاجل التنزه فى عيد الفصح عند المسيحيين ويسمونه (طلعة عيد النصارى) . ويزعم ان هذه العادة تأسست لاجل التغيب من وجه النصارى . ولكن نرى هذه العادة قد تأصلت فى نفوسهم حتى صار هذا اليوم لديهم مثل بقية اعيادهم . ونفقة الثياب التى تعد لاجل هذا العيد هى اعظم مما ينفق لاجل الاعياد الاسلامية .

٥ — الاحوال الصحية

ان الوسائل الصحية فى هذه القصبة متوفرة . لان انفساح ضواحيها ، وخلوها من كل حائل جعل للهواء مهباً من جميع انحائها . لاسيما الرياح الشرقية التى تهب فى ليال الصيف فانها تحف اللاذقية بحياة طيبة . ولكونها بلدة معتدلة فى اقليم معتدل لا تتجاوز فيها الحرارة ابان الصيف (٢٣—٣١) درجة ، ويندر انخفاضها عن الصفر فى الشتاء وأكثر ما ترى فى ذلك الموسم بين (٥—١٠) درجات .

وماء القصبة صالح للشرب والاستعمال باعتبار الاصل ، وموافق للقواعد الصحية .

ومع هذا فاذا نظرنا الى تدنس مياه الآبار بالامتياخ ، وتحقق لدينا انها عرضة للترشحات الوسخة نعلم ان تلك المياه واسطة خطيرة لسراية الامراض وتفشيها . ويروى اطباؤها ان قد حل فيها قبل بضع سنين مرض القوليرة فكاد لا يبقى ولا يذر ، وكان لهذه الآبار تاثير عظيم فى تأصله واستقراره فيها .

اما بيوت القصبة فقد ذكرنا فى بحث الخطوط الداخلية ان اكثرها مما لا يسوغ ان يشتكى منه ، غير ان فيها من البيوت التى اكلتها الرطوبة وعشعشت فيها العفونة وهجرها الضياء ، ما لا ينطبق على الخير الصحى ، ولا على الحالة المدنية . ولهذا يكون اصلاح هذا القسم منها من الامور التى لا يجوز اهمالها .

ويجب ان لا ننسى في هذا البحث المستنقعات الموجودة قريبة من المدينة لان النهر الكبير الذي يصب في البحر في الجنوب الشرقي قريباً من القصبة يحدث مستنقعات لا تنقطع الحمى المرزغية من هذه البلدة بسببها .

هذا وان قال طبيب البلدة ان مقدار الذين يصابون بهذا المرض لا يتجاوز (٥٠٠—٦٠٠) نسمة في السنة . ولكن اذا نظرنا الى الحالة الاجتماعية في خلقها واطلعنا على سويتهم المكرية يتضح لنا ان مقدار المصابين اكثر بكثير من المقدار الذي بينه الطبيب . وعلى كل حال ان عدد مصابي هذا المرض يكاد ان يكون نصف مقدار ما يصاب بجميع غيره من الامراض .

ويقال ان هذا المرض يفتك في ملحقات اللاذقية فتكاً ذريعاً . ويروى ان عدد الذين يصابون به في قضاء المركز يبلغ في كل سنة نحواً من (١٥) في المائة من مجموع السكان . ولا جرم ان السعي لتقليل عدد المصابين الذي يناهز (٨٠٠٠) نسمة في السنة ، او بالاجدر اعمال الهمة لتحديد دائرة هذا المرض واطفائه في زمن قصير ، هو من الوجائب الضرورية التي يحتم القيام بها .

ثم يأتي بعد هذا المرض ، مرض « السل » . وان تأثير هذا المرض هو اشد وافظع من الاول بكثير . لاسيما وقد كان هذا المرض قبل (٤٠—٥٠) سنة منحصراً في بضعة اشخاص من المسيحيين ، واصبح اليوم في درجة يقتل في السنة (٤٠—٥٠) نسمة . وهذا جدير بالاهتمام ، وهذه النسبة لا تزال في هذه الدرجة منذ سبع سنين . وعدد الاصابات منه في كل سنة يبلغ نحواً من (١٠٠) نسمة .

ويقول المدققون ان اسباب تفشي هذا المرض بهذه الدرجة الهائلة ، هو عدم التعرض لبيع الاشياء التي تخص هاتين العائلتين اللتين مر ذكرها ، وعدم تعقيمها على الوجه الصحي ثم الاغماض عن بيع اغراض مرضى اليوم ايضاً ، وعدم وجود آلة للتعقيم ثم عدم وجود دار للتجريد تحفظ فيها المرضى . ولا ريب ان تأثير هذه الوسائل لا ينكر ، وعليه يتحتم التذرع بهذه التدابير ، والسعي لانقاذ حياة اللاذقية من مخالب هذا الموت الهائل .

ويأتي بعد مرض السل الذي يشغل عشرة في المائة بين الامراض الاخرى ، مرض لا يقل عنه في الخطورة والانحاء . وهو مرض الافرنجي . ويقول الطبيب انه اطلع على (٥٠—٦٠) من المصابين بهذا المرض في ظرف ستة اشهر . وهذا يطلعنا على درجة هول هذا المرض القاتل . ثم اذا فكرنا بالذين يرجعون في ازالة مرضهم الى السحرة والدجالين والذين يتداوون بالتبخير وغيره نعلم خطورة هذا المرض الذي خلقه الحرب . ودرجة هوله على الصحة العامة . ويدعى ان اكبر سبب لتفشي هذا المرض هو عدم وجود المحلات التي تمكن مراقبتها ، ويسهل وضعها تحت الفحص . ولا نرى لزوماً لان نبين احتياج

هذا الامر الخطير الى التدابير العاجلة .

ثم تأتي بعد هذه الامراض بعض الحميات ، والامراض العينية والجلدية وبعض الامراض السمية . ولكن ليس لهذه الامراض سطوة بنسبة الآخرين . فاذا صرفنا النظر عن المصابين ببعض الامراض السمية نجد الباقين لا يتجاوزون العشرين في عددهم .

*
* *

اما الامراض الطارئة التي حدثت في السنين الاخيرة فهي عبارة عن الحمى التمشية والقولية . ويخمن مقدار مصابي القوليرة سنة (١٣٣٢) ببضع عشر نسمة . حتى ان الحمى التمشية ايضاً لم تشتد وطأتها في هذه السنة . اما في النصف الاول من سنة (١٣٣٣) فقد كان عدد المصابين بها (٢٠٠) نسمة ، توفي منهم ثلاثة في المائة . اما القوليرة فلم يكن لها اثر في هذه السنة .

*
* *

ان ادارة الصحة في اللاذقية عبارة عن طبيب البلدية . وتفقد الناحيات الكائنة في الجهة الشمالية على مسافة يوم من المركز ، منوط بهذا الطبيب ايضاً . وليس له معاون ، ولا عنده مستشفى ، وهو محروم من كل الوسائط الصحية . ويوجد في المركز طبيب خصوصي وقابلتان لم تتخرجا في المدارس . وصيدليتان . ولا نرى لزوماً لان نبحث عما تستطيع هذه الادارة القيام به من الاعمال الصحية وهي على هذه الحالة . ولا حاجة لتدقيق حالة الصحة العامة بعد ان اطلعنا على هذا التعريف البليغ .

٦ اللغة والادبيات وحياة الطباعة

لا جرم ان اللغة العامة في اللاذقية هي العربية العجمى . هذا وان تكن لغة اللاذقيين لا تفرق عن اللغة السورية شيئاً ولكن لهم لهجة خاصة تقضي عليهم بمد اواخر الكلم ، وتفخيمها وبهذا كانت لهجتهم غليظة . وهذه اللهجة توجد عند اهالي جبلة ايضاً ، اما في الاقضية الاخرى فانها تنزع الى اللهجة الطرابلسية .

ويوجد في اللاذقية من يتكلم باللغة التركية من متخرجي المدارس الابتدائية والتالية ويبلغ عددهم الى (٢٠٠) شخص . اما التركمان الساكنون في انحاء باير وبوجاق والذين يناهزون في عددهم (١٠٠٠٠) نسمة يتكلمون بالتركية بلهجة تركمانية . ثم ان اللغة الانكليزية والافرانسية معروفة عندهم . وبعض الذين يعرفون القرائة والكتابة من المسيحيين يعرفون هاتين اللغتين .

*
* *

نبغ فى اللاذقية بضعة رجال اشتهروا باتقانهم العربية الفصحى ، وباختصاصهم بالعلوم الشرعية . فنهم (الشيخ مصطفى الحموى) الذى توفى قبل خمسين سنة وهو من العلماء المحدثين ، ثم (الشيخ خالد الازهرى) الذى توفى قبل اربعين سنة ، و (عبد الرزاق افندى الفتاحى) الذى توفى فى ذلك الزمن ، وهو عالم وشاعر معاً . ثم نبغ بعد هؤلاء (الشيخ عبد الفتاح المحمودى) و (الشيخ عبد الحميد المحمودى) والاول من هذين الاخوين يعد من فطاحل العلماء السوريين .

وكان عالماً شاعراً ، فقيهاً ومحدثاً . ومعظم الذين يتقنون العربيـة الفصحى الآن ، والمشتهرين باطلاعهم على العلوم الشرعية هم من تلاميذ « الشيخ عبد الفتاح المحمودى » .

وله مصنفات عديدة فى الصرف والنحو والبيان والعروض والفقه والتجويد ، مطبوعة وغير مطبوعة . وديوانه المسمى « سير الفؤاد » ، وكتابه المسمى « تحفـة الدارس » الذى يبحث عن علم الصرف وكتاب «الجريدة » فى علـم النحو هم من مصنفاته المطبوعـة

واخوه « الشيخ عبد الحميد المحمودى » ايضـاً كان شاعراً وعالمـاً . وتوفى هـذا العالم قبل عشرين سنة ، اما وفاة اخيه فكانت قبل خمس عشرة سنة .

ثم ان « لشيخ صالح الطويل » ايضاً كان من العلماء المحدثين وله عدة مصنفات لم تطبع ووفاته كانت قبل ثلاثين سنة .

ثم منهم (الشيخ محمد سعيد الازهرى) . وقد توفى قبل خمس عشرة سنة وله اشعـار وبعض آثار دينية لم تطبع .

*
* *

ولا جرم ان اشهر رجال اللاذقية بالشعر هو (الياس صالح اللاذقى) الذى ولد سنـة (١٨٣٩) ميـلادية . وهو ينتمى الى اسرة مسيحية اصلها من غزه وقد تخرج فى الكلية الامركية . وبعد ان تقلد وظيفـة الكتابة برهة تركها واخذ يتعاطى التجارة . وفى سنـة (١٨٧٢) صار قنصلاً لدولة اميركا ولم يلبث ان استقال منها ، ودخل فى خدمة الحكومـة مرةً ثانية واستخدم فى العضويات . وتوفى سنة (١٨٨٥) . وطبع ابنه اشعاره سنة (١٩١٠) فى مجموعة سماها (مراثى وديوان المرحوم الياس صالح اللاذقى) .

واكثر موضوع هذا الديوان المدحيات والمراثى والتواريخ . واهم ما فيها الاقسام التى تبحث عن بعض الوقايع التاريخية . وقصيدته التى بحث فيها عن قدوم مدحت باشا الى اللاذقية لاجل تأسيس المتصرفيـة حينما كان والٍ فى سورية ، هى من هذا القبيل . وقـد استهلها بهذا المطلع :

مقل الورى اياك امست ترصد
يا كوكباً منـه المطالع تسعد

يا مدحة المصر الذى بك فخره
ونتيجة الدهر الذى بك يحمد

ثم قال :

شرفت ارض اللاذقية منــة
فشدا بهــا طير السرور يغرد
واخضرت الآكام فى ارجائها
زهواً واهلوها بوفدك عيدوا

وهذه الابيات الآتية تدل على انه كان عالماً بعزية مدحت باشا الحقيقية :

لا بدع ان احييت ميت قطرنا
واعدت رونقه له يتجــدد
انت الخليق بفعل كل عجيبــة
فنها لك الفضل الذى لا ينفد
وباحرف الذهب اسمك السامى غدى
فى صحف تاريخ الدهور يخلد

وله قصيدة اخرى مدح فيها راشد باشا والى سورية سنة (١٨٧٠) واخرى مدح فيهـا خورشيد باشا متصرف طرابلس سنة (١٨٦٧) ، وقد كان رشيد باشا قدم اللاذقيــة لاجل اصلاح جبال النصيرية ، فخاطبه الشاعر بهذه القصيدة :

قصد البوادى والجبال فذاق من
فيهـا تمرد طعم موت احمر
واستأنست فيها الذآب فاصبحت
معها ترى الاغنام ترعى فاشكرى .

وخورشيد باشا ايضاً قدم الى هذه الديار لاجل اصلاح جبال النصيرية فخاطبه بقصيدة طويلة منها هذين البيتين :

وهب يصعد بالعليــا الى جبل
لها طغت وبغت جهلاً عشائره
حتى محا كل عدوان ومفسدة
والله باليمن والبشرى يوآزره

وقصارى القول ان الياس صالح اقتــدر على تثبيت حادثات زمانه المعلومــة بخلوص ، وصفوة . واستطاع ان يترجم عن شعوره الدينى تجاه مريم العذراء بطبع قدير على النظم

وبقلب ملئ من الايمان . فقال :

يا عذرا ام العجائب يا نجاتي في النوائب
انت يا بكر ارحميني وادفعي عني المصائب
كل من في مدح مريم قد تغنى وترنم
من خطوب الدهر يسلم آمنا كل المعاطب

ثم قال :

مدح ام الرب عندي فاق كل المطربات
وهي مأمولي وقصدي في حياتي والمات
يتجلى قلبي وصدري في مديحي للبتول
رافعاً نغمات شكري راجياً منها القبول

ولا جرم ان هاتين المنظومتين انبعثتا عن شدة هيام ووجدديني عميق . وقصارى لقول ان الياس صالح شعر في حياته بكثير من الهياج وحاول جهده ليبثنا ايا ويطلعنا عليه . ولهذا يجب على اللاذقيين عامة ، والمسيحيين منهم خاصة ان لا ينسوا اسمه . لانه استطاع تحريك الاحساسات التي تخفق اها قلوبهم وتقريرها . واقتدر على نقل حالتهم لروحية وتثبيتها .

*
* *

حياة الطباعة — توجد في اللاذقية مطبعتان . الاولى « المطبعة الوطنية » للشيخ سعيد افندي ، والثانية « المنتخب » لادوار افندي مرقس وانتشار عدة جرائد ومجلات في برهة وجيزة بعد اعلان الدستور يدلنا على ان حياة الطباعة هناك دخلت منذ ذلك العهد في دور جديد من الرقي . كانت تصدر فيها جريدة « المنتخب » لصاحبها ادوار افندي مرقس ، وهي سياسية اسبوعية و « جريدة اللاذقية » للشيخ سعيد افندي سعيد وهي اسبوعية سياسية ايضاً ، و « الجريدة العربية » له ايضاً و « جريدة ما صنع الحداد » وهي اسبوعية مزاحية لعبد الحميد افندي الحداد و « ابو نواس » وهي اسبوعية ومزاحية ايضاً لصبحي افندي عقده . هذا وان كن جميع هؤلاء الجرائد اسبوعيات ولكن ما كان بدنا التقدم البشرى ليقف عند ذلك الحد ، بل لا بد له ان يصل بهم الى تأسيس الجرائد اليومية ايضاً .

غير ان هذه الحرب الطحون ما لبثت ان طبقت على تلك الحياة الطباعية واخمدت جمرتها وهي في مقتبل عمرها . ولا جرم اننا نود ان تعود هذه الحياة بعد الحرب ، وتكون احسن مما كانت عليه قبلها .

— ٢٥ —

تركمان اللاذقيه

كنا تكلمنا عن التركمان المتوطنين فى ناحيات الخزينة وباير وبوجاق من اعمال اللاذقية وذكرنا اسماء القرى التى يقطنونها ، وبينا فى القسم العمومى من كتابنا ما عثرنا عليه من المعلومات بكيفية مجيئهم الى هذه الانحاء وزمانه [*] .

اما الآن فاننا نريد ان نبحث عن الاحوال الاجتماعية والروحية فى تركمان هذه الانحاء الذين يناهزون فى عددهم (١٠٠٠٠) نسمة ، ونتكلم عن لغتهم ، وآثارهم الادبية .

١ — الاحوال الاجتماعية والروحية

جاء تركمان اللاذقية فى زمن شذ عن نظر التاريخ الى هذه الانحاء الجبلية المستورة باحراج البقس والصنوبر ، والمزدانة بينابيع بللورية ، واخذوا يستجدون من تلك الصخور الصوانية يسيراً من حياة ، ويدفعون حاجاتهم بما استطاعوا ان يستحصلوه منها بشق الانفس .

وليس من الصعب ادراك ما كان من كثرة هؤلاء التركمان الذين تمكنوا من التوطن فى هذه الديار رغما عن بخل طبيعتها ، والحرمان الحيوى الذى يوجد فيها ؛ وقدروا على الاحتفاظ بكيانهم وهم عرضة لجميع انواع الامراض .

وهؤلاء الذين يشغلون جميع انحاء بوجاق من « بغجاز » الى « زغرين » ومن ساحل البحر الى « سراى » . واصقاع باير من « قيزيل چات الى « القصبة » ومن « آقچه باير » الى « سراى » . ثم جميع ناحية « الخزينة » ، تراهم لم يألوا جهداً فى تمزيق حياتهم كما مزقوا تلك الاحراج الناضرة ، حتى اصبحوا اليوم واجسامهم كالقديد من النحافة وادمغتهم افرغ من فؤاد ام موسى .

ويتحد هؤلاء التركمان فى نسق العيش والحياة الاجتماعية مع من حولهم من الاقوام العربية الى درجة نرى فيها جميع ما اطلعنا عليه من الفاقة ، ضنك العيش فى اولئك الاقوام التى مررنا بها وعالجنا تعريف حالتها وفقرها ، موجوداً فى هذه الفئة المحرومة لا يزال يودى بها .

---

[*] راجع صحيفة (٤٤ — ٤٧)

وهم ايضاً يشيعون الحياة ، بل يكملون انفاسها فى طى اوكان هى عبارة عن ركام من الحجارة . وهذه الاوكان ، مع منازل اغواتهم المؤلفة من بضع حجرات ايضاً ، تبعث بريح عقيمة من الفقر العاتى ، لا يزال يخى على الارواح بسمومه المهلكة حتى عرق جميع الاجسام وجعلها جلداً قام فيه هيكل من عظام ،

من أكبر سعادة هؤلاء القوم ان يفرشوا على التراب لبداً بال ، منسوج من شعر الماعز ويطرحون عليه فراشا ويتمددون فوقه . وما اسعدهم اذا تمكنوا من حسو شئ من الحساء فى صحون من نحاس موضوعة فى طبق مصنوع من سوق الحنطة ، او اذا طعموا شيئاً من الذى يسمونه «السراسير» . وهى عبارة عن قمح مطبوخ يصبون عليه لبناً خاثراً . لانهم لا يعرفون شيئاً من المآكل الا الذى يسمونه « كسينيك » وهو عبارة عن لبن خاثر يفسدونه بالغلى ، ثم ينشفونه ويضعونه فى جرار ، ويدفنونها فى بطن الارض حتى يحمض ، وهذا يكون طعامهم مدى الشتاء .ويصنعون من هذه المادة اقراصاً صغيرة يعرضونها الى الشمس لتنشف ويسمونها « سورك » وهذا من اشهر مآكلهم .فلا نبالغ اذا قلنا ان الطعام الذى يعمل من القمح ، او العدس هو من افخر مآكلهم. وقصارى القول ان هذا الحرمان الذى نراه فى مآكل هذه الفئة موجود فى ملابسها ايضاً . حتى ان نساءهم يستعملن الصدار والسراويل على عين ما تستعمله النساء النصيريات ، ويتقنعن باقنعة سوداء منقوشة بنقش ابيض ، يسمونها (ترلك) . ويلبسن فى رؤسهن تحت تلك الاقنعة طرابيش بالاهداب ويضربن بخمرهن على افواههن ، ولا يبدين الا عيونهن وانوفهن . واللواتى فى انحاء الصليبية منهن يتقنعن بقنع حمر فتراهن وهن يشتغلن فى الحقول كانهن شقائق النعمان ويلبسن فى ارجلهن الاحذية (صرمايه) الحمر او الصفر .

اما الرجال فلباسهم السراويل التى يسمونها [كوجك ، او ديزلك] ، ويلبسون فى رؤسهم قبعات من صوف او طرابيش ، ويتعممون عليها ويعصبونها بعصائب بقعاء . اما لباس رؤسائهم فهو على غير هذا النسق ، لانهم يلبسون اردية يسمونها « الزبون » ، وفوقها جبة طويلة ، وبعضهم يلبس على النسق العربى المعروف ، وهم يضاهون مجاوريهم فى الحياة والصنوف الاجتماعية ايضاً كما يضاهونهم بنسق العيش وطراز اللباس .

فالتركمان يتألفون من طبقتين اجتماعيتين مفترقتين عن بعضهما.فالطبقة الاولى تتألف من الرؤساء اى « الاغوات » ، والطبقة الثانية هى عبارة عن عامة الناس من القرويين ، فالرؤساء الذين يسميهم القرويون « اغا » هم حكام هذه الاصقاع وآمروها . والتركمان مفطورون على احترام رؤسائهم والارتباط بهم وهذه السجية فيهم جعلتهم عرضة لاضرار عظيمة . او بالاصح مكنت « الاغوات » من اضطهادهم وهضم حقوقهم .

فتوجد في انحاء باير ابريم عائلات لها مقدار (١٠٠) من الافراد ، وعائلتان في انحاء بوجاق يبلغ عدد افرادها (٥٠) نسمة ، وهؤلاء لهم بين التركمان سلطة لا تقاوم ، وقدرة لا يعترض عليها . فاغوات القسم الاول لا يتجاوز دخلهم السنوى مائتي ليرة . اما الآخرون فدخلهم اكثر من هـذا المبلغ باضعاف مضاعفة . وكلهم يستخدمون القرويين في حراثة اراضيهم وزراعتها . ومع هـذا فان هؤلاء الاغوات ليسوا من الغنى فى درجة تستحق الذكر .

اما ما بقى من عامة التركمان فهم فى فقر مدقع وحياتهم تمر فى عيش ضنك . وكلهم رازحون تحت اعباء الفاقة .

*
* *

ثم ان الاحوال الروحية فى هؤلاء العاجزين المحرومين من كل شئ ، هى اشد تعاسة من حالتهم الاقتصادية . فتراهم قانعين بما تيسر ، مستسلمين الى ظلم الرؤساء خاضعين لسجونهم وتعذيبهم ينتظرون الموت وهم يعدون ثوانى الحياة . وقد بلغ فيهم العجز والخور الى درجة ، اصبحوا فيها لا يستطيعون ولو كتم الاسرار ، واذا اقتضى الامر يقتدر بضعة من افراد الدرك على اجلاء هؤلاء الالوف المؤلفة عن اراضيهم واوطانهم ، دون ان يروا منهم ايسر مخالفة ، ناهيك عن استعمال السلاح .

واكبر ما يعللون به آمالهم هى السعادة الاخروية . ولهذا تجدهم لا يفترون عن اقامة الصلاة ، وربما يقرؤن قصة المولد الشريف وينغمسون فى وجد يجعل لديهم قيمة الحياة صفراً . فلا يهتمون بصحتهم ولا بعيشهم ولا بابنائهم . ويتلقون كل النوائب بصبر جامد . تجف منهم فى كل ثانية قطرة من الحياة ، وتذبل ارواحهم ، وهكذا حتى يصلوا الى سعادة العدم . ولا يهتمون لتعطيل المدارس فى قرى [قورجه ، جاموران ، كبره ، قولجق ، سراى] التى تزعم الجداول الرسمية انها موجودة فيها ، وهى لا اثر لها الآن . فما اغناهم عن اتعاب النفس ما زال رؤساؤهم لا يعلمون من القرائة والكتابة الا يسيراً . ولا تسمع منهم وهم يمزقون رداء الحياة فى عجز ومسكنة وجهل الا تكرار هذا الدعاء :

— متعنا الله بالجنة .

وهاتين الكلمتين هما البرهان الناطق ، على القحط الموجود فى ديار ارواحهم .

٢ — اللغة والادبيات

لا جرم ان اللغة التى يستعملها التركمان هى التركية ، ونرى لهجتهم لا تزال تبتعد عن اللغة التركمانية ، وتقرب من العثمانية وهى تشبه اللهجة الانطولية ، اكثر من مشابهة

اللهجة التكارية لها .

لا سيما وان الاغاني التي يتغنون بها تشف عن هذه المشابهة بصورة بارزة . وها نحن نثبت هنا اهم الاغاني التي يستعملها اولئك القوم :

— ١ —

لاذقيه حليمنده يم
دمير يا پيسنده يم
عتاب ايتمه سوديكم
ايلك قپوسنده يم

— معناها —

اقلل عتابك ايها الحبيب فان جسمي الفولاذي ، في الباب الاول من سجن اللاذقية .

— ٢ —

فريدهم مسك فريدهم
نه باقيوك كيريدن
قوزولو قويون كبي
آيرلدكي سوردودن

— معناها —

فريدتي ! ما مالك تنظرين من بعيد ، هل فاتك السرب ، فكنت كالظبية المطفل ؟

— ٣ —

آغ يوقوش يوردي بني
يا رالي قويدي بني
كور اوله‌سي غريبلك
آرادي بولدي بني

اوهت جلدي التلة البيضاء ، وتركتني جريحاً . فقاتل الله الغربة كيف قصدتني وظفرت بي .

— ٤ —

چارشودن آلدم كتن
كللري ديكن ديكن
هيچ برقايغوم يوق اما
وطن بوينمي بوكن

ومعناها

ابتعت من السوق كتاناً ورده ذو شوك ، وليس لى فيه ارب . غير ان الوطن هو الذى يخضعنى .

— ٥ —

كيده يم كيده
اياغم يغنيده
آلانى قوعه جى
سوديكم وار كريده

ها انا فى السفينة ، منتعلاً نعلى . خنانيك يا جند لا تأخذنى فقد خلف ورائى حبيباً.

— ٦ —

اومدن ايندير ديلر
واپوره بيندير ديلر
يكيله نشانليدم
يمنه كوندرديلر

اخرجونى من البيت ، ووضعونى فى السفينة ؛ وكنت حديث العهد بالخطبة فارسلونى الى اليمن .

— ٧ —

زيبى ديكدم قوطلو يار
محبتى طاتلى يار .
كلدى كجدى سلامسز
سلامى قيمتلى يار

خطت الرداء لحبيبى السعيد ، الذى محبته اسعد فمر ولم يمتعنى بسلامه الثمين .

— ٨ —

كل بنم كلم كلم
يا پراغى ديليم ديليم
اولديرسه‌لر واز كلمم
ايتسه‌لر ديليم ديليم

تعالى يا وردتى المورقة ، لا بد منك ولو قطعونى ارباً ومت .

— ٩ —

قارشيدن قاز كليور
يولونمش 'از كيليور
ايشته هاسكا خبر
نشا نللك وازكليور

جاءتك اوزة ، منتوفة الريش ، فاعلم ان خطيبتك انصرفت عنك .

— ١٠ —

بودره ساز باغلادى
دبى نركس باغلادى
نبى بركلين اوردى
يارامى قيز باغلادى

اقصب هذا الوادى ، ونبت فيه النرجس . رمتنى العروس بسهامها ؛ وضمدت الآنسة جروحى .

— ١١ —

آغلى قارالى طـاشلر
عسكر تعليمه باشلار
چيفته دكيرمن دونديرير
كوزمدن آقان ياشلر

ايتها الحجـارة البيض والسود ، شرع العسكر بالتمرن ، فذرفت عيونى بدمع يحرك حجر الرحى .

— ١٢ —

الفك هجـاسى وار
اوندوزك كيجه‌سى وار
سويجك قيزلردن سو
كلينك قوجه‌سى وار

ان للالف هجاء ، ولكل نهار ليل . فاجعل حبك فى البنات ، ان العروس لها بعل .

— ١٣ —

بوكون آيك او نيدر

يوكم بغداى اونيدر
اولديه كوكل ويرمه
كيدر اوه اونودور

اليوم عاشر ايام الشهر، وحملى من دقيق القمح، لا تربطى نفسك بالمتزوج، فانه ينساك متى دخل البيت.

—١٤—

جيقسهم قوزان طاغلرينه
قارى ديزلهيه ديزلهيه
يارالرم كوزكوز اولدى
يارى اوزليه اوزليه

اترى السلق فى جبال قوزان، واخب فى الثلوج. تفجرت جروحى، من عظم اشواقى الى الحبيب.

—١٥—

الف ديدم به ديدم
يار بن سكانه ديدم
قوش قانادى قلم اولسه
ياز لمازنم دردم

قلت الف، قلت به، ماذا قلت لك ايها الحبيب. لو كان ريش الطير اقلاماً لعجز عن قيد آلامى.

—١٦—

ريحان اكدم بر اولك
داداندى قره ليلك
ليلك كوزك كوراواسون
ريحان ياريمه كرك

زرعت حقلاً من ريحان، فاشتهاه اللقلق الاسود، عميت عينك ايها اللقلق، الريحان يليق بحبيبى.

—١٧—

كثير آنا البسه مى كيهيم
كيهيم ده يا، نولنه كيدهيم

شمدنكرى بوغاظلى‌ده ايده‌يم
آغلا صيزلا يوره‌كه قان طولدى

أنى يا امى بثيابى ، لا لبس واذهب الى طريق الحبيب . فما نفعى بعد الآن بالحياة فابكى وانتحبى ، فقد ملئ الدم فوآدى .

—١٨—

كتسير آنا البسه‌مى قاصه‌يم
قاصه‌يم ده قازيقلره آصه‌يم
سنك ايچون دوستلرمدن كوسه‌يم
آغلا صيزلا يوره‌كه قان طولدى

أنى يا امى بثيابى لاقصرها ، وانشرها على الاوتاد . واهجر اصحابى لاجلك ، فابكى وانتحبى فقد ملئ الدم فوآدى .

*
* *

ويستعمل تركان اللاذقية عدداً كثيراً من نوع هذه الاغانى . وتوخينا ترك كثير منهم لانه مجونى .

وقصارى القول ان جميع هذه الاغانى يترنم بها تركان اللاذقية بشغف عظيم . ولهذا يمكننا ان نتخذها مقياساً لسبر اذواقهم ومراميهم . بيد انه يجب علينا ان نعلم ان هذه الاغانى مستعملة فى بلاد الاناطول بعينها ، وخاصة فى انحاء كماخ . فلا نظن انها من ايجاد هذه الاصقاع . ويقولون ان الاولى هى من اغانى اللاذقية ولكن الباقيات ليست كذلك . لاسيما رقم (٣) و (١٣) فهما تشبهان اغانى قونيه و (٥) اغانى طرابزون و (١٤) اغانى اطنه و(١٥) اغانى انقره والباقيات اشبه باغانى كماخ . ويحتمل ان تكون منتقلة من هاتيك الاصقاع . وبما اننا لم نجد فى هؤلاء القوم اثراً يجعل لهم قيمة فى الابداع بالصنعة الادبيه ، نرى الاصح فى هذه الاغانى انها انتقلت اليهم من الخارج .

وقصارى القول ان ادبيات التركمان اللاذقيين تنحصر فى هكذا نتف يسيرة ، ولا يعرفون من الكتب القصصية الا (كوراوغلى) و (زال اوغلى رستم) و (عاشق غريب) . وليس عندهم علم مااتاً ليف التركية العالية .

ولنذكر قبل اتمام هذا البحث ان العربية العجمى التى يتكلم بها جميع سكان هذه الاصقاع لا تزال تستعمل بين التركمان ايضاً . والاشعار العامية العربية ترى منهم رغبة عظيمة . وبهذا يسهل علينا ان نعرف ما يهيئه الآتى الى اللغة التركية عند هؤلاء القوم .

-٢٦-

القفول

ها قد انتهت الدقايق الباهظة التي وطنا فيها نفسنا لاقتحام العقبات ، وتكبدنا فيها ابيس الحرمان في احمى ايام شهرى تموز واغستوس . وان الشواهق التي ما زلنا نتسلقهـا في الانقاب والفيافي والقفار والسهول التي ما فتئنا نتسفها ، والميـاه الراكدة ، ثم القرى الخربة التي كنا نشاهدها في كل آن وقلوبنا تمض من الاسف والحزن ، احدثت في نفوسنا تأثراً مراً بشقائها ، حتى خشينا من ان نستأنس بها .

اذ كنا نعلم ان تكرر عين المحسوس وتواليه لا بد ان يحرم ارواحنا من الشعور به .

ولا جرم ان عدم شعورنا بحالة اولئك الضعفاء الذين ما زالت تسفعهم شمس سوريـة المحرقة ، وهم يركضون وراء ثيرانهم يتبعون خطة في الزراعة ورثوها من الادوار الآدمية ؛ اولئك التعساء الذين يتكبدون الحرمان البحت ، ويظلون مرضى ، عاجزين خائرى القوى ، لا يبغون حراكاً ، وعدم تأثرنا منها يكون في الحقيقة عبارة عن تدهورنا في عين الاهوية التي هووا فيها . ولهذا كنا نتحاشى بجميع قدرتنا من هذه النتيجة الرهيبة السوداء .

ولا ننكر ان ادمغتنا ما زالت تتصادم بهذه الحقائق المرة منذ ازمعنا الاتجاه الى بيروت من اقصى السواحل السورية الشمالية . وكنا نقول :

لا ، لا ... لا جرم ان الآتي يدخر النور الحقيقي لهذه الربوع التي هي غرة في جبين الكرة . ولا بد لوطننا ، هذه الجنة المقدسة ، ان يظفر بالعز والنجاح ، ويحظى بالسعـادة والفلاح . فالآتي يتدفق بالنور والآمال . فيجب ان نكون مطمئنين . كان الاذان المحمدي ينبعث من شواهق منارات اللاذقية ويشق عباب النسيم الذي يتضوع منه المسك في هـذا الصباح الصيفي ، نعم ذلك الهاتف بصوت قدسي ، يصيح :

— حي على الفلاح ، حي على الفلاح . . . .

ويبشر على الآفاق حياة ويقظة ، وكنا اذ ذاك نسترحم من القادر ان يفيض لوطننـا الذي اثخنته الجروح ، وصبت عليه الآلام دواءً ناجعاً ، ونودع تلك البلدة الاسلامية العجوز.

ها نحن نمر من طريق مليء بالحجارة والاشواك فوق متون البرازين الضعيفة العاجزة واخذت تقوم امامنا الخرائب البعيدة وشرعنا نشاهد حولنا العدم واليتم ، واكوام الحاجات

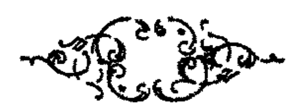
والكل هكذا . ولا جرم سيدوم هذا المنظر المحزن حتى جبله وبانياس وطرطوس وطرابلس وبيروت ايضاً .

*
* *

ان هذا السفر الساحلي المطرد الذى امتد بضعة ايام ، بعث فى انفسنا الذكرى الماضية المحزنة ، ومع هذا فقد كنا نتلهى تارة بالبدايع الطبيعية التى قامت على ساحل سورية الزاهر واخرى نحاول ان نلهى افكارنا بانواع الآمال العالية ، ونفكر بما يعدنا به الآتى من الوسائل المدنية والمعاهد الانسانية ، وبالسعادة التي سنظفر بها بوجود الادمغة الكبيرة ، والاجسام المتينة ، وبالافراد المدنية المنورة العاملة ، التى تجدد بها الحياة ؛ ونسكر برحيق هذه الآمال التى تعدنا بمستقبل زاهر .

— بيروت : ٢٣ كانون الثانى ١٣٣٤ ، ١٩١٨ —

ختام



خاتمة المجلد الثاني :

١ — المؤلفات الجديرة بالذكر

٢ — جدول الخطأ والصواب

٣ — الفهرست

المؤلفات الجديرة بالذكر [*]

— المؤلفات التركيه —

١ — دولت عثمانيه تاريخى (هامەردن مترجم) — محمد عطا
٢ — تاريخ جودت جودت پاشا
٣ — تورك تاريخى نجيب عاصم
٤ — تاريخ ابو الفاروق مراد بك
٥ — خرافاتدن حقيقته م . شمس الدين
٦ — لغات تاريخيه وجغرافيه احمد رفعت
٧ — (تورك يوردى) مجموعەسى (استانبول)

— المؤلفات العربية —

١ — تاريخ بن الياس ، طبع بولاق ١٣١١ هـ
٢ — درة الاسلاك فى دولة الاتراك لابن حبيب
٣ — برق الشام لابن شداد
٤ — المواعظ والاختبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى ، طبع بولاق ١٢٧٠ هـ
٥ — المنهل الصافى لابى المحاسن
٦ — نهاية الارب فى فنون العرب للنويرى
٧ — السلوك لمعرفة دول المملوك للمقريزى
٨ — البراق الشامى لعماد الدين
٩ — حيات صلاح الدين الايوبى لبهاء الدين
١٠ — كتاب الباكورة السليمانيه فى كشف اسرار الديانة النصيرية ، لسليمان افندى الاذنى
١١ — كتاب المجموع ، لعبدالله بن حمدان الخصيبى
١٢ — كتاب مجموع فيه الاعياد والدلالات . لابى سعيد ميمون بن القاسم الطبرانى
١٣ — كتاب الاسوس
١٤ — كتاب الصراط تأليف المفضل بن عمر

---

[*] تابع للمؤلفات التى ذكرناها فى خاتمة كتابنا « ولاية بيروت ـ القسم الجنوبى »

١٥ — كتاب الاصيفر ، تصنيف الامام ابى عبدالله محمد بن شعبة الحرانى
١٦ — مسائل ابى عبدالله بن هارون الصائغ عن شيخه ابى عبدالله الحسين بن حمدان الخصيبي
١٧ — كتاب تعليم الديانة النصيرية « د » ـ لة ، نه
١٨ — الرسالة الدامغة للفاسق الرد على النصيرى لحمزه بن على
١٩ — الرحلة الشامية ، للامير محمدعلى باشا شقيق الخديوى (المطبعةالاميرية بمصر ١٩١١)
٢٠ — مشاهير الشرق ، لجرجى زيدان
٢١ — سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان ، لنوفل نعمة الله نوفل
٢٢ — شعراء العصر ، لمحمد صبرى
٢٣ — فلسفة اللغة العربية ، لجرجى زيدان
٢٤ — كتاب الملل والنحل، لابى الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستانى (المطبعة الادبية بمصر)
٢٥ — كتاب الفصل فى الملل و لاهواء والنحل لابى محمد على بن احمد بن حزم الظاهرى ؛ المطبعة الادبيه بمصر سنة ١٣٢٠ هـ
٢٦ — كتاب الفرق بين الفرق للامام الاستاذ عبد القادر بن طاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ؛ طبع اخيراً بمطبعة المعارف بمصر
٢٧ — صناجة الطرب فى تقدمات العرب لنوفل افندى نوفل
٢٨ — فصل من اللفظ الشريف هذه مناقب المولى راشد الدين (ژورنال آزياتيك ١٨٧٧ حزيران)
٢٩ — تاريخ الصحافة العربية ، لفيكونت فيليب دى طرازى
٣٠ — مجلة الزهور (مصر)
٣١ — مجلة المشرق (بيروت)
٣٢ — مجلة الكوثر (بيروت)
٣٣ — مجلة الباحث (طرابلس شام)

— المؤلفات الفرانساوية —

« المؤلفات العمومية »

1 — Archives des missions scientifiques et littéraires, Paris, 1re série, 1850—1859, 8 vol.; 2e série, 1864—1882

2 — Revue archéologique

3 — Bulletin archéologique de l'Atheneun français

4 — Bulletin de la société de géographie de Paris

5 — Bulletin de l'institut egyptien. Alexandrie

6 — Bulletin de l'Œuvre des écoles d'Orient

7 — Année géographique, 13 vol. Paris

8 — Gazette archéologique. Paris

9 — Batissier, Histoire de l'art monumental dans l'antiquité et au moyen âge, 1 vol., 2e édition, 1860. Paris

10 — Chipier, Histoire de la formation des ordres grecs. 1 vol. Paris, 1875

11 — Maxime Du Comp. Egypte, Nubie, Palestine, Syrie, 25 liv. Paris, 1854

12 — Vigouroux. la Bible et les découvertes modernes. 4 vol. Paris, 1881

13 — I. Yanoski, Histoire de la Syrie ancienne. dans « l'Univers » 1 vol. Paris, 1848

14 — Bibliothèque Orientale d'Herbelot

« المؤلفات الخصوصية »

1 — F. de Saulcy, voyage autour de la mer morte et des terres bibliques, 2 vol. Paris, 1853

2 — Voyage en Terre Sainte, 2 vol. Paris 1872

3 — Numismatique de la Terre Sainte, 1 vol. Paris

4 — Le Temple de Jérusalem, 1 beau vol.

5 — Inscriptions sémitiques, Paris

6 — Syrie centrale, architecture civile et religieuse. du 1er au VIIe siècle. magnifique ouvrage, 2 vol. Paris

7 — Luynes (Duc de), voyage d'exploration à la mer morte, à Palmyre, à Pétra et sur la rive gauche du Jourdain, 3 vol. Paris

8 — Rey E-G, Familles d'outre-Mer et Du Cange. 1 vol. Paris, 1859

9 — Sommaire du supplément aux famille d'outre-Mer, 1 vol. Chartres, 1882

10 — Les colonies latines de la Syrie au XIIe et XIIIe siècle. 1 vol. Paris, 1882

11 — Voyage dans le Haourân et aux bords de la mer morte, avec atlas, Paris, 1860

12 — Essai géographique sur le Nord de la Syrie evec carteau $\frac{1}{50,000}$ (Bulletin de la Société de géog. 1873)

13 — Rapport sur une mission scientifique accomplie en 1864-1865 dans le Nord de la Syrie. 1 vol. Paris

14 — Essai sur la domination française en Syrie durant le moyen âge, 1 vol. Paris. 1866

15 — Etude historique et topographique de la tribu de Juda, 1 vol. Paris, 1863

16 — E. Renan, Mission de Phenicie, bel ouvrage avec planches. 1 vol. Paris

17 — W. Waddington, Inscriptions greques et latines de la Syrie, 1 vol. Paris. 1870

18 — V. Guérin, description géographique, historique et archéologique de la Palestine. accompagnée de cartes, 1re partie Judée, 3 vol. ; Samarie, 2 vol. ; Galilée, 2 vol. , Paris, 1868-1880

19 — Clermont-Gannoau-Horus et St Georges

20 — Itinéraire de Jérusalem à Bîr el-main ; (Bulletin de la société de géog. Mai 1877)

21 — La Palestine inconnue, Paris, 1876

a 22 — L. Lartet. Essai sur la géologie de la Palestine et des contrées voisinantes, 1 vol. Paris. 1869

23 — Bertou (Le Cte de). Essai sur la topographie de Tyr. Paris, 1843

24 — L. de Laborde, voyage dans l'Arabie Pétrée. 1 vol. Paris.

25 — Alph. Courtot. La Palestine sous les empereurs grecs, (326-632), thèse, 1 vol. Grenoble. 1869.

26 — G. Schlumberger, Les principautés franques du Levant. d'après les plus récentes découvertes de la numismatique. 1 vol. Paris. 1877

27 — Numismatique de l'Orient latin. 1 vol. Paris, 1878

28 — Lockroy. Route entre Tripoli et Hour noul, dans le Tour du Monde, 1862

29 — H. de villefosse, Notice des monuments provenant de la Palestine et conservés au Musée du Lauvre, Paris, 1876

30 — Michaud et Poujoulat, correspondance d'Orient. 7 vol. Paris. 1830

31 — G. Pierrotti, La Palestine actuelle dans ses rapports avec la Palestine ancienne. 1 vol. Paris, 1865

32 — Cadalvene, Campagne d'Ibrahim-Pacha en Syrie. Paris. 1841

33 — Moritz Sobernheim, Materiaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum. Syrie du Nord, Le Caire, 1909

34 — Sacy (Le Bon Sylvestre de). Exposé de la religion des Druses 2 vol, Paris, 1837

35 — Idem, Catéchisme des Nasairis, Paris

36 — Russeau. Les Vahabis, les Nosaîris et les Ismaelis, Marseille 1817

37 — R. Dusseaud, Histoire et religion des Nosairis. Paris, 1899

38 — Idem, Influence de la réligion nosairi sur la doctrine de Rachid-al-Dîne Siman. Cammunication à la Société Asiatique, mai 1900

39 — Idem, Voyage en Syrie (Revue Archéologique. 1897)

40 — Léon Cahun, Les Ansariés, dans le Tour du monde, 1879

41 — Le P. Lammens, Les Nosairis (Etudese religieuses. 1899

42 — Filix Dupon, Mémoire sur les mœurs et les cérémonies religieuses des Nossairiés (Journal asiatique, 1er ser. v

43 — Cl. Huart, La poésie religieuse des Nossairis

44 — J. Hammer, Tableau généalogique des 73 sects de l'Islam (Journal Asiatique, 1e ser. t, vi)

45 — Baron Rey, Exploration de la montagne des Ansariés en Syrie (Bulletin de la Société de géog, 1865).

46 — Stanislas Cuyard, Un Grand maître des Assassins aux temps de Saladin, Paris, 1877

47 — P. du Damas. voyage en Orient

48 — Quatremère, Mines de l'Orient, Paris

49 — Reinaud. Extraits des Historiens Arabes, Paris 1829

50 — Edouard Saadé, l'Agriculture à Lattaquié, (thèse agricole soutenue en 1905 à l'université de Beauvais)

51 — Emil Catzéflis, Essai sur l'agriculture du Liban et du Littoral; Beauvais

52 — Les ruines de Palmyre ou Tedmor au désert, 2 vol. Texte et planches, Paris, 1829

53 — Rouvier, les ères de Tripolis, Paris 1898

54 — J, de Goeje, Mémoire sur les Caramathes du Bahrain et les Fatimides

55 — Alfred Fouillée, Histoire de la Philosophie

56 — M, c, Defrémény, Nouvelle recherches sur les Ismaéliens ou Batiniens de Syrie

57 — M. Quatremère, Notice Historique sur les Ismaéliens

58 — M, R, Mémoire sur les trois plus fameuses sectes du Musulmanîsme; les Wahabis, les Nosairis, et les Ismaélis

59 — S. Guyard, Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis, dans la (XXII)me partie de Motions et Extraits; (Paris 1855)

60 — Defrémény, Essai sur l'Histoire des Ismaéliens ou Batiniens de la Perse (Paris 1867)

61 — Pavet de Courteille, Dictionnaire Turk-Oriental; Paris 1870

— المؤلفات الانكليزية —

1 — Ed. Robinson, Biblical rescarches, Londres,, 1856
2 — Physical geography of the Holy Land, Londres, 1865
3 — W. Linch, Narrative of the United states expedition to river Jordan and the Dead Sea, 1 vol. Londres, 1852
4 — B. Tristram, The Land of Moab, travels and discoveries on the east side of the Dead Sea and the Jordan, 1 vol. Londres, 1874
5 — The Land of Israel, Journal of travels in Palestine, 1 vol. Londres, 1876
6 — Natural history of the Bible, Londres 1873
7 — A. Stanley, Sinai and Palestine, in connection with their history, 1 vol. Londres, 1877
8 — Vilon et Warren, The Recovery of Jerusalem, a narrative of exploration and discovery in the City and the Holy land, 1 vol. Londres 1870
9 — Ch. Warren, Undergroud Jerusalem, vith a narrative of an expedition through the Gordan Valley and a visit to the Samaritans, 1 vol. Londres, 1876
10 — C. Conder, Tent work in Palestine, 2 vol. Londres, 1879
11 — H. Palmer, The desert of the exodus, 2 vol. Cambridge, 1871
12 — J.-L. Porter, Five years, in Damascus, with travels and researches in Palmyra, Lebanon, etc. Londres, 1870
13 — The Giant Cities of Bashan and Syria's holy places, 1 vol. Londres, 1870
14 — W. Besant et H. Palmer, Jerusalem, the City of Herod and Saladin, 1 vol. Londres, 1871
15 — The history of Jerusalem, Londres
16 — G. williams, The Holy City, historical, topographical and antiquarian, notices of Jerusalem, 2 vol. Londres, 1849
17 — Barclay, The City of the Great King, 1 vol. Londres, 1857
18 — Mac Gregor. The Rob. Roy on the Jordan, 1 vol. Londres, 1876
19 — C. Schick, Recent excavations at Jerusalem

المؤلفات الجديدة بالذكر

20 — Rev. S. Lyde, The Ansyreeh and Ismaêleeh Londres 1853

21 — Smith, Dictionnary of Greek and Roman Geography, Londres, 1854

22 — Burckhardt, Travels in Syria and the holy Land 1 vol. Londres, 1822

— المؤلفات الاورباوية —

1 — Dr Frass, Drei monate am Libanon, Stuttgard. 1876

2 — Geologische Beobachtungen am Nil, auf den Sinaï-Halbins und in Syrien, Stuttgard, 1867

3 — G. wetzstein, Reisebericht über Haouran und die Trachonen, 1 vol. Berlin, 1860

4 — Kotschy ; Reise in den Cilischen Taurus über Tarsus, Gotha, 1858

5 — Van de Velde, Reise durch Syrien und Palestina, in den Jahren 1851 und 1852, 2 vol. Leipzig, 1855

6 — Georg. Ebers, Durch Gosen zuna Sinaï, 1 vol. Leipzig, 1872

7 — Brugch, wanderung nach den Turkis-Minen und der sinai Halbinsel, 1 vol. Leipzig, 1868

8 — A. von Kremer, Die Heindengemeinden der Nosairyer im nordlichen Syrien und in Cilicien, Das aus Land, 1872

9 — M. Hartmann, Das Liwa el-Ladkidje und die Nahije und die Nahye Urdu, das Z.D.P.V., t. XIV

10 — Sachau, Reise in Syrien und Mesopotamien, Leipzig, 1883

11 — Chwolsohn, Die Ssabier und der Ssabismus, St Pétershourg, 1856

12 — Brockelmann, geschichte der arabischen Litterature, weimar 1898

13 — Roehricht, Geschichte des Koenigreichs Jerusalem

14 — Zeitschrift fur Egyptische sprache und alterthamskunde, Leipzig

15 — Zeitschrifs d. deutsche morgenlandische Gesellschaft, Leipzig

جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	١١	خصائص الشعوب	طبقات الارض
٧	٢٧	تذب	تعزب
٨	٩	واحرؤوا	واحرزوا
٨	١٩	golgatha	golgotha
٨	٢٢	ن	ان
١٣	٢٢	الجبل موطناً	الجبل كان موطناً
١٤	٤	فحميت	فحمية
١٧	٤	الصيف ٤٠	الصيف الى ٤٠
٢٥	٢٤	وتوكتان	وتركتان
٢٦	٢٣	هەرووروت	هەرودوت
٣٣	٢٦	يحترمون	يحترمن
٣٦	٢	لقوم	القوم
٣٦	١٢	وولما	وولدا
٣٧	١٣	خوارز	خوارزم
٣٨	١٢	هم س	هم
٤٢	١٨	عن عشرات	على عشرات
٤٦	٢٥	سلسنا	سامنا
٥٥	١٧	الترد	التردد
٥٦	١٥	مؤسيسهم	مؤسسيها
٦١	٢٥	دانتشارهم	وانتشارهم
٦٣	٣٠	١٨٦٤	٨٦٤
٦٦	٧	انجاب	انجاب
٦٤	١٨	دوج	دوح
٧٢	٢٤	خلفها	خلقها
٧٢	٢٨	secte	seatea

جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٧٤	٢	لاهراق	اهراق
٧٢	١	واقصمت	واقمت
٧٦	٣	نموزج	نموذج
٧٦	٣	والولده ن	والولدان
٨٠	١٩	« ابن الارتق »	« بنى الارتق »
٨٠	٢٩	بن طغتكين	بنى طغتكين
٨١	٢٦	ان	على ان
٩٨	٦	اللاافلاطونية	الافلاطونية الحديثة
٩٨	٢٤	ان	بان
٩٩	٨	اللاافلاطوبية	الافلاطونية الحديثة
٩٩	١٢	اللاافلاطونيون	الافلاطونيون الحديثون
٩٩	٢٠	اللاافلاطونية	الافلاطونية الحديثة
١٠٠	١٨	اللاافلاطونية	الافلاطونية الحديثة
١٠٥	٢٤	*gobineaus*	*gobineaux*
١٠٧	٢٦	التاريح	التاريخ
١٠٩	٤	حنداً	من الجنود
١٠٩	١٩	والاسم	والاسم هو
١١٦	١٥	انتقل	تنتقل
١٣٤	١٣	السياسة	السياسية
١٣٦	٢٣	وطنى الجبوب	وطنى المحبوب
١٣٧	٢٦	متصلاً	متواصلاً
١٣٨	٥	موصلة فى لوائى	موصولة بلوائى
١٣٨	٦	يتبين	ويتبين
١٤٠	٨	وعليه	والا
١٤٠	٢٢	لا تنسى	لا تنس
١٤١	١٢	الرهنية	الرهينة
١٤٩	١٤	*Elicsaliers*	*Elievaliers*
١٤٩	٢٨	*Ordse*	*Ordre*

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٥١	١٦	على الظن	فى الظن
١٧٧	٤	ومن اليمين	وعن اليمين
١٧٧	٢٥	كانوا يأتون	كن يأتين
١٨١	٢٠	يمينهم	يمينها
١٨١	٢٠	اوقد	وقد
١٨١	٢١	لزيتون	الزيتون
١٨٢	٤	التى	الذى
١٨٣	٤	نتعالى	فهى تتعالى
١٨٤	١٦	ثلثان	ثلثا
١٨٥	١١	لم تقرب	لم تعزب
١٨٥	٢٠	النموزجية	النموذجية
١٨٩	٨	ثلاثة	ثلاث
١٩٢	١٠	تولدات	لدات
١٩٧	٥	من الاراضى	عن الاراضى
٢٠٠	٣	عن	من
٢٠٠	١٧	وعرضهم	وعرضها
٢٠٢	٦	لا يزال	لا تزال
٢٠٢	٢١	نموزج	نموذج
٢٠٢	٢٩	عابدى	عابدو
٢٠٦	٢٢	عددهن	عددها
٢٠٦	١٢	جامع	جامعة
٢٠٨	٧	الذق	الذوق
٢٠٩	١١	تمدد	تمداد
٢٠٩	٣٠	فنهم	فنها
٢١٠	٢٤	لى	الى
٢١١	٤	عددهم	عددها
٢٢٩	١٢	على	الى
٢٣١	١٨	عنه	عنها

جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٣٦	٩	الرحى	الروحى
٢٤٠	١٥	الطبعية	الطبيعية
٢٤٢	١٧	لقده	لقدوه
٢٤٦	١٠	هؤلاء	هذه
٢٤٨	٣	الكلامات	الكلمات
٢٤٨	١٦	القدرة	المقدرة
٢٤٩	٤	وحلولهم	وحلولها
٢٥١	٩	تفثت	نفث
٢٥١	١٠	تسائها	نسائها
٢٥١	١١	اليلغون	الياقوت
٢٥١	٢٠	ثلاثة	وثلاثة
٢٥٥	٩	نال على	نال
٢٥٦	٢١	وهم	وهى
٢٥٧	١	الغة	الغاية
٢٦٢	٣	ثلاثة	ثلاث
٢٦٣	٤	ما يمكنا	ما يمكنها
٢٦٣	٢٦	وتقطمون	وتقطعوا
٢٦٤	٢٨	Reveu	Revve
٢٧٢	٨	استرده	استردوه
٢٧٣	١	Cuallth	Coallth
٢٧٥	٣	تلك	ذلك
٢٧٥	١٠	ولا ارى	ولا ادرى
٢٧٥	٢٧	خان الايده	خان العيده
٢٧٧	١٧	الكلس	الكلسى
٢٧٧	١٧	معظهما	معظمها
٢٧٩	١٣	على الانفراء	على الانفراد
٢٧٩	١٤	حكاردى	حكارى
٢٨٠	٢٣	رباسم	باسم

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٤	١٥	بنسبةٌ	بنسبة
٢٨٤	٢٧	فهم	فيهم
٢٨٥	١	الطبية	الطبيعية
٢٨٦	١٣	الاولى	الاول
٢٨٨	٩	الطبايع	الطباع
٢٩٣	١١	جاؤا	جائت
٢٩٣	١٢	ليكونوا	لتكون
٢٩٤	٢	يتربض	يتربصن
٢٩٦	١	التي	الذين
٢٩٨	٩	نستطع	نطلع
٣٠٠	٧	السمران	العمران
٣٠١	٢٤	الى	فى
٣٠٢	٢٤	*de*	*des*
٣٠٣	١٤	وحصن	ولها حصن
٣٠٤	١٢	الستاء	الشتاء
٣٠٤	١٤	جهتها	جهتيها
٣٠٤	١٩	لها	لهما
٣٠٦	٢٥	لهذا	الى هذا
٣٠٩	١٥	فلى	فعلى
٣١٠	٢٨	هم	هى
٣١٢	٨	الادرار	الادوار
٣١٣	٢٠	يجب	بحب
٣١٨	١٦	لتخذير	لتحذير
٣١٨	١٩	العربية	هى العربية
٣١٨	٢٥	الحصنين	الحصنيين
٣٣٤	٢٣	يتسلسلن	تتناسل
٣٣٨	١	به	بها
٣٣٨	١٦	است	الست

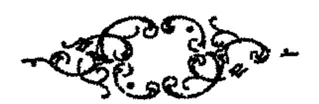
جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٤٢	٨	عندى	عند
٣٤٣	٩	نهم	دينهم
٣٤٨	٨	التور	المنور
٣٦٢	١	فقولة	فقوله
٣٦٣	١٥	متران	مطران
٣٧١	٢٣	بهذا	بهذه
٣٧٢	١	العربى	الغربى
٣٧٢	٦	الايام	الابهام
٣٧٤	٢٥	لحله	حمله
٣٨٤	٢٦	هذا	هذه
٣٨٩	١	عبارت	عبارة
٣٩١	١٣	خوالى	خوابى
٣٩٥	٤	عمال	اعمال
٣٩٦	٢٠	مرجئ	نرجئ
٣٩٧	٢١	١٣٢٢	١٣١٢
٤٠٦	٨	ودعيتهم ن	وادعيتهم ان
٤٠٦	١٦	يهتم ن	يهتمون
٤٠٦	١٨	ء لوله	بعدلوله
٤٠٦	٢١	من اهم	اهم
٤٠٦	٢٣	ل	حل
٤٠٧	١٥	•	بتلك الضلالة القديمة ام لا ؟
٤٠٧	١٨	لة	ليلة
٤١٧	٩	السرق	الشرق
٤١٧	١٤	والجن ب	والجنوب
٤١٨	٧	«٢٠٠»	«٢٠٠» نسمة ويروى
٤١٨	٨	والزر	والزراعة
٤١٩	٤	المابية	الماشية
٤١٩	٤	ن	من

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٤١٩	١٦	افرد	افراد
٤٢٠	١	حبله	جبله
٤٢٢	٩	اوعز	اعز
٤٢٣	٧	يجعلون	يجعلوا
٤٢٤	٢٢	الطيبعة	الطبيعية
٤٣٤	١٧	القلة	القلمة
٤٣٤	١٨	دعا ة	دعامة
٤٣٥	٣	ال واخ	السواح
٤٣٥	١٠	القضاء	الفضاء
٤٣٥	١٣	القضاء	الفضاء
٤٣٥	١٥	وطف	وطيف
٤٣٦	٢٠	تكاد تكون	تكاد ان تكون
٤٣٧	٥	بانيا	بابنا
٤٤١	٢٩	حتى بالاقوام	حتى ولا بالاقوام
٤٤٣	١	ع	اسماع
٤٤٣	٢	التمردين	المتمردين
٤٤٣	٥	التممدنة	المتمدنة
٤٤٣	٨	تسمة	تسعٌ
٤٤٤	٢٤	للدات	اللدات
٤٤٥	٨	نبتهج	لنبتهج
٤٤٦	٢	واخضر	واخضره
٤٤٦	٣	ممدد	ممرد
٤٤٦	١٠	القضاء	الفضاء
٤٥٤	٦	الاطلس	الاطلسى
٤٥٥	١٦	جامع	الجامع
٤٥٥	٢٤	ونوجد	وتوجد
٤٥٨	٢٤	على	عن
٤٦٥	٢٨	ما	عما

جدول الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤٦٦	١٧	تقول	تقول
٤٦٧	١٩	٥٣٫٥	٢٫٥
٤٦٧	٢٢	(١٢٠٠)	(١٢٠٠) طن
٤٦٩	٣	وساط	اوساط
٤٦٩	٤	فرادها	افرادها
٤٧١	٢٥	تكون	يكون
٤٧٣	٩	ويسمونه	ويسمونها
٤٧٤	٢٨	خلقه	خلقته
٤٨٧	٢٤	البرازين	البراذين



الفهرست

الفهرس

المباحث المحلية

-١- ربوع لبنان

-٢- لواء طرابلس الشام

-٣- مركز قضاء طرابلس الشام :

-٤- طرابلس الشام

ـ ٧ ـ في جبال عكار

ـ ٨ ـ حصن الاكراد

ـ ٩ ـ بين تلكلخ وبرمانا

ـ ١٠ ـ صافيتا

ـ ١١ ـ الادبيات النصيرية

ـ ١٢ ـ من برمانه الى طرطوس

ـ ١٣ ـ طرطوس

١٥ ـ لواء اللاذقيه

ـ ١٦ ـ قضاء مرقب .

الخاتمة

الرسوم والخرائط